

جامعة أم القري
مكتبة المكرمة
كلية اللغة العربية
فرع الأرب

العدد

١٥٨



الشعر العربي

في رثاء الدول والامصار
حتى نهاية سقوط الاندلس

بت مقدم لنيل درجة الدكتوراة في ارب

إعداد
شعر جرحى وللقاوى

اتراف الالهة الدكتور

مسند محمد بن جورة



٩٣٤

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

٩



شكرو وتقدير

أحمدك اللهم وأشكرك على جزيل انعامك وعظيم فضلك . أنت
الموفق لكل خير ، والميسر لكل عسير . وأصلى وأسلم على نبيك
محمد وعلى آله وصحبه ومعد :

فعملاً بالتوجيه النبوي الكريم القائل : (لا يشكر الله من لا يشكر
(١)
الناس) فأنى أقدم خالص شكرى وعظيم تقديرى للقائمين على
جامعة أم القرى الفتيه ، الذين لا يدخرون وسعاً فى العمل على
الارتقاء بالجامعة وتطويعها من مختلف الجوانب .

واعترافاً بالفضل لأهله ، ووفاءً بالجميل لمن أسداه أزجس
عظيم الشكر لأساتذتى الذين أفدت منهم ، وأخص استاذى الدكتور /
حسن محمد باجوده رئيس قسم الدراسات العليا المرمية بجامعة
أم القرى ، والمشرف على هذه الرسالة . الذى واكب مسيرة هذا
البحث موجهها ومرشداً ، ومنحني من وقته الثمين وعظمه الفزير
ما أعاننى على انجاز هذا البحث . فجزاه الله خير الجزاء . وسارك
فيه ونفع بعلمه .

كما أشكر جميع من بذل لى المساعدة العلمية أو أسدى لى نصيحة
خالصة أو وجه نقداً بنياً . ونسأل الله أن يوفق الجميع لما فيه
الخير والرشاد .

(١) الحديث فى مسند أحمد : ٢٤٦ / ٣ ، سنن أبى داود : ٢٥٥ / ٢ .

مفتاح الرموز

- ق : قسم
ع : عدد
مج : مجلد
ج : جزء
د.ت : دون تاريخ طبع
ط : مكان الطبع

المقدمة

الحمد لله الذى يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، كتب على المخلوقات الفناء واستأثر بالبقاء . أحمد له سبحانه وأشكره على انعامه وتوفيقه ، وأصلى وأسلم على سيدنا محمد خاتم النبيين ، أفصح من نطق ببيان ، وأعظم من جاهد لاحقاق الحق وقمع الطغيان ، وعلى آله وصحبه الذين هجروا الأوطان - على حبها - طمعا فى الجنان ومغفرة الرحمن .

أما بعد ، فان الشعر الذى يستحق الخلود والعناية ، يقع الاعتزاز به فى كل أوان ، هو الذى يمثل وجدان الأمة فى التعبير عن أحاسيسها وعواطفها وأفكارها فى خضم ملاحم البقاء وهو - أيضا - المرأة الدقيقة الصادقة التى تعكس أفوار النفس البشرية وما فيها من صبر وانفعالات . أما الشعر التائه الذى لا يعرف له هدف ، ولا يدفعه الى الوجود سوى حب الظهور فسرعان ما يسقط فى زاوية الإهمال والموت ، ذلك لأنه مجرّد من الفكرة التى هى شريان حياته الرئيس ، وأى جناية على الأدب أكبر من سلبه رسالته بفصله عن غمار الحياة ، واتخاذ زينة وترفا وتحفا مزخرفة ان بعض أبناء العربية من الأدباء والنقاد المحدثين استمتهوهم النظرية التى ابتدئها نقاد الغرب ، والتى تترجم بعبارته " الفن للفن " أى أن الشعر هدف فى ذاته ، يقول بودلير : " ليس للشعر غاية وراء نفسه ، فان اتجه الشاعر نحو غاية خلقية فقد أنقص من قوته الشعرية . " ويقول برادلى : " فى الشعر الخالص تنمو القصيدة بشكلها ، ومحتواها معا بين يدي صاحبها وتم خلقا وابداعا ، فاذا سألت مامحناها ؟ قيل لك انها تعنى نفسها " .

(١) احسان عباس ، فن الشعر : ١٧٢ .

(٢) المرجع نفسه : ١٧٥ .

ومن هذا يتضح أن قيمة الفن عند هؤلاء تتحصر في قدرته على إثارة إعجابنا بواسطة وسائله التعبيرية والأسلمية بقطاع النظر عن الأهداف والغايات .
وإذا كان هذا الفريق من شعراء الحرب وأدبائه قد لجأوا إلى هذا رداً على تنكر جمهورهم لهم ، وضياح أصواتهم وسط ضجيج الحضارة فأى مبرر لوجود هذه الفكرة في الأدب العربي الذي لم يواجه رجاله شيئاً مما واجهه أضرابهم ففى الحرب ؟ : لا شك أنه التقليد غير المتروى الناتج عن الإعجاب بالجديد والفريب والا فإى قيمة للأدب فى ذاته ، ان قيمته الحقيقية تكمن فى مدى قدرته على تفسير الحياة والسمو بها عن طريق مزج القيمة الجمالية فيه بالقيم الأخرى السياسية والاجتماعية والخلقية ، واخراجها فى ثوب واحد .

ان الالتزام فى الشعر العربى قديم قدم الفن نفسه ، والنظر الى مختلف عصور الأدب يتضح ذلك جلياً ، فشعراء القبائل فى الجاهلية منذ أن أدركوا تميزهم على الباقين بسلاح الشعر شعروا بتبعية النضال الفنى الذى يقع عليهم تجاه قضايا الجماعة ، فوقفوا أشعارهم على الفخر بأحساب تلك القبائل وشجاعتها ، وعلى ذكر حرمها الطاهرة ، ثم مدح المقاتلين بصفات الحمية والبأس ورثاء من قتل منهم ، وظلوا ملتزمين بهذا النهج مدى حياتهم .
وربما التزم الشاعر بمسايرة وضع سائد ، وتأيين نظام مقرر على الناس الذين يعيش بينهم كأن يعجب بنظام سياسى أو اجتماعى ويرى فيه تحقيق ما تصبو إليه أمته ، فيصرف فنه الشعري الى بيان ذلك والدفاع عنه طائفاً مدفوعاً بمحورسه على تحسيس ما يدفع بمجتمعه الى درجات الرقى . وآفة الالتزام فى الشعر أن يتحول الى الزام ، بمعنى أن يفرض على الشاعر فرضاً وتحت رقابة شديدة ممارسة فنه من خلال مبدأ محين أو مذهب يختار له ، والشعر الناتج فى هذه الحالة - بلا شك - زيف لا يلبث أن يضمحل حين تخف الضرورات التى كانت سبب فرضه .

ولعل اللبس الذي يقع من عدم التفريق بين الالتزام والالزام هو السبب فسوف نفور الكثيرين من الأدب الملتزم حيث ينظرون اليه على أنه مقيد ضمن دائرة ضيقة من المعاني والأفكار وما هو كذلك .

وايماننا متى بضرورة الالتزام في الشعر ، فقد جعلت موضوع رسالتي (١) للدكتوراه في جانب من جوانب هذا الشعر هو رثاء الدول والأوصار . وقد دفعني الى الكتابة في هذا الموضوع سببان هما :-

أولاً : عزوف الباحثين في الأدب العربي عن التعرف لهذا الفن الأصيل بالدراسة أو التحليل أو القيام بجمع نصوصه الشعرية المتناثرة فسوف يطول أسفار التأنق وكتب الرحلات ، ومعاجم البلدان ولست أدري - سبب هذا المزوف ، أهو النسيان ؟ أم الزهد على اعتبار أن هذا الشعر يمثل الجانب السلبي في حياة الأمة عبر القرون ؟ : لعل السبب الأخير هو الأرجح ، لأننا نلاحظ أن مؤرخي الأدب - وخاصة أرب الأندلس - عندما يؤرخون لمصور الأدب هناك يوصلون الى هذا الفن الجديد الذي أنكته المحن والنكبات المتوالية ، يقفون عنده وقفة قصيرة مشيرين الى قصيدة أبي البقاء الرندي ، وهي قصائد المعتمد بن عباد ثم ينصرفون بسرعة ليسهبوا في وصف شعر الطبيعة والسرود والأزهار ثم شعر الخمريات والفراميات ، ثم الموشحات ومجالس الفناء . حتى انطبعت هذه الصورة المشوهة بالميوعة عن طبيعة الأدب الأندلسي

(١) المصير : كل كورة تقام فيها الحدود ويقسم فيها الفئ والمصدقات ممن غير مؤامرة للخليفة .

والمصرا كان تطلق على الكوفة والبصرة . / انظر اللسان مادة (مصرا) .

والحياة الأندلسية في أذهان الكثير من الدارسين والباحثين ناهيك
عن الجمهور العام . وقد أردت بتناول هذا الموضوع سدّ تلك الثغرة
بإبراز جانب مشرق من جوانب الشعر العربي تظهر فيه الصورة الصادقة
الدافقة للواقع الذي كان يسود المجتمعات بعيدا عن البهجة والزخرف
أما القول بسلبية هذا الشعر ، فيمكن أن يطلق على القصائد التي
تقتصر على الهكاك والندب ، وتشجيع جوا من اليأس والتشاؤم الانهزامي
في نفوس الناس ، والتي يكون شعراؤها بعيدين عن الانفعال الحقيقي
والتأثر الوجداني ، وهذا اللون من القصائد قليل جدا في هذا البحث .
أما غالبية القصائد ففيها احساس الصادق الناتج عن تجربة ومعاناة
فكثير من الشعراء الذين رثوا مدنهم عندما سقطت كانوا من المواكبين
لحركة الجهاد والمشاركين فيها بشعرهم ، فألهبوا الحماس وتغنّوا
بالبطولات ، ثم رفعوا أصواتهم مستغيثين بمن حولهم من المسلمين
في ساعات الشدة والحصار ، ثم جاء الرثاء من تلك النفوس النائرة فسو
نهاية المطاف .

ثانيا : ان الناظر في الوضع الذي تعيشه الأمة الإسلامية في الوقت الحاضر
يرى أن هذا البحث قد جاء في أوانه ، فالضعف الشديد والفرقة
القاتلة ، والتطاحن المدمر والتفاض عن أصوات الحق المخلصة التي
تنبعث من هنا وهناك هذه الأمور التي تسود دول العالم
الإسلامي الآن تذكرنا بالفترات التاريخية المشابهة لها التي مرّت بنا
في هذا البحث ، ونتج عنها أوغم المواقب وخير مثال على ذلك عصر
ملوك الطوائف في الأندلس ، حيث انقسمت البلاد إلى ممالك كثيرة
فكل مدينة فيها أمير المؤمنين ومنبر ، وسرعان ما تلبدت سماء تلك الممالك

بخيوم المنافسة والمداوة نتيجة للأطماع والرغبة في السيطرة فاستمرت الحرب بينها ، فوجد بذلك العدو النصراني فرصته فأخذ يبتلعها الواحدة تلو الأخرى ، فكان ذلك العصر المشؤوم أول خطوة في سلم زهاب الأندلس كلها . ونحن هنا لا نريد أن نحفر قبورا لآمال الأمة التي تسعى جاهدة في تحقيقها ، ولكن لعل الاطلاع على شعر الرثاء والنكبات التي قيل فيها يعتبر من أبلغ أساليب التنبيه ، ولفت النظر الى الأوضاع المتردية التي قد تؤدي الى ما أدت اليه مثيلاتها في السابق فالتاريخ يحيد نفسه .

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون في ثلاثة أبواب مسبقة بتمهيد ومختومة بخاتمة .

مهدت لهذا البحث بذكر الأوطان ومكانتها في نفوس الشعراء باعتبارهم أقوى الناس شعورا بالصلة التي تربطهم بها ، وأكثرهم احساسا بالوحشة والشوق عند مفارقتها ، حتى أصبح الحنين الى الأوطان غرضا شعريا مستقلا في أدبنا العربي ، ومنه حين الرثاء صلة وثيقة ، فكلاهما يصدر عن تجربة صادقة وعاطفة متأججة اضافة الى التشابه في المعجم الشعري الى حد كبير .

الباب الأول : رثاء الدول والأصاغر في المشرق .

ويتألف هذا الباب من أربعة فصول تسير وفق تسلسل زمني : تحدثت في الفصل الأول عن رثاء الممالك في الجاهلية ، وأوردت عدة قصائد ومقطوعات في رثاء القصور والحصون الخيبرية والكسرية التي كان الشعراء آنذاك ينظرون اليها بعين العظمة والالجال بالاضافة الى طائفة من الشعر الداعي الى أخذ الحبرة من تقلب الدنيا بأهلها .

أما الفصل الثانى فكان فى رثاء الدولة الأموية ، وقد ذكرت بايجاز ملبسات سقوطها على يد العباسيين ، ثم وقفت عند القصائد التى قيلت فى رثائها ومن أهمها سينيتان لأبى العباس الأعشى وأبى عدى العبللى يمكن أن نعتبرهما نواة للقصائد السينية الرثائية التى جاءت بعدها حيث تجلت فيهما قوة العاطفة التى غذاها عب هذين الشاعرين لتلك الدولة وولاؤهما لها حتى بعد زوالها وجعلت الفصل الثالث لرثاء الدول والأصاغر حتى عصر السلاجقة . وقد اشتمل على ثلاثة مباحث الأول : فى رثاء المدن التى دمرت بسبب الثورات والفتن الداخلية فى الدولة العباسية .

وأهم تلك الفتن ، فتنة الأمين والمأمون ، وصراعهما على الحكم ، والسبب نتج عنها تدمير بغداد وازهاق آلاف الأرواح البريئة . هال الشمع هذا الأمر فراحوا يفرغون انفعالاتهم شعرا باكيا حينا ، وغنفا ساخطا حينا آخر ويذكر فى هذا المجال أبو يعقوب الحزنى ورأيت طهيلة التى تنفخ بالصدق ، وتكشف عن معاناة صاحبها الذى كان يضيغ آلامه بعيدا عن بلاطات الحكام . ومن الثورات التى حصلت فى هذا العهد - أيضا - ثورة الزنج ، نسبة للزنج الذين قاموا بها وهى ثورة عارمة استمرت سنين طويلة ونتج عنها دمار كثير من المناطق ونهبها ، وعلى رأس تلك المناطق مدينتى البصرة التى اجتاحتها اجتياحا صاعقا ودورها تدميرا شنيعا وحرقوا جامعها بمن فيه ، وقد بكأها ابن الرومى بلوعة صادقة تحسبها من خلال التكرار المتفجع الذى ظل يعيش فى دوايته طيلة القصيدة ، كما رثاها شاعر آخر من أهلها يصرف بالسدوسى بقصيدة جيدة يغلفها الحزن والألم النفسى لفداحة الخطب وتشرد الناس .

أما المبحث الثاني فقد خصصته لرشاء الدولة الطولونية والفاطمية ، وقد أوضحت بنهذه تاريخية موجزة عن كيفية قيام كل منهما ، ثم عرضت لضعفهما وسحقهما نهائيا ، وقد كان بلاط ابن طولون في مصر مرتعا خصبا للشعراء . ولذلك نجد في رثاء دولته وخاصة قصره المسمى بالميدان شعرا كثيرا ، وما هذا الذي وصلنا منه الا جزء يسير مما ذهب . أما الدولة الفاطمية فمراثيها قليلة بالنظر الى ضخامة سلطانها وربما يعود ذلك لطبيعتها المذهبية ، فلا نجد في رثائها الا قصيدة شاعرها المخلص عمارة اليمنى الذي ظل يحمل لارجماع سلطان الفاطميين عن طريق التحريض والمؤمرات حتى ظفربه وأعدم .

وجعلت المبحث الثالث لرشاء بيت المقدس عندما سقط بيد الصليبيين في نهاية القرن الخامس الهجري . وقد كان لسقوطه رنة حزن عميقة في أرجاء العالم الاسلامي نظرا لقدسيته ، ولشاعة الجرائم التي ارتكبتها الصليبيون فيه ، فقد أفرغوا نار حقدهم على أهله فقتلوا منهم ما يفوق الحصر ، كما قاسموا بتدنيس المسجد الأقصى بكل وسيلة ، تماما كما يفعل اليهود في هذه الأيام ووقف العالم الاسلامي آنذاك مكتوف الأيدي مشغولا بنزاعاته ونفاساته كما يقف اليوم دون انصاف لنداء الجهاد والكرامة الذي يطلقه المخلصون .

وقد تجاهت أصداء أصوات الشعراء في مختلف البقاع ، فجاء صوت أبى المظفر الأبهري من بغداد يصيح داعيا للجهاد ، وناعيا على الأممية تفريطها في هذا المعلم الاسلامي ، ومصورا غضب الرسول - صلى الله عليه وسلم - لا تنبأك مسراه . ثم جاءت قصائد مجهولة القائل من هنا وهناك ترثي حال المستضعفين الذين عذبوا وشرذوا وتدعوا الى افتكاك أسرهم .

الفصل الرابع : تناولت فيه تدمير بغداد والشام على يد التتار وشراسة
الشعراء لهما ، وقد أوضحت سبب زحفهم الماحقة وتدميرهم الدولة
الخوارزمية ، ثم زحفهم على بغداد وسحقها سحقاً وحشياً جعلها أطلالاً
وقد كثر الباكون على هذه المدينة نظراً لكونها مقر الخلافة وضار العلم
والأدب ولكن الملاحظ على تلك القصائد اسرافها في الخلعة البلاغية تشبهاً
مع أسلوب الحمصر .

ثم عرضت لتوجيههم إلى الشام وتدميرهم بعض مدنها ثم تقدم بهم إلى مصر
حيث رجعوا خائبين بعد هزيمتهم في عين جالوت على يد المماليك . ولكنهم
عاودوا الكرة ثانية على الشام في أوائل القرن التاسع الهجري فدمروا مدنها
وأهلكوا الحرث والنسل ، وسلطوا النصارى على المسلمين فساموهم سوء العذاب
وقد أنكت هذه الفجائع جمرة الشعراء فانطلق يصور واقع الأمة المؤلم ويشترك
في تخليد المعالم والمقدسات التي دمرها الأعداء .

الباب الثاني : رثاء الدول والأصناف في الأندلس والغرب ،

وتحت هذا الباب تندرج أربعة فصول مسبقة بتوطئة أوضحت فيها أن الأندلس
بحكم موقعها كانت ثغراً حربياً مجاوراً للعدو النصارى المترفين ، فهي بحاجة
إلى قوة واستعداد دائم للدفاع والهجوم وقد حدث هذا فعلاً في عصورها
الأولى أيام عهد الرحمن الداخل ومن تبعه حتى غدت الأندلس من القسوة
بمكان جعل كل الدول التي حولها تسعى لكسب رضاها ، ثم يحل القسور
الخامس الهجري ويبدأ معه عصر طووك البطوائف وتدخل الأندلس في طور جديد
من الضعف والتفكك ، وتبدأ نذر السقوط تلوح في الأفق .

الفصل الأول : رثاء المدن : وأول المدن المدمرة في آخر حكم الدولة
العمورية هي مدينة قرطبة حيث نشبت فتنة بين بقايا الأميين وأبناء الأسرة

الحامرية واستعان الطرفان بطوائف من البربر الذين دخلوا المدينة واستباحوها وطمسوا كل معالمها الحضارية ، وقد رثاها ابن شهيد الأندلس بقصيدة طويلة تقليدية ، كما رثاها عدد من الشعراء المجاهيل محذرين من عواقب الاختلاف والفرقة ناصحين على منوال الوعظ والارشاد .

ثم تأتي أول النكبات بسقوط بربري شريد النصراري ، ولما كان هذا أول انتصار لهم فقد فعلوا بالمدينة وأهلها أفعلًا مروعًا تحدثت عن بعضها بايجاز ، وقد رثاها الفقيه ابن الحسّال بقصيدة انهال فيها على طموك الطوائف ووصمهم بالجبن ، ثم ثنى بالناس مهذا اياهم على فعل المعاصي التي جرت عليهم البلاء ، وقد استشعر أهل الأندلس الخطر بعد سقوط هذه المدينة فقام الفقهاء بدور الوساطة لجمع الكلمة وتوحيد الصف ، ولكن هيهات أن يسمع الانتهازيون نداً المصلحة العامة ، فسقطت طليعة السقي كانت حلماً يراود النصراري من مئات السنين ، وعلى الفور حولت الى مدينسة نصرانية واتخذت عاصمة لهم لمناعتها وجودة أرضها . وقد رثيت بقصيدة طويلة لمجهول بكى فيها محنة الاسلام وأظهر انحدام الثقة من قبل الأمة بحكامها وتشوّفها الى حاكم يكون قائد معركة مهمل انتصار .

محمد ذلك تدخل الأندلس عهداً جديداً من الأمن والمنعة في ظلال سيف المرابطين والموحدين حتى أوائل القرن السابع الهجري إذ أخذت تتخير الأحوال وخاصة بعد معركة العقاب التي تحطمت فيها قوة الموحدين وبدأ نجمهم في الأفول . عندئذ تحرك النصراري بخطة جديدة لا تقسام الأندلس ، فتحرك ملك أراجوان نحو بلنسية وحاصرها طويلاً ، ولم يستطع اقتحامها لصمود أهلها ، وتم الأمر في النهاية على تسليمها صلحاً حين نضبت أقواتها ولم تصلها النجدة . ولقد كانت بلنسية أما لكثير من الشعراء أمثال ابن الأبار وابسن

عجزة المخزوم وغيرهما فلا عجب أن تحظى بجطة وافرة من المراثى الشعرية والنثرية التي تفنى مرارة ولوعة .

وفي المقابل تحرك ملك قشتاله صوب اشبيلية بجيش لجب ، وأمدّه البابا بنجدات متوالية لأن المدينة كانت ، من المتعة والتحصين مكان مكن ، فحرب النصارى حولها حصارا خانقا مدة خمسة عشر شهرا حتى اضطرت إلى التسليم في النهاية ، وقد فعل بها القشتاليون أفاعيل شنيعة صورها الشعر أصدق تصوير .

وقد ختمت هذا الفصل بالحديث عن رثاء صقلية ومدن المغرب . وغير من رثى صقلية بعد سقوطها بيد النورمان ورحيل الاسلام عنها بعد أن عمرها قرنين ونصف ، شاعرها ابن حمد يس بأسلوب يتدفق حماسة وقوة ، ويشف عن ألم نفس شديد يكوى فؤاده لما لاقاه من الخذلان لدى من راح يستغيث بهم .

وأما المدن المغربية فأشهرها القيروان التي دمرت ونهبت على يد القبائل الهلالية التي زحفت اليها من الصعيد المصري في القرن الخامس الهجري وقد كانت آنذاك في أوج عزها الحضارى والعلمى والأدبى ، وكانت حلقة وصل بين المشرق والأندلس .

وقد رثيت بقصائد كثيرة لشعرائها المشهورين الذين شردوا منها فيما بعد كابن رشيق ، وابن شرف والحصرى القيروانى وغيرهم ، وشعرهم يمتساز بالصدق وحرارة العاطفة ، وشكوى الخربة ، والحنين الدائم إلى القيروان ، - على الرغم مما وجد به بعضهم من الحظوة في البلاد التي نزح اليها .

ونجد - أيضا - قصيدة للسان الدين ابن الخطيب في رثاء مراكن عاصمة المرابطين والموحدين من بعدهم ، وذلك أنه عندما تغلب المرينيون على

الموحدين وثلوا عرشهم انتقلوا عن مراكن الى فاس فأصاب الأوطى الخراب وطواها الالهال فاعتبر ابن الخطيب بهذا الانقلاب والتحول ، وأطلق زفرته على تلك الأطلال .

الفصل الثاني : تحدث فيه عن شعر الاستصراخ الذى ظهر فى الأندلس ابان تحرك النصارى لمحاصرة المدن الاسلامية التى ذكرناها فى الفصل السابق . وقد أدى الشعراء دورا ايجابيا فى سبيل الدفاع عن بلادهم فنظموا القصائد الحماسية التى تحث على الجهاد ، وتذكر بوجوب نصرة المسلمين وانقاذ بلادهم ، وتوجهوا الى المغرب وقاموا بحركة الاستنفار عامة ، وكللت مساعيهم بالنجاح فى أغلب الأحيان ، وقد ظل شعر الاستصراخ مستمرا بعد سقوط الأندلس حيث كان المسلمون الذين يواجهون التنصير يرسلون صريخهم الى السلطان العثماني والمطوكى . وقد تميزت قصائد الاستصراخ بطولها وتخلصها من المقدمات ، والاكتار من الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية المناسبة .

الفصل الثالث : عقدت هذا الفصل لرثاء الممالك أو الامارات التى أنشأها طوك الطوائف فى الأندلس ، وقوى أركانها المرابطون ضمن خطتهم لتوحيد الأندلس وشحنها بالجنود لتكون جبهة قوية تقف فى وجه النصارى ومن أهم تلك الامارات : امارة بنى عباد فى اشبيلية ، وامارة بنى الأفطس فى بطليوس ، وامارة آل صمادح فى المرية . وقد كان التنافس بين هذه الامارات على أشده فى مجال تزيين البلاط بفضائل الشعراء والكتاب ، فكانت تغدق عليهم الصلات وتقرر لهم الأرزاق ، ومما زاد الاهتمام فى هذا الأمر ، كون بعض أولئك الحكام من الشعراء الفحول أو الخطباء والنقاد الكبار ، فهكى أن يقف الدارس عند سيرة المعتمد بن عباد ليتبين مقدار اتساع سلطان الأدب فى

عنده . . ولهذا ما أن انتهت دولته وسبق أسيرا حتى ارتفعت أصوات الشعراء بالبكا ، وتهويل الخطب بوصف المآثر العظيمة التي احتوتها القيود وكلبها الذل ووصف بنيات ابن عباد بالجوع والخوف والاعكاس الأمر السبذي جعلهم يگسبون عطف التاريخ على قضية ابن عباد ، فراح كثير من المؤرخين والأدباء يگیلون التهم والسباب للمرابطين تحت تأثير سحر ذلك الشعر وقد ناقشت هذه القضية وحاولت وضعها في الاطار الصحيح .

أما آل الأفطس فقد رثاهم وزيرهم ابن عبدون بقصيدته المشهورة بالبسامة ، والتي بدأها بمقدمة تاريخية طويلة عن الأم العظيمة التي هلكت في الدهر منذ أقدم العصور وحتى عصره ثم أفاض في ذكر مآثر قومه ، وأبرز عظمتهم في كل جوانب الحياة .

ورثى أبو الحسن بن الحاج بنى صمادح بمخمس ذكر فيها أمجادهم ، وتأسف على فراقهم ، وانقطاع معروفهم عنه .

الفصل الرابع : أوردت في هذا الفصل القصائد التي قيلت في رثاء الأندلس بصفة عامة وقد قسمت هذه القصائد الى قسمين : القسم الأول يشمل القصائد التي قيلت على أثر سقوط قواعد الأندلس الهامة كقرطبة ولنسية واشبيلية ، وكان شعراء هذه القصائد يستشفون من هذا السقوط المتسلسل النتيجة الحتمية للأندلس كلها ، فراحوا يبكونها ، ويندبون معالم الاسلام فيها ، وأشهر قصيدة في هذا الجانب نونية أبي البقاء الرندي .

أما القسم الثاني فيشمل القصائد التي قيلت بعد غروب شمس الأندلس نهائيا بسقوط غرناطة في آخر القرن التاسع الهجري وأهمها قصيدة طويلة لشاعر مجهول صور بها محنة الأندلس أصدق تصوير ، وكأها أحر البكا منتقلا من مدينة الى أخرى واصفا ما حل بها من الهولات ، ومجلا للأحداث وأسبابها .

الباب الثالث : دراسة تفصيلية لشعر رثاء الدول والأقطار .

ويحتوى على ثلاثة فصول : الفصل الأول رثاء الدول والأقطار بين التأثير والتأثير . عرضت فيه لأقوال الباحثين بنشوء هذا الفن فى الأندلس ، ثم تأثر المشرق به بعد ذلك كما عرضت للآراء التى تصف رثاء المشرق بضمف العاطفة أو انعدامها ، وبينت احكامها ، وقد توصلت الى أن القسول بسبق الأندلس فى هذا المجال يحتاج الى إعادة نظر ، لأن دواعى هذه المراثى موجودة فى كل زمان ومن غير الممكن تحديد مكان نشأتها الأولى .

الفصل الثانى : دراسة لشكل قصيدة الرثاء ، ويشمل أربعة مباحث .

المبحث الأول : مقدمة القصيدة ، فقد تنوعت المقدمات حسب حالة الشاعر الانفعالية وقوة شاعريته ، فبعضهم تقليدى يبدأ بالوقوف طيسى الأطلال ، وآخر يفتتح قصيدته بذكر الأجل المحتوم أو بذكر القضاء والقدر أو بوصف حالته وما داخله من حزن وغم ، وثالث يدخل فى موضوع الرثاء مباشرة .

المبحث الثانى : الألفاظ ، بينت فيه دور الألفاظ المتناسقة فى اشاعة الجو الذى يريد الشاعر أن ييشه فى نفوس السامعين ، كما لاحظت اختيار الشعراء للألفاظ المشبعة بالحركة والجرس التى توحى بمكان كمية متداخلة تفهم بمجرد سماع اللفظ وتتعدى تجزأتها .

المبحث الثالث : الأوزان والقوافى : تبينت من خلال دراستى لأوزان -

الشعر الذى مرفى هذا البحث أن شعراء الرثاء نظموا فى معظم البحور تقريباً ، ولكن الملاحظ كثرة دوران البحور ذات التفاعيل الكثيرة كالطويل والبسيط ثم الكامل والوافر وقد ذكرت تحليلاً لهذه الظاهرة أما القوافى فقد برزت القافية المطلقة التى تلائم مد الصوت بالصراخ والتفجيع

كما برز أيضا الروى المكسور الذى تؤدى كسوته دور النائح .

المبحث الرابع : الاقتباس والتضمين ، فقد أكثر شعرا الرثاء كثرة ملحوظه من الاستشهاد بالآيات والأحاديث ، كما ضمنوا قصائد هم كثيرا من أبيات الشعر المشهورة ، وهذا غير كونه وسيلة لاظهار الثقافة يعطى القصيدة قوة تزيد من تأثيرها فى نفوس السامعين .

الفصل الثالث : دراسة لمضمون قصيدة الرثاء . ويشمل أربعة مباحث أيضا .

المبحث الأول : الواقعية ، فالشاعر فى مجال رثاء دولته أو مدينته يصدر عن واقع يعيشه ويصف أحداثا تجرى أمامه ، فلا يجد مجالا للخيال المجنح ، وليس معنى هذا أن يقف الشاعر دائما عند حدود النقل المباشر للحوادث فيكون سطحيا ، لكنه يرسم صورا طبونة بشاعره وعواطفه تؤثر فى السامع ولا تخرج عن الواقع ، وهذه هى الواقعية الروعية التى يعنى بها الشعراء .

المبحث الثانى : التكرار ، وهذه الظاهرة تلاحظ فى معظم القصائد التى وردت فى هذا البحث فنجد الشاعر يكرر بيتا أو شطرا أو عبارة وما إلى ذلك ، ولعل هذا التكرار وسيلة من وسائل التنفيس عن نفس الشاعر التى تتمزق بفعل جیشان الانفعالات ، أو لعله أثر من آثار الألم النفسى الشديد الذى يجعل الشاعر فى حالة هذيان ، وخاصة عندما يكرر اسم المديونة المرسية . وللتكرار أيضا دوره فى تقوية موسيقى القصيدة وتناسقها ، وينفكس ملاحظة ذلك فى الجناس ورد المجزئى الصدر .

المبحث الثالث : الروح الجماعية : فالشاعر ابن بيئته ووطيد مجتمعه ، -

يمش وسط جمهور تربطه به علاقات وشائج ، فهو يحس بما يحسون ، ويهتم همومهم وآلامهم ليحبر عنها ، فهو لسان حالهم ، وفى ما بين أيدينا سن مرث

نجد الشعراء يصبون اهتمامهم على بيان ما حلّ بالناس من قتل وتشريد وهتك
ويأخذون في تحليل النفسيات المحطمة ، وخاصة عند النساء والأطفال
والمهاجرين ومن جانب آخر فان بكاء الشعراء على المساجد والمحاريب والمنابر
الدمرة أو المظيرة هونوع من الروح الجماعية ، فتلك المعالم المقدسة
ينغرس فيها في نفس كل فرد في المجتمع الاسلامي .

المبحث الرابع : أسباب النكبات ، تطالعنا في شعر رثاء الدول والأمصا
ظاهرة تلمس الشعراء للأسباب التي أدت الى حدوث الكوارث ، ولكن الأسباب
التي يوردونها لا تمثل جوهر الحقيقة الا نادرا فهم يلجأون الى ذكر العيين
الحاسده ، وذنوب الأمة ، وحكم القدر المحتوم مع علمهم أن السبب الحقيقي
يكن في ضعف الحاكم وجبنه وخيانتة ولكنهم يكتمون ذلك خوفا من سـيـاط
العذاب التي تصب على كل منتقد أو معارض .

وفي الخاتمة ذكرت بعض النتائج الهامة التي توصلت اليها من دراستي
لشعر رثاء الدول والأمصا . هذا وقد جعلت من منهجي في هذا البحث
الوقوف عند النصوص ودراستها من داخلها بعد الا حاطة بالظروف التاريخية
التي تلتقي ضوءا على ملامسات الحداث الذي هز الشاعر ودفعه الى القول ،
وقد حرصت على ايراد ما أمكن من النصوص الهامة التي تدعّم هذا الفن
محاولا وضعها في متناول القارئ بعد أن كانت في طي النسيان . وقد
يلاحظ المتتبع لفصول هذه الرسالة وخاصة القسم الأول من شيا من
التكرار في المادة التاريخية ، وهذا أمر لا يستطيع الباحث تفاديه لتداخل
الأحداث وتشابكها ، وقد حاولت التخفيف من ذلك ما استطعت . ولا أدعي
أنني بلغت الكمال في هذا البحث ، فذلك بعيد من عمل الانسان ولكني أرجو
أن أكون قد أضفت شيئا جديدا لأدبنا العربي .

والله موفق والهادي الى سواء السبيل

شاهر الكاويين

غرة جمادى الآخرة - ١٤٠٤ هـ .

التحبيد : الأوطان ومكانتها في نفوس الشعراء .

لقد أودع الله - تعالى - في النفس البشرية مجموعة من المواقف تمكنها من تحديد تعاملها مع الأشياء المعينة بها ، وتشكل هذه المواقف عند الانسان - في العادة - من جراء تعامله مع الأشياء وتكرار اتصاله بهما ورد الفعل الناتجة عن ذلك . ويأتي على رأس المواقف الانسانية عاطفتان رئيسيتان هما : عاطفة الحب وعاطفة الكره . فإذا كانت الردود الانفعالية الناتجة عن الاحتكاك بشئ ما سارة تكونت عاطفة الحب والا كان العكس .

ومادام الأمر كذلك ، فأى شئ أقرب وأحب الى نفس الانسان من موطنه الذي ضمّه بين أحضانه منذ أن رأى النور لأول مرة على ظهر هذه الأرض ثم دج على تربه ، وتنفس هواه ، وشرب مائه ، حتى أصبح جزءاً من نفسه لا يمكن أن يستغنى عنه أو يفارقه بسهولة . بل ان الهوى والحنين تبيداً لو أعجبه تعصف بالنفس منذ اللحظة الأولى التي تختفي فيها معالم ذلك الوطن عن عيني المغترب أو المهاجر .

وقد ذكر الله - عز وجل - في كتابه الكريم مقدار حب الانسان لوطنه وتعلقه به فقال : (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من (١) دياركم ما فعلوه الا قليل منهم) .

فقرن الخروج من الديار وفارقتها بقتل النفس وفارقة الروح لجسدها ، ولا شئ أشق على الانسان من قتل نفسه ، ولذلك عقب في الآية بقوله :

(١) سورة النساء ، الآية ٦٦ .

(ما فعلوه الا قليل منهم) وقال أيضا : (قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم
واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها
ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتمسكوا بعصتي
(١)
يأتى الله بأمره) .

فقد عدد في الآية كل ما يحبه الانسان وما يتعلق به في هذه الحياة ،
كالاقارب والعشيرة ، والأموال والتجارات ثم عطف عليها المساكن التي هي
جزء من الوطن الكبير .

وحب الوطن والحنين اليه غير قاصر على أمة من الأمم أو طمة من الطل ، بل
ان هذا موجود عند بعض أصناف الحيوانات ، ويروى عن الأصمعي أنه قال :
" قالت الهند ثلاث خصال في ثلاثة أصناف من الحيوان : الابل تحب السق
أوطانها وان كان عهدا بعيدا ، والطير الى وكره وان كان موضعه مجدها ،
والانسان الى وطنه وان كان غيره أكثر له نفعا " .
(٢)

ولعل المشاهد والمعروف عن أكثر الحيوانات أنها تدافع عن ماؤها
اذا هوجم حتى الموت . أما حب الوطن عند غير العرب فهو يدعو الى الدهشة
حقا ، فقد بلغوا فيه مبلغا عظيما ، فهو عند اليونان يولد مع الانسان ، يقول
بعض فلاسفتهم : " فطرة الرجل محبونة بحب الوطن " ويروى عن جالينوس
طبيبهم وحكيم قوله : " يتروح العليل بنسيم أرضه كما تنبت الحبة ببسمل
(٤)
القطر " .

(٥)
أما الهنود فقالوا : " عنين الرجل الى وطنه من علامات الرشدا " وقالوا
(٦)
أيضا : " حرمة بلدك عليك مثل حرمة أبوك لأن غذاك منها وغداك منها " .

(١) سورة التوبة ، الآية ٢٤ .

(٢) السخاوى ، المقاصد الحسنة : ١٨٣ .

(٣) الراغب الأصفهاني ، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء : ٦٢٠ / ٤ .

(٤) رسائل الجاحظ : ٣٨٧ / ٢ .

(٥) العسكري ، ديوان المعاني : ١٨٧ / ٢ .

(٦) رسائل الجاحظ : ٣٨٥ / ٢ .

وهروى أن سابور ملك الفرس ^{أشهر} في إحدى معاركه ببلاد الروم واعتل هناك
فقال له بنت الطوك - وقد عشقته - ما تشتهي ؟ فقال : شربة من ماء دجلة
(١)
وشمة من تراب اصطخر ، فحطلا إليه فبرأ .

وهذه النظر عن صحة هذه الرواية أو عدمها إلا أنها تدل على ما يكنه
ذلك الطوك لوطنه من عظيم الحب والتقدير ، فهو لم يطلب أملاً ولا مالا وإنما
شربة من ماء وحفنة تراب من ثرى وطنه ليشمه ، فيشعر بارتباطه القوي بهذا
التراب الذي التصق به زمناً ، وكان مهداً لتطوراته النفسية والفكرية .

وهذا الأسكندر المقدوني الذي جال في البلدان وغرب الأقاليم ، وأباد
الخلق ، مرض بعمرة بابل فلما أشفى على الموت أوصى وزراءه وحكامه أن يحملوا
جثته في تابوت من ذهب إلى بلده ليتزط بتراب وطنه . وهكذا لو استمررنا
في استقصاء الأمم القديمة لوجدنا نماذج رائعة لحب الوطن ومكانته فسي
نفوس أبنائه ، ولكن المجال لا يتسع لذلك .

أما العرب فهم أمة شاعرة تميزت برفاهة الحس وتدفق العاطفة ، كما عرف
عنهم الحب الشديد للوطن والشوق والحنين إليه في حالات البعد والفرق
ولا أدل على ذلك من افتتاحهم لقصائدهم بذكر الديار الخابرة التي قطنوها
في يوم من الأيام .

فالشاعر الذي يضطر إلى ترك وطنه ^{والترح} عن داره ، تزدحم في نفسه
أمواج الشوق والحنين والحزن ، ولكنه لا يسكبها دماً كغيره ، وإنما يترجمها
إلى عمل فني صادق ينبع من قراره وجدانه فتحمس حرارته حين تسمعه أو حين
تقرؤه ولو بعد مئات السنين .

(١) الأصفهاني ، المصدر السابق : ٦٢١/٤ . وسابور هو التاسع من

ملوك الفرس الساسانية . انظر : الطبري : ٦٢/٢ .

(٢) رسائل الجاحظ : ٤٠٦/٢ .

(١)

انظر الى قول الأعرابي يحن الى وطنه منمعج :

ألم تعلني ياد ارمحاء أنسه * اذا أجذبت أو كان غصبا جنابها .
أحب بلاد الله ما بين منمعج * التيّ وسلوى أن يصوب صحابها .
بلاد بها حل الشباب تميمتي * وأول أرض من جلدى ترابها .

وهذا الحب للوطن الأول ، الذي كان مهدا لذكريات الطفولة والشباب

(٢)

صاغه أبو تمام :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى * ما الحب الا للحييب الأول .
كم منزل في الأرض يعشقه الفتى * وحنينه أبداً أول منزل .

ولعل قارئاً يقول : كيف نمت عاطفة الحنين الى الأوطان ، واشتدت في
البادية العربية مع أنه لم يكن هناك للقبائل العربية ما يمكن أن نطلق عليه
وطناً بمعنى السكن والاقامة الدائمة ؟ فالعرب - كما هو معلوم - كانوا رحلاً
ينتحبون مناطق عديدة سعيًا وراء الماء والكلاء . ولكنهم كانوا يقطنون في
بعض المواضع حقبة من الزمن فيكون هذا المكان هو وطنهم ، ثم يضطرون الى
تركه ، وقد خلفوا فيه ذكريات خالدة وأياماً جميلة ، تثير في أنفسهم الحنين
اليه كلما مروا به ، وخاصة عندما تطمس الآثار التي عهدوها فيه وتصبح رسوماً
وأطلالا ومن هنا جاءت سنة الوقوف بالأطلال مكان الرسم ، والدعاء لها
بالسقى التي استمرت منها للشعر العربي قروناً طويلاً .

(٣)

وقد أشار الى هذا ابن رشيق بقوله من العرب : " وكانوا أصحاب خيام
ينتقلون من موضع الى آخر ، فلذلك أول ما تبدأ أشعارهم بذكر الديار ، فتلك
ديارهم .

(١) يا قوت العموى ، معجم البلدان : مادة (منمعج) ومنمعج واد لبني

أسد ، ومن أيام العرب يسمى يوم منمعج وهو لبني يربوع بن حنظلة بن

تميم على كلاب .

(٢) ديوانه : ١٥٧/٣ .

(٣) الحمدة : ١٨٨/١ .

ثم يأتي الاسلام فيؤكد هذه العاطفة ، ويجعل حب الوطن من الايمان
، كما يجعل الدفاع عنه : فرض دين على المسلم في بعض الأحوال .

وطقد كان المسلمون يحملون في قلوبهم حبا عظيما لوطنهم الأول مكة ،
على الرغم مما نالهم فيها من العذاب بأيدي المشركين فمجرد أن هاجسروا
منها ووصلوا الى المدينة ، حتى بلغ منهم الشوق كل مبلغ . فمن عائشة
(١) رضی الله عنها - قالت : (لما قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
المدينة وعك أبو بكر بلال ، فدخلت طيهما فقلت : يا أبت كيف تجدك ؟
وبالبل كيف تجدك ؟ قالت : فكان أبو بكر اذا أخذته الحمى يقول :
كل امرئ مصبح في أهله * والموت أدنى من شرك نعلته .
وكان بلال اذا أقبلت عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بيواد وحطى إذ خسر وجليل (٢)
وهل أردن يوما مياه مجننة * وهل بيدون لى شامة وطفيل (٣)

قالت عائشة ، فجئت رسول الله فأخبرته فقال : اللهم حبب إلينا المدينة
كحبنا مكة أو أشد وصحبها ، وبارك لنا في صاعها ومدّها ، وانقل حماها
فاجعلها في الجفة) .

فمن هذين البيتين نلاحظ مدى حب الوطن والارتباط به مهما نال الانسان
فيه من المصنق فبالل رضي الله عنه - تكون أمنيته الأخيرة أن يبيت ليلة فسي
بطاح مكة ليشم رائحة أمهوها الذكيه ، ويشاهد معالمها الخالدة . والرسول
عليه الصلاة والسلام - كان لا يفل عن أصحابه حينما الى مكة ولولا أن أهلها

(١) صحيح البخاري : ٨٤ / ٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية : ٣ / ٢٢١ .

(٢) الانعر حشيشة طيبة الرائحة ، الجليل : نبات قصير لا يطول . انظر :

ابن الأثير ، النهاية في غريب الحديث : ٣٣ / ١ .

(٣) مجنة : موضع بأسفل مكة ، شامة وطفيل : جبلان . انظر معجم البلدان ،

المواد ، (مجنة) (شامة) ، (طفيل) .

(١)

أخرجوه منها ماخرج ، وفي الحديث : (وفد أصيل الغفاري على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل أن يضرب الحجاب ، فقالت له عائشة : كيف تركت مكة ؟ قال : تركتها وقد أخضرت جنباتها ، وأبيضت بطحاؤها ، وأعذق أذخرها ، وانتشر سلمها ، فقال النبي فيها يا أصيل دع القلوب تقر .) وفي رواية أخرى أنه قال : حسبك يا أصيل لا تحزني .

وإذا ما انتقلنا الى حنين الشعراء نجد أنه يتخذ طابعا مميزا من حيث رهافة الشعور ودقة الاحساس ، فالشاعر عندما يعصف به الشوق يدفعه الى تصوير ذلك الوطن بصورة تجعل منه جنة تحوى جميع الخيرات ومعاننى الجمال ، فتبريقه مسك وكافور وماؤه شهد أو خمر الى غير ذلك مما يجعله يتمنى أن يستنشق هواه ، ويشرب مائه ويكحل بترابه . يقول الشاعر نهبان (٢)

المبشمى :

(٣)

يقر بهمنى أن أرى من مكانه * نرى عقدات الأبرق المتقاسود .

(٤)

وأن أرد الماء الذى شربت به * سليمى وقد ملّ السرى كل واغد .

وألصق أحشائي ببرد ترابها * وإن كان مخلوطا بسم الأسود .

فقرة عين هذا الشاعر أن يلصق أحشائه بتراب وطنه ليشفى غلته بذلك

الاحتضان ولو كان فيه الهلاك .

(٥)

وهذا الشاعر أبو قطيفة الأموي كان يعيش في المدينة المنورة ، متطببا

(١) المجلونى ، كشف الخفا ومزيل الألباس : ٤١٤ / ١ .

(٢) المبرد ، الكامل : ٣١ .

(٣) العقد : المتراكم من الرمل ، اللسان (عقد) ، المتقاود : المستطيل

على وجه الأرض . المصدر نفسه (قود) .

(٤) الوغد سرعة السير للابل / انظر ، القالى ، الأمالى : ٦٣ / ١ .

(٥) هو عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبى محيط القرشى ، شاعر رقيق الشعر

جلس الممانى عاش في المدينة ، ومات قريبا من سنة سبعين للهجرة /

الأغانى : ٤ / ١ وما بعدها . ابن قتيبة : عيون الأخبار : ٢٣٠ / ١ .

فى نعمائها ثم يأمر ابن الزبير بنفيه الى الشام مع من نفى عندما أظن الخروج
على بنى أمية ، وخلق طاعة يزيد بن معاوية ، فشق الأمر على الشاعر ومزقبيه
الشوق ، فقال فى قلائد عدة مقطوعات تذو بركة وصباية ، كانت احداها من
المائه صوت التى اختارها صاحب الأغاني وذلك قوله :

(١)

القصر والنخل فالجما بينهما * أشهى الى القلب من أبواب جيرون .

ومما قاله فى الحنين الى المدينة :

(٢)

ألا ليت شعرى هل تغير بعدنا * جبوب المصلى أم كعهدى القرائن ؟
(٣)

وهل أدور حول البلاط عوامر * من الحى أم هل بالمدينة ساكن ؟

إذا برقت نحو الحجاز صحابة * دعا الشوق منى برقها القتيامن .

فلم أتركها رغبة عن بلادها * ولكنه ما قدر الله كائــــــــــــــــن .

أحن الى تلك الوجوه صباية * كأنى أسير فى السلاسل راهــــــــن .

وله أيضا :

ألا ليت شعرى هل تغير بعدنا * قباء وهل زال الحقيق وحاضره ؟

وهل برحت بطحا قبر محمد * أراهد غر من قرينى تباكــــــــــــــــره ؟

لهم منتهى حبي وصفو مودتى * ومحنى الهوى منى وللمناس سائــــــــــــــــره .

ان هذه الأبيات تصدر عن عاطفة شفهيا الوجد ، ونفس أضناها الحنينين
فالشاعر كلما طال مقامه فى الشام زاد اشتياقه للمدينة ، فنراه يسبح فســـــــــى

(١) الأغاني : ٨ / ١ ، القصر والنخل : مواضع بالمدينة لسعيد بن العاص
واليها من قبل معاوية ، جيرون : من أبواب دمشق / معجم البلدان
(جيرون) .

(٢) القرائن : دور متلاصقة لسعيد بن العاص ، سميت بالقرائن لا قترانها
معجم البلدان : (القرائن) .

(٣) البلاط : موضع بالمدينة ملط بالحجارة بين المسجد النبوى وسوق
المدينة / معجم البلدان " بلاط " .

شبه أحلام يقظة يناجى نفسه ومسائلها من تلك المعالم التي كان يرتادها كقباء والمحقق والقرائن وغيرها ، وعن تلك الرفقة القرشية التي منحها خلاصة حبه ، هل هم كما كانوا أم تغير كل شيء بعده . ان البرق الخافق من صوب الحجاز يثير شجنه ويحرك فؤاده ، فيئن أنين الأسير من القيود والسلاسل .
ويقول أيضا :

- (١)
ليت شعري وأين منى لبيت * أعلى المهددين يلبن فبرام ؟
أم كمهدى المحقق أم غيرته * بعدى الحادثات والأيام ؟
هاهنا بدلت عكا وخمسا * وجذا ما ، وأين منى جندام ؟
وتبدلت من مساكن قومى * والقصور التي بها الأطمام .
كل قصر مشمسيد ذى أواس * يتفنى على ذراه الحممام .
أقر منى السلام ان جئت قومى * وقليل لهم لدى المسلام .

ان الشاعر يعيش حالة من الاضطراب والقلق النفسى ، فكل شيء يألفه قد ذهب ، فيدل بأهله أقواما لا عهد له بصحبتهم من قبائل عك وجذام أنطاو معاوية من أهل الشام ومساكنه بدل قصورا شامخة ، ولكنه يحاول أن ينسى هذا الواقع ويتجه بمشاعره نحو مغانبه الأولى جبال المدينة ووديانها ، وكأنى بالشاعر قد يعيش من العودة إليها ثانية ، ولهذا فهو يفتتح جميع مقطوعاته التي مرت بنا بالتمنى المشرب بالياس (ليت شعري) ، ثم نراه يرسل بسلامة من بعيد كوداع أخير لالقاء بعده .

-
- (١) يلبن : جبل أو غدير قرب المدينة / معجم البلدان (يلبن)
برام : جبل فى ديار بنى سليم عند الحرة من ناحية البقيع / المصدر نفسه (برام) .
(٢) أواس : جمع آسية وهى الأساس أو الأصل . انظر : ابن واصل :
تجريد الأفئدة : ٢٢ / ١ .

(١)

ويروى أن ابن الزبير عندما سمع هذه الأبيات قال : " حن والله أبـو
قطيفة ، وعليه السلام ورحمة الله ، من لقيه فليخبره أنه آمن فليرجع . " وماكاد
الخبر يطارق سمع شاعرنا حتى أغد السمر من فوره إلى الحديقية ليطرق جرة وجدده ،
ولكنه توفي قبل أن يصل اليها .

وهذا الامام الشافعي - رحمه الله - يحن إلى مسقط رأسه مدينته
غزة " على الرغم من أنه غادرها صغيرا ، وجال في أقطار كثيرة وأصبح علما
من أعلام الفقه الاسلامي ، ومع ذلك بقي حبه لوطنه الأول مشتتلا لا يستطيع
كتمانته . يقول :
(٢)

واني لمشتاق إلى أرض غزة * وان خاني بعد التفرق كمانس .
سقى الله أرضا لو ظفرت بتربها * كحلت به من شدة الشوق أجفانس .
(٣)
ويقول ابن الرومي :

ولى وطن البيت أن لا أبيعـه * وأن لا أرى غيرى له الدهر مالكا .
فقد ألفته النفس حتى كأنه * لها جسد ان بان غودرت هالكا .
وحبيب أوطان الرجال اليهم * مآرب قضاهـا الشباب هنالكا .
إذا ذكروا أوطانهم ذكـرتهم * عهد الصبا فيها فحنوا لذلكا .
فهذه صورة جميلة لتعلق الشاعر بوطنه ، فهو ينظر إليه على أنه جسد
يحتضن روحه ، فالعلاقة علاقة عطف وامتزاج لا يمكن معه الانفكاك ، وكيف
لا ، والوطن سجل لحياة الشاعر منذ بدايتها ، ينظر في مخائيه فيذكره
عهد الصبا ومآرب الشباب .

(١) الأغاني : ٣٠ / ١ .

(٢) معجم البلدان / (غزة) ، وغزة مدينة بفلسطين المحتلة تقع على
البحر المتوسط ، تشتهر بخصبها وكثرة مزارعها ، وفيها قبر هاشم
بن عبد مناف / الحميري ، الروض المصطار / (غزة) .
(٣) أسامة بن منقذ ، المنازل والديار : ٧ / ٢ .

(١) أما ابن أبي الجنوب فيقول في حنينه الى نجد وقد كان ببغداد :
سقى الله نجدا والسلام على نجد ويأخذنا نجد على النأى والبعد
نظرت الى نجد وبغداد دونها لعلنى أرى نجدا وهيئات من نجد
ونجد بها قوم هواهم زيارتى ولا شئ أحلى من زيارتهم عندى
والأبيات - كما هو ملاحظ - طافحة بالشوق العارم ، فالشاعر يكرر اسم
وطنه (نجد) فى كل بيت مرة أو مرتين فى وله يشبه هذيان المحموم .

وبما رحل بعض أهل البادية الى الحضر وأقام ماشاء هناك ورأى البيئة
الحضرية تختلف رقتها وتوفر متطلبات المعيش الرغيد فيها عن خشونة البادية
وشظف عيشها ، ولكن لا يستهويه ذلك ولا ينسبه مثاله فى البادية فيقول :-
(٣-٢)

لعمري لنهر الأحموان بحائل * ونهر الخزاص فى ألا * وعرفج .
أحب الينا يا حميد بن مالك * من الورد والغنيرى ودهن البنفسج .
وأكل يرابيع وضرب وأرنجب * أحب الينا من سمانيى ودرج .
ونص القلائى الصهب تدنى أنوفها * يجبن بنا ما بين قو ومنعج .
أحب الينا من مفين بدجلة * ودرب متى ما يظلم الليل يرتج .

(١) هو أبو السمط مروان بن يحيى بن مروان بن أبى حفصة ، ومهـمـرف
بمروان الأصغر تميزا له عن جده الشاعر المشهور . كان أبو السمط
ينادم الخليفة المتوكل ويتقرب اليه بالطمع على العلويين ، ويتسأل
أن جده كان يهوديا وأسلم على يد عثمان رضى الله عنه - وهو مسن
الشعراء المشاهير الذين مدحوا عددا من الخلفاء العباسيين ، وتوفى
سنة ٢٤٠ هـ .

انظر : / ابن قتيبة ، ٧٦٣/٢ ، طبقات ابن المحتر : ٣٩٢ .
(٢) الطبرى ، تاريخ الأمم والطوك : ٦٨ / ١١ .
(٣) معجم البلدان : (قو) ، وقو ، ومنعج أسماء أماكن بن الهمامة
وهجر .

فالعيش مهما طابت لذاته ، وتقلب الانسان فيه كيف ماشا في غير وطنه
لا بد أن يتذكر أنه في غريب الدار بعيد عن الأحاب فيأخذ الحنين والشوق
(١)
ورحم الله شوقي حين قال :

وطغى لوشغلت بالخلد عنسه * نازعتني اليه في الخلد نفسي
فانظر الى هذه الوطنية الصادقة ، والحب الكبير للوطن الذي يصدر من
قلب شاعر بعيد عن وطنه في المنفى ، ولكن البعد لا ينسى بل يزيد العاطفة
اشتعالا حتى انه لو كان في جنان الخلد - التي هي أعز أمل ومطلب -
لا شتقت نفسه الى تراب وطنه .

وهذا عبد الرحمن الداخل - صقر قرش - الذي فر من أعدائه العباسيين
وحيدا طريدا ثم عبر البحر الى الأندلس واستطاع بدائه وحسن سياسته
أن يجند الأجناد ويحصر الأماص ويقيم دولة ذات حضارة عظيمة تضاهي
حضارة المشرق ان لم تفقها ، رأى يوما نخلة فريدة في منية الرصافة بقرطبة
أول نزوله بها أميرا ، فهاجت شجته وتذكر بلده في المشرف ففتت به هذه
(٢)
الآيات :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة * تنامت بأرض الغرب من وطن النخل
فقلت : شبيهي في التغرب والنوى وطول التناهي عن بني ومن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة * فملك في الأقصا والمنتأى مثلني
سقتك فوادي المزن من صوبها الذي يسبح ويستمرى السماكين بالمرسل
فالأمير الداخل رغم عزه ومجده وترهبه على كرسى الطك بالأندلس
أهاجت وجدته نخله لأنه رأى فيها ما يشبه حالته لأن الأندلس ليس ببلاد

(١) انظر الشوقيات : ٤٦/٢ .

(٢) أين الأبار ، الحلة السيرا : ٣٧/١ ، وانظر أخبار الداخل في :

ابن عذاري ، البيان المغرب : ٤٠/٢ .

نخل لذلك نراه يحنو عليها ويدعولها بالسقيا ، وهكذا الشاعر ذو الماطفة
الرقيقة يحس بتقاطعه مع أجزاء الكون ويصنع عليها صفات الاحياء لأنه يحس
أنها تشاركه حزنه وحنيئه ، فإذا طلعت الشمس - مثلا - اعتبرها تحية أزجهاها
وطنه البعيد اليه ، وإذا هبت الريح نظت اليه أخبار بلده وأهله وإذا لمع
البرق وخفق خفق قلبه لأنه يشعر بأن البرق إشارة من وطنه تدعوه للمسودة .
(١)
وهكذا كان حال الشاعر أبي عبد الله التلمساني الذي فارق وطنه تلمسان
في بلاد المغرب الى غرناطة في الأندلس يقول :-

سل الريح ان لم تسعد السفن آتوا * فعند صباحها من تلمسان أنباء .
وفي خفقان البرق منها إشارة * اليك بما تنص اليها وايماء .
(٢)
تمر الليالي ليلة بعد ليلة * ولأذن اصفا * وللمين اكلاء .
وأهدى اليها كل يوم تحية * وفي رد اهداء التحية اهداء .
(٣)
وأستجلب النوم الفرار ومضججس * قتاد كما شئت نواها وسلاء .
لعل خيالا من لدنها يصرّبو * ففي مرّه من جوى الشوق اهباء .
وانى لمشتاق اليها ومنبى * ببعض اشتياق لو تمكن انبباء .

(١) هو محمد بن عمر بن خميس التلمساني الحجري . كان يسبح ومحمده
زهدا وانقباضا وأدبا ، عالما بالمعارف القديمة طيلة الوقت ، في الشمر وأقدر
الناس على اجتلاب الغريب . كان كاتباً لبنى زيان طوك تلمسان ثم قسّد
لاقراء العربية بحضرة غرناطة وكان كثير التجوال ، توفي قتيلا بغرناطة
سنة ٧٠٨ هـ . أنظر : ابن الخطيب : الاحاطة في أخبار غرناطة :
٥٢٨/٢ ، المقرئ : نفح الطيب : ٣٦٢/٥ ، درة الحجال : ٢٧/٢ ،
الدرر الكامنة : ١١٣/٤ .

(٢) الاكلاء : ترديد البصر

(٣) السلاء : الشوك / انظر لسان العرب : مادة (كلاً) ، ومادة (سلاً) .

ان الشاعر قد برّح به الشوق وكأنى به قد يئس من رؤية بلده ثانية فلجأ
الى طريقه أخرى هى استجلاب النوم أو التناوم وطوفى ذلك المضجع المطلق
الذى كان مهاده الشوك . يفعل هذا لعل طيف بلاده يمر به فى هذه
السنه فيخفف مرآة مابه من جوى الشوق وشدة الوجد . ولعل هذه الصورة
البديعة تذكر ببيت مجنون ليلى :

(١)

وانى لأستنشى وما بى نعسة * لعل خيالا منك يلقى خياليا .

ولعله من الجدير بالذكر هنا القول بأن حنين الأندلسيين جاء قويا
وصادقا ومتميزا . ولا أريد أن أقارن بينهم وبين المشاركة فى هذا المقام
لان لكل عاطفته ومؤثراته النفسية والبيئية . والذى يبدو أن الذى عمّق
احساسهم بالحنين والشوق هو كثرة رحيلهم وتجوّالهم داخل الأندلس نفسها
أو خارجها الى بلاد بعيدة وراء الرزق والمعيشة الأفضل ، وربما لمجرد
الرحلة والاستجمام ، فهم فى حنين دائم الى حياة جميلة فارقوها ولذات
متعددة عاشوها ، وقوم يهفو الطرب ويتوق لمجالسهم والحديث معهم ،
(٢)
وأهم من ذلك طبيعة الأندلس الجميلة التى تأسر القلوب ، فهى كما قال الشاعر :-

أنهارها فضة والمسك تربتها * والخزروشتها ، والدّرر حصبا .
ولهبوا بها لطف يرق بـه * من لا يرق وتبد منه أهـوا .
ليس النسيم الذى يهفو بها سحرا * ولا انتشار لظى الطلّ أنداء .
وانما أرح الندّ استثار بهـا * فى ما ورد فطابت منه أرجاء .
وأين يبلغ منها ما أصفه * وكيف يحوى الذى حازته احصاء .
قد ميزت من وجهات الأرض حين بدت * فريدة وتولى ميزها الماء .
دارت عليها نطاقا أبهر خفقت * وجدا بها ان تبدت وهى حسناء .

(١) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء : ٥٧٣ / ٢ .

(٢) الأبيات فى النفح : ٢١٠ / ١ . والشاعر هو ابن سفر الميرنى ولم أعثر

لذلك ييسم فيها الزهر من طرب * والطير يشدو ولأفصان اصفا .
 فيها خلعت عذارى مابها عوش * فهي الرياض وكل الأرض صحرا .
 فهي اذن جنة الدنيا حتى ان الهواء بها له تأثير على طبائع البشر
 فيجعل من قسوى قلبه يرق وتبدو صابته فماذا يستطيع الشاعر الصميم بحبها
 اذن أن يخصص من مناقبها التي فاقت كل حصر ووصف ، انه لا يملك الا أن يفضلها
 على جميع بقاع الدنيا ولا يرضى عنها بديلا أبدا وكيف يستبدل بالجنات
 القفار والصحارى ؟ .

والملاحظ على شعر الأندلسيين أنهم يذكرون محاسن الأندلس كبلد واحد
 وليس على شكل مدن وأما وهناك وصف آخر لجمال الأندلس وروعيتها لشاعر
 (١)
 الوصف المشهور في الأندلس ابن خفاجة حيث يقول :-

ان للجنة بالأندلس * مجتلى مرأى مرأى نفس
 فسنا صبحتها من شنب * ودجى ظلمتها من لحن
 فاذا ماهبت الريح صبا * صحت وأشوقى الى الأندلس

وهذا المعتمد بن عباد أشهر ملوك الطوائف بالأندلس كان عاملا على
 (٢)
 مدينة شلب أيام حكم أبيه المعتمد وهي مدينة جميلة فسيحة على مرمى البصر

(١) النفج : ١٢٠/١ ، ١١٠ ، شكيب أرسلان ، الحلل السندسية :

٢٤٣/١ .

(٢) شلب : مدينة أندلسية تقع جنوب مدينة باجة لها بساط فسيحة ومطابخ
 عريضة ولها جبل عظيم كثير المياه أكثر نباته شجر التفاح المجيب . يفتوح
 منه روائح العود اذا أحرق ، والبحر منها في الغرب على بعد ثلاثة
 أميال وهي مدينة حسنة الهيئة بديعة البناء مرتبة الأسواق وأهلها
 عرب من اليمن وهم فصحاء يقولون الشعر ، انظر : الروى المعظم
 ومعجم البلدان : (شلب) .

من المحيط الأطلنطي وكان قصر الشراحيب من معالمها وكانت للمعتمد فيها خلوات ولمهوات فهي مهد شبابيه وملتقى أحبابه ؛ ولما تولى الملك بعد أبيه عام واحد وستين وأربعمائة اختص بها أحب شعرائه اليه آنذاك أبا بكر بن عمار عاملا عليها متفقد الأحوالها فلما ودَّعه أهاجته الذكرى وظبه الشوق

(٢)

فأرسل التحية الى شلب مع واليهما الجديد يقول ؛

ألا هي أوطانك بشذب أبا بگسر * وسلمن : هل عهد الوصال كما أدري ؟
وسلم على قصر الشراجب من فستی * له أبدا شوق الى ذلك القصر .
منازل آسان وميسر نواعيسم * فتاهيك من غيل وناهيك من خدر .
ليال بسد النهر لهما قطعتها * بذات سوار مثل منعطف البسدر .
فرغم أن المعتمد أصبح ملك اشبيلية التي هي أجمل المدن الأندلسية
وأهمها فانه لم ينس المدينة التي جرت فيها أفراس صباه وما خلف فيها مسن
ذكريات جادة ولا هيه فبعث اليها أحب الرجال اليه حبا لها ووفاء بعهد ها .
وما يثير العجب حقا من مقدار ما يبلغ الشوق والحنين بالانسان في الشمور
الشفاف ، ما يرويه ابن بشكوال عن الشيخ أبي بكر بن سعاد أنه دخل مدينة
طليطلة مع أخيه على الشيخ الأستاذ أبي بكر المخزومي قال : فسألنا مسن
آين فقلنا : من قرطبه ، فقال : متى عهدكما بها ؟ فقلنا : الآن وصلنا

(١) يقول فيه الفتح بن خاقان : وقصر الشراحيب هذا مقناه في البهسا^١
والاشراف مبه لزهرا^٢ العراق ركضت فيه جياذ راحاته وأومضت ، بسبروق
أمانيه في ساحاته الخ قلائد الحقيان : ٣٦ .

(٢) عنان ، تراجم اسلامية : ٢٨٣ ، الطاهر أحمد مكي ، دراسات أندلسية
: ٢٣٢ - ٢٣٣ ، بلنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي : ٤٠ .

منها ، فقال : قربا الى أشم نسيم قرطابه ، ففرينا منه ، فشم رأسى وقبله ،
(١)
وقال لى اكتب :-

- أقرطبة الفراء هل لى آمنة * اليك وهل يدنولنا ذلك الصيد .
- سقى الجانب الغربى منك غمامة * وقعق فى ساحات دوحاتك الرعد .
- لياليك أسحر وأرضك روضة * وتربك فى استنشاقيها عنبر ورد .

وممن شاقه الحنين الى قرطبة أيضا أبو الوليد ابن زيدون فقد نشأ لها
محبا لما ناله فيها من سعادة ومكانة فقد كان وزيرا لأبى الحزم ابن جهور
فعاش فى رغد وخفض وقد كان على علاقة حب وغرام مع ولادة بنت المستكفى
الأدبية المشهورة فى تاريخ الأندلس ، وكانت هذه الحبيبة مصدر الهامه
الشعرى مما جعله ينفث بفرر القصائد ، ولكن سرعان ما قلب الدهر له ظهر
المجن بدسائس الوشاة فاتهم بتآمره على أميره ما أضطره الى الهرب الى
اسبيلية ، وفى الطريق صادق حلول عيد الأضحى " فتأربه الوجد بين كنان
يألفه والخرام ، وتراى لعينيه تلك الظباء الاوانس والارام " ، فذكر أعياده
(٢)
بها ومتقلب نزهاته ، فمضى يسترجعها مهبطا وراء آخر قائل :

- خليلى لا فطريسر ولا أضحى * فما حال من أسى مشوقا كما أضحى .
- لئن شاقنى شرق العقاب فلم أزل * أخشى بمخصوصى الهوى ذلك السفحا .
- وما نفك جوفى الرصافة مشعري * دواعى بث تعقب الأسف البحرى .
- ويحتاج قصر الفارسي صابرة * لطفى لا يألوزناد الاسى قدحا .
- وأيام وصل بالعقيق اقتضيتـه * فان لم يكن ميحاده العيد فالفضحا .

(١) المراكشى ، الذيل والتكملة : ١١٦/١ .

(٢) ابن بسام ، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول ، ١ .

، الجزء الأول : ٤٢٣ .

معاهد لذات وأوطان صبوة * أجلت المعلنى فى الأمانى بها قد حـا
الاهل الى الزهراء أهة نـانـح * تقضى تنائىها مدا مـمـه نـزـمـا
مقاصير ملك أشـرقت جنـباتـها * فـلـمـا المشـايا الجـون أثـنـاءـها صـبـا
محل ارتياح يذكـر الخـلد طـيـبه * اذا عزّـان يـصدى الفـتى فـيـه أو يـضـى

انها دمة محزون ونفثة مصدر من نفس أرقها الشوق الى الوطن (قرطبه)
وما يتبعها من أماكن كان له فيها أيام وصل وأيام عز أثناء ثقـبـه فى مقاصير
الملك ، ويتساءل فى شئ من الارتياح هل من الممكن أن تكون هناك أوسـة
الى ذلك البلد الذى يذكره بجنة الخلد ، حيث كان لا يظما فيها ولا يضحى .
ولمـلـمـا نـلـاحـظ فى هـذا المـجال نـزعة الغلو عند الشعراء فكل منهم
يحاول أن يجعل من بلده أو وطنه مثلا أعلى للجمال والحسن ، فهـم
يشبهونه بالجنة ، وترابه بالمسك والعنبر وأنهاره بالفضة وغير ذلك كما أن
الشاعر عند مقارنة وطنه بالبلاد الأخرى يجعل بلاده رياضاً ونعيماً بينمـا
البلاد الأخرى صحراء جرداء ، وهو فى هذا إنما يصدر عن العاطفة الشبـوبـية
المفعمة بحب الوطن ، وهذا موجود عند الأندلسيين والمشاركة الا أنه عند

الأندلسيين أقوى وأظهر .

(٢)

(١)

انظر الى قول البهاء زهير فى حبه لموطنه مصر :

(١) ولد سنة ٥٨١ هـ بمكة المكرمة ولكنه غادرها صبياً الى قوس حيث نشأ
وتعلم على علمائها ومكث فترة فى خدمة أميرها ثم رحل الى القاهرة
حيث التحق بخدمة الملك مسعود بن الكامل ثم بالصالح نجم الدين
وتولى له ديوان الانشاء وكان يحب مصر حبا جما توفى سنة

٦٥٦ هـ . أنظر ديوانه : ١٨٨ .

(٢) المصدر نفسه ، محمد زطول سلام ، الأدب فى العصر الأيوبي : ٢٥٢ .

- وكم رأت عيني بلاداً كثيرة * فلم أرفيها مايسراً ومايرضى .
 ولم أرمصراً مثل مصر تروقنى * ولا مثل ما فيها من العيش والخفض .
 وبعد بلادى ، فالبلاد جميعها * سواء فلا أختار بعضها على بعض .
 (١)
 ويقول أيضا :

سقى واديا بين العريش وهرقة * من الغيث هطال الشايب هتان
 وحيا النسيم الرطب عني اذا سرى * هناك أوطانا اذا قيل أوطان
 بلاد متى ماجئتها جئت جنسة * لعينك منها كل ماشئت رضوان
 تمثل لى الأشواق أن ترابها * وحصباها مسك يفوح وعقبان
 فياساكنى مصرا تراكم علمىتم * بأنى مالى عنكم الدهر سلوان
 ومافى فؤادى موضع لسواكم * ومن أين فيه وهو بالشوق ملان
 عسى الله يبارى شقة البعد بيننا * فتهدا أحشا وترقا أجفان
 على بذاك اليوم صوم نذرتكه * وعندى على رأى التصوف شكران

ورغم الذى ذكره وتغنى به اليها زهير من جمال مصر وتفضيله اياها
 على كثير من البلدان التى رآها ولم يجد فيها مايرضى ولا يسرفان ابن سعيد
 (٢)
 الأندلسى عندما رحل اليها - وكان قد سمع عنها الشئ الكثير - لم يجد فيها

(١) الديوان : ٣٤٦ .
 (٢) هو على بن موسى بن عبد الملك بن سعيد ، صاحب كتاب "المغرب
 فى حلى المغرب" أديب ومؤرخ مشهور عرف بكثرة الترحال وسعة الأفق
 توفى سنة ٦٨٥ هـ .

انظر : المغرب : ١٧٢/٢ - ١٧٣ ، الاطاعة : ٢٨٣/٢ .

(١)

بغيتته ولم ترقه فاشتاق الى الأندلس وأيامه بها فقال :

هذه مصر ، فأين المغرب * فقد نأى عنى دموعى تسكب
فارقته النفس جهلا انما * يعرف الشئ اذا ما يذهب
(٢)
أين حمص ؟ أين أيامى بها * بعدها لم ألق شيئا يعجب
كم تقضى لى بها من لذة * حيث للنهر خريز مطرب
وحمام الأيك تشدو حولنا * والمثاني فى ذراها تصخب
أى عيش قد قطعناه بها * ذكره من كل نعمى أطيب
ولكم بالمرج لى من لذة * بعدها ما العيش عندي يحسب
والنواير التى تذكركها * بالنوى عن مهجتي لا يسكب
بلدة طابت درب غافر * ليتنى ما زلت فيهما أنسب
أين حسن النيل من نهر بها * كل نعمات لديك تلهب
الى أن يقول :

هذه حالى وأما حالتي * فى نرى مصر ففكر متعب
أسمعت أننى محالا ليتها * لم تصدق وحبها من يكذب
وكذا الشئ اذا غاب انتهوا * فيه وصفا كى يميل الخيب
ها أنا فيها فريد مهممل * وكلامى ولساننى محسب
وأرى الألفاظ تنبوعندما * أكتب الطرس ، أفيه عقرب ؟

فابن سعيد فى هذه الأبيات يصرخ لنا حياته السابقة فى الأندلس حيث الطبيعة الجذابة من مروج تشدو وأطيافها ومطاح تجري أنهارها ، تلك الأنهار التى بطربه خريرها وشتان بينها وبين نيل مصر فهو لا يكاد يذكر اذا ما ذكرت لجمالها وورقها ، أما حالته فى مصر فيرش لها فهو فيها مهمل لا يؤبه له

(١) بلنينا ، تاريخ الفكر الأندلسي : ١٣٦ - ١٣٧ .

(٢) حمص : قصد بها اشبيلية ، لأنها كانت تسمى بذلك من أيام بنى أمية .

بالرغم كونه منزه الكلام واللسان فهو أديب شاعر وكاتب تاريخ مشهور ، وربما
ظن أن ينال شهرة عريضة في مصر ، ولكن لكونه غريباً لم يقبل عليه أحد
أو يأخذ عنه ، حتى تمنى أنه لم يرحل عن بلده وإن كانت ذنبه تزداد كل
يوم لأنه في " بلدة طيبة وطرب غفور " وهناك كاتب وشاعر أندلسي آخر موبنفس
للتجربة حيث ارتحل إلى الشرق فجال في العراق وأقام في حلب بالشام ،
وذلك عندما نبت به بلده قرطبة عند تقلب دولها وشحول ملكوها ، وذلك فس
عصر ملوك الطوائف في القرن الخامس الهجري والشاعر هو : أبو بكر محمد بن
(١)
بن القاسم الطقب " اشكبهاده " يقول :

أين أقصى الغرب من أرض حلب * أمل في الغرب موصول التمسب
عن من شوق إلى أوطانـــــــــــــــــه * من جفاه صبره لما اغترب
جال في الأرض لجاجاً حائراً * بين شوق وهنسا ونصب
كل من يلقاه لا يعرفـــــــــــــــــه * مستغيثاً بين عجم وهرب
لهف نفسي أين هاتيك الملا * وأضعاها هاغين الحسب
والذي قد كان ذخراً وـــــــــــــــــه * أرتجى العال وأدراك المرتب
صار لي أبهى ما أعددتـــــــــــــــــه * بين قوم مادروا طعم الأرب
يا أحيائي اسمعوا بعض الندى * يتلقاه الطريق المسترب
ما يكن زجوا لكم عن غـــــــــــــــــة * يرجع الرأس لديهما كالذنب

(١) من أهل وادي الحجارة يعرف باشكبهاده وهي تعني بلسان أهل
الأندلس " ما هذا " جال في الشرق ثم رجع إلى الأندلس وحل بحضرة
دانيه عند ملكها مجاهد العامري ونال من بلوغ الآمال ما ليس طمعه مزيد .
انظر النفح : ٢٩٨/٢ ، تحقيق معي الدين عبد الحميد ، ابن
سعيد ، المغرب في حلى المغرب : ٣١/٢ ، الذخيرة : القسم
الأول ، ج ١ ، ص ٢٣٠ .

ان القارئ لهذه الأبيات يشعر فعلا بالمرارة التي كانت تنطق نفس الشاعر
 الغريب فهو يمشى في الأرض مستوحشا حائرا فاقد الصبر من شدة الغربة
 وشدة الشوق الى الوطن فهو يعيش بين هاتين النارين ، وسبب ذلك أنه
 ضاع قدره في هذا المجتمع الذي لا يعرفه وكسدت بهضافته من شعر ونثر تلك
 البضاعة التي جاء يعرضها في الشرق ليكسب فيها الأموال وادراك الرتب
 لذا نراه يوجه نصيحة لأحبائه من الأندلسيين بأن لا يفكروا في الغربة السني
 تضع الحسب والكرامة وهذا كقول القائل : "سرك في دارك أعز لك من يسرك
 (١)
 في غربتك " .

وقد يطرد بعض الناس من أوطانهم لسبب من الأسباب فيقسم له الحسب
 هجد راحة واكراما وأما - وخاصة اذا كان ملكا أو أميرا - ولكن هذه النعمم
 التي يتقلب فيها لا يشعر بطعمها ، وهي لا تساوي عنده جليصة واحدة فسي
 نرى وطنه ومع أحبائه . وهذا ما حصل مع الأمير الفرناطي ابن الأحمر حين
 أخرجه بنوهم من ملوك بني الأحمر النصريين خوفا على سلطانهم منه " وذلك
 لأجل واثق مردود ومطلق بذلك غير ودود ، يظهر لهم النصيحة حاله
 مخوفهم ما وقع في الأيام الخالية " فيخرج الى بر العروة عند

(١) البيهقي ، المحاسن والمساوي : ٤٩٠/١ .

(٢) هو اسماعيل بن يوسف بن محمد بن أبي سعيد المدعوب بالأحمر ، ولد
 بفرناطة سنة ٧٢٥ هـ ، وكان الفرع الذي ينتس اليه هذا الأمير قد
 اضطرب بسبب الخلاف حول الملك فاصطدم اسماعيل بن فرج (خامس
 ملوك بني الأحمر) بهذا المذكور ووالده وأخيه ففروا الى فاس بالمغرب
 انظر ترجمته : ابن القاضى المكاسي ، جذوة الاقتباس : ١٦٦/١ ،
 محمد بن مخلوف ، شجرة النمر الزكية : ٢٣٨ ، ابن القاضى ، درة
 المجال : ٢١٣/١ .

ملوك المغرب وقد أمطروا علينا سحاب كرمهم ، وحسنت الأحوال ، وذهبت
الأحوال ، وطاب المقام ، ونجم الأمان واستقام ومع ذلك اشتاق الى وطنه
(١)
فقال :

فؤادى يشتكى داء دفيننا * لبعدى عن مزار الظاعنيننا
وأكبادى من الأشواق ذابت * ووجدى بعد هم ألف الشجوننا
روب البيت لا أنس هواهم * وكيف ؟ وهم بظهى ساكنوننا
لمعزى ما التوى إلا عذاب * وانى قد بليت به سنيننا
يهيج زفرتى تذكار أرضى * وهفجمنى وهستفنى الجنوننا
حنين ما حبيت لها عظيم * وما بسوى محبتها بليننا
فما صبر وان بعدت بيباق * كذا سنن الكرام الماجديننا
وما مراد نفسى كان عنهما * بما دى ، لا روب العالميننا

بعد هذا قال " فلولا أن هدر الملوك بنوعى بوطى لى لسرت اليه
(٢)
على رأسى لاطى قدسى " ، بعد ، فمن خلال هذه الأمثلة التى قدمناها
- وماهى الا قطرة من بحر شعر الحنين الى الأوطان - يتضح لنا مدى
ما للوطن من عظيم حب فى نفوس أبنائه ولا سيما الشعراء منهم فهم اللسان
الناطق المعبر عن العاطفة الجياشة بالحب والحنين لتراب الوطن ، وقد
يتغنى الشاعر بوصف بلاده ويمجدها أشد التمجيد ، الا أنه عندما يقترب
عنها يزيد حبها بشدة فى نفسه وتستهميه مغانيتها ويبدأ بتذكر أيام الشباب
والطفولة السعيدة فتثور نفسه وتشرب فتجود قريحته عنده قد بقصائد فى منتهى
الركة والجمال تقطر بالأسى وصدق العاطفة بعيدة عن التكلف وتعمد الزخرفة

(١) اسماعيل ابن الأحمر ، تثير انجمن فى شعر من نظمى واياه الزمان

• ٢٥ :

(٢) المصدر نفسه : ٢٦ •

اللفظية والمحسنات المعنوية لأن المجال لا يسمح بذلك فالشاعر في حالته
أشواق شائره وحنين مطلق وهو يحاول أن ينفس عما يجده من طويق الشمس ،
كما ينفس المحزون عن نفسه بالبكاء والسرور عن فرجه بالضحك وهكذا .

وإذا كان الشاعر يفعل هذا إذا كان في غربة قد تطول مدتها وقصد
تقصر فيعود الى وطنه وتهدأ نفسه وتطمئن ، فما بالك بالشاعر ذي العاطفة
الرقيقة الذي يكون شاهدا على نكبة بلده واحتلالها من قبل الأعــداء
وتدمير حضارتها ، وآمال أهلها . لاشك أن النكبة ستطك عليه نفسه
وجوانحه وتؤثر عليه سلبا وإيجابا فينطلق بقصائد أقوى عاطفة وتأثيرا فـي
السامعين من شعر الحنين . وهذا مانراه في الفصول التالية ان شاء
الله تعالى

الباب الأول

رثا الدول والأصناف المشرقة

الفصل الأول

رثاء الدول والأصناف في العصر الجاهلي

الرثاء فن من الفنون الشعرية الجميلة ، يجمع بين روعة الخيال وعمق
الحاطفة وحرارة المشاعر ممزوجة بجلال الحقيقة وصدق الواقع . فالشاعر
المبدع عندما يعيش تجربة الحزن والأسى ، تتحول دموعه ولوعته الى صور
بيانية ذات روعة شجية تنطبع في نفس السامع أو القارئ تاركة أثرا عميقا .

ولعل صدق المشاعر هذا ، وانتفاء أي غرض أو منفعة من وراء القصيدة
هو الذي جعل الرثاء أشرف أغراض الشعر عند العرب .

وإذا كان رثاء الأشخاص بشكل عام يجعل هذه المنزلة الرفيعة - لأنه
هو الغالب - فما بالك برثاء أعظم وأشمل ، ذلك هو رثاء الدول والأوطان
التي عاشت حيناً من الدهر وازدهرت ، ونعم أهلها في ظلالها ، ثم
طارت يد الحدثان ، فأودت بها بشكل أو بآخر .

لا شك أن العواطف ستتدفق وتنتج شعرا فياضاً بالأسف والحزن يعبر
عن مشاعر الجماهير المصابة وينطق بلسانها . فهل كان في العصر الجاهلي
الذي لم يعرف العرب فيه الاستقرار في الحواضر شيئاً من هذا النصر ؟ هذا
ما سنعرفه في هذا الفصل إن شاء الله .

(١)

ان أول نص نجد في العهد الجاهلي هو قصيدة الشاعر يعرب بن جند

(١) لم أجد له ترجمة تفصيلية ، ولكن السهيلي يذكر أنه لقب بذي جند
لحسن صوته ، والجند الصوت بلغتهم ، وهو أول من غنى في اليمن
انظر : الروض الأنف : ٢٢٨/١ .

الحميري يروى فيها دولة قومه الحميريين في اليمن والتي دمرت على يـسـد
(١)
الأحباش وهدمت حصونها وقصورها التي لم يكن في الناس مثلها كقصصه
وسلحين وغيرها يقول :

هونك ليس يرد الدمع مافاتا * لا تهلكي أسفا في ذكر من ماتا
(٢)
أبعد بينون لا عين ولا أثر * وعد سلحين يبنى الناس أبياتا
ويقول أيضا :

دعيني لا أبالك لن تطيقسى * لحاك الله قد أنزفت ريقسى
لدى عزق القيان اذا انتشينا * واذ نسق من الخمر الرحيق
وشرب الخمر ليس على عارا * اذا لم يشكني فيها رفيقسى
(٣)
فان الموت لا ينهاه نـاه * ولو شرب الشفاء مع النشوق
(٤)
ولا مترهب في أسطوان * يناطح جدره بيبي الأنشوق

(١) تم ذلك عندما أغار ذو نواس ملك حمير - وكان يهوديا - على أهل نجران
- النصراني - وقتل منهم مقتلة عظيمة لعدم قبولهم اليهودية ، وأقلست
منهم رجل يقال له " دوس ثعلبان " وذهب إلى قيصر الروم يستجد به
لكن قيصر لم يستطع إمداده بالجنود لبعده الشقة ، فكتب إلى ملك
الحبشة بذلك ، وكان نصرانيا ، فبعث هذا سبعين ألف مقاتل من
الأحباش بقيادة أرياط ، وأمره أن يقتل ثلث رجال حمير ، ويخرب
ثلث بلادهم ، ويسبي ثلث نسائهم وأبنائهم ، ففعل ذلك وأكسب
ولم يطلق ذو نواس ذلك فانتحرب بالقاء نفسه في البحر / انظر ، الطبري
: ١٢٦/٢ .

(٢) بينون وسلحين : من حصون اليمن العظيمة للملوك التابعة / معجم
البلدان : (بينون) ، (سلحين) .

(٣) النشوق : ما يشم عن طريق الأنف / اللسان (نشق) .

(٤) الأنشوق : الرخم ، ويقال في المثل لما لا يوجد : أعز من بيبي الأنشوق .

(١)

- وغمدان الذي حدثت عنده * بنوه مسكاً فوق رأس نبيق
(٢)
بمنهمة وأسفله جروب * وحر الموحل اللثق الزليق
مصاييح السليط تلوح فيه * اذا يمسى كتوماض السجوق
ونخلته التي غرست اليه * يكاد البسر يهصر بالعسندوق
فأصبح بعد جدته رمادا * وغير حسنه لهب الحريق
وأسلم ذو نواس مستميتاً * وحذر قومه ضحك المضيق

والشاعر يبدأ قصيدته على نسق عمود الشعر القديم حيث يزجر صاحبه
التي أفرطت في لومه على تهالكه على شرب الخمر وسماع القيان ، ليمهد
بذلك لذكر الفناء الذي يلحق كل شيء على هذه الأرض مهما بلغ من القوة
والمنعة ، فهذا قصر غمدان مقر طوك اليمن العظام ، الذي كان مضرب المثل
في الجلال ومثانة البناء يهوى صريعا بفعل الهدم والحرق ويفر عنه
صاحبه ذو نواس الى غير رجعة ، ويسلم رعيته للقتل والأسر .

والقصيدة لا يبدؤ فيها احساس أو تأثير بالحدث نفسه الذي أودى بالدولة
وان كانت لا تخلو من نغمة أسى لاستشعارها الفناء الشامل الأكيد .

(١) غمدان : قصر باليمن بنى على أربعة ألوان ، وله سبعة سقوف بسين

كل سقوين منها أربعون ذراعاً وفي أعلاه مجلس منى بالرخام الطيبون
وعلى كل ركن من أركانه تمثال أسد ، وكانت تسج فيه المصاييح ليلاً
فيلمع من ظاهره كالبرق ، هدم آخر الأمر أيام عثمان بن عفان رضي الله
عنه وقيل : ان سليمان عليه السلام - أمر الشياطين فبنوا في صنعاً -
لهلقيم - ثلاثة قصور هي غمدان ومينون وسلحين / معجم البلدان /
(غمدان) .

(٢) اللثق الزليق : اختلاط الراب بالماء ، المنهمة : موضع الرهبان ،
جروب : حجارة سوداء / اعظم القصيدة ومعانيها في : ابن هشام ،
السيرة النبوية : ١ / ٣١ - ٣٣ .

وممن رثى دولة حمير - أيضا - حين دمرها الأعباش الشاعر المسمى بابن
(١)
الذئبية يقول :

- لعمر ك ماللفتى من مفسر * مع الموت يدعقه والكبر
- لعمر ك ماللفتى صحرة * لعمر ك ما ان له من وزر (٢)
- أبعد قبائل من حمير * أثوا ذا صباح بذات العبر
- بألف ألف وحرا بـ * كمثل السماء قبيل المطر
- يصم صياحهم المقريبات * وينفون من قاتلوا بالزمر (٣)
- سعالى كمثل عديد الترا * ب ييس منهم رطاب الشجر

وفى هذه الأبيات نجد تقريبا - المعانى نفسها التى مرت فى القصيدة
السابقة الا أنها أكثر تفصيلا للحادث ، وأشد عاطفة ، فبعد أن يؤكد
الشاعر على النهاية الحتمية لكى حى عن طريق التكرار الذى ينبىء عن جو
حزين بعيشه الشاعر ويريد اشاعته بعد ذلك يصف لنا الآلاف المؤلفه من
جيش الأعباش التى انتهالت على الحميريين ويرسم لهم صورة مرعبة يستشف منها
النتيجة التى حصلت بالفعل . فهم سعالى يزحفون على الأخضر واليابس
ولهم عجب عجب وضجيج يصم الاذان .

(١) هوريممة بن عبد ياليل بن سالم بن جشم بن قصى ، والذئبية
اسم أمه / انظر : السيرة النبوية : ٣١ / ١ ، البكرى ، سمط اللالى
٧٦٢ / ٢ .

(٢) صحرة : متسع ، الصحاح (صحر)

وزر : ملجأ ، المصدر نفسه (وزر) .

(٣) المقريبات : الخيل المعتاق التى تربط قريبا من البيوت ، وتكون معدة

للحرب . الصحاح (قرب) .

الزمر : الجماعات / اللسان (زمر) .

ويقول الأعشى في رثاء قصر ريمان الفخم الذى بناه تبع اليمن وزخرفه

(١)

ثم دمر على يد الأحباش والفرس الذين تعاقبوا على اليمن قبل الاسلام :

يامن يرى ريمان أمسه * سى خاوما غربا كعابسه
أمسى الثعالب أهله * بعد الذين هم مآبسه
من سوقة حكم ، ومن * ملك يعد له ثوابسه
بكرت عليه الفرس بعد * د الحبش حتى هد بابسه
فتراه مهديم الأعلا * لى ، وهو مسحول ترابسه
ولقد أراه بغبطة * فى العيش مخضرا جنابسه
فغوى وما من ذى شبا * ب دائم أبدا شبابسه

فالأعشى يرثى قصرا لم يمش فى فناءه ولم تربطه به روابط وثيقة وذكريات
قديمة وانما قد يكون عاج عليه لغرض من أغراض الشعراء ، ثم زاره تارة أخرى
فرأى ما حل به من التدمير ، أو ربما سمع عن خرابه فقال فى رثائه تلك الأبيات
ولهذا لا نرى عاطفة قوية مشبوبة بالحزن ، وانما الأبيات تجري مجرى الحكمة
والدعوة الى التدبر فى تقلبات الأيام ، فهذا القصر الشامخ أمسى أطالا
تسكه الثعالب بعد أن غدا مهديم الأعلى والأسافل ، ويختتم أبياته بتلك
الحكمة التى تشير الى سنة الحياة فى التفسير الدائم لكل ما عليها .

(٢)

ومن الشعر الذى يرثى القصور والمنازل بصفة عامة قول رجل من كندة :

(٣)

أولم ترى ريدان أسلم أهله * وأتى الحوادث رأس قلة معنق .
هد أن عاد ا ثم عدن عليهم * وشمود أجساد بهضبة أغلق .

(١) ديوانه : ٢١ - ٢٢ .

(٢) القصيدة بتناسها فى : البحرى ، الحماسة : ١١٥ - ١١٦ .

(٣) ريدان : بلد باليمن وهو قصر ملكة ظفار / الحميرى ، الروض المعطار

: (ريدان) .

- فأرى المشقر كان يحرس بابيه * ألف وألف من يرمه يخلق . (١)
- ثبت اذا طاف المد وببابيه * نطت معاولة وليس بمرتقى .
- وأصبن أبرهة الذى سجدت له * صم الفيول صوامتا لم تنطسق .
- والأسد مسكة على أبوابيه * فاذا الطوك تحزوا لم يفرق .
- وأصبن كسرى وابن كسرى بعده * والمرء قيصر وأنتحين لمسوق . (٢)
- وأصبن نوحا بعدما بلغت به * أفق البلاد سفينة لم تفسق . (٣)
- ويقول عدى بن زيد العبادى فى رثاء الممالك الزائلة :
- أيها الشامت الممسير بالده * رأأت المبرأ الموفر .
- أم لديك العهد الوثيق من ال * أيام أم أنت جاهل مفرور .
- من رأيت المنون خلدن أم من * ذا عليه من أن يضام خفير .
- أين كسرى كسرى الطوك أبوسا * سان أم أين قبلة سابور .
- وينو الأصفر الكرام ملوك السر * وم لم يبق منهم مذكور .

(١) المشقر : قصر عظيم بالبحرين ، وقيل هى مدينة عظيمة فى وسطها
قلعة / المصدر نفسه (المشقر) .

(٢) موق : موضع به بلاد فارس / المصدر السابق (موق) .

(٣) هو عدى بن يزيد بن حماد التميمى العبادى ، من أهل الحيرة ،
شاعر مجيد ، وكان يحسن العربية والفارسية وهو أول من كتب بالعربية
فى ديوان كسرى أنوشروان . توفى مقتولا سنة ٣٥ قبل الهجرة على
يد النعمان بن المنذر انظر / ابن الأثير : اللباب : ٣١١ / ٢ ، الأغاني
٢ / ٢٧ .

(٤) ابن قتبية ، الشعر والشعراء : ٢٢٥ - ٢٢٦ .

- وأخو الحضرة ابن بنائه وان رج — * لة تجبى اليه والخابور . (١)
 شاده مرمرا وجلله كلس — * سا فللطيرو ذراه وكور .
 وتبين رب الخورنق ان أشه — * رف يوما وللمدى تفكير . (٢)
 سره حاله وكثرة مايمس — * لك والبحر معرضا والسدير . (٣)
 فارعوى قلبه فقال : وماغيب — * طة حى الى المات يصير .
 ثم بعد الفلاح والطق وال — * امة وارتمهم هناك قبور . (٤)
 ثم أضحوا كأنهم ورق جفف — * ف فألوت بها الصبا والدبور .

ان هاتين القصيدتين تسيران على نمط واحد هو الحديث عن مصف
 الدهر ، واطاحته بالأمم منذ عهد نوح - عليه السلام - مروراً بقوم عاد ثم
 شعوب أهل القوة والمنعة ثم الأحياء والفرس والروم . . . الخ وكيف أصبح
 جميعهم أحاديث وعبر مضرب لنا الشاعر العبادى مثلاً لهوان الدنيا بالملك
 النعمان بن المنذر صاحب قصر الخورنق المشهور ، ^١ ^٢ ^٣ ^٤ ^٥ ^٦ ^٧ ^٨ ^٩ ^{١٠} ^{١١} ^{١٢} ^{١٣} ^{١٤} ^{١٥} ^{١٦} ^{١٧} ^{١٨} ^{١٩} ^{٢٠} ^{٢١} ^{٢٢} ^{٢٣} ^{٢٤} ^{٢٥} ^{٢٦} ^{٢٧} ^{٢٨} ^{٢٩} ^{٣٠} ^{٣١} ^{٣٢} ^{٣٣} ^{٣٤} ^{٣٥} ^{٣٦} ^{٣٧} ^{٣٨} ^{٣٩} ^{٤٠} ^{٤١} ^{٤٢} ^{٤٣} ^{٤٤} ^{٤٥} ^{٤٦} ^{٤٧} ^{٤٨} ^{٤٩} ^{٥٠} ^{٥١} ^{٥٢} ^{٥٣} ^{٥٤} ^{٥٥} ^{٥٦} ^{٥٧} ^{٥٨} ^{٥٩} ^{٦٠} ^{٦١} ^{٦٢} ^{٦٣} ^{٦٤} ^{٦٥} ^{٦٦} ^{٦٧} ^{٦٨} ^{٦٩} ^{٧٠} ^{٧١} ^{٧٢} ^{٧٣} ^{٧٤} ^{٧٥} ^{٧٦} ^{٧٧} ^{٧٨} ^{٧٩} ^{٨٠} ^{٨١} ^{٨٢} ^{٨٣} ^{٨٤} ^{٨٥} ^{٨٦} ^{٨٧} ^{٨٨} ^{٨٩} ^{٩٠} ^{٩١} ^{٩٢} ^{٩٣} ^{٩٤} ^{٩٥} ^{٩٦} ^{٩٧} ^{٩٨} ^{٩٩} ^{١٠٠} ^{١٠١} ^{١٠٢} ^{١٠٣} ^{١٠٤} ^{١٠٥} ^{١٠٦} ^{١٠٧} ^{١٠٨} ^{١٠٩} ^{١١٠} ^{١١١} ^{١١٢} ^{١١٣} ^{١١٤} ^{١١٥} ^{١١٦} ^{١١٧} ^{١١٨} ^{١١٩} ^{١٢٠} ^{١٢١} ^{١٢٢} ^{١٢٣} ^{١٢٤} ^{١٢٥} ^{١٢٦} ^{١٢٧} ^{١٢٨} ^{١٢٩} ^{١٣٠} ^{١٣١} ^{١٣٢} ^{١٣٣} ^{١٣٤} ^{١٣٥} ^{١٣٦} ^{١٣٧} ^{١٣٨} ^{١٣٩} ^{١٤٠} ^{١٤١} ^{١٤٢} ^{١٤٣} ^{١٤٤} ^{١٤٥} ^{١٤٦} ^{١٤٧} ^{١٤٨} ^{١٤٩} ^{١٥٠} ^{١٥١} ^{١٥٢} ^{١٥٣} ^{١٥٤} ^{١٥٥} ^{١٥٦} ^{١٥٧} ^{١٥٨} ^{١٥٩} ^{١٦٠} ^{١٦١} ^{١٦٢} ^{١٦٣} ^{١٦٤} ^{١٦٥} ^{١٦٦} ^{١٦٧} ^{١٦٨} ^{١٦٩} ^{١٧٠} ^{١٧١} ^{١٧٢} ^{١٧٣} ^{١٧٤} ^{١٧٥} ^{١٧٦} ^{١٧٧} ^{١٧٨} ^{١٧٩} ^{١٨٠} ^{١٨١} ^{١٨٢} ^{١٨٣} ^{١٨٤} ^{١٨٥} ^{١٨٦} ^{١٨٧} ^{١٨٨} ^{١٨٩} ^{١٩٠} ^{١٩١} ^{١٩٢} ^{١٩٣} ^{١٩٤} ^{١٩٥} ^{١٩٦} ^{١٩٧} ^{١٩٨} ^{١٩٩} ^{٢٠٠} ^{٢٠١} ^{٢٠٢} ^{٢٠٣} ^{٢٠٤} ^{٢٠٥} ^{٢٠٦} ^{٢٠٧} ^{٢٠٨} ^{٢٠٩} ^{٢١٠} ^{٢١١} ^{٢١٢} ^{٢١٣} ^{٢١٤} ^{٢١٥} ^{٢١٦} ^{٢١٧} ^{٢١٨} ^{٢١٩} ^{٢٢٠} ^{٢٢١} ^{٢٢٢} ^{٢٢٣} ^{٢٢٤} ^{٢٢٥} ^{٢٢٦} ^{٢٢٧} ^{٢٢٨} ^{٢٢٩} ^{٢٣٠} ^{٢٣١} ^{٢٣٢} ^{٢٣٣} ^{٢٣٤} ^{٢٣٥} ^{٢٣٦} ^{٢٣٧} ^{٢٣٨} ^{٢٣٩} ^{٢٤٠} ^{٢٤١} ^{٢٤٢} ^{٢٤٣} ^{٢٤٤} ^{٢٤٥} ^{٢٤٦} ^{٢٤٧} ^{٢٤٨} ^{٢٤٩} ^{٢٥٠} ^{٢٥١} ^{٢٥٢} ^{٢٥٣} ^{٢٥٤} ^{٢٥٥} ^{٢٥٦} ^{٢٥٧} ^{٢٥٨} ^{٢٥٩} ^{٢٦٠} ^{٢٦١} ^{٢٦٢} ^{٢٦٣} ^{٢٦٤} ^{٢٦٥} ^{٢٦٦} ^{٢٦٧} ^{٢٦٨} ^{٢٦٩} ^{٢٧٠} ^{٢٧١} ^{٢٧٢} ^{٢٧٣} ^{٢٧٤} ^{٢٧٥} ^{٢٧٦} ^{٢٧٧} ^{٢٧٨} ^{٢٧٩} ^{٢٨٠} ^{٢٨١} ^{٢٨٢} ^{٢٨٣} ^{٢٨٤} ^{٢٨٥} ^{٢٨٦} ^{٢٨٧} ^{٢٨٨} ^{٢٨٩} ^{٢٩٠} ^{٢٩١} ^{٢٩٢} ^{٢٩٣} ^{٢٩٤} ^{٢٩٥} ^{٢٩٦} ^{٢٩٧} ^{٢٩٨} ^{٢٩٩} ^{٣٠٠} ^{٣٠١} ^{٣٠٢} ^{٣٠٣} ^{٣٠٤} ^{٣٠٥} ^{٣٠٦} ^{٣٠٧} ^{٣٠٨} ^{٣٠٩} ^{٣١٠} ^{٣١١} ^{٣١٢} ^{٣١٣} ^{٣١٤} ^{٣١٥} ^{٣١٦} ^{٣١٧} ^{٣١٨} ^{٣١٩} ^{٣٢٠} ^{٣٢١} ^{٣٢٢} ^{٣٢٣} ^{٣٢٤} ^{٣٢٥} ^{٣٢٦} ^{٣٢٧} ^{٣٢٨} ^{٣٢٩} ^{٣٣٠} ^{٣٣١} ^{٣٣٢} ^{٣٣٣} ^{٣٣٤} ^{٣٣٥} ^{٣٣٦} ^{٣٣٧} ^{٣٣٨} ^{٣٣٩} ^{٣٤٠} ^{٣٤١} ^{٣٤٢} ^{٣٤٣} ^{٣٤٤} ^{٣٤٥} ^{٣٤٦} ^{٣٤٧} ^{٣٤٨} ^{٣٤٩} ^{٣٥٠} ^{٣٥١} ^{٣٥٢} ^{٣٥٣} ^{٣٥٤} ^{٣٥٥} ^{٣٥٦} ^{٣٥٧} ^{٣٥٨} ^{٣٥٩} ^{٣٦٠} ^{٣٦١} ^{٣٦٢} ^{٣٦٣} ^{٣٦٤} ^{٣٦٥} ^{٣٦٦} ^{٣٦٧} ^{٣٦٨} ^{٣٦٩} ^{٣٧٠} ^{٣٧١} ^{٣٧٢} ^{٣٧٣} ^{٣٧٤} ^{٣٧٥} ^{٣٧٦} ^{٣٧٧} ^{٣٧٨} ^{٣٧٩} ^{٣٨٠} ^{٣٨١} ^{٣٨٢} ^{٣٨٣} ^{٣٨٤} ^{٣٨٥} ^{٣٨٦} ^{٣٨٧} ^{٣٨٨} ^{٣٨٩} ^{٣٩٠} ^{٣٩١} ^{٣٩٢} ^{٣٩٣} ^{٣٩٤} ^{٣٩٥} ^{٣٩٦} ^{٣٩٧} ^{٣٩٨} ^{٣٩٩} ^{٤٠٠} ^{٤٠١} ^{٤٠٢} ^{٤٠٣} ^{٤٠٤} ^{٤٠٥} ^{٤٠٦} ^{٤٠٧} ^{٤٠٨} ^{٤٠٩} ^{٤١٠} ^{٤١١} ^{٤١٢} ^{٤١٣} ^{٤١٤} ^{٤١٥} ^{٤١٦} ^{٤١٧} ^{٤١٨} ^{٤١٩} ^{٤٢٠} ^{٤٢١} ^{٤٢٢} ^{٤٢٣} ^{٤٢٤} ^{٤٢٥} ^{٤٢٦} ^{٤٢٧} ^{٤٢٨} ^{٤٢٩} ^{٤٣٠} ^{٤٣١} ^{٤٣٢} ^{٤٣٣} ^{٤٣٤} ^{٤٣٥} ^{٤٣٦} ^{٤٣٧} ^{٤٣٨} ^{٤٣٩} ^{٤٤٠} ^{٤٤١} ^{٤٤٢} ^{٤٤٣} ^{٤٤٤} ^{٤٤٥} ^{٤٤٦} ^{٤٤٧} ^{٤٤٨} ^{٤٤٩} ^{٤٥٠} ^{٤٥١} ^{٤٥٢} ^{٤٥٣} ^{٤٥٤} ^{٤٥٥} ^{٤٥٦} ^{٤٥٧} ^{٤٥٨} ^{٤٥٩} ^{٤٦٠} ^{٤٦١} ^{٤٦٢} ^{٤٦٣} ^{٤٦٤} ^{٤٦٥} ^{٤٦٦} ^{٤٦٧} ^{٤٦٨} ^{٤٦٩} ^{٤٧٠} ^{٤٧١} ^{٤٧٢} ^{٤٧٣} ^{٤٧٤} ^{٤٧٥} ^{٤٧٦} ^{٤٧٧} ^{٤٧٨} ^{٤٧٩} ^{٤٨٠} ^{٤٨١} ^{٤٨٢} ^{٤٨٣} ^{٤٨٤} ^{٤٨٥} ^{٤٨٦} ^{٤٨٧} ^{٤٨٨} ^{٤٨٩} ^{٤٩٠} ^{٤٩١} ^{٤٩٢} ^{٤٩٣} ^{٤٩٤} ^{٤٩٥} ^{٤٩٦} ^{٤٩٧} ^{٤٩٨} ^{٤٩٩} ^{٥٠٠} ^{٥٠١} ^{٥٠٢} ^{٥٠٣} ^{٥٠٤} ^{٥٠٥} ^{٥٠٦} ^{٥٠٧} ^{٥٠٨} ^{٥٠٩} ^{٥١٠} ^{٥١١} ^{٥١٢} ^{٥١٣} ^{٥١٤} ^{٥١٥} ^{٥١٦} ^{٥١٧} ^{٥١٨} ^{٥١٩} ^{٥٢٠} ^{٥٢١} ^{٥٢٢} ^{٥٢٣} ^{٥٢٤} ^{٥٢٥} ^{٥٢٦} ^{٥٢٧} ^{٥٢٨} ^{٥٢٩} ^{٥٣٠} ^{٥٣١} ^{٥٣٢} ^{٥٣٣} ^{٥٣٤} ^{٥٣٥} ^{٥٣٦} ^{٥٣٧} ^{٥٣٨} ^{٥٣٩} ^{٥٤٠} ^{٥٤١} ^{٥٤٢} ^{٥٤٣} ^{٥٤٤} ^{٥٤٥} ^{٥٤٦} ^{٥٤٧} ^{٥٤٨} ^{٥٤٩} ^{٥٥٠} ^{٥٥١} ^{٥٥٢} ^{٥٥٣} ^{٥٥٤} ^{٥٥٥} ^{٥٥٦} ^{٥٥٧} ^{٥٥٨} ^{٥٥٩} ^{٥٦٠} ^{٥٦١} ^{٥٦٢} ^{٥٦٣} ^{٥٦٤} ^{٥٦٥} ^{٥٦٦} ^{٥٦٧} ^{٥٦٨} ^{٥٦٩} ^{٥٧٠} ^{٥٧١} ^{٥٧٢} ^{٥٧٣} ^{٥٧٤} ^{٥٧٥} ^{٥٧٦} ^{٥٧٧} ^{٥٧٨} ^{٥٧٩} ^{٥٨٠} ^{٥٨١} ^{٥٨٢} ^{٥٨٣} ^{٥٨٤} ^{٥٨٥} ^{٥٨٦} ^{٥٨٧} ^{٥٨٨} ^{٥٨٩} ^{٥٩٠} ^{٥٩١} ^{٥٩٢} ^{٥٩٣} ^{٥٩٤} ^{٥٩٥} ^{٥٩٦} ^{٥٩٧} ^{٥٩٨} ^{٥٩٩} ^{٦٠٠} ^{٦٠١} ^{٦٠٢} ^{٦٠٣} ^{٦٠٤} ^{٦٠٥} ^{٦٠٦} ^{٦٠٧} ^{٦٠٨} ^{٦٠٩} ^{٦١٠} ^{٦١١} ^{٦١٢} ^{٦١٣} ^{٦١٤} ^{٦١٥} ^{٦١٦} ^{٦١٧} ^{٦١٨} ^{٦١٩} ^{٦٢٠} ^{٦٢١} ^{٦٢٢} ^{٦٢٣} ^{٦٢٤} ^{٦٢٥} ^{٦٢٦} ^{٦٢٧} ^{٦٢٨} ^{٦٢٩} ^{٦٣٠} ^{٦٣١} ^{٦٣٢} ^{٦٣٣} ^{٦٣٤} ^{٦٣٥} ^{٦٣٦} ^{٦٣٧} ^{٦٣٨} ^{٦٣٩} ^{٦٤٠} ^{٦٤١} ^{٦٤٢} ^{٦٤٣} ^{٦٤٤} ^{٦٤٥} ^{٦٤٦} ^{٦٤٧} ^{٦٤٨} ^{٦٤٩} ^{٦٥٠} ^{٦٥١} ^{٦٥٢} ^{٦٥٣} ^{٦٥٤} ^{٦٥٥} ^{٦٥٦} ^{٦٥٧} ^{٦٥٨} ^{٦٥٩} ^{٦٦٠} ^{٦٦١} ^{٦٦٢} ^{٦٦٣} ^{٦٦٤} ^{٦٦٥} ^{٦٦٦} ^{٦٦٧} ^{٦٦٨} ^{٦٦٩} ^{٦٧٠} ^{٦٧١} ^{٦٧٢} ^{٦٧٣} ^{٦٧٤} ^{٦٧٥} ^{٦٧٦} ^{٦٧٧} ^{٦٧٨} ^{٦٧٩} ^{٦٨٠} ^{٦٨١} ^{٦٨٢} ^{٦٨٣} ^{٦٨٤} ^{٦٨٥} ^{٦٨٦} ^{٦٨٧} ^{٦٨٨} ^{٦٨٩} ^{٦٩٠} ^{٦٩١} ^{٦٩٢} ^{٦٩٣} ^{٦٩٤} ^{٦٩٥} ^{٦٩٦} ^{٦٩٧} ^{٦٩٨} ^{٦٩٩} ^{٧٠٠} ^{٧٠١} ^{٧٠٢} ^{٧٠٣} ^{٧٠٤} ^{٧٠٥} ^{٧٠٦} ^{٧٠٧} ^{٧٠٨} ^{٧٠٩} ^{٧١٠} ^{٧١١} ^{٧١٢} ^{٧١٣} ^{٧١٤} ^{٧١٥} ^{٧١٦} ^{٧١٧} ^{٧١٨} ^{٧١٩} ^{٧٢٠} ^{٧٢١} ^{٧٢٢} ^{٧٢٣} ^{٧٢٤} ^{٧٢٥} ^{٧٢٦} ^{٧٢٧} ^{٧٢٨} ^{٧٢٩} ^{٧٣٠} ^{٧٣١} ^{٧٣٢} ^{٧٣٣} ^{٧٣٤} ^{٧٣٥} ^{٧٣٦} ^{٧٣٧} ^{٧٣٨} ^{٧٣٩} ^{٧٤٠} ^{٧٤١} ^{٧٤٢} ^{٧٤٣} ^{٧٤٤} ^{٧٤٥} ^{٧٤٦} ^{٧٤٧} ^{٧٤٨} ^{٧٤٩} ^{٧٥٠} ^{٧٥١} ^{٧٥٢} ^{٧٥٣} ^{٧٥٤} ^{٧٥٥} ^{٧٥٦} ^{٧٥٧} ^{٧٥٨} ^{٧٥٩} ^{٧٦٠} ^{٧٦١} ^{٧٦٢} ^{٧٦٣} ^{٧٦٤} ^{٧٦٥} ^{٧٦٦} ^{٧٦٧} ^{٧٦٨} ^{٧٦٩} ^{٧٧٠} ^{٧٧١} ^{٧٧٢} ^{٧٧٣} ^{٧٧٤} ^{٧٧٥} ^{٧٧٦} ^{٧٧٧} ^{٧٧٨} ^{٧٧٩} ^{٧٨٠} ^{٧٨١} ^{٧٨٢} ^{٧٨٣} ^{٧٨٤} ^{٧٨٥} ^{٧٨٦} ^{٧٨٧} ^{٧٨٨} ^{٧٨٩} ^{٧٩٠} ^{٧٩١} ^{٧٩٢} ^{٧٩٣} ^{٧٩٤} ^{٧٩٥} ^{٧٩٦} ^{٧٩٧} ^{٧٩٨} ^{٧٩٩} ^{٨٠٠} ^{٨٠١} ^{٨٠٢} ^{٨٠٣} ^{٨٠٤} ^{٨٠٥} ^{٨٠٦} ^{٨٠٧} ^{٨٠٨} ^{٨٠٩} ^{٨١٠} ^{٨١١} ^{٨١٢} ^{٨١٣} ^{٨١٤} ^{٨١٥} ^{٨١٦} ^{٨١٧} ^{٨١٨} ^{٨١٩} ^{٨٢٠} ^{٨٢١} ^{٨٢٢} ^{٨٢٣} ^{٨٢٤} ^{٨٢٥} ^{٨٢٦} ^{٨٢٧} ^{٨٢٨} ^{٨٢٩} ^{٨٣٠} ^{٨٣١} ^{٨٣٢} ^{٨٣٣} ^{٨٣٤} ^{٨٣٥} ^{٨٣٦} ^{٨٣٧} ^{٨٣٨} ^{٨٣٩} ^{٨٤٠} ^{٨٤١} ^{٨٤٢} ^{٨٤٣} ^{٨٤٤} ^{٨٤٥} ^{٨٤٦} ^{٨٤٧} ^{٨٤٨} ^{٨٤٩} ^{٨٥٠} ^{٨٥١} ^{٨٥٢} ^{٨٥٣} ^{٨٥٤} ^{٨٥٥} ^{٨٥٦} ^{٨٥٧} ^{٨٥٨} ^{٨٥٩} ^{٨٦٠} ^{٨٦١} ^{٨٦٢} ^{٨٦٣} ^{٨٦٤} ^{٨٦٥} ^{٨٦٦} ^{٨٦٧} ^{٨٦٨} ^{٨٦٩} ^{٨٧٠} ^{٨٧١} ^{٨٧٢} ^{٨٧٣} ^{٨٧٤} ^{٨٧٥} ^{٨٧٦} ^{٨٧٧} ^{٨٧٨} ^{٨٧٩} ^{٨٨٠} ^{٨٨١} ^{٨٨٢} ^{٨٨٣} ^{٨٨٤} ^{٨٨٥} ^{٨٨٦} ^{٨٨٧} ^{٨٨٨} ^{٨٨٩} ^{٨٩٠} ^{٨٩١} ^{٨٩٢} ^{٨٩٣} ^{٨٩٤} ^{٨٩٥} ^{٨٩٦} ^{٨٩٧} ^{٨٩٨} ^{٨٩٩} ^{٩٠٠} ^{٩٠١} ^{٩٠٢} ^{٩٠٣} ^{٩٠٤} ^{٩٠٥} ^{٩٠٦} ^{٩٠٧} ^{٩٠٨} ^{٩٠٩} ^{٩١٠} ^{٩١١} ^{٩١٢} ^{٩١٣} ^{٩١٤} ^{٩١٥} ^{٩١٦} ^{٩١٧} ^{٩١٨} ^{٩١٩} ^{٩٢٠} ^{٩٢١} ^{٩٢٢} ^{٩٢٣} ^{٩٢٤} ^{٩٢٥} ^{٩٢٦} ^{٩٢٧} ^{٩٢٨} ^{٩٢٩} ^{٩٣٠} ^{٩٣١} ^{٩٣٢} ^{٩٣٣} ^{٩٣٤} ^{٩٣٥} ^{٩٣٦} ^{٩٣٧} ^{٩٣٨} ^{٩٣٩} ^{٩٤٠} ^{٩٤١} ^{٩٤٢} ^{٩٤٣} ^{٩٤٤} ^{٩٤٥} ^{٩٤٦} ^{٩٤٧} ^{٩٤٨} ^{٩٤٩} ^{٩٥٠} ^{٩٥١} ^{٩٥٢} ^{٩٥٣} ^{٩٥٤} ^{٩٥٥} ^{٩٥٦} ^{٩٥٧} ^{٩٥٨} ^{٩٥٩} ^{٩٦٠} ^{٩٦١} ^{٩٦٢} ^{٩٦٣} ^{٩٦٤} ^{٩٦٥} ^{٩٦٦} ^{٩٦٧} ^{٩٦٨} ^{٩٦٩} ^{٩٧٠} ^{٩٧١} ^{٩٧٢} ^{٩٧٣} ^{٩٧٤} ^{٩٧٥} ^{٩٧٦} ^{٩٧٧} ^{٩٧٨} ^{٩٧٩} ^{٩٨٠} ^{٩٨١} ^{٩٨٢} ^{٩٨٣} ^{٩٨٤} ^{٩٨٥} ^{٩٨٦} ^{٩٨٧} ^{٩٨٨} ^{٩٨٩} ^{٩٩٠} ^{٩٩١} ^{٩٩٢} ^{٩٩٣} ^{٩٩٤} ^{٩٩٥} ^{٩٩٦} ^{٩٩٧} ^{٩٩٨} ^{٩٩٩} ^{١٠٠٠} ^{١٠٠١} ^{١٠٠٢} ^{١٠٠٣} ^{١٠٠٤} ^{١٠٠٥} ^{١٠٠٦} ^{١٠٠٧} ^{١٠٠٨} ^{١٠٠٩} ^{١٠١٠} ^{١٠١١} ^{١٠١٢} ^{١٠١}

ولعله من الملاحظ اكثار المبادئ من الحديث عن الفرس وحلفائهم
المناذره بشكل خاص وذلك لعيشه في الحيرة ومخالفاته لهم عن قرب .

(١)

والواقع أن لدينا قصائد كثيرة تشير على هذا النهج فتذكر الفرس والسرور
ومن دار في فلهم وتشيد بمعزهم وسلطانهم ، بينما لا نجد ذكرا لقبائسل
العرب الا على ندرة شديدة والسبب يتضح من الفرق الشاسع في الحضارة
والعمران والملك بين الأمم المذكورة والعرب ، ولا أدل على ذلك من ايوان
كسرى المشهور الذي ظل الشعراء العرب يذكرونه ويتخذونه مثلا أعلى
لمعزة الملك والسلطان حتى في العصور الاسلامية الزاهرة .

وربما كان الشبب في تشابه هذه القصائد هو التقليد والاتباع ، لأننا
نجد تأثيرها في النفس قليلا ، فأما أن يكون الشعراء قد وجدوا في هذا
الفن لونا جديدا طريفا ينظمون فيه الشعر ، وأما أن يكون الغرض من ذلك
اظهار الحكمة والحنكة من خلال مرور الحوادث على نفس الشاعر ، وذلك لما
كان للانسان المجرب - وخاصة الشاعر - من قيمة في أوساط قبيلته . وربما
يكون أقرب الأدلة على هذا ، الشاعر المشهور الأعشى ميمون بن قيس السلمي
كان مولعا بالخمر الى درجة كبيرة ، حتى انه صده عن اعتناق الاسلام فيما
يروي . ومع ذلك نجد له عدة قصائد في رثاء الممالك وتغلب الدهر ، ومخاطبة
السامعين بالعظة والعبرة مذكرا بالموت والفناء موصيا بالحدار من الدنيا
والتقلل منها .

(١) انظر حماسة البحتري : ١٢٨ قصائد الأعشى ، وقصائد لبيد فسق

المصدر نفسه : ١١٨ - ١١٩ .

(٢) انظر قصيدة الأسود بن يعفر النهشلي في المفضليات : ٤٤٥ - ٤٥١

وهو شاعر جاهلي فحل كان ينادم النعمان بن المنذر / انظر ترجمته :

ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء : ٣٢ - ٣٤ .

(٣) البكري ، سمط اللالكى : ٢٢١ / ١ .

(١)

وفي السنة الثانية عشرة للهجرة النبوية نجد قصيدة في رثاء الحيرة لأحد
(٢)
أبنائها يدعى ابن بقلية ، وذلك عندما غزاها خالد بن الوليد -رضي الله
عنه - وقت منصرفه من حروب الردة في اليمامة ومعد القضاء على مسيلمة الكذاب
زعيم المرتدين ، وعندما وصل خالد إليها طلب رجلا من عقلاء أهلها
ليفاوضه ، ويعرض عليه الاسلام أو الجزية أو الحرب . فخرج اليه ابن بقلية
هذا وكان آنذاك كبير السن ، وعندما تكلم أعجب خالد بحكمته وحسن جوابه
وانتهى الأمر بالصلح مقابل دفع الجزية .

(٣)

وعندما دخل المسلمون المدينة أخذ الحزن نفس الرجل فقال :-
أبعد المنذرين أرى سواما * تروح بالخوثق والسديسر .
ومعد فوارس النعمان أروعى * قلوفا بين مرة والحفيسير . (٤)
تحاماه فوارس كل قيسوم * مخافة ضيغم عالي الزئير .
(٥)
فصرنا بعد هلك أبي قبيس * كجرب المصزق اليوم المطير .

(١) هي مدينة صغيرة جاهلية حسنة البناء طيبة الثرى ، على ثلاثة أميال
من الكوفة فيها منازل ملوك - بنى لخم ونصر وهم آل النعمان بن المنذر
الرومي المعطار : (حيره) .

(٢) هو عبد المسيح بن عمرو بن قيس ، وقيلة اسمه ثعلبه أو الحارث ، وسمى
بذلك لأنه خرج في بردين أخضرين على قومه فقالوا له : ما أنت الا بقيلة
فسمى بذلك . وقد أدرك ابن بقلية الاسلام ولكنه بقى على نصرانيته
وعمر طويلا / انظر : أمالي المرتضى : ٢٦٢/١ ، تاريخ الطبري
٣٤٥/٣ .

(٣) الأبيات في معجم البلدان / تحت كلمة (خوثق) و (سدير) .

(٤) مرة أو مريرة : ما لبني عمرو بن كلاب / المصدر السابق (المريرة) .
الحفيس : ما لباهله بينه وبين البصرة أربعة أميال / المصدر نفسه
(الحفيس) .

(٥) هو أبو قابوس ، أحد ملوك الحيرة المشهورين من المناذرة / انظر
تاريخ اليعقوبي : ٢١١/١ .
ولعله شبيهه هنا بجبل أبي قبيس بمكة المكرمة لعزته ومنعة دولته .

- تقسنا القبائل من محمد * علانية كأيسار الجسور .
- وكنا لا يرام لنا حريـــــــــــــــــم * فنحن كضرة الضرع الفخور (١)
- نؤدى الخرج بعد خراج كسرى وخرج من قريظة والتضير .
- كذلك الدهر دولته سجال * فيوم من مساة أوسسرو .

وهذه القصيدة كما يبدو وأوفر حظا من حيث العاطفة وصدق الشعـــــــــــــــــر
مما سبقها من القصائد وذلك لأنه يتحدث عن تجربة واقعية مر بها ، فالمدينة
مدينته ، وأهلها قومه . ورغم أن المدينة لم تدم ولم تصب بأذى إلا أنه اعتبر
دفع الجزية مقابل دفاع المسلمين عنها نوعا من ضربات الدهر القاصم ، فراح
يتذكر طوكها العظام أرباب الخونق والسدير ، الذين هلكوا فأصبح الناس
بعدهم نهبا للقبائل قد مسهم الذل ولا يجدون ملجأ فهم (كجرب الممزر
فى اليوم المطير) وهذه الصورة تدل على الحزن والكلم النفس الذى يعايشه
الشاعر . لكنه يستسلم لحكم الدهر لأن دولته سجال ومن سره زمن ساءتـــــــــــــــــه
أزمان .

وقد وضعت هذه القصيدة ضمن العصر الجاهلى رغم أنها قبلت بمحمد
مجيء الاسلام لأن قائلها جاهلى وفقى الاسلام ، ولأنها تسير على النمط
الجاهلى فى الرثاء الذى مر سابقا .

(١) ناقة فخور : هى العظيمة الضرع الضيقة الأحاليل فلا يخرج لبنها
إلا بصعوبة / الصحاح : (فخر) وقد قصد فى البيت القوة والمهيبة
وشدة المحافظة .

الفصل الثانى

رثاء الدولة الأموية

إذا أنتظنا من العصر الجاهلى الى العصر الاسلامى ، نلاحظ أنه فى بداية هذا العصر - أى فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين - لا يوجد شعر فى رثاء الدول أو المدن وذلك لأن هذا العهد كان عهد قوة ، وفتح للأقاليم المعادية للإسلام لتحطيم رؤوس الكفر وطواغيته وليفصح المجال أمام الشعوب لتدخل فى دين الله مختاره ، بعد أن أزيلت من طريقها الحواجز والرقم من حصول كثير من الفتن فى هذه الفترة ، وخاصة فترة خلافة الإمام على - كرم الله وجهه - وعمره مع معاوية - رضى الله عنه - وسيطرة أحد الفريقين على بعض ما بأيدي الفريق الآخر من الأرض والمسدن فى بعض الأحيان ، فانه وجد خلال ذلك شعر فى رثاء الأشخاص وتمجيد بطولاتهم وشجاعتهم ، ولم يوجد رثاء مدن لأن الأمر لا يتعدى تفتير وال بأمر مع حاشيته وكمهم يدينون بالاسلام فلا تتغير معالم المدينه ، ولا يرحل عنها أهلها ولا يستباحون الا فى النادر .

تمخضت الأحداث السالفة الذكر عن ولادة الدولة الأموية برئاسة معاوية بن أبى سفيان ثم أفضت بعده الى ابنه يزيد وهكذا أصبحت ملكا وراثيا وكان هذا أول انحراف عن سنن الراشدين ، ولعل هذا الأمر هو الذى عجل بانقراض دولة بنى أمية إذ أن قانون المراثية هذا جعل الخلافة من حق ولى العهد مهما كان صبيا صغيرا ، أو ماجنا عابثا ، فانغمس هؤلاء فى الترف وتركوا أمور البلاد الشاسعة ، والترف - كما هو معروف - داء السعدول العضال الذى لا يبدأ الا بالانقراض والزوال . ومما زاد الطين بلّة التناسخ الشديد الذى كان يقوم داخل البيت الأموى الحاكم نفسه على السلطة فكل

يحاول أن يستأثر بها دون الآخرين ويحتكرها في أولاده دون اخوانه
(١) وأقاربه . وهذا ماحوره الشاعر الأموي أبو عدي العجلي في قصيدة يحذر فيها
بنى أمية من الخلاف وتجريد السيوف في وجوه بعضهم وقصيدته هذه تجمع
بين التحذير والتعنيف والبكاء يقول : (٢)

ما بال عينك جاثلا أقذاؤها * شرقت بمعبرتها فطال بكاؤها
واعتادها ذكر العشيرة بالأسى * فصلاحها ناب بها ومساؤها
شركوا العدا في أمرهم فتفاقت * منها الفتون ومزقت أهواؤها
ظلت هناك وما يعاتب بعضها * بعضها فينفع ذا الرجا رجاءها
الا بمرهفة الطببات كأنها * شهب تقل - اذا هوت أخطاؤها
ومحسل زرق يكون خضابها * طلق النحر اذا تغيث دماؤها
فبذاكم أمست تعاتب بينها * فلقد خشيت بأن يحم فناؤها

ان الشاعر وان كان لا يرضى عن تصرفات بنى قومه الأمويين كسب طموح
- رضى الله عنه - وآله ومعاملتهم تلك المعاملة القاسية التي فيها كثير من
الاهانة ناهيك عن القتل والتشريد . رغم ذلك فانه يحزن عليهم ويجذبه الرحم
وهتاف العشيرة فيقف باكيا وراثيا وداعيا لهم بالرشاد :

(١) هو عبد الله بن عمر بن علي بن عدي ، يكنى أبا عدي . شاعر مجيد من
شعراء قريش ومن مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، كان في أيام
بنى أمية يميل الى بنى هاشم ، ويذم قومه بنى أمية ، فلم يكن منهم اليه
صنيع جميل فسلم بذلك أيام العباسيين ، ثم خرج علي أبي جعفر المنصور
مع محمد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية ، ووضعه واليا
على الطائف ، ثم هرب الى اليمن بعد القضاء على الثورة ولعله مات
هناك / انظر الأغاني : ٢٩٤ / ١١ ، مصطفى الشكعة ، رحلة الشعر
من الأموية الى العباسية : ٤١٢ .

(٢) الأغاني : ٣٠٧ / ١١ - ٣٠٨ .

- ماذا أو مل ان أمية ودعت * ومقا سگان البلاد بقاؤها •
- غيث البلاد هم وهم أمراؤها • * سرج يضىء دجن الظلام ضياءها •
- فلئن أمية ودعت وتتايعت * لغواية حميت لها خلفاؤها •
- ليودعن من البرية عزها • * ومن البلاد جمالها ورجاؤها •
- ومن البلية أن بقيت خلافهم * فردا تهيجك دهرهم وخلاؤها •
- هلا نهى تنهى الفوى عن السقى * يخشى على سلطانها غوغاؤها •
- وتقى وأحلام لها مضربقة • * فيها اذا تدمى القلوب دواؤها •

ومعد هذا الزجر وتذكيرهم بتقوى الله ثم تحكيم العقل فى أمر المصلحة العامة ، وردع السفیه الباغى ، لا يجد الشاعر طجأ الا الله فيتوجه اليه متضرعا بأن يصلح ذات البين :-

- لما رأيت الحرب توقد بينها • * وهشب نار وقودها أنكاؤها •
- نوهت بالطك المهيم دعوة • * ورواح نفسى فى البلاد دعاؤها •
- ليرد ألفتها ويجمع شملها • * بخيارها فخيرها رحماؤها •
- فبنو أمية خير من ولوى الشرى • * شرفا وأفضل ساسة أمراؤها •

والذى بيد وأن هذه القصيدة بالرغم من جودتها الأسلوبية وسبكها المحكم ، وتلمسها لحساسيات النفوس ، فانها لم تجد أذنا صاغية ، فلم يك القوم عما هم فيه فازدادت الأوضاع ترديا واضطرابا ، وانتهز العباسيون الفرصة السانحة فى مثل هذه الظروف وقام محمد بن على بن عبد الله بن عباس بالدعوة لال البيت وان الخلافة حق من حقوقهم المقتضية من رسله فى خراسان ليكون أبعد عن مركز الخلافة الأموية بدمشق . وكانت الدعوة سرية والاعتماد فيها على غير العرب من الفرس وغيرهم ، وربما كان هذا لعدم معرفة الجسم للعربية فيكون اطلاعهم على الأمر لا يكشف سرا ، وثانيا عاطفتهم الدينية

القوة بحب آل البيت والميل اليهم وخاصة أن دعاة العباسيين ماكانسوا
لا يدعون لامام بعينه بل للرضا من آل محمد - صلى الله عليه وسلم - ولم يلبث
محمد بن علي هذا أن مات وكان قد عهد بالامامة بعده الى ابنه ابراهيم
فاتخذ هذا له مقرا بالحكمة وهي منطقة في جنوب الأردن على طريق الحاج
واصطنع الرجال والموالي وكان من أشهرهم أبو مسلم الخراساني الداهية
الذي أستطاع أن يفرق رسله في كور خراسان وأصبح لديه من القوة والأتباع
ما أشعر والى الأمويين بخراسان نصر بن سيار بالخطر الداهم ، فكتب الي

الخليفة مروان بن محمد يخبره بالأمر :- (١)

- أرى غلل الرماد وهي جمر * فيوشك أن يكون لها ضرام
- فان النار بالعودين تذكو * وان الحرب أطها الكلام
- فان لم تطفئوها تجن حربا * شجرة يشيب لها السلام
- فقت من التعجب ليت شعري * أيقاظ أمية أم نيام
- فان كانوا لحينهم نياما * فقل قوموا فقد حان القيام
- ففرى عن رجالك ثم قولى * على الاسلام والعرب السلام

فكتب اليه مروان : " ان الشاهد يرى مالا يرى الغائب فاحسم الثؤلؤل
فقال نصر عند ما وصله كتاب مروان مخاطبا من حوله : " أما صاحبكم فقد
أعلمكم ألا نصره عنده . وعندئذ وجه نصر بن سيار همه لجمع وحده الصنف
واخماد الفتن التي كانت تائره بين المضربة واليمانية في خراسان ومرو وغيرهما
(٣)
محذوهم من العدو الداخل اليهم قاءلا :

(١) الأزدى ، تاريخ الموصل : ١٠٦ - ١٠٧ ، ابن عبد ربه ، العقد

الفريد : ٤٧٨ / ٤ .

(٢) تاريخ الموصل : ١٠٧ .

(٣) تاريخ الطبري : ٣٧ / ٢ .

- * فليفضبوا قبل أن لا ينفع الغضب .
- * ولينصبوا الحرب ان القوم قد نصبوا حربا يحرق في حافاتهما الحطب .
- * ما بالكم تلحفون الحرب بينكم * كأن أهل الحجا عن فعلكم غيب .
- * وتتركون عدا قد أظلكم * مما تأشب لا دين ولا حسـب .
- * قد ما يدينون دينا ماسمعت به * عن الرسول ولم تنزل به الكتب .
- * فمن يكن سائلا عن أصل دينهم * فان دينهم أن تقتل العسـرب .

فالشاعر هنا يحاول لفت انتباه القبائل الى العدو المشترك ثم هو يكشف عن حقيقة هذا العدو - وهو يعني أبا مسلم ومن تبعه من قومه الفرس - فهم قوم ذوو حقد دفين على العرب ، فالدولة الأموية - كما هو معروف - كانت دولة عربية صرفة لم يبلغ الأعاجم فيها أى مرتبة حساسه ، فاستغل هؤلاء - أيضا - اعتماد الامام ابراهيم بن محمد عليهم وابعادهم للعرب ، فأظهروا ما بأنفسهم ، فيروى عن أبى مسلم بعد تمكنه أنه لم يترك طبقة من طبقات المجتمع الا قتل منها بادئا بالقادة والوزراء ثم القضاة والعلماء والخبر
(١)
... الخ .

كما تروى عن ابراهيم في هذا الشأن روايات منها ما يرويه ابن هـاـكـمـر قال : (٢)

" كان أبو مسلم يكتب ابراهيم فقدم على ابراهيم رسول أبى مسلم ، فسأله فإذا هو رجل من عرب خراسان ، فصيح ، ففهم ذلك . فكتب الى أبى مسلم ألم أنك عن أن يكون رسولك عربيا . يطلع مثل هذا على أمرك ، فإذا أتاك فاقتله " وتضيف الرواية أن الرسول قرأ الكتاب فأتى به مروان بن محمد فأرسل من جنده الى ابراهيم فجاءوا به فحبس ثم قتل في سجنه سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

(١) انظر : المقدسى ، الهدى والتاريخ : ٦ / ٩٣ .
(٢) تهذيب تاريخ دمشق الكبير : ٢ / ٣٦٤ ، وما بعده .

ويروي الطبري أيضا : " وكان ابراهيم بن محمد كتب الى أبيه

(١)

مسلم - فيما قالوا - الا يدع بخراسان أحدا يتكلم العربية الا قتله " .

وربما كان في هذه الروايات شيء من المبالغة أو الزيادة ولكنها ذات دلالة

على فقدان ثقته في العرب ، وتخوفه من موالا تهم لحكامهم من بني أمية

الذين لا تأخذهم رحمة ، ولا هوادة فيمن ظنوا به سوءا .

ومهما يكن الأمر فقد اشتد أمر أبي مسلم حتى استولى على خراسان

كلها وهرب نصر بن سيار وولده حتى مات بساوة بين الرى وهمذان

ثم أقبلت الجيوش من خراسان رافعة السواد شعار العباسيين ، وبدأت

شمى الدولة الأموية بهالاً فول ، وكانت النهاية المحتومة حين قتل مروان بن

محمد آخر الخلفاء الأمويين بعد معركة الزاب الكبير وقامت دولة بني العباس ،

هويع أبو العباس السفاح أول خليفة . ومن بكي الدولة الفارسية شمسرا

الشاعر الأماوي الآتف الذكر أبو عدى العبللى حيث قال : (٢)

تقول أمانة لصا رأت * نشوزى عن المضجع أله نفس

وظة نومي على مضجعى * لدى هجمة الأعين النفس .

أبى ، ماعراك ؟ فقلت الهموم * عرون أباك فلا تبلسنى (٣)

عرون أباك فحبسنى * من الذل فى شر ما محبسون .

لفقد الحشيرة ان نالها * سهام من الحدث المئس .

رمتها الضنون بلائى نصل * ولا طائشات ولا نكسنى (٤)

بأسهمها الخالسات النفوس * متى ما أقتضت مهجة تخلص .

(١) تاريخ الطبرى : ٣٧/٢ .

(٢) الأغانى : ٢٩٨/١١ - ٢٩٩ ، رحلة الشعر : ٤٢٢ .

(٣) تبلسنى : من الابلأس وهو الحيرة واليأس وقطع الرجا من رحمة الله . اللسان

مادة (بلس) .

(٤) النكس : سهم نكس : انكسر فوقه فجعل أعلاه أسفله . الزمخشري ، أساس

البلاغة مادة (نكس) .

ان عاطفة الحزن تصبغ هذه الأبيات وتظللها ، فالمصيبة قد عمت بفقد
 عشيرة الشاعر ذات المجد الحريق ، لذلك فهو مهوم ومضطرب لم يبق لـه
 سند من الناس بعد أن رمت المنون دوة قومه بأسهمها المصمات فبدلت
 عزهم ذلا ونعيمهم بؤسا ، ويبلغ الشاعر ذروة تأثيره الحزين عندما يتكلم
 عن البلاء الذي حل بقومه بشئ من التفصيل :-

فصرعاهم في نواحي البلاد * تلقى بأرض ولم ترمس (١)
 كريم أصيب وأثوابه * من العار والذام لم تدنس .
 وآخر قد دار خوف الردى * وكان الهمام فلم يحسن .

ان العباسيين عند قيام دولتهم تتبعوا الأميين في كل مكان يقتلونهم
 أينما وجدوهم حتى الذين أعطوهم الأمان كسليمان بن هشام بن عبد الملك
 ورهط معه من بني قومه ، رجموا فقتلوه صبرا . ويرى أن شاعرا كان يحقد
 على بني أمية ويؤلب عليهم ، دخل يوما على أبي العباس السفاح فرأى فس
 مجلسه قوما ممن بقى من بني أمية فصاح على الفور مخاطبا الخليفة السفاح :
 (٢)

(١) ترمس : تدفن / اللسان ماده (رمن) .
 (٢) الشاعر هو سديف بن ميمون . مولى بني العباس وشاعرهم . كان مولى
 لأمرأة من خزاعة ، وكان زوجها من اللهبين فادعى سديف بذلك
 ولا بني هاشم . وكان أدبيا بارعا ، وخطيبا مصقفا . تشيع لبني على
 الخارجيين على المنصور ، فظفر به عامل المنصور على مكة وقتله سنة ١٤٦ هـ
 انظر ، ابن قتيبة ، الشعر والشعراء : ٤٧٩ ، تهذيب ابن عساكر

: ٦٨/٦ .

(٣) طبقات ابن الممتر : ٤٠ .

لا يفرك ماترى من رجال * ان تحت الضلوع د^ا د^بيا .
 فضح السيف وارفع السوط حتى * لا ترى فوق ظهرها أم^بيا .
 فألهبت هذه الأبيات غضب الخليفة ، وأثارت كوامن حقه ، فأمر
 بضرب كل من حضر من الأمويين ، وقيل أنه بسط الانطاع عليهم وأمر بغدائه
 فتناوله فوقهم وان بعضهم لا يزال يتحرك أو يئن . وإذا كان الأمر مرعبا
 ومفرعا الى هذا الحد فما حال من بقى بعد قتل الرجال ؟ يجيب المبلّغ :
 فكم غادروا من بواكى العيو * ن مرضى ومن صببة بؤس .
 اذا ما ذكرتهم لم تتم * لحرّ الهموم ولم تجلس .
 يرجعن مثل بكاء الحمى * م فى مأتم طلق المجلس .
 فذاك الذى غالى فاعلمى * ولا تسألينى فتستحسى .
 وأشياء قد ضفنى بالبلاد * ولست لهن بمستحسى . (١)
 ان نفس الشاعر يمتصرها الألم والحزن لحالة الأطفال والنساء الذين
 أصبحوا يعيشون فى مأتم دائم وحزن متواصل لفقد العائل . وبعد ذلك
 يذهب المبلّغ ليعدد الأماكن التى قتل فيها بنو أمية ، وهى كثيرة ومتعددة
 فيزيد تفجعه لبيان شمول النكبة وكأنه يقول ، لا أدري من أبكى ؟ أهؤلاء
 أم لا وليك ؟ .

أفاض المدام قتل كدى * وقتلى بكتوة لم ترمى . (٢)
 وقتلى بوج ضلالا بقتلى * من يثرب خير ما أنفسى . (٣)

-
- (١) المستحسى : المقيم الذى لا يرح / اللسان : ماله (جلس) .
 (٢) كدى : موضع بأسفل مكة وهو الذى دخل منه الرسول - صلى الله عليه
 وسلم - يوم فتح مكة / البكرى ، معجم ما استعجم ١١١٧/٤ ، كتوة :
 موضع بعينه لم تحدده المعاجم / معجم البلدان (كتوة) .
 (٣) ج : هو الطائف ، أو واد بها / الروض المعطار : (ج) .

والزبابين نفوس ثـموت * وقتلى بنهر أبى فطرس . (١)
 أولئك قوم تـداعت بهـم * نواب من زمن متعس .
 أزلت قيادى لمن رامنى * وألـزقت الرغـم بالمعـطس .
 فما أنس لا أنس قتلاهم * ولا عاش بعدهم من نسى .

ومعد ، فالشاعر وفق كل التوفيق فى رسم صورة خزينة بائسة لفناء قومـه
 وزوال ملكهم ومجدهم ، وقد أشرك نفسه معهم فى الصوره ، غير أنهم ذهبوا
 أعزاء ، حتى هو على آثارهم يقاسى الأسى والذل راغم الأنف . وقد كانت عاطفة
 الشاعر من الصدق بـمكان ، فابتعد عن التكلف والزخرفة اللفظية والمعنوية
 بل كان شعره ينساب سهلاً بشكل حوار حزين ينفع فيه الشاعر وتـمـرره
 الهموم السودا* وتطـك عليه نفسه .

وقد جاء روى القصيدة - السين المكسورة - مناسباً كل المناسبة لمـنـذه
 القصيدة فالسين حرف هامس يناسب النفس الحزينة التى هدّها النبأ الفاجع .
 ولعل هذه القصيدة تفتح باباً جديداً من أبواب الشعر العربى الاسلامى
 وهو باب رثاء الدول ، وذلك لأن هذه القصيدة من أوائل القصائد التى قيلت
 فى هذا الموضوع ان لم تكن هى الأولى . ولعل القصائد الـسـينـية التى ستمـر
 بنا فى هذا الموضوع تأثرت أو اجـتـذت هذه القصيدة ، فكأنها أصبحت نموذجاً

(١) الزببيان أو الزبان : نهران أسفل الفرات ، هما الزاب الأعلى ،
 والأسفل يأتيان من بلاد أرمينية ويصبان فى دجلة ، ومدينة السزاب
 بينهما / المصدر السابق (الزاب) .

نهر أبى فطرس : اسم نهر قرب الرملة بفلسطين / معجم البلدان (فطرس) .

للرثاء الصادق لما توفر فيها من جودة البناء والسبك . ومن الشعراء الذين
(١)
رثوا دولة بني أمية الشاعر أبو العباس الأعمى الذي كان يوالى بني أمية
أشد الولاء ويحبهم حبا جما ولا يشرك معهم أحدا فى هذا الحب حتى
انه كان يعادى آل بيت النبى - صلى الله عليه وسلم - لمناواتهم للأمويين .
فعندما يشتد الخطب على الدولة الأموية وتبدأ بالانهيار التدريجى ، يجد
الأعمى من واجبه أن يذهب الى الشام ليقف على منازل الأحياء عند مروان
بن محمد الذى كانت الأرض قد ضاقت عليه بما رحبت لما يرى من تناقض
أطراف مملكته يوما بعد يوم فينشده الأعمى :-

- ليت شعرى أفاح رائحة المسد * ك وما ان اخال بالخيف انسى .
حين غابت بنو أمية عنه * والبهاليل من بنى عبد شمس .
خطباء على المنابر فرسسا * ن عليها وقاله غير خرس .
لا يعابون صامتين وان قسا * لوا أصابوا ولم يقطوا بلبس (٢)
بحلوم اذا الحلوم تقضت * ووجوه مثل الدنانير طمس .

ومن عجيب المصادفة أن يلتقى شاعرنا بأبى جعفر المنصور وهو فى طريقه
الى الشام ويخبره بوجهته وينشده هذه الأبيات التى هى رثاء مشوب بالمدح

(١) هو السائب بن فروخ المكي . مولى لبني جذيمة بن عدى ، كان هجاء
خبثا فاسقا مبغضا لال الرسول مائلا الى بني أمية ، أكثر شعره فى
هجاء آل الزبير غير مصعب لأنه كان يحسن اليه ، سمع عبد الله بن عمرو
يروى عنه عطاء ، وعمرو بن دينار ، ووثقه أحمد ، وروى له البخارى
ومسلم وأصحاب السنن مات ما بين ١٣٦ - ١٤٠ هـ .

انظر : ترجمة : الصفدى ، نكت الهميان : ١٥٤ ، الأعلام : ١١٠ / ٣ .
(٢) الأغاني : ٢٩٩ / ١٦ - ٣٠٠ ، ط دار الكتب .

والثنا على الأمويين ، فهم الفرسان وأهل الفصاحة والعقول الراجحة
 الخ ، وماهى الا فترة زمنية بسيطة حتى تسقط دولة الأمويين
 وتقوم دولة العباسيين ويتولى أبو جعفر المنصور الخلافة بعد السفاح ويخرج
 حاجا فى احدى سنوات خلافته فيصر بالأعمى واقترب منه ، وقال له : أنا
 رفيقك وأنت تريد الشام أيام مروان ، فيتشهد أبو العباس وينشد بالهم
 وحسرة :- (١)

- آمت نساء بنى أمية منهم * وناتهم بمضيعة أيتام .
- نامت جدودهم وأسقط نجمهم * والنجم يسقط والجدود تنام .
- خلت المناير والأسرة منهم * فعليهم حتى الممات سلام .

ان الخليفة العباسي قد قصد من كلامه مع الأعمى اختيار لائه لمواليه
 الأول وهل كان حبه لهم للعطاء فقط ؟ وموقفه من الدولة الجديدة ؟ فيكون
 جواب الشاعر هذه الأبيات التى تقطر حزنا وأسى لفقد أولئك القوم عند ما
 خانهم الحظ وفارقهم السعد ، ثم يثبت الشاعر أنه لا يزال وفيا لهم حتى بعد
 موتهم ، وسيبقى كذلك حتى الممات . الأمر الذى جعل المنصور يسأله متعجبا
 : " كم كان مروان أعطاك بأبى أنت " ؟ فيقول : أغنانى أن أسأل أحدا بعد
 فيفتاظ المنصور بهم بضرب عنقه غير أنه يتذكر حق الصحبة فيمسك عنقه
 ويغيب الشاعر عن الخليفة زمنا ثم يطلبه فلا يعثر له على أثر ، وكأنما البعيد
 باد به .

ان أبيات أبى العباس - رغم قلتها - تدل على شاعرية فذه ، وشكيلة قوية
 وقد تميز أسلوبه بالسلاسة مع الفخامة وقوة الجرس .

وقال عثمان بن الوليد بن عماره القرشى ، يذكر فعل الدهر ببني أمية : (٢)

(١) الأبيات والأخبار الواردة معها فى المصدر نفسه ص ٣٠٠ .

(٢) حماسة البحترى : ص ١٢٦ .

من يأمن الدهر ممساة ومصبحه * في كل يوم له من معشر جزر .
 بعد ابن مروان أودى بعد مقدرة * دانت لهيبتها الأضرار والكور .
 ثم الوليد فسل عنه مازله * بالشام والشام معسوله خضر (١)
 تجبى إليه بلاد الله قاطبة * أخلافها ثرة لأمره درر .
 وفي سليمان آيات ومعضلة * وفي هشام أهل العقل معتبر .
 واذكر أبا خالد وطى بمهجتته * ريب المنون وطى قلبه عمر .
 وفي الوليد أبى العباس موعظة * لكل من ينفع التجريب والفكر .
 دانت له الأرض طرا وهي داخرة * لا يدفع الذل من أقطارها قطر .
 بينا له الملك مافى صفوة كدر * ان عاد زنقا وفيه الشوب والكدر (٢)
 كانوا ملوكا يجرون الجيوش بمسا * يقل في جانبيه الشوك والشجر .
 فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم * ظفروا سوى الذكر والآثار ان ذكروا .

ان الشاعر القرشى في هذه الأبيات يضرب المثل لفعل الدهر وصنيعه
 بالأمم ببنى أمية أولئك الذين ملوكوا الدنيا ، وأطاعتهم أقطار الأرض طوعا
 وكرها فبنوا القصور العظيمة بالشام وغيرها وتربعوا على سدة الحكم ملوكا
 لا يرام حماهم ، ومكثوا على هذه الحالة شطرا من الدهر حتى رامهم بقواصة
 فبادوا كأن لم يكونوا شيئا يذكر .

والشاعر هنا يختلف عن سبقه من الشعراء الذين مر ذكرهم من حيث العاطفة
 والأسلوب فهو هنا يقصد الى الاعتبار بالموت المؤكد لكل انسان مهما بلغ
 شأنه في هذه الحياة . وعباراته دالة على ذلك كقوله : " وفي هشام لأهل
 العقل معتبر ، " لكل من ينفع التجريب والفكر " .

(١) الأَخلاف : جمع خلف وهو الضرع ، ثرة : غزيره / لسان العرب : (خلف)

(شرر) .

(٢) الرنق : الكدر وما يكون في الماء من الطين اللسان : مادة (رنق) .

أما عاطفته فهي حزينة ولا شك ولكنها غائمة اتسمت بالذكر عدد غير قليل من الخلفاء المؤمنين وذكر عزمهم ومجدهم ثم مالوا اليه من الهلاك والفساد ، ولم تنصب عاطفته بحراره على الحدث الأهم أو الرئيس في رثاء الدول وهو الكارثة التي أودت بالدولة فقضت على الحكام وكل من كان من بنى قومهم وخربت البيوت والقصور وهتكت الحرمات وسيقت النساء المترفات الناعمات أسيرات سبايا ، والأطفال ذاقوا مرارة اليتيم وما إلى ذلك من الأجزاء المهمة التي عندما تجتمع تكون الصورة الحزينة التي توشح قصيدة الرثاء . ولمسل هذا الصدق في العاطفة هو الذي يميز بين قصيدة وأخرى من حيث التأثير في نفوس السامعين أو القراء وهذا ما جعل شعر الصبلي وأبي المباسم الأعشى في غاية الجوده والتأثير فالأول أموى يبكى عشيرته والثاني مخلص محب يسرى الوفاء لهم دينا عليه حتى يوارى في رمله .

الفصل الثالث

رئاسة الدول والأصوار حتى عصر السلاجقة

المبحث الأول : الثورات والفن الداخلية في الدولة العباسية :

بعد أن قضى العباسيون على دولة بني أمية وتبعوا كل من يت اليهم بولاء ، اتجهوا الى تثبيت أركان دولتهم والعناية بشئونها السياسية والادارية والاقتصادية والعلمية ، فجنّدوا الجيوش العظيمة لحماية البلاد من غارات الروم والفرس والجهاد في سبيل الله وفتح البلدان ، وكانت موارد الدولة عظيمة الحجم ، فعاش الناس في رخاء ونعيم واتجهوا تبعاً لذلك إلى العمران والترف وكثرت الجوارى والمغنيات من الرقيق المجلوب حتى كان لهن سوق خاصة فازدهر الفناء ازدهاراً كبيراً وشجع ذلك كثرة الشعراء الذين ينظمون للقيان ما يثمن من الشعر ذي الأوزان والبحور الغنائية ، كما بلغ العلم والعلماء مرتبة عظيمة في الدولة العباسية ومازاد في نموه كون الخلفاء أنفسهم من العلماء والأدباء كالمصور والرشيّد والمأمون وغيرهم وكانوا يجزلون الهيئات للعلماء والشعراء بالإضافة الى ظهور الترجمة ونقل علوم الأمم الأخرى الى اللغة العربية نتيجة امتزاج الشعوب ببعضها في المجتمع العباسي الذي أصبح يحوى أجناساً مختلفة من البشر وخاصة الجنس الفارسي وقد ازدهرت بغداد عاصمة الخلافة ازدهاراً عظيماً ، وزاد صيتها في الشرق والغرب ، وأصبحت قبلة العلماء والأدباء والشعراء يقدون عليها من أقصى البقاع ليجد كل بغيته فيها .

واستمر الحال هذا مدة قرن من الزمان تقريباً حتى توفي هارون الرشيد سنة ثلاث وتسعين ومائة حينئذ أطلت الفتنة المظلمة بقرنيها ، أعنى بها الفتنة

التي وقعت بين الشقيقين الأمين والمأمون ومزقت البلاد ودمرت عاصمة الخلافة بغداد وأصابها من أمر الله ما أصابها .

وترجع البداية الأولى لهذه الفتنة إلى عهد الرشيد نفسه ، إذ أنه لما حج البيت في عام سته وثمانين ومائه أخذ البيعة لابنه محمد وطلقه بالأمين ليكون وليا لعهد ثم بايع لابنه عبد الله وطلقه بالمأمون ليكون وليا لعهد الأمين . وكتب بذلك كتابا وأشهد فيه أكابر أهل الاسلام ووجوه الكتاب والقواد وسائر أركان الدولة وطلقه في الكعبة . وشرط عليهما فيه أن هو جاءه أجل المحتوم تكون بغداد ، والعراق ، والحجاز واليمن ، والجبـال وفارس تحت حكم الأمين ويكون هو الخليفة ، وأن تكون الري ، وطبرستان وخراسان ، والترك تحت حكم المأمون ويكون ولي عهد المسلمين .

وما يذكر هنا أن المأمون كان أكبر سنا وأرجح عقلا وأكثر حنكة من الأمين ، وإنما قدم الأمين إكراما لأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور بنت عم هارون الرشيد . (٢)

وقد كان الناس بين متفائل ومتشائم وكان من المتشائمين شاعر حصيف قال عندما سمع النبأ : لقد ألقى بأسهم بينهم ، وأنشد : - (٣)

رأى الملك المذهب شر رأى	* بقسمته الخلافة والبلاد
رأى ماله وتعقبه بملهم	* لبيش من مفارقه السود
أراد به ليقطع عن بنيمه	* خلافتهم ويبتدلو السود

(١) انظر الطبري : ٢٧٧/٨ وما بعدها ، وقد أورد نص الكتاب السنـي كتبه الرشيد وطلقه في الكعبة .

(٢) ابن العبراني ، الانباء في تاريخ الخلفاء : ٧٦ .

(٣) تاريخ الطبري : ٢٧٧/٨ .

- فقد غرس المداوة غير آل * وأورث شمل ألفتهم ببغداد .
- وألقح بينهم حربا عوانا * وسلس لا جتاثهم القياداد .
- فويل للرعية ، عن قليل * لقد أهدى لها الكرب الشداداد .
- ستجري من دمائهم بحور * زواخر لا يرون لها نفساداد .
- فسوز بلائهم أبد عليه * أغيا كان ذلك أم رشاداد .

ولقد كان احساس الشاعر صادقا ، فلقد حصل ماتوقعه وأكثر ، فمنذ أن توفي الرشيد وبيع الأمين بالخلافة أخذ يسعى في خلع المأمون من ولاية العهد وجعل ولده موسى مكانه .

وكان يزين له هذا الأمر اثنان من أكابر قواده ومستشاريه وهما : الفضل بن الربيع ، وعيسى بن ماهان . ^(١) والفعل أمر الأمين بقطع الدعا* للمأمون والدعا* لابنه الطفل موسى الذي لقبه بالناطق بالحق ، وطلب من المأمون أن يخلع نفسه ويأتيه في بغداد فلما سمع المأمون بذلك رفض الأمر وأسقط اسم الأمين من الطراز ، وقطع عنه البريد .

فاعتبر الأمين ذلك خروجا عن الطاعة ، وأرسل للمأمون جيشا كبيرا بقيادة عيسى بن ماهان فندب المأمون لمحاربتة طاهر بن الحسين الذي سار بجيشه حتى التقى بجيش عيسى بالري فاقتتلوا قتالا شديدا كان النصر فيها حليف طاهر فقتل عيسى بن ماهان واحتز رأسه ، واستباح عسكره . وبعد ذلك أمره المأمون بالتوجه الى بغداد فتوجه اليها بجيشه حتى أحاط بها ونزل ببساتينها وفرت أمامه جيوش الأمين وهساكره واستطاع طاهر أن يستميلهم اليه باعائهم الأمان والهبات الكبيرة ، فتبعه منهم كثيرون عنئذ شدد طاهر الحصار على بغداد ونصب المجانيق التي تقذف الحجارة في كل الاتجاهات .

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ : ٢٢٧/٦ .

ولا يبالى رمايتها من أصابت وفي ذلك يقول الوراق :- (١)

- يارماة المنجنيق * لككم غير شفيق
- ماتبالون صديقا * كان أو غير صديق
- ويلكم تدرون ماتر * مون مرار الطريق

كما استعمل أيضا من آلات الدمار العرادات والسفن البحرية الستى
تقذف النفط والنيران . واستعملت هذه الآلات أيضا من قبل جيش الأميين
المحاصر الأمر الذى جعل الأرباض والمنازل والأسواق هى ميدان المعركة
ومواقع الجند ، فكثر القتل والتدمير والخراب حتى درست محاسن ببغداد
والتهتمتها النيران وفي هذا يقول الوراق أيضا : (٢)

- من ذا أصابك يابغداد بالعيين * ألم تكونى زمانا قرّة العيين
- ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم * وكان قريبهم زينا من الزين
- صاح الخراب بهم بالبين فافترقوا * ماذا بقيت بهم من لوحة البين
- أستودع الله قوما ماذا كرتهم * الا تحدر ماء العين من عيني
- كانوا ففرقهم دهر وصدعهم * والدهر يصدع ما بين الفريقين

ان الشاعر هنا يرجع سبب الهلاك الذى حل ببغداد الى العيين أو الحسد
ففرق أهلها شيئا بعد أن كانوا ينعمون فيها بجمعهم والشاعر واحد منهم
فهو يتذكر تلك الأيام ويسكب الدمع توجعا لفراق أولئك القوم .

(١) هو عمرو بن عبد الملك المعتزى أصله من البصرة شاعر ماجن ، اشتهر
فى أيام الرشيد له شعر كثير ، توفى نحو ٢٠٠ هـ / المرزبانى ، معجم
الشمراء : ٢١٨ .

(٢) تاريخ الطبرى : ٤٤٧ / ٨ .

ونلاحظ هنا أن الشاعر قد شغل نفسه بالزخرفة اللفظية كالجناس الذي
عم معظم الأبيات ، والذي صرف الشاعر عن قوة التأثير في السامعين ، وصرفه
أيضا عن تفصل الحادثة وملاقطه بفخاد من الدمار ، فكأنه هنا يقف على أطلال
باليه يخاطبها لا على مدينة عظيمة هي حاضرة العالم في ذلك الزمان .

وتستمر هذه الحال مدة من الزمان لم يعد الناس يحتملونها ، ولا يطيقون
معها صبرا فكان لابد لهم من ترك بغداد والنزوح عنها ، فخرجوا منها
زرافات ووجدانا ، حتى أوحشت بغداد وخاف الناس أن تثق خرابا . وفي
ذلك يقول الخليل :- (١)

أُسرع الرجل أغـدا إذا * عن جانبي بغداد أم ماذا ؟
ألم تر الفتنة قد ألفت * إلى أطى الفتنة شذا إذا
وانتقضت بغداد عمرانها * عن رأى لذاك ولا هـذا
هدما وحرقا قد أبعد أهلها * عقوبة لانت بـحـمـلـنـا إذا

ان الشاعر مندفع لشدة الهول الذي لحق بالناس فجعلهم يسرعون في
الرحيل عن بغداد ويتركونها نهبا لأطى الفتنة من الحثالات والشذاز يسلبون
وينهبون ويفتكون ، فمن وجد سبيلا إلى الهرب ناجيا بنفسه فعسل

(١) هو الحسين بن الضحاك بن ياسر المعروف بالخليع ، مولى بأهلـه ،
وأصله من خراسان ولكنه ولد بالبصرة سنة ١٦٢ ونشأ فيها . وهو شاعر
ماجن له مع أبي نواس أخبار معروفة ، ورد بغداد وأقام فيها دهرًا
ينادم الخلفاء ومخاضة الأمين حتى إذا قتل فر إلى البصرة حتى أفضت
الخلافة إلى المعتصم عاد فمدحه ومدح الواثق من بعده . وهو شاعر
مطبوع ، حسن الافتنان في ضروب الشعر / انظر الأغاني : ١٤٧/٧ -
٢٢٨ ، الوفيات ، ١٦٤/٢ ، تاريخ بغداد : ٥٤/٨ ، والأبيات
في الطبري : ٤٤٧/٨ .

حتى لم يبق في دار السلام الا العاجزون أو المجرمون . يقول الوراق في

ذلك :- (١)

- لم يبق في بغداد الا امرؤ * خالفه الفقر كثير العيال
- لا أم تحصي عن حماهـلـا ولا * خال له يحصى ولا غير خال
- ليس له مال سوى مطـرـر * مطرده في كفه رأس مال
- هان على الله فأجرى طـسـ * كفيه للشقوة قتل الرجال
- ان صار ذا الأمر الى واحد * صار الى القتل على كل حال

ومادام الأمر قد وصل الى ما وصل اليه من الدمار والاستهتار بالدما

والأعراض فحق ان لا اهل بغداد الذين ذاقوا فيها حلاوة العيش أن يذكروها

من قلوبهم عند تبدل حالها ، يقول بعض فتيانها :

بكيت دما على بغداد لما * فقدت غضارة العيش الأنيق . (٢)

تبدلنا هموما من سرور * ومن سعة تبدلنا بضيق .

أصابتها من الحساد عين * فأفنت أهلها بالمنجنيق .

ثم يأخذه في تفصيل مصائر القوم قائلا :

فقوم أحرقوا بالنار قسرا * ونائحة تنوح على غريق .

وصائحة تنادي واصباحا * وماكية لفقدان الشفيق .

وحورا المدامع ذات دل * بمضمخة المجاسد بالخلوق .

تفر من الحريق الى انتهاب * ووالدها يفر الى الحريق .

وسالبة الغزاة مقتتـهـا * مضاحكها كلالاة السبروق .

حيارى كالهدايا مفكرات * عطين القلائد في الحلوق .

ينادين الشفيق ولا شفيق * وقد فقد الشقيق من الشقيق .

(١) المصدر السابق : ٤٦٠ .

(٢) المصدر نفسه : ٤٥٧ .

- وقوم أخرجوا من ظل دنيا * متاعهم يباع بكل سوق .
- ومفترب غريب الدار ملقى * بلا رأس بقارعة الطريق .
- نوسط من قتالهم جميعا * فما يدرون من أى الفريق .
- فلا ولد يقيم على أبيه * وقد هرب الصديق بلا صديق .

أن قائل هذه الأبيات يرسم صورة حيه ناطقة لتلك المشاهد الحزينة التى خلفتها هذه الفتنة العمياء التى أججها نكت العهد المبرومة ، ودسائس الوزراء الغشقة التى تكن صدورهم الكيد والحقد للمسلمين ، وقد وشى الشاعر صورته باطار أسود نابع من شدة حزنه ومكائه وهو يسمع النائحات الثكالى على ذمهم الذين أحرقوا بالنار أو ألقوا فى الأنهار ، وهو يرى النساء الخيد ، ربات الخدم يؤخذن سبايا وبناتهم كالسلع والمتاع ، وقد بحث حلوقهن من الصراخ والاستغاثة ولكن لا مفيت ولا ناصر ، وكسان الناس فى يوم القيامة فلا ولد يعرف أباه ، ولا الصديق صديقه أو أخاه .

وما زاد الأمر سوءا والوضع تفجرا كون الخليفة الأمين ماجنا متهمتكما لا يتوقف عن شرب الخمر مع غلمانه وجواربه المغنيات حتى فى أهل الظفر فاما كان منه فى أيامه الأخيرة وعندما حصر بقصره المسمى بقصر الخلد إلا أن أطلق أيدى الذعار والشطار والعميارين وأهل السجون ، واللصوص والأفارقة الزنوج فى بغداد وأصبح هؤلاء هم السادة ووضع لهم رئيسا يسمى الهرش فلا تسأل عما أحدثه هؤلاء من البلا والرعب الشديد بأهل بغداد حتى أنهم كانوا يسلبون البيوت كل ما فيها ثم يدمرونها ويحرقونها لا لشي إلا رغبة فى الفساد والفضو ، ويصف الطبرى ما فعله هؤلاء الأماش بقوله : " فكان منهم فى ذلك مالم يبلغنا أن مثله كان فى شى من سائر بلاد

(١) "وقد أمر الأمين الهرشي ومن معه من الأشرار بمهاجمة الكرخ ،
والكناسه وأرباض المدينة ، كما بعث معهم غلاما له يسمى زويحا وأمسه
بقتبع الأغنيا" وجمع أموالهم لينفقها سيده الخليفة على لهوه ولعبه ، ففصل
ذلك وجمع أموالا كثيرة ففر الناس وخاصة الأغنيا من تلك المناطق بعلية
أنهم يريدون الحج ، فقال بعضهم :- (٢)

أظهروا الحج ومايتوونه * بل من الهرشي يريدون الهرب .
كم أناس أصجوا في غبطة * وكل الهرشي عليهم بالمطرب .
كل من راد زويح ببيتسه * لقي الذل ووافاه الحرب .
(٣)

وقد هزت الفتنة العظيمة الشاعر الكبير أبا يعقوب الخريمي فقال في ذلك
قصيدة عصماء بلغت حوالي ستة وثلاثين ومائة بيت ، وتعتبر هذه القصيدة
من أوائل النصوص الشعرية المتكاملة التي قيلت في رثاء مدينة دمرت .

(١) تاريخ الطبري : ٤٥٦ / ٨ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٤٦٣ .

(٣) هو اسحاق بن حسان بن قوهي ، أصله من الصفد وهي كوره عاصمتها
(سمرقند) ، تنقل في البلاد حتى ظفر بعثمان بن خريم القائسد
الشجاع فلازمه ومدحه حتى نسب اليه ، ثم نزل بفداد أيام الرشيد
واتصل بأشهر أدبائها حتى فيها الى أن شهرفتننة الأمين والمأمون
ثم توفي سنة ٢١٤ هـ ، وهو شاعر متقدم مطبوع ، وكلامه عذب حسن
قال عنه ابن المعتز : كان الخريمي شاعرا **مفلقا** مطبوعا مقتدرا على
الشعر ، وقال عنه أيضا أنه من المشهورين .

طبقات ابن المعتز : ٢٩٣ . وانظر ، الجراح ، الورقة : ١٠٩ ، ديوان

الخريمي : ٥ ، البيان والتبيين : ١١٥ / ١ .

وقصيدته بطولها في الطبري : ٤٤٨ / ٨ ومابعدها .

يمهد الخريص لقصيدته الطويلة بذكر حال بغداد قبل أن يطرقها حدشان
الدهر فيقول :-

- قالوا : ولم يلعب الزمان ببغـ * داد وتعثر بها عواثرها .
- ان هي مثل العروس باطنها * مشوق للفتى وظاهرها .
- جنة خلد ودار مغبطة * قل من النائبات واترها .
- درت خلوف الدنيا لساكنها * وظل معسورها وعاسرها .
- وانفرجت بالنعيم وانتجمت * فيها بلذاتها حواضرها .
- فالقوم منها في روضة أبيض * أشرف غب القطان زائرها .
- دار ملوك رست قواعدها * فيها وموت بها منابرها .
- أفراخ تسمى في ارث مملكة * شد عراها لها أكابرها .

ومما يلفت النظر في مطلع هذه القصيدة أن الشاعر بدأها بقوله : قالوا
وكانه يريد أن يتحدث عن قصة قديمة رغم كونه من شهود الفتنة ، ومن حضروا
الحرب في ميدانها حيث كان يقيم في بغداد .

ولعله أراد من ذلك اظهار مقدار الدمار والخراب الذي حل ببغداد
وماصاحب ذلك من قتل وتشريد لأهلها وبالتالي بيان حزنه وألمه الشديد فكان
لسان حاله يقول : كانت هنا مدينة اسمها بغداد وكانت من الحسن والجمال
كأنها جنة وكأنها الخ فهو يتنهد ويطلق زفراته الحزينة من
أول القصيدة للمفارقة الحاصلة بين ماضي تلك المدينة الزاهر فهي دار الملوك
وموطن الأكابر الذين شدوا عرى الدولة وساسوها بالحكمة ، كما هي أيضا
مرتع غصب لأصحاب اللذات والعيش الرغيد .

بهتت أحوالها بعد أن تولى أمور الملك سفهاؤها تبدل وحدث ما حدث
يقول :

- فلم يزل والزمان ذو غير * يقدح في ملكها أصاغرها .
- حتى تساقط كأسا مثقلة * من فتنة لا يقال عاثرها .
- وافتقرت بعد ألفة شيما * مقطوعة بينها وأواصرها .

ثم يبين أن سبب هذه الفتنة التي لا تقال عثرتها هم الطوك الذين
اتبعوا أهواءهم ، وظلب عليهم حب الحياة ، وحب الملك والسيطرة ، ولو
كان ذلك على حساب رعيته . أضف إلى ذلك أنهم لم يجدوا الناصح الأمين
التقى الذي يزجرهم عن غيهم :

- يا هل رأيت الأملاك ما صنعت * إذ لم يرعها بالنصح زاجرها .
 - أورد أملاكنا نفوسهم * هوة في أعيت مصادرها .
 - ماضرها لو فت بموثقها * واستحكمت في التقى بصائرهما .
 - ولم تسافك دماء شيعتهما * وتبتعت فتية تكابرها .
 - تبغى فضول الدنيا مكائدها * حتى أباحت كرها ذخائرهما .
- ويستمر هؤلاء الطوك في غيهم حتى تتقدم الحرب الطاحنة التي تكاد
تقضى على كل مظاهر الحياة في بغداد ، فالجنان الزاهرة أصبحت رمادا
والقصور الشاهقة أقمرت من سكانها فأصبحت :

- قفرا خلا تعوى الكلاب بها * ينكر منها الرسوم زائرهما .
- وأصبح البؤس ما يفارقهما * الفالما والسرور هاجرهما .
- فأين حراسها وحارسهما * وأين مجبورهما وجابرهما .
- أين الجرادية الصقالب وال * أحيش تعدو هدلا مشافرها . (١)
- أين الظباء الأبقار في روضة ال * ملك تهادى بها غرائرها .
- أين غصاراتها ولذتها * وأين مجبورهما وجابرهما .

(١) يشير في هذا البيت إلى الأنواع المجلوبة من الموالى والفتيان الذين
امتلا بهم بغداد .

وهكذا يمضى الشاعر فى بكائه وتفجعه على ما أصاب عاصمة الخلافة من
الدمار والبوار فذهب فتيانها وأماؤها ورقاصها وزامرها . . . الخ وهو
يكرر كلمة (أين) ليدلل على شدة حزنه وصدق عاطفته ، كما يدلل أيضا
على التحول الخطير فى حالة المدينة فقد ذهب منها كل شئ حتى أنها :

أست كجوف الحمار خالية * يسمرها بالجحيم ساعرها .

كأنما أصبحت بساحتهم * (عاد) وستهم لهم صرورها (١)

وهضيف الخريس سببا آخر للفتنة وهو فساد الناس ومعدنهم من الدين
واستحلالهم .. ما حرم الله - تعالى - فعاقبهم الله بالجوع والخوف والهلاك
جزا* كفرهم بنعمه يقول :-

يابؤس ببغداد دار ملوكة * دارت على أهلها دوائرها .

أهلها الله ثم عاقبها * لما أحاطت بها كبائرها .

بالخسف والقذف والحريق وال * حرب التي أصبحت تساورها .

كم قد رأينا من المعاصى ببغدا * د ، فهل ذو الجلال غافرها .

حلت ببغداد وهى آمنة * داهية لم تكن تحاذرها .

طالعها السوء من مطالعه * وأدركت أهلها جرائرها .

رق بها الدين واستغف بزي ال * فضل ، وعز النساء فاجرها (٢)

وخطم العبد أنف سـيـده * بالرغم ، واستعبدت حرائرها .

وصار رب الجيران فاسقهم * وابتز أمر الدروب ذاعرها .

فهذه هى سنة الله - تعالى - يمهل ولا يمهل ، وهكذا كان الحال بالنسبة
لبغداد وأهلها فقد أتاهم الله بسطة فى الرزق والنعم ، ولكنهم تسادوا

(١) صرورها : هى ربح جافة سهلكة يعشها الله على قوم عاد ، قال تعالى :

(وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية) . الحاقه آية ٦ .

(٢) عز : غلب . / اللسان (عزز) .

في اقتراف المعاصي والكبائر فأرسل الله عليها هذا العذاب من حيث لا تشعور
ثم يعرض الشاعر لحالة بعض الأحياء من بغداد كمحلة الكرخ ، وهذه
المحلة كانت بؤرة فساد وانحلال ، فكان فيها سوق الجوارى وسوق النخاسة
وسوق الخمر والفواحش وغير ذلك .

فسلط الله عليها من لصوصها وعياربها ، وعراتها من يسومها سـو
العذاب . يقول :-

- والكرخ أسواقها معطلـة * يستن عيارها وعافرها . (١)
أخرجت الحرب من سواقطها * اساد غيل ظبا تساورها .
من البوارى تراسها ومن الـ * خوص اذا استلأمت مخافرها . (٢)
تخدو الى الحرب في جواشنها الـ صوف اذا ماعدت أساورها . (٣)
كتائب الهرش تحت رايتـه * ساعد طرارها مقامرها .
لا الرزق تبغى ولا المطاء ولا * يحشرها للقاء حاشرها .
في كل درب وكل ناحية * خطارة يستهل خاطرها .
بمثل هام الرجال من فلق الصـد * ر يزود المقلع بائرها .

(١) يستن : يضطرب / اللسان (سنن) .

(٢) البوارى : جمع بارية ، وهى الحصير المنسوج ، فارسية معربة / الصحاح
(بور) .

استلأمت : ليست لامة الحرب وهى الدرع / المخافر : جمع مففر ، زرد
يلبس تحت القلنسوة .

(٣) الجواشن : جمع جوش ، وهو الدرع / الصحاح ، (جشن) .

وهؤلاء الأشرار الذين يذكركم الخريص ، قد أوتوا من الشجاعة الفائقة
والثخن في ضروب القتال ما جعلهم يصمدون في وجه جيش طاهر بن الحسين
فترة طويلة ، ويؤخرون سقوط بغداد في يده ما يقارب من ثلاث سنوات ، على
أنهم لم يكونوا يملكون من السلاح إلا الحجارة والمقلع الذي يقذفها ،
وترسا من الخوص ، وكانوا عراة من الملابس إلا بعض الجواشن من الصوف
وفيهم يقول الشاعر : - (١)

- كم بصير غدا بعينين كوييـــــــــــــــــم * صر ما حالهم فساد بعين .
- ليس يخطون ما يريدون مايــــــــــــــــم * مد رامهم سوى الناظرين .

وهؤلاء القوم لا بد أن يكونوا قد نشأوا نشأة فيها كثير من الفقر والحرمان
بجانب الغنى المفرط في المجتمع العباسي المفتوح ، فحملوا في أنفسهم
غيطا ، وحقدًا على هذا المجتمع وتمنوا خرابه . وقد حانت فرصتهم عندما
شبت نار هذه الفتنة ، فاهتيلوها وأصبحوا هم السادة المسيطرين وتبلغ
عاطفة الشاعر الحزينة ذروتها عندما يأخذ في تصوير حالة النساء اللواتي
أخرجتهن الحرب سافرات والمهات لا يجدن ملجأ ولا يهتدين سبيلا ، كما
يصور لنا أحوال الأمهات اللواتي تكن أولادهن بطريقة واقعية فنية تجمل
الدمع يتقزز من عيون القاسية قلوبهم ، يقول :

- كل رقود الضحى مخبأة * لم تبد في أهلها محاجرهما .
- بيضة خدر مكنونة بسررت * للناس منشورة فدائرهــــــــــــــــما .
- تمثر في ثوبها وتعجلها * كبة خيل ريمت حوافرها .
- تسأل : أين الطريق ؟ والمهية * والنار من خلفها تبادرها .

(١) الشاعر هو المواق ، الطبري : ٤٦٦/٨ ، وانظر أخبارهم وقصة

حربهم مع أصحاب طاهر وغيرهم في المصدر السابق ص ٤٥٨ .

- لم تجتل الشمس حسن بهجتها * حتى اجتلتها حرب تباهرها .
- ياهل رأيت الثكلى مظلومة * في الطرق تسمى والجهر باهرها .
- في اثر نعث عليه واحدها * في صدره طعنة يساورها .
- تنظر في وجهه وتهتف ، بالثك * ل وجاري الدموع حادرها .
- غفر بالنفس ثم أسلمها * مظلومة لا يخاف فائرها .

ان شعراء الدول والمدن في الشعر العربي دالما يركزون على المرأة وما أصابها من ذل ومهانة من جراء فقدائها للمعيل ، ووقعها في يد العدو ومايجر اليه ذلك ، وهم في هذا يضرهون على أوتار القلوب الحساسة لدى السامعين أو القارئین الذين يتفاعلون مع القصيدة بدورهم ، لما للعصر والشرف من المنزلة في نفس العربي أو المسلم ، وهذا يكون الشاعر قد وفق لنقل الصورة التي في نفسه الى نفوس الآخرين .

وفي المقطع الأخير من القصيدة يتشبث الشاعر بحبل الرجاء في أن يلتئم الشمل وتعود البلاد الى ماكانت عليه من الازدهار :

- ياليث شعري والدهر ذو دول * يرجو وأخرى تخشى بوادرها .
- هل ترجعن أرضنا كما غنيت * وقد تناهت بنا مصائرها .

ولا بد له من أن يقف من المأمون - الذي أصبح خليفة ، ووجه له بمعد (١)
أن قضت الفتنة على الأمين - موقف الناصح والمادح فقد أصبح هوأمل الأمة
المرجى لما يتحلل به من صفات كريمة كالتقى والعدل وحسن السياسة

(١) هلك الأمين سنة ثمان وتسعين ومائه ، واحتضر رأسه وبعث الى المأمون ودخل طاهر بن الحسين بغداد ، وأخذ البيعة للمأمون في شهر طه / انظر الطبري : ٤٧٨ / ٨ - ٤٨٢ .

والأدب ، كما لا ينسى الشاعر أن يمدح وزيره الحكيم ، ومدبر دولته الداهية

(١)

المسمى بذى الرثاستين يقول :-

- من مبلغ " ذا الرياستين " رسا * لات تأتى للنصح شاعرها .
- بأن خير الولاة ، قد علم النـ * اس ، اذا عدت مآثرها .
- خليفة الله فى بريته الـ * مأمون منتاشها وجابرها .
- سمت اليه آمال أمتـه * منقادة برها وفاجرها .
- شاموا حيا العدل من مخايله * وأصحرت بالتقى بصائرهم .
- واستجمعت طاعة برفقك للـ * مأمون نجديها وغائرهم .
- وأنت سمع فى العالمين لـه * ومقنة مايكل ناظرهم .
- أصبحت فى أمة أوائلهم * قد فارقت هديها وأواخرها .
- وأنت سرسورهم وسائسهم * فهل على الحق أنت قاسرهم .
- أدب رجالا رأيت سيرتهم * خالف حكم الكتاب سائرهم .
- وأمدد الى الناس كف مرحمة * تسد منهم بها مقارهم .

(٢)

فهو هنا يشير الى اجتماع أهل الأقطار على طاعة المأمون ووزيره ويصفهم بالحنكة فى تدبير الأمور ومتابعتها ، كما يخصهم على قسر الأمة على الحق

(١) هو الفضل بن سهل . وسمى بذى الرياستين ، رياسة الحرب ورياسة

التدبير سماه بذلك المأمون عندما عقد له لواء الولاية على المشرق من

جبل همذان الى التبت طولا ، ومن بحر فارس الى البحر الديلم وجرجان

عرضا وذلك سنة ١٤٦ هـ ، بعد مقتل على بن عيسى قائد جيش الأمين

على يد طاهر بن الحسين / انظر الطبرى : ٤٢٤ / ٨ .

(٢) السرسور : الفطن العالم الذى يقوم بالأمر / اللسان مادة (سر) .

قسرا ذلك لأنها قد فارقت هدى الصالحين الأواثل في كثير من أمورها ،
 وبرز فيها قوم تجافوا عن هدى الكتاب العزيز فهم بحاجة الى التأديب
 والضرب على أيديهم ، ثم يوجه خطابه الى ذى الرياستين مذكرا آياه بحسب
 القرابة والفرحام الذى بينهما ولعله أراد بذلك الأصل الفارسى الذى يجمعها
 ويهدى اليه قصيدته هذه التى اعتبرها فى مقام النصيحة لوجه الله - تعالى -
 فلم يقلها دأما فى مخم ولا شهوة فى قول الشعر وإنما هى زفرة نفس بها
 عما يجده فى صدره :-

- كم عندنا من نصيحة لك فى الله :- به وقربى عزت زواهرها .
- وحرمة قربت أوأصرها :- * ملك ، وأخرى هل أنت ذاكرها .
- (١)
- وذاك غرا كالوزيلة لا :- تفقد فى بلدة سواهرها .
- لا طمعا قلبها ولا بطرا :- لكل نفس هوى يؤامرها .
- سيرها الله بالنصيحة والـ :- خشية فاستد مجت مرائرها . (٢)
- جأحك تحكى لك الأمور كما :- ينشربز التجار ناشرها .

محمد ، فلقد عاش الخزيم هذه التجربة الميرة المؤلمة ، وأحسها بقلبها
 ومشاعره وهواطفه ، فكانت النتيجة هذه الرائية الرائمة التى صهرت الحواش
 الدامية أوضح تصوير وأصدق ، فلقد كان الشاعر ينتقل من مشهد الى مشهد من
 سلسلة المأسى فى واقعية بعيدة عن الخيال لأنه كان يصف حواش تجرى
 أمام عينيه ، لذلك تراه يكثر من استعمال "ياهل رأيت" فقد أتى بها نحو
 من ست مرات فى قصيدته ، وتكشف القصيدة عن شاعرية الخزيم الفذة ، وطول

-
- (١) الوزيله : المرأة ، أو القطعة من الفضة / أساس البلاغة : (وذل) .
 - (٢) المرائر : الحبال القوية المفتلة على أكثر من طاق / النسان (مر) .

نفسه في الشعر ، فان الذي ينظم مثل هذه القصيدة لابد أن يكون قد قال الكثير من أمثالها وان كان لم يصلنا من شعره الا اليسير ، يذكر ابن النديم أن للخريص ديوانا في مائتي ورقة . (١)

كما نتبين أيضا أسلوب الشاعر الجزل مع السهولة ، فالحزبي شاعر مطبوع يعتمد عن أي تكلف أو استكراه ، ولا نكاد نحس بشيء من ذلك فليس قصيدته بالرغم من طولها ويبدو أنه يميل الى مذهب البداوة فيأتي ببعض الكلمات الصعبة التي تحتاج الى تفسير ، وهي ذات دلالة في الوقت نفسه . على سعة محفوظة من مفردات العربية وتراكيبها . فالحزبي - بلا شك - شاعر فذ مقلق ، ألقى قصيدة عصماء تعتبر دعامة أساسية لفن رثاء الدول والمسلمين في الشعر الخريص .

وهناك قصيدة أخرى في رثاء بغداد مكاء أهلها أثناء فتنة الأميين (٢) والمأمون لشاعر يعرف بعلي بن أبي طالب ويلقب بالأعشى . وهي لا تخرج عن مضمونها ومعانيها عما تقدم من القصائد التي أوردناها ويبدأها متأسفا على زهاب حسنها ويرد ذلك الى حكم القدر ، فيقول :

كأن لم تكن بغداد أحسن منظرا * وطهى رآته عين لاه وناظر .
بلى ، هكذا كانت فأن ذهب حسننا * ودد منها الشمل حكم المقادر .
وحل بهم ما حل بالناس قبلهم * فأضحوا آحادا لباد وحاضر .
ثم يقف الشاعر وقفة تأمل واستعبار ويخاطب بغداد التي مدت أطلالا بعد أن كانت دار الملوك أهل المواكب الفخمة ودار القضاة والشعراء والأدباء . . .
. . . الخ .

(١) انظر الفهرست : ١٦٤ .

(٢) المسعودي ، مروج الذهب : ٤١٠ / ٣ .

- أبغداد يادار الطوك ، ومجتنى * صنوف المعنى ، يامستقر المنابىر .
- وياجنة الدنيا ، ويا مطلب النفسى * ومستنبط الأموال عند المتاجر .
- أبينى لنا : أين الذين عهدتهم * يحلون فى روض من العيش زاهر . ؟
- وأين الطوك فى المواكب تغتدى * تشبه حسنا بالنجوم الزواهر . ؟
- وأين القضاة الحاكمون برأيهم * لورد أمور مشكلات الأوامر . ؟
- أو القائلون الناطقون بحكمة * ووصف كلام من خطيب وشاعر .

وهكذا يمضى الشاعر يندب أهل بغداد من شتى الأصناف مسائل عنهم
ربوعهم ونوادبهم مكررا كلمة " أين " الدالة على الدهشة والتساؤل الحزين . . .
ولكن لا مجيب الا الذكريات والمعبر وفى نهاية القصيدة - يعد أن يذكر قصور
الطوك وجواهرها ، وأرضها المرشوشة بالمسك وماء الورد - بعد هذا ينحس
باللوم على الطوك الذين أهبطوا أمر الدولة واكتفوا بمجدهم القديم الذى بنى
آبائهم فعاشوا فى سكون الماضى ولم يفيقوا الا على طبول الحرب تزلزلهم :-
فما للطوك الغر من آل هاشم * وأشياهم فيها اكتفوا بالمفاخر .
يرحون فى سلطانهم وكأنهم * يرحون فى سلطان بعض العشائر .
تخاذل عما نالهم كبراً وهم * فنالهم بالكره أيدى الأصغر .
فأقسم لو أن الطوك تناصروا * لثأرت لها خوفا رقاب الجبابر . (١)

الثورة على المتوكل وقطعه :-

فى سنة اثنتين وثلاثين ومائتين توفى الخليفة العباسى الواثق بالله ،
(١)
ومبع بعده لجعفر بن محمد بن هارون الطقب بالمتوكل على الله ، وهو

(١) القصيدة طويلة بلغت سبعة وثلاثين بيتا أوردت هنا بعضها .

(٢) الطبرى : ١٥٤ / ٩ .

عاشر خليفه عباسى فى مدة قرن من الزمان فقام بالأمر بحزم ورتب الدواوين وعزل ووطى ، وشدّد قبضته على القواد الأتراك الذين كانوا هم أولى الأمر فى أيامه وأيام من سبقه منذ عهد المعتصم تقريبا ، ووجههم الى الخسرو فاستطاع بذلك أن يمحى من غارات الروم المتكررة كما استطاع بدعائه أن يقمع الخارجيين على سلطانه فى أنحاء المملكة الواسعة وأن يحافظ على غزوات الصائفة والشتاتية كما أحدث المتوكل أمرا جديدا بالنسبة للنصارى - أهل الذمة - فأمرهم بلبس الطيالس المسلية والزنانير والقلانس التى تخالف قلانس المسلمين ، وأن يضع كل واحد منهم رقعة على صدره وأخرى على ظهره وأن يكون لونهما عسليا ، وأمر أن يجعل على أبواب دورهم صوور شياطين من خشب مسمومة تفريقا بينها وبين منازل المسلمين ، وهم - وهم - بيحهم المحدثه وأخذ العشر على منازلهم ومنعهم من اظهار الصليب فسعى أعيادهم . ونهى عن الاستمالة بهم فى الدواوين وأعمال السلطان لكسب لا تجرى أحكامهم على المسلمين ، ونهى أيضا عن أن يتعلم صبيانهم فسى كتاتيب المسلمين وغير ذلك . (١)

ومن ناحية أخرى فقد كان المتوكل محبا للأدب والشعر والفنا كما كان وزيره الفتح ابن خاقان كذلك . فازدهرت الآداب والعلوم فى عصره ، وكان يجزل الهبات للشعراء ويقربهم من مجلسه ، فقد كان نديمه وشاعره الخاص أبا عبادة البحتري الشاعر العباس المشهور . ويرى عنه أنه كان يعفو عن بعض النثرين عليه عندما يعلم أن عنده أدبا حسنا وكان المتوكل كلفا

(١) المصدر نفسه : ص ١٧١ .

(٢) المصدر نفسه : ص ١٧٠ ، انظر قصته مع ابن البعيث الناصر .

بالعمران والبناء ، فقد عقد العزم سنة خمس وأربعين ومائتين على أن يبني له مدينة تخلص اسمه وتنسب إليه فاختار موضعاً يقال له الماحوزة ، وبنى مدينة الجعفرية ، وبنى بها قصوراً فخمة أشهرها قصره الجعفري الذي قتل به ، وانتقل إليها سنة سبع وأربعين ومائتين ونقل إليها الدواوين ، وأنفق عليها فيما قيل أكثر من ألف ألف دينار ، وجمع فيها القراء فقرأوا ، ثم حضر أصحاب الملاهي فوهب لهم أموالاً كثيرة . وقد مكث بها قرابة تسعمئة أشهر وثلاثة أيام ثم قتل . أما سبب قتله فكان السبب نفسه الذي اشتعلت به الفتنة بين الأمين والمأمون وهو ولاية العهد . ففي سنة خمس وثلاثين ومائتين عقد المتوكل البيعة لبيته الثلاثة محمد وسماه المنتصر ، والوزير وطبقسه المعتمد وإبراهيم وطبقه المؤيد ، وقسم البلاد بينهم ، ولم يأخذ الحبرة ماصنع الرشيد من قبله وما آل إليه الأمر بل كتب بذلك كتاباً وأشهد عليه وجعل ولاية عهد المسلمين لمحمد ثم للمعتمد ومن بعده للمؤيد ، ولكن وزراء المتوكل كالفتح بن خاقان وعبيد الله بن يحيى كانوا يميلون إلى المعتمد أكثر من المنتصر فمازالوا بالمتوكل حتى أقتعاه بأن يرضى المعتمد بالناس الجمعة وقد كان المتوكل قد عهد إلى المنتصر بذلك حيث كان هو يشكو من وعكة وضيق صدر فوافق على ذلك وتم ما أراد الوزراء ، ثم أمر المتوكل أن يضرب اسم المعتمد على السكة ، فكانت هذه أرهاصات لتقديم المعتمد على المنتصر بولاية العهد الأمر الذي أوفر صدر المنتصر على أبيه فراح يدبر الأمر للتخلص منه ، وبالفعل اتفق مع القواد الأتراك أمثال باغر التركي ومفا الشرابي ، وغيرهم ، وشبوا عليه في مجلسه ليلاً فقتلوه وقتلوا وزيره الفتح بن خاقان ، وجمع المنتصر في اليوم التالي بالخلافة ، وخلع أخويه من ولاية العهد وانتقل إلى سامراء وأمر بمدينة الجعفرية والقصر الجعفري أن يهدم ، فخربت تلك القصور ونقض

(١) ابن رسته ، الأعلام النفسية : ٣٦٦/٧ - ٣٦٧ .

بنيانها وهجرها الناس وفي هذا يقول البحترى : (١)

- تفرح حسن الجعفري وأنسه * وقوى بادي الجعفري وحاضره .
- تحمل عنه ساكنوه فجاءة * فأضحت سواه دوره ومقابره .
- ولم أر مثل القصر ان ربيع سربه * وان ذعرت أطلاؤه وجبانه .
- وان صبح فيه بالرحيل فهتكت * على عجل أستاره وستائه .
- اذا نحن زرنه أجد لنا الأسى * وقد كان قبل اليوم يتبجح زائره .
- ووحشته حتى كان لم يقيم به * أنيس ولم تحسن لعين منظره .
- كأن لم تبت فيه الخلافة طلبة * بشاشتها والملك يشرق زاهره .
- ولم تجمع الدنيا اليه بهاءها * ومهجتها والعيش غنى مكاسره .
- فأين الحجاب الصعب حين تمنعت * بهيبتها أبوابه ومقاصره .

ان البحترى عندما يقف باكيا على أثار القصر الجعفري فانه يؤدى بذلك حقا ودينا عليه لولى نعمته الخليفة المتوكل ، ومن ثم فهو لا يقف على أثر دارس ، ولا يبيكيه من بعيد ، بل هو يرثيه عن خبرة به ، فلطالما تردد على بلاطه ، ودبح المدائح فى فناءه ، ونال جوائزه وصلاته . فالشاعر كان يمرى نفسه أثناء رثائه للقصر الذى أصبح حطاما ورحل عنه من كان يعمره من أهله وخدمه وغلماؤه وجواربه ، وما أسرع ما دب اليه الخراب فلم يعيش أكثر من سنة واحدة ، ثم هتكت أستاره وستائه ، فهو مظلوم موحش بعد أن كان يتلأأ ببهجة الخلافة وشاشتها . ثم يشتد الحزن بالشاعر عندما يذكر سيده الخليفة وكيف صرع فيقول :-

- وأين عميد الناس فى كل نوبة * تنوب ونأهى الدهر فيهم وآمره .
- تخفى له مفتاله تحت غمرة * وأولى لمن يفتاله لو يجاهره .

صريع تقاضاه السيوف حشاشة * وجود بها الموت حمراً ظافسره . (١)

يعد هذه الصورة المؤلمة التي يرسمها الشاعر للخليفة المقتال غداراً
والتي يحاول فيها إثارة أهل الدم للثأر من القتل المتآمرين ، يعود لنفسه
فيذكر أن رأس هذه الشرذمة هو ابن الخليفة وطيه ، وهو القائم بالخلافة
بعده ، فلا بد إذن أن يذهب دم المتوكل هدرًا .

فحق للشاعر أن يهلك عليه أسي ، وأن يبكيه عمره كله ، فيقول بانفصال

غاضب :-

(٢)

حرام على الراح بمدك أو أرى * دما بدم يجري على الأرض مائره .

وهل أرتجى أن يطلب الدم واتر * يد الدهر والموتور بالدم واتره .

أكان ولي العهد أضمر غدره * فمن عجب أن ولي العهد غادره .

(٣)

فلا ولي الباقي تراث الذي مضى * ولا حطت ذاك الدعاء منابسه .

(٤)

ولا أوال المشكوك فيه ، ولا نجسا * من السيف ناض السيف غدارا وشاهره .

لنعم الدم المسفوح ليلة جعفر * هرقتم ، وجنح الليل سود دياجره .

والملاحظ على الأبيات الأخيرة أن الشاعر يحمل حطة عنيفة وجريئة

على ولي العهد فيدعو عليه بأن يلقي نفس المصير الذي صير أباه إليه ، وكأن

الشاعر قد أذهلته المصائب عن التفكير في العواقب ، وقد صاغ ذلك كله

بأسلوبه العذب ، وديباجته الناصعة البعيدة عن الغموض والتكلف .

(١) تقاضاه : تطالبه . اللسان (قضى) ، الحشاشة : بقية الروح . اللسان

(حشش) .

(٢) المائر : السائل / المصدر نفسه (مور) .

(٣) ولي : متع / المصدر السابقة (ملا) .

(٤) وأل : نجا أو التجأ . المصدر السابق (وأل) .

وماد منا بصدد الحديث عن شعر البحترى فى رثاء المدن والقصور الستى
خلت من أنيسها واندثرت بعد ازدهار واشتهار ، فلا بد أن نعثر لوقتته
على ايوان كسرى ، ذلك الأثر الحضارى الذى بقى أمدا طويلا شاهدا على
روعة البنيان ورفعة الحضارة .

ولعل الشاعر قال هذه القصيدة الرائعة بعد مقتل المتوكل وخراب قصوره
يفرغ فيها أحزانه ، ويتأسى بالعظماء الذاهبين ، فذكره للإيوان وما أصابه
يخفف من حزنه على الجعفرى وذكره لكسرى ومصرعه يهون من ألمه لمصرع
المتوكل . هذه الحالة النفسية ، ونظرة العظمة التى يراها فى المتوكل
هى التى حطت البحترى على الوقوف على الإيوان دون غيره من آثار الماضيين
وببدأ قصيدته السينية بوصف حالته المتغيرة التى أوصلته اليها الأيام
الجاهدة فى محاربه والحق التماسه به ، ولكنه يتجلد ، وهو بهذا يرفع
من شأن نفسه لأن الأيام لا تحارب الا من له خطر . يقول : (١)

- صنت نفسى عما يدنس نفسى * وترفعت عن جدا كل جيس . (٢)
وتماسكت حين زعمنى الدهر * ر التماسا منه لتمس ونكسى .
وكان الزمان أصبح محمـو * لا هواه مع الأخس الأخس .
واشترائى المراق خطبة غبن * بعد بيعى الشام بيعة وكس . (٣)
لا ترزنى مازولا لا ختبارى * بعد هذى البلوى فتكوىسى . (٤)
وقديما عهدتنى ذا هنـات * أبيات على الدنيا شمس . (٥)

(١) ديوانه : ١١٥٢ / ٢ - ١١٦٢ .

(٢) الجيس : الجبان اللئيم / اللسان (جيس) .

(٣) الوكس : النقصان والخساره / المصدر نفسه (وكس) .

(٤) ترزنى : تجرئنى / المصدر السابق (روز) .

(٥) هنات : خصال ، شمس : عنيدة لا تنزل / انظار الامدى ، الموازنه :

ان الشاعر يحس انقلابا في حياته ، فالدهر يلعب به ، والأحباب والأقارب
يقلبون له ظهر المجن ، ويعاملونه بجفاء ، ونفسه لا تقبل الاقامة على النذل ،
فلا بد له اذن من الرحيل الى حيث الايوان الدائر ليسلوا عما به . وهو هنا
من الناحية الفنية يسير حسب تسلسل قصيدة المدح المعروف بعمود الشعر
المعربى ، فبعد شرح حالته جاءت الرحلة يقول :

واذا ما جفيت كنت جديرا * أن أرى غير مصبح حيث أمسى .
حضرت رحلى الهموم فوجهي * ت الى " أبيي المدائن " عنسى . (١)
أتسلى عن المخطوط وآسى * لمحل من آل ساسان " درسى ،
ذكريتهم الخطوب التوالى * ولقد تذكر الخطوب وتنسى .
وعندما يقف الشاعر على محل آل ساسان يرجع بذاكرته الى الجهود الخوالى
يصف حالهم أيام العز والمجد ، فيقول :

وهم خافضون في ظل عال * مشرف يحسر العميون ويخسئ .
مخلق باباه على جبل ألقب * ق الى دارتي " خلاط " و " مكس " (٢)
حلل لم تكن كأطلال سمدي * في قفار من البساسيس طسس .
ومساع لولا المحابة منى * لم تطقها سماعة عنس وعيس . (٣)

(١) أبيي المدائن : قصر الأكاسره ، كان من عجائب الدنيا لم يزل قائما
الى أيام الخليفة المكثف بالله في حدود سنة ٢٦٠ هـ فانه نقض ومنى
بشرفاته التاج الذي بدار الخلافة / معجم البلدان (المدائن) .

(٢) جبل القبق : جبل ضخم يمثل آخر حدود أرمينية ، يقال أن طولها
خمس مائة ميل / معجم البلدان / (القبق) .
خلاط : هي قرية أرمينية الوسطى ، تشتهر ببخيرتها ، وكثرة فواكهها
المصدر نفسه : (خلاط) .

مكس : موضع بأرمينية من ناحية البسفور / المصدر السابق (مكس) ، -
وانظر : المعرى ، عبث الوليد : ١٢٢ .

(٣) عنس : قبيلة يمنية قحطانية / انظر عمر كحالة ، معجم قبائل العرب :
٧٣٨ / ٢ ، ٨٤٧ .

عيس : قبيلة عدنانية نجدية ، ومراده من البيت العرب كافة .

نقل الدهر مهدهن عن الجد * دة حتى رجمن أنضاً لبس .

لقد كان القوم في رغد من العيش وسعة من الرفاهية في ظل ملكهم
الشامخ بجباله وسهولة وأنهاره وشتان بينهم - في ذلك - هين العرب أهل
الصحراء والتكشف والعيش الصعب ، كما أن أعمال الفرس وساعيهم الجلييلة
لا تقوم بازائها أعمال العرب البسيطة ، ولكنها المحابة من جانب الشاعر
العربي تجعله يقارن هذه بتلك . ثم ينتقل الى حالة الايوان الراهنسة
المحزنة فيصفها بقوله :

فكان الجرماز من عدم الأنس * س واخلاه بنية رمس . (١)
لوتراه طمت أن الليالي * جعلت فيه مأتما بعد عرس .
وهو ينبئك عن عجائب قوم * لا يشاب البيان فيهم بلبس .
واذا مارأيت صورة " أنطاسا * كية " ارتعت بين روم وفرس . (٢)
والمنايا موائل وأنوشتر * وان يزجى الصفوف تحت الدرفس .
في اخضرار من اللباس على أص * فريختال في صبيغة روس .
وهراك الرجال بين يديه * في خفوت منهم واغما في جرس .
من مشيح يهوى بمامل رمح * وطيح من السنان بسترس .
تصف العين أنهم جد أحياء * لهم بينهم اشارة فرس .
يفتلى فيهم ارتياح حتى * تتقراهم يداي بلمس .

(١) الجرماز : الايوان (معربة عن كرمazy الفارسية) . حاشية ديوان

البحترى : ١١٥٥ / ٢ .

(٢) أنوشروان : هو كسرى ملك الفرس .

(٣) الدرفس : العلم الكبير . (معرب عن (درفش) الفارسية . المصدر

السابق : ١١٥٦ .

يصف الشاعر في هذه الأبيات الايوان وصفا حسيا نابضا بالحركة ، يضع
البحترى على رأس شعر الوصف ، فهو عندما يصف الجرماز من ناحية هيكله
الخارجي يصف عليه شيئا من الكلبة والوحشة ، وكأنه مقبرة أو ماتم ، ولكنه
إذا تأملته عن قرب ينبئك عن تاريخ أمة مجيدة كانت سمع العالم ومصيره
ثم نرى الشاعر يفتن في تصوير المشاهد التي يجدها في جنبات الايوان
وكانه رسام ماهر الريشه ، فهذا منظر مهيب مرعب للحرب بين الفرس والروم فس
(١) أنطاكية حيث كسرى أنوشروان يقف بكبريا تحت اللواء الضخم ينظم صفوف
جنده المرججين بالسيوف والرماح والتروس ، ومن خلال الوصف يجعلك
تشاهد حركة الجند السريعة ، وتسمع أصواتهم وهساتهم فلا تكاد تلتقط
أنفاسك لشدة متابعتك للحركات المتوالية بسرعة . ويبلغ القمة في الدقة
حينما يبين أن حقيقة هذا المشهد قد عميت عليه بين الحقيقة والظل . حتى
يكشف عن ذلك باللمس .

ومعد هذا تفتن نفس الشاعر لذهاب هؤلاء القوم ، فيهرب الى كأس خمسر
بيد وفيها آلامه :

قد سقاني ولم يصرد أبو الفخو * ث على العسكريين شربة خلص . (٢)

-
- (١) كانت تسمى أنطاوخيا نسبة الى أنطوخين اليوناني الذي بناها ، وهي
مدينة حسنة الموضع ، كان يقال أنه ليس في أرض الاسلام ولا أرض الروم
مثلها ، وتمثل الآن ما يسمى بلواء الإسكندرونة ، انظر صبح الأعشى : ١٢٩/٤ .
نزهة المشتاق : ١٢٥ ، محمد الفزالي ، هموم داعية : ٩٧ .
(٢) أبو الفخو : هو يحيى بن البحتري / معجم الأدباء : ٢٥٦ / ٧٩ ،
يصرد : يقلل .

زهرة شبابه ، وماتت سعوده نحوسا ، ولم يعد ينفعه التجلد مادام
الدهر قد أناخ بكللكه عليه :

فهو يبدى تجلدا وعليه * كلكل من كلاكل الدهر موسى .
ان الشاعر - فيما يبدو - في حالة اضطراب نفسى ، مصحوبة باعجاب
لا يجعله يفارق هذا الأثر الحضارى الرائع ، فنراه بعد أن وصف ماتم
الايوان يعود مرة أخرى ليذكر أيام هذا الايوان الزاهر ، وما كان يجيده
كسرى من التعظيم فى رحابه :-

- ليس يدري أصنع انى لجن * سكهو أم صنع جن لانى
- غير أنى أراه يشهد أن لى * يك بانية فى الملوك بنكس
- فكأنى أرى المراتب والقو * م اذا ما بلغت آخر حسو
- وكان الوفود ضاحين حسرى * من وقوف خلف الزحام وخفس
- وكان القيان وسط المقاصى * ريرجن بين حو ولعس

ثم بعد ذلك يعود للوقوف عليه فى حالة اندثاره مبينا سبب وقوفه
مكائه :-

- عمت للسمر دهر فصار * للتعزى رباعهم والتأسو
- قلها أن أعينها بدسوع * موقوفات على الصباية حبس
- ذاك عندي وليست الدار دارى * باقتراب منها ، ولا الجنس جنس
- غير نعى لأهلها عند أهلى * غرسوا من زكائها خير غرس
- أيدوا ملكنا وشدوا قسواه * بكماة تحت السنور حمس (١)
- وأرائى من بعد أكلف بالأشـ * راف طرا من كل سنخ وأس (٢)

(١) السنور : السلاح الحديدى ، أو الدرع . وهو معرب / انظر الجواليقي

المعرب : ٢٠٠ .

(٢) السنخ والأس : الأصل / الصحاح (سنخ) ، (أسس) .

ان الشاعر يقف على ايوان كسرى ، ويكيه بدموع غزار بالرغم من أنه ليس بداره ، كما أن ساكنيه وطوكه الذين فنسوا ليسوا بأهل الشاعر ولا من بني قومه ولكن عاطفة الشاعر الانسانية هي التي تدفعه الى أن يوفى أولئك القوم - الفرس - ما لهم من حقوق على دولة بني العباس ، فعلى أكتافهم قامت منذ البداية ، ثم اشتد عودها بفضل القادة والجيوش الضخمة التي قدمت من خراسان وغيرها واستطاعت أن تثقم كل مقاومة حتى ثبت الملك على أساس قوى ، ولما أن الشاعر يعتبر نفسه من بيت الخلافة ولا وهو لا يقدر على تقديم شيء يذكر لأهل الايوان لغنائهم فلا أقل اذن من أن يقف على آثارهم .

وسبب آخر لوقوف الشاعر على هذا الايوان هو ولعه بالأشراف والسادات الكرام عامة ، بغض النظر عن جنسهم ووطنهم ، وكأنه يريد - من وراء ذلك - أن يبين لنا منزلته ، وأى رجل هو .

أما القصيدة فهي في الذروة من الشعر العربي ، صاغها الشاعر بأسلوبه السلس السهل وان كان أحيانا يعمد الى الفخامة حينما يتطلب الموقف ذلك ولكن في غير تعور ولا تقعر ، فألفاظه حلوة الجرس لا تكاد تحس فيها غلظه وقد وشى البحترى قصيدته بألوان من المحسنات ، وخاصة الطباق والمقابلة التي وقعت في مواضعها أحسن موقع لأنها جاءت من غير تعمل ، كقولـه " ولقد تذكر الخطوب وتنسى " ، وقوله : " وهم خافضون في ظل عال .. " . كما أنه وفق لروى مناسب للقصيدة " السين المخفوضة " ان أنه حرف هامس يناسب موقف الرثاء والحزن ، وأدت الكسرة - أيضا - دورها في زيادة التأثير .

يقول ابن المعتز عن البحترى : " لو لم يكن له الا قصيدته في ايوان كسرى (١) "

فليس للعرب سينييه مثلها - وقصيدته في بركة المتوكل لكان أشعر الناس .

وممن سبق البحتري بزمن طويل في الوقوف على بقايا ايوان كسرى
(١)
الشاعر آدم ابن عبد العزيز ، ومقاطعته التي وصلت اليها قليلة الأبيات
ولكنها ذات معان كبيرة .

يقول : (٢)

- أقول مراعي ايوان كسرى * برأس معان أو أدرو سفان .
وأبصرت البغال مربوطات * به من بعد أزمنة حسان .
يمز على أبي ساسان كسرى * بموقفك في هذا المكان .
شربت على تذكر عيش كسرى * شرابا لونه كالزعفران .
ورحت كأنني كسرى اذا ما * علاه التاج يوم المهرجان .

ان الشاعر - كما يبدو لي - يتخذ من الوقوف على ايوان كسرى تعة للبكاء
على ملك قومه الأمويين الذي أحيط به ، وأصبح عبرا وأحاديث ، ونظرا
للوضع الذي كان يعيش فيه الشاعر عبر التلميح بدل التصريح . ويتألم
آدم بن عبد العزيز لما حل بهذا الايوان الضخم من نوائب الدهر ، حتى
أصبح مربوطا للبغال ، من بعد أن كان مقرا للحسان ، ومرثعا للظباء .

(١) هو آدم بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز بن مروان . كان بالشام
حين ذهب ملك قومه الأمويين ، وأراد العباسيون قتله مع من قتلوا
بنهر أبي فطرس ، ولكنه استعطفهم فتركوه . وقيل لقربته من عمر
بن عبد العزيز ، ثم عاش بعد ذلك في العراق ، فهو من مخضرمي
الدولتين . وقد كان ماجنا خليعا في أول حياته ثم نكب بعد ماعمر
ومات على طريقة محمود سنة ١٦٠ هـ / انظر الأغاني : ٢٨٧/١٥ ،
الشكعة ، رحلة الشعر : ٤٩٥ .

(٢) الأغاني : ٢٨٩/١٥ .

وهذا الوضع المؤسف مما يحزن ويؤلم كسرى - صاحب الايوان - الذى يتقمص
الشاعر شخصيته وينطق بلسانه معبرا عن شعوره ، وعندما يأخذ الشاعر
الأسف والحسرة على ذهاب هذا الأثر العظيم يلجأ الى تناسى ذلك بكأس
خمر يحب منها ، فتجعله كسرى جديدا يتألف تاجه فى مواسم الفرح .

ولعلنا هنا نلاحظ الشبه فى هذه الصورة المتخيلة - لفعل الخمره -
عند كل من آدم والبحترى فالبحترى جعل كسرى ينادمه ، والبلهذ يفنيه
أما آدم فتصور نفسه كسرى بذاته . فهل يعنى هذا أن آدم قد أوحى الى
البحترى بهذه الصورة - لكونه أسبق منه اليها ؟ ربما كان الأمر كذلك . ومن
الجدير بالذكر فى هذا المقام ، القول بأن هذه الصورة لفعل الخمر بشاربها
ونقله ما هو فيه من هموم وحضيني الى السعادة والقامة موجودة منذ القديم

فى شعر الشعراء . يقول حسان بن ثابت رضى الله عنه - : (١)

ونشربها فتركنا طوكا * وأسدا ما ينهنهنا اللقا .

ويقول المنخل : (٢)

فاذا سكرت فاننى * رب الخورنق والسدير .

واذا صحت فاننى * رب الشهية والبصير .

(١) ديوان حسان : ١٧ / ١ .

(٢) هو المنخل بن عبید بن عامر اليشكري . شاعر جاهلى قديم / ابن

قتيبة ، الشعر والشعراء : ٤٠٤ / ١ - ٤٠٥ .

رثاء البصرة حين تدميرها على يد الزنج :-

من الثورات الخطيرة والحنيفة التي وقعت في العصر العباسي الثاني ،
وكانت تؤدي بالخلافة العباسية - لولا لطف الله - الثورة السامة بثورة
الزنج ، لأن معظم جيشها كان من الغلمان والزنج والعبيد . ولقد شغلت
هذه الثورة الدولة العباسية ما يزيد على أربع عشرة سنة ، فقد كانت البداية
الأولى لها في سنة خمس وخمسين ومائتين حينما ظهر رجل في فرات البصرة
يدعى أنه طوي ، وأن اسمه على بن محمد بن أحمد بن زيد الس (١) أن
يصل إلى طوي بن أبي طالب . ثم لم يلبث أن رحل إلى البحرين ، ودعا
الناس فيها إلى اتباعه وبعثته - بوصفه أحق بالخلافة من بني العباس - فتبعه
خلق كثير من أهلها ولحق فيها من التعظيم والاحلال ما يفوق الوصف ،
حيث أحلوه من أنفسهم محل النبي فجعل له الخراج ، ونفذت أحكامه فيهم
ولكنه لقي معارضة من قوم آخرين من سكان تلك النواحي ، فاشتعلت الحرب
بين المؤيدين والمعارضين ، مما اضطره إلى التحول عنهم إلى البادية
فاجتمع له بها جماعة كثيرة ، وزحف بهم إلى موضع بالبحرين يقال له (السوم)
فكانت بينه وبين أهلها وقعة كبيرة دارت الدائرة فيها عليه وعلى أصحابه

(١) ذكر أن اسمه الحقيقي هو طوي بن عبد الرحيم من بني همد القيسيين .

من قرية من قرى الري يقال لها ورزتين . انظر : الطبري : ٤١٠ / ٩ ،

ابن خلدون ، تاريخ العبر : ١٨ / ٤ .

(٢) البحرين : اسم جامع لبلاد طوي ساحل بحر الهند بين البصرة وحصان

وعدها قوم من اليمن ، وفيها عيون كثيرة في ناحية قراها بحيرة على باب

الأحساء ، ولذلك سميت بالبحرين / معجم البلدان : (البحرين) .

فنفروا منه ، وكرهوا صحبتته ، فجارنى أمره وأخذ يفكر بمنطقة أخرى
يذهب اليها . يقول : (١)

" فأظلتنى سحابة فبرقت وورعت ، واتصل صوت الرعد منها بسمعى ،
فخطبت فيه ، فقيل : أقصد البصرة ، فقلت لأصحابى وهم يكفوننى ، انى
أمرت بصوت هذا الرعد بالمصير الى البصرة " . فمضى اليها ودعا بها لنفسه
ولكنه لم يجب ، ولم يخبره واليها محمد بن رجاء الحضارى ، فوجه اليه
حملة عسكرية ، ولكنه هرب منها حتى دخل ببغداد وكان يرافقه من أصحابه
الذين اتبعوه فى البحرين يحيى البحرانى وسليمان بن جامع اللذان أصبحا
فيما بعد من قادة جيوشه المفضلين ، ومكث فى بغداد قرابة العام ، حتى
سمع بمسزل ابن رجاء الحضارى عن البصرة ، ووقع الفتن الطاحنة بين أهلها
توجه اليها ونزل قصر يعرف بقصر القرشى ، على نهر يعرف بمحمد ابن
المنجم ، وادعى أنه وكيل لولد الخليفة الواثق فى بيع السباح ، وبدأ
دعوته من هناك وسط الزنوج الذين كانوا يعملون بتلك السباح حتى اجتمع
اليه منهم جيش جرار . فنظمهم ورتب أمورهم وجعل عليهم قوادا منهم - ثم
قام فيهم خطيبا فنهاهم وندب لهم الوعود بأنه سيقودهم الى امتلاك الأموال
والضياع ، وحلف لهم بأغلظ الأيمان ألا يفدر بهم ولا يخذلهم ، ولا يدع شيئا
من الاحسان الا صنعه لهم ثم انه لدهائه وخبثه أمر الزنوج أن يأتوا بمواليهم
فأتوا بهم مكتوفين ، ووخهم قائلا : " قد أردت ضرب أعناقكم لما كنتم تأتون
الى هؤلاء الغلمان الذين استضعفتموهم وقهرتموهم ، وجعلتم عليهم -
مالا يطيقون ، فكلمنى أصحابى فيكم ، فرأيت اطلاقكم " ثم أمر قوما من غلمانته

(١) الطبرى : ٤١١ / ٩ ، وقد فصل أخبار الزنج وشورتهم فى هذا الجزء
تفصيلا دقيقا .

(٢) واحدها سبخه : وهى الأرض الملوحة التى لا تصلح للزراعة الا بعد كشطها
الصالح : (سبخ) .

أن يجلدوا مواليتهم بالجريد خمسمائة جلدة ثم أطلقهم . وهذا العمل ثبت
 في نفوس الزنج أن حركتهم هذه ما هي الا ثورة العبيد ضد السادة الظالمين
 وان غلفت بغلاف ديني . عندئذ أخذ الزنج يغيرون على دور السـلاح
 وينتهبونها ، كما انتهبوا بعض المراكب البحرية والزوارق وما الى ذلك حتى
 أصبحوا على استعداد تام لأي هجوم على أقوى الجيوش وأكبرها ، عندئذ
 حاصر البصرة وضيق عليها ، وحارب أهلها ، ولكنه لم يدخلها في المـام
 المذكور (٢٥٥) . وكأنه بذلك يريد اختيار القوة الموجودة فيها ، فلما
 رأى ضعفها صمم على اقتحامها . ففي سنة سبع وخمسين ومائتين ، وجـه
 صاحب الزنج الى الأعراب الذين حول البصرة وأغراهم بالمال ، فأتاه منهم
 أفواج كثيرة ، فأمرهم بمهاجمة البصرة ، ففعلوا . ثم هجم هو بقواته وظمانه
 على المدينة من جهاتها المختلفة ، وكان ذلك والناس في صلاة الجمعة ،
 فأخذ يقتل ويدمر ويحرق يوص الجمعة والسبت ، فأصاب الناس بلا^(١) وجهسد
 شديدان يقول المسعودي : " واختفى الناس نـعرا في الدور والآبار ، وكانوا
 يظهرون بالليل فيأخذون الكلاب فيذبحونها ويأكلونها وكذلك الثـران والسنانير
 وكانوا اذا مات فيهم الواحد أكلوه ، كماعدوا مع ذلك الماء العذب
 . . . " ولما هلك الناس وتشردوا خرج الى صاحب الزنج بعض القوم يطلبونه
 الأمان ، فأمنهم على أن يجتمع كل من يريد الأمان في المسجد الجامع بالبصرة
 ففعلوا ، ثم كان منه الا أن وضع فيهم السيف حتى أبادهم جميعا وأحرق المسجد^(٢)
 الجامع ونهب أصحابه كل مايقدر على من مال ومتاع ، وقيل ان عدد القتلى
 من أهل البصرة بلغ ثلثمائة ألف بين ذكر وأنثى وشيخ وطفل . ولقد هـال

(١) مروج الذهب : ١١٩/٤ .

(٢) تاريخ الطبري : ٤٨١/٩ - ٤٨٣ .

القتل والخراب الذى لحق بالبصرة صاحب الزنج نفسه ، حتى نسب
(١)
ذلك الى فعل الملائكة التى كانت تؤيده - كما يزعم - فيروى عنه أنه قال :
دعوت على أهل البصرة فى غداة اليوم الذى دخلها أصحابى ، واجتهدت
فى الدعاء ، وسجدت وجعلت أدعوى سجودى ، فرفعت الى البصرة
فرايتها ورأيت أصحابى يقاتلون فيها ، ورأيت بين السماء والأرض رجلا واقفا
فى الهواء ، وقد خفى يده اليسرى ، ورفع يده اليمنى ، يريد قلب البصرة
بأهلها فعلمت أن الملائكة تولت اخرابها دون أصحابى ، ولو كان أصحابى
يتولوا ذلك لما بلغوا هذا الأمر العظيم . وان الملائكة لتضربن وتؤيدننى
فى حربى ، وتثبت من ضعف قلبه من أصحابى .

ويورد الطبرى عددا كبيرا من المعجزات والخوارق التى كان صاحب
الزنج يذكرها لأصحابه ليطمئنهم بأنه على أوتى مؤيد ، وخاصة عندما
ينوى خوض معركة كبيرة ، أو يكون قد انتهى من قتال يخشى بعده ترزع
ثقة قومه به ، فكان يشن على أسماع قومه غارة من الخرافات والبشارات الكاذبة
وهم لجهلهم يصدقون ، قال فيه وفيهم المعتز ، وهى من أرجوزته
الطويلة :- (٢)

- ما زال حينما يخدع السودانا * ويدعى الباطل والبهتاننا .
- وقال : سوف أفتح السوادا * وأملك العباد والبـلادنا .
- وقال : انى أعلم الغيوبنا * لم ير منهم عالما مجيبنا .
- صاحب قوما كالحمير جهلة * وكل شئ : يدعه فهو لسه .

على أن أهم ما رثيت به البصرة من الشعر قصيدة ابن الرومى الميمية
الباكية التى تشمر عند قراءتها أن قائلها قد مسته النكبة وهزته المصيبة

(١) انظر تاريخ الطبرى : ٤٨٧/٤ .

(٢) ديوان ابن المعتز : ٤٨٤ .

يقول :- (١)

- زاد عن مطلق لذيق المنام * شغلها عنه بالدموع السجام .
- أى نوم من بعد ما حل بالبص * رة ما حل من هنات عظام .
- أى نوم من بعد ما انتهك الزند * ج جهارا محارم الاسلام .
- ان هذا من الأمور لأمر * كاد أن لا يقوم فى الأوهام .
- لرأينا - مستيقظين - أمورا * حسينا أن تكون رؤيا منام .
- أقدم الخائن اللعين عليها * وطى الله أيضا اقصادام .
- وتسمى بخير حق اماما * لا هدى الله سعيه من امام .

يبدأ الشاعر قصيدته بوصف وقع الحادث الأليم على نفسه ، فقد لم يحج بالبكاء واشتغل به عن النوم والراحة ، وهل هناك مجال للنوم من بعد أن دمرت البصرة ، وأحرقت ، وانتهكت فيها محارم الاسلام على يد أولئك الأوحاش ، ثم يتعجب ابن الرومى من شدة الحدث ، وكأنه لا يصدق ، أولا - يريد أن يصدق ما يسمع من الأنبياء التى لم يكن يتوقع وقوعها حتى فسى الأوهام والأحلام . ولكن ذلك حدث حقيقة ، بفعل ذلك اللعين - صاحب الزنج - الذى لا يرمى الا ولا ذمة ، ولا تأخذه بالضعفاء شفقة ولا رحمة ، وهو مع ذلك يدعى أنه امام وأنه طوى ، وهل هذا فعل امام مسلم يريد الخير للأمة ؟ أما ماورد فى أرجوزة ابن المعتز السالفة الذكر من نسبة ذلك الدعى الى العلوية ، حين قال :

والعلوى قائد الفساق * ورائع الأحرار فى الأسواق .

(٢)

فلعله أراد من ذلك الاساءة الى آل على بن أبى طالب بنمبه هذا الفاجر

(١) ديوان ابن الرومى : ٤١٩ - ٤٢٧ .

(٢) الموسوعة الأصفهاني ، روضات الجنات : ١٠٣ / ٥ .

اليهم ، وجعله مثالا للتأثرين منهم ، المطالبين بحقهم في الخلافة المنصوبة
(١)
مع علمه الأكيد أن آل علي ، منه بغراء وأنه مدّع كاذب ، فيروى عنه أنه لما نزل
قريباً من الكوخ أتاه أهلها فسلموا عليه وأمدوه بما يحتاج ، وجاءه فيمسن
جاء رجل يهودي يقال له مائدويه فقبل يده ، وسجد له - زعم شكري لرؤيته
إياه - ثم سأله عن مسائل كثيرة فأجابها عنها ، فزعم أنه يجد صفته في
التوراة ، وأنه يرى القتال معه ، وسأله علامات في بدنه ذكر أنه عرفها
فيه ، فأقام معه ليلته تلك يحادثه .

ثم يأخذ ابن الرومي في التلطف والحسرة على هذه المدينة التي تعتبر من
عواصم الاسلام فيقول :

- لهف نفسي عليك أيتها البصرة * رة لهفا كمثل لهب الضرام .
- لهف نفسي عليك يامعدن الـ * خيرات ، لهفا يعضني ابهاص .
- لهف نفسي عليك يا قبة الاسـ * لام ، لهفا يطول منه غرامس .
- لهف نفسي عليك يافرضة البلـ * دان ، لهفا يبقو على الأعوام .
- لهف نفسي لجمعك المتفانسـ * لهف نفسي لعزك المستنصام .

ان هذا التكرار في عبارات التلطف ، يدل على الألم الممض الذي ألهم
بالشاعر ، فعلى يحدث نفسه التي أخذها الذهول بمنزلة البصرة ، وما حل
بها من النكبات العظام ، وكأنه بذلك يضمها من الراحة أو السلوان .

ومعد هذه الزفرات الحارة التي يطلقها الشاعر الحزين ، يأخذ في تفصيل
الحادث ومجرياته ومآسيه ، ولعل هذا راجع لتأثير الفلسفة والمنطق الذي
ألم ابن الرومي بطرف منه ، فأثر في أسلوبه بعض الشيء ، فهو أجمل في
بداية القصيدة عند حديثه عما حل بالبصرة من المهنت العظام ، والآن يريد

(١) تاريخ الطبري : ٤٢٠/٩ . الفرضة : العظيمة ، وفرصة البحر : محط

السفن . اللسان (فرى) .

أن يفصل بعد الاجمال فيقول :-

- بينما أهلها بأحسن عـال * ان رماهم عبيد هم باصطـلام . (١)
 دخلوها كأنهم قطع الليـ * ل ان اراح مدلبهم الظـلام .
 أي هول رأوا بهم ، أي هول * حق منه يشيب رأس الفـلام .
 ان رموهم بنارهم من يمين * وشمال وغلفهم وأمـلام .
 كم أغصوا من شارب بشـراب * كم أغصوا من طاعم بطـعام .
 كم ضنين بنفسه رام منجـا * فطلقوا جبينه بالحسـام .
 كم أخ قد رأى أخاه صريـما * ترب الخد بين صرعى كـرام .
 كم أب قد رأى عزيز بنيـه * وهو يعلو بصرم صمـام .
 كم مفدى فى أهله أسلمـوه * حين لم يعمه هنالك حامى .
 كم رضيع - هنالك - قد فطمـوه * بشبا السيف قبل حين الغـلام .
 كم فتاة - بخاتم الله بـكر - * فضحوها جهرا بغير اكتـام .
 كم فتاة مصونة قد سبـوها * بارزا وجهها بغير لثـام .
 صبحوهم فكابد القوم منـهم * طول يوم كأنه ألف عـام .
 من رآهن فى المساق سبـاهما * داميات الوجوه لذقـدام .
 من رآهن فى المقاسم وسط الزنـ * ج يقسمن بينهم بالسـام .
 من رآهن يتخذن امـا * بعد ملك الاماء والخـدام .

ان الشاعر فى هذه الأبيات يحدد - بمراره - صنوف العذاب التى أذاقها

أولئك الزنوج لأهل البصرة ، الذين لم يكونوا يتوقعون مثل هذا المهـجـوم
 من عبيد هم وخولهم ، فقد أحاط بهم أولئك الأوفاد من جميع الجهات ، -
 وأعطوا فيهم السيف والقنا ، حتى أذهلوا الأخ عن أخيه ، والأب عن بنيـه

(١) أصل المـ الشئ : قطعه من أصله . لسان العرب : (صلم) .

فكل يريد النجاة بنفسه ، ولكن أين هو من ذلك ؟ ان القوم له بالمرصاد .
 كما فعلوا الأفاعيل الشنيعة بالنساء والفتيات الحرائر المصونات ، فأخذوهن
 سبايا حاسرات ، وانتهكوا منهن ما حرم الله جهرا بغير اكتتام ، وأقاموا
 سوقا لبيعهن يقول المصمودي : " كان ينادى فى عسكر الزنج على المرأة
 من ولد الحسن والحسين والعباس ابن عبد المطلب وغيرهم من ولد هاشم
 وقريش ، ومن سائر أبناء الناس ، فتباع الجارية بالدرهمين والثلاثين ،
 وينادى عليها بنسبها هذه فلانة ابنة فلان ، ولكل زنجى منهن العشرة
 والعشرون والثلاثون " كما كانت النساء يقسمن بينهم بالاستهزام
 فيتخذون اماء وخداما لا يجدن من ذلك فكاكا ، فيروى أن امرأة هاشمية
 من ولد الحسن بن علي أبو طالب كانت عند بعض الزنج ، الفلاط واستفادت
 بالخبيث صاحب الزنج أن ينقلها الى غيره أو يعتقها ما هي فيه ، فقال
 لها : " هو مولاك وأولى بك من غيره " . (٢)

ان هذه الصورة البائسة التى وصل اليها حال أهل البصرة لتتضمن القرب
 نارا ، لما لا قاه أولئك الناس من الذلة والمهانة التى تعدى أثرها الى من
 سمع بها ومنهم شاعرنا ابن الرومي :-

• ماتذكرت ما أتى الزنج الا	* أضرمت القرب أيماء اضرام
• ماتذكرت ما أتى الزنج الا	* أوجعتنى مرارة الارغام
• رب بيع هناك قد أرخصوه	* طال ما قد غلا على السوام
• رب بيت هناك قد أخربوه	* كان مأوى الضعاف والأيتام
• رب قصر هناك قد دخلوه	* كان من قبل ذاك صعب المرام

(١) مرجع الذهب : ١٢٠ / ٤

(٢) المصدر نفسه : ١٢١

- وطئت بالهوان والذل قسرا * بعد طول التجهيل والاعظام
- فتراها ، تسقى الرياح عليها * جاريات بهيوة وقسام
- خاشعات ، كأنها باكينات * باديات الثغور ، لا لا بتسام

ان ابن الرومى فى هذا المشهد يجعل البصرة أطلالا ورسوما وذلك بعد أن سيطر عليها شحوب الموت وسكونه فسكت ضوضاؤها ، وغسلت أسواقها التجارية الشهيرة من الحركة ، ولم يعد يرى فيها الا أشيالا المتناثره بين الركام ، هنا وهناك تسقى الرياح عليها لتغطى تلك الوجوه الحسان التى أذلت بعد طول عز ومجد . ومادامت المدينة أصبحت كذلك ، فانا نراه يسلك لذلك سبيل الوقوف على الأطلال المعروف فى الشعر العربى منذ أقدم عصوره ، فيطلب من صاحبيه أن يعوجا أو يعرجا طمس البصرة ، تعريج ذى العلة المدنف الذى قصمت ظهره الأرزاء والحوادث ، وقد أعطى وصفه للبصرة بالزهراء ، مع وصفه للمعرج بالسقم معنى جميلا ، يدل على شدة وجده وشوقه لتلك البلدة التى مهدها زاهرة فأضحت بآثره . ثم يردف الوقوف بالسؤال ومناشدة الديار عن حالها وتغيرها وعيها عن الجواب . وهذا عين مايفعله الشعراء الجاهليون والمخالفون على عموهم الشعر من بعدهم فى مطالع قصائدهم ، انظر الى قول الشاعر الجاهلى :

مابكاء الكبير بالأطلال * وسؤالى فهل ترد سؤالى . (١)

انه يقف بالأطلال ويسألها ليكمل ذلك تمهيدا لفرضه الأصلي مسكن القصيدة وهو المدح فى الغالب . أما ابن الرومى فانه يقف على مدينة زاهره ليرثيها ويتعسر على ماجرى لها من نوائب ومصائب فحسب ، فخايقته هى الرثاء ولا يريد شيئا غيره ، وهذا هو الفرق بين الوقفتين .

(١) البيت مطلع قصيدة للأعشى ، أنظر ديوانه : ٣٦ .

ثم يطلب الشاعر من رفيقيه أن يزورا أهم معلم فى مدينة البصرة ، وهو
مسجدها الجامع الذى أحرق بعد أن عاش دهرًا طويلًا مؤثلاً للمعلماء والعباد
يقول :-

- بل ألما بساحة المسجد الجا * مع ، ان كتما ذوى المام .
- فاسألاه ، ولا جواب لديـــــــــــــــــه * أين عباده الطوال القيام .
- أين عماره الألسى عـــــــــــــــــروه * دهرهم ، فى تلاوة وصيام .
- أين فتياه الحسان وجــــــــــــــــوها * أين أشياخه أولو الأسلام .

انه فى هذه الأبيات لا يركز رثاءه وكأه للمسجد بذاته كمعلم اسلامى
بقدر ما يركز على أهل المسجد وعواده ، فيرسم لذلك صورة متخيلة ، عندما
يدعى كل من خذل أهل البصرة من المسلمين على رؤوس الأشهاد ليحاكمهم
أمام الله ويحاسب على تقصيره فى الدفاع عن الحرمات فيندم ، ولكن ذلك
لا يخفى عنه شيئًا . يقول :-

- كم خذلنا من ناسك ذى اجتهاد * وفقيه فى دينه ملام .
- واندأى على التخلف عنــــــــــــــــم * وقيل عنهم غنا ندامى .
- واعياى منهم اذا ما التقينا * وهم عند حاكم الحكام .
- أى عذر لنا ، وأى جــــــــــــــــواب * حين ندعى على رؤوس الأنام .
- يا عبادى أما غضبتم لوجهــــــــــــــــى * ذى الجلال العظيم والاكرام ؟
- أخذلتم اخوانكم ، وقصدتم * عنهم - محكم - معود اللئام ؟
- كيف لم تعطفوا على أغــــــــــــــــوات * فى حبال العبيد من آل حمام ؟
- لم تغاروا لفيرتى ، فتركــــــــــــــــتم * حرماى ، لمن أحل خرامسى .
- ان من لم يفر على حرماــــــــــــــــتى * غير كف لقاصرات الخيام .
- كيف ترضى العمراء بالمرء بــــــــــــــــلا * وهو من دون حرسه لا يحامى ؟

ان الشاعر - كما يلاحظ من الأبيات - يحاول الضرب على وتر حساس ففى نفوس الناس هو وتر العقيدة والأخوة الإسلامية ، فهو يضيف الى الصورة الأولى . صورة أخرى فى نفس الموقف حين يتولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مخاصمة المتقاصين عن الجهاد وتوبيخهم لأنهم لم يراعوا حراسة النبى فينصروا من استغاث به :-

- واحيائى من النبى اذا ما * لا معنى فيهم أشد الملام
 - وانقطاى اذا هم خاصمونى * وتولى النبي عنهم خصامى
 - مثل مثلوا قوله لكم - أيها النبا * س - اذا لا مكم مع اللـام
 - " أمى : أين كنتم - ان دعتى * حرة من كرائم الأقسام
 - صرخت : " يا محمداه " فهلا * قام فيها رعاة حق مقامى
 - لم أجبها ان كنت ميتا - فلو لا * كان حى أجابها عن عظامى
- انه يصور النبى - عليه الصلاة والسلام - وقد غضب أشد الغضب ، على أمة لخذلانهم اخوانهم فى العقيدة ، وهو يمهّد بذلك لهت الحماس فى نفوسهم عندما يحرضهم فى آخر قصيدته على الثأر والانتقام من أولئك الطفام الذين استباحوا الحرمات فيخاطب الناس قائلا :-

- انفروا أيها الكرام خفافا * وشقلا الى العبيد الطفام
- أبرموا أمرهم ، وأنتم نيام * سوءة سوءة لنوم النيام
- صدقوا ظن اخوة أطوكمهم * مرجوكم لنسوة الأيـام
- أدركوا ثأرهم ، فذاك لديهم * مثل رد الأرواح فى الأجسام
- لم تقرروا العيون منهم بنصر * فأقروا عيونهم بانتقام
- أنقذوا سبيهم - وقل لهم ذا * ك - حفاظا ورعية للذمام
- عارهم لا زل لكم أيها النبا * س ، لأن الأديان كالأرحام

- ان قعدتم عن اللعين فأنتم * شركاء اللعين في الاثام
- بادروه قبل الروية بالعز * م ، وقبل الاسراج بالاجسام
- من فدا سرجه على ظهر طرف * فحرام عليه شمس الحزام
- لا تطيلوا المقام عن جنة الخ * لد ، فأنتم في غير دار مقام
- فاشتروا الباقيات بالعرض الأد * نى ويصوا انقطاعه بالدوام

ان ابن الروي يخرج في آخر قصيدته الى الاستصراخ والاستغاثه مما يؤكد تفاعله مع الحدث بصدق وايجابية ، فنراه ينهج نهجا خطابيا حماسيا مركزا على المعانى الاسلامية التي هي أهم الروابط التي تربط فئات الناس ببعضهم ، في مجتمع كبير كالعباسي . كما أنه لا يجد أبلغ من العبارات القرآنية يذكر بها ويذكر أولئك الناس حاضا اياهم على الاسراع بالفتك باللعين صاحب الزنج ورهطه ، وافتكاك الأسرى والسبايا من أيديهم ، حفظا لكرامة اخوانهم الذين مضوا وعرضهم . لأن ذلك أقل ما يبذل لاهوان العقيدة . فيطلب منهم أن ينفروا خفافا وثقالا للحرب والجهاد ، وأن يربأوا بأنفسهم عن قصود الجبناء اللثام ، فيكونوا عوناً للزنج على جرائمهم ، وشركاءهم في الاثام . ثم يذكرهم بالجنة ونعيمها الخالد الأبدى ، والفرق الشاسع بينهما وبين الدنيا الفانية ، ويدفعهم الجمع أنفسهم وماطكوا من عرض الدنيا لله بالجهاد في سبيله - لينعموا بتلك الجنان .

والذى يبدوا أن استغاث ابن الروي قد وجدت أذنا صاغية من الخليفة والحكام العباسيين وعامة الشعب ، حيث ندب الخليفة المعتمد على الله أخاه أبا أحمد الموفق طاحه ، وكان هذا داهية شجاعا ، أعد جيشا ضخما مجهزا بالمعدات البرية والبحرية ، واستطاع أن يلحق بالزنج هزائم متتالية وان يقتل منهم أعدادا كبيرة ، ويستفد كثيرا من البلدان والأسرى الذين

كانوا في أيديهم . ولكنه توفي قبل أن يقضى عليهم تماما في سنة خمس وستين ومائتين فخلفه على حربه المعتضد بالله ابن الخليفة المعتضد ، وكان هذا - أيضا - شجاعا مقداما ، فأرهب الزنج بكثرة الغارات والحروب ، وحصرهم وضيق عليهم تضيقا شديدا ، مما اضطر أكثرهم أن يطلب من نفسه الأمان ، وحارب معه ضد الزنج واستمر على ذلك من نصر إلى نصر حتى جاءت سنة سبعين ومائتين ، حيث استطاع أن يقضى على ثورة الزنج نهائيا وذلك بقتل **الدهلي** رأس الثورة وأسر قائديه المشهورين سليمان بن جاسع والمهلبى ، وحثبها إلى بغداد حيث قتل وصلبا هناك . (١)

(٢)

ومن رثى البصرة أيضا شاعر يعرف بأبي ناظرة السدوسي ، وهو أحد

أبناء البصرة الذين شهدوا خرابها على أيدي الزنج . يقول :- (٣)
 أبي الصبر تذكّر الديار التي خلست * مجالسها من سود وخطوب .
 ومغدى ذوى الحاجات في كل شارق * إلى كل مفشى الفناء مهيب .
 وكل مطاع في العشيرة ماجسد * معين على ريب الزمان وهوب .
 منازل فارقت العهد ولم تكن * معانا لناقوس ولا لصليب .
 منازل قوم أسرع السيف منهم * إلى كل وضاح الجبين نجيب .
 وكل صميم من ذؤابه قومسه * كريم لخفايا الكرام طلوب .
 أبوا أن يرى الله اليهود منهم * لأضفة عن دين النبی تكسوب .

(١) انظر الخبر في تاريخ الطبرى : ٦٠٢/٢ وما بعدها .
 (٢) يبدو أنه شاعر مغمور ، فلم أعثر له على ترجمه الا قول المبرد عنه :
 كان رجلا من أهل العلم والمعرفة بكلام العرب ، وحسن التصرف فيه
 التعازي والمراثي : ٢٨٢ .

(٣) القصيدة بتمامها في المصدر السابق : ٢٨٢ - ٢٨٨ .

(٤) معانا : مكانا . اللسان . (معن) .

(٥) الأضفة : المفترى . اللسان (ضه) .

- فأودوا وقد عاشوا كراما أعفة * على فتن موت بهم وحروب .
 تفادى بهم ضربا على الهام تبارة * وذبحا بأقصى أنفوس وقلوب .
 فكمن من رحي دارت وكم من مصيبة * توالى ومن يوم هناك مصيب .
 على ألف ألف من ملوك وسوقة * ثبوا بين أبواب لهم ودروب .
 بخلقة هاماتهم وشريد هم * شاطئ شتى أوجه وشروب .
 الى غير راع يرتجى النصر عنده * ولا عطن يؤوى اليه رحيب .
 عباديد من ناج على جذم بقلعة * ومن راح يشكو الكلال جنيب .
 ومن راسب طاف على الماء شلوه * وذى ظمأ أودى به وسفوب .
 فيها أرضهم أخلوك فابكى عليهم * وجودى عليهم ياسما وصوب .

يبدأ الشاعر قصيدته بمطلع يتحسر فيه على دياره التى فارقها مرغما
 ويحاول أن يبدى شيئا من التجلد حينما يجول بفكره خاطر العودة مسن
 النزوح ولو عن بعد . ولكن هذا الصبر والتجلد لا يلبث أن ينهزم تحت
 طارق الشوق الحارم الذى يبعثه تذكّار المصاب الفادح . وأى صبر يبقو
 بعد دمار المدينة الشامخة التى كان خيرها للقريب وللبعيد شامل ، فهى
 قبلة ذوى الحاجات ، يفشونها من كل صوب فينالون ما أرادوا لسماحة أهلها
 وكرمهم ، وكثيرا ما تكون الشهامة والعزة هى سبب المنية ، كما هو الحال عند

(١) شاطئ : أرهاط مختلفة - وهو جمع لا يفرد له واحد / اللسان -

(شمل) .

(٢) عباديد : جماعات متفرقة . وهو جمع لا يفرد له واحد / أيضا

اللسان (عبد) .

الرائح : الذى لا يقوى على النهوض ضعفا وتعيا ، اللسان (ربح) ،

الجنيب : المصاب بداء ذات الجنب (نوع من الأمراض) .

(٣) الشفوب : الجوع . اللسان (سغب) .

أهل البصرة ، فقد أبوا أن يستكينوا للذل والقهر ، فوقفوا بمزم أمام
قوات الزنج الكاسحة على الرغم من ضعفهم إزاءها فقتلوا بعزة وشرف .
وهنا نعرض دفقة الحاطفة عندما يستطرد الشاعر في وصف المذبحة الرهيبة
التي أقترفها وحوش الزنج ، فأمواج الدماء تقذف بالهجمات الغلظة هنا
وهناك ، وروح الموت لا تزال تدور ، وتنتج الخراب والدمار والتشرد ، حتى
هذه الزرافات من المشردين لا تدرى إلى أين تتجه ، فقد قل النصير وعدم
الأمن والمأوى فمن نجا منهم من الزنج ، ابتلعته النهر ، ومن عبر النهر
قتله الجوع والظما .

ومعد هذه الصورة المفعمة بالحركة والضجيج والتي أشاعت في جـ
القصيدة روحا من العنف والسفك ، وأضفت عليها - ظلالا طونة بشقى الألوان
الصاخبة ، بعد ذلك نرى الشاعر يتطككه الأسى والشحوب حين تجسست
أمامه مصيبة المدينة ومن بقى من أهلها فيقول :-

أرى كل قوم لا يزال مظنة * منازلهم من آيب ومـؤوب .
سوانا فانا حشو كل مدينـة * وألقاؤها من نان وقریب . (١)
ذو أوجه فيها كواب وأعین * بواك وفقر ظاهر وشحوب . (٢)
فذو العز منا مستكين وذو الفنى * كان لم يكن ذارحة وركوب .
فما حل بالاسلام مثل مصابنا * وسلطاننا للدين حق غصوب .
فلا المرید المعمر بالعز والنهى * وكل فتى للمكرمات كسـوب . (٣)

(١) الألقا : جمع لقي : وهو الملقى أو المطروح . اللسان (لقا) .

(٢) كواب : ذابله مسوده . اللسان (كبا) .

(٣) المرید : من أشهر محال البصرة ، كان فيه يقسم سوق الابل قديما

ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس ، به كانت مفاخرات الشعراء ومجالس

الخطباء ، ويبعد عن البصرة ثلاثة أميال . / معجم البلدان : (مرید) .

أما الشط الذي كان مصدر رزق للبصرة ، فقد خلا من سفن الخير ،
وماتحطه ، وأبدل بها كرائب زنج فافرة الأفواه للقتل والسلب والتدمير .
تمر بالشاعر هذه الحالة المنقلبه فيتصور أنه لم يبق في الدنيا نعيم يطيب
معه العيش :-

نعت أرضنا الدنيا الينا وأدبرت * بكل نعيم في الحياة وطيب .
وما كانت الدنيا سوى البلد الذي * خلا اليوم من داع به ومجيب .
وما عيش هذا الناس بعد زهابه * بعيش ولا مفناهم برغيب .
إذا الدمع لم يسعد كئيبا فأننى * سأبكي وأبكي - الدهر - كل كئيب .
على دمن جرت بها الريح بعدنا * ذيول البلى من شمال وجنوب .
وما كل بصرى شكوا بمفنى * ولا كل بصرى بكى بمحبيب .
ولو أن بصرىا بكى كنهه شجوه * بكى بدم حتى المات صبيب .
الى أن يقول :

فيا بصرى من هالك مات حسرة * عليك ومن صب اليك طسروب .
يظل شعاعا قلبه ومببته * على سنن من ربه ونجيب .
عليك سلام الله منا فأننا * نرى العيش الا فيك غير حبيب .
ان مدينة البصرة تمثل عالم الشاعر ودنياه ، فيها عرف السعادة وطيب
العيش ، أما وقد انطفأت شعلتها ، وذوت نضارتها ، فانه قد نفش
يديه من لقاء السعادة والتمتع بلذات الحياة . بل انه يقطع على نفسه

-
- (١) المبنى : المنزل / الصحاح (غنى) .
(٢) مأخوذ من قول امرئ القيس : فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها *
لما نسجتها من جنوب وشمال .
/ ديوانه : ٣٠ .
(٣) التفتيد : اللوم والتكذيب وتضعيف الرأي . الصحاح (فند) .
(٤) الشعاع : التفرق . الصحاح (شمع) .

عهدا بالبكاء المستمر مادام حيا ، وسيخلف لكل كتيب ثروة من الأحزان
والآلام يستعين بها على استدرار الدمع - على مر الأيام . وهو في ذلك لا يلتفت
الى لوم اللائمين ، بل يستهجن فعل كل من يعترض على شاك أهلك من أهل
البصرة الذين خرجوا من جنتهم ، فلوبكوا دما وهلكوا وجدا الحق لهم
ذلك دون عيب وانتقاص .

ومعد ، فالشاعر قد عاش تجربة مريرة ، تطلعت في شهوده عن قـرب
للسقوط المروع لمدينته الحبيبة ، ثم تشرده في الآفاق مع آلاف المشردين
وقد استطاع الشاعر أن يعبر بصدق عن هذه التجربة ، وان كانت درجات
الانفعال تتذبذب بين الشدة والخفوت عبر أجزاء القصيدة ، فتشور عاطفته
عند تصوير القتل والأسرى والفرق ، والحيارى المضطربين الذاهلين وتهدأ
عندما يكون هناك بعد زمني يفصل بين حرارة الحادثة وبين ما هو بصدور
الحديث عنه ، وذلك كوصفه لحالة المشردين الذين استقروا - فيما بعد -
في مختلف المدن والنواحي ، وخشيتهم سحائب الكابة حين أيقنوا باستحالة
الرجوع الى مدينتهم ثانية .

وقد استعمل الشاعر الأسلوب التقريرى المباشر في نقل صور الأحداث
فابتعد عن الخيال فجاء خطابه لأسماعنا وأبصارنا أكثر من خطابه لأعماقنا
ووجداننا ، وقد جاءت القصيدة سهلة الألفاظ والتراكيب مع حسن الانتقال
والترابط المحكم بين أجزائها ، على الرغم من طولها ، وهذا أمر لا يجيده
الا أفذاذ الشعراء ، كما أنها خلت من المقدمات كشكوى الدهر أو بيت هموم
النفس وما الى ذلك .

والأمر الغريب الذي يمكن ملاحظته على القصيدة هو خلوها من الصوت
القوى الذي يرتفع صارخا ومناديا للناس والحكام أن حي على الجهاد لافتكاك

الأرض والأرواح المسلمة من أيدي الزنج المجرمين ، كما فعل ابن الروميس من قبل . تخلو القصيدة من هذا على الرغم من مبالغتها قائلها في وصف النكبة حتى زعم أنه لم يحلّ بالاسلام مثلها ، ولعل سبب ذلك هو طول المسددة التي عاشتها ثورة الزنج ، وعنهم المذهل في التخريب والقتل والمهتلك حيث استقر في النفوس أن لا طاقة لأحد بهم .

ومن الفتن التي حصلت في العصر العباسي الثاني ، في أيام الخليفة المعتمد ، ما وقع في المدينة المنورة في سنة إحدى وسبعين ومائتين ، حيث دخلها محمد وعلي ابنا الحسن بن جعفر بن موسى بن الحسين بن علي ابن أبي طالب ، وقتلا جماعة من أهلها ، وطالبا أهلها بالأموال وأخذوا شيئا من ذلك ، فانتشر الرعب في المدينة وخربت حتى انه لم يصل في مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أربع جمع ، لا جمعة ولا جماعة فقال في ذلك أبو العباس بن الفضل العلوي :- (١)

- أخربت دار هجرة المصطفى البر * رفأبكي خرابها المسلمين .
- عين فابكي مقام جبريل والقبـ * رفكي والمنبر الميمونا .
- وعلى المسجد الذي أسه التقـ * وي خلاء أضى من العابدينا .
- وعلى طيبة التي بارك اللـ * ه عليها بخاتم المرسلينا .

ان هذه الأبيات بالرغم من قلة عددها ، ومساطة أسلوبها فانها تدل على عاطفة جياشة مفعمة بالحزن والأسى لما أصاب مقدسات المسلمين من الخراب .

(١) الطبري : ٧ / ١٠ ، ابن الأثير ، الكامل في التاريخ : ٤١٣ / ٧ .
ابن الجوزي ، المنتظم : ٨٠ / ٥ .

ان الوضع يختلف من حيث الرثاء بالنسبة لقيمة المدينة الموثية ، فهنا
الموثية مدينة عظيمة في نفوس المسلمين جميعا ، فلا تخص فئة دون أخرى
ففيها مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أسس على التقوى ، وفيها
القبر الشريف ، والمنبر الميمون أي منبر النبي عليه الصلاة والسلام ، فعندما
تدمر هذه المعالم الشريفة ويمسها الهجر والخراب يحق لكل عين أن تبكى
وتبكي .

ما قيل من الشعر في رثاء الحوادم بعد انتقال الخلافة عنها :-

منذ أن بنى أبو جعفر المنصور - الخليفة العباسي الثاني - مدينة بغداد
وهي مقر الخلافة العباسية وعاصمتها وقد أخذت تزدهر ازدهارا عظيما
وخاصة في عهد الرشيد حيث أصبحت جنة الدنيا وأمل المتمنين ثم جاء
عهد الأمين فخربت بغداد عند وقوع الفتنة بين الأمين والمأمون التي انحاز
فيها الفرس الى جانب المأمون ، والعرب الى جانب الأمين ، وعندما جاء
المعتصم بعد المأمون أراد أن يتخلص من هذين الحزبين - الموالى الفرس
والعرب - معا فوجه همه لجلب أعداد هائلة من الأتراك لأن أمة تركية
(١)
والفعل جلب منهم ما يقرب من سبعين ألفا فضاقت بهم بغداد ، وكثرت
حوادثهم فتدمرت العامة منهم ، فأمر المعتصم سنة إحدى وعشرين ومائتين
ببناء مدينة سامراء أوسر من رأى ، واختار فيها قصورا له ولوزرائه ، وبالمنح
في تجميلها ، فساق اليها الساج والخشب والجذوع من البصرة ومن أنطاكية

(١) القلقشندي ، مآثر الانافة في معالم الخلافة : ٢٢١ / ١ .

وعن بناء المدينة وصفها انظر : دائرة المعارف الاسلامية : ٨٤ / ١١ ،

يونس السامرائي ، سامراء في أدب القرن الثالث الهجري : ٥٢ .

وسواحل الشام ، وساق اليها الرخام من اللاذقية كما حمل اليها النخيل والغروب من بغداد والشام وزرع الناس أصناف البقل والزرع والرياح الخ واتسع الناس في البناء بسر من رأى أكثر من اتساعهم ببغداد ، هنوا المنازل الواسعة وتأنقوا فيها وارتحلوا عن بغداد بالمئات فأوحشت بغداد وهجرت لا زدها رجارته سامراء التي أصبحت هي دار الخلافة ، وقبله الشمر (١) والأدباء ، وفي ذلك يقول ابن الزيات راثيا حال بغداد : (٢)

الآن قام على بغداد ناعيةها * فليكنها لخراب الدهر باقية
كانت على ما بها والحرب باركة * والهدم ينفذ وعليها في نواحيها
ترجى لها عودة في الدهر صالحة * فالآن أضرمها اليأس راجية
مثل المعجوز التي ولت شبيبته * وان عنها جمال كان يحظيها
لزت بها حرة زهراء واضحة * كالشمس مكسوة درا تراقية

(١) هو محمد بن عبد الملك بن أبان بن أبي حمزة الزيات

كان من أسرة غنية اشتهرت بتجارة الزيت ، ولد سنة ١٧٣ هـ بالكرخ شغف بمجالسة العلماء والأدباء في عهده كعمر بن سعد ، سهل بن هارون والجاحظ حتى تحرف في العلم وأصبح من أساطين الكتابة والشعر فبلغ بذلك الوزارة ، فوزر للمعتصم ثم للواثق ، وقتل في عهد المتوكل سنة ٢٣٣ هـ لأمور كثيرة .

أنظر : شذرات الذهب : ٧٨/٢ ، الوفيات : ٩١٤/٥ ، معجم

المجوس ، محمد بن عبد الملك الزيات صاحب الثور : ٢٦ - ٢٧ .

(٢) ديوان ابن الزيات : ٩٦ .

على أن هذا الازدهار الذي عاشته سامراء لم يدم طويلا ، حيث استفحل أمر الأتراك في هذه المدينة وسياروا على كل شيء حتى حجروا على الخليفة نفسه وحجبه عن الناس ، ولم يبق له إلا السلطة الاسمية والدعاء على المنابر ، فبدأت المحاولات من قبل الخلفاء للتحويل عن سامراء وكان آخر هذه المحاولات ، ما قام به الخليفة المعتمد ، حين أمر بنقل عاصمة الخلافة الى بغداد في سنة تسع وسبعين ومائتين ، وذلك فقدت سامراء المنصور الأساس في وجودها وحياتها . فما كادت الخلافة ~~تتحول~~ عنها ، والد واهل والد واهل والجيش تفادوها ، حتى أسرع اليها الخراب ودب الدمار والهلاك في بنيانها الضخم ، فأخذ الناس ينقضون ما بنوه فيها ، وينقلونه الى بغداد للبناء والاقامة هناك . فأصبحت تلك الأبنية والمنشآت الضخمة أطلالا غربة تستدر العطف وتستنزف العيون ، وتبعث في النفس التذكير والمعبره

ولعل خير من يصف ما حدث لها أبنائها الذي ولد فيها ونشأ وترعرع عبد الله بن المعتز ، إذ يقول من رسالة الى صديق : (١)
" كتبت اليك من بلدة قد أنهى الدهر سكانها ، وأفقد جدرانها فشاها اليأس فيها ينطق ، وحبل الرجا فيها يقصر ، فكان عمرانها يطسوى وكان غرابها ينشر ، وقد وكلت الى البحر نواحيها ، واستحث باقيها الى فانيها ، وقد تمزقت بأهلها الديار ، فما يجب فيها حق جوار ، فالظاعن منها ممحو الأثر ، والمقيم بها على طرف سفر ، نهارة ارجاف ، وسروره أحلام ليس له زاد فيرحل ولا موى فيرتج ، فحالها تصف للحيون الشكوى ، وتشير الى ذم الدنيا ، بعد ما كانت بالرأى القريب جنة الأرض ، وقرار الملك "

ثم يقول في بغداد :

- أما ترى بلدا أقمت به * أطل ساكن أهله خص
- وولاته نبط زناد قسوة * ملأ البطون وأهلها خص
- أسياقها خشب مخلقة * مصنوعة ، وقرايبها خص
- وجنودهم تحص رعيتهم * ولهم على أكبادهم رقص
- غلبت خيانتهم أمانتهم * وظفى على تقواهم الحرص

وهكذا تستمر القصيدة الى نهايتها وهي تمتلئ بالسباب والشائم والقذف

بكل ما هو قبيح لأهل بغداد على كافة طبقاتهم .

ولعله من الجدير بالذكر هنا أن الحنين لم ينقطع لسامراء عنـــــــ

الكثيرين ، فيروي عن الخليفة الراضى انه كان كثير التردد عليها ، والحنـ

لخرابها وقال في ذلك : (١)

- بسر من را بلاد الملك طاب كسا * معرى عيشه باللهوم مذموم
- أرض متى اختلست الحاظها نظرا * اهتاج ذو طرب وارتاج مهـموم (٢)
- والحيـر والقصر والقاطول جنتها * والجعفرى بكف الدهر مزـموم
- منازل آتست دهرها فأوحشها * ظلم الزمان فمثلوم ومهـموم
- عفت وفيها وصل الرياح لها * والوصل منها بجبل الهجر محتوم

(١) أحمد سوسه ، روى سامراء : ٢ / ٣٠٠ .

(٢) الحير : اسم قصر بسامراء بناه المتوكل ، القاطول : نهر كان في موضع

سامراء قبل أن تعمّر . / معجم البلدان : (الحير) ، (القاطول) .

المبحث الثاني

٢٢٢

رثاء الدولة الطولونية والفاطمية :

كان قيام الدولة الطولونية بمصر يمثل أول محاولة للانفصال عن سلطة الخلافة في بغداد . وقد قامت هذه الدولة على يد أحمد بن طولون التركي الأصل ، وذلك عندما اشتدت سلطة الأتراك في بغداد ، وتولوا أمور الدولة ، ففي عهد الخليفة الواثق بالله نال القائد التركي بايكباك ولاية مصر ، ولكنه آثر البقاء في بغداد ، وأرسل اليها أحمد بن طولون واليها ينوب عنه في إدارتها . فوصل اليها سنة أربع وخمسين ومائتين ، وكان داهية حسن التصرف ، قرن الى ذلك حسن الخلق والسيرة المحمودة عند الناس ، فاستغل هذه الثقة وأخذ يحسن الى الناس ويوزع فيهم الأموال الكثيرة ، ويظهر إخلاصه في خدمتهم حتى تمكن ولاؤه من قلوبهم ، فبدأ بعزل عمال العباسيين ، وجمع في يده مقاليد البلاد ، وصار هو الحاكم الإداري والمالي والعسكري ، وكانت الخطوة التالية أن أعلن استقلاله بطوك مصر عن الخلافة العباسية ، مستغلا الوضع السياسي المتدهور ، وثورة الزنج التي كانت على أشدها ، وكانت الجهود منصرفة لمقاومتها ، وكوّن طقس الفور - جيشا بلغ تعداده مائة ألف جندي عندئذ ظهرت قوته ، فاضطرت الخلافة الى أن تخطب وده ، وتتخذ مؤيدا لها ضد الروم البيزنطيين الذين دأبوا على الاغارة من آسيا الصغرى على شمال الشام الذي كان يعرف آنذاك باقليم العواصم والشمس . كما عهد الخليفة الى ابن طولون بولاية الشفسور الشامية ، فبعث ابن طولون جزءا من جيشه وأسطوله للمرابطة فيها ، ولم

(١) الأتابكي ، النجوم الزاهرة : ٣ / ٥ وما بعدها أخبار الدولة الطولونية حتى سقوطها .

يلبت والى الشام التركى أن توفى سنة أربع وستين ومائتين ، فضم ابن طولون الشام كلها الى ملكه ، وصارت مصر والشام وحدة واحدة أدت واجبتها ففى الدفاع عن أرض الاسلام فى الوقت الذى عجزت فيه الخلافة عن فعل شئ يذكر فى هذا المجال . ولا أدل على تلك القوة من أن الروم راسلوا أحمد بن طولون لمقد هدنة معه تخوفا منه . (١) ومع هذه القوة كان ابن طولون يبعث الى خزينة الخلافة ببغداد ما يرضى الخليفة وأعوانه من الأموال والمتاع ، وكأنه بذلك يضى على ملكه صفة الشرعية ، كما كان يرصد الأموال للفقراء فى مصر وفى بغداد ، ويرضى أهل الثغور والحواصم والحرمين بما كان يحمل اليهم من المعدات والمؤن والثياب والأموال .

وفى سنة سبع وخمسين ومائتين بنى أحمد بن طولون مدينة القطائع لـه ولعلمانه وجنوده ، وبنى فيها قصره ووسعه وحسنه ، وبنى فيه ميدانا حسنا يضرب فيه الصوالج ، فسمى القصر كله بالميدان لأجل ذلك ، وقد عمل له أبوابا وسمى كل باب منها باسم فضاء : باب الميدان ، وباب الخاصه وباب الساج وهو أجملها ومصنوع من الساج ، وباب السباع الخ وكان على باب السباع هذا مجلس يشرف منه ابن طولون ليلة العيد على القطائع وعلى البحر ، وعلى باب المدينة وغيره وكان متنزها حسنا (٢) . وفى سنة تسع وخمسين ومائتين بنى ابن طولون مسجدا عظيما بالغ فى تحسينه ، وجلب اليه الصناع والبنائين الممهره وأنفق عليه ما يقارب عشرين ومائة ألف دينار ، من كنز يروى أنه وجدته يحوى ألف ألف دينار . (٣) ثم مات أحمد بن طولون بمصر

(١) البلوى ، سيرة أحمد بن طولون : ١٠٩ .

(٢) سيرة أحمد بن طولون : ٥٦ .

(٣) النجوم الزاهرة : ٧ / ٣ .

أن حكم اثنتى عشرة سنة . وخلفه ابنه خماريه ، وكان قويا كوالده ، فاهتم
بمرافقة الدولة ، واستطاع أن يهزم جيوش العباسيين التي أرسلت لمحاربتة
عند دمشق ، مما اضطر الخليفة العباسي المعتمد على الله أن يتزوج من
ابنته " العباسة " تقريبا له ، ومضى على ذلك إلى أن ذبح على يد خدمه
سنة اثنتين وثمانين ومائتين ، فخلف من بعده أمراء ضعاف كان آخرهم
الأمير شيبان بن أحمد بن طولون الذي ثار على ابن أخيه هارون وذبحه
سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، وبلغت الدولة الطولونية في هذا العام من
الضعف والفوضى حدا بعيدا فاستغل هذا الوضع الخليفة العباسي المتكفي
بالله ، ومحمد بن سليمان الكاتب على رأس جيش لمحاربة الطولونيين
الذين لم يصمدوا طويلا في وجهه فدخل مصر وقتل منها خلقا كثيرا ، وهدمها
حتى أصبحت خرابا يبابا ، وفعل بها من النهب والسلب والتهتك ما لا يحل
الله ، ومقت مصر على هذه الحال أياما كثيرة حتى أمّن محمد بن سليمان
آل طولون جميعا وساقهم معه إلى بغداد بالأغلال ، فغلت منهم الديار
وعفت منهم الآثار ، وحل بهم الذل بعد العز ، وزالت الدولة الطولونية
وكانت من غرر الدول ، وغرب الميدان والقصور التي كانت به والتي مدحها
الشعراء* .

ويبدو أن هذا الدمار الذي أصاب مصر والميدان خاصة قد أودى بكثير
من الشعراء الذين قيل في بني طولون ، لأن ما وقفنا عليه منه يعد يسيرا جسدا
بالنسبة لما يذكر عن كثرة شعرائهم .

(١) المصدر نفسه ص ٥٢ ، وانظر ابراهيم المدوي ، التاريخ الاسلامي

آفاقه السياسي وأبعاده الحضارية : ٣٦٣ - ٣٦٤ .

يروى صاحب النجوم الزاهرة " قال القاضي أبو عمرو عثمان النابلسي فسي
كتاب " حسن السيرة في اتخاذ الحصن بالجزيرة " رأيت كتابا قد راثنى عشرة
كراسه مضمونه فهرست شعراء الميدان الذي كان لأحمد بن طولون ، قال :
فإذا كان اسم الشعراء في اثني عشرة كراسه ، فكم يكون شعورهم ؟ : (١)

(٢)

ومن الذين رثوا دولة بني طولون بعد زوالها أبو يعقوب الكاتب إذ يقول :

- ان كنت تسأل عن جلالة ملكهم * فارتع وحج بمراتب الميدان .
- وانظر الى تلك القصور وما حوت * وأمرح بزهرة ذلك البستان .
- وان اعتبرت ففيه أيضا عبرة * تنبئك كيف تصرف العسيران .
- يا قتل هارون اجتثت أصولهم * وأشبت رأس أميرهم شيبان .

وهو يشير في البيت الأخير الى السبب المباشر الذي أضعف الدولة ، وزاد
فيها الفوضى والاضطراب ، وهو قيام شيبان بن أحمد بن طولون بقتل
ابن أخيه هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون ، ليستولى على السلطة
مكانه ، فكانت ولايته اثني عشر يوما ثم سقطت الدولة بعد ذلك لفساده
وسوء تدبيره .

(١) النجوم الزاهرة : ١٤٠ / ٣ .

(٢) هو أحمد بن اسحاق بن جعفر المعروف باليعقوبي . مؤرخ وجغرافي
كثير الأسفار ، كان جده من موالى المنصور العباسي ، وعاش هو وأقسام
في بغداد ثم رحل الى أرمينية ثم الى المغرب وعاد الى بغداد ، وتوفي
بعد سنة ٢٦٢ هـ من مؤلفاته : تاريخ اليعقوبي ، وكتاب البلدان ، -
وأخبار الأمم السالفة وغيرها . أنظر : معجم الأدباء : ١٥٣ / ٥ ، معجم
المطبوعات : ١٩٤٨ .

وقال اسماعيل بن أبي هاشم في رثائهم : (١)

- قف وقفة بفناء باب الساج * والقصر ذي الشرفات والأبراج .
- ويروى قوم أزعجوا عن دارهم * بعد الإقامة أيما ازعاج .
- كانوا مصابيحاً لدى ظلم الدجى * يسرى بها السارون فسى الانلاج .
- كانوا ليوشا لا يرام حماهم * فى كل طحمة وكل هيـاج .
- فانظر الى آثارهم تلقى لهم * علما بكل ثنية وفجـاج .
- وطيهم ما عشت لا أدع البكـا * مع كل ذى نظر وطرف ساجـى .

وقال أيضا :

- يامنزلا لبنى طولون قد دشرا * سقاك صوب الفوايد القطر والمطرا
- يامنزلا صرت أجفوه وأهجره * وكان يعدل عندي السمع والبصرا
- بالله عندك علم من أحببنا * أم هل سمعت لهم من بعدنا خبرا ؟
- وعند ما هدم قصر الميدان ، ويصمت أنقاضه ، قال فى ذلك محمد بن

طسويه :- (٢)

- من لم ير الهدم للميدان لم يره * تبارك الله ما أعلا وأقـدره .
- لو أن عين الذى أنشاه تبصره * والحادثات تعاديه لا كمـبره .

ومنها :

- وأين من كان يحميه وحرسه * من كل ليث يهاب الليث منظره .
- صاح الزمان بمن فيه ففرقهم * وحمل ريب البلوى فيه فدعـسـثـره .
- وأخلق الدهر منه حسن جدته * مثل الكتاب معا العصران أسطره .
- دكت مناظره واجتث جوسقه * كأنما الخسف فاجاه فدسـسـره .
- أوهب اعصار نار فى جوانبيه * فعاد معروفه للعين منكـسـره .

(١) النجوم الزاهرة : ١٤٠ / ٣ ، ١٤٣ .

(٢) المقرئى ، الخطوط القرئزیه : ١٠٩ / ٢ - ١١٠ .

- أين ابن طوطون بانية وساكنة * أماتة الملك الأعلى فأقبره .
 - ما أوضح الأمر لو صحت لنا فكر * طوي لمن خصه رشد فذكره .
- وقال أيضا :

- قف وقفة وانظر الى الميدان * والقصر ذي الشرفات والايوان (١)
- والجوسق العالي الضيف بناؤه مباله قفر من السكبان ؟ :
- أين الذين لهوبه وعنوا به * زنا مع القينات والنسوان ؟ .
 - يجبى الخراج اليهم في دراهم * لا يرهبون فوائل العدشان .
 - فانظر الى ماشيدوا من بعدهم * هل فيه غير اليوم والغريبان ؟ .
 - كانوا ملوك الأرض في أيامهم * كبراء كل مدينة ومكبان .
 - فتمزقوا وتفرقوا فهناك هم * تحت الثرى يبلون في الاكبان .
 - الا أغلجة أسارى بعدهم * في دار ضيعة ودار هوان .
 - متذللين بأسرهم قد شردوا * ونفوا عن الأهلين والأوطان .
 - والله وارث كل حي بعدهم * وله البقاء وكل شئ فان .
- والملاحظ على هذه المقطوعات الرائعة أنها بالإضافة الى اتحادها في الدف تنحد تقريبا في النهج والأسلوب ، فهي تتحدث عن تقلب الدهر وعصفه بالأم والدول مع التأكيد على النهاية الحتمية لكل حي ، مقرونة بالحكمة والعظة لمن أراد الاتعاط ألم يقل اليمقوي :

- وان اعتبرت ففيه أيضا عبرة * تنبيك كيف تصرف المصران .
- وقال ابن طهميه :

- ما أوضح الأمر لو صحت لنا فكر * طوي لمن خصه رشد فذكره .
- ومع أننا نحس صدق العاطفة ومخاطبة في قصيدة ابن أبي هاشم الذي سيظل بيكيهم أبدا ما عاش ، وفاء لحقهم وشكرا لنعمتهم عليه ، فاننا لانجد في هذا

الشعر صوراً خيالية جميلة أوحاها الموقف المؤسف الحزين على اندثار
الدولة وانتهيار قصر خلافتها العظيم ، كما أن هذه المقطوعات ابتعدت عن
ذكر تفاصيل الحادث المروع ، كالقتل والنهب والاعراق تلك الأمور
التي تخفى على قصيدة الرثاء صوراً جميلة أثناء تفجع الشاعر واجتراره لها
ولعل المطالع لهذا الشعر الذي نحن بصدده - يجد بوضوح صور الرثاء
في الشعر القديم فالوقوف على أطلال الميدان المحطم أول ما يدعسوك
الشاعر أن تقف عليها أو تمنع بها : " فارتع وهج بمراتع الميدان " ، " قف
وقفة بفناء باب الساج " " مروع قوم أزعجوا . . . " " قف وقفة
وانظر الى الميدان " .

ثم مسائلة القصر الخرب : بالله عندك علم من أحببنا

أم هل سمعت لهم من بعدنا خبراً ؟

وقول الآخر :

والجوسق العالي الهيف بناؤه * ما باله قعر من السكان ؟

ومعد ذلك الدعاء له بالسقيا على عادة شعراء الأطلال والدمى :-

يا منزلاً لبني طولون قد دثرا * سقاك صوب الفوادي القطار والمطار .

ثم يأخذ في مدح بني طولون ويصفهم بأنهم ليوث لا يرام حماهم ، وأنهم
ملوك الأرض جميعاً وشادوا المدن والقصور الفخمة ، وهمروها بالعز والمجد
وغير ذلك من الأوصاف الحميدة إلى أن صاح الزمان بهم ، وطرقتهم حوادثه
فهلكوا وكان الأرض قد خسفت بهم ، وفدا ما شيدوه مأوى للهمم والضربان لشدة
ما أصابه من البلى ، ومن بقى منهم حياً فهو غارق في ذله وأسره بعيد عن
الأهل والوطن . ولكن الأبيات التي تشير إلى مصرعهم لا تناسب مأخذ وبسه^٩
من الشدة والعنف كقول ابن طسويه :-

أين ابن طولون بانيه وساكنه * أماته الملك الأعلى فأقبره .
وقوله :

فتمزقوا ، وتفرقوا فهناك هم * تحت الثرى يبيلون في الأكهان .

ولعل السبب الذي جعله ينحو هذا النحو هو الخوف من المباسيين الذين تولوا القضاء على دولة بني طولون . لذلك لا نجد تعنيفاً أو لوماً بسيطاً في هذه المقطوعات الشعرية للذين قاموا بالأفعال الشنيعة ليس ضد بني طولون بمعينهم وإنما ضد غيرهم من الناس الذين كانوا تحت حكمهم ففى مصر .

وهناك قصيدة أخرى بلغت مايزيد عن الأربعين بيتاً لشاعر يسمى سميد القاص يربى فيها الدولة الطولونية : (١)

يبدأ الشاعر قصيدته بوصف حالته الكئيبة وقلة صبره لما أصاب بني طولون فيقول :-

(٢)

جرى دمه ما بين سحر الى سحر * ولم يجر حتى أسلمته يد الصبر .
(٣)
ومات وقيدا للذى غامر الحشاشا * عثن كما أن الأسير من الأسر .
وهل يستطيع الصبر من كان ذا أسى * يبيت على جمر ويضجى على جمر .
تتابع أحداث يضيعن صبره * وفدر من الأيام والدهر ذو غدر .
أصاب على رغم الأنوف وجدعها * ذوى الدين والدنيا بقاصمة الظهر .
طوى زينة الدنيا ومصباح أهلها * بفقد بني طولون والأنجم الزهر .
وفقد بني طولون في كل موطن * أمر على الاسلام فقدا من القطر .
فبادوا وأضحوا بعد عز ومنمة * أحاديث لا تخفى على كل ذى حجر .

(١) القصيدة بكاظمها في الخطط المقرئيه : ١٠٧/٢ - ١٠٨ .
(٢) السحر : الرثه ، والمقصود هنا ما يحاذيها من الصدر / أساس البلاغه (سحر) .
(٣) وقيدا : أى موقدا يشتعل نارا . / اللسان (وقد) .

ان الشاعر يسكب الدمع ، ويئن أئين الأسير العاني ، وذلك لما رماه
به الدهر من الأرزاء العظام التي لا يطيق لها صبرا ، وذلك أن الأيـام
الفادرة قد أودت بسادة الدنيا عمدة الدين بنى طولون ، ويبدو أن الشاعر
ذو عاطفة دينية ، فهو ييكن بنى طولون لأنهم كانوا السد المنيع في وجهه
أعداء الاسلام البيزنطيين ، الذين أزهقوا الخلافة العباسية بغاراتهم
المتكررة . ثم يأخذ الشاعر في تعداد محاسن الأمراء الطولونيين وماعطسوا
وأشادوا إلى آخر القصيدة فمن أحمد بن طولون مؤسس الدولة يقول :

كأن ليال الدهر كانت لحسنها * واشراقها في عصره ليلة القدر .

يدل على فضل ابن طولون همة * مخلقة بين السماكين والغفر . (١)

فان كنت تبغى شاهدا ذا عدالة * يخبر عنه بالجلى من الأمـر .

فبالجبل الغربي خطة يشكر^(٢) * له مسجد يخفى عن المنطق الهذر .

بناه بأجر وساج وعرفـرـر * والمرمر المسنون والجص والصخر .

فسبح رحاب يحصر الطرف دونـه * رقيق نسيم طيب العرف والنشر .

تخال سنا قد يله وضياءه * سهيلا اذا ملاح في الليل للسفر .

ثم يصف عيني العا^١ المذبة واللمحة اللتين كانتا ملحقين بالجامع حيث
الأولى للشرب والأخرى للطهارة يقول :

وعين معين الشرب عين زكية * وعين أجاج للرواة وللطهر .

بنا^٢ لو أن الجن جاءت بمثلـه * ل قيل لقد جاءت بمشتفطع نكر .

(١) الغفر : ثلاثة أنجم صفار ينزلها القمر وهي الميزان . / الصحاح ،
(غفر) .

(٢) خطة يشكر : اسم الجبل الذي بنى فيه الجامع ، وهو جبل يشكر
بن جديله من لخم . أنظر ميخائيل شاروهم ، الكافي في تاريخ مصر
القديم والحديث : ٢١٦ / ١ .

، ونمضي القصيدة على هذا النحو ، تقف عند أعمال ابن طولون مهجلة لها
فتصف المارستان واتساعه والحصن والقنطرة والجسور ، ثم تنتقل الى توسيع
أحمد بن طولون على الناس في الرزق والعطاء . . . ثم تذكر من جاء بعده
من خلفائه وأولاده غماريه أبي الجيش ، ثم ابنه هارون وغيرهما وكيف أتت
الحوادث عليهم . ثم يختم القصيدة بقوله :-

- تذكرتهم لما مضوا فتتابعوا * كما أرفق سلك من حبان ومن شذر .
- فمن يبك شيئا ضاع من بعد أهله * لفقد هم فليبك حزنا على مصر .
- ليبك بنى طولون ان بان عصرهم * فبورك من دهر بورك من مصر .

ان الشاعر سلك سبيل تعداد مآثرهم وحسناتهم التي خلفوها للأمة
ولعاصمتهم مصر بالذات فقد كانت جنة الدنيا أيامهم ، وهو بذلك يحاول
التأثير في نفوس السامعين أو القارئین ولكنه لم يتطرق للمصاب الجلل متعمقا
ومحللا ، فكانت قصيدته أقرب الى قصائد المدح منها الى الرثاء ، ولم تبلغ
من التأثير ما بلغت المقطوعات التي تحدثنا عنها قبلها .

رثاء الدولة الفاطمية :-

بلغت الدولة العباسية في آواخر القرن الثالث الهجري مهادية الرابع
الغاية في الفوضى والاضطراب ، والاستغنى بالخلفاء من قبل العناصر
المتسلطة وخاصة الأتراك الذين أصبحوا هم الحكم وقد شجعت هذه
الحالة كثيرا من الولاة الطامعين في الحكم على الانفصال عن عاصمة الخلافة
بفداد . كما فعل ابن طولون في مصر على ما أوضحناه سابقا . وشجعت
هذه الحالة أيضا أصحاب الدعوات السرية المناوئة للعباسيين على الظهور
والكشف عن أهدافهم واصرارهم على تحقيقها بالقوة . وهذا ما كان من
الفاطميين الداعين الى المذهب الشيعي الباطني ، الذين بدأوا هذه
الدعوة في وقت مبكر ، ولكنهم وجدوا عنتا شديدا من الخلافة العباسية
حيث كان الموت عاجل نصيب كل من يظفر به منهم ، فاستغلوا ما صارت
اليه الخلافة من الضعف وعثوا دعائهم الى المغرب ، وأفريقيه (تونس)
ونجحوا في استمالة **البربر** سكان تلك المناطق ، وذلك تمهيد الطريق لاقامة
دولة شيعية في المغرب ، والفعل دخل داعي الشيعة المسمى عبيد الله
المهدي المغربي في سنة ست وتسعين ومائتين ، واتخذ من مدينة رقادة
جنوبي القيروان عاصمة له ، وتلقب بأمر المؤمنين ، وأبطل اسم الخليفة
العباسي من الخطبه ، وزاد في الاذان عبارة " حي على خير العمل " . (٢)

(١) اختلف المؤرخون قديما وحديثا في نسب الفاطميين فمن قائل أنهم من آل البيت من ولد الحسين بن علي بن أبي طالب وقائل أنهم من ولد عبد الله بن ميمون القداح الأهوازي وأصله من المجوس ، ولم يصلوا الى رأي فاصل في ذلك .

انظر : الخطط المقيزية : ١٥٠/٢ - ١٥١ ، حسن ابراهيم حسن ،

تاريخ الدولة الفاطمية : ٥٧ - ٥٩ .

(٢) البكري ، المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب : ٢٧ .

وعبيد الله هذا هو رأس الدولة الفاطمية واليه تنسب فيقال دولة العبيديين وأخذ المهدي يحاول مد سلطانه على جميع المغرب ، فأزال دولة بني الأظب من تونس ، وأزال أوساهم في ازالة دولة الأدارسة ، وبذلك يكون قد مهد الطريق للمعز لدين الله الذي جاء بعده بنصف قرن أي نحو سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، ووضع المغرب كله تحت لوائه ، وخطب للمعز لدين الله (١) جميع منابر المغرب ، ثم بدأ المعز محاولته للسيطرة على مصر التي كان يحكمها الأخشيديون من قبل الدولة الحباسية ، وقد كانت مصر في آواخر حكم كافور الأخشيدي تعاني من القحط الشديد الذي سببه انخفاف النيل (٢) وأصاب الناس بلاءٌ وجهود شديد حتى قيل انهم عجزوا عن تكفين موتاهم وزاد الطين بلة غارات القرامطة المتوالية ، وموت كافور سنة سبع وخمسين وثلاثمائة وصي أبى الفوارس أحمد حفيد الأخشيدي خلفا له ، وكان هذا غلاما لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره فمجز عن صد غارات المغيرين ، ومن انقاز البلاد مما هي فيه من الاضطراب والشدة .

فاستغل المعز الفاطمي هذا الوضع ، وأرسل قائده الطهم جوهر الصقلي على رأس جيش مرمم بلغ تعداداه مائة ألف جندي الى مصر ، فدخل الأسكندرية دون مقاومة تذكر ثم دخل الفسطاط وأمن الشعب ، ونضحهم الحرية التامة في شعائهم وجميع أمورهم . حتى اذا استتب الأمر لجوهر دعا خلفته المعز ، فدخل هذا مصر سنة احدى وستين وثلاثمائة واتخذها عاصمة له ، واخط مدينة القاهرة وفصل مصر نهائيا عن الخلافة الحباسية ، ثم

(١) السلاوي ، الاستقصاء في اخبار المغرب الأقصى : ٨٦ / ١ - ٨٧ .

(٢) الخطط المقرئية : ٣٣٠ / ١ .

أنهمها بعد ذلك بالشام والحجاز وغيرها حتى فدت الدولة الفاطمية تمتد من المحيط الأطلس غربا إلى البحر الأحمر شرقا ، صلفت قوتها مهلغا عظيما ، ولكن هذه القوة وهذا الاتساع لم يغبيا عنها عندما بدأت نهايتها تلوح في الأفق ، فقد انقضى عهد الخلفاء الأتقيا وجاء دور الضعف - كما هو السنة المطردة في قيام الدول وسقوطها - والتنازع وسيطرة الوزراء على الخلفاء وأصبح الوزير يأخذ لقب ملك ، وكثرت الأحزاب المتضادة المتناحرة والأهم من ذلك هو غارات الصليبيين على أجزاء من الدولة الفاطمية واعتلالها ففي سنة تسع وأربعين وخمسمائة استولوا على عسقلان وأخر ممالك الفاطمية في فلسطين ، ولم يمنحهم من احتلال مصر إلا ظهور قوة نور الدين زنكي في الشام . ولكن السبب المباشر في سقوط هذه الدولة الكبيرة هو اغتيال الخليفة الظاهر ، وتولى ابنه الفائز وكان طفلا ، فاستنجد أهل القصر بالأمير طلائع بن رزيق وإلى الأشمونين الذي لبى النداء وضبط الأمور بحكمه وتولى بدوره رجلا يقال له شاور على الصعيد ، ولم يلبث الوزير طلائع أن قتل بدسيسة من الخليفة الماضي آخر الخلفاء الفاطميين ، وتولى مكانه ابنه العادل ، ولكن شاور خلعه وقتله ، فاستاء الناس من ذلك الفعل وخاصة أن شاور لم يستطع دفع الصليبيين الذين زحفوا إلى مصر سنة أربع وستين وخمسمائة فلم يجد بدا من استصراخ نور الدين ، فبعث نور الدين معه بجيش كبير يقوده أسد الدين شيركوه فبغت الصليبيين وهزمهم ، ودخل القاهرة دخول الفاتحين ، فخلع عليه الخليفة الماضي ، ولكن شاور بدا غفقه من بقا شيركوه في مصر ، واتصل بالصليبيين يطلب العون ، ولكن شيركوه قضى عليه وقتله ، وأصبح هو وزير الخليفة الماضي الذي لم يجد يطلا شيئا ، ولكن شيركوه سرعان ماتوفى ، فخلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين بن أيوب

الذي عمل على توطيد مركزه بالحكمة ، وكسب رضى الشعب بما كان يقتضيه به من الأخلاق والصفات الحميدة ، وبدأ يركز حملاته على الصليبيين ففسس الكرك والشهك ، كما أنه دجرهم عندما غزوا دمياط فانهزموا مخذ ولبيين فلحقهم الى عقرد اهرم ، الأمر الذي جعل المصريين من الشيعة والسنة يلتفتون حوله ، ويجدون فيه الحامي الأمين لهم ، عندئذ استقرت سلطنة صلاح الدين على أساس متين ، فقام بعزل الشيعة من **الحاكم الديلمي** والفقيه ، وتوليقيها للسنيين (الشافعية) سنة سبع وستين وخمسمائة ، كما بدأ يزيل من الدولة والجيش العناصر غير الموثوق بها ، وأبطل زيادات الأذان التي وضعها الفاطميون ، وجميع شعائرهم كالأعياد وغيرها ، ثم أسقط اسم الخليفة المعتمد من الخطبة رسماً بأمر نور الدين ، ودعى للخليفة العباسي المستنصر ، وكان المعتمد مريضاً آنذاك ، ومات وهو لم يعلم بهذا التغيير . (١)

هذلك زالت الدولة الفاطمية بعد أن حكمت أكثر من قرنين من الزمان .
(٢) (٣)
وأشهر من رث الدولة الفاطمية شاعرهما عمارة اليمن الذي يقول :-

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ : ١٤٧/١١ ، المقرئ ، اتعاض الحنفا : ٣٢٤ - ٣٢٥ .

(٢) هو أبو محمد عمارة بن أبي الحسن الحكيم المحقق . نشأ في مدينة موطن من تهامة ، ثم رحل الى زييد سنة ٥٣١ فتفقه فيها على المذهب الشافعي ، وأخذ يقول الشعر من ذلك الحين ، قدم مصر سنة ٥٤٩ هـ أيام الخليفة الفائز . ووزيره ابن رزيق فأجراً صلتة ، والخاصة اكرامه فأطنب في مدحهم وأحبهم ، وظل يبعث الى الفاطميين بعد زوال دولتهم وانتهى به الأمر أن ائتمر مع عدد من المصريين للفتك بصلاح الدين ، ولكنهم كسفوا ، فأعدوا سنة ٥٦٢ هـ من تصانيفه : أخبار اليمن ، النكت العصرية في أخبار وزراء الدولة المصرية . أنظر :- المعاد الأصفهاني : خريدة القصر (قسم شعراء الشام) ١٠١/٣ - ١٠٢ ، المقدسي ، الروشتين في أخبار الدولتين : ٢٢٤/١ ، أخبار اليمن ص ٢٢ .
(٣) القصيدة في ديوانه : ١٤٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢١٢/١ -

رميت ياد هركف المجد بالسنبل * وجيدة بعد حسن الطين بالمطبل .
سميت في ضبح الدهر العثور فان * قدرت من عثرات الدهر فاستقسل .
هدمت قاعدة المعروف من عجل * سقيت ، مهلا أما تثنى طي مهسل .
لهفو ولهف بنى الآمال قاطبة * طي فجهتها في أكرام السدول .
يبدأ الشاعر قصيدته بهذا المطلع الوقور ، مغرماً بأفعال الدهر السني
رعى قاعدة المعروف ، ومنية الآمال وأعظم الدول بقاصة الظهر ، فزلسزل
أركانها وأذهب خلفاً لها . ولكن الشاعر مع لهفته وتفجعه لا يبدو ثائر النفس
ولا عنيف العبارة ، وذلك للحقيقة التي استقرت في نفسه وهي أنه لا أحد
يستطيع الهرب بما هو مقدر عليه ، بل ستأتي به الأيام عاجلاً أو آجلاً .

ثم يبين الشاعر حبه للدولة الفاطمية لئلا يلهو أيدي خلفائها مسكن
الحفاوة والتكريم حين قدم مصر :-

قدمت مصر فأولتني خلائفها * من الحكارم ما أرى طي أطس .
ونلت من مظلما الجيش تكرمة * وخدمة حرس من عرض الخلل .
باعدلى في هوى أبنا فاطمة * لك الملامة ان قصرت في مذلى .
ثم ينتقل إلى البكا طي دولة الفاطميين ومعالمتها الحضارية كالقصور
التي أريج أهلها عنها ومعضها هدم ، ومعضها الآخر سكه أناس من غير أهله
الذين عرفهم الشاعر :-

بالله زر ساحة القصرين وإياك معي * طييهما لا طي صفين والجل .
وقل لأهلها والله ما التأممت * فيكم جروحي ولا قرحي بمنديل .
مررت بالقصر والأركان خالية * من الوفود وكانت قلة القبل .
فعلت عنها بوجهي خوف منتقد * من الأعادي ووجهه الودام يبل .
أسليت من أسف دمعى فداة خلت * رحاهم وفدت مهجورة السبل .
والقصران اللذان يهكهما الشاعر في هذه الأبيات هما : القصر الكبير ،

(١)

وقصر المؤلوه حيث مقر الخلفاء الفاطميين ، وكانا بهجان بخزائن الأموال
والعبيد والجواري ، فوضع صلاح الدين يده على الأموال ، هاج وأعتسق
واستخدم ماشاء من أولئك العبيد والجواري .

ثم أعطى القصر الكبير للأمراء والقواد فسكوه ، وأسكن أباه نجم الدين
أيوب في قصر المؤلوه . هزور الشاعر هذه القصور التي طالما رتع في بلاطها
ودبح المدائح في أربابها ، فلا يرى تلك الوفود التي كانت تغص بهيئتها
مراعي قصر الطك مرحابه ، فيخفق قلبه للذكريات الماضية ، ولكنه أشاح بوجهه
عنها خوف الرقبا والأعداء ، وأسبل دمة على تذكر الرحاب المهجورة ،
والمكارم التي لا تزال آثارها تنبئ عنها :-

- أبكى على مآثرات من مكارمكم * حال الزمان عليها وهي لم تعمل .
- دار الضيافة كانت أنس وافدكم * واليوم أوحش من رسم ومن طلل .
- وفطرة الصوم إذ أضحت مكارمكم * تشكو من الدهر حيفا غير محتمل .
- وكسوة الناس في الفصلين قد درست ورث عنها جديد عندهم وليس .
- وموسم كان في يوم الخليج لكم * فيهن من هل جود ليس بالوشل .
- والأرض تعرض في وشى وفي شبة * مثل المرائس في حلل وفي حلل .
- وما خصتم بهر أهل ملتكم * حتى عمت به الأقص من الطلل .
- وما حطتم قري الأضياف من سعة الـ * أطباق الا على الأكاف والعجل .
- كانت روايتكم للوافدين وللضـ * ضيف المقيم وللطاري من الرسل .

بذكر عبارة البنى فى هذه الأبيات - بحزن وألم - ما كان للفاطميين من
المآثر العظيمة التى نال خيرها القريب والبعيد ، كدار الضيافة التى بناها
الوزراء الفاطميون وجمعوها بكل ما يلزم الساكن ، لتكون مأوى للوفود السستى
تقدم الى قصر الحكم من خارج الدولة أو داخلها ، كما كان من عادة الخلفاء
والوزراء ومراسمهم اطعام الناس فى شهر رمضان ، فكانوا يجلسون معهم
على مائدة واحدة تسمى سطا شهر رمضان تحل من أصناف الطعام والشراب
ما يجزئه الوصف يبقى هذا الحال طيلة الشهر الكريم ، حتى اذا كان
يوم العيد زيد فى الأطعمة ووزعت الهدايا والدنانير والأكسية . ولهم موسم
كان يسمى بيوم الخليج ، وهو يوم ازدياد منسوب مياه النيل فيفرجون بذلك
أشد الفرح ، يخرج الخليفة والحاشية وركبون القوارب المائيه الصغيره ،
ثم ينزلون فى مكان معين على شاطئ النهر وقد ضربت لهم المضارب الفخمسه
واحتشد الناس احتشادا عظيما ، فيأتى القراء ، ويقرأون القرآن حتى يختموا ،
ثم تقام صلاة الشكر لله على هذه النعمه يصلحها الخليفة بالناس ، ويبيتون
تلك الليلة فى ذلك المكان يكبرون حتى اذا جاء الصباح نثرت على الناس
الأموال والثياب بغزارة ، ثم ينصرف الخليفة والوزراء وسط موكب فخم تزعمو
به الأرض . (٢)

صعد هذه الأفعال الخيره التى كانوا يقومون بها ، وفقدت بعدهم
ياخذ الشاعر فى مدحهم والثناء طيبهم مركزا على مذهبهم الدينى مضمينا
طيبهم أوصاف الأولياء الصالحين من أئمة الهدى وأن الاعتصام بحبيبهم هو أصل
الدين ونجاح السعى فى الدنيا والآخرة يقول :-

(١) ، (٢) أنظر تفصيل هذه المواسم فى المصدر السابق : ص ٣٤١ ،

- والله لا فاز يوم الحشر مهضكم * ولا نجا من عذاب النار غير طي
- ولا سقى الماء من حروص ظمسا * من كف خير البرايا خاتم الرسل
- ولا رأى جنة الله التي خلقت * من غان عهد الامام الحاضد بن طي
- أمتق وهداتي والذخيرة لسي * اذا ارتفعت بما قدمت من عمل
- تالله لم أوفهم في المدح حقهم * لأن حقهم كالوابل المطر
- باب النجاة هم دنيا وأخرى * وعيهم فهو أصل الدين والعمل
- نور الدجى وصاحب الهدى وصل * ل النفيث ان وثت الأنوار في المحل
- أئمة خلقوا نورا فنسورهم * من نور خال نور الله لم يغسل
- والله لا زلت من عبي لهم أبدا * ما أخر الله لي في مدة الأجل

اننا لنؤمن صدق العاطفة ، والولا ، والا خلاص لا وليك القوم في أبيات الشاعر هذه . كما نحن أيضا الاندفاع والثورة التي لم يستطع الشاعر ضبطها فهو في الأبيات الثلاثة الأولى يعرض بوضوح بصلاح الدين وأصحابه الذين أراحوا الخليفة الحاضد ، وقضوا على الخلافة الفاطمية . ثم هذه المبالغات التي يضيفها ، والتي يوصلهم بها الى حد التقديس مع طمعه بما كان من اختلاف في حقيقة نسبهم العلوي ، فهم عنده نور من نور الله الخالص الذي يجلو الدياجي ، وينير سبل الهدى وهو يؤك في ختام قصيدته طي عبه الأبدى لهم ما أتم الله له في الأجل .

ومن الجدير بالذكر في هذا المقام أن عبارة اليمنى الذي قد يتوهم من (١) من شعره أنه طي مذهب الشيعة الفاطميين كان سنيا شافعي . ويرى أن الملك الصالح طلائع بن رزيك الفاطمي بحث الى عماره الأبيات التالية يدعوه

ففيها الى مذهبه الشيعة ، ومحمدا ثلاثة أكياس من الذهب فيها ثلاثة آلاف -

دينار :-

- قل للفقيه عمارة ياخير من * أضى يؤلف خطبة وخطابها .
 - اقبل نصيحة من دعاك الى الهدى قل حطة وادخل طينا الهابا .
 - تلق الأئمة شافعين ولا تجد * الا لدينا سنة وكتابها .
 - وتمجّل الآلاف وهي ثلاثة * صلة وحقك لا تكسون ثوابها .
- فأبى عمارة وأنكر ذلك ، وأجاب داعيه مع رسوله :-

- حاشاك من هذا الخطاب خطابا * ياخير أملاك الزمان نصابا .
- لكن اذا ما أفسدت طماؤكم * محمور معتقدي وصار خرابا .
- ودعوتكم فكري الى أقوالكم * من بعد ذلك أطاعكم وأجابا .
- فاشدد يديك على صفا مودتي * وأمن على سد هذا البابا .

ويقول عمارة - أيضا - في رثاء الفاطميين ، وهو بذلك يستثير حفيظة

أصحاب صلاح الدين :- (١)

- لما رأيت عراض القصر خالية * من الأنيس ومانع الربيع سادات .
- أيقنت أنهم عن ربهم رحلوا * وخلفوني وفي قلبى حزازات .
- سألت أبله قلبى فى السلو وقد * يقال للبله فى الدنيا أصابات .
- فقال رأى ضعيف لا يطاوعنى * كيف السلو وأهل القصر قد ماتوا .
- يارب ان كان لى فى قلوبهم طمع * عجل بذاك فلتسريع آفات .

لقد ظل الشاعر وفيا لمن يرثيهم ، حتى بعد زوال دولتهم ، هزم ، وقيام الدولة الأيوبية مكانها ، وكأنه لا يكاد يصدق أن تلك الدولة الواسعة المظيمة

(١) أخبار اليمن : ٣٣ - ٣٤ .

قد دالت دولتها ، حتى اذا ما رأى خلق قصورهم من الأنين أيقن برحيلهم
فغارت في نفسه الاحن والحزازات على أهدائهم . تلك الحزازات التي تمنع
قلبه من السلو والنسيان ، وقد ساق لنا المحاورة بينه وبين قلبه بقالب
خيالي جميل زاد في توضيح ألمه لفراقهم وتصميمه على فعل شيء ما ممن
أجلهم . والفعل فقد دفعه ذلك الحقد على الأيوبيين أهداء أحبائهم
الفاطميين الى أن يؤلب الناس على صلاح الدين وأن يشترك في مؤامرة
مع وجهاء المصريين وقضاتهم لارجاع الأمر الى الفاطميين ، واتصل هؤلاء
الصامرون (بأما لريك) ملك بيت المقدس الصليبي ، ووليم الثاني ملك
النورمان بصقليته ، ولكن خابت آمالهم عندما اكتشفهم رجال صلاح الدين ،
وقتلوهم ومنهم شاعرنا الذي استجاب الله دعوته - كما في البيت الأخير -
فألحقه بقومه على عجل . (١)

(١) انظر الخبر في : وفيات الأعيان : ٣٧٦/١ ، هناك ، تراجم اسلامية
: ٥٦ .

غراب المدن بالحوادث الطبيعية وما قيل في ذلك من الشعر :-

لم يقف دور الشعر عند رثاء المدن والدول الساقطة والمدمرة بفعل الحروب والفتن بل تعدى ذلك الى متابعة الحوادث الطبيعية التي تصيب المدن بقضاء الله وقدره كالزلازل والأماطار وغير ذلك .

ولقد حدثت في آواخر الدولة الفاطمية وفي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة زلازل عنيفة في بلاد الشام ، فانهدمت حماه وشيخو ، ومات من أهلها ، وتشرد الكثير " ولولم تدرك العباد والبلاد رحمة الله - تعالى - ولطفه ، ورأفته لكان الخطب الخطير ، والأمر الفظيع المزيج " (١) .

وفي ذلك يقول بعض الشعراء :-

- روعتنا زلازل حادثات * بقضاء قضاء رب السما *
- هدمت حصن شيزر وحماة * أهلكت أهلها بسوء القضاء *
- هلاكا كثيرة وحصوننا * وثخروا موثقات البننا *
- وإذا مارنت عيون اليها * أجرت الدمع عندها بالدماء *
- وإذا ما قضى من الله أمر * سابق في عبادته بالفضا *
- حار قلب اللبيب فيه ومن كا * ن له فطنة وحسن ذكيا *
- وتراه سبعا باكي العيب * من موعها من سخطة هلا *
- جل ربي في ملكه وتعالى * عن مقال الجاهل والسفها *

والملاحظ على هذه الأبيات التسليم الكامل لقضاء الله ، وقدره الذي نزل بظك البلاد فدمرها وأهلك أهلها ، فلا يسع الشاعر والحالة هذه الا أن يسكب دموعه في صمت وخشوع ، ولعل الشاعر المجهول لم يكن من أهل هاتين المدينتين المنكوبتين لأنه لم يذكر لنا تفاصيل الحادث وما حوى من هدم ، وهلاك وما الى ذلك .

(١)

ومن رثى شيرز بقصائد كثيرة باكية مؤثرة ابنها الأمير أسامة بن منقذ ،
وكان محمدا عنها بأمر عمه أبي العساكر سلطانها آنذاك ، وقد كان فـسـى
بعده عنها ، الخير له ولأسرته إذ أنهم نجوا من الزلزال الذي دمر المدينة
وقضى على بني منقذ بأسرهم وأزال طگهم .

يقول أسامه :- (٢)

- أنظر منازل آل منقذ انـها * عظة اللبيب وعبرة للناظر .
- كانوا بها في نعمة محروسة * بمكارم ، وذوا بل ، وهواتر .
- مارامها طك ولا ذوقـدرة * الا انثنى عنها بقلب طائر .
- مظهرها ما استطاعها ومن الـذى * يلج العرين على الهزير الخادر .
- فأصابها قدر فأهلك من بهـا * وأعاد شامخها كرسـم دائر .
- فاذا ذكرتهم مرتنى حسـرة * تمرى سحاب دمعى المتبادر .

(١) هو مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد بن منقذ ، ولد سنة ٤٨٨
بشيزر ، كان فارسا شجاعا حارب الفرنجة مع السلطان نور الدين
زنكي ثم خرج الى القاهرة فأكرمه الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله
سنة ٥٣٩ هـ ، ولكنه تركها عائدا الى دمشق عندما كثرت الدسائس حوله
وكان شاعرا وأديبا صنف عدة كتب منها " الاعتبار " و" المنازل والديار "
وله ديوان شعر . توفي سنة ٥٨٤ هـ / أنظر ترجمته في : معجم الأديب
١٨٨/٥ ، تهذيب ابن عساكر ٢/٤٠٠ ، الاعتبار : ١-٢ .

(٢) أسامه بن منقذ ، المنازل والديار : ٢/١ .

ان أمر شيزر يدعو لأخذ الحطة والعبرة ، فبينما هي في عز قوتها
ومنعتها التي أعيت الطوك وأرتدوا عنها غائبين ان ربما أصابها قدر الله
الذى لا راد له فأعادها أثرا بعد عين .
يقول أيضا :

- غاضت دموعي في المنازل وارعوى * صبرى وراجمنى الرقاد النافر .
- ان لم أسح بها محائب أدمع * ينجاب خشيتها الغمام الباكر .
- أحمل الأطلال ضنة عارضى * وسحاب دمعى مستهل ما طر .
- انى اذا بشؤون عيني باخل * ومعه من سكن المنازل غادر .

ان حادثة الزلزال وقعت على نفس الشاعر وقوع الصاعقة ، فلم يعهد
يطيق صبرا أو هجوعا وكيف لا ؟ والبلد مسقط رأسه والقوم عمومته ونوهم
والحادث لا يجدى معه دفاع أو مقاومه فلا بد ان من اهراق الدمع الخيزر
الذى يستغنى به الشاعر عن السحاب لسقيا أطلال قومه ، لأنه يخشى أن يحمل
أطلال الكرام منه جود السحاب فيكون بذلك قد غدر بعهدهم وهذه الصورة
الجميلة تبين مدى حب الشاعر لوطنه وقومه رغم عداوتهم له ، كما تبين حزنه
الشديد وكأه المتواصل لفراقهم الأبدى ، وقد سلك فيها سبيل المبالغة
التي يقبلها الموقف الشعري .

وقال أيضا يبكى بلده شيزر :- (١)

- حيا ربوعك من ربا ومنازل * سارى الغمام بگل هام هامل .
- وسقتك ياد ار الهوى بعد النوى وطفاء تسفح بالمهتون الهائل .
- أبكيك أم أبكى زمانى فيك أم * أهليك أم شرح الشباب الرامل .
- درست منازلهم وأوحش منهم * مانوس أندية وعز معافسل .

- واهـا لهم من عالم ومعالـم * ومنمعات عقائل ومماقل
- ذهبوا ذهاب الأـسـ مامن مخبر * عنهم ، وزالوا كالظلال الزائل
- وحقبت بعدهم حليف كاذبة * مستورة بتجمل وتعامل
- سعدوا براحتهم ، وها أنا بعدهم : فى شقوة تضنى وهم داخل

انها لمصيبة عظمى منى بها الشاعر ، فهو يبكى ويتفجع على أشـيـها
كثيرة ، على مدينته التى قضى فيها شطرا من حياته على أهلها الذين بادوا
ودرست منازلهم ، ولم يبق لهم أثر ، ولا عنهم مخبر وإذا كانوا هم ماتوا
واستراحوا ، فقد أورشوا شاعرنا هما وشقوة قاتله ، وهو فى أسـلـوبه
مخاصة فى هذه القصيدة يكثر من استعمال المحسنات كالجناس والطباق
والمقابلة وغيرها ولعل هذا مراعاة لأسلوب الشعر الذى كان سائدا فى ذلك
الوقت .

وله قصيدة أخرى باكيه يقول منها :-

- ما استدج الموت قوص فى هلاكهم * ولا تحزمهم مثنى ووحيد انـا .
- ماتوا جميعا ، كرجع الطرف وانقرضوا * هل ماترى ، تارك للعين انسانا .
- لم يترك الموت منهم من يخبرنسى * عنهم فيوضح مالا قوة تبينانا .
- هذى قصورهم أمست قبورهم * كذاك كانوا بها من قبل سگانا .
- ووج الزلازل ، أفنت معشرى فاذا * نكرتهم خلتنى فى القوم سكرانا .
- أغنت على معشرى الأدين فاصطلمت * منهم كهولا وشبانا وولد انسا .
- لم يحصهم حصنهم منها ولا رهبت * بأسا تناذره الأقران أزمانسا .
- بنو أبى ، ومنوعى ، دى دهم * وان أرونى مناواة وشنانسا .
- يطيب النفس عنهم أنهم رحلوا * وخلفون على الآثار عجلانا .

وهو هنا يصور مصرهم الرهيب الفاجع ، حيث هلكوا جميعا في ساعة واحدة ، فأصبحت القصور الشامخة قبورا لهم ، ولم تحصهم قوتهم النيمية حيث سقطت على السلطان أبي العساكر ومن معه من الأهل والحاشية فأردتهم وهو في البيت الأخير يستعجل اللحاق بهم .

المبحث الثالث : الشعر يرنو سقوط بيت المقدس بيد الصليبيين :-

لقد ظل احتلال بيت المقدس ، وارجاعه الى الهيمنة النصرانية العلم الذى دأب خيال الافرنج قرونا طويلة تمتد الى أيام فتحه الأوسى فى عهد الخليفة صربن الخطاب - رضى الله عنه - فكانوا يمدّون المسنة وينتهبون الفرس لتحقيق هذا الهدف الكبير ، ولا طفا* نار غيظهم بالانتقام من المسلمين . ولقد واتتهم الظروف فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى ، عندما كان العالم الاسلامى موزعا بين عدة قوى ومراكز لا تشارك السلاجقة بسيلطرون على الشام بعد أن حلّوا محل بنى بويه فى بسط نفوذهم على الخلافة العباسية فى بغداد سنة سبع وأربعين وأربعمائة يقابلهم الفاطميون فى مصر حيث كان العداء* مستحكما بين الدولتين بسبب (١) الأطماع السياسية ، والخلافات المذهبية وفى سنة تسع وثمانين وأربعمائة وردت الى البابا أوربان الثانى - صاحب السلطة الواسعة فى أوربا آنذاك - رسائل كثيرة تحمل شكاوى من معاوية السلاجقة الذين كانوا يحكمون بيت المقدس - للعجاج النصارى ، كما وصلت - أيضا - فى هذا الوقت رسل امبراطور الدولة البيزنطية " الكسيوس " تحمل رسائل الاستغاثة وتطلب المساعدة العاجلة الفورية لانقاذ الامبراطورية البيزنطية (النصرانية) من غزوات السلاجقة التى تكررت بعد انتصارهم فى معركة ملاذكرد سنة أربع وستين وأربعمائة حسنت استطاعوا أن يقهروا هذه الدولة الكبرى وفرضوا عليها جزية بلغت ثلاث مائة ألف دينار ، وما جاء فى رسائل ذلك الامبراطور للبابا قوله : " ان من الحكمة أن يحارب الأتراك فى أرض آسيا بدل أن تنتظرهم حتى يقتحموا بحفاظهم بلاد البلقان الى عواصم أوربا الغربية " .

(١) سعيد عاشور ، بعوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى : ٦٥ .
(٢) ول ديورانت ، قصة الحضارة : الجزء الرابع من المجلد الرابع : ص ١٣ الترجمة العربية .

كما لا ننسى الأطماع المادية لدى الأوروبيين في خيرات الشرق والفسيفساء
وأطماع البابا نفسه بعد نفوذه على الكنيسة الشرقية ، وتكوين عالم مسيحي
عظيم القوة متحد تحت حكم البابوات . لذلك استغل البابا أوريان اجتماع
المجمع الديني النصراني الكبير في مدينة كيرمون بفرنسا ، وكان يحضره
ألف من الفرسان بالإضافة إلى رجال الدين والنبلاء وغيرهم . وألقى في هذا
الجمع خطابا حماسيا ، فملأه في انذاك الروح القتالية عند النصراني
أدى إلى خروجهم بحفلات الآلاف إلى الشرق لانقاذ القبر المقدس من أيدي
المسلمين ، حتى ينالوا رضى البابا ورضى الرب بالتالي ، وقد جعلوا
شعارهم صليبا من القماش الأحمر يوضح على الكف ، فصرخوا لذلك
بالصليبيين وكان ما قاله البابا : " تقدموا إلى البيت المقدس ، انتمزعوا
تلك الأرض الطاهرة ، واحفظوها لأنفسكم ، فهي تدرسنا وعسلا . انكم
إذا انتصرتكم على عدوكم وثقتكم ممالك الشرق ، وان غدلتم فستقتلون حيث مات
يسوع فتخلدون في النعيم الدائم . اذهبوا إلى القتال ، وسرتب أموركم
وأموالكم في غيابكم ، سأغفر لكم ذنوبكم وخطاياكم بالقوة التي زودني بها
الله فليترهتكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا ، الضريح الذي
تملكه الآن أم نجسه ان اورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها هي
فردوس المباهج ، ان المدينة العظمى القائمة في وسط العالم تستغيث بكم
أن هبوا لانقاذها "

(١) فليب حتي وآخرون ، تاريخ العرب المأول : ٢/٢٥٢ - ٢٥٣ .

(٢) محمد كرد علي ، خطط الشام : ١/٢٤٨ - ٢٤٩ .

(٣) محمد صبيح ، القدس معاركها الكبرى : ١/٣٦٦ .

ثم أخذ بعد ذلك يطوف بنواحي فرنسا وإيطاليا ويدعو إلى الحرب ، ويضمد
النزاع القائم بين الطوائف النصرانية ، وكان يهرع إليه الناس بالآلاف وخاصة
من الفرنسيين الذين كانوا في أزمة اقتصادية شديدة ووجدوا في هذه
الحرب متنفسا يدعمون به أنفسهم ماديا . (١)

ولقد أسفرت جهود البابا بعد تسعة أشهر من العمل المتواصل عن
تكوين حملة صليبية قوامها ثلاثون ألف جندي بقيادة طوك أوروبا يرافقهم
المندوب البابوي الذي يمثل الزعيم الروحي . وساروا حتى وصلوا سنة تسعين
وأربعمئة إلى أنطاكية ، وحاصروها حصارا شديدا مدة تسعة أشهر هلك
منهم في ذلك خلق كثير ولم يستطيعوا اقتحامها إلا بخيانة أحد الحراس
وأنه لمن المؤسف والمحزن أن تصل في هذه الظروف التي يستبجح فيها
الصليبيون أنطاكية سفارة من الأفضل بن بدر الجمالي وزير الدولة الفاطمية
تحمل عرضا للاتفاق مع الصليبيين ضد السلاجقة على أن يكون القسم الشمالي
من بلاد الشام للصليبيين ، والجنوبي (فلسطين) للفاطميين ، فتلأهسر
الصليبيون بالقبول وأرسلوا سفارة إلى مصر تؤكد التعاون . عندئذ جسر
الأفضل حملة قوية وحاصرت بيت المقدس واحتله وطرد الحاكم السلجوقي وأتبع
القدس لدولته وأتاب فيه رجلا من قبله يعرف بافتخار الدولة وكان هذا
الخائن لا يعلم أن الصليبيين يهدفون في المقام الأول إلى الاستيلاء على
القدس . واستمر الصليبيون في زحفهم نحو بيت المقدس وفي طريقهم عرجوا

(١) سعيد عاشور ، الحروب الصليبية : ٣٤ / ١ .

* الأسكندرونه حاليا .

(٢) الأتابكي ، النجوم الزاهرة : ١٤٧ / ٥ .

(١)

على معرة النعمان فقاتلهم أهلها قتالا عنيفا ، ولكنهم دخلوها في النهاية وأعملوا السيف في رقاب أهلها فقتلوا منهم ما يزيد على مائة ألف إنسان ، وسبوا النساء ، وأقاموا فيها أربعين يوما يحطون الأعمال المروعة دون أن تجد نصيرا .

(٢)

وقد رثى هذه المدينة الشاعر وجيه بن عبد الله بن نصر التنوخي بقوله :-

- هذه صاح بلدة قد قضى اليها * به طيها كما ترى بالخراب .
- وقف الحيس وقفه وأهلك من كما * ن بها من شيوخها والشباب .
- واعتبر ان دخلت يوما اليها * فهي كانت منازل الأحاب .

ثم استمرت الحطة في سيرها نحو القدس بعد أن أغضعت كل المسلمين التي مرت طيها وأخذت منها الجزية ، وفي سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة وصل الصليبيون إلى أسوار بيت المقدس وخرّبوا حوله طوقا من الحصار دام شهرا ونصف الشهر ، ثم جاءوا ببرجين يطلان على سور المدينة فأحرق المسلمون أحدهما ، ولكنهم زحفوا بالآخر حتى ألقوه بالسور ، هربوا من عليه بالمجانيق والسهم فانهزم المقاتلون من المسلمين ، ودخل الصليبيون المدينة دخولا مروها وحبوا ما بأنفسهم من حقد على الاسلام والمسلمين على

(١) مدينة بالشام قديمة ، كبيرة كثيرة المباني لها سبعة أبواب ، من أغصب بلاد الله وأكثرها أرزاقا يصل التفاف بساتين الزيتون والتين وأنسواع الفواكه فيها مسافة طويلة ، وقيل أنها تنسب إلى الصحابي النعمان بن بشير / انظر البلاذري ، فتوح البلدان : ١٥٦ ، رحلة ابن جبیر : ٢٥٤ .

(٢) اليافعي ، مرآة الجنان : ١٥٤/٣ .

رؤوس أهل هذه المدينة المقدسة فلم يفرقوا بين رجل وامرأة أو طفلاً وشيخ ، ثم انجفل الناس الى المسجد الأقصى يحتمون به ، فتبعتهم خيل المسلمين الى داخله وأعطوا فيهم السيف ، فقتلوا فيه ما يزيد على سبعين ألف إنسان منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وطوائهم ومجاهد هم وزهاد هم من فارق الأوطان ، وجاور بذلك الموضع الشريف . (١) وقد هزت هذه الحادثة ضمائر الناس ونفوسهم فأطالوا البكاء والتعجب فقال بعضهم :- (٢)

- أحل الكفر بالاسلام ضيماً * يطول عليه للدين النحيب .
- فحق ضائع ، وعصى صاح * وسيف قاطع ، ودم صبيب .
- وكم من مسلم أمس سليماً * وصلمة لها حرم سليب .
- وكم من مسجد جعلوه ديراً * على محرابه وضع الصليب .
- دم الخنزير فيه لهم خلصوق * وتحريق المصاحف فيه طيب .
- أمور لو تأملهن طفلاً * لطفل في عوارضه الشيب .
- أتسبى السلحفات بكل ثغر * وبعث المسلمين اذا يطيب .
- أما لله والاسلام حقيق * يدافع عنه شبان وشيب :
- فقل لذوى البصائر حيث كانوا * أجيئوا الله وحكم أجيئوا .

انها عبرة حزينة يذوقها الشاعر على ما حل بالبلد الشريف وأهله من القتل والحرق واستباحة الحرم ، وتحويل المساجد الى كنائس نصبت الصليبان على محاربيها ، وغابت عنها أصوات المؤذنين . كما مزقت المصاحف وديست وأحرقت الأمر الذي أحدث جرحاً غائراً في نفوس المسلمين ، ويذكر المؤرخون

(١) انظر تفاصيل احتلال القدس في : ابن الأثير ، الكامل : ٢٧٢ / ١٠ -

(٢) النجوم الزاهرة : ١٥١ / ٥ .

أن الصليبيين حطوا قبة الصخرة الى كنيسة ، وأعطوا قسما منها لفرسان
المهيكل ليسكنوا فيه ، واتخذوا الأبنية السفلى اسطبلات لخيولهم ودعوها
باسطبلات سليمان . (١)

محمد أن يحدد الشاعر الأمور الشنيعة التي حلت بالمسلمين ، والتي
يشيب لها أطفال يرفع صوته صارخا بقوة ، مستثمرا لعزة الاسلام
بأن حقوق الله والاسلام قد انتهكت من قبل الأعداء فأيمن الذين يعرفون
هذه الحقوق من المسلمين ليهرخوا لحمايتها أينما كانوا .

لقد كان للقدس - خاصة - منزلة عظيمة في نفوس المسلمين على اختلاف
ديارهم فهي أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ، فمنذ أن تقــدم
الصليبيون لحصارها شعر أهل الشام بالخطورة والخسارة العظمى اذا
أحتلت ، فتوجه وفد من الشام على رأسه قاضي دمشق الى بغداد ليستجد
بالخليفة العباسي المستظهر بالله باعتباره المسئول الأول من حماية المسلمين
فحضروا بين يديه ونقلوا له الأخبار التي تدعى القلوب وتبكي العيون ، فخرج
الناس في الجوامع يستغيثون ويهتفون حتى انهم كانوا صائمين وأفطروا لشدة
وقوع الخبر عليهم ولكن الخليفة كان لا يقدر على شيء مما يطلب ولا حول له
ولا قوة ، كما أن سلطان السلاجقة آنذاك (بركياروق) لم يفعل شيئا يذكر
فوقع التقاعس من الجميع ، فتمكن الصليبيون من البلد وأقاموا فيه مطكهم

(١) محمود الحامدي ، قدسنا : ص ٦٢ .

(٢) تاريخ أبي الفداء : ٢ / ٢٢٢ .

التي كانت حلما طالما تمنوا تحقيقه .

وفي هذا الموقف الرهيب والغدлан العجيب قال الأبيوردي :- (١)

- مزجنا دما^١ بالدموع السواجم * فلم يبق منا عروضة للمراحم .
- وشر سلاح الحر^٢ دمع يفيضه * اذا الحرب شبت نارها بالصوارم .
- فأيها بني الاسلام ان وراءكم * وقائع يلحقن الذرى بالمناسم .

يبدأ الشاعر قصيدته بهذا المطلع الحزين الباكي الذي يمزج فيه السدم بالدمع ألما وحسرة على ما يجري للمسلمين بفعل الأعداء من جانب ويخذلنا بهم من قبل اخوانهم المسلمين من جانب آخر ، وما أن الشاعر لا يستطيع أن يفصل شيئا في الميدان الجهادي يفرضه فقد لجأ لسلاح الحاجز بين وهو الدمع الذي لا يخفى شيئا . ثم يتوجه الى بني الاسلام في بغداد وفيها مخاطبتهم باسم الأخوة الاسلامية ليهبوا لنجدة اخوانهم في الشام :-

- أنائمة في ظل أمن وخطرة * وميثاق كنوار الخيلة ناعم .
- وكيف تنام العين مل^٣ جفونها * على هفوات أيقظت كل نائم .
- واخوانكم بالشام يضحى مقلهم * ظهور المذاكي أوبطون القشاعم .
- تسومهم الروم الهوان وأنقسم * تجرون ذيل الخفض فعل المسالم .

(١) القصيدة في : السيوطي ، تاريخ الخلفاء : ٤٢٧ - ٤٢٨ ، ابن

الأثير ، الكامل : ٢٨٤ / ١٠ - ٢٨٥ .

والأبيوردي هو أبو المظفر محمد بن أبي العباس يصل نسبة الى عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي ، كان شاعرا مشهورا وراوية ، ونسابة وأحد قراء أبيوردي وهي مدينة بخراسان ، ومن آثاره : كتاب " تاريخ

أبيوردي ونسابة " والمؤلف والمختطف " ، " تحفة المشتاق الى ساكني العراق " .

وفيها / انظر الوفيات : ٤٤٤ / ٤ ، السيوطي ، بغية الوفاء : ٤٠ / ١ ،

الصفدي ، الوافي بالوفيات : ٩١ / ٢ .

- فكلم من دما* قد أبيض ومن دى* * توارى حيا* عسناها بالمعاصم .
- بعثت السيوف البيض محمرة الظبا * وسم الحوالى داميات اللهازم .
- وبين اختلاس الطمن والضرب وقفة تظل لها الولدان شيب القوادم .
- وتلك حروب من يغيب عن فمارها * ليسلم يقرع بعدها سن نادم .

ان الشاعر يلجأ الى الأسلوب الخطابى والعبارات الجزلة ذات الوقع
القوى على النفوس بغية أن تثير فيها الحماس وتدفعها الى الجهاد ، فهو
يتساءل متعجبا من لا يزال يفظ في نومه آثما ، ولا يبالي بتلك المصائب
والفواجع ، **التأثره بالمسلمين وديارهم** ، والتى أطار ذكرها النوم من العيون
، وهل يجوز لمسلم أن ينام هانئا واخوانه فى بيت المقدس قد أخذتهم
سيوف الصليبيين فهم بين قتيل ^(١) مخرج بدماه وبين أسير يروح فى قيود
الذل والهوان ، يقول القى رغيد الأجيلى ، وهو نصرانى وشاهد عيان
للمذبحة المروعة : " شاهدنا أشياء عجيبة ان قطعت رؤوس عدد كبير من
المسلمين ، وقتل غيرهم بالسهم ، وأرغموا أن يلقوا أنفسهم من فوق
الأبراج ، وحضهم عذب عدة أيام ثم أحرق ، وكنت ترى فى الشوارع أكوام
الرؤوس والأيدى والأقدام ، وكان الانسان أينما سار فوق جواده يسير
بين جثث الرجال والخيول والنساء كن يقطن طمنا بالسيوف والحراش
والأطفال يخطفون بأرجلهم ويقذف بهم من فوق الأسوار ، أو تدق رؤوسهم
بالحمد وما دام الأمر على هذه الحال التى يذكرها هذا الصليبي ، فسان
الشاعر ليلام على توبيخه المتعاصمين طالبا للسلامه وتذكيره اياهم بأنهم

(١) قصة الحضارة : الجزء الرابع من المجلد الرابع ص ٢٥ .

سيندمون على ذلك أشد الندم ، ثم يبين أن أفعال هؤلاء المتقاصين عن
 الجهاد قد أزعجت النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى كاد يصرخ مستنجدا :
 سللن بأيدي المشركين قواضبنا * ستغمد منهم في الطلح والجماجم .
 يكاد لهم المستجن بطييسنة * ينادى بأعلى الصوت يال هاشم .
 أرى أمتي لا يشرعون إلى العدى * رماحهم والدين واهو الدعائم .
 ويجتنبون النار خوفا من السرى * ولا يحسبون العار ضريرة لازم .
 أترضى صناديد الأعراب بالأذى * وتغضى على ذل كمة الأعاجم .
 فليتهم ان لم يزدوا حمييسنة * عن الدين ضنوا غيرة بالمعاصم .
 وان زهدوا في الأجر ، ان حصر الوفر بفهلا أتوه رغبة في الخنائم .
 لئن أذعنت تلك الخياشيم للبرى * فلا عظموا الا بأجدع رافضم .
 أن الشاعر يخاطب الناس على لسان النبي - صلى الله عليه وسلم - كما فصل
 ابن الرومي في رثاء البصرة آنفا . فالنبي يعز في نفسه أن يرى أمة قد
 دخلها الوهن ، فلم تعلن الحرب دفاعا عن الدين وانما ضنوا بأنفسهم
 وتحطوا في سبيل ذلك الذل والعار ، سوا في ذلك العرب ولعلهم أراد
 الحباسيين أو المعجم كالأترك السلاجقة وغيرهم الذين لم تحركهم الحرقنة
 على الاسلام والغيره على عرماته ، ولم يطمعوا أيضا - لجبنهم وعجزهم - بالخنائم
 والأسلاب .

ان الشاعر يبدو قوى النفس ذات عزيمة فهو لا يلجأ إلى البكاء السلبي الانهزامي
 في قصيدته وانما يقف وقفة شجاعة ، يستعمل فيها ما استطاع من وسائل التأثير

(١) البرى : مفردا براية وهي القوة ، والمقصود هنا الذل لقوة الأعداء .
 انظر اللسان (برى) .

صعقت الحماس ، فهل من سامع مجيب ؟ والذي بيد و يؤيده الواقع التاريخي
أن استصراخه ذهب مع الريح ، وكأنه ينادى أمواتا . يقول في ختام القصيدة :-
دعوناكم والحرب ترنو ملحمة * البنا بالحافظ النعمان القشاعم .
تراقب فينا غارة عريضة * تطيل عليها الروم على الأباهم .
فان أقم لم تغضبوا بعد هذه * رمينا الى أعدائنا بالجرائم .

وقى الصليبيون بجوسون خلال الديار ويدنسون الأقصى برجهم
ما يقارب القرن من الزمان حتى قهرى الله للأمة الإسلامية البطل صلاح الدين
الأيوبى فجمع شتاتها ، ووحدتها على الاسلام والقرآن ، ثم رفع راية الجهاد
فى سبيل الله فانتصر على الصليبيين انتصارات ساحقة واستطاع أن يرجع
الأقصى بيت المقدس الى دائرة الاسلام ، وأن يخلص العار الذى لازم ،
المسلمين حينما من الدهر ، وذلك سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، فعاد
للقدس اشراقه ونوره بعودة شعائر الاسلام الى رحابه ، ولكن خلفاء صلاح
الدين فى الحكم لم يكن لهم قوته ، وسداد رأيه وذلك أنه فى سنة ست عشرة
وستمائه شعر الصليبيون - الذين لم يرجعوا كلياً عن الشام - بقوتهم
فخرجوا وانتشروا فى البلاد ، فما كان من الملك المعظم هيسى بن العادل
الأيوبى حاكم بيت المقدس آنذاك إلا أن خربته خراباً شنيعاً أوحش الناس منه
فرغبوا عن السكنى فيه ، وذلك خوفاً من وقوعه ثانية بأيدى الصليبيين ، فأصاب
الناس غم شديد وكوه أحر البكا ، ورثاه الفاضل شهاب الدين يعقوب بسن
المجاور بقصيدة يقول فيها : (١)

(١) المقدسى ، الروضتين : ٢٠٥ / ٢ - ٢٠٦ . والشاعر هو يوسف بسن
الحسين بن محمد ، أبو الفتح ، ابن المجاور فارسى الأصل من شيراز
نشأ ومات فى دمشق . أديب وشاعر . كان معلماً للمعز بن صلاح الدين
ثم وزر له بعد وفاة أبيه / أنظر : ابن سعيد ، الفصول الناعمة : ١٩ -
٢٥ ، الشذرات : ٤٦ / ٢ .

أعيني لا ترق من العسبرات * صلى في الهكس الاصال بالهكرات .
 لعل سيول الدمع يطفئ فيفسها * توقد مافى القلب من جمرات .
 ويا قلب أسعمر نار وجدك كلما * خبت بادكلى يبعث الحسرات .
 ويا فم يح بالشجوماتك لعلك * يروح ما ألقى من الكربات .
 يشرح الشاعر حالته وما دخله من الهم والعزن الشديد الذى أشعل قلبه
 نارا ، فأرسل الدمع مدرارا يحاول به أن يطفئ ذلك اللهب ، ولكـ
 هيهات أن تخمد هذه النار مادام القلب يزد اشتعالها بتذكره ما حصل
 للقدس - موطنه الحبيب - من الخراب والدمار فهو لذلك يظل حبيب كرباتـه
 ولا سيما عند تذكاره ما حبا الله - تعالى - به ذلك البلد :-

على المسجد الأقصى الذى جل قدره * على موطن الاخيات والصلوات .
 (١)
 على منزل الأملاك والوحى والهدى * على مشهد الأبدال والهندلات .
 على سلم المعراج والصخرة التى * أنافت بما فى الأرض من صفرات .
 على القبلة الأولى التى اتجهت لها * صلاة البرايا فى اختلاف جهات .
 على خير محمور وأكرم عامر * وأشرف منى لخير بنىة .
 وما زال فيه للنبيين معبود * يوالون فى أرجائه السجيدات .
 عفا المسجد الأقصى المبارك حوله الر * رفيع العماد العالى الشرفات .
 عفا بعد ما قد كان للخير موسما * ولبر والا حسان والقربات .
 يوافق اليه كل أشعث قنانت * لمولاة بردائم الخلسوات .
 خلا من حنين التائبين وحزنهم * فمن بين نواح صين بكسات .

(١) الأبدال : الأولياء والعباد . سمو بذلك لأنهم كلما مات منهم واحد أبدل
 بآخر . اللسان : (بدل) .

ان المسجد الأقصى كان له فضل كبير وأثر مجيد في تاريخ المسلمين فهو موطن الاسراء والمعراج ، وصلاة النبيين أجمع مأمومين بسيد المرسلين عليه وعليهم الصلاة والسلام . وهو القبلة الأولى التي اتجه اليها المسلمون كما أنه كان طيلة العصور التي مرت به مؤثلا لأهل العلم والتقى المنقطعين فيه للعبادة ، والذين يأتون اليه من مختلف الأصقاع يجاورون فيه ، كما كان يحصل هذا - أيضا - في حرم مكة والمدينة . لهذا فالأقصى لجميع المسلمين دون تخصيص فليكنوه أذن جميعا :-

لتبك على القدس البلاد بأسرها * وتعلن بالأحزان والترحلات .
لتبك عليها مكة فهي أختها * وتشكو الذي لاقت الى عرفات .
لتبك على ما حل بالقدس طيبة * وتشرحه في أكرم الحجرات .
ثم ينتقل الشاعر لينحى باللوم على من هدم القدس ويصفه بأنه أشمت
بذا الفعل امارات الصليبيين المقامة في صور وعكا ، كما أنه لجبهله وحققه
قد هدم مجد الأيوبيين الذي بناه عظيمهم صلاح الدين ، وتوجه بفتوح
القدس :

لقد أشمتوا عكا وصور بهدمها * وما طالما غادتها بشمات .
لقد شتتوا عنها جماعة أهلها * وكل اجتماع مؤذن بشمات .
وقد هدموا مجد صلاح بهدمها * وقد كان مجدا بانح الخرافات .
وقد أخذوا صوتا وصيحا أنساره * لهم عظام ماوالوا من الفسزوات .
أما طمت أبناء أيوب أنهم * بصمات عدوا من السموات .
وان افتتح القدس زهرة طكهم * وهل ثمر الا من الزهيرات .
وفي غتام القصيدة لا يطلب الشاعر الخوف والنجدة من المسلمين لأن الفاعل
ليس عدوا أجنبيا ، وانما يطلب نواحي يندين غراب القدس بأصوات شجيبة
ليبقى الأسى متجددا والحزن مستمرا .

- فمن لى بنّواح ينحن على الذى * شجاني بأصوات لهن شجاسة .
- يرددن بيتا للخزاعى قاله * يؤمن، فيه خيرة الخسيرات .
- مدارس آيات خلت من تلاوة * ومنزل وحى مقفول العرصات .

والمقصود بالخزاعى هو دهل الشاعر الذى قال البيت الأخير من هذه

القصيدة يرثى فيه أهل بيت النبى - صلى الله عليه وسلم :- (١)

ومن الجدير بالذكر أننى فى هذا الفصل اقتصرت على إيراد قصائد
الرثاء الخالص ولم أتمرس لأبيات الرثاء أو البحث على استقناذ القدامى التى
تأتى ضمن قصائد المدح التى قيلت فى صلاح الدين أو فى سلاطين آل زنكى
وغيرهم لأن ذلك خارج عن موضوع البحث من حيث الطبيعة والأسلوب .

(١) انظر الأغاني : ١٥٢/٢٠ - ١٥٣ .

الفصل الرابع : تدوير بغداد والشام على يد التتار ، ورثاء الشعراء لهما :-

من أعظم المصائب والأخطار التي ابتليت بها الأمة الإسلامية وحضارتها عبر تاريخها الطويل الهجوم الكاسح الذي قامت به جموع التتار المدسرة على **العائلة الإسلامية** واحكام السيطرة عليها وسط بحور من الدماء وجبال من الجثث والهائمات أطراف الممزقة بالإضافة الى الخراب الشامل الذي لحق كل شيء وصلت اليه أيديهم ، وصف المؤرخ ابن الأثير ذلك بقوله : (١) " الحادثة الكبرى والمصيبة العظمى التي عمقت الأيام والليالي عن مثلها ، عمت الخلائق وغصت المسلمين ، فلو قال قائل ان العالم منذ خلق الله آدم والى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا " وقد أعرس ابن الأثير في بداية الأمر عن تدوين ما أحدثه التتار من الحوادث الشنيعة في البلاد الإسلامية الشرقية كالدولة الخوارزمية استفظاعا لذلك يقول : " لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لهما ، كارهيا لذكرها — فأنا أقدم اليها رجلا وأؤخر أخرى ، فمن يهون عليه ذكر ذلك ، ومن السدى يسهل عليه أن يكتب نعي الاسلام والمسلمين فياليت أمي لم تلدن ، وهاليتني كنت نسيا منسيا " .

وقد كان خروج هذه الوحوش التثيرة في سنة ست عشرة وستمائه من أطراف الصين ثم عبروا نهر جيحون الى الدولة الخوارزمية التي كانت أقوى وأكبر دولة إسلامية في الشرق ، حيث قضت على سلطان السلاجقة ونفوذهم ففسد بغداد وأخذت الصفة الشرعية من الخليفة العباسي وكان حاكمها آنذاك

(١) الكامل في التاريخ : ٣٥٨ / ١٢ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٣٥٩ .

السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه ، وكان شرها في ابتلاع الدولات التي تجاوره وضمها الى دولته ، حتى ان أطماعه وصلت الى بغداد نفسها لأن الخليفة الناصر لدين الله لم يأمر بذكر اسم هذا السلطان بعده على منابر بغداد ، فاعتنق المذهب الشيعي ، وحصل على فتوى من علماء دولته تقول ان العباسيين قد اغتصبوا الملك من العلويين فسلطانهم غير شرعي يجب ازالته ، فجهز جيشا كثيفا لغزو بغداد ، وجاء به رجل طوي يسمى (علاء الملك) ونادى به خليفة ، وخطب له وهناك باسمه السكة . وسار بجيشه حتى اذا بلغ منتصف الصافة رمته العواصف والثلوج بقوارعها فأهلك معظم جيشه فارتد الى بلاده ليجد الخطر التترى ماثلا أمامه . وهنا تقول بعض الروايات التاريخية ان الخليفة استنجد بجنكيزخان زعيم التتر لينقذه من بطش خوارزمشاه الذي أراد أن يقضى على الخلافة ، فكانت البلية العظيمة بخروج جحافل الرهيبة .

(٢)

يقول ابن الأثير عند كلامه عن الخليفة الناصر ، وكان سبب ما ينسب به المعجم اليه صحيحا من أنه هو الذي اطمع التتر في البلاد ، وراسلهم فمس ذلك فهو الطامة الكبرى التي يصفر عندها كل ذنب عظيم .

(٣)

وقال المقرئ - أيضا - : " وفي خلافته خرب التتر بلاد الشرق حتى وصلوا همذان ، وكان هو السبب في ذلك ، فانه كتب اليهم بالمعبور الى البلاد خوفا من السلطان محمد علاء الدين خوارزمشاه لما هم بالاستيلاء على بغداد " .

(١) فؤاد الصياد ، المخول في التاريخ : ٧١ .

(٢) الكامل : ٣٦١ / ٤ .

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك : القسم الأول ، ج ١ ص ٢١٨ .

ولكن السبب المباشر في غزو التتر ملكة خوارزم هو اعتداء^(١) أحمد ولاية خوارزمشاه على تجار المصنوع الذين يمرون بأرضه آمنين وقتلهم ونهب ماصهم من متاع بحجة أنهم جواسيس ، وكان هذا الوالي خلا للشاه ، فرفض تسليمه للتتر لينال العقاب ، بناءً على طلب جنكيزخان ذلك فوقع الخلاف والتهديد بينهما ، فعبروا النهر لقتال السلطان فبدأوا بذلك الوالي وقتلوه بطريقة بشعة ثم تقدموا نحو بخارى وسمرقند وأحدثوا بهما مذبحة كسبرى فقد بلغ عدد القتلى في سمرقند ما يزيد على سبعين ألفاً بعد أن أغفلوا منها كل من يصلح للقتال ، ثم ساروا إلى نيسابور فالري حيث لاقى نفس المصير ، وهرب السلطان خوارزمشاه ، ومات طليلاً مغموماً سنة عشرة وستمائه^(٢) ثم وصل التتار إلى مدينة جرجانية عاصمة إقليم خوارزم فحاصروها بشدة وضربوها بالمجانيق ثم دخلوها ، وقتلوا جميع أهلها ثم هدموا السد المقام على نهر جيحون فأغرقوا المدينة بالماء فتهدمت وأصبحت أطلالاً . ثم تركوها إلى مدينة مروقة أعظم مدن بلاد أذربيجان ، وكانت محصنة وبها قلعة

(١) السيوطي ، تاريخ الخلفاء : ٤٦٩ .

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية : ٨٢ / ١٣ وما بعدها .

(٣) قاعدة خوارزم المعظم على الضفة النهر يبلغ طولها تسعة أميال في مثلها يحيط بها سور عظيم وبها أسواق كبيرة عامرة وكانت مقر السلطان محمد خوارزمشاه الذي سقطت في عهده سنة ٦١٨ هـ / الحميري ، الروض المعطار : (جرجانية) .

(٤) بلدة مشهورة أعظم وأشهر بلاد أذربيجان ، بناها مروان بن الحكم وهو والي على أرمينية وأذربيجان ثم صارت إلى العباسيين أيام الرشيد منيعة الأسوار كثيرة الخيرات والفلات . معجم البلدان (مراغة) .

تقيم فيها المرأة التي كانت تحكم المدينة آنذاك ، فعاصروها مدة ثم دخلوها عنوة وقهرا ، فوضعوا السيف في أهلها فقتل منهم ما يخرج من المد والحصا* ونهبوا كل ما يصلح لهم ، ولا يصلح أحرقوه وتركوا المدينة أكواما من الرماد . ونتيجة لهذه الأخبار المروعة عن فظائع التتر وقسوتهم وضمت طي النساء الذلة فلا يدفعون عن أنفسهم ان تأكد عندهم أن التتر لا يخلون ، يقول ابن الأثير عن أهل مراغة : " سمعت من بعض أهلها أن رجلا من التتر دخل ديرا فيه نائه رجل فما زال يقتلهم واحدا واحدا حتى أفناهم ولم يجد أحيدا يده اليه بسو* " .

وفي رثاء مدينة مراغة قال أبو الحسن المرافى : - (٢)

- حرمت جفوني من هدو* غرار * وصميم قلبي من نعيم قسار .
- ونفاد دمي من بكائي داءسا * بمدامع حال البكا* غسزار .
- وعقود عرى اليوم تمت خمسة * وبها تنهى أكثر الأعسار .
- والشيب شامل عارض وفارقى * لطليعة طلعت بجيش بسوار .
- ماصار لولا تلك رأسى أغسبرا * فالجيش يقدمه مشار غسبار .

(١) الكامل ٣٧٨/١٢ أبو الحسن بن الخطاب المرافى ، من فضلا* أن ربيعان (٢) هو عهد المجيد بن الحسن بن الخطاب المرافى ، من فضلا* أن ربيعان

غزير العطف عالما بالأدب مبرز في اللغة والشعر ، لم يكن في زمانه من يضاهيه فيما يتعلق بالفنون الأدبية وصناعة النظم والنثر . من كتبه شرح الملح ، شرح سقط الزند وغيرها ، استشهد سنة ٦٢٧ هـ بمقرينة من قرى اربل . انظر : ابن الشعار الموصلي : عقود الجمان في شعرا* هذا الزمان : ج ٤ لوجه ٣٩ والقصيدة في المصدر نفسه : ج ٤ ، لوجه

يذكر الشاعر في مقدمة قصيدته الطويلة مآلت إليه حالته النفسية حين
جرا " هجوم الجيوش الفارسية على موطنه ، فقد غزاه هو - أيضا - جيش من
الغم والحزن أطار النوم عن جفونه وأجرى دمعه مدرارا ، وأصاب رأسه
مؤذنا - إياه بالفناء " ، وهو يشرح حالته هذه بمهد لتفصيل الحادثة الكبرى
التي لا يستغرب معها ما أصابه من الحزن والألم . :-

- أو ما رأيتم أن طوفان البردى * أخذ المرافعة من هجوم تتار .
- ان المرافعة كالسفينة أغرقت * في لجة من صكر جرار .
- في النصف من يومين قد ظفروا بها * قهرا بعكم الواحد القهار .
- فظميرة الأحد ابتداء حصارهم * والأخذ في الإثنين شرّ نهار .
- هجموا وقد أخذوا أعالي سورهم * بمجانق يمتطرن بالأحجار .

ثم يفيض الشاعر على هذا النحوف وصف الحجارة التي تصبها المجانيق
على أسوار تلك البلدة المنكبة حتى أحدثت فيه شغرات وشقوقا في أساسه
الأمر الذي جعل الناس يتركون الأسوار منهزمين وسقط السور في النهاية
ودخل العدو . كل هذه الأحداث يوردها الشاعر بأسلوب قصص واقعي
ينقلك إلى تلك المدينة ويجعلك تشاهده أحزانه وهمومه :-

- بسقوطه ارتفع الغبار راعاً أهـ * ل الحق فاندروا من الأسوار .
- لما رأى الكفار سموا غالياً * وهوى ببحر تساقط منهمار .
- صعدوا إليه رافعين لواءهم * قصاد قل الزمرة الأبرار .
- لجأت إلى دار الهمام أمام ديةـ * ن الله الآف من الأخيار .
- فأجارهم ووقاهم فنى داره * قاض لحق أجاره وجوار .
- وأطاب قلبهم بطيب وعوده * ان قال أحميكم أنا في داري .
- فعماهم وما طيبلا كاملا * عن ناب قوم كالغلاب ضواري .

(١)

- وفدا استداروا حولها * كاحاطة الهالات بالأقمار .
- فمما* فيث السهم تطرداره * مطر السما* الصيب المطار .
- وعلا ليضعهم أعالي داره * فلهم تيسر فتح سباب السدار .
- دخلوا وقد ظفروا بمن في داره * من نسوة ومشايخ وذاري .
- قتلوا جميعهم بأدنى غلبة * مامن مجير فندهم ومجار .

يتحدث الشاعر هنا عن مشهد آخر من مشاهد المأساة وذلك بعد أن دخل التتر البلدة وحكموا السيف في الناس والنار في البيوت والمقاع ، هرع جمع كثير من الناس إلى دار قاضي مراغه يحتمون بها ، ظنا منهم أن التتار يحترمون أهل الدين والعلم ، ولكن خاب ظنهم عندما حاصر الجنود السدار وأطروها بالقذائف والسهام ، ثم اقتحموها وقتلوا جميع من فيها غير مفرقين بين شيخ كبير وطفل صغير وامرأة ثكلى جريح ، وهكذا كان يهدنهم فسو كل بلد يفتحونه وكأن مقصودهم افناء العالم وابادة النوع الانساني لا طلب الملك والمال . وهذا ما يظهر من رسالة هولاكو عظيهم إلى ملك الشام (٢) حيث قال : "نحن جيوش الهلكة لا جيوش الملكة ، مقصودنا الانتقام ، وملكنا لا يرام " وهكذا سقطت الدولة الخوارزمية ومدن الشرق الاسلامي العظيمه ودمرت . والملاحظ أن صدى هذا الغزو الصاعق قليل جدا في الشعر العربي أوروبيا ضاع ذلك الشعر مع ما فقد من التراث في تلك الأيام العصيبة .

وبعد ذلك توجهت أنظار التتر بقيادة زعيمهم الجديد هولاكو الذي تولى بعد موت جنكيزخان . إلى احتلال بغداد والقضاء على الخلافة العباسية وكان الخليفة آنذاك المستعصم بالله وكان رجلا دينيا لين الجانب ولكنّه كان مستضعف الرأي قليل الخبرة بأمر الملكة يتكل فيها على غيره وقيل ان (٣)

(١) كلمة غير واضحة في المخطوط السابق لوجه ٤١ .

(٢) السيوطي ، تاريخ الخلفاء : ٤٧٤ .

(٣) ابن الطقطقي ، الفخرى في الآداب السلطانية : ٢٤٠ .

وزيره مؤيد الدين بن الملقى الشيعى هو الذى كاتب التتر ووصف لهم
حال الدولة وما بلغت من الضعف وأطمعهم فى اجتياحها وطك بغداد . وذلك
على أثر نقمته على الخليفة لما فعله ولده بالشيعية حينما نصب قتال بين
الشيعية والسنة فى أواخر عهد المستعصم بالله بسبب الخلافات المذهبية
فأرسل الخليفة ابنه أبا بكر لفض النزاع ، فأغار هذا على مقر الشيعة فى
الكرخ وارتكب كثيرا من الفظائع ، من قتل للرجال وسبي للنساء وهتك للأعراض
والحرمت ما كان له أسوأ الأثر فى نفوس الشيعة فنقموا على الخلافة وتمنوا
زوالها . (١)

وفى سنة ست وخمسين وستمائة تحركت جحافل التتر نحو بغداد وتبدلت
رسائل التهديد والوعيد بين هولاكو والخليفة المستعصم ، وكان ما وجبه
به الخليفة لهولاكو قوله : " ان كنت تريد الحرب والقتال فلا تتوان لحظة
ولا تعتذر ، فان لى الوفا مؤلفه من الفرسان والرجال وهم على أهبة
الاستعداد للقتال " . ولعل الخليفة كان يقصد بهذا القول إرهاب
هولاكو ، وارجاعه عما من طيه من السير الى بغداد ، والا فهو يعلم قبل
غيره الحالة التى كان عليها العالم الاسلامى من الضعف والتفكك والهلاك
الذى ملأ قلوب الناس من فعل التتر . ولكن كلام الخليفة هذا أحنق هولاكو
فسار على الفور حتى وصل الى ظاهر بغداد فلقى جيش الخليفة فكان
نصيبه الهزيمة المنكرة ولم ينج منه إلا القليل . ثم تقدم الى بغداد وأحكم
الحصار حولها فى الثانى والعشرين من المحرم وأخذوا يفتحون الأبراج ويهدمون
الأسوار ويطلقون يد التخريب فى المدينة ، فلما رأى الخليفة أن لاطاقته

(١) أبو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر : ٢٠٢ .

(٢) رشيد الدين المهدانى ، جامع التواريخ (تاريخ المنول) : ٤٩٢/١ .

له بالمقاومة أراد الهرب ولكن ابن الملقى الذى كان قد استوثق لنفسه من التتار خدعه وثناه عن مزمه وحسن له الخروج لطلب الأمان من هولاكو وفى الرابع من صفر خرج الخليفة وأولاده فاستقبلهم هولاكو ولاطفهم وطلب من الخليفة أن ينادى فى الناس بالقائه أسلحتهم والخروج من المدينه لا حصائهم ففعل ، وخروج الناس فقتلوا جميعا .

ثم أظن هولاكو الهجوم الحام على المدينه فدخلوها من الشرق وأقسام جسرا على دجله وعبروا الى جهة المدينه الغربيه فأتوا على كل ما فيها من الأحياء باستتار بالغ حتى قدر عدد القتل بثمانمئة ألف نسمة ولم يسلم من الناس الا من اختفى فى بئر أو قنطرة أو مقبره ، ثم هدموا المساجد والقصور ونهبوا ما فيها ثم أشعلوا النيران فى المدينه فأتت على الأخضر واليابس وغيرت معالمها الحضارية ، وخربت أكثر الأبنية والمشاهد . . واستمرت هذه الخاربه أربعين يوما ، ثم رحل هولاكو عن بغداد بعد أن تعفن هواؤها نتيجة الجثث الطفاة وفى أول مرحلة من سيره قتل الخليفة ثم قتل أولاده ومواليه (٢) وخواصه وذلك انقضت الخلافة العباسية التى دامت قرابة خمسة قرون وربع القرن وقد أطال الناس الهكاه على بغداد والخلافة التى كانت تجمع شمل المسلمين رغم ضعفها ، وقال فى ذلك الشعراء قصائد رثائية باكية ، ومنهم تقى الدين أبو اليسر التنوخى يقول :- (٣)

-
- (١) البداية والنهاية : ٢٠٢/١٣ .
(٢) ابن الفوطى ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعه : ٣٢٧ .
(٣) هو اسماعيل بن ابراهيم ابن أبى اليسر المعمرى الأصل الدمشقى . ولد سنة ٥٨٦ هـ ، كان متميزا فى كتابة الانشاء جيد النظم حسن القول دينيا متصونا من بيت كتابة وجلاله ، كان جده كاتب الانشاء لنور الدين وكتب هو للملك الناصر صلاح الدين داود الأيوبي . توفي سنة ٦٧٢ هـ / انظر : فوات الوفيات : ١٧٠/١ . تحقيق احسان عباس ، شذرات الذهب : ٣٣٨/٥ ، اليونينى ، ذيل مرآة الزمان : ٣٨/٣ .

- لسائل الدمع عن بغداد أخبار * فما وقوفك والأحباب قد ساروا :
- يا زائرين إلى الزهراء لا تغفروا * فما بذاك الحمى والدار ديار
- تاج الخلافة والريح الذي شرفت * به المعالم قد غفاه اقفسار
- أضفى لعصف البلى في ريعه أثر * وللدموع على الآثار آثار
- يانار قلبى من نار لحرب وغى * شبت عليه ووافى الريح اعصار

يبدأ الشاعر في وصف حالة بغداد الكئيبة دون مقدمات فيذكر أنها أصبحت غامرة على عروشها من بعد أن كانت جنة الدنيا وقبلة الزائرين وطلاب الحاجات ، وقد هوى وزال عنها أجل ما كانت تفخر به وهى الخلافة العباسية التى برزت ولتها ولم يبق منها إلا الآثار التى تستجلب الدمع والأسى لما حل بمركزها - بغداد - من التدمير والحرق الذى أحرق القلوب حسرة وأسفا وأذهل النفوس مفعله أطعك التتر بأهل الاسلام من القتل والسبى وغيره فنجد الشاعر يفصل لنا هذه الوقائع في نهول من وقع المصيبة الذى أصابته :-

- هلا الصليب على أعلى منابرهما * وقام بالأمر من يحميه زمار
- وكم حريم سبته الترك غاصبة * وكان من دون ذاك الستر أستار
- وكم بدور على البدرية انخسفت ^(١) * ولم يعد لهدور منه ابصار
- وكم نائح أضحى وهى شائمة * من النهاب وقد حازته كسار
- وكم حدود أقيمت من سيوفهم * على الرقاب وحطت فيه أوزار

(١) البدرية : نسبة إلى بدر مولى المعتضد بالله ، والمواد بها قصور الخليفة المنصور ، جاء في تاريخ بغداد : ١٠٥ / ١ " وزاد بدر مولى المعتضد من قصر المنصور المسقطات المعروفة بالبدرية في ذلك الوقت " .

- ناديت والسبي مهتوك يجرههم * الى السفاح من الأعداء دمار .
- وهم يساقون للموت الذي شهيدوا * الفار يارب نضالها ولا الممار .
- والله يعلم أن القوم أغفلهم * ما كان من نعم فيهم انكار .
- فأهملوا جانب الجبار ان غفلوا * فجاءهم من جنود الكرج جبار .
- بالرجال لأحداث تعدثنا * بما فدا فيه اعذار وانذار .

ان البيت الأول يشير الى ارتفاع الصليب وهو شعار النصارى ، والواقع أن التتر لم يكونوا نصارى ولكن كان للنصرانية انتشار بينهم ، هروى أن زوجة هولاكو كانت نصرانية ، كما يبدو أنه كانت توجد صلات وتحالف بين الجانبين الأمر الذي دفع بعض المؤرخين الى القول ان حطة هولاكو طي المسراق اتخذت سمات الحرب الصليبية المظلمة . (١)

وقد ظهر أثر هذا التحالف عندما دخل التتر بغداد وعاشوا فيها قتلا وسلبا فانهم لم يصروا النصارى من أهلها بسوا ، بل ان بعضهم بيوتهم كانت مأمنا لجأ اليه أناس من المسلمين فنجوا من الهلاك والأمر الأكبر من ذلك كله أن هولاكو عندما دخل قصور الخليفة في بغداد وهب أحدها لطريقك النساطرة ليتخذوه مقرا وكنيسة ، وأغدق عليه المطايا (٢) والأجاس . ومثل هذا أيضا حصل عند فتح المخول للشام ، فقد كانت (٣) رسل هولاكو الى أهل البلاد من القسوس والرهبان . يقول ابن تغري بردى :

(١) هو فؤاد الصياد ، المخول في التاريخ : ص ٢٨٢ .

(٢) ستيفن ونسيان ، تاريخ الحروب الصليبية : ٥٢٢ / ٣ - ٢٢٥ . الترجمة العربية .

(٣) النجوم الزاهرة : ٨٠ / ٥ .

"وكان النصراني بدمشق قد شمخوا وتجروا على المسلمين ، واستخذوا السوا
بتردد التتار الى كنائسهم ، وذهب بعضهم الى هولاء كوجاءوا من عنده
بفرمان يتضمن الوصية بهم والا اعتناء بأمرهم ودخلوا بالفرمان وطلبانهم مرتفعة
وهم ينادون بارتفاع دينهم واتضاع دين المسلمين ، وورشون الغمر على
الناس وفي أبواب المساجد ."

هذه الرعاية من قبل التتار للنصارى في مقابل فعل الأفاعيل الشنيعة
في المسلمين زادت غيظ قلوب المسلمين وحزنهم وخاصة ذوو العاطفة
الشفافة والاحساس المرهف كشاعرنا أبو اليسر الذي يكاد يحترق بنار
الأسى وهو يرى الحرم المصونات تنتهب وتنتهك علانية والسيوف تقتلع
أعناق الناس دون تمييز ، والقصور الشامخة المعروفة بالبدرية تحرق وتنتهب
ثرواتها وذخائرها وترجع خرابا كان لم تغن بالأمر . في وسط هذا الرعب
النازل ، يصرخ الشاعر مبينا أن سبب هذه النقم هو غفلة الناس عن أوامر
الله ونسيانهم واجبات الاسلام حينما أبطرتهم النعم الوفيرة التي كانوا فيها ،
فسلط عليهم جبار السماء جبابرة الأرض الذين لا يرحمون فجعلوهم عبرة لمن
أراد الاعتبار .

ثم ينتقل الشاعر الى المقطع الأخير من القصيدة فيرثى آل بيت الخلافة
من بني العباس يقول :-

- من بعد أسر بني العباس كلهم * فلا أنار لوجهه الصبح اسفار .
- لم يحق للدين والدنيا وقد ذهبوا * شوق لمجد وقد بانوا وقد باروا .
- ان القيامة في بغداد قد وجدت * وحدها حين لا قبائل اديار .
- ال نبي وأهل العلم قد سبيوا * فمن ترى بعدهم تحية أمصار؟ :
- ما كنت آمل أن أبقى وقد ذهبوا * لكن أتت دون ما اختار أقمار .

ان الشاعر يأخذه الحزن على فقد الخلافة التي كانت شعارا من شعارات
الاسلام البارزه ونتج عن سقوطها أسر الخليفة العباس المستعصم بالله وجميع
أبنائه ونسائه الذين بلغوا سبعمائة شخص ، فاضطربت الأمور وماجت وكأأن
القيامة قد قامت في بغداد ، فالناس غير الناس ، والبلاد غير البلاد ، فلا
غربة أن نجد الشاعر يتمنى الموت ، ويأسف لبقائه حيا بعد أن ذهبست
عليه القوم من بني العباس . ولعله من الملاحظ على القصيدة غلوها من
الاستصراخ وطلب الفوت وذلك لأن حالة العالم الاسلامي لا يمكن معها ذلك
فالدولة الخوارزمية القوية سقطت من قبل - كما ذكرنا - وفي الشام الدولة
الأيمنية التي أصابها الهموم وانقسمت الى سبعة أقسام صغيره متناحرة بعضها
استقل عن مصر وبعضها ظل تابعا لها اسما ، وفي المغرب والأندلس
صراعات وحروب داخلية بالاضافة الى مواجهة غزوات النصارى الصليبيين .
(٢)

ورث بغداد - أيضا - الشيخ شمس الدين الكوفي بقصيدتين احدهما
نونيه والأخرى ميمية يقول في قصيدته الأولى :- (٣)
ان لم تقرح أدمعي أجفانسي * من بعد بعدكم فما أجفانسي .
انسان عيني مذ تناءت داركم * ماراقه نظرا الى انسان .
ياليتني قدمت قبل فراقكم * ولساعة التوديع لا أحيانسي .

(١) حافظ حمدي ، الشرق الاسلامي قبيل الغزو المغولي : ١٣٠ .
(٢) هو محمود بن أحمد بن عبد الله الهاشمي الحنفى الكوفي ، كان أدبيا
فاضلا وعالما شاعرا ، ظريفا كيسا اشتغل بالتدريس والخطابه ، وولد
سنة ٦٢٣ هـ وتوفي ٦٧٥ . أنظر : قوات الوفيات : ١٠٢/٤ . تحقيق
عباس .

(٣) القصيدة في المصدر نفسه : ٤٩٦/١ - ٥٠١ . تحقيق محمد الدين
عبد الحميد .

- مالى ولأيام شتت شطهم * حالى وغلانى بلا غلانى
- ماللمنازل أصبحت لا أهلها * أهلى ولا جيرانها جيرانى
- وحياتكم ما حلها من بعدكم * غير البلى والمهدم والنيران

ان أول ماتحه عند قراءة هذه الأبيات هو صدق عاطفة الشاعر
واخلاصه للقوم المراثين الذين فنوا وخلفوه من بعدهم رهين حزنه وانكساره
فهو لا يرى أنه يوفيههم حقهم من البكاء والندب حتى تتقرح أجفانه ، بل أنه
يتمنى الموت ليستريح مما يلاقى من الأحزان . وكيف لا يتمناه من بعد أن
أودى الدهر بأحبائه ، وشتت شطهم ، فترك هو منازلهم خالية من الأنيس
وبعد البلى تمحيث فيها هدماً واحراقاً . ولعله من الملاحظ تكرار فكرة تصنى
الموت عند شعراء رثاء الدول وبخاصة من يرثون الدول والمدن العظيمة -
كبغداد - عندما يحل بها الدمار الشامل والسقوط الذى ينتهى به عهد
وتنهى به حضاره . ثم ينتقل الشاعر الى الوقوف على ديار الراحلين وقد
تغيرت وخربت وجرى معها حواراً آسياً ينقلك الى ذلك الجو ويجعلك تشاطره
آلامه . يقول :-

- ولقد قصدت الدار بعد رحيلكم * ووقفت فيها وقفة الحيران
- وسألتها لكن بغير تكلسم * فتكلمت لكن بغير لسان
- ناديتها ياد ارمضع الألى * كانوا هم الأوطار فى الأوطان
- أين الذين عهدتهم ولمزهم * ذلّا تخشعوا معاقد التيجان
- كانوا نجوم من اقتدى فعلهم * ييكى الهدى وشعائر الأيمان
- قالت : غدا لما تبدد شطهم * وتبدلوا من عزهم بهوان
- كدم الفصاد يراق أرذل موضع * أبداً ويخرج من أعز مكان
- أفنتهم غير الحوادث مثل ما * أفنت قديماً صاحب الايوان

- لما رأيت الدار بعد فراقهم * أضحت معطلة من السكان .
- مازلت أبكيهم وألثم وحشة * لجمالهم مستهدم الأركان .
- حتى رثى لى كل من ما وجدته * وجدى ولا أشجانه أشجانى .

ان الشاعر حيران قد ملكت عليه الدهشة كيانه . وذلك عندما وقف على ربوع بغداد وهى دراسة بلاقع ، بعد ما كانت بالأمان القريب جنة غناء ، فراح يفضخ آلامه عن طريق حوار صامت مع تلك الديار التى أجابته بواقع الحال للـ بالمنطق والمقال . ان الذين كان عهد بهم طوك الدنيا الأعزاء ، وقدوة أهل الخير والتقى قد تبدد شملهم شذر مذر وأصابهم الذل بعد الحسز فعليهم تبكى الدنيا والدين فما أشبههم بعد انحطاط قدرهم بدم الحباقة الذى يخرج من رأس الانسان ويراى فى الأماكن القدره ، عندئذ يتيقن الشاعر أن القوم قد ساروا الى غير رجعه فيخر على بقايا آثارهم باكيا ومقبلا بحرارة شديدة استدرت عطف كل من لا يعرف الوجد والشوق ، وفى غمـار حالته هذه تسبح نفسه فى ما يشبه أحلام اليقظة فيقول :-

- أترى تعود الدار تجمعنا كما * كنا بكل مسرة وتمـان .
- ان نحن نغتم الزمان ونجتـنى * بيد الأمان قطوف كل أمانى .
- والدهر تخذ منا جميع صروفهـ * والوقت يعدينا على الحدوان .
- والعيش غصن والدنو ممـزق * بيد الوصال ملابس المهجران .

ولكنه بعد ذلك يصحول يجد ما يمتناه شيئا صعب التحقق لأن يد الحدثان قد أودت بالأحباب والاخوان فينقلب يائسا من الحياة لا يرى فيها نديما غير الحسرات والأعزان يقول :

- هيئات قد عز اللقاء وسدّت * طرق المزار طوارق الحدثان .
- مالى أريد ناظرى ولا أرى الـ * أحباب بين جماعة الإخوان .

- والمهفتى واوحدتى واحسرتى * واوحشتى وآخر ظمى المانىسى .
- سرتم فلاسرت النسيم ولا زهبا * زهد ولا ماست غصون البسان .
- مالى أنيس بعدكم غير البكى * والنوح والحسرات والأحزان .
- ياليت شمعى أين سارت ~~مهمكم~~ * أم أين مواطنكم من البلدان ؟

وأسلوب الشاعر سهل بعيد عن التعرّف فى المعانى والألفاظ تبرز من خلاله ثقافة الشاعر الأدبية ، وقد وصى قصيدته هذه بألوان من المحسنات كان أبرزها الجناس الذى استعمله تاما وناقصا - مشتقا - ويأتى بعد ذلك الطباق والمقابلة وغير ذلك ، ورغم اكثاره من هذه الأصناف فانك لا تجد فى القصيدة تكلفا ولا استكراها ، وقد بلغ الشاعر حدا كبيرا من التأشير ، واستطاع أن يطبع فى نفوس السامعين أو القارئین ما يحس به هو فى نفسه كما أنه لم يخرج عن أسلوب عصره الأدبى الذى كان مقياس الجودة فيه مقدار ما يأتى به الشاعر من الزخارف اللفظية والمحسنات البديعية وحسن الاقتباس والتضمين ، مع الإحاطة بالمعلومات والحوادث التاريخية . من الجدير بالذكر هنا أننا لا نلاحظ أثر ثقافة الشاعر الدينيّة - رغم كونه واعظا - فى هذه القصيدة فلم يأت فيها بأحاديث وقصص وعظية ، فى قالب شمعى ولعل اهتمامه بالزخرفة شغله عن ذلك .

أما قصيدته الميمية فيقول فيها :- (١)

- عندى لأجل فراقكم الالم * فالام أعذل فيكم والام .
- من كان مثلى للحبيب مفارقا * لا تعذلوه فالكلام كلام .
- نعم المساعد دمعى الجارى على * خدّى الا أنه نمام .
- وينيب روى نوح كل حمامة * فگانما نوح الحمام حمام .

(١) فوات الوفیات : ٤٩٧/١ . تحقيق محى الدين عبد الحميد .

فى هذا المصالح ييوس الشاعر بما فى نفسه من الألام لفقد الأحبة ، ويتبرم
بلوم اللاتمين **والعذال** الذين لا يقدررون حالته الحزينه ، التى يكشف عنها
دمعه الجارى ، وروحته التى تكاد تزهدق عندما يهيج وجدها نوح الحمام
وكما فى قصيدته السابقة عندما انتقل من وصف حالته وحزنه الى الوقوف
بالديار فانه يفعل هذا - أيضا - فى قصيدته هذه فيقول :-

- ان كنت مثلى للأحبة فاقدا * أوفى فؤادك لوعة وغرام .
- قف فى ديار الطاعنين ونادها * (ياد ار ما صنعت بك الأيام) . (١)
- أعرضت عنك لأنهم مذ أعرضوا * (لم يبق فى بشاشة تستام) . (٢)
- ياد ار أين الساكنون وأين نيد * ياك البها * وذلك الاعظام .
- ياد ار أين زمان ربك مونقنا * وشعارك الاجلال والاكرام .
- ياد ار مذ أفلت نجومك عننا * والله من بعد الضياء ظلام .
- فلبعدهم قرب الردى ، ولفقدهم * فقد الهدى وتزلزل الاسلام .
- فمتى قبلت من الأعادى ساكننا * بعد الأحبة لاسقاك غمام .
- ياسادتى أما الفؤاد فشقيق * طلق وأما أدمعى فسجام .
- والدار مذ عدمت جمال وجوهكم * لم يبق فى ذاك المقام مقام .
- لاحظ فيها للعيون وليس لـلا * أقدام فى عرصاتها اقـدام .

ان الشاعر قد عظمت مصيبيته بفقد أحيائه فى بغداد فهو لذلك لا يفتأ
يكبر ذكرهم وكأنه يتسلى بذلك ، وقد شغله مصير هؤلاء **الأحبة المنوعين**
وصف الدمار والخراب والاحراق الذى لحق بالمدينة ذاتها ، فكان رثاء رثاء
أشخاص فنوا لارثاء مدينة عظيمة هدمت ، وذوت حضارتها ، وحتى فى وقوفه
على أنقاض بغداد لم يصف تلك الانقاض وماحل بها ، وانما أعرض عنها

(١) ، (٢) المعجزان لأبى نواس . الديوان : ٥٤ . وعنده فعلت بدل
صنعت ، فيك بدل في .

لذهاب بهائها وأقول نجمها برحيل أولئك الأحاب الذين كانوا هم نور
الظلماء ، وكانت بهم بغداد روضا يانعا ، وقلعة الاسلام العصينة ، ومد
هذا يعمود الشاعر ليؤكّد صدق مودته ووفائه بعهد الظالمين الذي تركوه
عليه فيقول :-

- وحياتكم انى على عهد الهوى * باق ، ولم يخفر لذي نسام
- قد من حلال ان أردت سواكم * والحيث بعدكم على حرام
- يا غائبين وفي الفؤاد لبعدهم * نار لها بين الضلوع ضرام
- لا كتبكم تأتى ولا أغياركم * تروى ، ولا تدنيكم إلا حلام
- أقصتكم الدنيا على وكلمنا * جد النوى لعبت بي الأسقام
- ولقيت من صرف الزمان وجسره * مالم تخيله لى الأوهام
- ياليت شعري كيف حال أحببتي * وأى أرض خيموا وأقاموا ؟

ان القصيدتين تتشابهان من حيث الأسلوب والبناء والأفكار ، فالسجع
والجناس والطباق والتضمين وغيرها من المحسنات تزدهم في أبياتهما ازدهاما
شديدا بحيث يؤدي ذلك الى خفوت صوت العاطفة بعض الشيء ، فيذهب
بعضهم الى وصف الشاعر بالتكلف ، وهو محق في ذلك لأول وهلة ، ولكننا
لا بد أن نعامل الشاعر حسب العصر الذي عاش فيه ، والنظر الى أسلوب
ذلك العصر على أنه قيد قل من الشعراء من يستطيع الإفلات منه ، وهذا
تكون أحكامنا أقرب الى الصواب فنشير الى صدق عاطفة شاعرنا الكوفي وحسنة
انفعاله الذي يظهر رغم كثافة صنعه . أما من ناحية بناء القصيدتين فمطلعهما
يبدأ بوصف الآلام والأحزان التي يكابدها الشاعر وربما نلاحظ بعض الضعف
في مطلع القصيدة الثانية الذي قد يكون السجع والجناس سببين فيه ، وهو
قوله : عندي لأجل فراقكم الآم * فالآم أعذل فيكم والآم .

فهذه المباشرة التي تخلو من الایحا* (عندی لأجل فراقكم آلام) تشبیه
أن تكون ادعا* لآلام وليس احساسا حقیقیا بها ، وقد جاء بهذا الشطر
هكذا ليقع السجع بین آلام ، وآلام ، وآلام ، ثم ينتقل الى الوقوف
بديار الأحبة ومخاطبها ويكسب ويتلف على رحيلهم .

ويختم القصیدتين بالاستفهام الذي يفيد التمني المشرب بالیأس من
اللقاء :

یالیت شمعی أين سارت عیسکم * أم أين موطنکم من البلدان ؟ :
والثانية تختم بقوله :

یالیت شمعی کیف حال أحبتی * وای أرض خیموا وأقاموا ؟ :
أما أفكار القصیدتين فتتمثل فی حزن الشاعر واصراره على البکا* ، والاقامة
على عهد المحبة والوفاء* لأولئك الراحلین ، ثم ذكره لغير الحوادث وصروف
الدهر التي قصمت ظهره ، ومددت آماله فی العودة الى حیاته الأولى
بین الأحاب .

رثاء الشام :

بعد أن فرغ هولاء من تدمير بغداد وقتل أهلها مع خلیفتهم المستعصم
بالله المباسی صرف جهودہ لاحتلال الشام . ففي رمضان سنة سبع وخمسين
(١)
وستمئة تحرك الجيش المغولي الكبير من أذربيجان قاصدا الشام ، وما أن بلغ
مشارفها حتى أرسل هولاء رسلة الى الطک الناصر محمد بن قلاوون سلطان
حلب يطلب منه الاستسلام . وماجا* فی كتابه الى السلطان : " أجب
ملك البسيطة ولا تقولن قلاص المانعات ، ورجالی المقاتلات "

فلما سمع السلطان هذا الكلام خاف وهرب الى دمشق ، فقتل الأرميحه
الملك المعظم توران شاه ابن صلاح الدين ، حيث رفض تهديد المغول
وقال ليس لكم عندي الا السيف ، عندئذ تقدموا الى حلب وحاصروها ونصبوا
حولها عشرين منجنيقا وأخذوا يمحطونها بوابل من القذائف ، حتى
اضطرت الى التسليم ، فاستباحوها سبعة أيام قتلوا خلالها خلقا كثيرا -
امتألت بهم الطرقات وسبوا النساء والذرية ونهبوا الأموال وفعلوا أفاعيل
(٢) (١)
تقشمر لها الأبدان وهزت هذه النكبة الشاعر الحلبي ابن الحمير فقال :-

- هو الدهر ماتبنيه كفاك يهدم * وان رمت انصافا لدية فتظلم .
- أباد ملوك الفرس جمعا وقيصررا * وأصمت لدى فرسانها منه أسهم .
- وأفنى بنى أيوب مع كثر جمعهم * وما منهم الا طيبك معظم .
- وطك بنى العباس زال ولم يمدع * لهم أثرا من بعدهم ، وهم هم .
- وأعتابهم أضحت تداس وعهد ها * تباس بأفواه الملوك وتلثم .

-
- (١) هو كمال الدين عمر بن عبد العزيز الحلبي ، كان فقيها على مذهب
الامام أبي حنيفة وشاعرا مجيدا ، عاش في مدينته حلب ، ثم غادرها
الى مصر ثم عاد اليها وقد خربها التتار ، وتوفي فيها سنة ٦٦١ هـ ،
ومن مصنفاته : بغية الطلب في تاريخ حلب . انظر / تاريخ أبي
الفداء : ٢١٥ / ٣ ، السخاوي ، الضوء اللامع : ٩٣ / ٦ - ٩٤ .
- (٢) القصيدة في تاريخ أبي الفداء : ٢١٥ / ٣ . وقد ذكر بأنها طويلة
ولكني لم أشر على بقيتها فيما رجعت اليه من مصادر هذه الفترة من
الزمن .

يبدأ ابن المديم قصيدته بداية الحكيم المجرب المعتبر بفعل الدهر
في هدم أمجاد الأمم العظيمة ، ويأتى بأمثلة قديمة مثل دولة الفرس والسرور
وأمثلة معاصرة له كدولة بنى أيوب ودولة بنى العباس اللتين حكمتا العالم
الاسلامى على اتساعه حيناً من الدهر ثم فنيتا ولم يبق لهما أثر . ومنها : -
فيالك من يوم شديد لفاسه * وقد أصبحت فيه المساجد تهدم .
(١)
وقد درست تلك المدارس وارتمت مصاحفها فوق الثرى وهى ضخم .
وختمها بقوليه :

ولكنما لله فى ذا مشيئة * فيفصل فينا ما يشاء ويحكم .
هذا هو مقدار ما وصلنا من القصيدة وليس فيها ما يخفى وقعة حلب سوى
البيتين اللذين يصف فيهما شدة أهوال ذلك اليوم الذى هدمت فيه المساجد
والمدارس وديست المصاحف الشريفة بكيمات كبيرة الأمر الذى زاد المسلمين
ألماً فوق آلامهم الكثيرة . ويرى أن " هيتوم " ملك أرمنية الصليبي السذى
(٢)
تحالف مع المغول هو الذى استغل هذه الفرصة وأحرق جامع حلب الكبير
الذى جلّ من الوصف فى حسن الصنعة وبهائها .

وفى ختام قصيدته يرجع الأمر الى قضاء الله ومشيئته المتحققه لا محاله
فهو - سبحانه - المتصرف فى أمور عباده وخالده . ثم تقدمت جيوش المغول
نحو دمشق فأدرك أهلها أن لا طاقة لهم بالمقاومه . فتقدم وجهاء المدينة
الى هولاكو بالطاعة والانقياد وسلموه مفاتيح المدينة عندها دخل المغول
المدينة دون اراقة دماء الا ما كان من قلعة دمشق فانها استعصت على

(١) المدارس المذكوره كانت بحلب ملاصقة للجامع الكبير من الجهة الغربيه ،
ومن فوقها غرف ومساكن ولا يقل بناؤها روعة عن بناه الجامع / أنظر :
الروى المعطار : مادة (حلب) .

(٢) فؤاد الصياد ، المغول فى التاريخ : ٢٩٤ .

الفاحين فدكوها بالمجانيق حتى استسلمت فقتلوا حاميتها ونهبوا جميع ما فيها . ثم توجه هولاكو بجنوده نحو مصر ليتم له بفتحها السيطرة على العالم الاسلامي كله ، **وارسل** - على عادته - الى السلطان المملوكي قطر خطاب التهديد والوعيد اذا هونى المقاومة والتصدى ، ولكن ذلك السلطان الشجاع بعد استشاره قواده وبنوده صمم على الجهاد وصد المنول ، فقتل رسل المنول وخرج بجيشه بقيادة الظاهر بيبرس والتقى بالجند المنول بقيادة كتيبا نائب هولاكو الذي اضطرته ظروف ملكته في أطراف الصين السن (١) العودة اليها ، وكانت الوقعة العظيمة المسماة بمعركة عين جالوت في سنة ثمان وخمسين وستمائة فانهزم المنول هزيمة ساحقة لأول مرة في تاريخهم بعد أن كانت القلوب قد يثست من النصر عليهم . ووقع قائدهم في الأسر فضربت عنقه ، ثم تابع السلطان قطر سيره بالجيش حتى دخل دمشق ودخل البطل المنتصر وسط أروع مظاهر التقدير والاعزاز - وسار بيبرس الى حلب وطرد التتر منها وأذاقهم ماذاقوه للمسلمين من قبل ، وأدب النصاري عملاء المنول على ما اقترفت أيديهم من الآثام في حق المسلمين . (٢)

ومذلك بقيت بلاد الشام ومصر في مأمن من شر المنول ولكن الى حين عندما جدد المنول الكره في سنة اثنتين وثمانمائة في عهد تيمورلنك حفيد هولاكو الذي هاجم حلب في جيش كثيف واستباحها وقتل ما يقرب من عشرين ألف انسان ، ونهبها وهتك عرصاتهما في المساجد ثم زحف الى حماة وفعل بها مثل ذلك ثم أرسل تيمورلنك الى نائب دمشق رسولا فقتله النائب قبل

(١) هي بلدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين حدثت قربها المعركة

معجم البلدان مادة (عين) .

(٢) ابراهيم الحدوى : العرب والتتار : ١٢١ .

أن يسمع كلامه فهاجم المغول دمشق واستباحوها وهدموا مخانيها وخطيب

لهم على منابرهما فقال في ذلك بها^١ الدين البهاى : (١)

- لهفى على تلك البرج وحسنها * حفت بهن طوارق الحدثان .
- لهفى على وادى دمشق وطافه * وتبدل الخزلان بالــثيران .
- وشكا الحريق فؤادها لما رأت * نور المنازل أبدلت بدخان .
- كانت معاصم نهرها فضيـة * والآن صون كذاشب العقيان (٢)

يتحسر الشاعر على الدمار الذى حل بدمشق تلك البلدة الجميلة المبانى
والمنازل والوديان والتى أشعل المغول فيها النيران فتغيرت صفحة وجهها
وتبدل النور الساطع بالدخان المظلم وأصبحت الأنهار تجري دما بعد أن كانت
لجينا وذلك بسبب :-

- وماذاك الا تركهم ولجت بها * فتخضبت منها بأحمر قان .
 - كرهت جد اولها حوافر خيلهم * فتسابت هربا كخيل رهان .
- بعد ذلك ينتقل الى وصف ما حل بدمشق ومعالها البارزة كالمساجد
والقصور وغيرها فيقول :-

(١) هو على بن عبد الله الخزطى الدمشقى ، أصله ملوك تركى اشتراه من
يسمى بها^١ الدين فنسب اليه أديب وشاعر تردد بين القاهرة ودمشق
وفيها مات سنة ٨١٥ هـ ، من مصنفاته : مطالع البدر ومنازل السرور .
انظر السخاوى ، الضوء اللامع : ٢٥٤ / ٥ ، الياس الدبس ، تاريخ
سوريا : ١٥٧ / ٦ .
والقصيدة فى : كرد على ، خطط الشام : ١٧٢ / ٢ - ١٧٣ .
(٢) العقيان : الذهب .

- لوعاينت عيناك جامع تنكز * والبركتين بحسبها الفتسان . (١)
- وتعطش المرجين من أرواحها * وتهدم المحراب والايوان .
- لأت جفونك بالدموع ملوفا * دمعاً حكي اللوط على المرجان .
- قطرات جفنى ترجمت عن حرقى فكانهن قلائد المقيان .
- أبنى أمية أين يمن وليدكم * والمفل تفتل فى ذرى الأركان .
- شربوا الخمر بصحنه حتى انتشروا : ألقوا عرابدهم على النسوان .
- لمفى على كتب العلوم ودرسه : صارت معانيها بغير بيان .

ان ما زاد حرقه الشاعر وألمه تركيز أولئك التتر الوحوش على ازالة معالم الاسلام ممثلة بالمساجد فقد أهدروا قدسيتها وكرامتها فهدموا محاريبها ومنابرها وخاصة الجامع الأموى الذى بناه الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى وورثه بالجواهر الثمينة حلاًه بالزخارف البديعة ، وقد اتخذ هذه المفل مجالا للسكر والمريدة بعد ا احراق مصاحفه والقضاء على عباده والمجاورين فى زواياه ولم يكتفوا بذلك بل أظفوا كل ما وصلت اليه أيديهم الخبيثة من كتب العلوم المختلفة التى كانت دمشق منارا يشع بها النور العالم . وفى غمرة هذا المصاب الجلل يتذكر الشاعر ماجرى للمدن الشامية الأخرى كحماة وحلب فيقرنهما بدمشق لتكون دموعه أغزر عليهن معا :-

- أعرو سنا لك أسوة بحماتنا * فى ذا المصاب فأنتما أختان .
- غابت بدور الحسن عن هالاتها * فاستبدلت من عزها بهوان .
- ناحت نواخير الرياض لفقدهم * فكانها الأفلاك فى الدوران .
- حزنى على الشهباء قبل حماتنا * هو أول وهى المحلل الثانى .

(١) جامع تنكز : ينسب الى بانيه (تنكز) الذى كان واليا على دمشق من

سنة ٧١٢ - ٧٣٨ هـ / خطط الشام : ٧٤ / ٦ .

(٢) الشهباء : هى حلب .

لا تدعى الأحران يا شقراءنا * السيف للشهباء في الأحران .
 وقعت كلاب المضل في غزلا نهما * وتحكمت في الحور والسودان .
 لهفى عليك منازلنا ومنازلهما * ومقام فردوس وان جنان (١) .
 ان مدينة حلب الشهباء هي أول ماسقط في أيدي المغول واستبيحت
 بفضاعة فهي أول مايكيه الشاعر ثم تبعتها حماة التي ناحت نوايرها
 الشهيرة على فقد أهلها وتبدل عزهم ذلا وقهرا ثم عظمت المصيبة بسقوط
 دمشق ، وقد رثاهن الشاعر كوحدة متسلسلة لا انفصال بينها وان كان
 رثاؤه لمدينة دمشق أشد وأعمق . وعلى العموم فأسلموه سهل فيه رقه مع
 العناية بالصناعة والزخرفة .
 (٢) (٣)
 ويقول الأوتاري في رثاء دمشق أيضا :-

لك علم بما جرى ياسهبادي * من جفوني على افتقاد رقادي .
 لم أجد عند شدتي مؤنسالى * غير سهدى ملازما السوادي .
 وحبيب المين الرقاد جفاها * مذ رأها حليفة الأنكاد .
 يبدأ الشاعر قصيدته بهذا المطلع التقليدي الذي يشكو فيه ما أصابه
 من الهم والحزن حيث جفاه الرقاد ، ولا زمه الأرق والسهاد حتى ألفه وصار
 يأنس به ، ومن حالته تلك يتوجه الى دمشق معزيا :-

- (١) مقام فردوس : من أبواب دمشق ، باب جنان : من أبواب حلب / انظر
 الروي المعطار : ماده (دمشق) .
 (٢) هو أبو الحسن علاء الدين الدمشقي ، قيل انه من قريش . كان يشتغل
 بصناعة الطب ، وله في ذلك كتب ومؤلفات ، توفي في آخر القرن العاشر
 انظر تاريخ سوريه : ٣٢٨/٦ .
 (٣) القصيدة في نهاية الأرب : ٢٢٧/٥ - ٢٢٩ ، عمر موسى باشا ،
 أدب الدول المتابعة : ٥٢٩ .

- أحسن الله ياد مشق عزاك * في مفانيك ياعساد البسلام .
- مرستاق نيرييك مع المزر * ة مع رونق بذاك السوادى . (١)
- وأنس بقاسيون وناس * أصبحوا مغمنا لأهل الفساد . (٢)
- طرقتهم حوادث الدهر بالقتل * ونهب الأموال والأسلاد .
- ونبات محجبات عن الشمس * ستنات بهن أيدي الأعادى .
- وقصور مشيدات تقصصت * في ذراها الأيام كالأيام .
- وميوت فيها التلاوة والذكور * روعالى الحديث بالاسناد .
- حرقوها وخربوها وسادات * بقضاء الله رب العباد .
- ولكم سرورها حوى من معنى * مقرح القلب والحشى والفؤاد .
- ان بكى لا يفيدته أو تشكوى * وجد المشتكى حليف سهاد .
- يشتكى فوق ما اشتكاه بأضعاف * ف فيغدو وهمه في ازدياد .
- فالخلا والجلال مع الجوع والعمر * ي ونهب الأقليات والأزواد .
- والحصار الشديد والحبس والغور * ف مع السادة المرأة المكادى . (٣)

(١) رستاق نيرب : قرية مشهورة على نصف فرسخ من دمشق ، تقع فى أنزه موضع تحف بها البساتين ويقال أن فيها مصلى الخضر عليه السلام

معجم البلدان : ماده (نيرب) .

المزة : قرية كبيرة غناء من قرى دمشق / المصدر نفسه (المزة) .

(٢) قاسيون : جبل يشرف على مدينة دمشق ، فيه عدة مغاور فيها آثار الأنبياء ، وفى سفحه مقبرة أهل الصلاح ، وأهل دمشق يعظمون هذا الجبل ، ويسكن فى كهوفه كثير من العباد والزهاد . / معجم البلدان مادة (قاسيون) .

(٣) المكادى : اللصوص والمحتالون ، والكدية فى اللغة تعنى الأرض الصلبة

وسمى هؤلاء بذلك لصلابة وجوههم . / اللسان (كدى) .

اننا نحس أن الشاعر يرسل بتمزيته من بعيد ، فأسلوه لم يكشف عن
عاطفة قوية ، وانفعال يشمرك بالتأثر الحقيقي ، والانصهار في تمثل التجربة
التي مربها ، فهو دمشق وشاهد للحوادث **المنجعة** ورغم ذلك يقول :
أحسن الله ياد دمشق عزاك " فهو يعزى دمشق بقراها ومرافقها التي شطها
الخراب ، ودمشق في الواقع هي المدمرة المستباحة التي كان الواجب على
الشاعر أن يبيكها لا أن يعزبها . والشاعر في رثائه للناس الصالحين الأبرياء
وفي أسفه للنسوة المصونات اللواتي وقعن في أيدي الأعداء ، وذقن الهوان
والذل بعد العز في نرى القصور الشامخات ، في ذلك كله لا يرسم صوراً
وظلالاً من خلال شرحه لوحشية التتر واستهتارهم بالدماء والحرمان ، وإنما
يقول : " طرقتهم حوادث الدهر " وفي وصفه لحالة الناس
المحاصرين داخل الأسوار نجده يقف عند المظاهر العامة كالجوع والشكوى
والخوف والعز الخ ولم يحاول تحليل النفوس والدخول إلى
أغوارها ، وربما كان لاهتمامه بالمنحمة البلاغية أثر في صرفه عن ذلك . ويرز
الجانب الديني عند الأتاري بوضوح عندما يتحدث بحزن عن الأماكن ذات
القدسية كجبل قاسيون أو عند ذكره لتلك البيوت التي كانت تعج بالآيات
والأحاديث ثم أقفرت وخربت وسرعان ما يرجع إلى الحقيقة الأليمة المتمثلة
بقضاء الله الذي يقدر ما يشاء على من يشاء .

ثم تلتهمب مشاعر الشاعر حينما لا يجد نصيراً إلا رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - فيذهب يستشفح به في لون من الوجد الصوفي الملتهمب :-
ياترى هل لكرنا من مجير * أم لتشديد أسرنا من مفادى (١)

(١) تشديد الأسر : المد بأسباب القوة ، وهو مقتبس من قوله تعالى :
(نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً)
سورة الانسان ، الآية ٢٨ .

- لست أرجو غير البشير شفيصا * عند ربي في المن والنجاد .
- فهو الصادق الذي وعد الديـ * ن ينصر جار على الآبـ
- غير أن الفساد يكسب ذلا * ويحى الفساد طرق السداد .
- وارتكاب الفساد يورث فقرا * وخراب البيوت عقبى الفساد .
- يا حبيب الاله قد سنا الضـ * ر فجد بالاسعاف والاسماد .
- يا حبيب الاله تبنا الى اللـ * ه وأنت العماد حتى الماد .
- من الأسرى كسرى حيارى دهـ * ه همتهم جيا د أهل المناد .
- منهم الطفل والصبية والشـ * ب ينادى فمن يجيب المنادى .
- وينادى عليهم برغيفـ * وبنزيرٍ يخس بسوق الكساد .
- عوضوا عن سرورهم بغـ * وقصور البلاد سكنى البوادى .
- وأهل الوداد شر أناس * ولين المهاد شوك القتاد .
- أى عين عليهم ليس تبكـ * أى قلب عليهم غير صـ
- فلا أنت الرحيم قلبا ولبـ * ولأنت الهادى لسبل الرشاد .
- ولأنت البديع خلقا وخلقـ * ولأنت السميع للانشاد . (١)

(١) كان الأولى أن يتوجه الشاعر بدعائه الى الله - سبحانه وتعالى - دون واسطه ، غير أن الصوفيين لغموض فلسفتهم يكثر من التوسل بالرسول - عليه الصلاة والسلام - بخلو شديد ، حتى يتصوروا أنهم فى حضرة - وأنه سامع لما يقولون وقادر على النفع والنصر فى هذه الدنيا على الرغم من وفاته واعتقادهم هذا مخالف لنصوص الاسلام الصحيحة .

وهكذا يستمر في مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - الى نهاية القصيدة
والشاعر هنا يشير الى الفساد الذي انغمس فيه الناس ، وتنكبهم لطرق الخير
والسداد حتى جلبوا لأنفسهم الذل والعار والدمار ، ومع هذا فهو مطمئن
الى أن عاقبة الدين الى نصر ، لأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد
عد بذلك اذا صلحت نفوس الناس وأعمالهم ، ولذلك نرى الأوتار ييسار
الى اعلان التهمة بين يدي الله سائلا اياه - بواسطة رسوله - أن يطفئ
بقومه الذين وقعوا في أسر المخول وخاصة الأطفال والنساء والصبيان
الذين يباعون كالرقيق بثمان بخس .

وأسلوب القصيدة سهل ، ومعانيها واضحة مطروقة ليس فيها ابتكار ،
وقائلها لم يكن من الشعراء المشتغلين بالشعر ، وانما هو رجل شهد نكبة
وطنه ، وتشرد قومه ، فهاله ذلك المشهد وجادت قريحته بهذه
القصيدة .

الباب الثاني

الشعر العربي ورثاء الأندلس والمغرب

توطئه : منذ أن دخل عبد الرحمن الداخل الى الأندلس وأصبح أميراً لها في سنة ثمان وثلاثين ومائه أخذ يخطط ويدبر لاقامة دولة أموية قوية منفصلة عن الخلافة العباسية في كل شيء . وقد كان هذا الرجل ذا هممة عالية وطموح وثاب مع عزم وحزم صارمين . فاستطاع أن يجند الجيوش الجرارة لحماية امارته من العدو وان الخارجى المتمثل بقوات الفرنج النصارى الذين أزعجهم أشد الازعاج قيام قوة فتيحة بجوارهم فأخذوا يتعينون الفرس لضعافها ، واتخاذ الوسائل لمهاجمتها ، كما قاموا بتحريض العناصر الثائرة في الداخل ومدّها بوسائل القوة الممكنة وقد تجلّى ذلك عند ما تمردت شردمه من أهل مدينة سرقسطه على حكم عبد الرحمن الداخل وطلبوا معونة النصارى فجرد ملكهم شارلمان جيشاً وفزاً سرقسطه ولكن جيش الداخل تصدى له ورده خائباً . (١)

ويحد أن توطئ أمر الحكم للداخل ، واستطاع أن يضبط أمور مجتمعه على اختلاف طبقاته وأجفاسه انصرف الى الناحية العمرانية الحضارية فأنشأ في قرطبه - عاصمته - داراً لضرب النقود الاسلامية وبنى فيها مسجدها الجامع الذي يعد من أبرز المنشآت العمرانية في الأندلس عامة . (٢)

وانتشرت العلوم الاسلامية وازدهرت وخاصة الفقه على مذهب الامام الأوزاعي ثم مذهب الامام مالك وظهر في الأندلس جلة من الفقهاء كان لهم مكانة مرموقة في الدولة وبين الناس . (٣)

(١) عبد الرحمن الحجى ، التاريخ الأندلسى : ٢٢٥ .

(٢) عنان ، دولة الاسلام في الأندلس : ٨٥ / ١ ، ابن عذارى ، البيان

المغرب : ٢٢٤ / ٢ .

(٣) انظر ، ابن الفرضى ، تاريخ طلماء الأندلس : ٢٠٢ / ١ - ٢٠٤ .

وقد سار الأمراء الأمويون الذين خلفوا الداخل على نفس سياسته فوسى القوة والحزم والاهتمام بمرافق الدولة المختلفة فشجعوا العلم والأدب فكثرت العلماء والشعراء والكتاب وانتشرت معاهد التعليم ومدارسه وأصبحت اللغة العربية هى لغة العلم والثقافة حتى فى معاهد النصارى واليهود الذين أسلم منهم الكثير بعد دراستهم للإسلام بلغته الأصلية . ثم تحولت الامارة فى الأندلس الى خلافة على يد عبد الرحمن الناصر سنة ست عشرة وثلاثمائة وقد امتد حكمه أكثر من نصف قرن بلغت الأندلس خلاله أقصى ازدهارها السياسى والحضارى ، وفدت مركزاً تركز اليه الأنظار سواء فى ذلك حكام الدول الأوربية الذين سعوا الى كسب ود الأندلسيين ورضاهم أو طلاب العلم الذين وجدوا أنفسهم مشغولين نحوها بحثاً عن فنون العلم المختلفة .

(٢)

قال ابن خلدون عن الناصر : " ومدت اليه الأم النصارانية من وراء الدروب يد الانعان ، وأوفدوا عليه رسلهم وهداياهم من رومية والقسطنطينية فى سبيل المهادنة والسلم والاعتمال فيما يعين فى مرضاته ووصل الى سدته الطوك من أهل جزيرة الأندلس المتأخمين لبلاد المسلمين بجهات قشتالة ونبيلونة وما ينسب اليها من الثغور ، فقبلوا يده ، والتصوا رضاه " .

(٣)

ويقول ابن الأبار - أيضاً - " أذن له طوك الروم وغبوا فى مصاهرته " .

(١) اتخذ هذا الاجراء الأمير هشام الأول خليفة عبد الرحمن الداخل

سنة ١٨٠ هـ أنظر : عنان ، دولة الاسلام فى الأندلس : ٢٢٩ / ١ .

(٢) المعبر : ٢٩٩ / ٤ .

(٣) الحلة السيرة : ٢٦٩ / ١ ، وفى النفج ٣٥٤ / ١ روايات مشابهة .

ثم توفي الناصر بعد أن ترك الأندلس مستقرة موحدة آمنة الحسد و
رضخ لقوتها حكام الشمال الأسباني وغيرهم ، وخلفه ابنه الحكم المستنصر
فأكمل مشاريع البناء والازدهار ، وعرف بحبه الشديد للعلم وأهله وقد كان
هو نفسه عالما كبيرا ، جلب الكتب من البلاد الإسلامية هذل فيها الأسوال
الكثيرة وكان شجاعا يقود الجيوش بنفسه لرد المعتدين ، وبعد حكم
دام ست عشرة سنة توفي الحكم وتولى بعده وليده هشام الطقرب (المؤيد
بالله) البالغ من العمر احدى عشرة سنة وذلك سنة ست وستين وثلثمائة
ومخلافه هذا الصبى تتبدل أحوال الأندلس وتضطرب لعجز المؤيد عن
النهوض بأعباء الحكم فى دولة كالأندلس . وكادت الفتن تعصف بالخلافة
لولا أن قيى الله لها رجلا قويا هو المنصور بن أبى عامر الذى استطاع أن -
يحجر على هشام المؤيد ويكون هو الحاكم الفعلى للبلاد باسم هشام وكان
رجلا حازما داهية يثنى عليه المؤرخون لشجاعته وكثرة غزواته . وبعد موته
حكم ابنه المظفر ثم ابنه عبد الرحمن الطقرب (شنجول) ومقتله تنتهي
الخلافة فى الأندلس ويبدأ عهد الفوضى والتنازع ويبدأ الانهيار التدريجى
لصرح المجد العظيم الذى شاده أبطال الاسلام . فمنذ بداية القرن الخامس
الهجرى الذى يسمى فى الأندلس بعصر طوك الطوائف بدأت خيوط المأساة
تتضح بسقوط المدن الإسلامية بيد النصارى واستمر هذا التساقط خلال
العصور التى تلت هذا العصر ليشمل معظم المدن والحصون وتأتى المرحلة
الأخيرة المروعة بسقوط غرناطة آخر المدن الإسلامية فى نهاية القرن التاسع

(١) انظر : ابن خيرة الاشبيلى ، ربحان الألباب وريحان الشباب ، لوجه :
١٣٩ . قال (والروم تعظم قبره لشجاعته) ، ابن بسام ، الذخيرة :

ويمكن القول انه تخلل هذه المدة التاريخية الطويلة المظلمة فترات مضيئة
نعمت فيها الأندلس بالأمن والرخاء وخاصة في عهد المرابطين والموحدين
حيث استعادت بعض المدن الأندلسية المحتلة ولكن هذا الوضع لم يدم
طويلا لوجود العدو المتربص (النصارى) الذى تدفعه روح صليبية لارجاع
الأندلس الى النصرانية ، فكانت الغارات تتوالى بشدة على الأندلس من
جبهاتها المختلفة . الأمر الذى يتطلب وجود قوة كبيرة دائمة فى الأندلس
وذلك من الصعوبة بمكان بالنسبة لحكام المغرب من المرابطين أو الموحدين
أما قوة الأندلس الذاتية فهى قد وهنت بعد زهاب الخلافة الأموية
بسبب النزاع والحروب الداخلية بين الأمراء الطامعين الذين نالوا من قوة
البلاد وساهموا فى سقوطها أكثر مما فعله العدو الخارجى .

والواقع أن مأساة الأندلس من أشد المآسى التى وقعت فى التاريخ فهى
تحطم حضارة زاهرة ومعالم اسلامية ، وأمة فقدت سمات حياتها الدينية
والفكرية والحضارية ، فقد مست النكبة كل شئ ، مست الأرض التى رزق عليها
قوم حرورها من الظلم والقهر ونشروا فيها نور الاسلام وضياءه ، الأرض التى
تمكن حبها من أعماق الأندلسيين ، وامتزجت ظلالها وأنهارها ، وأشجارها
وكل شئ فيها بأرواحهم ودمائهم . كما مست النكبة الدين فى معالمه
الكثيرة . . . فى مساجده ومآذنه ومحاريبه ومست مفاهد النور والعلم
ومراكز الاشماع ، وحولتها الى أطلال ورسوم يؤمها الجبل والظلام . ومست
الانسان الأندلسى من خلال تلك المذابح والمجازر الرهيبة التى كان يقوم
بها العدو الصليبي ضد العجزة والأطفال والنساء . ولقد تتبع الشعراء
الأندلسى هذه المحن والنكبات مسجلا مراحلها ، مغلدا شعور الأندلسيين
فيها ، معبرا بالدمع والدم عن تلك الاحساسات الصادقة العميقة التى قلل
نظيرها فى الأدب العربى ككل .

وتسهيلا للدراسة ، وحرصا على استقصاء المادة الشمرية قسمت أشرطة الرثاء التي جمعتها الى رثاء مدن ، ورثاء ممالك ، وشعر استخانة واستصراخ وشعر في رثاء الأندلس عامه حينما غربت شمسها أو كادت ولم أراع في هذا التقسيم التسلسل التاريخي لاختلاف الأحداث وتقاربها فربما سقطت اشارة أو ملكة قبل مدينة أو سقطتا معا أو استرجعت مدينه بعد سقوطها ثم أخذت مرة أخرى ولهذا لجأت الى التقسيم حسب الموضوع ، فلاحظ أن تجد في هذا الباب قصيدة في رثاء مدينة سقطت في القرن السابع تقدمت على رثاء اماره سقطت في القرن الخامس وهكذا .

الفصل الأول : رثاء المدن :-

الفتنة البربرية وتدمير قرطبة ، ذكرنا فيما تقدم كيف آل أمر الخلافة (١) الأموية الى هشام المؤيد الذي كان صبيا صغيرا وكيف استطاع المنصور بن أبي عامر أن يتولى الأمور في قرطبه وأن يحجر على هشام ويستبد دونه حتى غدا هو الخليفة الفعلي وان لم يحمل هذا اللقب ، ولا نبعد عن الصواب ان قلنا ان حكمه يعتبر بداية لعهد جديد ودولة جديدة وخاصة عندما أصبح

(١) هو محمد بن عبد الله بن عامر بن عبد الملك المصافري ، وجد عبد الملك هذا كان من أول الداخلين مع طارق الى الأندلس من المغرب ، تولى قضاء كورة ريه أيام الحكم بن الناصر فأبدى همة وعزيمة فأضيفت اليه ولاية الشرطة والسكة مقرونة بقضاء اشبيلية ، فعلت حالته وعمر بابيه وكانت السيدة صبيح زوجة الحكم تشطه برعايتها لحسن خدمته لمها . فلما مات الحكم دعه ليكون وزيرا لابنها الضعيف هشام المؤيد ، فاستبد بالأمر بداهته وتلقب (بالحاجب المنصور) وجعل الحكم في أبنائه من بعده ، حتى كان هناك ما يسمى بالدولة العامرية ضمن الخلافة المروانية . / الذخيرة : ق ٤ ، ج ١ ، ص ٦٠ ، ٦١ .

أبناءؤه يتوارثون منصبه من بعده وبالرغم من قوة الرجل وشجاعته في الجهاد وعدله وحسن سياسته واطهاره هيبة الأندلس التي كادت تضعفها الحوادث ورغم ذلك فانه وجد من يعارض حكمه ويعتبره مفتعبا للخلافة والحكم ولا أدل - على ذلك من قول الشاعر يستثير بني أمية ضده :- (١)

فيما أرى عجباً لمن يتعجب * جلت مصيبتنا وذاق المذهب .
اني لا كذب مقفى فيما أرى * حتى أقول غلطت فيما أحسب .
أكون حيا من أمية واحد * ويسوس ضخم الملك هذا الأحـب .
تمش عساكرهم حوالى هودج * أعواده فيهن قود أشهب .
أبنى أمية أين أقمار الدجى * منكم والوجوهها تنفيس . ؟ :

ان هذه الأبيات تظهر نوعاً من التبرم بحكم ابن أبى عامر لدى الناس وخاصة أنصار بني أمية أصحاب الخلافة الشرعية . ولكن حزم ابن أبى عامر وكرمه الفياض واصطناعه للرجال كان حائلاً دون النيل منه ومن خليفته عبد الملك المظفر ولده . ثم تولى بعدهما ولده الآخر عبد الرحمن المطقب ب (شنجبول) وكان جاهلاً عابثاً اتخذ بطانة سوء أثرته ~~بالتضييق~~ على هشام المؤيد وطلب ولاية العهد منه والفعل تم له ما أراد وكتب الخليفة المستضعف كتاباً بذلك أشهد فيه طبقات أهل قرطبه على تولية عبد الرحمن ولاية العهد ، وقرأ الكتاب على العامة ، فأحدث استياءً بالغاً جعل طبقات الشعب تبحث عن يقودها لقلب الدولة العامرية وازهاقها وتم ذلك على يد أحد رجال الدولة الأموية وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب : ٢ / ٢٨١ .

(٢) انظر أخبار هذه الفتنة في المصدر السابق : ٣ / ٤٠ وما بعدها .

المطرب بالمهدى الذى استغل غيبة شنجول عن قرطبة فى غزوة الى نواحي
طليطالة ودخل قرطبة بجيشه فأيده الناس ، فمضى بمن معه الى الزاهره
مدينة ابن أبى عامر فنهبها ثم هدمها ودخل قصر الحكم بقرطبة وقبض على
الخليفة المؤيد الذى سرعان ما تنازل عن الخلافة وبايع المهدى بها ثم
تتابع الناس من بعده بالبيعة وانفضوا من حول شنجول ثم قبضوا عليه أخيرا
وجزوا رأسه وطافوا به سنة تسع وتسعين وثلاثمائة وهكذا ينتهى نفوذ بني
عامر فى قرطبة ولم تهدأ إلا حوال بعد ذلك بل اشتعل الصراع داخل البيت
الأموى نفسه حيث ظهر أموى آخر هو سليمان بن حكم بن الناصر وجمع حوله
أشتاتا من البربر الذين رفض المهدى أن يقربهم ويجعلهم من جيشه لكرامية
أهل قرطبة لهم ، فبايع هؤلاء سليمان بالخلافة ولقبوه بـ " المستعين بالله "
ووصل الأمر بهم الى الاستنجاد بالنصارى المتربصين بزعامه ملكهم (شانجه
بن فردلند) الذى جهز جيشا كبيرا ودخل قرطبة مع البربر والمستعين وهزموا
المهدى وولى هاربا ، واستغل النصارى هذه الفرصة فاستباحوا قرطبة
ودمروها وقتلوا ما يقرب من ثلاثين ألف انسان فكانت هذه الواقعة أول شارات
النصارى من المسلمين ، كما كانت بداية سيئه لعصر جديد ساهم مساهمة
فعالة فى ضياع الأندلس كلها ذلك هو عصر طوك الطوائف الذى وصف مؤرخ
الأندلس ابن حيان سنيه بقوله : " ستمينا شدادا نكدات ، صغابا
مشثومات ، كرميات المبدأ والقاتع ، قبيحات المنتهى والخاتمه ، لسم
يعدم فيها حيف ، ولا فورق فيها خوف ، ولا تم سرور ، ولا فقد محذور " .

(١) ابن عذارى ، المصدر السابق : ٥١ / ٣ .

(٢) الذخيرة : ق ١ ، ج ١ ص ٣٦ .

(١)

وفى رثاء قرطبة المنكوبة يقول ابن شهيد الأندلسي :-

ما فى الطول من الأحبة مخبر * فمن الذى عن حالها نستخبر ؟ (٢)

لا تسألن سوى الفراق فأنسه * ينبئك عنهم أنجدوا أم أضروا .

جار الزمان عليهم فتفرقوا * فى كل ناحية هاد الأكرثر .

جرت الخطوب على محل ديارهم * وطيهم فتغيرت وتفسروا .

يقف الشاعر وقفة حزينة فى طول أحبته التى أصبحت خاوية لا يجد

فيها من يسأله عما حلّ بها وأهلها ، وهو هنا إنما يسائل نفسه لأنه على

علم بما حصل لبلده - قرطبة - وإنما فعل ذلك لبيان الذهول الذى أصابه

عند مشاهدته لمدينته المدمّره . لذلك نراه يرجع الى نفسه ليستيقظ

على الحقيقة الواقعة بأن ذلك من فعل الزمان الذى طرقت خطوبه

المدينة فغيرت أحوالها من الازدهار الى الانهيار ، وفعل الفراق فعله

فى تشتيت أهلها شذر مذر بعد أن فنى أكثرهم فلمثل هذه الحالة يحق

للشاعر أن يستقل غزير البكاء ، وخاصة أنه ذاق فى هذه البلدة حلاوة

(١) هو أبو عامر أحمد بن أبي مروان عبد الملك بن شهيد ، من أشجع

وهو بطن من قبيلة فطمان الصربية ، كان جده عبد الملك وزيراً للخليفة

عبد الرحمن الثالث ، وأول من تلقب بذي الوزارتين فى الأندلس . ولد

أدينا فى خلافة هشام المؤيد والأمر يومئذ بيد ابن أبي عامر فعماش

فى كنفه عيشة راضيه شطرا من حياته حيث كان أبوه نديما خاصا لابن

أبي عامر . نشأ محبا للأدب والشعر ، ومنع فى ذلك حتى أصبح فى

الذروة من شعراء الأندلس وكتابها . من آثاره ديوان شعر ، "رسالة

التوابع والزوابع" ، كتاب "كشف الدك وإيضاح الشك" ، و"حانوت عطار"

وغيرها . توفى بدا ٤٢٦ هـ / أنظر : الفتح بن خاقان

مطمح الأنفس : ١٦ ، ابن دحية ، المطرب : ١٧٤ ، ابن سمييد

المغرب : ٧٨/١ .

(٢) القصيدة فى ديوان ابن شهيد : ١٠٩ - ١١١ .

المعيش وتنعم في ظل قصور الحكم أيام بني عامر يقول :-

- فلمشل قرطبة يقل بكاء من * بيكي بحين دمعها متفجر .
- دار أقال الله عشرة أهلها * فتبرروا وتغربوا وتمصروا .
- في كل ناحية فريق منهم * متفطر لفراقها متحسر .
- عهدى بها والشمل فيها جامع * من أهلها والمعيش فيها أخضر .
- ورياح زهورتها تلوح عليهم * بروائح يفتقر منها العنبر .
- والدار قد ضرب الكمال رواقه * فيها وياح النقص فيها يقصر .
- والقوم قد أمنوا تغير حسنهم * فتعمموا بجمالها وتآزروا .
- يا طيبهم بقصورها وغدورها * ومدورها بقصورها تتخدر .
- والقصر قصر بني أمية وافر * من كل أمر والخلافة أوفر .
- والزاهرية بالمراكب تزهر * والحامية بالكواكب تعمر . (١)
- والجامع الأعلى يفيض بكل من * يتلو ويسمع ما يشاء وينظر .
- ومسالك الأسواق تشهد أنها * لا يستقل بسالكها المحشر .

يرجع الشاعر بذاكرته الى الماضي القريب حيث كان شمل الأحياء بقرطبة مجتمعا وعيشهم بها رغدا . يفتخرون بها على سائر البلاد ، فهي درة جبين الحضارة تزهب بعمرائها ومنشأتها العامة والخاصة ومشوارعها الواسعة المضاة بالقناديل ، وحدائقها التي تتمايل مزهرة شديه ولا عجب أن تكون قرطبة كذلك فهي قصبة الطك ودار الخلافة في وسطها يقع قصر الخلفاء الأمويين الضخم وقربها تقوم مدينة الزاهرة التي بناها المنصور بن أبي عامر صالح في تحسينها لتنافس قرطبة نفسها وفي هذه المدينة أطلق ابن شهيد

(١) الزاهرية : قصد بها الزاهره ، وهي الحامية من مدن الدولة الحامية وقد أحرقها البربر سنة ٤٠٣ هـ في فتنة قرطبة . / ابن عذاري ، البيان المغرب : ١٠١ / ٣ .

(٢) انظر وصف قرطبة في النفج : ٤٥٦ / ١ ، عبد الرحمن الحجي ، أندلسيات ١٦١ / ٢ .

لسانه في المديح ، وجرّسسته في البطالة واللهم . ولا ينسى في هذا المجال
جامع قرطبة الكبير الذي تتابع طيه الخلفاء بالزهادة والتحسين حتى غدا
آية في الروعة ومنارا للعلم والعبادة .

يقول ابن عذاري : " كانت قرطبة في زمان الفضل الداخل الى الأندلس
قد نسي بها بغداد في زمان الرشيد ، وعظم بها ملكهم فاشتد أمرهم
وضخم حالهم ، وأعظم ما كانت في زمان الناصر ثم في زمان الحكم واتصل
ذلك لها الى آخر المنصور بن أبي عامر فتناهى بها كل فضل وكل ، وذلك
للادبار الذي يكون بعقب الاقبال ، والنقص الذي يوافق بعد الكمال فما من
شيء كمل الا ودنا نقصه لا محاله . " وقدر ما كان الحسن والا زدها أصبح
الخراب والتدمير وانقلب كل شيء فيها الى نقيضه :

- ياجنة عصفت بها مأهلها * ربح النوى فدمرت وتدمروا .
- أسى عليك من الممات وحق لى * ان لم نزل بك في حياتك نفخر ،
- كانت عراصك اللهم مكسة * يأوى اليها الخائفون فينصروا .
- يامنزلا نزلت به مأهلها * طير النوى فتفيرا وتتكروا .

ان الشاعر يصف المفارقة الحاصلة بين الحالتين اللتين عاشتهما المدينة
بالحياة والموت فبينما كانت موضع الفخر في حال حياتها ان هي اليوم ميتة
تستحق البكاء والأسى ، وهذه الصورة النابضة بالحياة جديدة في شعر رثاء
المدن أبدعها ابن شهيد وربما نجدها في شعر من جاء بعده . وما دامت
المدينة قد نوت وماتت فانه يدعولها بالسقيا لعلها تحيا من جديد وتزهـر
رياضها :-

- جاد الفرات بساحتك ودجلة * والنهـل جاد بها وجاد الكوثر .
- وسقيت من ماء الحياة غمامة * تحيا بها منك الرياض وتزهـر .

ثم يعود بعد ذلك الى تأسفه وحزنه على أيامه الخوالى بها حين كان الأمر مجتمعاً على أمير واحد حازم يخضع له الجميع ، ثم يمتد أسفه ليشمل أصنافاً من الناس كالجنود والحماة والعلماء والأدباء والحكماء يقول :

- أيام كان الأمر فيها واحداً * لأمرها وأمير من يتأمر .
- أيام كانت كف كل سلامة * تسمو اليها بالسلام وتبدر .
- حزنى على سروعاتها ورواتها * وشقاتها وحمايتها يتكسر .
- نفسى على آلائها وصفائنها * ومهائنها وسنائها تتحسر .
- كبدى على علمائها ، حكمائها * أدبائها ، ظرفائها تتفطر .

لقد كانت قرطبة كعبة العلماء بأصنافهم ، والشعراء والأدباء ، وكان ابن شهيد من جملتهم ، كما كانت تزخر بالمدارس والجامعات والمكتبات ، حتى انه كان يحتج بحمل أهلها فى الأحكام يقول المقرئ : " واطمأنس له لعظم أمر قرطبة كان عظمها حجة بالمغرب ، حتى انهم يقولون فى الأحكام هذا ما جرى به عمل قرطبة . "

ان ابن شهيد بالرغم من مقامه السياسى والاجتماعى فى العاصمة - قرطبة - وشهوده للفتنة عن كثب ، فان قصيدته جاءت دون المستوى الذى ينبغى لها من حيث حرارة العاطفة وصدق الاحساس وقوة التأثير ، ولعل شدة وقع المصائب عليه أفقده القدرة على التفاعل مع الأحداث ، فهو لم يعرض نفسه لقصيدته الى رؤوس الفتنة ، ولم ينبج باللائمة على أحد وانما أرجع سبب الدمار والهلاك الى فعل الدهر فأتى بضروب من العبارات الدالة على ذلك كقوله : " جار الزمان " ، " جرت الخطوب " " ريح النوى " ، " طير النوى " وأشكال

هذه العبارات تبعث في النفس لونا من الحزن المشرب باليأس من أى مقاومة أو أمل في الانتعاش أضف الى ذلك أن الشاعر لم يتفنن في رسم الصور التفصيلية لما أصاب المدينة وأهلها ، لجعل الموقف الشمري نفس ذروة التأثير وإنما أجمل اجمالا لا يخفى عن التفصيل في كثير من الأحيان ، فلم يتحدث عن الحقد الصليبي على المسلمين ولم يذكر التهافت على الحكم من قبل المتنازعين ولو على حساب مصلحة الأمة التي ذقت الهولاء قتلًا وسلبًا وأسرا من جراء ذلك . ان الشاعر كما يبدو استغل شعر الأطلال في رثائه لقرطبة فهو - كما يظهر من القصيدة - كمن يقف بأطلال دأمره لها ماضي عريق فهو يستعمل قاموس الأطلال اللغوي كقوله " عهدى بها " " عهدت ربوعها " ، " يامنزلا " الخ كما أنه يدعو لتلك الأطلال بالسقيا والخصب الذي يكثر وروده في المقدمات الطللية . وطى هذا يكون رثاؤه أقرب إلى السلبية والاستسلام . أما أسلوبه فلم يخرج عن أسلوب الشعر بعامة في القرن الخامس الهجري في الأندلس حيث كان مدار الحسن عندهم ينهني على مقدار ما يستعمله الشاعر من المحسنات اللفظية والمعنوية وغيرها فهو عصر السجع بحق حتى اننا نجد معظم المؤلفات غير الأدبية - كالتاريخية والتراجم وغيرها فيه كتبت بطريقة سجوة تجعل الحصول على المعلومات منها في غاية الصعوبة أحيانا . لذا نجد ابن شهيد رغم كونه شاعرا مطبوعا وذا قريحة وقاده مخترعه وسباقه فانه حشد في قصيدته معظم أنواع البيان والهديع ، كالاتعارات والتشبيهات ، والجناس والطباق وغير ذلك .

وهناك - أيضا - عدة مقطوعات في رثاء قرطبة يسلك بعضها سبيل الوعظ وارشاد الناس الى الصراط القويم الذي أصابتهم المحن بسبب ابتعادهم عنه ، وزجرهم عن الغى الذي أعص بضايرهم فلم يضعوا الأمور في نصابها

يقول بعضهم : (١)

- أضمت الحزم في تدبير أمركم * ستملمون مما عقى البوار غدا
- فلورأيتم بعين الفكر حالكم * بكيتم بدم أن دمتم بسدا
- لكن سبل المص أعت بمائركم * فألبستكم ثيابا للبلى جدا
- ياأمة هتكت مستور سينبوتهمسا * ماكل من ذل أعطى بالصفاريدا (٢)
- في سورة الحشرآيات مفصلة * في شأنكم أنزلت لم تعدكم أحدا
- نعم وفي الكهف في العشرين خاتمة * تنقض عليكم بأن لا تفلحوا أبدا
- فاستشعروا سوء عقباكم فقد شطت * جميعكم محنة لا تنقض أبدا

ان هذه الأبيات - كما يبدو - صرخة تعنيف من عالم : قد عرف مكمسن الداء وسبب الهلاك الذي أصاب الناس في هذه الفتنة الميرة وهو الابطعاد عن الجدية والحزم في تصريف الأمور حتى غدت حالتهم تستوجب البكاء دما بعد التفرق والتشتت الذي لا يرجى بعده اجتماع . وهو يشير كذلك إلى أمر هام زاد الأمة ذلا على ذلها وكشف ضعفها وهوانها وهو الاستنجاد بأعداء الدين النصارى على المسلمين في سبيل تحقيق شهوات ومطامع خسيسه ، وذلك قوله " ماكل من ذل أعطى بالصفاريدا " . وفي الآيات التي ألمح إليها تفسير قوله هذا ، وخاصة قوله تعالى عن الكفار (انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم أو يمجيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا اذا أبدا .) (٣)

(١) البيان المفرب : ١١١ / ٣ .

(٢) يريد الآيات ٢ ، ٣ ، ٤ من سورة الحشر .

(٣) الآية ٢٠ من سورة الكهف .

ان هذه المقطوعة وان كنا نعدّها من شعر الوعل والزجر لا من شعر
الرثاء الخالص - لخلوها من وصف ماحل بقرطبة من الدمار تفصيلا - الا أنّها
قد أدت غرضها بإيجابية في تنبيه الناس الخافلين ، وإيقافهم على
الواقع المائل أمامهم ، فقد تميز صاحبها بصدق عاطفته والتهاب شعوره
وحماسة .

ولبعضهم أيضا مقطوعة قصيرة في رثاء عاصمة الخلافة (قرطبة) وهو
يرجع مآذها الى المين والحسد وهذا النوع من القول يتردد كثيرا في
شعر الرثاء ، كما لاحظناه في رثاء بغداد أيام فتنة الأمين والمأمون .
يقول : (١)

- أبك على قرطبة الزين * فقد دهتها نظرة الحسين .
- انظرها الدهر بأسلافه * ثم تقاض جطة الديين .
- كانت على الغاية من حسنها * وعيشها المستعذب اللين .
- فأنعمك الأمر فما ان ترى * بها سرورا بين اثنين .
- فأغدو ودعها وسر سألما * ان كنت أزمعت على البين .

ان الشاعر - كما يبدو - ذو نزعة تشاؤمية انهزامية قادته الى البكاء والحزن
على مدينته المدمرة دون أن يرفع صوته معذرا قومه أسباب الفتن والانقياد
للحكام الخونة الذين هم رأس الداء وسبب البلاء . ولعل الخوف من البطش
به هو الذي دفعه الى أن يجعل سبب خراب قرطبة ، وانعكاس حالها من
الحسن والسرور الى اليأس والشقاء هو نظرة المين الحاسدة ، وتصاريف
الدهر المتلوثة التي قطعت الوشائج بين الناس . فلا عليهم الا أن يفارقوها
مودعين الى غير لقاء .

ويقول الفقيه ابن القبري :- (١)

- ياليت شمري والأيام تجمعنا * وتأخذ البين مغلوما فنصفمه .
- في جنة الأرض أعنى أرض قرطبه * فكل شئ بديع فهي تجمعمه .
- استودع الله أهليها فانهم * كالمسك قد ملأ الدنيا تضوعه .

وهذه الأبيات أقرب الى الحنين منها الى الرثاء ، فهي تعبير عن أشواق قائلها الى أيامه الماضية بقرطبه حين كان الشمل طمئنا والفراق منهزما ، وكل مالد وطاب موفورا فيها .

(٢٠)

وفي حوالى سنة أربعين وأربعمائة جاء الشاعر المعروف بالسيحسري

(١) هو عبد الواحد بن محمد بن موهب التجيبي يكنى بأبى شاكر ويعرف بابن القبري . كان فقيها محدثا ، وخطيبا شاعرا ولد بقرطبه سنة ٣٣٧ هـ ونشأ وتعلم بها ثم تحول بعد الفتنة الى شاطبه وولى بها الأحكام والمظالم وكان من أهل النبل والذكاء والتواضع ، توفي سنة ٤٥٦ هـ بشاطبه ودفن ببلنسية . انظر : بغية الطمئس ، ترجمه رقم ١١٠٧ ، القاضي عياض ، ترتيب المدارك : ٨١٨ / ٤ . والأبيات فى نفس المصدر والصفحه .

(٢) هو أبو القاسم خلف بن فرج الألبيري ، من أعلام شعراء البيرة ، وميته في غرناطة . أدرك الدولة الحامرية وانقراضها ، اشتهر بالهجا والاقداع وألف في ذلك كتابا سماه " شفاء الأبرار في أخذ الأعراس " قال فيه ابن بسام : " كان باقمة عصره ، وأعجوبة دهره ، له طبع حسن وتصرف مستحسن في مقطوعات الأبيات وخاصة اذا هجا وقدح . توفي سنة ٤٨٠ هـ الذخيرة ق ١ ، ج ٢ ص ٣٧٢ ط القاهرة . وانظر ابن دحية ، المطرب : ٩٣ ، ابن سميذ ، المغرب : ١٠٠ / ٢ .

الى قرطبه وجمال في عراصها وشاهد ما حلّ بها ثم انتقل عنها الى مدينة الزهراء المجاورة لها ، وكانت قد خربت وأصبحت أطلالا بعد أن كانت عاصمة الخلافة الأموية أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر الذي جعلها زينة الدنيا لشدة مبالفته في زخرفتها وتحسينها ، وذلك لتناسب مقام الخلافة الكبير ، فيروى أنه جلب اليها الرخام الأبيض من الميريه ، والوردى والمجنزع من افريقية وقرطاجنه ، وهن في وسطها مجلسه المسمى بقصر الخلافة ، وكانت فراقده من الذهب والفضة وفي وسطه صهريج عظيم مطوئ بالزئبق .

وقيل ان هذا المجلس كان يدور ويستقبل الشمس . وهذا المجلس لم يتقدم لأحد بناؤه في الجاهلية ولا في الاسلام . فلما حدثت فتنة قرطبة هجم البربر على هذه المدينة ومعهم النصارى ونهبوا كل ما فيها ودمروها بشناعتهم فلما وقف السمسر بها أخذ يناجيها باكيا ومستخرجا للعبارة مآل اليه حالها . يقول :-

وقفت بالزهراء مستمبرا * معتبرا أندب أشاتنا . (٢)

فقلت : يا زهرا ألا فارجمي * قالت وهل يرجع من ماتا ؟

فلم أزل أبكي وأبكي بها * هيهات يخفى الدمع هيهات .

كأنما آثار من قد مضى * نواب يندبن أمواتنا .

ان تبدل حال الزهراء وخرابها جدير أن تأخذ منه العبرة بأن مصير كل شيء على الأرض - مهما كان عظيما - الى الفناء والزوال ، ولقد أحسن الشاعر في وصفه بأطلالها وبهذا الحوار الذي يجربه معها ويخفى عليها فيه صفات

(١) انظر وصف الزهراء في : ابن خلدون ، المعبر : ١٤٤ / ٤ ، عنان

الآثار الباقية في أسبانيا والبرتغال : ٣٥ ، عبد العزيز سالم ، قرطبة

حاضرة الخلافة الإسلامية : ٢٢٩ / ١ .

(٢) نفح الطيب : ٥٢٧ / ١ .

الأحياء الذين يؤلون الى الموت " قالت : وهل يرجع من ماتا " أويجمل
الأطلال نوادب يندبن من عمروهن فيما مضى . وربما قال قائل : لماذا أهدبتنا
وقفه السمسر بالأطلال رغم كونها سلبية فهو ييكن ويستبكي من حوله ولا غير ؟
والجواب على ذلك أن الشاعر جاء الى الزهراء بعد خرابها فيما يقارب عشرين
عاما فلم يجد غير آثار وأطلال دراسه ، كما أنه لم يكن في الأصل من أهلها
ليكون قد شهد دمار قرطبة والزهراء في الفتنة البربرية سنة أربع وأربعمائه .

عصر الطوائف ومداينة السقوط :

رأينا - في ماتقدم - كيف اشتملت الفتنة البربرية وقوضت حكم العاميين ، ورجع الأمر إلى بني أمية بجهود أنصارهم من البربر والمرتزقة النصارى الذين لم يدخروا وسعا في تدمير البلاد وافسادها . وظل الأمر كذلك في الفترة القصيرة التالية بسبب تعدد الفئات والأحزاب المتنازعة ، وتوالى الخلفاء من الأمويين والبربر حتى بلغ عددهم في مدة لا تزيد عن خمس عشرة سنة أربعة عشر خليفة وكان من جراء هذه الفوضى العارمة أن تمزقت وحدة الدولة وخيم عليها شبح الكوارث المحرقة التي أصابت كل شيء ، وختمت هذه المحن بانتهيار صرح الخلافة ، وأطاح بآخر الخلفاء الأمويين هشام المعتد بالله ونودي في آخر سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة بأن لا يبقى في قرطبة وسائر أحيائها وأرباضها أحد من بني أمية ولا يؤويهم أحد . وهكذا انقطع ذكر الأمويين من على منابر الأندلس إلى الأبد . وعلى أثر ذلك أصبحت الفرصة سانحة أمام كل ذي قوة من الزعماء المحليين ليصبح ملكا على دولة يقيمها في مناطقه ، فإذ أنبأ أمام عشرين دولة مستقلة استقلال تاما في إدارتها وجيشها وحياتها الفكرية والأدبية ، وعرفت هذه الدويلات بدول الطوائف ورؤساؤها بطوك الطوائف . وهم ما بين وزير سابق ، وشيخ للقضاة ، وحاكم لمدينه ، وقائد له نفوذ وأتباع ومن أشهرهم موالى بني عامر مثل خيران العامري وزهير العامري في شرق الأندلس أي في (ألمرية ، ومرسية ، ولبنسية ، ودانية)

(١) ابن شهيد ، رسالة التوايح والزوايح : ١٢ .

(٢) عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس : ٣٦٣ ، عبد الكريم

خليفة ، ابن حزم الأندلسي حياته وأدبه : ٥٠ .

(٣) عنان ، دول الطوائف : ١٤ .

وموالى الأميين الجهاورة فى قرطبة ، وفى غرناطة ومالقة وطليوس وطليطلة
قام البربر بالحكم وهم : (بنو زيرى ، بنو الأفطس وبنو ذى النون) وفـسـ
اشبيلية وسرقسطة واليونت حكم العنصر العربى وهم : (بنو عباد اللخميون ،
(١)
ونو هود الجذاميون ، ونو القاسم الفهريون ، ونو حمود الحسنيون) .
وهذه الممالك كانت تسلك - فى الغالب - نهجا سياسيا واداريا واحدا .
فالملك وحده يستبد بأمر الدولة ويتخذ بطانة سوء على شاكلته لا تقبل شورى
ولا معارضة . أما الاداره فتتظرفى المقام الأول الى جمع الأموال من الرعيـة
المفلومة على أمرها لتنفق على الجند المستأجر لحماية العروش المتهاوية
وعلى الشعراء الذين حرص كل ملك منهم على استقطابهم ليدبجوا قصائد
الطق ، وملاحم البطولات المزعومة لأولئك الأقزام . أما أنواع اللذات فقد
أفتنوا فى اقتناصها وأنفقوا عليها بسخاء . ونستثنى منهم أبا العزم بسن
جمهور حاكم قرطبة فقد كان شهما عادلا حكم مملكته بالشورى وأعطى
جزءا كبيرا من السلطة لفضلاء الناس فى مملكته فساعدوه على نشر الأمن ،
وقاموا باصلاحات عظيمة انسدل بها الستر على أهل قرطبة وقد كانت
العلاقات بين هذه الممالك علاقات خصام وتناحر وتحين للفرص من قبل كل
ملك للانقضاض والتوسع على حساب مجاوره من الممالك وقد كان هؤلاء الملوك
يعتمدون فى حروبهم مع بعضهم اعتمادا كبيرا على قوات النصارى مقابل جزية
عظيمة يدفعونها لهم . حتى أصبح للأذنفش ملك قشتاله النصرانى عمـال

(١) عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الاسلامية : ٥٧ - ٥٨ .

(٢) انظر الذخيرة ق ١ ، ج ٢ ص ٦٠٣ - ٦٠٤ .

(٣) هو أذنفش بن فردلند بن غرسية بن شانجه ، من أشجع ملوك النصارى ،

مورد فى المصادر بلفظ الفونس . هلك بطليطله سنة ٥٠٢ هـ بمسـد

أن ملك نيفا وخمسين سنة ١٠ / انظر البيان المغرب : ٥٠ / ٤ - ٥١ ،

الساوى ، الاستقصاء : ١ / ١٢٤ .

(١)

يجبون له الجزية من طوك الطوائف ومع هذا الذل الذى كانوا يزرعون
تحت وطأته اتغذوا بالألقاب الفخمة ، كالمقتدر والمعتضد والمعتصم
والمستغنى والمتوكل مادفع ابن رشيق القيروانى الى القول :-
(٢)

مايزهدني في أرض أندلس * أسما معتضد فيها ومعتصم .
اللقاب ملكة في غير موضعها * كالمهريكي انتفاخا صولة الأسد .

وقد أدى تفوق هؤلاء الطوك وانكارهم لكل صوت يدعو الى الوحدة
والتكاتف الى جعلهم غنيمة سهلة للنصارى والنورمان الذين بدأوا تحركهم
باحتلال مدينة بريشتر الأندلسية سنة ست وخمسين وأربعمائة .

رشا بريشتر : كانت بريشتر تحت حكم سليمان بن هورالطقب بالمستعصمين

بالله حاكم سرقسطة والشجر الأعلى ، وكان هذا قد قسم ملكته قبل موته
بين أولاده الخمسة حيث أصبح كل منهم حاكما مستقلا بما تحت يده من
البلاد . وسرعان مابدأ التنافس ، وظهرت الرغبة فى السيطرة والتوسع . وكان
أشدهم أطماعا الأخ الأكبر أحمد المقتدر الذى استطاع بالحيلة والوعيد
أن يتغلب على ثلاثة من اخوته ويستولى على أملاكهم ثم يودعهم السجن مع

(١) ابن أبى دينار ، المؤنس : ١٠٠ - ١٠١ ، عبد الكريم التوانى ، مؤسسة

انهيار الوجود العربى فى الأندلس : ٣٠٤ .

(٢) الحماد الأصفهاني ، الخريدة ، ق ٤ ، ج ٢ ، ص ٥١ .

(٣) مدينة تقع على فرع صغير من أفرع نهر ابره ، فى الشمال الشرق لسرقسطه

وهى من أمهات مدن الشجر الفائقه فى الحصانة والامتناع / انظر

العميرى الروض المظمار : مادة (بريشتر) ، حنان ، دول الطوائف :

التعذيب بيد أن أخاه الرابع الطقب بحسام الدولة كان له ندا وقف ففسى وجهه وحد من أطماعه ، فوقعت الحرب بين الأخوين ، وقد استغل النورمان الصليبيون هذه الظروف فزحفوا الى بريشتر سنة ست وخمسين وأربعمائه . تقول الرواية الاسلامية : ^(١) " أن الفرنج خرجوا من الأرض الكبيرة (أى فرنسا) الى الأندلس فى جموع كبيرة ليس لها حد ، ولا يحصى لها عدد الا الله " وقيل ان جموعهم بلغت أربعين ألف فارس ، فضربوا حولها عصارا شديدا استمر أربعين يوما ، ودافع المسلمون عن مدينتهم دفاعا مجيدا ، فغـيـر أن الأقوات فيها قد قلت ووقع التنازع بين أهلها فاستطاع النورمان أن يقتحموا المدينة الخارجية فتحصن الناس بالمدينة الداخلية وقتلوا من المهاجمين نحو خمسمائة شخص ، ولكن النورمان اهتموا أخيرا الى مكسان سقيا المدينة الداخلية فهدموه ، فالتقى على المحاصرين العطش والجوع والخوف فطلبوا الأمان على أن يخرجوا من المدينة آمنين دون أموال ، فوافق النورمان . ولكن هؤلاء لا عهد لهم فدخلوا المدينة بوحشية وأخذوا يقتلون ويأسرون وينهبون كل ما يجدون وخاصة الأبقار المسلمات يروى ياقوت الحموى أنه قد أهدى من أبقار الجوارى المسلمات ، وأهل الحسن منهن الى صاحب قسطنطينية سبعة آلاف بكر منتخبه . ويقول ابن حيان : " زعموا أنه صار لأكبرهم فى حصته نحو ألف وخمسمائة جارية أبقار ، ومن أوقار الأمتعه والحلى والكسوة خمسمائة جمل " أما عدد القتلى والأسرى فهو أعظم من أن يوصف

(١) مجهول ، الحلل الموشيه : ٥٤ ، ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس : ٧١ .

(٢) معجم البلدان ، مادة (بريشتر) .

(٣) البيان المغرب : ٢٥٥ / ٣ شرح الحادشه بالتفصيل .

أو يتقصى . وربما كان فى الأرقام المذكورة فى هذه الروايات شيء من
المبالغة ، ولكنها تدل على فداحة الخطب والوحشية الصليبية التى ماتت
فيها كل الصفات الانسانية . وقد حصل كل هذا والمقتدر بن هود لسم
يحرك ساكنا جينا منه ونذاله ، ولأن هذه المدينة واقعة فى ملك أخيه
الذى يناسبه المدا . وفى هذه الحادثة قال الزاهد الفقيه ابن العسال
يرثى المدينة وأهلها :-

- (٢)
- ولقد رمانا المشركون بأسهم * لم تخط لكن شأنها الا صما .
 - هتكوا بخیلهم قصور عريهم * لم يبق لا جبل ولا بطحما .
 - جاسوا خلال ديارهم فلمهم بها * فى كل يوم غارة شعوا .
 - ماتت قلوب المسلمين برعبهم * فحماتنا فى حربهم جبننا .
 - كم موضع فنعوه لم يرحم به * طفل ولا شيخ ولا عذرا .
 - ولكم رضيع فرقوه من أمه * فله اليها ضجة ومغنا .
 - ولرب مولود أبوه مجدل * فوق التراب وفرشه البسدا .
 - ومصونة فى خدرها محجومة * قد أبرزوها مالها استخفا .
 - وعزيز قوم صار فى أيديهم * فعليه بعد العزة استغنا .

-
- (١) هو أبو محمد عبد الله بن فرج البحصى ، من أهل طليطلة . شيخ
فقيه ، وشاعر مؤلف ، وعالم بالتفسير واللغة والآداب توفى سنة ٤٨٧ هـ .
انظر ابن بشكوال ، الصلة : ٢٨٥ / ١ ، وفيات الأعيان : ٢٧ / ٥ - ٢٨ .
(٢) القصيدة ذكرها الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس : ٤٠ - ٤١ .

ان الشاعر في هذه القصيدة يصل الى غرضه الاصلى مباشرة بدون مقدمات تمهيدية وذلك لأن الموقف يتطلب هذا ، فهو يصف عادية مروعة وقعت بالقرب منه ، وأثارت مشاعره وأحزانه فالنصارى قد احتلوا المدينة بقسوة شنيعة ، فدكوا البيوت وانتهكوا الحرمات وجاسوا خلال الديار . وبالرغم من أن تصويره للنكبة كان من النوع المألوف في شعر الرثاء فإنه أضاف إلى ذلك تلصصه لسبب البلاء وهم الحكام الجبنا فقال في صراحة " فحماتنا فسى حربهم جبنا " وقد جرّ هذا الجبن والرعب الى اظهار قوة الأعداء بمظهر لا تجدى معه مقاومة مما أدى الى موت قلوب المسلمين وتخاذلهم عن نصرة اخوانهم . ويضيف ابن العسّال سببا آخر للمصائب النازلة بالناس ، وهى الذنوب التى لحقتهم من جراء معاصيهم فيقول :-

- لولا ذنوب المسلمين وانهم * ركبوا الكبائر مالهين خفنا .
- ما كان ينصر للنصارى فارس * أبدا عليهم فالذنوب السدا .
- فشرارها لا يفتخون بشرهم * صلاح متحلّى الصلاح رها .

وهذا السبب الذى يرجع ابن العسّال اليه النكبة وهو الاستهتار بالدين والمجاهرة بالكبائر يمثل الداء الحقيقى للنكبات الجماعية ، ويكثر وروده فسوى شعر رثاء الدول والمدن وخاصة فى الأندلس لكثرة لذاتها المعرّضة .

ولقد كان لهذه العادة أثر كبير فى الأندلس قاطبة حيث توجهت الناس من امتداد هذا الشر الى باقى الممالك فقد أصبحت برشتر شغرا للنورمان (١) داخل الأندلس يسهل عليهم التحرك منه الى حيث شاءوا يقول ابن عيسى : " بلغ خبر استيلاء النورمانيين عليها قرطبة فى رمضان من ذلك العام ، فصك الأسماع وأطار الأفئدة وزلزل أرض الأندلس قاطبة ، وصير لكل شغلا يشغل

الناس في التحدث به والتساؤل عنه ، والتصور لحلول مثله ، ومن ثم بسدأت
الجهود تبذل لاستعادتها ، وراح المخلصون من العلماء وغيرهم يحسسون
الحكام لافتكاكها بالمديح تارة والتوبيخ أخرى ، وكان من أشهرهم أبو حفص
(١) الهوزني الذي ألغته النكبة فراح يستحث المعتضد بن عباد أكبر ملوك
الدوائف ، وكان صديقه الحميم فبعث إليه بهذه الأبيات :-

أعباد جلّ الرزّ والقوم هجج * على حالة من مثلها يتوقع (٢) .
فلق كتابي من فراغك ساعة * وإن طال فالموصوف للطول موضع .
إذا لم أثبت الداء رب دوائه * أضعت ، وأهل للسلام المضيق .

وأردف الأبيات برسالة منها " وكتابي عن حالة يشيب لشهودها
مفرق الوليد ، كما يخبر لمرودها وجه الصعيد . بدؤها ينسف الطريف
والتالد ، ويستأصل الوليد والوالد . تذر النساء أياي ، والأطفال يتامس
. طمت حتى خيف على عروة الايمان الانقضاء ، وطمت حتى خشى
على عمود الاسلام الانقضاء ان حاربوا موضعاً أرسلناه أو انتسفوا
قطراً سوّغناه ، وان هذا الأمر له مابعد إلا أن يسنى الله على يدك دفعة
وصده " .

وقد أحم ابن عباد أذنيه عن هذه الرسالة بل اعتبرها نوعاً من التوريط
لاظهار عجزه وتقلصه في الدفاع عن حوزة الاسلام ، أولكسر هيئته لدى ملوك

(١) هو عمر بن الحسن بن عبد الرحمن الهوزني من أهل اشبيلية . عالم
محدث رحل الى المشرق سنة ٤٤٤ هـ . كان متفناً في العلوم قد أخذ
بأدب من كل منها مع ثقب فهمه وصحة ضبطه ، قتل باشبيلية سنة
٤٦٠ هـ / انظر : ابن سعيد ، المغرب : ٢٣٤ / ١ ، النفح : ٢ / ٤٣
الصله : ٣٨١ / ١ .

(٢) الذخيرة ق ٢ ، ج ١ ص ٨٣ .

الطوائف اذا هو حارب وأخفق . لذلك أرسل لليهوزنى يحثه على المجيء
الى اشبيلية . فلما جاء قبض عليه المعتضد وقتله بيده . (١)

وعمن كان له دور في استنهاض الهمم الشاعر السمسر ، يقول موحداً
الطوك والمتقاسمين :- (٢)

- ناد الطوك وقتل لهمم * ماذا الذي أحدثتم ؟ :
- أسلمتم الاسلام فــــــى * أسر العدا وقعدتم .
- وجب القيام عليكمم * ان بالنصارى قسم .
- لا تنكروا شق العصا * فعصا النبي شققتم .

انه ينمى على هؤلاء الطوك تخاذلهم عن نصره الاسلام وأهله الذين
ساقهم العدو وأسارى وفعل بهم الأعاجيب ، وذكركم أن القيام بنصرتهم
واجبه . وفي الوقت نفسه ينكر على طوك الطوائف طعنهم الشائن وهو
الاعتماد على قوة النصارى أعداء الله الأمر الذي فيه مخالفة صريحة لهدى
النبي - عليه الصلاة والسلام .

(٣)

وفي هذه المحنة - أيضا - كتب ابن عبد البر كتاباً وزّع على أنصار الأندلس

(١) الذخير ، ق ٢ ، ج ١ : ص ٨٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ق ١ ، ج ٢ ، ص ٨٨٥ .

(٣) هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمرى يكنى أبا عمر ، ولد
بقرطبة سنة ٣٦٢ ، ونشأ بها وأخذ عن شيوخها ثم تحول عنها إلى
شرق الأندلس ببلنسية وشاطبة منها توفي سنة ٤٦٣ هـ ، كان يعرف بشيخ
علما الأندلس لسعة حفظه في الحديث . له كتب كثيرة منها الاستيعاب
وجامع بيان العلم وفضله / انظر : ابن فرحون ، الديباج المذهب :
٣٦٧/٢ ، عياض ، ترتيب المارك : ٨٠٨/٤ ، بقية الملتص : ٤٧٤ .

تممينا للشعور بالمشكلة ، جاء فيه " فما ظنكم معشر المسلمين وقد سيقن النساء والولدان ما بين عارية وريان قودا بالنواصي الى كل مكان طورا على المتون وطورا على البطون ، ومشيجة الرجال مقرنين بالحبــــــــــــــــال مصفدين في السلاسل والأغلال ، مقتادين في الشعور والسبال ، ان استرحموا لم يرحموا ، وان استطعموا لم يطعموا ، وان استسقوا لم يسقوا ، وقد طاشت أحلامهم ونهلت أوهامهم فياويلاه وياقرآناه وياحمداه " . (١)

ويبدو أن هذه الأصداء قد وجدت من ملوك الطوائف أذنا صاغية وفسي مقدمتهم المقتدر ابن هود الذي شعر بتقصيره الشديد تجاه المدينة وكأنه أراد أن يحو العار الذي لزمه من جراء ذلك ، فاستغفر الناس للجهاد فتجمع لديه عدد هائل من الفرسان والرماه من مختلف جهات الأندلس وسار بهم الى بربرش فحاصروها بشدة ودكوا أسوارها ثم اقتحموها وفتكوا بالنصارى النورمان فتكسة شديدة جبرت الصدع وأثلجت صدور المسلمين ، وكان استردادها في سنة سبع وخمسين وأربعمائه بعد أن احتلها النصارى تسعة أشهر . (٢)
(٣)
رثاء طليطله :-

أما النكبة الثانية التي حلت بالمدن الأندلسية في هذا العصر ، وكانت

(١) الذخيرة : ق ٣ ، ج ١ ، ص ١٧٦ .

(٢) ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس : ٧٣ .

(٣) مدينة كبيرة حصينة تسمى مدينة الطوك ، كانت عاصمة مملكة القوط قبل فتح المسلمين لها عام ٩٣ هـ تقع على الضفة النهر الكبير على مسافة ٩١ كم جنوبي غرب مدريد ، تحدد بها البساتين ، وتغترقها الأنهار ومحيط بها سياج من القلاع المنيعة في مختلف جهاتها . / معجم البلدان ، والروى المعطار تحت كلمة (طليطله) .

نقطة تحول في التاريخ الأندلسي عامة فهي سقوط مدينة طليطلة الشهيرة بيد الألفونس ملك قشتاله ، وترجع أهمية هذه المدينة الى كونها من أكبر دول الطوائف بالإضافة الى موقعها الحربي الهام حيث تقع على مشارف الأندلس من الشمال متاخمة لحدود الممالك النصرانية . فهي بذلك تمثل حاجزا مانعا في وجه أي عدوان من تلك الجهات فعرفت لذلك بالثغرة (١) الأوسط . وقد كانت هذه المنطقة الشاسعة (طليطلة وما تبعها) غنما للبربر من بني ذي النون بعد سقوط الخلافة الأموية في الأندلس .

وكان من أبرز حكامها يحيى بن اسماعيل بن ذي النون الطقوب بالمأمون الذي أقام فيها حضارة زاهرة وبني القصور الفخمة ومن أشهرها مجلسه المعروف (بالمكرم) ، غير أنه كان كباقي ملوك الطوائف يدفع الجزية للنصارى مقابل إمداده بالمرتزقة ليقاتل بهم جيرانه بني هود أصحاب سرقسطه وبني عباد أصحاب اشبيلية واستداع في النهاية أن يحتل قرطبة من يد ابن عباد الذي كان قد أخذها من يد بني جمهور بعد أن قضى على حكمهم بغطة دنيثه سنة اثنتين وستين وأربعمائه ووضع عليها ولده سراج الدولة ودخل المأمون قرطبة سنة سبع وستين وأربعمائه دخول الفاتحين ولكنه لم يلبث أن مرض مرضا شديدا ثم توفي في نفس العام . وفي عهد هذا الحاكم جاء الألفونس لاجئا الى طليطلة بعد أن تغلب عليه أخوه سانشو واغتصب ملكه ، فأكرمه المأمون أكراما زائدا ربما نعتبه نوعا من الغفلة ، لأن الألفونس كان في تلك المدة يدرس أحوال المدينة من جميع نواحيها تمهيدا لاحتلالها في المستقبل يقول

(١) عنان ، دول الطوائف : ٦٤ .

(٢) انظر وصف المجلس في : الطرطوشي ، سراج الملوك : ٥٤ .

(١)

ابن الخطيب : " وسكانه بطليطلة واطالعه على عوراتها هو الذي أوجب
تلك النصارى بها " وقد كان المأمون يعتمد اعتمادا كبيرا على جهود شيخ
الجماعة ابن الحديدى ولا يقطع أمرا دون مشاورته وقد أوصى حفيده الطقب
بالقادر أن يشد يديه على ابن الحديدى ويستعين برأيه إذا هو على الملك
ولكن القادر هذا كان حدثا قليل الخبرة ضعيف الرأى ، فلم تثن فترة قصيرة
على حكمه حتى سمى اليه نفر من خاصته بابن الحديدى وأوغروا صدره عليه
وأقنعوه بالتخلي عنه حتى يكون حاكما فعليا فاستدعاه الى القصر ، وجمع
له قوما من الحاقدين عليه ففتكوا به ، وانتهبوا دونه ومايطك . (٣)

ولم يلبث القادر أن أخذ يجنى ثمار جريمته وعقوبته عندما بدأ أولئك
الأعيان الحاقدون الذين شاركوه فى الجريمة يحوكون الدسائس ضده ويثيرون
الشعب عليه حتى ظهر شبخ الثورة فى نواحي البلاد جليا . عندها لجأ
القادر الى الانفونى ملك قشتالة يلتمس حمايته ، فاشتط فى طلب المال ،
وطلب بعض الحصون القريبة من الحدود وأخذ بعضها فعلا ، ولكن الثورة
فى الداخل اضطرت قفر القادر بأهله الى حصن من حصونه الشرقية هو

(١) أعمال الأعلام : ٣٣٠ / ٢ .

(٢) هويحيى بن سعيد بن أحمد الحديدى ، يكنى أبا بكر من أهل
طليطلة ، كان نبيلًا متفنًا وفصيحا مقدما فى الشورى احتل مكانة
عظمى فى دولة بنى ذى النون ، قتله القادر بالله سنة ٤٦٨ هـ . /

انظر الصلة : ٦٦٩ / ٢ ، المغرب : ١٣ / ٢ .

(٣) انظر أخبار الحديدى فى الذخيرة ق ٤ ، ج ١ ص ١٥١ .

(١)

حصن هذه هقيت طليطلة بلا أمير فاستدعى أهل الرأى منهم المتوكل بن
الأفطس حاكم بطليوس فقدم الى طليطلة كارها وتولى أمرها الى حين ، وذلك
أن القادر أخذ يرسل الانفونش من طبعته ويذكره بالأيدى البيضاء التى
كانت لبني ذى النون عليه فاستجاب له الانفونش وهو فى الحقيقة ~~بمسير~~
فى نفسه الاستيلاء على المدينة ، فقدم اليه فى سرية من فرسانه ففر أمامه
ابن الأفطس ورجع القادر الى عرش طليطلة تحت حماية الجيش النصرانى الذى
نكل بأهل المدينة ، وأحرق ما حولها من الزروع والثمار واستمر على ذلك فترة
طويلة ليضعف المدينة التى كانت من المنعة والحصانة بمكان . وفى هذه
الآونة الخديرة كان موقف ملوك الطوائف مغزها ومثيرا للألم والحسرة ، فقد
أسرع أعظمهم شأننا المعتمد بن عباد الى تقديم ولائه للانفونش وأرسل اليه
وزيره البارع ابن عصار حيث عقد معه معاهدة سرية تنص على أن يساعده
الانفونش المعتمد ضد الأمراء المسلمين ، مقابل أن يسكت الأخير على أعمال
الأول ضد طليطلة ويمده بجزية كبيرة يدفعها بصغار تأباه نفس المسلم ولما
شعر الانفونش أن السبيل تمهد أمامه للهجوم على المدينة ، أخذ استعداده
واقترب من المدينة فى سنة سبع وسبعين وأربعمائه وذلك بعد أربع سنين
كاملة من الفخارات المتواصلة التى أهلكت الحرث والنسل . ثم أحكم الحصار
حولها مدة تسعة أشهر أصاب الناس خلالها من الجوع والجهد واختلاف الرأى ،
وانعدام النصير بلا شديد اضطروهم الى تشكيل وفد لمفاوضة العدو والمهاضر

(١) حصن بالأندلس على نهر جار يقرب مدينة اقليش . / الروى المعطـار :

تحت كلمة (هذه) .

(٢) عنان ، تراجم اسلاميه : ٢١٣ - ٢١٤ .

(١)

وعرضوا عليه شروطا لتسليم المدينة تظاهروا بقبولها ومنها أن تسلم المدينة وقصور الحكام وعدائهم الى الانقوش ويؤدون اليه ما كانوا يؤدون لملوكهم من الضرائب ويخرج حاكم طليطلة القادر بالله الى بلنسية ويثبته من يشاء وأن يأمن الناس على دماءهم وأموالهم وأن يبقى المسجد الجامع بأيدي المسلمين يقيمون فيه شعائرهم بحرية تامة وغير ذلك . وبعد الاتفاق دخل الانقوش المدينة في صفر سنة ثمان وسبعين وأربع مائة ونزل بقصر الحكام وعهد بحكم المدينة الى وزيره الداهيه (سسندو) الذي عامل الناس باللين حتى استمالا قلوب الكثيرين ولكن هذا لم يدم طويلا حيث ثقب الانقوش اليهود المبرمة وراح " يأسر ويقتل ويحرق ويمثل وسما السمير ، وتفاسم الأمر ، وأنكرت الموارد والمصادر ، ولفغت القلوب الحناجر (٢) وقضى قضاءه باستباحة الحرم ، واستئصال الراحل والمقيم " وطفق أهل طليطلة يستصرخون ملوك الطوائف ، ولكن هيئات أن يستجيب الأموات ، الذين هم في الحقيقة عمال يحكمون باسم الانقوش وقد أدى هذا الخذلان الى تمادي النصارى في تعذيب المسلمين ومدأوا يحيطون المسجد الجامع الى كنيسة ويمدون أعينهم الى الممالك المجاورة لطليطلة لتنفيذ السياسة (٣) الاسترداد الصليبية التي شجعها الكنيسة . وهكذا سقطت طليطلة قلعة الأندلس الكبرى وخرجت من قبضة الاسلام الى الأبد حيث لم تفلح كل الجهود التي بذلت لاسترجاعها ، ومن ذلك الحين تغدو طليطلة عاصمة لمملكة قشتاله .

(١) عنان ، دول الطوائف : ١١٣ .

(٢) انظر خبر استيلاء النصارى على طليطلة في الذخيرة ق ٤ ، ج ١ ص —

١٦١ - ١٦٣ .

(٣) على الجارم ، قصة العرب في أسبانيا : ١٦١ - ١٦٣ .

وكان سقوطها يمثل نذير السقوط النهائي لجزيرة الأندلس ، فبدأ الناس يفكرون في إيجاد حكم بديل . وبدأت أصوات الشعراء تنطلق محذرة بطش العدو والطامع وراثية المدينة الفارغة يقول ابن العسال : - (١)

يا أهل أندلس حثوا مليكم * فما المقام بها إلا من الغلظ .
الثوب ينسل من أطرافه وأرى * سلك الجزيرة منسولا من الوسط .
ونحن بين عدو لا يفارقتنا * كيف الحياة مع الحيات في سفظ .
وقال آخر بيتين تنحوان هذا المنحى وهما :

يا أهل أندلس ردوا المعارف * في العرف عارية إلا مردات .
ألم ثروا بيدق الكفار فرزقه * وشاهدنا آخر الأبيات شهوات . (٢)

إن صوت ابن العسال هنا يخطف عما ألفناه منه فيما سبق حين كان في نكبة بن هشتر داعيا إلى الجهاد ومحدرا من الغفلة عن مكائد الأعداء . أما هنا فصوته ينطلق بهذه الأبيات التي تشيع جوا من الانهزام واليأس ، فهو يريد أن يشجع الناس على التمسك والثبات في أوطانهم يدعوهم إلى هجرها بـلـ والى الرحيل من جزيرة الأندلس كلها لأنها - كما يرى - أصبحت مهددة بالسقوط بعد أن حلّ الدمار في وسطها ، والوسط هو أمتع جزء فيها ، أضف إلى ذلك أن العدو قد ملك المدينة واستوطنها بالأهل والوطن مما جعل الحياة مستحيلة في هذه الظروف . ولكن هل يكون علاج المشكلة بهذه السلبية (الرحيل) في الوقت الذي يجب فيه على الشاعر أن يتسامى فوق المصائب ليبعث في النفوس بصيصا من الأمل ؟ اننا إذا أنعمنا النظر

(١) شهوات : أصلها مات الشاه (أي الملك) يقولها الغالب للمفلوب في لعبة الشطرنج ويعنى ذلك انتهاء الدورانظر النفخ : ٣٥٢/٤ ، الحاشية .

(٢) المصدر نفسه : ٤٨٣/٤ .

في الأبيات وريطناها بظروف سقوط طليطله ثبينا مقدار الجرح الذي أصاب
قلب الشاعر وهو يرى مدينته الحصينة الضخمة تنهبهاوي تحت معاول الصليبيين
وسط الغضم الزاشر من ممالك الطوائف الذين لم يحركوا ساكنا ، فتممــــد
هذا اللون من التعبير السلبي ليكون أبلغ في تذكيرهم ، وكأنه يقول تنبأوا
بمصيركم ماترون أماكم من النكبات التي ساهتمتم في حدوثها .

أما صاحب البيتين فهو قد هذا حذوا ابن المسال ولكنه أفرط فــــى
التشاؤم ودق ناقوس الخطر بتشبيهه بلاد الأندلس بالعمارة المســــتردة
التي حان وقت ارجاعها ولعل الجو النفس الذي كان يعيشه الناس في ظلال
تلك الحروب والنكبات والنتيجة التي كان يؤكدها منطوق الممارك لعل
ذلك هو السبب الذي أدى الى خلود مثل هذه الأبيات .

وقد نقل الينا المقرئ قصيدة طويلة لشاعر مجهول في رثاء طليطله

(١)

يبدأها بقوله :-

- لثلك كيف تبتسم الثفـــــور * سرورا بعدما سبيت ثفـــــور .
- أما وأبي مصاب هــــدمنه * ثبير الدين فاتصل الثبـــــور .
- لقد قصمت ظهور حين قالوا * أمير الكافرين له ظهـــــور .
- تري في الدهر سرورا بعيش * مضى عنا لطيته الســـــور .
- أليس بها أبن النفس شهـــــم * يدير على الدوائر ان تدور .
- لقد خضعت رقاب كن غلبا * وزال عتوها ومضى النفـــــور .
- وهان على عزيز القوم ذل * وسامح في الحريم فتى غيـــــور .

يمهد الشاعر لقصيدته بهذه الأبيات التي يظهر فيها عظم المصاب الذي ألم بالمسلمين بعد سقوط طليطله ؛ وبدل سرورهم حزناً ملازماً خيم على أنفسهم حتى انهم يعجبون اذا رأوا سروروا في هذه الحياة ، وكيف لا ؟ وهم في ذل وقهر خضعت له أنفسهم الأبيات ؛ فهنا المميز ، وأغص على الضيم الخيور . والشاعر هنا يجل لييين بعد ذلك بتفجع التحول الخطير الذي وصلت اليه حالة المدينة الكبرى ؛

- طليطلة أباح الكفر منها * حماها ، ان ذا نبأ كبير .
- فليس مثاليها ايوان كسرى * ولا منها الخورنق والتديسر .
- محصنة محصنة بعبيد * لتناولها ومطالبها عسير .
- ألم تك محقلاً للدين صعباً * فذلل كما شاء القديسر .
- وأخرج أهلها منها جميعاً * فصاروا حيث شاء بهم مصير .
- وكانت دار ايمان وعلم * معالمها التي طست تنير .
- فعادت دار كفر مصطفاة * قد اضطربت بأهلها الأمور .
- مساجدها كنائس ، أي قلب * على هذا يقر ولا يطير ؟ .
- فيا أسفاه يا أسفاه حزناً * يكرر ماتكررت الدهور .
- أدليت قاصرات الطرف كانت * مصونات مساكنها القصور .
- وكان بنا والقينات أولى * لو انضمت على الكل القصور .
- لقد سخطت بحالتهن عين * وكيف يصح مغلوب قريور .

انه لنباً عظيم يفاجأ به الشاعر ويضطرب له قلبه . ذلك هو سقوط طليطله واستباحتها من قبل جيوش الكفر . ان هذه المدينة العظيمة لم تعد في نفس الشاعر مجرد مدينة عادية داخل اطار البلاد الاسلامية بل يعتبرها رمزاً كبيراً للحضارة الاسلامية . فهي معقل الدين ، ودار الايمان والعلم التي

يصفر بجانب عظمتها وحسنها ايوان كسرى المشهور وغيره . فكيف حال من يراها وقد تفرق أهلها شذر مذر وسكنها بعدهم الكفار الحاقدون الذين لا يطيقون رؤية المعالم الاسلامية الشامخة فأسرعوا في تحويل المساجد الى كنائس ولم يتورعوا عن هتك الحرم المصونه ، الأمر الذى يذهب العقل ويطيير القلب حتى ان الشاعر لشدة ما تلجلج في صدره من الأسف والحسرة السقتى لا انقضاء لها يتمنى لو حوت القبور جميع من شاهد هذه المأساة ، لأن الموت أهون من مكابدة هذه الحياة النكداء . ثم يحاول الشاعر تلمس أسباب هذه المصيبة فيدرك أنها عقاب من الله أرسله على الناس عندما طغوا وفسدوا وأكلوا الحرام ثم يستغل هذه الفكرة لينبئ من حوله ويحذرهم عاقبة الاسراف في المحاص فيقول :-

- فان ظننا الحقوة أدركتهم * وجاءهم من الله النكير .
- فانا مثلهم وأشد منهم * نجور وكيف يسلم من بجرور .
- أنا من أن يحل بنا انتقام * وفينا الفسق أجمع والفجور .
- وأكل للحرام ولا اضطرار * اليه فيسهل الأمر العسير .
- ولكن جرأة في عقور دار * كذلك يفعل الكلب المقور .
- يزول الستر عن قوم اذا ما * على العصيان أرخيت الستور .

ومعد أن يزجرهم الشاعر عن الذنوب التي تجرهم الى مصير بئيس ، يهيب بهم - وحماس - أن يعلنوا حرب الانتقام لفك أسر الاسلام واتباعه الممتحنين بل ويدعوهم الى الموت الكريم بدل أن يجوروا أو يجار عليهم .

- غدوا ثار الديانة وانصروها * فقد حامت على القتل النسر .
- ولا تهنوا وسلوا كل عضب * تهاب مضاربا منه النحر .
- وموتوا لكم فالموت أوطى * بكم من أن تجاروا أو تجوروا .

- أصبرا بعد سبي وامتحان * يلام عليهما القلب الصبور .
- فأم الثكل مذكار ولود * وأم الصقر مقالات نـزـور .
- نخور إذا دھينا بالرزايـا * وليس بمعجب بقـسر يـخـور .
- ونجبـن ليس نزار ، لو شجعنا * ولم نجبن لكان لنا زئـسـير .
- لقد ساءت بنا الأخبار حتى * أمات المخبرين بها الغـبـير .
- أتننا الكتب فيها كل شر * وشرنا بأنحسنا البـشـير .

ان عاطفة الشاعر قد جاشت حتى بلغت حد الثورة العارمة فراح يحسن الناس على تجريد السلاح وخوض الحرب وينص على المتخاذلين الذين تذروا بالصبر ، وماذا يجدى الصبر ، والمسلمون يقتلون وتسبى نساؤهم وذرايرهم ان هذا الصبر ما هو الا نوع من الجبن الذى يجلب النكبات . ثم يشبه الشاعر الأمة عندما يسيطر عليها الجبن بالبقر الذى يخور عند وقع الحوادث ان ثورة نفس الشاعر المستمدة من الواقع المرير الذى يحيشه هى التى جعلته يستعمل أمثال هذه المبارات اللاذعة " بقر نجور " ، " الكلب العقور " وهو فى حقيقة الأمر محق فى هذا لأنه لا يكاد يسمع بنخوة الشجعان الذين لهم زئير الأسود ولا يكاد يسمع خبرا يبعث فى النفس الأمل المنشود بل غاية ما هنا لك تناقل أخبار الهزائم النحسه والفرار وهجر الديار :-

- وقيل تجمعوا لفراق شمل * طليالة تملكها الكـسـور .
- فنقل فى خطة فيها صفار * يشيب لكرهها الطفل الصـفـير .
- لقد صم السميع فلم يـمـسـول * على بنا كماعى البـصـير .

ثم ينتقل صاحب القصيدة الى تصوير مشهد آخر من حال الناس الذين بلغوا من الذل مبلغا عظيما ونحن نحس بالألم القاسى الذى يعانىـه الشاعر ويدفعنا الى مشاركته آياه وذلك أن الناس قد استمالهم الأعداء ، ورضوا

بالخضوع طمعا في المال واستهانته بالدين :-

- تجاذبنا الأهادي باصطناع * فينجذب المخول والفقير
- فباق في الديانة تحت خزي * تثبطه الشبهة والبمير
- وآخر مارق هانت عليه * مصائب دينه فله السمير

ان الشاعر بالرغم من الحزن والأسى الذي تطفح به نفسه وأبياته فأنه لا يستسلم لليأس كما فعل غيره بل نراه يثور مدفوعا بالخيرة الاسلامية ، ويصب جام غضبه وتمنيقه على أولئك الذين يزينون للناس الرضى بالواقع المهمزوم ويدعونهم لفكرة الاستسلام على حساب الحرية والشرف طمعا في مكاسب دينية يقول :-

- كفى حزنا بأن الناس قالوا * الى أين التحول والمسير
- أنترك دورنا ونفر عنها * وليس لنا وراء البحور دور
- ولا ثم الضياع تروق حسنا * نباكرها فيمجبنا البكور
- وظل وارف وغريم ما * فلا قر هناك ولا حرور
- ويؤكل من فواكهها طرى * ويشرب من جد اولها نمير
- يؤدى مخرم في كل شهر * ويؤخذ كل صائفة عشور
- فهم أحص لحوزتنا وأولى * بنا وهم الموالى والعشير
- لقد ذهب اليقين فلا يقين * وغر القوم بالله الخسرور
- فلا دين ولا دنيا ولكون * غرور بالمعيشة ماغرور
- رضوا بالرق يالله : ماذا * رآه وما أشار به مشير ::

ان الشاعر في هذه الأبيات يشمر بالخبرة الروحية في أرضه وبين أولئك الناس من بنى قومه وذلك لأنه يحس بأن صوته قد ضاع وذهب بلاصدي أو أثر. فبينما هو يدعو جمهوره الى الجهاد والصمود والموت الكريم اذا بهم يركسون

الى حماية النصارى أعداء دينهم ويوالونهم ويدفعون لهم المخارم والعشور مقابل أن يبقوا في دهرهم ليتصموا بالضياع الرائقة والماء النير والفواكه الطرية ولو كانت مضمومة بالذل . ولعل الذي دفع الناس الى هذا العمل هو فقدانهم الثقة بقدرة حكماهم الأقوام على فعل شيء من أجل طليطلة المنكوبة ويذكر المؤرخون أنه كان في طليطلة جماعة كبيرة من أهلها يميلون الى الأذفونش ويمطون لمصلحته ، وهم الذين دعوه لاحتلال المدينة منذ بدء غزواته لها ، وتسمى الرواية القشتالية هؤلاء القوم (بالحزب المدجن) (١) أي الموالى لملك النصارى . ثم يقف الشاعر عند هذه الحالة المؤسفة مطرقا كيف يرضى هؤلاء بالرق وفرهم بالله الفرور ؟ ثم يتبع تعجبه بزفرة حاره حين يقول :

مضى الاسلام فابك دما عليه * فما ينفى الجوى الدمع الحزينز .

ونح واندب رفاقا في فلاة * حيارى لا تعط ولا تسير .

ولكنه لا يظيل الندب والتحسر لأن ذلك لا يغير من الواقع شيئا وانما

الجهاد هو الكفيل برد الحق الى نصابه :

ولا تجنح الى سلم وحارب * عسى أن يجبر العظم الكسير .

أنص عن مرشدنا جميعا * وما ان منهم الا بصير .

ونلق واحدا ويفر جمع * كما عن قانس فرت حمير .

ولو أنا ثبتنا كان خيرا * ولكن مالنا كرم وخير .

اذا مال يكن صبر جميل * فليس بنافع عدد كسير .

وهو هنا يتأرن بين واقع المسلمين وواقع أعدائهم ويمجيب من انقلاب الوضع

لصالح أعداء الله فهم مبصرون بينما الشاعر ورهطه قد عميت بصائرهم والأعداء

ثابتون صابرون على الشدائد والآخرين منهزمون (كأنهم حمر مستنفره فرت
من قسمه) لا صبر لهم ولا خير فيهم .

والشاعر هنا يستثير من حوله بهذا الأسلوب لعل النخوة والأريحية
تدركهم فيهبون لمقارعة الأعداء . ولذلك نراه يتلفث باحثا عن قائد شجاع
يحسن قياد هذه الأمة لأن ذلك يمثل جانبا كبيرا من المشكله . يقول :

- ألا رجل له رأى أصيـل * به مانحان رنستجير .
- يكرّ اذا السيوف تناولتـه * وأين بنا اذا ولت كـور .
- ويطمعن بالقنا الخطار حتى * يقول الرمح ما هذا الخطير ؟ :
- يبادر خرقها قبل اتساع * لخطب منه تنخسف البدور .
- يوسع للذى يلقيه صدرا * فقد ضاقت بما تلقى صدور .

وفي ختام القصيدة يرينا الشاعر أن حياته قد تكدرت وعيشه فيها قد
تنفص ولكنه مع ذلك لا يفقد الأمل في النصر :

- تنفصت الحياة فلا حياة * وودع جيرة ان لا مجير .
- قليل فيه هم مستكن * ويوم فيه شر مستطير .
- ونرجو أن يتيح الله نصرا * عليهم انه نعم النصير .

ومعد فلقد أدت القصيدة هدفها في تنبيه الناس وحثهم على الجهاد
ميان قيمة المدينة المريثه والسقوطها من أثر على ما بعده من بلاد الأندلس
أما أسلوبها فهو سهل ساذج ولا عورة فيه ولا تكلف وقد ابتعد الشاعر عن
المعسرات إلا مائلا ، كما أنه التزم الواقع وتجاو عن الصور الخيالية لأنه
ملتزم بقضية هامة ، فشعره صادق الماطفه ينبع من قلبه وليس لزخرفة اللسان
فيه كبير عمل ، وهذا ما يتضح من تلون مواقفه ، فهو تارة يبكي طليطله

وما حدث لأهلها وحرمتها المصونات ويتفجع على ذلك حتى انه ليرتجى الموت للخلاص من بعصرت قلبه ، وتارة نراه يشور ثورة عنيفة مطالباً بالجهاد وبذل النفوس في سبيل انتقاذ المدينة باعتبارها رمزا اسلاميا ولا ينسى من خلال ذلك أن ينهال على المتقاعسين والجبنا^١ بسياط التوبيخ والتقبيح فيصفهم بالبقر الذي يخور والحر المستفزه وهي من الأوصاف البليغة للعجز والفرار الحق تدافع من وجهها الى التخلص منها بفصل مادعا اليه الشاعر .

وفي بعض أجزاء القصيدة نجد الشاعر يسرد علينا الأخبار التاريخية وأخبار الناس وأحوالهم بأسلوب قصصى يقترب فيه من النثر . ولعل الشئ المستغرب في القصيدة أنها على - طولها - لم تتعرض للتفاصيل الدقيقة في احتلال المدينة وما فعله الصليبيون بأهلها . وربما كان هذا لاشتغاله بأمور أهم من ذلك وأخطر .

والملاحظ أنه لا يوجد في رثاء طليطله - على عظمها - من الشعر الا هذه القصيدة ، ويمكن أن نعزو ذلك الى أن الحرب لم تنته بعد ، وأن الأمل لا يزال واردا في استردادها ، ولو درى شعراؤها أنها ستذهب الى الأبد وتصبح معقلا للعرب المنتصرين لرأينا سيولا من الدموع والمشاعر الانسانية الحزينة التي تظل تروى كل بقعة من بقاعها ، وتحدث عن كل ما هو جميل من خصالها .

أما بالنسبة لقائل هذه القصيدة فلم يتعرض أحد من الباحثين لذكر
اسمه أو البحث عن شخصيته . ولعله الشاعر أبو الوليد الوقشي ، فهو
من أهل طليطلة وشهد نكبتها حيث يذكر أنه كان بها في منتصف القرن
(٢)
الخامس الهجري .

-
- (١) هو هشام بن أحمد بن هشام الكنانى يعرف بالوقشي ، من أهل طليطلة
يكنى أبا الوليد ولد سنة ٤٠٨ هـ . كان شاعرا مجيدا ، وأحد رجال
الكمال في وقته باحتوائه على فنون المعارف ، وجمعه لكليات العلوم
من أعظم الناس بالنحو واللغة والعروض ومعاني الأشعار ، بصيرا بأصول
الاعتقادات والفقه ، واقفا على كثير من فتاوى فقهاء الأماص توفى سنة
٤٨٩ هـ / انظر المله : ٦٥٣/٢ ترجمة رقم ١٤٣٧ .
- (٢) ابن الأبار : التكملة : ٨٢٢/٢ .

(١)
رثاء بلنسية :-

كانت بلنسية ومايتبعها من المناطق تتبع مملكة طليطلة طيلة حكم
المأمون بن ذي النون ، وكان قد وضع عليها واليا من قبله يعرف بأبي بكر
محمد بن عبد العزيز وكان عالما حازما ضبط المدينة بالعدل وأجزل العطاء
للجند والعمال . ثم استغل فرصة موت المأمون وتولي القادر بالله حكم
طليطلة وقيام الثورات الداخلية ضده فأعلن استقلاله بحكم بلنسية . ولما سقطت
طليطلة بيد القشتاليين سنة ثمان وسبعين وأربعمائة وعد زعميهم الانفونش
القادر بالله أن يوليه بلنسية التي كان ينازعه الأطماع فيها المستعنين بسن
هود والفعل أرسل الانفونش مع القادر رسمية من الجند القشتالي تحت امرة
القائد البرهانس حتى اذا وصلوا بلنسية أرسل القادر رسائله الى أهلها
وفيها الوعود المعسولة وانتهى الأمر بموافقة أهل المدينة على
دخول القادر حاكما ، وخلع ابن عبد العزيز وماليت القادر أن أبدى صولة
الجبان الضعيف اذا تحكم ففرض على المدينة حكم طغيان شامل واشتد فسى
فرض الضرائب على الناس لارضاء مطالب الجنود القشتاليين الذين أخذوا
يعيشون فسادا في المدينة ، ويرهبون الأغنياء والأعيان بالمفارم حتى اضطروا

(١) مدينة مشهورة وقاعده من قواعد الأندلس ، تقع شرق قرطبه على
نهر جاريسقى المزارع والبساتين التي تحف به ، وبينها وبين البحر
ثلاثة أميال فهي برية بحريه جامعة لخيراتهما ، كانت تعرف بمدينة
التراب وأهلها يسمون عرب الأندلس . / انظر معجم البلدان (بلنسية)
والروض المعطار تحت نفس الكلمة .

(٢) الحجى ، التاريخ الأندلسى : ٣٦٨ .

(١)

الى الفرار من بلنسية نجاة بأنفسهم . وفي هذه الأثناء كانت جيوش المرابطين قد وصلت الى الأندلس لاغثة المسلمين ، وحطمت قوة النصارى القشتالين في معركة الزلاقة المشهورة . على ما سذكركه في فصل قادم . فتنفس أهل بلنسية الصعداء الى حين ذلك أن سياسة القادر الخرقاء أدت الى نشوب الاضطرابات في مختلف نواحي البلاد وأعلن كثير من حكام الحصون المعصيان . عند ما شعر القادر أنه عاجز عن السيطرة على الموقف فاستنجد بالمستعنيين ابن هود صاحب سرقسطه المجاور لبلنسية ، وكان المستعنيين يتوق الى افتتاح بلنسية وضمها الى مملكته فلبى النداء مسرعا ولكنه لم يكن وحده بل كان يرافقه جيش قشتالى بقيادة السيد القمبيطور صديق المستعنيين وصديق أبيه وجده من قبل وكان هذا الفارس المخامر يعد من أشهر الفرسان وأوسعهم ذكرا عند الأسبان ، حيث صاغوا في بطولاته الملاحم والقصص والأساطير الخيالية . وهو في حقيقة أمره زعيم عصابة للنهب والسلب يؤجر نفسه ومن معه لمن يدفع له أكثر سوا كان من المسلمين أو النصارى ، ولعل شهرته ظهرت من مخامراته ببلنسية وربطه مصيره بها حتى هلك في سبيلها ، وعند ما وصل السيد والمستعنيين الى بلنسية أخذوا مابها من القلائد وأرادوا احتلال

(١) علسان ، دول الطوائف : ٢٢٨ .

(٢) اسمه الأصلى رود ريجو دياز د ا قيقار ، يلقب بالقمبيطور وتعنى (المحارب)

ولد في مدينة برغش عاصمة مملكة قشتاله وكان أبوه قاضيا لها سنة ١٠٤٣ م .

بدأ حياته في خدمة ملوك قشتاله ثم قدم الى بلنسية وتطكها حتى هلك

سنة ١٠٩٣ هـ . ويرد في المصاد العربية بلفظ رذريق الكمبيطور ، والسيد

القمبيطور / انظر . دائرة المعارف الاسلاميه ، (السيد) .

المدينة ، ولكن القادر اتصل بالسيد سرا ووعده بمبلغ كبير من المال مقابل حمايته له من سائر أعدائه فقبل ذلك وخابت بذلك آمال صديقه المستعصين ورجع الى بلده سرقسطه ليجث عن نصير آخر ، عندها بدأ السيد بالتفكير في امتلاك بلنسية فأرسل الى سيده الانفونش ملك قشتالة يخبره أنه وممن معه رهن اشارته وأنهم يحاربون " الكفرة " لارجاع مجد الصليب ، وذهب السيد نفسه الى هناك تأكيداً للحولاء ، فأقره الملك وأذن له أن يجـول بفرسانه كيفما شاء في أرض المسلمين بل جعل له ماينتزعهم منهم من الأرض ميراثاً شرعياً ولا ده من بعده ، فعاد السيد من قشتالة ومصحبته سبعمائة فارس وأخضع ما حولها من الامارات من الشمال والجنوب وفرض على أصحابها مبالغ ضخمة من المال كجزية سنوية ، ثم زحف الى بلنسية وعسكر في ضاحيتها الشمالية المعروفة " بالكدية " فبادره القادر بالأموال والهدايا ووضع نفسه تحت حمايته ، وتطورت الأمور باقتراب جيش المرابطين من سرقسطه وطلب صاحبها المستعصين بن هود النجده من السيد فتوجه هذا اليها ومكث فيها يرتب أمورها ويخطط لعللاقة المرابطين يقول ابن بسام : " ولما أحس أحمد بن يوسف بن هود المنتزى الى وقتنا هذا على ثغر سرقسطه ، بمساكن أمير المسلمين بتقبل من كل حدب ، وتطلع على أطرافه من كل مرقب ، آسد كلبا من أكلب الجلالة ، يسمى برنريق ويدعى بالكبيطور ، وكان عقالا ، وداً عضالا له في الجزيرة وقائع ، وعلى طوائفها بضروب المكساره اطلاعات ومطالع " .

(١) عنان ، دول الطوائف : ٢٣٦ .

(٢) الذخيرة ، ق ٣ ، ج ١ ص ٩٥ .

أدى اقتراب المرابطين من شرق الأندلس الى سريان روح الثورة عند
أهل بلنسية فقررُوا تحطيم قيد الذل والاستعباد الذي فرضه السيد طلي
(١)
المدينة وذلك بالتخلي من السيد والقادر معا وتزعم القاضى ابن جحاف
الثورة وقبض على القادر وقتله واستولى على ذخائره وجلس مكانه سنة خمس
وثمانين وأربعمائه ، بانتخاب من أهل المدينة ، فأخذ فى حشد الجنود
(٢)
وتحصين المدينة واتصل بالمرابطين طالبا عونهم فأمدوه بسرية من جندهم
استعزبها وقويت شوكته . ولما علم السيد بالأمر الخطير جمع قواته وتوجه
الى بلنسية وضرب الحصار حولها وأخذ يحرق ويدمر الضياع والزروع السنكى
حولها ، وقاومته قوات ابن الجحاف المكونه من المرابطين والبلنسيين فلم
يستطع اقتحام المدينة ولكنه بقى محاصرا لها مدة عشرين شهرا حتى فتك
الجوع بالناس وبلغ بهم الضيق منتهاه حتى أكلوا الجلود والجيف واستحكمت
الهماء فأفنى عددا كبيرا من الناس ، فاجتمع عند من بقى الى القاضى
(٣)
ابن جحاف وأرغموه على اللجوء للصلح فوقع الاتفاق بين الطرفين على أن
يبقى القاضى حاكما للمدينة ويؤ من جميع أهل بلنسية على الأنفس والأموال
والشرائع والأحكام مقابل أن يؤدى الجزية السابقه مع تسليم ذخائر القادر

-
- (١) هو أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن جعفر بن جحاف . رئيس بلنسية
وأخر قضاتها من بنى جحاف أحرقه القتيبيون - لعنه الله - سنة
٤٨٨ هـ بعد احتلاله بلنسية . انظر : بغية الطمئ : ترجمة رقم
٦١٥ . الذخير : ق ٣ ج ١ ص ٢٦٦ . الحلة السيرا : ١٢٥ / ٢ - ١٢٦ .
(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام : ٢٠٣ / ٢ .
(٣) عنان ، دول الطوائف : ٢٢٤ . وانظر تفاصيل الاستيلاء على بلنسية
فى البيان المغرب : ٣٠٥ / ٣ وما بعدها .

التي كانت عند ابن الجحاف . وفي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة فتحت بلنسية أبوابها للسيد وجنده وسرعان ما احتلوا أبراجها وجلس السيد في القصر وبدأ بنقل شروط المعاهدة وأخذ يعيث في نواحي البلاد ويشتط على القاضي بطلب الأموال ثم اتهمه باخفاء أموال القادر وذخائره وهدده ان وجدها بالقتل ، وبعد البحث ، زعموا أنه عثر عليها فقبح على القاضي وعذبه عذابا شديدا ثم أضرم له نارا وأحرقه حيا " فأضرم هذا المصاب الجليل أقطار الجزيرة يومئذ نارا ، وجلل سائر طبقاتها خزيا وعارا " (١) . ثم مال بعد ذلك على المسلمين بصنوف التعمذيب والمضارم حتى غادرها كثير من أهلها واحتل النصاري دورهم وأحياهم وقدما السيد باستيلائه على بلنسية حاكم شرقي الأندلس لعله إلى أن مات سنة ثلاثة وتسعين وأربعمائة وتولت بعده زوجته (خمينا) التي لم تستطع الصمود أمام جيش المرابطين فأحرقت المدينة قبل تسليمها سنة خمس وتسعين وأربعمائة فدخلها المرابطون بقيادة الأمير مزعلو بعد أن أصبح معظمها أطلالا دارسه . وفي هذا الحادث يقول (٢) ابن خفاجة :

(١) الذخيرة ، ق ٣ ، ج ١ ص ٦٦ .

(٢) هو أبو محمد مزعلو بن تليكان اللمتوني البربري ، ابن عم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين . كان من أبرز قادة المرابطين وولاتهم . ولحق تلمسان سنة ٤٦٧ هـ ثم تولى قرطبة وغرناطة والمريه إلى أن توفي سنة ٥٠٨ هـ . انظر الذخيرة ق ٣ ج ١ ص ١٠١ ، البيان المغرب ، ٦٠/٤ .

(٣) هو أبو اسحاق ابراهيم بن أبي الفتح بن عبيد الله بن خفاجة ، ولد في جزيرة شقر من أعمال بلنسية سنة ٤٥١ هـ وكانت أسرته على جانب من اليسار مكنه من طلب العلم ومجالسة الشيوخ في مختلف مدن الأندلس وخاصة شاطبه ومرسيه وبلنسية فلب عليه الأدب والشعر حتى أصبح من الفحول . وقد ولع بشعر الطبيعة والأزهار حتى لقب بالجنان . وكان لا يتكسب بالشعر مدح كثيرا من أمراء المرابطين اعجابا بهم وتقديرا لشجاعتهم / انظر : قلائد الحقيان : ٢٦٦ ، بغية الطتمس : ٢٠٢ ، رضوان الدايه ، ابن خفاجة : ٢٦ - ٢٨ .

- عاثت بساحتك المدى يصادار * وصحا محاسنك البلى والنسار .
- فاذا تردد في جنبك ناظر * طال اعتبار فيك واستعبار .
- أرض تقاذفت الخطوب بأهلها * وتمخضت بخرابها الأقدار .
- كتبت يد الحدثان في عرصاتها * لا أنت أنت ولا الديار ديار^(١) .

يقف ابن خفاجة وقفه حزينة بساحة مدينته التي ذهبت محاسنها بفعل ماسلطاته الأقدار عليها من التدمير والحرق حتى خربت وأصبحت مئنه تنكرها لتغير شكلها ولونها وهو في وقفته بهذه الأبيات القليلة - ان لم تكن جزءا من كثير لم يصلنا - لا يتفجع على المدينة ولا يصور ما حل بها . وهو شاعر الوصف ، وانما يردد ناظره في عرصاتها المدمرة بخشوع وسكون معتبرا بذلك وداعيا الى الاعتبار ، كما أنه لم يسجل موقف قاضيها في الدفاع عنها وكيف كان مصرعه المروع بسبب " شدة صبره على تلك الأزمة ، واجتهاده في طلب النصره رجاء استمساك البلدة وابقاء الكلمة . " ولمصل شاعرنا قد هاله الأمر وأنزله فرجع الى العقل بدل العاطفة كما يمكن القول ان حياة ابن خفاجة المترفة وعيشه الناعم كان لها تأثير كبير في شعوره فنراه لا يجارى عندما يصف الأشجار والأزهار والأنهار ، أو يتفنى بمفاني بلنسية وجمالها ، أما الرثاء الذي لم يعتده فجاء سليبا متعثرا ، وكثير من الشعراء يجيد في جانب ويخفق اذا انتقل الى آخر . ولذلك نرى ابن خفاجة نفسه عندما يسمع بارجاع بلنسية الى الاسلام على يد المرابطين يقول قصيدة

(١) ديوان ابن خفاجة : ٣٥٤ . والمعجز الأخير لأبي تمام ومقتضاه

" خيف الهوى وتولت الأوطار " / ديوانه : ١٦٦/٢ .

(٢) البيان المغرب : ٣٧/٤ .

(١)

رائعته منها :-

- الآن سح غمام النصر فانهيها * وقام صنوع عمود الدين فاعتدلا
 - ولا ح للسعد نجم قد خوى فهوى * وكرا للنصر عصر قد مضى فخلا (٢)
 - من عسكر رجفت أرض العدو به * حتى كان بها من وطئه وهلا
 - مابين ربح طراد سميت فرسا * جورا وليث شرى يدعونه بطلا
 - من أدهم أخضر الجلباب تحسبه * قد استعار ردا الليل فاشتتلا
 - واشقر قاني السربال مطهب * قد جال يوقد نار الحرب فاشتتلا
- الى أن يقول :

- وأقشع الكفر قسرا عن بلنسية * فأنجاب عنها عجاب كان منسدلا
- وطهر السيف منها بلدة جنبا * لم يجرها غير ما السيف مفتسلا
- في موقف يذهل الخل الصفي به عن الخليل وينسى العاشق الفزلا
- ترى بني الأصفر البيغي الوجوه به * قد راعها السيف فاصفرت له وجلا (٣)

وفي احراق بلنسية قال الأستاذ ابن خلصة البلنسي :-

- وروضة زرتها للأنس مبتغيا * فأوحشتني لذكرى سادة هلكوا
- تغيرت بعد هم حزنا وحق لها * مكان نوارها أن ينبت الحسك (٤)
- لو أنها ناطقت قالت لفقد هم * "بان الخليط ولم يأروا لمن تركوا"

(١) ديوانه : ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٢) الوهل : الفزع . الصحاح مادة (وهل) .

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن خلصة الشذوني ، من النحويين المتصدرين ، والشعرااء المجودين أخذ عن ابن سيده / انظر : جذوة

المقتبس : ٥٤ ، بغية الوعاة : ١٠٠ / ١ .

(٤) تضمين من زهير ، وعجز البيت : " وزودك اشتياقا أية سلوكا " ديوانه

والملاحظ على مقطوعة ابن خلدون ، وقبلها مقطوعة ابن خفاجة ورود -
التضمين في أحد أشطرها وهو ما ناسب المقام من شعر فحول المشـسـرق
كزهير وأبو تمام وذلك اظهر لسمعة ثقافة الشاعر واطلاعه على شعر المشـسـرق
الذي كان يعتبره الأندلسيون هو الأصل ، وينظرون اليه باعجاب كبير ، كما
أن أسلوب الشعر الأندلسي في القرن الخامس وما بعده كان شديد التركيب
على التضمين والاقتباس ، والأمثال ، والصنعة البلاغية بحيث تقاس جودة
القصيدة بما حوت من ذلك . والواقع أن ما وصلنا من الشعر في رثاء بلنسية
في هذه الحادثة قليل جدا بالرغم من كثرة شعرائها ، ولعله قد ضاع
في وسط ذلك المعترك المضطرب ، والقسوة البالغة التي كان يتبعها
القميظور في معاملة أهلها . ثم تأتي نكبة بلنسية الثانية التي أصبحت
بعدها مدينة نصرانيه في منتصف القرن السابع الهجري . وذلك بعد
أن عاشت ودعاهن الزمن في كف المرابطين نعمت خلاله بالأمن والاستقرار
والرخاء . واستمرت على هذه الحال ما يقرب من قرن خلال حكم الموحديين
الذين قضوا على حكم المرابطين في المغرب سنة احدى وأربعين وخمسمائة
(١)
ودانت لهم الأندلس تبعا لذلك وقد اعتنى الموحدون بالأندلس عناية فائقة
فحكموها بواسطة حكام من أهلها ينهون عنهم ، ووفروا لهم قوة دفاعية
كافية . كما كان الخلفاء الموحدون يجوزون بأنفسهم على رأس الجيوش الضخمة
من مراكن الى الأندلس لتأديب النصارى عندما يمتدون على الأراضى الأندلسية
ومن أبرز ذلك ما قام به الخليفة أبو يوسف يعقوب الطقب بالمنصور - ثالث
الخلفاء الموحديين - في سنة احدى وتسعين وخمسمائة حيث توجه الى الأندلس
بجيش كبير ليدفع عنها عادية القشتاليين الذين أخذوا يشنون الغارات على

نواحي الأندلس وخاصة منطقة إشبيلية عاصمة الأندلس آنذاك ، والثقل

(١)

الجمعان عند حصن (الأرك) وكان القشتاليون بقيادة طمكهم الفونس الثامن

الذي جمع جموعا لم يجتمع له مثلها قط حتى ساءت ظنون الجيش الموحدى

(٢)

لما رأى من كثرة العدد . يقول الضبي عن هذا الجيش : " ينيف على

خسة وعشرين ألف فارس ومئتي ألف راجل ، وكان معه جماعات من تجار

اليهود قد وصلوا لاشتراء أسرى المسلمين وأسلابهم وأعدوا أموالا ، فهزمهم

الله تعالى " . واشتبك الطرفان فى معركة فاصلة أخلص الموحدون فيها النية

(٣)

وثبتوا ثبات الشم الرواسى فمنحهم الله النصر فقتلوا من الكفار ثلاثين ألفا

وفر الباقون مع قائدهم . وكانت هذه المعركة من أيام الاسلام المشهود

التي أعادت أمجاد الجهاد القديم ، ولبثت القوات القشتالية بعدها

عدة سنوات صامته تتهيب لقاء الموحدين . ولم يلبث المنصور أن توفي سنة

خمس وتسعين وخمسائه وخلفه ولده الشاب محمد الناصر لدين الله الذى

شفل عن الأندلس ما يقرب من اثنتى عشرة سنة فى مقاومة الثورات التي قامت

(٤)

ضده فى المغرب فور ارتقائه عرش الخلافة مادفع النصارى الى التفكير فى

(١) حصن منيع بالقرب من قلعة رباح ، وهو أول حصون الانفونش بالأندلس

يقع على أحد فروع نهر آنه وتقوم اليوم على انقاضه كنيسة تعرف بكنيسة

القديسه مريم صاحبة الأرك . / الروى المعطار : (الأرك) ، عنان

عصر المرابطين .

(٢) المراكشى ، المعجب : ٣٥٨ - ٣٥٩ / والموحدين فى المغرب والأندلس :

٢٠٣/٢ .

(٣) بغية الملتص : ٤٥ - ٤٦ .

(٤) الروى المعطار : تحت كلمة (الأرك) ، ابن أبى زرع : الأنيس المطرب :

١٥٦ .

(٥) عنان ، عصر المرابطين والموحدين : ٢٨٣/٢ .

تتألف من جيوش مملكة قشتالة ، ومملكة أراجون ومملكة نافارا كما جاءت النجدات أيضا من الصليبيين الذين كانوا قد توجهوا الى الشرق الاسلامي فيما نسميه بالحملات الصليبية التي تزامنت مع هذه الأحداث . وفي سنة تسع وستمائيه التقى الجيشان في موضع يعرف بـ (العقاب) ودارت بينهما معركة حامية رجحت فيها كفة الموحدين في البداية ولكن تغير مجراها في النهاية لصالح النصاري ، وانجلت عن عشرات الآلاف من القتلى ، وتمزق الجيش الموحدي شرموز وفقر الخليفة الناصر بمن بقى معه بعد أن كان واثقا بكل الثقة بالنصر لكثرة جيشه وعتاده . وأخذ النصاري يطاردون الفاريين ويوقعون فيهم أشنع ضروب السفك والتقتيل حتى فنى أكثرهم ولقد كانت هذه الهزيمة المروعة التي لم يقع مثلها في تاريخ الأندلس كه هالا وشؤ ما ينذر بسقوط دولة الموحدين وغروب شمس الأندلس ، وقد تحدث المؤرخون عن أسباب هذا الانهزام وأفاضوا في ذلك ، ومهما تكن تلك الأسباب والمبررات فقد اغتم الناصر غما شديدا أودى بحياته في العام التالي للهزيمة . وقد تردد صدى هذه الواقعة واستتجروا على الأندلس نتائجها في الشعر آنذاك فقال ابراهيم بن الدباغ الاشبيلي : (٥)

(١) البيان المغرب : ٢٤٠ / ٣ - ٢٤١ .

(٢) منطقة جبلية بالأندلس بين جيان وقلمة رياح وفي قمتها حصن يعرف بحصن العقاب . / الروض المعطار (جيان) الأنيس المطارب : ١٥٩ .

(٣) المراكشي ، المعجب : ١٨٣ - ١٨٥ .

(٤) الحلل الموشيه : ١٢٢ .

(٥) نفح الطيب : ٤٦٤ / ٤ . ولم أعثر له على ترجمته .

- وقائلة أراك تطيل فـكـرا * كأنك قد وقفت لدى الحساب .
- فقلت لها أفكر في عقاب * غدا سببا لمعركة العقاب .
- فما في أرض أندلس مقام * وقد دخل البلا من كل باب .

ولقد صدق حدس الشاعر بدخول أنواع البلاء الى الأندلس ، فلما توفي الخليفة الناصر بوبع ولده يوسف المستنصر وكان فتى لم يجاوز السادسة عشره من عمره فعكف على اللذات وأضاع الحزم في تدبير الملك وفوض الأمر الى غير أهلها فاضطربت الأندلس وماجت بالفتن والحرب الأهلية بين الموحدين المتنافسين على السلطة وبين أبناء الأندلس أنفسهم أيضا وعادت الى الصورة التي كانت عليها أيام حكم ملوك الطوائف فتهيأ المجال للنصارى لكي يستثمروا نصرهم فبدأوا باحتلال الحصون والمناطق الإسلامية . في غرب الأندلس تمهيدا لاحتلال القواعد الكبرى وشجعهم على ذلك توالى الخلفاء الضعفاء على عرش الدولة الموحدية الذين لم يستطيعوا السيطرة على بلادهم أنفسهم ناهيك عن الأندلس التي فسدت ادارتها وأصبحت المناصب تباع وتشترى بالأموال والرشاوى ، وكان الذين يشترونها يمتصون دماء الناس بشراهة ، فليس عجيبا أن يصبح الصياد أو الحائل بين عيشة وضحاها وزيرا أو أميرا .

- وفي تصوير هذه الحالة يقول الكاتب أبو عبد الله الفازاري : - (٣) .
- الروم تضرب في البلاد وتغنم * والجور يأخذ مابقي والمحرّم
- والمال يورد كله قشتالسة * والجنود تسقط والرعية تسلم
- وذوو التعمين ليس فيهم مسلم * إلا معين في الفساد مسلم
- أسقى على تلك البلاد وأهلها * الله يلطف بالجميع ويرحم

(١) تاريخ ابن خلدون (المبر) : ١٦٩ / ٧ .
 (٢) ابن سعيد المصري ، القدر المطلق : ١٤٣ .
 (٣) نفح الطيب : ٤٦٧ / ٤ .

وقيل ان هذه الأبيات وجدت في جيب صاحبها يوم موته ، ولما وقف عليها سلطان بلده قال بعدما بكى : صدق رحمه الله ، ولو كان حيا لضربت عنقه وهذا يدل على أن الحكام أنفسهم كانوا يعلمون الحالة المتردية التي وصلت اليها أمور الأندلس ، ولكنهم من جهة أخرى لا يسمحون لأي صوت ناقص — أو معارض خواف من ثورة جمهور الناس ضدهم . ولقد رسم قائل هذه الأبيات صورة صادقة لحالة البلاد والحكام الظالمين مع العدو وفي ظلم الرعية التي أهلكتها المفارم وعصفت بها المجاعات ولا غرو أن تكون الأبيات على درجة كبيرة من التأثير لأن صاحبها قد مارس السياسة وعاش الحكام فقد كان أحد كتاب الخليفة الموحدى الناصر . (١)

وفي الوقت الذى كانت فيه أحوال الأندلس تتردى وتشططها الفوضى المدمره كانت أحوال ملوك النصارى المنتصرين على خير مايرام من الانسجام والتفاهم ، فاتفقوا على أن يسيطر كل واحد منهما على منطقة من الأندلس ويتحكم في مصيرها فكان نصيب فرناندو الثالث ملك قشتالة وسط الأندلس وغرنها ، ونصيب غايى الأول ملك أراجون شرق الأندلس . فقام الأول سنة ثلاث وثلاثين وستمائى بمحاصرة قرطبه التي لم يكن عليها أمير بعد أن ثار شعبها بواليهم السيد أبى الربيع الموحدى وقتلوه ، ودام الحصار بضعة أشهر انتهى بتسليمها بعد مقاومة شديدة من أهلها كلفتهم الكثير من الدماء (٢) والضحايا . واضطروا بالتالى الى تركها وخناجر الحزن تنغمس في قلوبهم كلما نظروا الى الصليب الضخم الذى طلق على مؤذنة جامعها الأعظم أو الاحتفالات الدينيه الصليبيه التى أقامها النصارى في رحابه بعد أن أصبح

(١) عنان ، عصر المرابطين والموحدين : ٣٢٦/٢ .

(٢) أشباخ ، تاريخ الأندلس : ٤٣٠ (الترجمة العربيه) .

كنيسه ، ولا نجد تفاصيل فى كتب التاريخ عن كيفية احتلال قرطبه ، كما لا نجد قصائد رنائه فى رثائها ، ولعل ذلك راجع لقلة شعرائها وكتابها فى ذلك الوقت . أما غايى الأول فقد اتجه الى افتتاح جزائر الأندلس الشرقية ليصل الى مدينة بلنسية عاصمة تلك النواحي ، فتقدم فى سنة خمس وثلاثين وستمائة وحاصر حصن أنيشة^(١) المنيع الذى يعتبر خط الدفاع الأول عن بلنسية ودافع عنه البلنسيون دفاعا بطوليا بقيادة أميرهم أبى جميل زيان بن مدافع بن مردنيش الجذاص ولكنهم أصيبوا بهزيمة شنيعة فى النهايه ، وقتل منهم عدد كبير كان من جملتهم جماعة من علماء بلنسية وصلاحائها ، واستولى النصارى على الحصن وأصبح مركزا هاما لهم يغيرون منه على بلنسية التى انتهزت قواها الدفاعيه وأصبحت وشيكة السقوط . وفى السنة التالية لسقوط الحصن نظم ملك أراجون قواته ، وتلقى تشجيما من البابا جريجورى التاسع يحضه على سرعة مهاجمة بلنسية وأمدّه بالآف من المتأوجهة الفرنسيين والبرشلونيين حتى بلغت قواته المشتركة فى حصار بلنسية عشرة آلاف فارس وستين ألف راجل ، فضيق الخناق على المدينة بشده وضربها بالآلات المدمره فرأى أميرها الاستنجاد بدولة بنى حفص الفتيه التى قامت فى المغرب أثناء احتضار الدولة الموحدية وأرسل الى أميرها كاتبه الشهير ابن الأبار الذى أتشد بين يديه قصيدة رائعه سنعرض لها فى فصل الاستصراخ ، واستجاب الأمير الحفصى للنداء وبعث أسطولا مشحونا بالأسلحة والأطعمه والأموال ولكنّه جاء متأخرا فلم يستطع الوصول الى المدينة لشدة الحصار البرى والبحرى فعماد

(١) أنيشة : موضع على مقربة من بلنسية ، يبعد سبعة أميال عن شمالها

وحصن أنيشة على جبل معترض عال على البحر والصعود اليه صعب جدا

ومشرف على مرج بلنسية وحداثتها / الروض المعطار : (أنيشة) .

(٢) عصر المرابطين والموحدين : ٤٤٤ / ٢ .

(٣) النفج : ٤٦٠ / ٤ .

(١)

الى افريقيه بعد أن أفرغ حملته في ثغر دانيه بعيدا عن منطقة الحصار ،
وهكذا تركت بلنسية تواجه مصيرها منفردة حتى اذا بلغ الجهد بأهلها
فايته اضطروا الى تسليم المدينة بعد خمسة أشهر من الحصار صلحا على
أن يخادروها البلنسيون حاطين ماشاءوا من أمتعتهم في خلال عشرين
يوما . فخرج منها ما يقرب من خمسين ألفا بقلوب مكومة وعيون دامعة
فغيرت معالمها الاسلاميه على الفور وقسمت دورها وأموالها بين الأحرار
والأشراف والفرسان النصاري وأصبحت هذه الأملاك وراثيه في ذريتهم . وهكذا
رجعت بلنسية مدينة نصرانيه بعد أن استتارت بنور الاسلام ما يزيد على
خمسة قرون . وقد أذكت هذه المحنة فجيئه الشمر والنثر معا ، فسراج
أبناء بلنسية يرثونها بطائفة من القصائد والرسائل المبكيه ، وسأقتصر
هنا على ذكر القصائد تشيا مع موضوع البحث الا اذا احتوت الرسالة على قصيدة
(٢)
فان ذكر منها طرفا بسيطا كالرسالة الطويلة التي يبحث بها ابن عميره الى ابن
الأباريصف حادث بلنسية قائلا : " فيا لله لأتراب درجوا ، وأصحاب
عن الأوطان خرجوا قصت الأجنحة وقيل طيروا ، وانما هو القتل أو الأسر

(١) مدينة بشرق الأندلس على البحر كثيرة الشجر والخصب ، وهي دار انشاء
الأسطول الاسلامي ومنها كان يخرج للفرز . انظر : الروي المعطيار
" دانيه " .

(٢) هو أحمد بن عبد الله بن عميره المخزومي . يكنى أبا المطرف ، ولد
بجزيرة شقر سنة ٥٨٢ هـ وعنى بالأدب حتى برع وعد من مجيدي النظام
والنثر . كان كاتباً لزيان الجذامي والي بلنسية ، ولما احتلت هاجر
الى مراکش وكتب للموحدين ثم استقر أخيرا في تونس ومات سنة ٦٥٦ هـ
انظر : ابن فرحون ، الديباج الذهب : ٥٠٦/١ ، الاحاطة : ١٧٣/١
بلنشيا ، تاريخ الفكر الأندلسي : ٣٠٥ .

أو تسيروا ، فافترقوا أيدي سبا ، وانتثروا على الوهاد والربا ، ففى كل
 جانب عويل وزفره وكل صدر غليل وحسره ومالبت أن أخرس من
 سجدها لسان الاذان ، وأخرج من جسدها روح الايمان . فبحر الخفا
 وقيل : على آثار من ذهب العفا ثم زحفت كته الكفر بزرقها
 (١) وشقرها حتى أحاطت بجزيرة شقرها ، فأما لمسقط الرأس هوى جسمه ،
 ولفادح الخطب سوى كلمه ، وبالجنة أجرى الله تعالى الأنهار من تحتها ،
 (٢) وروضة أجاد أبو اسحاق نعتها

ويشفع ابن عميره رسالته بالقصيدة التالية :-

- أقلوا ملاي أو فقلوا وأكثروا * ملومكم عما به ليس يقصر .
- وهل غير صب ماتنى عبراته * اذا صعدت أنفاسه تتحدر .
- يحن وما يجدى عليه حنينه * الى أربع معروفها متكسر .
- ويندب عهدا بالمشقر فاللوى * وأين اللوى منه وأين المشقر .
- تغير ذاك العهد بعدى وأهله * ومن ذا على الأيام لا يتغير .
- وأقفر رسم الدار الا بقيعة * لسائلها عن مثل حالى تخبر .
- فلم تبق الا زفرة اثر زفرة * ضلوى لها تنقد أو تغادر .
- والا اشتياق لا يزال يهزنى * فلا غاية تدنو ولا هو يفستر .

(١) تطلق على الجزيرة الكبيرة الواقعة فى نهر شقر قبل مصبه فى البحر المتوسط جنوبى بلنسيه ، وهى من أجمل البقاع فى تلك المنطقه وهى مسقط رأس ابن عميره وأبو اسحاق بن خفاجه . / الا حاطه الحاشيه)
 : ١٧٩/١ .

(٢) الرسالة فى النفخ : ٤٩٣/٤ وانظر رسائل أخرى فى المصدر نفسه
 : ٤٩٥ - ٤٩٦ ، الروض المعطار تحت كلمة (بلنسيه) .

وفى هذه الأبيات تبدولنا حالة الشاعر النفسى حيث سيطر عليه الحزن والبكاء وأخذ منه الحنين والشوق المتوهج كل مأخذ حتى غدا لا يلتفت إلى كلام اللائمين مهما أبدأوا فيه وأعادوا وذلك لأنه أصبح طريدا شريدا يندب عهده السابق الذى تمتع فيه مع الأصحاب والأتراب فى ربوع وطنه قبل أن تطرقهم الحوادث وتفرق جمعهم ، وتترك رسوم الدار منهم مقفرة . وهو يرمز لبلنسيه بلفظ (المشقر ، واللوى) وفى قصيدة أخرى بلفظه (نجد) وهى مواضع معروفة فى جزيرة العرب تغنى بها الشعراء وحنوا إليها بعد الفراق ، ولعله هنا أراد البعد المعنوى ، فالأعداء يحولون بينه وبين الدخول على بلاده رغم قربها منها ، لذلك نراه يهتز شوقا وتجري عبرته كما رأى وميض البرق فى خاطبه :-

- أقول لسارى البرق فى جنح ليلة * كلاًنا بها قد بات يبكى ويسهر .
 تعرض مجتازا فكان مذكرا * بعهد اللوى والشئ بالشئ يذكر .
 أناوى لقلب مثل قلبك خافق * ودمع سفوح مثل قطرك يقطر .
 وتحمل أنفاسا كوضك نارها * اذا رفعت تبدولمن يتنور .
 يقر بعين أن أعابن من نأى * لما أبصرته منك عيناى تبصر .
 وأن يتراءى الخليل الذين هم (١) * بقلبي وان غابوا عن العين حصر .
 كفى حزنا أنا كاهل محصب * بكل طريق قد نفونا ونفصر .
 وأن كئينا من مشوق وشائق * بنار اغتراب فى حشاه تسمصر .

(١) المحصب : موضع بمكة معروف ، أو هو موضع رعى الجمار بمعنى . / الروعى المعطار (المحصب) معجم البلدان ، المادة نفسها .

ومخاطبة البرق وسؤاله عن الديار والأحبة غرض شعري أفاض فيه شعرا^١
 الحنين منذ القديم . وشاعرنا هنا يشارك البرق وجدانيا في ملامحه وهيئته
 فكلاهما خافق القلب منهمر الدمع ، وإذا كان البرق يتميز بوميضه فـان
 أنفاس الشاعر المطهبة لا تقل عن ذلك لو ظهرت للعميان . ولا يكتفى الشاعر
 بذلك بل يحاول أن يمتزج بالبرق ليصير من خلاله أحبابه النازحين بعيدا ،
 ويصرونه هم أيضا بالطريقة نفسها إذ لا أمل في اللقاء بعد أن سار كل
 في طريق يكابد نار الشوق المضطرمه في أحشائه ، ومع هذه الصورة
 الجميلة ينتقل الى ذكر معاهد صباه متشوقا :-

- ألا ليت شعري والأمانى ضلّة * وقطى ألا ياليت شعري تحير .
- هل النهر عقد للجزيرة مثلما * عهدنا وهل حصباؤ^٢ وهي جواهر .
- وهل للصبا ذيل عليه تجرّ^٣ * فيزوره عنه موجه المتكسر .
- وتلك المغانى هل عليها طلاوة بما راق منها أو بمارق تسحر .
- ملاعب أفراس الصبا والصبا * تروح اليها تارة وتبكر .

يمضى الشاعر في وصف الأنهار والجبال والخصائل والورود التي طالما

تمتع بها وقضى أوقات لهوه بينها ومخاضة رحلات الصيد :

- وكم قد هبطنا القاع ندع وحشه * ويأحسنه مستقبلا حين يذعر .
- نقود اليه طائعا كل جارح * له منخر رجب وخصر مضمر .
- إذا مارميناه به عبث بـه * مؤلفة الأطراف عنهن تكسر .

ويختم هذه القصيدة بهذين البيتين :-

- كذاك الى أن صاح بالقوم صائح * وأنذر بالبين المشتت منذر .
- وفرقهم أيدي سبا وأصابهم * على غرة منهم قضا مقدر .

والملاحظ على هذه القصيدة خلوها من معاني الرثاء إلا ماجاء فنسب
البيتين الأخيرين . فهي مفعمة بالحنين والشوق الى الوطن بكل أجزائه
ولم تتطرق الى سقوط المدينة بيد الكفار وذهاب صبغتها الاسلاميه ، ولحل
الشاعر الكاتب استنقذ هذه المعاني في الرسالة التي ختمها بهذه القصيدة
فجاء نثره أقوى تأثيرا وعاطفة من نظمه ، كما أننا نجد في القصيدة دعوة
للجهاد أو استصراخا بأحد لانقاذ المدينة ، فقد سد اليأس على الشاعر
(١)
كل الأبواب . ويقول من قصيدة أخرى :-

- ألا أيها القلب المصح بالوجد * أمالك من بادي الصباية من بد
- وهل من سلو يرتجى لمتيسم * له لوعة الصادي وروعة ذي الصد
- يحن الى نجد ، وهيئات حرمت * صروف الليالي أن يعود الى نجد
- فياجبل الريان لا يرى بعد مـ * عدت غير الأيام عن ذلك السود
- وبأهل ودي والحوادث تقتضى * خلوى عن أهل يضاف الى السود
- ألا متعة يوما بعارية المني * فانا نراها كل حين الى السود
- أمن بعد رزق في بلنسية ثوى * بأحنأنا كالنار مضرة الوقيد
- يرجو أناس جنة من مصائب * تطاعن فيهم بالمشقة الطد
- ألا ليت شمري هل لها من طالع * فماد الى ماكان فيها من السعد
- وهل أذنوب الأبناء ذنب أبيهم * فصاروا الى الاخراج من جنة الخلد

(١) النفح : ٣٠٥ / ١ - ٣٠٦ .

(٢) جبل في ديار طحى يسيل منه الماء . معجم البلدان تحت (ريان) .

(٣) الطد : التلصص المصقول . الصحاح (ملد) .

وقصيدته هذه تسير على نهج سابقتها ، فهي حنين وصباية يطفح
 بهما قلب الشاعر المتيم الذي يأبى السلوعن تذكر الوطن ومن فيه مهمما
 اقتضت الحوادث خلوه واقصاه عنه ثم نراه ينهزم في معركته مع الأيام العاديسة
 فيتشاء من الحياة ويرى كل ما فيها من جمال ومثع : لا يعد وكونه عاريسنة
 مالها الى الرد ، ولا أدل على ذلك من الواقع الذي يعيشه الشاعر بمعد
 أن رماه الدهر بقاصمة الظهر ، وأشعل قلبه نارا بضياح وطنه بلنسيه ، تلك
 الجنة التي نال فيها السعادة حقبة ، وفقد ها أظلم نهارة فأصبح ينظر
 الى الدنيا بمنظار قاتم لا يشاهد فيه الا المصائب النازلة بالناس حيث
 لا يستطيعون لها دفعا ولا منها هروبا .

وفي قصيدته الثالثة يقول :- (١)

- ما بال دمك لا يني مدراره * أم مالمليك لا يقر قراره .
- اللوعة بين الضلوع لطاعن * سارت ركائبه وشطت داره .
- أم للشباب تقاذفت أوطانه * بعد الدنو وأخفت أوطاره .
- أم للزمان أتى بخطب فادح * من مثل حادثة خلت أعصاره .
- بحر من الأحزان عب عبابه * وارتج ما بين الحشا زخاره .
- في كل قلب منه وجد عنده * أسف طويل ليس تخبوناره .

يقدم الشاعر لرتاء مدينته بحوار داخلي يجريه مع نفسه التي تسائله
 عن سبب دمعه المنهمر وقلبه الخافق المضطرب . وهو يتخذ من ذلك تعليلا
 لتعداد المآسى الكثيرة التي نجمت عن فقد الوطن الغالي فالأحباب سارت
 ركائبهم ومعدت دأره ، وتفرق شطهم ، ومعاهد الشباب قد أناخ عليها
 الزمان بكللكه فمسخ صورتها ، فالشاعر يفرق في بحر من الأحزان يفشس

كل قلب مسته النكبة فيوقد فيه جمر الأسى . ثم ينتقل الى بلنسية ومالك
اليه حالها :-

- أما بلنسية فمشوى كافر * هفت به فى عقرها كهاره .
- زرع من المكروه حل حصاده * عند الغد وغداة لج حصاره .
(١)
- وعزيمة للشرك جمعج بالهدى * أنصارها ان خانة أنصاره .
- قل كيف تثبت بعد تمزيق العدا آثاره أم كيف يدرك ثناره ؟

والشاعر هنا يذكر السبب الأهم الذى ضاعف حزنه وألمه ذلك أن بلنسية
عاصمة الاسلام فى شرق الأندلس قد أصبحت موطنًا للكفار والمشركين الذين
لم يدخروا وسعًا فى التضيق على المسلمين بعد أن تأكدوا من انعدام
ناصرهم أولئك الذين يصفهم الشاعر بالخيانة لخذلانهم دين الهدى ، وهنا
تشتد عاطفة الشاعر الاسلامية قليلا . لكنه سرعان ما يعود الى الحزن اليأس
عندما يتذكر قوة الأعداء فى مقابل الضعف الشامل الذى يسيطر على المسلمين
بحيث يصعب معه ادراك الثأر . ويمود ابن عميره بعد ذلك - كما هى عادته
- الى التفنى بجمال بلنسية وكيف أظلم نهارها بالضلال بعد أن كان ليلها
يضئ بالهداية والنور فيقول فى صوت كئيب :-

- ماكان ذاك المصرا الجنة * للحسن تجرى تحته أنهاره .
- طابت بطيب بهاره آصاله * وتعطرت بنسيمه أشجاره .
(٢)
- أما السرار فقد عداه وهل سوى * قمر السما يزول عنه سمراره .

(١) جمعج : حبس وضيق ، اللسان ، ماله (جمعج) .

(٢) السرار : سرر الشهر ، آخر ليلة منه ، وفيها يختفى القمر . اللسان

ماده (سرر) .

- قد كان يشرق بالهداية ليلة * والآن أظلم بالضلال نهارة .
- ودجا به ليل الخطوب فصبحه * أعيأ على أبصارنا اسفاره .

وأسلوب الشاعر تغلب عليه السهولة الطونه بالمحسنات اللفظية والبديعية ولعل كونه ناثرا بارعا في استخدام الزخرفة والتصنيع - كما يظهر من رسائله المشار اليها - أثر بشكل ملحوظ في شعره . ورغم ذلك فانه لم يأت بصور مبتكرة ذات ظلال وايحاء لا يعتمد على الخيال . أما عاطفته فجياشة يذكىها تذكيره وحنينه الى جنته التي أخرج منها ، وشعره مفعم بالشكوى والتبرم والوجد . ففي قصائده التي مرت بنا كان يفتتحها بالدمع المردار ، والقلب المصح بالوجد ، وملحة فيها كثير من الانكسار وتكاد تخلو من الحماسة والاثارة وطلب الغوث ، فنراه يكثر من ذكر الأطلال والربوع الدارسة وهو بذلك يتكى على شعر الأطلال في مختلف عصوره فيذهب مع أولئك الشعراء ويذكر عهد (اللوى ، والمشقر) ويحن الى نجد ومخاطب جبل الريسان كل ذلك تقليدا واتباعا . ولعله من الكثير أن تطالب ابن عميره بموقف ايجابي كالذى سلكه زميله ابن الأبار - كما سيأتى - ذلك أن ابن عميره قال قصائده بعد سقوط بلنسية ومعها جطة من المدن والحصون الأندلسية بسبل أصبحت الأندلس كلها تحت رحمة النصارى والدولة الموحدية كانت تطفئ أنفاسها الأخيرة ، وزاد الأمر سوءا اخفاق النجدة الحفصية في الوصول الى المدينة فغلف اليأس قلوب الناس فجاء تصوير ذلك على لسان أشدهم احساسا بذلك شاعرنا ابن عميره أما ابن الأبار فقد كانت قصائده كلها استصراخا واستفاشة لأن الأمل في النصر لا يزال موجودا والمدينة لم تسقط بعد .

(١)

رثاء اشبيلية :

بعد أن أنهى خايمي الأول ملك أراجون سيطرة المسلمين على ثغور
الأندلس الشرقية ، جاء دور فرناندو الثالث ملك قشتالة ليواصل فتوحه
في وسط الأندلس وجنوبها . وكانت أهم المعقات التي تقف في طريقه هي
قوة ابن الأحمر سلطان غرناطة الذي شكل دولة قوية في جنوب الأندلس
استطاعت سنة ست وثلاثين وستمائه أن تهزم القشتاليين ، غلبت مدينته جيان . لذا
فقد صمم الملك القشتالي على إخضاع ابن الأحمر لسلطته فجهز جيشا كثيفا
وسار به نحو جيان وأخذ يخرب ما حولها وينتسف زروعها ، وكانت هذه
المدينة من أعصب مناطق الأندلس وأمنعها لما تحوى من القلاع والحصون
والأسوار ، فحضر حولها طوقا من الحصار الشديد لمدة شهر وهي صامدة
تنتظر المدد ، ولكن ابن الأحمر عجز عن ذلك ، وقرر التفاوض مع القشتاليين
ونذهب من توه إلى معسكرهم تحت أسوار جيان وقدم الطاعة والولاء لفرناندو
(٢)
ثم عقد معه معاهدة سلام لمدة عشرين عاما تحوى شروطا قاسية من أهمها

-
- (١) من أمصار الأندلس الجلييلة ، تقع على نهر الوادي الكبير وبينها وبين
قرطبة ثمانين ميلا ، وهي قديمة البناء ، عظيمة الأسوار ، غصبة التربة
تكثر حولها أشجار الزيتون وغيرها . / الروض المعطار (اشبيلية) .
(٢) هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن خميس بن نصر الخزرجي الأنصاري ،
يلقب بالغالب بالله ولد سنة احدى وتسعين وخمسمائه وملك غرناطة
سنة ٦٣٥ هـ ، دعا في بداية أمره للمعاسيين ثم للموحدين والحفصيين
ثم نزع واستقل بذاته توفي في ٦٧١ هـ . / انظر ابن الخطيب : اللمع
البدريه : ٤٢ - ٤٨ . عنان : تراجم اسلاميه : ٢٥٨ .
(٣) عنان ، عصر المرابطين والموحدين : ٤٦٨/٢ .

تسليم المدينة المحاصره في الحال ، و دفع جزية سنويه مقدارها خمسة عشر ألف قطعة ذهبية ، وأن يحكم ابن الأحمر غرناطه باسم ملك قشتاله ويحضر اجتماع مجلس قشتاله (الكورتيس) باعتباره أحد الأمراء التابعين للعرش . والأهم من ذلك أن يشارك ابن الأحمر بقواته الجيش القشتالي في حروبه ضد المسلمين . وهكذا سلم العرش الغرناطي المهزوز لابن الأحمر على حساب شرفه ودينه . ثم دخل النصارى جيان وطردها أهلها ووزع ملكهم دورها على الأشراف والفرسان وحول مسجد ها الى كنيسه وذلك سنة ثلاث وأربعين وستائه . ولما رأى الملك القشتالي حصول جيان في يده أخذ يتطلع الى اخضاع اشبيلية عاصمة قواعد جنوب الأندلس حيث لم يبق غيرها ممن الحواضر الكبرى بيد المسلمين ، وكانت هذه المدينة تتمتع باستقلال محلي رغم انضوائها تحت لواء هذا الأمير أو ذاك ، فقد خلعوا طاعة الدولة الموحدية وهايموا ابن الأحمر ثم ثاروا عليه بعد مدة بسيطة ورجعوا الى طاعة الموحدين شكليا ، حيث كان الحكم الفعلي بيد الزعيم المحلي أبو عمرو ابن الجد الذي كان صديقا لملك قشتاله وتربطه به معاهدة على نمط معاهدة (١) الملك وابن الأحمر وأخيرا قرر ابن الجد خلع طاعة الموحدين وببايعة الأمير أبي زكريا الحفص صاحب الدولة الناشئة في تونس والتي تستطيع الانجاد في أي وقت ، فبعث الحفص من قبله من يشرف على شئون اشبيلية الى جانب ابن الجد ووعد أهل اشبيلية بالمعونة ولكن أولئك النفوس الذين قدموا الى اشبيلية أساءوا السيره وأحدثوا كثيرا من المفاصد فطردهم أهل اشبيلية وقتلوا ابن الجد الذي كان السبب في مجيئهم ، فغضب فرناندو القشتالي لمقتل

(١) عنان ، المرجع السابق : ٤٧٣ / ٢ .

(٢) ابن خلدون ، تاريخ العبر : ١٧١ / ٤ .

صديقه واتخذ ذلك ذريعة لاحتلال اشبيلية التي لم يعد لها من ينجدها بعد أن خلعت طاعة الموحدين ، والحفصيين ، ولكن مع هذا فان احتلالها لم يكن بالأمر السهل فهو محاطة بالقلاع والحصون المشحونة بالمقاتلين من مختلف جهاتها بالإضافة الى خصبها وكثرة خيراتها ، ووقعها على نهر الوادى الكبير الذى يمكن بواسطته الاتصال بالمغرب . لذا فقد فزع فرناندو الى البابا يطلب المساعدة ، فأصدر البابا قرارا يفتى بتخصيص ثلث إيرادات الكنيسة القشتالية والليونية للمساهمة فى الحرب . وفى سنة أربع وأربعين وستمائة جمع فرناندو وحشودا ضخمة وسار بهم نحو اشبيلية فاصطدم بحصون قرومونه المنيع فحاصره وأهلك ما حوله من الزروع ثم استولى عليه بعد ستة أشهر بمساعدة حليفه ابن الأحمر الذى وافاه بخمسمائة فارس وكان له دور كبير فى اقناع أهل الحصون بالتسليم كعمله مع أهل قلعة جابر حصن اشبيلية من الجنوب الشرقى ثم استمرت الجيوش المشتركة فى السير واحتلال القلاع حتى وصلت الى اشبيلية وحاصرتها برا وحرا ، وضرب أهل اشبيلية أروع الأمثلة فى الصمود والدفاع المستميت عن بلدهم ، ولكن ضخامة النجدة النصرانية التى كانت تأتى لتعزيز الحصار بقيادة الأساقفة والرهبان أفقدت المحاصرين كل أمل ، وبدأ شبح الجوع والضيق والارهاق يدب حثيثا الى المدينة

(١) عنان ، المرجع نفسه : ٤٧٤/٢ .

(٢) مدينة حصينه فى الشرق من اشبيلية ، تقع فى سفح جبل عال وتحيط بها الأسوار المنيعه التى تصعب على المحاربين مها أسواق عامسره ودار لصناعة السلاح ، فتحها الأمويون سنة ٣٠٥ هـ . / السروى المطار : (قرومونه) .

(٣) انظر : ابن أبى زرع ، الذخيره السنيه : ٧٢ - ٧٣ .

فاضطروا أهلها إلى تسليمها بعد خمسة عشر شهرا من الحصار الخانق ،
وخرج منها ما يزيد على أربعمائه ألف نسمة بما لهم وسلاحهم وانتشروا في مختلف
الأقطار . ودخل فرناندو المدينة العظمى وجعل فيها مركزا مطرائية ورفعت
الصلبان والأجراس ~~الضخمة~~ على منارة جامع اشبيلية ، واستقر فيها واتخذها
عاصمة له بدلا من طليطلة ، وذلك سنة ست وأربعين وستمائه . وقصد
صور الشعر محنة هذه المدينة الصامدة بمواطن صادقة ملتزمة تستراح
بين الحزن والبكاء وطلب الفؤاد والنجدة عندما اشتد الحصار وقربت النهاية .

ومن ذلك قول أبي موسى هارون بن هارون : - (١)

يا حمى أقصدك المقدور حين رمى * لم يبرح فيك الردى إلا ولا ذمما .
جرت عليك يد الدهر ظالمة * لا يعدل الدهر في شيء إذا حكما .
ما كنت أحسب أن الحادثات إذا * همت بك السوء لا تطلق لك السلما .
قد كان حسنك فتان الشباب فمذ * أصبت عوضت منه القبح والهرما .
ياجنة زجرتنا عن زخارفها * ننهنا فلزنا البت والندما .
يقف الشاعر متأملا ومتعجبا من انقلاب حالة مدينته حيث أصابته
الحادثات التي لا ترحى إلا ولا ذمة ، فحولت حسناتها قبحا وشبابها هرمًا ،
وصار أهلها إلى الإخراج منها والابعاد . يتجرعون لذلك قصص الحزن والندم
الذي لا يجدى من أوضاع وفرط شيئا ، والشاعر يرجع سبب هذه المحنة إلى
صروف الدهر الجائرة في حكمها . ومعركة الشعراء مع الدهر قديمه قدم الشعر
نفسه فالشاعر دائما يحمل الدهر تبعه ما يلاقى الخفاق والآلام ويرى في

(١) عنان ، عصر المرابطين والموحدين : ٤٨٢ / ٢ وذكر أنه نظمها عن البيان

المغرب : ٣٨٢ / ٣ - ٣٨٤ ولكن لم أجدها في الموجود منه بين أيدينا

في الموضع المشار إليه .

عدوا يقف له بالمرصاد ، وقيدا يخنق حياته . ثم يصف الشاعر زحف جيش الأعداء وما أحدثه بأشبيلية من البلاء :

وهمسوا حمى فى جمع يضيق به * نزع الفضا بالمرهفات الماع فاكتما .
واستوطنوا القبر فى الوادى وقام لهم جسر من الفلك لا تشكوبه السأماء .
فكم أسارى غدت فى القيد موثقة * تشكو من الذل أقدا ما لها حطما .
وكم صريح رضيع ظل مختطفنا * عن أمه فهو بالأموج قد فطمنا .
وكم بطريانة أبقى الأسى نديها * فى القلب يبعث وجدا كلما كتما .
يا عين فابك على حمى وقل لها * منك البكاء اذا ما ترسلينه دما .
وقد أصيبت بها الدنيا وساكنها * حقا وأصبح ركن الدين قد ثلما .
سطا بها الكفر ان قل النصير بها * فمن معزبها الاسلام ماسلما .

ان معانى الشاعر ليس فيها جديد فهو يصف ضخامة الجيش الغازى وحصاره البرى والبحرى للمدينة ثم يرسل دمه حزنا وأسفا على أولئك الأطفال الذين ابتلمتهم الأمواج بعد أن خطفهم الأعداء من غير ذنب ، وعلى أولئك الأسرى الموثقين بقيود الذل . والأكبر من ذلك أن هذه المدينة من قواعد الاسلام العظمى الباقية بيد المسلمين ، فبستقوطها وتحولها الى دار كفر حدثت فى الاسلام ثمة تدمى لها القلوب ، لذلك نرى الشاعر يتلفت حوله مذعورا باحثا عن منجد ونصير يعيد للاسلام عزه ومجده ، ولا تطول حيرة الشاعر ان سرعان ما يوجه نداءه الى اخوان العقيدة فى

(١) حصن اشبيلية من الجنوب الغربى يفصلها عنها نهر الوادى الكبير وتصل بينهما قنطرة ضخمة مقامه على ذلك النهر . الروض المحللار (بطريانه) .

عدوة المغرب قائلاً :-

يا أهل وادى الحما بالعدوة انتمشوا * هذا الذما فقد أشقى به سقما .
 ماذا يبطئكم عنا وحولكم * أن تبصروا دار قوم أصبحت رمما .
 وحقتا واجب فالدين يجمعنا * مع الجوار الذى مازال منتظما .
 وقد دعونا فأسمعنا على كسب * بما قد استنفد القرطاس والقلمما .

ولغة الشاعر فيها قوة لأنه يطالب بحق الاسلام الذى يجمع كل المسلمين
 ويجعلهم اخوة ووحدة متماسكة ، فهو يخشى أهل العدوة على النجدة ويعجب
 من تأخرهم فى ذلك رغم سماعهم صراخ جيرانهم أهل اشبيلية الذين أشرفوا
 على الهلاك ، وعلى الرغم من ذهاب صوت الشاعر أذراج الرياح ، ولم يستجب
 له أحد فانه يكون قد أدى واجبه بايجابية تراوحت بين الرثاء والحزن العميق
 على فقدان المدينة الاسلامية ، وبين السعى فى طلب المدد بأسلوب مؤثر .
 (١)

رثاء سهيل :-

لا تمدنا المصادر التاريخية بمعلومات دقيقة عن السنة التى سقطت فيها
 هذه القرية بيد النصارى ، وانما المؤكد أن ذلك حدث فى عصر الموحيدين

(٢) حيث يقول ابن سعيد فى ترجمة الامام السهيلي الذى عاش من (٥٠٨ - ٥٨٤)

(١) هى قرية بالقرب من مدينة مالقه ، سميت باسم الكوكب (سهيل) لأنه
 لا يرى فى جميع الأندلس الا من جبل مظل عليها ، ووادى سهيل معروف
 بالأندلس وفيه قرى كثيرة . / معجم البلدان : (سهيل) ، ابن
 خلكان ، الوفيات : ١٤٤ / ٣ .

(٢) المغرب فى حلى المغرب : ٤٤٨ / ١ .

(٣) هو عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمى السهيلي . كان عالما بالعربية
 واللغة والقراءات ، والتفسير والحديث ، حدث بما لقه فاشتهر به
 صيته ، من تصانيفه ، الروض الأثف فى شرح السيرة النبوية ، التحريف
 والاعلام بما فى القرآن من الأسما والأعلام وغيرها . انظر : نكت الهميان :
 ١٨٧ ، أبو البحر صفوان ، زاد المسافرين : ٩٦ ، انباه الرواه : ١٦٢ / ٢ ،
 الروض الأثف : ٢٥ / ١ .

..... انه لما وقعت قريته (سهيل) بيد الفرنج وخرّبوها ، وقتلوا أهلها
كان أهلها وأقاربها ضمن من قتل ، وكان هو غائبا عنهم خارج القرية فاستأجر
من أركبه دابة وأتى به الى سهيل فوقف بازائه وقال :-

يصادر أين البيض والآرام * أم أين جيران على كرام ؟
راب المحب من المنازل أنه * حي فلم يرجع اليه سلام .
لما أجابني الصدى عنهم ولم * يلج السامع للحبيب كلام .
طارحت ورق حمامها متزعزعا * بمقال صب والد موع سجام .
" ياد ار مافعلت بك الأيام * ضامتك والأيام ليس تضام " .

والأبيات - رغم قلتها - مفعمة بم عاطفة الحزن الجياشه التي تنبعث من
قلب مكلوم بفقد الوطن والأهل ولعل المدقق في الأبيات وفي وقفه
الشاعر بالمنازل يحس أن قائلها لا يبصر فهو يعتمد على السماع فقط ولا يأتي
بوصف مشاهد للقرية المدمّره التي فعلت بها الأيام فعلها . فالمصنعت
الموحش الذي لف المنازل وقضى على كل حركة فيها هو الذي فجر دمع
الشاعر وجعله ينوح نوح الحمام .

رثاء صقلية ومدن المضرب :-

(١)

صقلية :- كانت جزيرة صقلية تتبع للدولة البيزنطية المتمركزة في

(١) جزيره مثلثة الشكل من جزائر البحر الأبيض المتوسط ، قصبته مدينة
(بلرم) وفيها ما يقرب من ١٣٠ بلدا بين مدينة وقلعه ، وتشتهر
بخصوتها ، وزراعتها الكثيرة بالإضافة الى أنواع المعادن المتعدده /
معجم البلدان : (صقلية) .

القسطنطينية والتي اتخذت هذه الجزيرة مركزا للسيطرة على البحر ، فمنها
(١)
كانت تغزو أفريقيا وتخرب الثغور وتنهب الأرزاق وتأسر المسلمين . وقد
بدأ التفكير في فتحها مكررا عند المسلمين ، فقد غزاها موسى بن نصير
فاتح الأندلس ودحر قوى الروم بها وغنم غنائم كثيرة ، ولكنه رجع ولم يتم
فتحها وربما كان ذلك لطول المسافة البحرية بينها وبين تونس ، وصعوبة
إرسال المدد إذا ما عبرت جيوش الفتح الإسلام إلى أوروبا ، وتتابع
المحاولات بعد ذلك من ولاية الأمويين على أفريقيا ولكنها انتهت بوقوع
الصلح والرضا بالجزيرة ، وفقى الحال على هذا إلى أن جاءت الدولة العباسية
ووضعت إبراهيم بن الأغلب واليا على أفريقية فاتخذ القيروان عاصمة له وأخذ
يفاوض الخلافة العباسية في الانفصال ، فجاءته الموافقة على ذلك مقابل
أن يعترف للعباسيين بالسيادة ، ويدفع خراجا سنويا لخزينة الدولة يقدر
(٢)
بأربعين ألف دينار ، عندئذ أخذ ابن الأغلب يعمل بجد ونشاط عظيم
لتكوين مملكة قوية ، وبالفعل تم له ما أراد حتى كانت القيروان من أزهى عواصم
المسلمين . وأقواها . ثم توفي إبراهيم وخلفه ولده زيادة الله سنة ١٩٨ هـ
وفي عهده كانت جزيرة صقلية تمر بمرحلة صراع وانقسام نتيجة الظلم والفساد
الذي كان يمارسه ولاية الروم البيزنطيين ضد شعب صقلية ، إضافة إلى
الخلاف المستحكم بين الأمراء والقواد أنفسهم ، حيث اضطرب بعضهم إلى
الاستنجااد بزيادة الله وحثه على احتلال الجزيرة مبيئا له ضعفها وسهولة
فتحها فاستحسن زيادة الله بن الأغلب ذلك وجهز أسطولا ضخما شحنه بالرجال

(١) الكامل في التاريخ : ٣٣٤/٦ .

(٢) أحمد المدني ، المسلمون في جزيرة صقلية : ٥١ .

(١)

والعتاد ووجهه الى صقلية تحت قيادة القاضي أسد بن الفرات ، فوصل اليها سنة اثنتى عشرة ومائتين ، والتقى بجيش كثيف من الروم بلغ مائسة ألف جندي فهزمه هزيمة شديدة وفر قائد الروم المسمى " بلاطه " وتحصن (بسرقيوسه) حيث قتل هناك على يد أحد خصومه ، وزحف الجيش الاسلامى بقيادة ابن الفرات وحاصر سرقيوسه برا وبحرا ، ووصلته النجيدات والمحمونات من القيروان فاشتد عزمه ومثقت فرقه من جيشه لمحاصرة عاصمته الجزيرة (بلرم) ، وفى الوقت نفسه وصل أسطول الروم بقوة ضخمة ، ودارت بين الجانبين معارك ضارية امتدت من سرقيوسه شمال الجزيرة الى بلرم فى شمالها الغربى وكانت سجلا غير أن ما شديدا وقع فى معسكر

(١) هو أسد بن الفرات بن سنان ، يكنى أبا عبد الله . ولد بغراسان سنة ١٤٢ هـ ، رحل أبوه الى القيروان مع جيش ابن الأشعث وأخذ معه وهو طفل صغير ، فنشأ بتونس وتعلم بها ثم رحل الى المشرق وأخذ الحديث عن مالك بن أنس سنة ٧٢ هـ ثم رجع الى القيروان وولى قضاءها سنة ٢٠٤ هـ ومن مصنفاته (الأسديه) فى فقه المالكية وتوفى مجاهدا سنة ٢١٣ هـ أثناء غزوة على صقلية / معالم الايمان : ٢ / ٢ - ٣ ، تراجم اسلاميه : ١٣٠ .

(٢) مدينة كبيرة بينها وبين صقلية مجاز لطيف ، والبحر محدد بها مسن جميع جهاتها ، وطورها ثلاثة أسوار بمدخل واحد فى شمالها ، وتشتهر بأسواقها التجارية ومبانيها الرائعة . / انظر : الروض المعطار : (سرقيوسه) .

(٣) هى دار الملك بصقلية فى عهد الروم والمسلمين ، وهى على ساحل البحر وتحدد بها الجبال ، ومنها كانت تخرج الأساطيل للغزو ، ومنها جامعها المشهور الذى بلغ فى القديم درجة عالية من الهندسة والزخرفة / المصدر نفسه : (بلرم) .

(٤) عنان : تراجم اسلاميه : ١٣٤ .

المسلمين توفي على أثره عدد كبير ومنهم القائد البطل أسد بن الفسرات سنة ثلاث عشرة ومائتين ، وتولى القيادة بعده محمد بن أبي الجوارى الذى قرر الرجوع بالمسلمين الى افريقيا لما رأى ضعفهم وقوة الروم ، ولكن لهم فتح له ذلك اذ أجبرهم الأسطول الرومى على خوفا الحرب ، فها كان منهم الا أن احرقوا سفنهم وانطلقوا الى الجزيرة أسرابا يحاصرون قلاعها وقد عقدوا الحزم على النصر أو الموت ، وساعدتهم فى ذلك وصلى (١) الاسطول الأندلسى يحمل سرايا المجاهدين ، وأصبح الجميع قوة واحدة فتحت على يدها معظم قواعد الجزيرة ، ثم لم يلبث القائد ابن أبي الجوارى أن توفي ، ورجع الأسطول الأندلسى الى بلاده فرارا من الهزيمة الذى كان ينتشر بسبب عفونة الهواء ، وفساد المناخ ، فبعث زيادة الله زهير بن عوف مع ثلاثين ألف مقاتل لاكمال فتح الجزيرة ، فاندفعوا نحو العاصمة (بلرم) وحاصروها بشده ، وواجهوا مقاومته عنيفة من الروم ولكنهم استسلموا ففى النهاية وخرجوا منها ودخلها المسلمون واتخذوها مقرا لحكمهم فى الجزيرة وانطلقوا فى مجال البناء والاصلاح ، فانتشرت فى أرجاء صقلية المساجد ، والقصور والحدائق ، وفاضت عليها أنوار الاسلام العلمية والحضارية من المشرق والمغرب ، وسقط سرقوسة آخر معاقل الروم بالجزيرة سنة أربع وستين ومائتين تكونت فيها دولة اسلامية تتبع للأغالبة فى افريقيا ثم استقلت بعد زوالهم ، وكانت البعثات والحملات البحرية تخرج منها ، وتجوس خلال المياه الايطالية ، وحققت الجزيرة ترفل فى حلال ازدهار الى أن بسط

(١) المدنى : المسلمون فى جزيرة صقلية : ٦٤ .

(٢) انظر : معجم البلدان تحت كلمة (صقلية) .

الفاطميون نفوذهم على المغرب وأفريقيا سنة سبع وتسعين ومائتين وأخذوا يرسلون الولاة من قبلهم الى صقلية ، فبدأ عهدهم بمذابح شنيعة بين مؤيدي حكم الأغاليبة من العرب ومؤيدي الفاطميين من البربر وانحاز الولاة الى البربر وأوجدوا النعرات العنصرية التي مزقت الصف الاسلامي وحاولوا اجبار الناس على اعتناق المذهب الشيعي ، فقام أهل صقلية بثورة عارمة وقتلوا حاكمهم الفاطمي وخلصوا طاعة الفاطميين سنة احدى وثلاثمائة ، فبعث اليهم عبيد الله المهدي الحاكم الفاطمي حملة قوية أهلكتهم وسبت حريمهم ، وارتكبت الفظائع أعظمها ما جعل الناس يفرون الى النصارى طلبا للحماية والنجاة وفي هذا الوقت الذي يقتل فيه المسلمون بعضهم ، وتسبح فيه الجزيرة ببحر من الدم ، بدأ التحرك من قبل النصارى والنورمان نحو صقلية ، وأخذوا يغيرون وينهبون ويسلبون ، واستوطنت جماعة من النورمان ناحية من صقلية سنة سبع وعشرين وثلاثمائة واتخذتها مركزا لقرصنة البحريه ، وهذا بدأ شبح القلق المروع يسيطر على الجزيرة فاجتمع رأى أهلها على الاستنجاد بالمعز بن باديس الصنهاجي حاكم المغرب من قبل الفاطميين بعد انتقال عاصمتهم الى القاهرة ، فأمدهم بأسطول من أربعمائة سفينة مجهزة بالرجال والخيول والسلاح ، ولكن عاصفة هوجاء أودت بالأسطول كله ، ولم ينج من أهله الا القليل ، عندها اشتد خطر النصارى الزاحفين فرأى أهل الرأى بالجزيرة تقسيمها الى عدة نواحي على كل ناحية أمير ، وكان هذا من سوء تدبيرهم ان سرعان ما دب الخلاف بينهم وفر أحد هم ويدعى ابن الثمنة الى ملك النورمان رجار الأول واستغاث به على قومه

(١) المسلمون في جزيرة صقلية : ١١٩ .

(٢) الكامل في التاريخ : ٣٢٣ / ٧ .

فأقبل هذا بجيوش ضخمة وأخذ يلتهم الجزيرة شيئا فشيئا والمسلمون يقاومونه
(١)
بكل عنف وشجاعته سنينا طويلا الى أن استسلم آخر معاقلها قلعة (قصر يانه)
سنة أربع وثمانين وأربعمائة . وهذا ينتهي الحكم الاسلامي لصقلية بعد
(٢)
أن نعمت في ظلاله زهاء سبعين ومائتي عام . ومن بكى الجزيرة الفارسية
(٣)
ابنها ابن حمديس الصقلي الذي كان دائم التذكار والشوق اليها يقول :
(٤)
لأمر طويل الهم نزحى العرامسا * وتطوى بنا أخفافهن البسابسا .
وتذعر بالبيدا عينا شواردا * تذكر بالأحداق عينا أوانسا .
عذارى ترى الحسن البديع مطابقا * لأنواعها في خلقه ومجانسا .
بذكر البيدا والجمال المزجاة فيها يبدأ الشاعر قصيدته ، ثم يذكر بعد
ذلك الآرام النافرة التي أهاجت ذكرياته ، وهذه البداية التي يسير بها على
هدى مطالع القصائد القديمة لها دلالة واضحة على الشعور بالخربة والقلق
والاستعداد للرحيل والنزوح الذي يورث الهم والحزن الطويل . ونرى الشاعر

-
- (١) من أكبر مدن الروم بصقلية ، وأعظمها خصبا ، افتتحها المسلمون أيام
بنى الأغلب سنة ٢٤٤ هـ وأخذوا منها غنائم كثيرة ، واستوطنوها لمناعتها
/ الروي المعطار : (قصر يانه) .
(٢) اسماعيل شلبى : ابن حمديس الصقلي : ١٨ .
(٣) هو أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الأزدي ، ولد
في سرقوسة سنة ٤٤٧ هـ ، شاعر مدح مشهور رحل الى الأندلس سنة
٤٧١ هـ ومدح المعتمد بن عباد وناديه ، ثم انتقل الى المغرب ومدح
حكامها الصنهاجيين ، وتوفي سنة ٥٢٧ هـ في جزيرة ميورقه / انظر :
الوفيات : ٢١٢/٣ ، الذخيرة : ق ٤ ، ج ١ ، ص ٣٢٠ ، المطرب : ٥٤ .
(٤) ديوانه : ٢٧٤ - ٢٧٦ .
(٥) الحرم : الناقة الشديدة ، البسيس : القصر . الصحاح (عرسى) ،
(بسس) .

بعد ذلك يضيق بحزنه المكثوم فيطلق عبرته دون تحرج :-

- أعاذل دعنى أطلق العبرة الستى * عدت لها من أجل الصبر حابسا .
(١)
 - فانى امرؤ آوى الى الشجن الذى * وجدت له فى حبة القلب ناعسا .
 - لقدرت أرض أن تعود لقومها * فسأت ظنوني ثم أصبحت يائسا .
 - وعزيت فيها النفس لما رأيتمها * تكابد داء قاتل السم ناعسا .
 - وكيف وقد سميت هوانا وصيرت * مساجدها أيدى النصارى كئاسا .
 - اذا شامت الرهبان بالضرب أنطقت * مع الصبح والامسا فيها النواقسا .
- ان الشاعر يطلق عبراته وزفراته قوية يفخذيها قلبه الذى أصبح ديدنه
النبض بالشجن والألم ، عندما رأى موطنه يهوى تحت ضربات الأعساد
وهذهب الى غير رجعه ، وينقطع كل أمل فى عودته اليه بعد أن سامه
النصارى المسخ وحولوا مساجده الشامخة الى كنائس ينبعث منه سائر
الأجراس . الذى ينزل على نفس الشاعر سما ناعسا . ثم يأخذ فى وصف مآلات
اليه صقلية بعد السقوط . مقارنا ذلك بما كانت عليه أيام المسلمين الأقباس
ومن خلال ذلك تبدو المفارقة المريعة المبكية :
- صقلية كاد الزمان بلادها * وكانت على أهل الزمان محارسا .
 - فكم أعين بالخوف أمست سواها * وكانت بطيب الأمن منهم نواعسا .
 - أرى بلدى قد سامه الروم ذللة * وكان بقوم عزة متعاسا .
 - وكانت بلاد الكفر تلجس خوفه * فأضحى لذاك الخوف منهم لائسا .

(١) النخس : الوخر ، ومنه نخس الدابة اذا غرز جنبها بعود أو نحوه . /
اللسان (نخس) .

- عدت أسودا منهم عريضة * ترى بين أيديها الحلج فرائسا .
- فلم ترعنى مثلهم فى كثيعة * مضارب أبطال الحروب مداعسا .
- ويارب براف النصال تغالسه * من النقع ليلا مشرق الشهب داسا .
- وماخلت أن النار يبرد حرها * على سعف لاقته فى القيظ يابسسا .
- أما ملكت غزوا قلورية بهم * وأردوا بطاريقا بها وأشابسسا .
- هم فتحوا أغلاقها بسيوفهم * وهم تركوا الأنوار فيها حنادسسا .
- وساقوا بأيدي السبى بيضا عواسرا * تخال عليهم الشمسور برانسسا .
- يخوضون بحرا كل حين اليهم * ببحر يكون الموج فيه فوارسسا .
- وحرية ترمى بحرق نعطها * فيفشى سموط الموت فيها المعاطسا .
- تراهن فى عمر اللبود وصفرها * كمثل بنات الزنج زفت عرائسسا .
- اذا عثنت فيها التناير خلتها * تفتح للبركان عنها منافسسسا .

لقد كانت صقلية أيام عزها الفابر تحرس بأيدي المسلمين الأبطال
الذين طالما داسوا بلاد الكفار وخضبوا سيوفهم من دماء كراتهم فى السمر
والبحر ، فترى الشاعر يطيل تذكر تلك الأيام ويكرر - بلذء - كلمة (كسان)
الداله على الماضى ، أما حال الجزيرة بعد أولئك الحماة فقد انقلب إلى
ضيعة وهوان يقول :

- أفى قصرينى رقعة يعمرونها * ورس من الاسلام أصبح دارسسا .
- ومن عجب أن الشياطين صيرت * بروج النجوم المحرقات مجالسسا .

(١) مدينة بجزيرة صقلية ، كان يتحصن بها الروم لمناعتها ، وقد احتلها
المسلمون بعد حملة قومه بقيادة ابراهيم بن الأغلب حاكم القيروان . /
الروى المعطار : (قلورية) .
(٢) هو قصر يانه التى تقدم ذكرها .

- وأضحت لهم سرقوسة دار منعة * يزورون بالديرين فيها النواوسا
- مشوا في بلاد أهلها تحت أرضها * وما مارسوا منهم أبيها مارسنا
- ولو شققت تلك القبور لأنهضت * اليهم من الأجدات أسد عوابسا
- ولكن رأيت الغيل ان غاب ليثه * تبختر في أرجائه الذئب مائسا

وهنا يتمجب الشاعر من فعل الزمان ، وتلونه بعد أن أقصى ظلال
الاسلام من الجزيره ، وسكت شياطين الكفرة بالبرج التي كانت تقذفهم
بالنار المحرقة فيما مضى ، وقد استباحوا - أيضا - مدينة سرقوسة مسقط
رأس الشاعر ، واستأسدت عليها الكلاب بعد غياب ليوثها .
(١)
وله في بكائها من قصيدة أخرى :-

- ذكرت صقلية والأسس * يهيج للنفس تذكارها
- ومنزلة للتصابي خللت * وكان بنو الطرف عمارها
- فان كنت أغرجت من جنة * فاني أحدث أخبارها
- ولولا طوحة ماء البكا * حسبت رموى أنهارها
- ضحكت ابن عشرين من صبوة * بكيت ابن ستين أوزارها

وهو في هذه الأبيات يتذكر أيام شبابه التي قضاه مع أترابه في موطنه
الذي يمثل جنته التي أخرج منها ، لذا نراه يذرف الدمع بمراره كلما حاجته
الذكرى ، وهزه الشوق . وأسلوب الشاعر في رثائه قوى رصين مع ميل إلى
الصعامة والمحسنات ، وتبدو عنده قوة العبارة عندما يصف أفعال أسلافه
الأبطال مجدا ومخلدا ، ولعل نشأته الأولى في صقلية حيث الحروب التي
ربما اشترك في بعضها صقلت موهبته واكسبتها شيئا من اللحن الحماسي ،
أما معانيه فليس فيها جديد ، إلا أن عاطفته الجياشه ، هي محور جسود
رثائه .

(١)

رشاء القيروان :-

بنى عقبة بن نافع - رضى الله عنه - مدينة القيروان عند فتحه لأفريقيا
فى عهد معاوية بن أبى سفيان ، وذلك ليتخذها مركزا للرباط والجهاد فى
سبيل الله . وتوالى عليها الأمراء من قبل الدولة الأموية أمثال حسان بن
النعمان ، وموسى بن نصير ، وعبيد الله بن الحباب الذين عربوا
دواوينها ، وأنشأوا فيها دارا لبناء السفن . وعندما انتقلت الخلافة
الى العباسيين تبعتهم أفريقيا اسميا ، حيث استطاع بنو الأغلب أن يؤسسوا
فيها دولة قوية جعلوا القيروان عاصمة لها الى أن بسط الفاطميون سلطانهم
على المغرب - كما أوضحناه سابقا - وعندما استولى الفاطميون على مصر
وانتقلوا اليها ، وضعوا على المغرب ولاية من البربر الصنهاجيين وأولهم
يوسف بن بلكين الذى صرف همه الى توسيع رقعة دولته وتقويتها الى
أن توفى ، وخلفه ولده باديس الذى سار على دبره ولكن عهده كان مشحونا
بثورات البربر المتكررة بقيادة عمه حماد الذى كان ينازعه السلطان ، وظل
الأمر كذلك الى أن توفى باديس سنة ست وأربع مائة وجاء بعده ولده المميز

(١) قاعدة بلاد أفريقيا ، وأم مدائنها ، عظيمة القدر ، كثيرة السكان
والأموال يغلب على أهلها الصلاح والتفنى فى العلوم ، وفيها جامع
عقبه المشهور بروعة بناءه ، واجتماع العلماء والطلاب فى فوائده ، وقد
تم بناء القيروان سنة ٥٥ هـ / انظر : الروى المعطار (القيروان) ، -
معجم ما استمع : فصل القاف والياء .

(٢) أبو القاسم كرو ، عصر القيروان : ٢١ .

(٣) عهد الرحمن يانغى ، حياة القيروان : ٤٨ .

الذى استطاع أن يخمد الثورات ويزيل الخلافات ، وكانت ولايته في عهد
الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله الذي سیر للمعز الهدايا والخلق وطبقه
بشرف الدولة ، ولكن المعز كان يكره مذهب الشيعة فأخذ يفكر في الاستقلال
عنهم وقطع دعوتهم في إفريقيا ، فتخلّى عن نصرته الشيعة في الثورة التي
قامت ضدّهم سنة خمس وثلاثين وأربعمائه وذبّح منهم فيها أعداد كبيرة ، الأمر
الذي أثار حفيظة الخلافة الفاطمية فأرسل الخليفة الفاطمي المستنصر بالله
للمعز تهديداً وتوبيخاً ، فما كان من المعز إلا أن جاهر بخلق ولائه لهم
وصرح بعدائهم ، ودعا للخليفة العباسي الذي وافاه بالتقليد والاعتراف باستقلاله
في إفريقيا سنة أربعين وأربعمائه . وكانت الدولة الفاطمية في ذلك الوقت قد
بلغت من الضعف حداً جعلها تقف عاجزة عن بحث قوة عسكريه لمحاربة المعز
فلجأ وزيرهم (اليازوري) إلى الانتقام بواسطة الأعراب الذين كانوا يقطنون
صعيد مصر ، فساعدتهم بالأموال ، وجعل لهم جميع ما يستولون عليه من الغنائم
فانتشرت جموعهم في البلاد كالجراد تسلب وتنهب كل ما تقدر عليه . ولم يحبب
بهم المعز في بداية الأمر وقرب زعيمهم (مؤنس الرياحي) الذي أخلص الطاعة
والنصح ، فعندما طلب منه المعز أن يدعو قومه ليتخذ منهم بطانة رفض ذلك
موضحاً عدم صلاحيتهم ، وقلة وفائهم ، فاعتبر المعز ذلك منه احتكاراً للسيادة
والقربى دونهم ، فرضخ لطلب المعز ودعاهم فعاثوا في الأرض فساداً ، فطلب
إليه اخراجهم فاعتذر بعدم قدرته ، فعاقبه المعز بحبس أرزاقه وأهله ، فكان
ذلك سبباً للزحف الماحقة سنة أربع وأربعين وأربعمائه حيث انكسر جيش المعز
كسرة شنيعة ، وحاول أن يصالحهم ويزوج بناته من بعض أمراءهم ، ولكن ذلك لم

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ : ٢٥٦ / ٩ .

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام : ٧٣ / ٣ - ٧٤ .

(٣) محمد المرزوقي ، أبو الحسن الحصري القيرواني : ١٢ .

يجد معهم نفعا فزعفت جمعهم الهائله على القيروان وخربوها تخريبيا هائلا ، ودكوا حصونها وطمسوا معالمها ، فتشت أهلها شرقا وغربا وتركوا مدينتهم نهبا للفوضى والخراب ، فلم يبق فيها دار الا دخلت عندئذ (١) نادى المعز بالرحيل الى المهدية ومكث فيها الى أن توفي سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة . ولقد كانت القيروان أيام المعز في أوج عزها العلمي والأدبي حيث كان هوشاعرا كبيرا ، وكان بلاطه عامرا بأهل الشعر والأدب بالإضافة الى العلوم الشرعية وغيرها ولقد صور شعراء القيروان نكبة بلادهم أروع تصوير (٢) وخلدوها بقصائد لا تبليها الأيام ومن ذلك قول ابن رشيق القيرواني بيكسي (٣) ذوى الفضل من أهلها :-

- كم كان فيها من كرام سادة * بيض الوجوه شوامخ الإيمان
- متعاونين على الديانة والتقوى * لله في الأسرار والاعلان
- ومهذب جم الفضائل بآذل * لنواله ولعرضه ضنوان

(١) مدينة بساحل افريقيه بناها عبيد الله الشيعي الطقوب بالمهدى سنة ٣٠٠ هـ فسميت المهدية نسبة اليه . وبينها وبين القيروان ٦٠ ميلا ومحيط بها البحر من جهاتها الثلاث ومدخلها من جهة الغرب ، وهى محطة سفن المشرق والأندلس . / الروض الممطر (المهدية) .

(٢) هو أبو علي ، الحسن بن رشيق القيرواني ، كان أبوه من موالى الأزد ، وولد الحسن في المسيله سنة ٣٩٠ هـ ، فلما نبغ في الشعر والأدب رحل الى القيروان قبلة الطلاب والتقى فيها بالعلماء والفصحاء . ثم غادرها الى المهدية ثم الى صقلية حيث توفي هناك سنة ٤٦٣ هـ . ومن آثاره الهامه ، كتاب العمدة ، قراضة الذهب ، الشذوذ في اللغة وغير ذلك . انظر / الوفيات : ٨٥ / ٢ ، العمدة : ١٠ / ١ .

(٣) القصيدة في ديوانه : ٢٠٤ - ٢١٢ ، مختارات من الشعر الأندلسي : ٢١١ - ٢١٣ .

- وأئمة جمعوا العلوم وهذبوا * سنن الحديث ومشكل القرآن .
- علماء ان سألتهم كشفوا العمى * بفقاهة وفصاحة وميــــــــان .
- وإذا الأمر استبهمت واستغلقت أبوابها وتنازع الخصــــــــمان .
- حلوا غوامض كل أمر مشكــــــــل * بدليل حق واضح البرهــــــــان .
- وإذا دجا الليل البهيم رأيتهــــــــم * متبتلين تبتل الرهــــــــبان .
- في جنة الفردوس أكرم مــــــــنزل * بين الحسان الحور والفلــــــــمان .
- تجروا بها الفردوس من أرباحهــــــــم * نعم التجارة طاعة الرحــــــــمان .
- وترى جبابرة الملوك لديهمــــــــم * خضع الرقاب نواكس الأذقــــــــان .
- لا يستطيعون الكلام مهابةــــــــة * الا إشارة أعين ونــــــــان .
- خافوا الإله فخافهم كل الحورى * حتى ضراء الأسد في الخيــــــــلان .
- تنسيك هيبتهــــــــم شماخة كل ذى ملك وهيبة كل ذى سلطــــــــان .
- أحلامهم تزن الجبال وفضلهمــــــــم * كالشمس لا تخفى بكل مــــــــكان .
- كانت تعد القيروان بهم ذــــــــا * عد المنابر زهرة البلــــــــدان .
- وزهت على مصر وحق لها كــــــــما * تزهبهم وفدت على بــــــــدان .

يتأسف ابن رشيق على القمم الشامخة من العلماء الكرام الذين كانت تزخر بهم القيروان ثم بادوا بعد أن دمرت ، وهو لا يصرف همه بطول التأسف والتحسر بل يقوم برسم صورة واضحة مشرقه لأولئك الأبرار تشكل في مجموعها المثالية المطلقة التي يمكن أن يصل إليها البشر . فهم قد جمعوا جل الفضائل بعلمهم القرآن والحديث مع الفصوص في مسائل الفقه والبيان . بحيث كانوا النور الذي يستضيء به الناس فيما أشكل عليهم ، وبالإضافة إلى هذا العلم كانوا على جانب عظيم من التقوى والورع والعبادة فأسبغ الله عليهم الهيبة والوقار التي لا تذكر معها هيبة ملك أو سلطان ، فحق للقيروان أن تفخر بهذا الذخر العظيم وأن تتفيه به على أشهر مراكز العلم آنذاك بغداد ومصر .

والملاحظ على شعر ابن رشيق في وصف هؤلاء العلماء ، الاحتواء على
المعاني القرآنية السامية التي تحتل على العلم وتمتدح أهله وتحت أيضا على
العبادة والتقوى وإرخاض النفس في سبيل الله .

ثم ينتقل الى وصف الخراب والفتك الذي أصاب المدينة على يد الأعراب
فيقول :-

- حسنت فلما أن تكامل حسنهما * وسما اليها كل طرف ران
- وتجمعت فيها الفضائل كلها * وفدت محل الأمن والايمان (١)
- نظرت لها الأيام نظرة كاشح * ترنو بنظرة كاشح معيان
- حتى اذا الأقدار حم وقوعها * ودنا القضاء لمدة وأوان (٢)
- أهدت لها فتنا كليل مظلّم * وارادها كالناطح العيدان (٣)
- بمصائب من فادع وأشائب * ممن تجمع من بني دهمان
- فتكوا بأمة أحمد أتراهم * أمنوا عقاب الله في بعضان
- نقضوا المهود المبرمات وأخفروا * ذم الاله ولم يفوا بضمنان
- فاستحسنوا غدر الجوار وآثروا * سبى الحرهم وكشفة النسران
- ساموهم سوء العذاب وأظهروا * متعسفين كوا من الأضفان

ان هذه المدينة لما بلغت أوجها وفدت محط الأنظار والآمال رمتها الأيام
بقوارعها وفتنها المظلمة فما بعد الارتفاع الا الهبوط ، وكان ذلك على يد
أولئك الفاتكين المتوحشين الذين لا يعرفون عهدا ولا ميثاقا ، ولا يعترمون
جوارا ، ولا يرحمون ضعاف المسلمين ، ونساءهم اللواتي أخذن أسيرات .

-
- (١) الكاشح : الذي يضر العداوة . الصحاح (كشح) ، معيان : يصيب
بمعينه وهنا للمبالغة في الضرر .
- (٢) الناطح : الخطب الشديد ، العيدان : طوال النخل . / الصحاح :
(نطح) ، (عود) .
- (٣) بنودهمان : قصد بهم الأعراب وهم قبائل هلال ، ورياح وزغبه وغيرهم .

وتشتد عاطفة الحزن عند الشاعر عندما يتحدث عما نال أهل القبروان ممن
الأذى قائلًا :-

- والمسلمون مقسمون تنالهم * أيدي المصاة بذلة وهوان
- مابين مضطربين معذب * ومقتل ظلما وآخر عان
- يستصرخون فلا ينفث صريخهم * حتى اذا سئموا من الارنان (١)
- خرجوا حفاة عائدين بربهم * من خوفهم ومصائب الألسوان
- هربوا بكل وليدة وفطيمة * وكل أرطاة وكل حصان

ومعد هذه الصورة الحية النابضة بالحزن والأسى ، والتي نرى ممن
خلالها مسلى القبروان وقد سيموا الذل فهم بين معذب حائر أسير يصرخ
مستغيثا فلا يجاب وبين قتيل ذهب ضحية الظلم والبغى .

كما نشاهد في الصورة تلك الفئة التي خرجت هائمة تحمل معها الأطفال
الصفار والنساء خوفًا من العار والبلاء . وهذه الصورة المجسمة هي أجود
ما في قصيدة ابن رشيق على طولها ، ومعدّها ينتقل الى رثاء المسجد
الجامع وهو من أبرز معالم القبروان :-

- والمسجد المعمور جامع عقبة * غرب المعاطن مظلم الأركان
- قفسر فما تخشاه بعد جماعة * لصلاة خمس لا ، ولا لأذان
- بيت به عبد الاله ومطلبت * بعد الفلوعبادة الأوثان
- بيت بوحي الله كان بناؤه * نعم البنا والمبتنى والباني

(١) الارنان : الصراخ ، ورفع الصوت . الصحاح (رن) .

ثم يبين قيمة مدينة القيروان بالنسبة للعالم الاسلامي كله من خلال
ذكر ما أصاب الأقطار من الأسف والنكد والتزعزع لأجلها :

- أعظم بطلك مصيبة ماتت على * حشرات أو ينقض الملوون . (١)
- لو أن شهلانا أصيب بعشرها * لتدكدت منها ذرا شهلاان . (٢)
- حزنت لها كور العراق بأسرها * وقرى الشام ومصر والخرسان .
- وتزعزعت لمصائبها وتنكدت * أسفا بلاد الهند والسندان .
- وعفا من الأقطار بعد خلائها * ما بين أندلس إلى حلوان . (٣)
- وأرى النجوم طلعت غير زواهر * في أفقهن وأظلم القميران .
- والأرض من وطء بها قد أصبحت * بعد القرار شديدة الميلان .

وفي ختام القصيدة للشاعر رجاء مشوب بكثير من التوجس بأن يرجع عهد
القيروان الزاهر ، وترجع إليها بشاقتها التي سلبتها الأيام الكاشحة .

- أترى الليالي بعد ما صنعت بنا * تقضى لنا بتواصل وتسدان ؟
- وتعيد أرض القيروان كعهدنا * فيما مضى من سالف الأزمان .
- من بعد ما سلبت نضائر حسننا الـ أيام واختلفت بها فئتان .
- وغدت كأن لم تكن قط ولم تكن * حرما عزيز النصر غير مهان .
- أست وقد لعب الزمان بأهلها * وتقطعت بهم عرا الأقران .
- فتفرقوا أيدي سبا وتشتتوا * بعد اجتماعهم على الأوطان .

(١) الملوون : الليل والنهار / أساس البلاغة (طو) .

(٢) شهلاان : جبل في اليمن ، يضرب به المثل في الثقل . / المصدر
نفسه (شهلاان) .

(٣) حلوان : مدينة سهلية جبلية على سفح الجبل المطل على العراق .
/ الروض المعطار (حلوان) .

أما أسلوب القصيدة فتغلب عليه السهولة في الألفاظ والمعاني إلى درجة
تقره من النثر في كثير من المواضع ، والقصيدة تظهر ما يتمتع به صاعها من
نفس طويل ، وشاعرية فذة ، وقد ركّز رثاءه ، ومكائه على أهلها مطنبا فنى
مدحهم ، ثم مهينا حالهم بعد أن فتك بهم الأعراب . أما المدينة ذاتها
ومآثلها من دمار فلم يفصله إلا ما كان من أمر المسجد الجامع الذي لقّبه
سكون الموت بعد زهاب عماره . غير أنه أجاد في وصف وقع خرابها لا على
بقاع العالم الاسلامي في المشرق والمغرب فحسب بل على النجوم التي لم تعد
تزهو وتلمع ، وعلى القمرين اللذين انكسف ضياؤهما حزنا وغما ، أما الأرض -
فهى مضطربة مائده . وهذا العطف الرومنسي من جانب الكواكب ، والطبيعة
على تلك المدينة البائسة يدل على مدى الحزن العميق الذي شغف نفس الشاعر
فجعله يتخيل مشاركة كل شئ له في آلامه التي لا نهاية لها .

(١)

ومن رثى القيروان - وأطال في ذلك - شاعرنا ابن شرف القيرواني
ان يقول في اذلال أهل سوسه جالية القيروان :-
(٢) (٣)

-
- (١) هو أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد بن شرف الجذا من القيروانيين .
شاعر رقيق ، وكاتب مترسل ، وناقد بارع . ولد بالقيروان سنة ٣٩٠ وتعلم
فيها علوم العقول والمنقول حتى برع . ألحقه المعز بن باديس حاكم
القيروان بديوانه وخاصة ثم رحل إلى الأندلس عند خراب القيروان حيث
توفي بأشبيلية سنة ٤٦١ هـ وكانت بينه وبين ابن رشيق منافسة ومهاجاة .
انظر : الخريدة : ق ٤ ، ج ٢ ص ١١٠ - ١١١ ، كرون على ، رسائل
البلخا : ٣٠٢ ، المطرب : ٦٦ ، فوات الوفيات : ٢٠٤ / ٢ .
(٢) مدينة قديمة على ساحل البحر ، كثيرة السكان والمساجد ، عامرة الأسواق
وتشتهر بصناعة الثياب الرقيقة التي تنسج اليها . ويحيط بها سور حصين ،
ومنها تحرك أسد بن الفراء لفزو صقلية . / الروي المعطار (سوسه) .
(٣) الذخيرة : ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٢٧ - ٢٢٩ .

- آه للقبروان أنة شجسو * عن فؤاد بجاحم الحزن يوصلو .
- حين عادت به الديار قبورا * بل أقول الديار منهن أغللو .
- ثم لا شمع سوى أنجم تغد * طوطلو أفقها نواص كسللو .
- بعد زهر الشماع توقد وقد ا * ومقان الذبال تفتل فتسللا .
- والوجوه الحسان أشرق منهن * وفضلنهن معلى وشكسللا .
- لورأيت الذين كان لهم سم * لك وهرا قد صيروا الوعر سهلا .

يطلق ابن شرف زفراته الحزينه المعبزه عما فى قلبه الممذب من الألم
المبرح نتيجة ما حل بأحبابه من البأس فهلك من هلك ، وتشرد الباقيون فى
الأرض حتى عادت منازلهم منهم خلا ، هى أشبه بالمقابر التى يخيم عليها شبح
الموت المظلم . ثم ينتقل الى مشهد آخر يرسم صورة رحيل أهل البلاد عنها
فيقول :-

- بعد يوم كأنما حشر الخلو * ق حفاة به عوارى رجللو .
- ولهم زحمة هنا لك تحكلى * زحمة الحشر والصحائف تطلو .
- وعجيج وضجة كهجيج الـ * خلق ييكون والسراثر تهللو .
- من أيام وراهن يتامللو * ملثوا حسرة وشجوا وشكسللا .
- وشكالى أراملا حاملات * طفلة تحمل الرضاع وطفلا .
- وحضان كأنها الشمس حسنا * كفنتها الأطار نجلا * كحلا .
- بات كرسىها الجلا * فأضحت * فى ثياب الجلا * للناس تجللو .
- جار فيهم زمانهم وأولو الأم * رفقروا يرجون فى الأرض عدلا .
- تركوا الريح والأثاث ومايشـ * قل لا حامل من الناس ثقلا .
- لبسوا الباليات من خشن الصو * ف وعاد النبيه فى الناس غفلا .
- نادبات ، عفرا * تسعد سعدى * وسعاد تجيب بالنوح جملا .
- ليس منهن من يودع جارا * لا ، ولا حرمة تشيع أهلا .

انها صورة رهيبة قوامها الحس والحركة والتجسيم الملون لتفاصيل المشهد الذى يشبهه الشاعر بمشهد الحشر يوم القيامة مستعينا بمعانى الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية الواردة فى أهوال ذلك اليوم . فالقوم حفاة عراة ، خرجوا من بلادهم هائمين على وجوههم ، قد غصت بهم الطرق والمسالك ، وكأنهم فى زحمة الحشر عند انتشار صف الأعمال ، وقد اختلط ضجيجهم بالبكاء والنوح المضطرب من الثكالى واليتامى الذين مزقهم الحزن وملأت قلوبهم الحسرة فلم يعودوا يهتدون سبيلا ، ومن المحصنات اللواتى كسفن للحيان بعد الحجاب والستر .

ويلقى الشاعر تبعة ما حصل لهؤلاء الناس من الذل والهوان على الزمان وعلى الحكام الظلمة الذين من جورهم هرب الناس من بلادهم رجاء أن يصيبوا عدلا فى أرض أخرى . وفى سبيل ذلك تركوا العيش الرغيد لاختلاطه بالمرارة والقهر ، ولبسوا البالى ، وسيطر عليهم الذهول ، فلا جاريودع جواره ، ولا امرأة تعرف أهلها ، ولكن هل وصل هؤلاء المهاجرون الى بر الأمان الذى ينشدونه ؟ كلا فلقد عرض لهم الأعراب ونهبوهم ، ومزقوهم كل ممزق ، والسبب ذلك يشير قائلا :-

(١)

- فإذا القفر ضمهم فوق الدهر * رلهم غير ذلك النبل نبللا .
- من شعابين حاطين نيموا * عصلا : ذابلا ونبللا ونصللا .
- وشياطين رامحين يلاقوا * ن بجون الفلا ساكين عزلا .
- فترى للظهور تمتل عتلا * وتشق البطون تفسل غسلا .
- فإذا مطامع أصابوه فى أحلا * شا قوم عموا بذلك كسلا .

(١) الفوق : موضع الوتر من السهم ، وأفقت السهم ، أى وضعت فوقه

فى الوتر لأرض به انظر الصحاح (فوق) .

ان ابن شرف قد تفاعل مع هذه الصور - التي يرسمها بمهارة - تفاعلاً حيوياً نتج عن تجربة صادقة مربها وهاشها فلقد كان بين المشردين الذين هجروا وطنهم (القيروان) واتجه الى الأندلس ، لذلك نراه يصدر عن عواطفه جياشه تلون شعره بالحزن والشحوب . فبعد أن عدت تلك الشعابيين والشياطين على المساكين العزل ، وضرستهم بأنيابها وشقت بطونهم بحشا عن المغانم المخبأة فيها . بعد هذا يعود ليعين حال من بقى حيا يتجرع غصص المذلة أينما اتجه فيقول :

- فاننا نجت المقادير منهم * راحلا بالخلاص يحمل رجلا .
- لقى الهون في المذلة أنسى * كان من سائر البلاد وحلا .
- ليس يلقى الا امراً مستطيلاً * طالبا عنده حقوقا وذحلا .
- فترى أشرف البرية نفساً * ناكسا رأسه يلاطف نكدلا .
- فهم كلما نبت بهمهم أر * في مطايا الفراق خيلا ورجلا .
- مزقوا في البلاد شرقا وغربا * يسكبون الدموع هطلا وويلا .
- لا يلاق النسيب منهم نسيباً * يتعزى به ولا الخيل خيلا .
- ليت شمري هل عودة لى في الضيق ب الى ما أطال شجوى أم لا ؟

والشاعر هنا يتحدث عن مرارة الاغتراب التي ذاقها مع غيره من الناس ، فهو يشعر بالقلق الدائم والتوجس من الناس الذين لا يرى فيهم الا أعداء حاقدين يطلبون ثأرهم ، عند أولئك الغرباء ومن ثم اضطر الغرباء أولو الشرف والكرامة الى تطلق الأندال والتلطف اليهم في سبيل العيش معهم ، بحسد

(١) الذحل : الثأر . اللسان (ذحل) .

أن تعزق شملهم شرقا وغربا . أما تحنى الشاعر فى البيت الأخير فلم يتحقق
فقد ظل يقاسى آلام الفرية حتى مات بعيدا عن وطنه .
(١)
وفى قصيدته الثانية يصف خلا القبروان وأيحاشها فيقول :-

- كأن الديار الخاليات مرائس * كواسد قد أزرت بهن الضرائر .
- إذا أقبل الليل البهيم تمكنت * بها وحشة منها القلوب نوافر .
- ولا سرج إلا النجوم مرمما * تغطت فسدت جانبيها الدياجر .
- ومقد مر الصوت فيها مرمما * تجود مرارا بالكلام المقابسر .
- فلو نطق ما كان أكثر نطقها * سوى قولها أين الخليل المعاشر .
- ألا منزل فيه أنيس مخالط * ألا منزل فيه أنيس مجاور .

لقد كانت نكبة القبروان عامة طامة ، فانطفت بخرابها وهدمها
مصابيح حضارتها الزاهرة وتغيرت صورتها المشرقة ففدت ألالا موحشة
تنفر منها القلوب لظلمتها ، وتتجاوب فى نواحيها الأصداء وتصوى بها
الرياح حيث لا ساكن ولا أنيس . ولكن ياترى ما سبب هذا البلاء الذى حل
بهذه المدينة ؟ هذا ما يتساءل عنه الشاعر :

ترى سيئات القبروان تماظمت * فجلت عن الغفران والله فافر ؟

تراها أصيبت بالكبائر وحدها * ألم تك قدما فى البلاد الكبائر ؟

هل كان سبب محنتها ذنوبها الكثيرة التى لم يتجاوز عنها الله - سبحانه - ؟
ثم لماذا أصيبت وحدها بالمحن بالرغم من وقوع الكبائر والأوزار فى غيرها من
البلدان الكثيرة ، ولعل هذا الاستفهام الذى خرج الى التعجب من قدر
الله قادت اليه عاطفة الحزن الشديده التى لم يستطع الشاعر ضبطها ، والا ليس

(١) القصيده فى الذخيره : ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .

لأحد أن يعترض على حكم الله فالله الخلق والأمر يعذب من يشاء ، ويرحم من يشاء . ثم يعود الشاعر لوصف حال أهل القيروان وملا قوه من المشاق فـ
رحيلهم على نحو ما فعل في القصيدة السابقة :-

ترحل عنها قاطنوها فلا ترى * سوى سائر أو قاطن وهو سائر .
تكشفت الأستار عنهم وربما * أقيمت ستور دنهم وستائر .
إذا جاذبت أستارها تبتغي بها * لا قدامها سترا تبدت غدائر .
تبيت على فرش الحصى وغطاؤها * دوارس أسمال زوار حقائر .
ثم يتمنى أن يعود إلى مدينته التي قضى فيها ليالي السرور أيام اجتماع
الشمل :

(١)

فياليت شعر القيروان مواسني * أعائدة فيها الليالي القصائر ؟
ويا روحتي يا القيروان وكترتني * أراجعة روحاتنا والهواكسر ؟
كان لم تكن أيامنا منك طلبة * وأوجه أيام السرور سوافسر .
كان لم يكن كل ولا كان بعضه * سيمضي به عصر ويمضي المحاصر .
يزداد الشوق عند ابن شرف لرؤية موطنه القيروان ، وتهيج الذكريات
فيطلق آهاته من بعيد من وراء البحر ، ويود لو كان طائرا لكي يطيل التحليق
في سمائها متأملا يقول :- (٢)

يا قيروان وددت أني طائر * فأراك رؤية باحث متأمل .
آها وأية آهة تشفى جوى * قلب بنيران الصبابة مصطل .
أبدت مفاتيح الخطوب عجائبها * كانت كواكب تحت غيب مقفل .
زعموا ابن آوى فيك يهوى والصدى بذراك يصرخ كالحزين المشكل .

(١) هكذا جاء البيت في المصدر السابق ص ٢٣٥ ولعل الصواب : فياليت

شعري

(٢) المصدر السابق : ١٨١ - ١٨٢ ، ص ٢٣٣ .

ان الشاعر مهما بعد وطالت غربته ، ومهما لقي من الاحسان والتقدير
فانه لن ينسى وطنه الأول يقول :

- يالوشهدت ، ان رأيتك في الكرى * كيف ارتجاع صباي بعد تكهل .
- لاكثره الاحسان تنسى حسرة * هيئات تذهب طلة بتعطل .
- واذا تجدد لي أخ ومنادى * جددت ذكر اخاء خل أول .

انه دائم الذكر لها والتشوق اليها ، فلما أسعده الحظ مرة برؤيتها
في المنام شعر بانتعاش وقوه وكأنه رجع الى طور الشباب بعد أن اكتمل ،
وهي صورة جميلة لمدى التعلق بالوطن الذي انفرد فيه في نفس الشاعر
فهما وجد من الخير والتكريم خارج هذا الوطن الغابر فان ذلك لا يعسدو
كونه تلة وتسليه . أماكوا من الأحزان والحسرات فلم ترح قلبه ، واذا ما
اتخذ خلا جديدا في غربته فان ذلك يذكره باخوانه السابقين فهو بذلك
يعيش في الحاضر مستلهما ذكريات الماضي التي لا تنمح .

وفي قصيدة أخرى يكرر الشاعر نفس الصورة وهي رؤية القيروان في الكرى
ومدى سعادته في تلك اللحظة القصيره التي أورثته حزنا طويلا ان حرم من
رؤيتها حقيقة بسبب أولئك الأعراب الذين تملكوها يقول :- (١)

- اذا كان للأحباب رسل فرسلنا * بروق الى أحبابنا ورياح .
- ومن دون تلك الرسل أخضر زاهر * أحاج ومهجور الفجاج فياح .
- وللسهم دون القيروان تسهم * وماشوكه الا ظبي ورياح .
- وقرة قد قرت هناك ميونها * وزغبة ريشت زغبها ورياح .

(١) الذخير : ق ٤ ، ج ١ ، ص ١٨٤ ، ص ٢٣٦ .

(٢) قوه وزغبه ورياح هي قبائل الأعراب التي تولت خراب القيروان .

- كان لم يكن لي أس في عرصاتها * من العيش جد طيب ومزاج
- يخيلها زهر الكرى لي في الدجى * فأرغب في ألا يلوح صباح
- كسيت قناع الشيب قبل أوانه * وجسني طيه للشباب وشاح

ان الشاعر هنا يستشعر الغربة والبعد المكاني بينه وبين أحبائه من أهل القبروان حيث بينهما البحار والقفار ، لذا فهو يزجى تحياته لهم في طيات الرياح ولعمان البروق . كما أنه لا ينسى البعد النفسى الذى يمنحه مسكن الرجوع الى بلده ، وهو أولئك الأعراب الذين زرعوا أرض القبروان شوكة وخناجر ودماء .

وبعد فمن جطة هذه القصائد الرثائية يتضح لنا أسلوب الشاعر الذى تميز بالوضوح ودقة التصوير مع البعد عن التكلف ، فقد جاء رثاؤه نابها من قرارة نفسه ووجدانه ، ولعب احساسه الواقعى بالمأساة دورا بارزا فى جيشان عاطفته والهباها فترجم ذلك الحزن والألم الى صور شعرية نابضة بالحركة تتحلل بالخيال أحيانا . ولعله في هذا الجانب فاق زميله ومعاصره ابن رشيق القيروانى في رثائه المتقدم . ومن ناحية أخرى فان شعر ابن شرف في رثاء القبروان قد خلا تماما من الألفاظ والمعانى الحماسية ومسكن الاستصراخ وطلب النجدة لانقاذ البلاد . فقد كان تغاطفه مع النكبة ذاتيا في حدود نفسه فتفنن في استعمال معجم ألفاظ الحزن ، فنجد التأسؤ والزفرات الحارة ، والحسرات المؤلمة ، والقلب الذى اصطلق بنار الشوق والبعد الخ . ولعل الشاعر سلك هذا السبيل لأنه لم يجد من يستنصره ، فقد كان يعيش في الأندلس في عصر طوك الطوائف حيث الفوضى والصراع المداخل بينهم ، والخارجى مع النصارى طى أشده وكانوا جميعا أضعف من أن تمد اليهم الأيدي أو يرجو منهم خير . والخلافة العباسية قد

دب فيها الضعف بلاضافة الى بعد الشقة ، ووقوف الدولة الفاطمية فى

مصر حائلا بينها وبين القيروان .

(٢)

(١)

ولأبى الحسن الحصرى قصيدة فى رثاء القيروان وأهلها يقول فيها :-

- موت الكرام حياة فى مواطنهم * فان هم اغتربوا ماتوا وماتوا .
- يا أهل ودى لا والله ما انتكثت * عندى عهد ولا ضاقت مودات .
- لئن بعدتم وحال البحر دنكم * لبين أرواحنا فى النوم زورات .
- مانمت الا لكى ألقى خيالكم * وأين من نازح الأوطان نومات . ؟
- اذا اعتلنا تعللنا بذكركم * لو أحسنت برءلات تعمالات .
- ماذا على الريح لو أهدت تحيتها اليكم مثل ماتهدى التحيات . ؟

يفتتح الحصرى قصيدته بهذا المطلع الذى يحوى حكمة من مارس تجربة الاغتراب المريرة وناله فيها ماناله من الضيم والأذى ، فقد كان أحد الذين هاجروا عند خراب القيروان الى المغرب ثم الى الأندلس حيث جال فى عدد كبير من نواحيها يمتدح ويتكسب . لذا نراه يعتبر الموت الكرم فى الوطن خيرا من الضربة التى تضيق فيها الهوى وينسى ذوى الفضل . ونراه - أيضا - يؤكد على صدق مودته لأهل بلده مهما طال الزمان وبعدت الشقة ، فهو لا ينام الا لكى يلقى خيال الأحبة فى المنام وتمتج الأرواح فيشفى ذلك مابسه من العلل . والملاحظ على هذه الأبيات أنها تحمل نفس الأفكار والمعاني التى

-
- (١) هو على بن عبد الغنى الفهرى الضرير المعروف بالحصرى . شاعر أديب ، رقيم الشعر ، حديد الهجو ، كان عالما بالقراءات . رحل الى الأندلس عند خراب القيروان فلقى حظوة عند ملوك الطوائف ولما زالوا استقر بطنجة ومات فيها سنة ٤٨٨ هـ وهو ابن خاله أبى اسحاق الحصرى صاحب " زهر الآداب " / انظر ترجمته : الوفيات : ٣ / ٣٣١ ، الحلة السيرة : ٥٤ / ٢ ، جذوة المقتبس : ٣١٤ .
- (٢) الذخيرة : ق ٤ ، ج ١ ص ٢٧٧ .

جاءت في شعر ابن شرف السابق ذكره بل ان الأمر قد يصل الى الألفاظ .
ألم يقل ابن شرف " هيهات تذهب علة بتعلل " وقال العصري " لو أحسنت
بـ " علالت تعللات " ومثل هذا كثير عند تأمله . فكلاهما يبعث تحياته مع الريح
وكلاهما يرى أطياف الأحبة في الكرى وما الى ذلك . ولعل كونها متحاصرين
والشعر قيل في موضوع واحد هو الذي جعل الحافر يقنع على الحافر ، أو ربما
هو التأثير والتأثير في موقف معين .

ثم يبكي الشاعر أسفا عندما تهيج أشجانه ذكرياته الماضية في القيروان :-

أصبحت في غربتي لولا مكاتمتي * بكنتي الأرض فيها والسموات .
كأنني لم أذق بالقيروان جسنى * ولم أقل لها لأحبائي ولا هاتوا .
أبعد أيامنا البيض التي سلفت * تروقني غدوات أو عشييات ؟
أمر بالبحر مرتاحا الى بلد * تموت نفسي وفيها منه حاجات .
وأسأل السفن عن أخباره طمعا * وأنثني وقلبي منه لومعات .
هل من رسالة حب أستعين بها * على سقامي فقد تشفى الرسالات ؟

ان الشاعر يعيش في قلق دائم ، مؤس مستمر فلم تعد تروقه لذائذ العيش
بعد أن ولت أيامه الجميله في بلده الأول ، وانما همه الآن أن يسمع شيئا
من أخبار القيروان ، فهو يناشد السفن القادمة من تلك الديار لعلها تحمل
اليه ما يشفى فؤاده السقيم المعذب . ثم ينتقل بعد ذلك الى وصف مدينته
الخربة - أيام عزها ، فيجعلها جنة ترابها المسك ، وحصاها الجوهر ، ويشبهها
بالشمس التي لا يخفى نورها على أحد ومع ذلك يصيبها الكسوف في بعض الأوقات :-
ألا سقى الله أرض القيروان حيا * كأنه عبراتى المستهللات . (١)

(١) الحيا : المطر الذي يحيى الأرض ويخصبها . الصحاح : (حيا) .

- فانها لدة الجنات تربتها * مسكيه وحماها جوهريات .
 - (١)
 - الا تكن في رباها روضة أنف * فانما أوجه الأحياب روضات .
 - أولا يكن نهر عذب يسيل بها * فان أنهارها أيد كريمات .
 - (٢)
 - أرض أريضة أقطار ماركسة * لله فيها براهين وآيات .
 - لا يشمتن بها الأعداء ان رزئت * ان الكسوف له في الشمس أوقات .
 - ولم يزل قابض الدنيا واسطها * فيما يشاء له محو واثيرات .
- وفي ختام القصيدة نرى الحصري الغريب وقد تجسست مأساته فأصبح ليله زفريات وأانات ونهاره حشرات يقول :-

- ما ان سجا الليل الا زادني شجنا * فأتبعت زفريات فيه أنسات .
- ولا تنفست أنفا في الرياض ضحى * الا بدت حشرات المستنسات .
- هذا ولم تشج قلبى للرباب ريس * ولا تقشقه من لبنى لبائسات .
- وكم دعيت لبستان فجدد لى * وجدا وان كان في معناه سلوات .
- ولو تراني اذا غنت بلابلـه * أشكو البابل لو تخفى الشكيات .
- (٣)
- اني لأظما والأنهار جاريفة * حولي وأضحى ودون الشمس دوحات .
- ما أرى الموت الا باسطا يسهده * من قبل أن يمكن المأسور افلات .

(١) الروض الأنف : الذي لم يرعه أحد . المصدر نفسه (أنف) .

(٢) أرض أريضة : زكيه . اللسان (أرض) .

(٣) أضحى : أبرز للشمس . الصباح (ضحى) .

- ان حب القيروان قد سكن قلب الشاعر ، فهو لا يتكلم الا عنه ، وكلمنا
 رأى منظرا جميلا فان وجدته يثور أو يضطرم صباية اذا ماسمعه فناء بلابل السدح
 فيذهب لبيتها ما يجد ، فلا تسمع شكايته حتى ضاقت به السبل واضطرب حاله
 وتأكد لديه أن الموت سيدركه قبل أن يعود الى وطنه ويروى ظمأه .
 (١) (٢)
 وهناك فمسى مرثية القيروان لعبد الكريم بن فضال القيرواني منها :-
 ليت شمري وليت حرف تمسن * ربما علل الفؤاد السقيما .
 كيف يا قيروان حالك لمسا * نثر البين سلكك المنظوما .
 كنت أم البلاد شرقا وغربا * فمحا الدهر وشيك المرقوما .
 نحن أبناءها ولكن عققنا * بعد ان لم نطق بها أن نقيما .
 دمن كانت البرق وكنا * أقمرنا في فنائها ونجومنا .
 وله أيضا :- (٣)
- لله منزلنا بالقيروان محسا * آياتها البين لا الأيام والقندم .
 شققت ثوب شبابي بعد فرقتها * حزنا عليها ولا شيب ولا هرم .

-
- (١) هو أبو الحسن عبد الكريم بن فضال القيرواني . كان يعرف بالحلواني .
 قال فيه ابن بسام : له كلام في النسيب رائق ، ومتأخر سابق ، ومديحه
 أيضا عليه طلاوة ، والجملة ففي ألفاظ الحلواني حلاوة .
 انظر / الذخيرة : ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٨٤ ، المطرب : ٥٩ .
 (٢) الدباغ : معالم الايمان في معرفة أهل القيروان : ١٤ / ١ .
 (٣) المصدر نفسه : ١٣ .

ان الحزن والانكسار هو أبرز ما يغلف هذه الأبيات فالشاعر يستفتح سؤاله عن القيروان بالتمنى المشرب باليأس ، لأنه على علم بحالها المتردى بمسند أن كانت أم البلاد شرقا وغربا . ثم نراه يصف أبنائها بالمحقوق لأنهم تمتصوا بخيراتهم أيام الرخاء فلما جاءت الشدائد ودهمتها الخطوب فروا منها وتركوها تواجه مصيرها بممزل عنهم ، والأبيات تنبع عن عاطفة شفافة صادقة تجلت عند الشاعر بشكل حزن عميق أخلق منه شبابيه وهو لا يزال بعيدا عن سن الشيخوخة والمهرم .

بعد فهذا الوفاء من شعراء القيروان لمدينتهم جعلها تحظى بهذا العدد الوافر من قصائد الرثاء التي ربما لم تحظ به غيرها من المدن والبلد على مر عصور الأدب العربي . وربما كان لهذا الأمر دلالة أخرى وهي قوة الحركة الأدبية والازدهار الثقافي في القيروان قبل نكبتها .
(١)
رثاء مراکش :-

عندما تولى يوسف بن تاشفين زمام الأمور في الدولة المرابطية صرف همه إلى الجهاد في سبيل الله وفتح نواحي المغرب ونشر السلام بين قبائل البربر فأعد لذلك جيوشا ضخمة ، قاد بعضها بنفسه ، ولم تضي بضعة أشهر حتى سيطر على معظم نواحي المغرب الجنوبية والوسطى وعاد إلى عاصمته أغمات وقد عظم أمره وذاع صيته ، وفكر عندئذ في إقامة مدينة تكون قاعدته

-
- (١) أكبر مدن المغرب الأقصى ، تقع في سهل من الأراضي ليس حولها إلا جبل صغير يسمى ايجليز ، وعلى ثلاثة أميال منها نهر صغير يسمى تانسيفت ، وهي كثيرة البساتين والجنات ، وذات أسواق تجارية ضخمة / السروسي المطار (مراکش) .
- (٢) مدينة بأرض المغرب بينها وبين مراکش ثلاثون ميلا ، سكانها من البربر ، وأغمات مدينتان أحدهما تسمى أغمات وريكة والأخرى أغمات هيلانه ، فسى الأوى تسكن الأعيان وتنزل التجار ، وتخرقها المياه يمينا وشمالا مما ساعد في خصوبتها وكثرة زراعتها . وأغمات هيلانه يسكن اليهود لمنع المرابطين إياهم من دخول مراکش / المصدر نفسه (أغمات) .

(١)

لجيشه ومركزا لادارة حكمه فاخط سنة أربع وخمسين وأربعمائه مدينة مراکش وأقيمت فيها المساجد والقصور والأبنية وأصبحت هي عاصمة الدولة المرابطية وقد سُمِّيَها علي بن يوسف الذي تولى الحكم بعد أبيه ، وهي سورها العظيم سنة ست وعشرين وخمسمائه ورحل اليها العلماء والفقهاء حتى ازدان بلاط علي بن يوسف بعدد وافر منهم هقيت كذلك إلى أن سقط حكم المرابطين ودخلها الموحدون سنة إحدى وأربعين وخمسمائه واتخذوها عاصمة لهم . أيضا . واهتموا بشأنها وإصلاحها اهتماما كبيرا جعلها تغدو درة مدن المغرب ، وأعظم قاعدة لدولة مترامية الأطراف . ثم أقام بنو مرين دولة في فاس ، واستغلوا مرحلة الضعف التي تمر بها الدولة الموحدية فجهز أبو يوسف المريني جيشا قويا وسار به إلى مراكن والتقى بجيش الموحدين فهزمه هزيمة مزمقة ، وقبض على آخر الخلفاء الموحدين وهو المعروف بأبوس ديس واحتز رأسه وعلقه على سور مدينة فاس ، ودخل مراكن سنة ثمان (٣) وستين وستمائه واستقبله أهلها هايعوه بالطاعة فأمنهم ، وطمانهم ومكث فيها بضعة أشهر رجع بعدها إلى حاضرتة فاس ، وعلى أثر ذلك بدأت أهمية مراكن تقل شيئا فشيئا وأهمل المرينيون أمرها ، فسرى اليها الخراب ،

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس : ٨٩ .

(٢) الكامل في التاريخ : ٢٩٩/٨ .

(٣) عنان : عصر المرابطين والموحدين : ٥٧٠/٢ .

(١)

وغزاها الدمار ، فقد دخل اليها ابن الخطيب في هذا العهد واعتبر بها

(٢)

صارت اليه من الاهمال فقال يرثيها :-

- بلد قد غزاها صرف الليالى * وأباح الحريم منه مبيع
- فالذى خرّ من بناءه قتييل * والذي خرّ منه بعض جريح
- وكان الذى يزور طيب * قد تأتى له به التشريح
- أعجمت منه أربع وطلول * صال قدما بها اللسان الفصيح
- كم معان غبت بتلك المعانى * وجمال أخفاه ذاك الضريح
- وطوك تعبدوا الدهر حستى * أصبح الدهر وهو عهد صريح
- ودخوا نازح البسيطة حستى * نال ماشاء ذابل وصفيح
- حين شبت لهم من اليأس نار * ثم هبت لهم من النصر ريح
- أثر يندب المؤثر لمسا * طال بعد الدنوضه النزوح
- فقلوب النجوم تحفق وجدا * وعيون السحاب حزنا تفوح
- ساكن الدار روحها كيف يبقى * جسد بعدما تولى الروح

(١) هو ذو الوزارتين ، محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني ، الغرناطي

الأندلسي ، والمشهور بلسان الدين بن الخطيب . ولد بقرناطيه

سنة ٧١٣ هـ ونشأ بها ، وهو وزير وشاعر وأديب لا يجارى . تولى الوزارة

لأبي الحجاج سلطان غرناطيه ثم لابنه الفنى بالله حتى ثار عليه أخوه

سنة ٧٦٠ هـ وفر ابن الخطيب الى المغرب وحدث بعد ذلك أمور يطول

ذكرها أرجع بعدها ابن الخطيب الى غرناطيه ، واتهم بالزندقة ، وأُفست

بعض حساده من العلماء بقتله فدى عليه في السجن من خنقه سنة ٧٧٦ هـ

ودفن بفاس . وقد خلف لنا من الآثار ما يقرب من ستين كتابا .

انظر : الاحاطة في اخبار غرناطيه : ١٨/١ - ٢٥ ، غنان ، لسان الدين

ابن الخطيب : ص ١٠ وما بعدها ، جذوة الاقتباس : ١٨٤/٢ ، الدرر

الكافه : ٤٦٤/٣ .

(٢) لسان الدين بن الخطيب ، ديوان الصيب والجهام : ٣٧٦ . وانظر

نفاضة الجراب في علالة الاغتراب : ٣٨٠/٢ .

ان حال مراكن جدير بالتأمل وأخذ العبرة ، فقد كانت هذه المدينة
 قصبة منيعة لأكر دلتين عرفهما المضرب الاسلام عبر تاريخه ، وكانت قلعة
 أنظار المهاجرين ومأوى اللاجئين تزهو برونق الملك ، وتختال في أشواق
 العز المنشورة فوق بلاط المرابطين ومن بعدهم الموحدين . ولكن هذه
 الدنيا لا يبقى فيها شيء على حاله ، وصروف الليالي كهيئة بتحطيم أمنع الأشياء
 فالشاعر يقف بمراكن وسط أكوام من البناء المتهدم والمتصدع وكأنه بين قتييل
 وجريح . وقد لف تلك الأطلال صمت رهيب بعد أن كانت مرتعا خصبا
 يجول به العلماء والأدباء ، ثم يرجع الشاعر بذكراته الى الوراء قليلا ليتذكر
 الطوك العظام الذين كانوا بهذه البلاد ، والذين خضعت لسلطتهم الممالك
 والدول ، وان التاريخ ليسطر بحروف من نور جهاد المرابطين والموحدين
 ودفاعهم المجيد عن الأندلس الاسلامية ضد ممالك الأسبان الصليبية ومن
 ورائها أورها قاطبة . ثم ذهب هؤلاء الطوك ، وطواهم الردى وشكيتهم مراكن
 فهي تندبهم بخفقان نجومها وتبكيهم بما سحابها ، فهم روحها وحياتها
 حيث أصبحت بعد زهاب هذه الروح جسدا مهملًا متداعيا .

ومن الجدير بالذكر أننا لا نجد شعرا في رثاء دولة المرابطين أو الموحدين
 على سمة بلاطهم وكثرة شعرائهم وانما هناك شعر في رثاء بعض الدكام والخلفاء
 وتخليد مآثرهم . ولعل ذلك راجع لأمر سياسي تكمن في العدا بين الدولة
 الجديدة والدولة الفارسة ، وحرص الأولى على طمس أي فضيلة أو ذكر للثانية .

الفصل الثاني : شعر الاستغاثه والحث على الجهاد .

يمكننا القول ان هذا اللون من الشعر أندلسى الطابع والصفه ،
اننا لانجد منه في شعر المشرق الا خيوطا ضئيله من أهميتها تلك
الآبيات التى أنشدها رسول صلاح الدين الأيوبي شمس الدين بن منقذ
بين يدي الخليفة الموحدى يعقوب المنصور يستجذب بها الصليبيين سنة
(١)
سبع وثمانين وخمسائة ، وفيها يقول :-

سأشكر بحرا ذا عباب قطعته * الى بحر جود مالا خراه ساحل .
الى معدن التقوى الى كعبة الندى الى من سمت بالذكر منه الأواهل .
اليك أمير المؤمنين ولم تنزل * الى بابك المأمول تزجى الرواحل .
قطعت اليك البر والبحر موقتا * بأن نداك الفخر بالنجح كافل .
وحزت بقصدك العلا فبلغتها * وأدنى عطايك العلا والفواضل .
فلا زلت للعليا والجود بانيسا * تبلفك الآمال ما أنت أصل .
والآبيات - كما يلاحظ - تخلو من ذكر الغرض الرئيس الذى تهدف اليه
وهو طلب النجدة والغوث ، فقائلها جعلها قصيدة مدح خالصة للخليفة
الموحدى الذى ينعمه بأعير المؤمنين ومحط الأنظار وكعبة الآمال المتصفف
بالتقوى مع طيب نسبه وأرومته . وانما سلك الشاعر سبيل المدح ليشعر المدوح
بقيمته وقدرته على الاغاثه مهنه ابذلك لتسليمه رسالة السلطان صلاح الدين
(٢)
المتضمنه شرح الحالة ، وموضوع الطلب ومما جاء فيها " ولما كانت
حضرة سلطان الاسلام ، وقائد المجاهدين الى دار السلام أولى من توجهه

(١) نفتح الطيب : ٤٤٥ / ١ .

(٢) الرسالة فى الروضتين : ١٧١ / ٢ - ١٧٢ .

اليه الاسلام يشكواه هشه ، واستعان به على حماية نسله وحرثه وكانت مساعيه ومساعدى سلفه فى الجهاد الفرمحبلة ، الكاشفة لكل محضلة ، وكسل بجهاده قد سكن الا السيوف فى أعفادهما ، وقد أمن الا كلمة الكفر فسى بلا دها صرخنا اليه بهذا الاستدعاء فقد تحفل السمحاب ولا تطامر الى أن تحركها أيدى الرياح . وقد لقيت الرسالة قبولا من الخليفة المنصور ولكنه كان فى شغل شاغل عن تلبية النداء إذ كان يعد خطة قوية لدحر الصليبيين فى الغرب الاسلامى ، الذين اشتدت وطأتهم على الأندلس ، واجتمعوا عليها من مختلف جهات أوروبا حتى كان يصفها ذلك الخليفة باليتيمة وأهلها بالأيتام . وعندما أنط المنصور استعداداته جاز الى الأندلس والتحم مع النصارى فى معركة " الأرك " المشهورة التى ذكرناها فى الفصل السابق ، والتى أمدت فى عمر الأندلس وعمر دولة الموحدين ما يقرب من قرن من الزمان .

أما فى الأندلس فقد ترعرع هذا الفن ، وأصبح من الأغراض الشعرية الثابتة التى فجرت ينابيعه النكبات المتلاحقة بدءا بسقوط الخلافة الأموية والى آخر عهد الأندلس الاسلامى ، فالمعارك الخارجية والفتن الداخلية ظلت مستمرة آثار طيلة هذه الفترة الطويلة ، وقد كانت صهفة حرب النصارى للاسلام تتخذ السمة الدينية الكسبية للقضاء عليه ، ومحو آثاره الساطعة من جزيرة الأندلس ، فكان يجتمع على حرب المسلمين كل من اعتر بالصليب ، وآمن بالنصرانية . وتجاه هذا الخطر الداهم كان لابد لمسلمى الأندلس أن تمتد أيديهم لطلب العون والاستغاثة من اخوان العقيدة فى المغرب وافريقية وغيرهما . وكان الشعر هو الرسول الفصيح الذى ينطلق بسرعة عبر الأسوار

(١) أشباح ، تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين : ١٦٢/٢ .

والحصار ، وفوق البحار لمشحن نفوس المستغاث بهم حماسة واقداما ،
وحشهم على انقاذ قواعد الاسلام التي وهت بسبب تكالب الكفار عليها .
بالاضافة الى المدح واثارة النخوة التي هي من خصائص هذا الشعر . ففى
عهد الطوائف بالاندلس شعر النصارى بخطورة موقع جزيرة ميورقه ، حيث
كانت الاساطيل الاسلاميه تخرج منها وتغير على الشواطىء الايطاليه ،
فعقد الطليان حلفا مع أمير برشلونه (رامون برنجير الثالث) سنة ثمان
وخمسمائة على غزو ميورقه ، هارك البابا هذا الحلف ، فخرج فى تلك السنة
من المياه الايطاليه أسطول كبير يحوى ثلاثمائة سفينه بالاضافة الى وحدات
بحريه أخرى من برشلونه وفرنسا ، ولما علم بذلك أمير الجزيرة (مهشرين سليمان)
سعى فى طلب الصلح فلم تفلح مساعيه ، عندئذ أخذ فى تحصين ميورقه
واستعد للقتال حتى النهايه ، وأقبل الأسطول النصارى وحاصر المنطقه
بالات الحصار الضخمه ، وقاسى المسلمون الجوع والألم ، ومات منهم الكثير
وعلى رأسهم الأمير مهشر ، فاقحم النصارى الأسوار ودخلوا المدينه فحاشوا
فيها وخربوها ، وأضرموا فيها النيران وفى هذه الأثناء انطلقت أصوات
الاستغاثة نحو أمير المسلمين على . بن يوسف بن تاشفين أمير المرابطين
فى مراكن . الذى اهتز للمصاب وأدرك الخطورة المترقبه على سقوط الجزيرة
(٣)

-
- (١) جزيرة فى البحر الأبيض المتوسط ، وهى عاصمة جزر الأندلس الشرقيه
المعروفة بجزائر البليار ، وتقع بين بجاية من الجنوب وبرشلونه من
الشمال ، وقد فتحها المسلمون سنة ٢٦٠ هـ بقيت الى سنة ٦٢٧ هـ
حيث طكها النصارى / انظر الروى المعطار (ميورقه) .
(٢) صان ، صر الطوائف والمرابطين : ٢١١ .
(٣) ابن أبى زرع ، روى القرطاس : ١٠٥ .

فجهز على الفور أسطولا ضخما ، وهاجم الجزيرة ففرّ النصارى بماغنمهم و
وتركوا الجزيرة أطلالا فدخلها المرابطون سنة تسع وخمسمائة وشرعوا فى
تعميرها ، ووضعوا عليها حاكما مرابطيا يتبع دولتهم . ومن أشهر الأصوات
المستغينة صوت الفقيه الحافظ ابن عطية^(١) الذى أرسل بقصيدة يتناول
(٢)
فيها :-

ونحو أمير المسلمين تطامحت * نواظر آمال وأيدى رغائب .
من الناس تستدعى حفيظة عدله * لصدمة جور فى ميروق ناصب .
مقيم فان لم يرغم السعد أنفه * ألم فوافى جانباً بعد جانب .
لقتل وسبى واصطلام شريعة * لقد عظمت فى القوم سوء المصائب .
(٣)
ان صاحب الأبيات يحاول أن يستثير همة أمير المسلمين ويحثه على
الحماس والجهاد من طريق وصف الحادثة المروية التى ألمّت بالجزيرة ،
والتي سيعم غطرها ، ويمتد شرها اذا لم يبادر أمير المسلمين الى كبح
جماعها فهو القادر على ذلك ، واليه توجهت الأنظار .
ثم يأخذ فى مدحه بصفات الشجاعة والكرم والنجدة فيقول :-

(١) هو أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربى . من أهل غرناطة .
ولد سنة ٤٨١ هـ ، وهو أحد القضاة والفقهاء المشهورين بالأندلس ،
وكانت له اليد الطولى فى اللغة والأدب والشعر ، وكان مجاهدا
يكثر الغزو فى جيوش المرابطين حتى توفى سنة ٥٤٦ هـ . / انظر
فهرس ابن عطية : ٧ ، فهرس الفهارس : ٨٦٢ ، ابن الأثير ،
معجم الصرغى : ٢٦٩ .

(٢) الفتح بن خاقان ، قلائد الحقيان : ٢٤٥ .

(٣) كان المرابطون يتسمون بأمر المسلمين تواضعا عن مقام أمير المؤمنين
الخليفة العباسى القرشى .

لنا الله والملك الذى ترتجى به * من الزمن المذئاب رجعة ثائب .
هو الفوث فاعطفه طينا بنظارة * من الحزم تحثوفى وجوه النوائيب ،
أليس الذى لم ينجب الدهر مثله * أغرّ صباح الدين صدق المضارب .
عهدناه يقوى الضيف قبل نزوله * هلبس وقت السلم درع الحسارب .
وهفزو فلا شئ يقوم لعزمه * ولو أنه يرضى به فو الكواكب .
فلا زال جيش النصر يقدم جيشه * وتلقاه بالبشرى وجوه المواقب .
والقصيدة تمتاز بحرارة العاطفه ، وصدق الشاعر التى انبعثت من
حادث مفرع وقع أمام عين الشاعر لذا نراه يلجّ فى طلب الفوث ، وباللغ
فى المدح لهزّ أريحية الأمير الذى كان فعلا من المجاهدين وأول
الحزم ، فكان منه ماسبق الحديث عنه .

والملاحظ أن الشعر الذى استصرخ به المرابطون قليل جدا بالنظر
الى كثرة غزواتهم وجهادهم الطويل فى الأندلس . فلا نكاد نجد الا هذه
القصيدة ، ومعنى الأبيات المتفرقة ولعل سبب ذلك هو عدم تذوقهم للشعر
بلغته العربية الأصلية لكونهم من البربر .

بالإضافة الى ميلهم للعلماء والفقهاء - خاصة - أكثر من الشعراء ، فكان
طلاب نجدتهم - فى الغالب - من أهل الفقه والقضاء . وفى القصيدة
التي بين أيدينا دليل على ذلك .

وفى نهاية القرن الخامس الهجرى اشتدت وطأة النورمان على جزيرة صقلية
- كما تقدم - وأخذوا يتوفلون فى أطرافها ويظلمون نواحيها الواحدة تلو
الأخرى . ففر الشاعر الصقلى ابن حمدى الى الأندلس وهناك اتصل
(١)
بالمحتدم بن عباد كبير ملوك الطوائف فيها حوالى سنة احدى وسبعين

(١) على المصراعى : ابن حمدى الصقلى : ٨٨ .

وأرجعائه طالبا نجدته ، وصحرا همته لانقاذ الوطن الصقلي المهتدد
 ويهدد وأنه لم يجد عنده بغيتته فتركه الى غيره من حكام الأندلس فلم يكن
 منهم شئ يذكر فأخذ عندئذ يرسل الصرخات الحماسية الى بني وطنه ففى
 صقلية ، ويدفعهم الى الصمود والمقاومة حتى النهاية فيقول :-

- بنى الثغر لستم فى الوفى من بنى أمى * اذا لم أصل بالحرب منكم طوى العجم .
- دعوا النوم فى خائف أن تدوسكم * دواه وأنتم فى الأمانى مع الحليم .
- وكأس بأم الموت يسمى مديرها * الى أهل كأس حشها باهنة الكرم .
- فردوا وجوه الخيل نحو كرمها * مصرحة فى الروم بالثكل واليتم .
- تهيل من النقع الملق بالضحى * على الشمس ما هالته ليلا طوى النجم .
(٢)
- وصلوا بيمنى فى العجاج كأنها * بروق بضرب الهام حمرة السجم .
(٣)
- ولا عدمت فى سلمها من غصودها * ظهورا فقد تخفى الجداول بالرجم .
(٤)
- وقرع الحسام الرأس من كل كافر * أحب الى سمى من النقر فى السم .
- وطله منكم كل ما غي كفضيله * يسيل الى التهجاء متقد الصم .
- يحدث بالآقدام نفسا كأنها * يطير الى الحرب اشتياقا عن السلم .
- وسطلو بمحجوب الطبات اذا بدا * جلا ماجلا الا صباح من ظلمة الظلم .
- له دخلة فى الجسم تخرج نفسه * قبيل خروج الحد منه عن الجسم .
- وما يفتدى منه بلحسم ولا دم * ولكن بما فى العظم بالهرى للمظلم .
- له عين ضرقام هصور ، فقلبه * بتصرف فعل الجهل منه على طسم .

(١) ديوان ابن حمدى : ٤١٦ .

(٢) السجم : سيلان الدماء أو الدمع . اللسان (سجم) ، والمقصود هنا اصطباغ السيوف بالدم .

(٣) الرجم : الحجارة الضخام المغمسه . اللسان (رجم) .

(٤) البم : الوتر الفليظ من أوتار المزهر . / الصحاح (بم) .

ان الشاعر يصرخ في صدق محذرا من الخطر الزاحف من أورها طمس
 صقلية والشاطئ الاسلام وهو ينتهج الأسلوب الخطابي الحماسي المتهيب
 وكأنه واقف في أتون المعركة ، فيحذر من الغفلة واللهو ، مهدد هو المسمى
 الجهاد والاقدام بطريقة فنية تصويرية تستفز الهمم الفاترة وتبعث
 العزيمة في قلوب الجبناء وذلك عندما يصور سطوة بني قومه في الحرب وقسده
 غطى عجاج خيولهم قرن الشمس الساطعة وأيديهم سيوف كالشهب اللامعة
 وسط ذلك الظلام اذا صبت على الأعداء ازهقت نفوسهم على عجل فلا يقوى
 منها شيء لضائتها وشدة بأس حاطيها .

والأبيات تشف عن قوة شجيرة الشاعر ، وصدق عاطفته التي تظهر مسن
 خلال مشاركته الوجدانية لقومه عندما يتلذذ بذكر الحرب المستمرة
 والسيوف المرففه التي تطيح برؤوس الكفار ويعتبر ذلك نشوة تفوق سماع
 الأوتار والمعارف .

ثم ينتقل الشاعر الى فكرة التمسك بالوطن والتحذير من الهجرة والاغتراب
 القائل :-

- ولله أرض ان عدتم هواها * فأهواؤكم في الأرض منشورة النظم
- وعزكم يفضى الى الذل والنسوى * من البين ترص الشمل منكم بماترمى
- فان بلاد الناس ليست بلادكم * ولا جارها والحلم كالجار والحلم
- أعن أرضكم تغنيكم أرض غيركم * وكم خالة جداء لم تغن من أم
- أخلص الذي ودي يود وصلته * لدى كمانيط الوطن الى الوسم

(١) جداء : صغيرة الثدي ، قليلة اللبن . الصحاح (جدد) .
 (٢) الوسم : مطر الربيع الأول ، سمى بذلك لأنه يسم الأرض بالنبات ، والوطن
 المطر الذي يلي الوسم . اللسان ، (وسم) .

تقيّد من القطر العزيز بموطن * ومث عند ربح من ربوعك أو رسم .
 وإياك يوما أن تجرب غريسة * فلن يستجيز المقل تجربة السم .
 انه يحذر من ترك الوطن وهوّك ذلك الأمل يزيد من رباطة جاش
 المدافعين ولينزع من النفوس أي تفكير في الاستسلام طلبا للسلامة لما ينتج
 من ذلك من المواقب الوخيمة ، وأهمها تمزق الشمل وانفراط العقد فيشتغل
 كلّ فرد بأمره الخاص بعيدا عن الآخر ، قابعا يتقلب في ذله وسط خضم
 ينكره ولا يأبه له ، ثم تراه يتساءل منكرا ومتعجبا من ظن أرض الناس مهصا
 كان عطفهم تغنيهم عن أرضه التي نبت فيها لأنها بمثابة الأم التي لا يخفى عن
 حنانها عطف الخالة وحدها . وفي ختام القصيدة يوجه الشاعر نصيحة
 مخلصه لبنى قومه بأن يتمسكوا بتراب الوطن وأن يلبثوا فيه مهما كانت
 الظروف حتى يموتوا في ربوعه . وهي نصيحة رجل قد عاش الخبرة وجربها ،
 فهي في رأيه اقدام على شرب السم المهلك لما فيها من ذل ونكد ، واضطرار
 الى التملق .

وله أيضا مشيدا بشجاعة قومه وجهادهم :- (١)

- نهانية خلّقوا للحروب * يشبّون نيرانها بالوقود .
- مساعدهم مرهفات بنين * لهد الجماجم من عهد هود .
- هم المخرجون خبايا الجسوم * اذا ضربوا بخبايا الغسود .
- هم المائلون على الحاقدين * صدور رماحهم بالحقسود .
- نجوم مطالعها في القنبا * ولكن مغاريها في الكبود .
- تخط الجوافر من جردهم * محاريب مئوثة في الصعيد .
- تخروؤوس العدى في الوفى * لها سجدا ، بهاله من سجود .

انه يضيف على قومه أبلغ الصفات الحماسية ، والخصائص الحربية ، فهم
بنو الحرب قد عرفوها واعتادوا خوض غمارها منذ زمن بعيد بسيوفهم الصوارم
ومحاربتهم الصم التي يشهد لفعليها الأعداء الحاقدون . أما خيولهم المجرسة
فهي تطحن رؤوس العدى تحت حوافرها القوية ، والشاعر فى هذا الوصف
يرسم الصورة المثالية للفارس العربى المحنك بجميع مستلزماتها .

ثم ينتقل الى الدماء بالسقى لتلك الديار التي أنبت الأبطال المجاهدين
فيقول :-

• هرق تألق إيماضه	* كخفق جناح فؤاد عيسد (١)
• يريك التواء قسى الرمسة	* اذا ما حذرين بنزع شد يسد
• سقى الله منه الحص عارضا	* يقهقه ضاحكه بالرمسود
• مكر الطراد ، وشفر الجهاد	* ومجرى الجياد ، ومأوى الطريد
• بحيث تقابل شوسا بشوس	* وغرا بنفر ربيد ا بهيسد (٢)
• وأجسام أحيائهم فى النعيم	* وأرواح أمواتهم فى الخلود

ولعل هذه الأبيات تظهر براعة الشاعر ، وقدرته على الانتقال من موضوع
الى آخر دون التحول عن غرض القصيدة الأصل ، فالبرق المتألق يشبه فسى
خفقاته انعطاف القسى عندما ينزع الرماة الأوتار بشده ، وتمنى السقى لأرضه
لكونها ميدان الجهاد الذى يتقابل به الأقران فى حومة الوفى بين كرفس
فالمعاني الجهادية والحربية هى الخيط الذى يربط جزئيات القصيدة كلها .

- (١) أحذى : أعطى . أحذيته من الغنيمة : أعطيته منها / الصحاح (حذا) .
(٢) الأشوس : الجرى على القتال الشديد ، اللسان (شوس) ، الفرس :
غير المجرب . المصدر نفسه (غرر) .
الصيد : جمع الأصيد ، وهو الذى يرفع رأسه كبرا والمقصود بالبيست
الشجعان . / اللسان (صيد) .

وأسلوب الشاعر جزل رصين ، تغلب عليه الألفاظ الفخمة الرنانة السستى
تناسب موسيقى الحرب الحادة ، وقد أبدع الشاعر في وصف الحرب وآلاتها
وخاص في نفسيات المجاهدين وسير أفوارها فأتى بما يناسبها من القول مع
الجنوح الى الخيال والمبالغة في وصف الشجاعة والبأس . الأمر الذي
يتطلبه موقف الشاعر الثائر المحمص . وفي شعر ابن حمدويه ميل واضح الى
الصنعة فقصيدته الثانية - على وجه الخصوص - مشحونة بأنواع الزخرفة اللفظية
والمحسنات البديعية كالجناس والطباق والمقابل كما تحوى شيئاً من
الاستعارات والتشابه الجميله وعلى كل حال فقد أدى ابن حمدويه دوره
بإيجابية ، فقد شارك قومه المجاهدين بالسنان الجهاد باللسان ،
وكم من قصيدة فصلت في النفوس مالم يفعله كبير الجهد .

وفي عهد الموحدين تدخل الأندلس في مرحلة جديدة من الجهاد
اذ كان على أمير المؤمنين الموحدى أن يتصدى لهجمات النصارى المستمرة
على نواحي الأندلس ، وأن يقوم بنفس الدور الذى قام به المرابطون .

والفعل فقد كانت الجيوش الموحدية تعبر الى الأندلس باستمرار وقيادة

(١)

الخلفاء أنفسهم ، وتوقع بالنصارى ضربات قاسية ، وكان هذا الجهاد

المتواصل بحاجة الى مدد لا ينقطع من الفرسان والرجال فرأى عهد المؤمن بن

(٢)

على الخليفة الموحدى الأول أن يستقطب قبائل العرب التى قدمت من الصعيد
المصرى أيام الفاطميين ، وخربت القيروان وماجاورها من البلاد ، وظللت
تموج في البلاد يسترضيها الحكام بنصف غلات البلاد . فاستجاب أولئك

(١) انظر ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامه : ٤٦٧ وما بعدها .

(٢) المراكشى ، المعجب : ٣٩٤ .

العرب لنداء الخليفة بعد أن أقطع رؤسائهم بعض النواحي ، ودخل بعضهم
في جيش الموحدين . ولما توفي عبد المؤمن سنة ثمان وخمسين وخمسائة
وخلفه ولده أبو يعقوب يوسف سار على نفس سياسة والده في تقريب تلك
القبائل من هلال ابن عامر وغيرهم من ينتمون إلى قبيل هلال . فمقدمها
أراد الصبر إلى الأندلس في سنة خمس وستين وخمسائة استغفر تلك القبائل ،
واستثار حماسها بقصيدة من أنشأها كاتبه وطبيبه الخاص ابن طفيل جاساً
فيها :-

أقيموا صدم الخيل نحو المنابر * لفرز الأعدى واقتنا الرغائب .
(٤)
وأذكوا المذاكي الحاديات على المدى فقد عرضت للحرب جرد السلاح .
فلا تفتني الآمال إلا من القنا * ولا تكذب الحلياً بخير الكنائس .
ولا يبلغ الغايات إلا مصمم * على الهول ركاب ظهرو المصاعب .
يرى غمرة الهجاء أذنب مشرب * وإن أفرقت زرقا جمام المشارب .
ويألف إلا مكسباً من حسابه * ويعرض عزا عن جميع المكاسب .
ألا فابحثوها همة مريضة * تحف بأطراف القنا والقواضب .

(١) عنان ، عصر المرابطين والموحدين : ١١٧/٢ .

(٢) هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن طفيل القيسي . ولد قبل
سنة ٥٠٦ هـ وأصله من وادي آش ، كان طبيباً في غرناطة وكاتباً
لحاطبها ، ثم تلا أمره حتى أصبح طبيباً للخليفة أبي يعقوب يوسف
وعظمى عنده بمكانة عظيمة ، وهو فيلسوف وشاعر . توفي بمراكش سنة
٥٨١ هـ ، ومن مؤلفاته رسالة (حو بن يقطان) / انظر : روش القرطاس

: ٢٦ ، الجن بالامامة : ٤٣٥ . تاريخ الفكر الأندلسي : ٣٤٨ .

(٣) القصيدة في المن بالامامة : ٤٣٦ - ٤٤٣ ، عنان ، تراجم اسلامية :

٣١٦ - ٣١٧ .

(٤) السلاح : واحدتها سلهب وهو الطويل من الخيل . اللسان (سلهب) .

يدخل الشاعر في الموضوع مباشرة إذ الأمر لا يحتاج إلى مقدمات ، فيبدأ على الفور بحث القوم على الخزو ، والاستعداد للحرب مثيراً في أنفسهم المهمة العريضة العالية التي ترى العز والمجد يكتب بأسنة الرماح ، كما أن المكسب الشريف الذي يرتضيه العربي هو هو ما يجلبه بحد سيفه من أعدائه ولعله هنا يحرض بصلك هؤلاء الأعراب في الاكتساب عن طريق السلب والنهب هطعمهم في المكاسب التي سينالونها إذا خاضوا الحرب بصدق وعزم . ثم يحضهم على نصره الاسلام واصفا اياهم بحماة الدين ، وأهل النبي وآلته الذين أظهروا دينه منذ بداية أمره :-

- أفرسان قيس من هلال بن عامر * وما جمعت من طاعن ومضارب .
- لكم قبة للمجد ، شدوا عمادها * بطاعة أمر الله من كل جانب .
- دعوناكم نهض خلاص جميعكم * دعا بريئا من جميع الشوائب .
- نريد لكم ما نهضت لنفوسنا * ونؤثركم زلفى بأطى المراتب .
- فلاتزهدوا في نيل حظكم الذي * لكم فيه فوز من جميع المعاطب .
- بكم نصر الاسلام بدأ فنصـره * طيكم وهذا عوده جد واجب .
- فقوموا بما قامت أوائلكم به * ولا تغفلوا أحياء تلك المناقب .
- وقد جعل الله النبي وآله * ومهديه منكم بلا عيب عائب .
- وفزتم بتخصيص الخليفة بعده * ونسبته الدنيا بزلفى الأقارب .
- وطائفة المهدي منكم ، وانهمـا * لتحنوطيكم باتصال المناسب .
- ومن ذا الذي يسمو ليبلغ شأوكم * إذا كنتم فوق النجوم الشواقب .
- نصحناكم والنصح في الدين واجب * بما لكم فيه صلاح الحواقب .

وفي هذه الأبيات يدخل الشاعر إلى نفوس تلك القبائل عن طريق تذكيرهم بأصولهم الراسخة في الاسلام ، ومقام به أجدادهم في سبيل الاسلام ، ذلك الواجب الذي يجب عليهم الآن اكماله والشاعر يسلك سبيل النصيحة الواجبه

بين المسلمين فهو لا يريد من استنفارهم للجهاد الا فوزهم بطاعة الله
وحصولهم على أعلى المراتب عنده . ولعل هذا التودد والنصح من اهل
طفيل تابع من كونه من نفس قبيلة قيس التي ينتسب اليها المخاطبون ، ولهذا
كان هو المختار في مخاطبتهم دون غيره من الشعراء . كما أننا نلاحظ
أن الموحديين وعلى رأسهم مؤسس دولتهم الأول المهدي بن تومرت يحاولون
الانتساب الى القبيلة المذكورة لكسب التأييد السياسي وقد نجح هذا الأمر
الى حد كبير . فقد استجاب عدد ضخم من الأعراب - في نهاية الأمر -
للخليفة الموحد وأصبحوا من جيشه فرتبهم في نواحي قرطبة واشبيلية ،
وزاد فيهم من جاء بعده حتى أصبح بالأندلس من زغبة ورياح وجشم ما يزيد
على خمسة آلاف فارس غير الرجال . (٢)

وفي نهاية القصيدة يحذروهم من الاعراض عن نداء الجهاد فانه تضييع
للحزم واعراض عن طاعة الله فيقول :-

حذار فاعراض الفتى عن نجاته * وتضييعه للحزم احدى الممايب .
وما الحزم الا طاعة الله انهما * هي الحرم المناع من كل طالب .

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن ، من قبيلة هرقسية
البربرية القاطنة بجبال دون (أطلس العليا) من اقليم السوس . وهو
ينتسب الى آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي هذا النسب خلاف
كبير . ولد حوالي سنة ٤٨٥ هـ ورحل الى الشرق سنة ٥٠١ هـ والتقى
بعلماء بغداد ، وحصل طرفاً صالحاً من علم الشريعة ورجع الى المغرب
وادعى المهدية ، ودعا الى التوحيد والرجوع الى الكتاب والسنة حتى
كثر أتباعه وكانوا نواة دولة الموحدين في المغرب / انظر : الوفيات :
٤٥ / ٥ ، سعد زغول عبد الحميد ، محمد بن تومرت وحركة التجديد

: ١٣ .

(٢) المعجب : ٣٩٥ .

نعدكم السيف الذى ليس ينشنى * اذا ما بها سيف براحة ضارب .
 ونجعلكم صدر القاة اذا غدت * تأطر ما بين الحشى والسترائب .
 وقد كان من أقوالكم ما علمتم * فان كان فعل فالرجا غير خائب .
 وليس خطيب الصدق من قال فانبرى * ولكن فعل الحرأ صدق خاطيب .
 وما خلق الأعراب اخلاف موهب * ولكن صدق الوعد خلق الأمارب .
 سنعلم من أوفى ومن خاس مهيبه * ومن كان من آت الهنا وذاهيب .
 وتظهر أحوال يروق سماعها * فيرغب فى أمثالها كل راغب .

وهو هنا يشيد بشجاعتهم واعتماد المسلمين عليهم فى دحر الحسد و
 فهم السيف الضارب الفتاك الذى لا ينبو ، ثم يذكرهم بأقوالهم ووعودهم
 السابقة للخليفة بالحن والنجده اذا ما شبت نار الحرب وحبسهم على الوفا
 بذلك لأن الوفا من أخلاق العرب وطباعهم الحميدة التى تنفر من الخدر
 والخيانة ، ويستبشرون ختام القصيدة باستجابتهم التى تدعو فيها
 لسلوك طريقهم .

والقصيدة سهلة الأسلوب ، واضحة المراسى والأهداف بعيدة عن الخيال
 كما هى سمات الشعر السياسى ، وقد أحسن ابن طفيل فى تركيب القصيدة
 المنطقى ، وابرز العوامل التى تؤثر فى نفوس المخاطبين .

ويبدو أن العرب أبطأوا قليلا عن النصر فخطبهم الخليفة بقصيدة أخرى
 (١)
 من نظم ابن عياش يستمجلهم بها .

(١) هو عبد الملك بن عياش بن فوج بن هارون الأودى القرطبى ، أصله ميسن
 مدينة يابره بالأندلس . كان شاعرا وكاتبا ، اشتغل بالكتابة للموحديين
 حتى توفى سنة ٥٦٨ هـ . / انظر : المن بالامامه : ١٦٠ ، ٢٢٤ ،
 المراكسى ، الذيل والتكملة : ٢٦/١ .

(١)

يقول :-

- أقيموا الى العليا موج الرواحل * وقودوا الى الهيجا جرد الصواهل .
- وقوموا لنصر الدين قومة ثائر * وشدوا على الأعداء شدة صائل .
- وأسروا بنى قيس الى نيل غايبة * من المجد تجنى عند برد الصائل .
- فما العز إلا ظهر أجرد سابح * تموت الصبا في شدة المتواصل .
- وأبني مأثور كان فرنسده * على الماء صهوك ولهم بسائل .

وهذه القصيدة تعبر على نهج القصيدة التي سبقتها فالمطلع واحد يبدأ بفعل الطلب " أقيموا " عليه أفعال أخرى على نمطه تحيى على نصرة الاسلام وجهاد الأعداء بالسيف لاكتساب المجد والشرف الخالد . ثم نسرى الخليفة يستدنى تلك القبائل ، هناك بهم بعصبية النسب والقرين هابنسا المحموسه ، فيقول شاعره :

- بنى الحم من عليا هلال بن عامر * وما جمعت من باسل واهن باسل .
- تعالوا فقد شدت الى الخزونية * عواقبها مقصورة بالأوائسل .
- هي الخزوة الفراء والموجد الندى * تنجز في أفق المدى المتطاول .
- بها تفتح الدنيا بها تلبخ المعنى * بها ينصف التحقيق من كل باطل (٢)
- عزنا وأمر الله لا بد واقصع * على وقعة تودي بدين القياصل (٣)
- بجيش يظل الطير في حجراته * وتحجب عنه الشمس سحب القساطل .

(١) المحجب : ٢٩٤ - ٢٩٥ . وقد نسبها الى الخليفة همد المؤمنين بن علي الموحدى ، ولكن ابن صاحب الصلاة المعاصر لابن عياش يثبتها لابن عياش . انظر المن بالامامه : ٤٤١ .

(٢) القياصل : جمع قصله وهي الطائفة من السفلة / اللسان (قصل) .

(٣) القسطل : الخبر . الصحاح (قسطل) .

(١)

- وتحسر فيه الطرف من كل جانب * بحور دلائل عادات السواحيل ،
- ويطلع ليل النقع فيه كواكبنا * من البيض أو من مرهفات المناصل ،
- ويضحي به بحر الدماء فجسرا * باسمر عتال وأبي ناصيل ،
- بأيدي رجال قد وفوا بعهودهم * ولا حيرتهم مضلات النساويل .

والشاعر يبين سبب هذا الاستعجال في نداءهم بأن الخليفة قد عقد العزم على الجهاد في سبيل الله ولا نصاب المسلمين في الأندلس من أعدائهم المستلطين في الأندلس من أعدائهم المستلطين عليهم استغلالا لضعفهم لذا فهو يعد المدة لوقعة عظيمة تسمع بها الدنيا ، وتحطم راية الكفر ، فما أجدر أولئك الأعراب أن يكولوا من جندها . ثم يأخذ الشاعر في وصف جيش الجهاد بأوصاف جليته تؤكد ظفوره - بأمر الله - كوسيلة اغراء تحت الأعراب على الإسراع في اللحاق به . فهو خميس عزم يحجب غماره نور الشمس ، فلا ترى وسط ذلك الحجاج المدلهم إلا بروقا لامعه هس السيف والنصال . ولعله هنا يحتذى قول بشار :- (٢)

كان مثار النقع فوق رؤوسنا * وأسيفنا ليل تهاوى كواكبه .

وتلك السيوف والرماح تفجر بحورا من دماء الأعداء لكونها بأيدي رجال صادقين في الحرب أوفوا بما عاهدوا عليه الله وأولى الأمر ، ولم ينتحلوا الحجج والأعذار وكأنه هنا يعرض بتأخر الأعراب فترة من الزمن بعد دعوتهم الأولى بقصيدة ابن طفيل السابقة . وفي ختام القصيدة يضرب الشاعر طبل وتر حساس في نفوس الأعراب وهو حبههم للمغنم والخيرات العاجلة في الدنيا

(١) الدلائل : اللين البراق ، والمقصود هنا الدروع اللامعة . المصدر

نفسه (دلس) .

(٢) ديوانه : ١ / ٣٣٥ .

فيمهيب بهم لا جتنا^١ الكثير منها قائلا :-

- فطيروا اليها يا هلال بن عامر * ثقلا خفاقا بين حاف وناعل
- ولا تخذعوا من حظكم من ايجابية * تبوءكم في المجد أسنى المنازل
- وقطعكم صدر الندى اذا نهت * بمن لم يكن منكم صدور المحافظ
- أهينا بكم للخير ، والله حسبنا * وحسبكم والله أعدل عادل
- فهاهنا الا صلاح جميعكم * وتسريحكم في ظل أخضر هاطل
- وتسريحكم نمو يرف نضيرها * عليكم بخير عاجل غير آجل
- فلا تتوانوا فاليدار غنيمته * وللمدح السارى صفا المناهل

ولا ريب أن القصيدة قد أدت دورها في استنهاض الهمم والمزائن
وذلك بتلونها ، واستخدام عدة وسائل مؤثرة في نفوس القوم . فهم عـرب
تهزم عصبية النسب والقرايه ، وهم مسلمون يشيرون الدفاع عن الدين
والحقيدة ، وهم أعراب من طبعهم حب المغائم والميل الى الغزو والسلب
وأسلوب القصيدة سهل رصين كأسلوب القصيدة السابقه ، وكأنهما من نظم
شاعر واحد ، فالتشابه كبير حتى في الألفاظ فابن طفيل يقول : " دعوناكم
نمفي خلاص جميعكم " وابن عياش يقول : " فهاهنا الا صلاح جميعكم " .
وكذلك قول الأول " فلا ترهدوا في نيل حظكم " وقول الأخير :
" ولا تخذعوا عن حظكم " وغير هذا كثير وواضح ولعل سبب ذلك وحدة
الظروف والهدف والمصدر . وقد كانت نتيجة هاتين القصيدتين ايجابية
(١)
وذلك باستجابة الأعراب للنداء . يقول ابن صاحب الصلاة : " ولما وصلت

(١)

القصيدتان الى العرب بافريقيه والزاب والقيروان ، وأوضحوا قرا^١ تهمسا ،
وتبينت لهم معانيهما ، ومافيهما من التحريض على جهاد الكفار ، ودفع
الضافقين أجابوا الى الطاعة بأكل البدار فكان عدد الخيل الواصلة من
افريقيه أربعة آلاف فرس ، ومائة وخمسين حملا من المال الصامت ، ووصل
من ثلسمائة ألف فرس وخمسون حملا من المال الصامت ، فاشتمد ساعد
الموحدين بهذا الدعم الكبير ، فمهبوا الى الأندلس ، وافتتعوها شرقا
وغربا في الفترة مابين سنة خمس وخمسين وخمسمائة الى سنة سبع وستين
وخمسمائة ، واتخذوا مدينة اشبيلية مركزا لهم ، ومنطلقا لتحركاتهم العسكرية .
وظلت الأندلس تنعم بالأمن في ظل الموحدين الذين لم يدخروا وسما فس
رد غائلة النصارى ، الى أن حدثت معركة العقاب المشهورة سنة تسع
وستمائه ، وتضعف بعدها كيان الموحدين عامة في المغرب والأندلس ، وبدأ
النصارى ينتشرون ، ويتحدون للاستيلاء على الأندلس نهائيا ، ففي حوالى
سنة أربعين وستمائه شمر والى اشبيلية الموحدي أبو عبد الله بن أبي عمران
باقترب الخطر الصليبي من مناطقه فأمر من قبل الخليفة أن يستغيث ببسنى

(١) مقاطعه على طرف الصحراء الجزائرية ، وتنقسم الى ثلاث مقاطع
الزاب الشرقى ، والصحراوي ، والقبلي ، وتكثر فيها الأنهار والعيون
وأهم مدنها طابنة ، والمسيله وسكره وغيرها / انظر الروي المعطار
(الزاب) .

(٢) المال الصامت : الذهب والفضه . الصحاح (صمت) .

(٣) انظر . شوقي أبو خليل ، معركة العقاب : ٤٥ .

(١)

المعقل وهم من القبائل العربية التي نزلت الى شمال افريقيه في القسطن
(٢)
الخامس الهجري . فأمر والي اشبيلية شاعره ابن سهل بتوجيه الصريح اليهم
(٣)
فبادر الى ذلك وقال :

- وردا فمضمون نجاح المصدر * عزة الدنيا وفوز المحشر .
- نادى الجهاد بكم لنصر مضمرة * بيد ولكم بين الحقائق الضمير .
- خلوا الديار لدار خلد واركبوا * غمر العجاج الى النعيم الأخضر .
- وتسوقوا كدر المناهل في السرى * ترووا بما الحوض غير مكسدر .
- وتجشعوا البحر الأجاج فأنسه * سبب به تردون نهر الكوشر .
- وتحملوا حر الهجير فأنسه * ظل لكم يوم المقام الأكبر .

(١) بنو المعقل من القبائل العربية التي كانت تجاور بني هلال بن عامر
بتلمسان ، وهم يمدون من بطونهم ، وينسبون الى معقل بن ربيعة
بن كعب من قضاة أو الى الحارث بن كعب ، استعان بهم الموحدون
في حروبهم ، وكان لهم جهد مذكور في تاريخ المغرب . / انظر
تاريخ ابن خلدون : ٥٨/٦ .

(٢) هو ابراهيم بن سهل الاشبيلي . كان من الأدباء الأذكياء المشهورا
اشتهر بالفضل وخاصة بالذكر . وكان يهوديا وأسلم ومدح النبي صلى
الله عليه وسلم ، وله قصائد اسلامية في الحفي على الجهاد . توفي سنة
٦٤٩ هـ على أرجح الأقوال . وله ديوان شعر ، انظر : فستوات
الوفيات : ٢٠/١ ، المنهل الصافي : ٥١/١ ، الأعلام : ٤٣/١ .
(٣) ديوان ابن سهل : ١٤١ - ١٤٢ .

ينادى الشاعر العرب باسم الجهاد المقدس الذى يكتسب المجاهديين
عزا فى الدنيا وثوابا فى الآخرة ولذا فهو يسلك سبيل المقابلة بين ما يبدؤونه
من المشقات التى يتطلبها الجهاد وبين النعيم المقيم والراحة الأبدية
فى الجنة مقابل ذلك ، والشاعر بهذا يحقر كل الصعاب فى نظرهم
ليدفعهم الى الاقدام ، فهاهم فيها من دار فانيه تقابلها دار خالده
وما يخلق فوقهم من غبار مصحوب بضجيج وقصقصة يقابله نعيم الجنّة
الدائم وسط البساتين الخضراء والظلال الوارفة . وما يصيبهم من المشقة
لبعد المسافة واضطرابهم الى ركوب البحر المربع سيكون تصريحاً لهم
بمرور نهر الكوثر ، وحوض الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى الجنة .

ثم يصفهم بالشجاعة والحمية فى نصر الاسلام منذ اليهود القديمين
فيقول :-

- يا معشر العرب الذين توارثوا * شيم الحمية أكبرا عن أكبر .
- ان الاله قد اشترى ارواحكم * بيموا ، وهبكم ثواب العشرة .
- أنتم أحق بنصر دين نبيكم * وكم تمهد فى قديم الأعصر .
- أنتم بنيتم ركبه فلتدعوا * ذاك البناء بكل الحس أسمر .
- لكم صرائم لو ركبتهم بعضهما * أغنتكم عن كل طرف مضمر . (١)
- لو أنكم جهزتم عزماتكم * لهزمت منها العدو وبهسكر .
- ولو أنكم سدّدتم هماتكم * طعنتهم قبل القنا المتأطر . (٢)
- أضحي الهدى يشكو الظما ولا نتم * ظلّ وريّ كالرييح المطر .
- وعلا الجزيرة غيب غمودكم * مطوية فوق الصباح المسفر .

(١) صرائم : جمع صرمه وهى القطعة من الابل نحو الثلاثين . الصحاح

(صرم) ، الطرف : الكريم من الخيل . نفسه (طرف) .

(٢) تأطر الريح : تشق . اللسان (أطر) .

- لو صور الاسلام شخصا جاكم * هذا بنفس الواسق المتعير^(١) .
لو أنه نادى لنصر خصكم * ودعاكم بأسرتي يامعشري .

ثم يصور الشاعر ما يلقاه الدين من أهوال على يد الكفر المعربد عسقى
ظهر ذلك على صورة ألم يقلق السيوف المغموده بدون عراق ، وفجبر
الخيول المقيدة في المرباط والتي تريد فرسانا ينطلقون عليها لدحر
الصليبيين الذين دمروا بلاد المسلمين وغفروا معالمها وشتتوا أهلها ،
واعتدوا على الحرمات المقدسة ودنسوها برجسهم .

واذا هذا الوضع المؤلم يصرخ الشاعر بصوت مسموع متعجبا من فتور
الهمم والمزائم التي لم تتحرك " أين الحفاظ مالها لم تنبعت ؟ : أين
المزائم مالها لا تنبرى ؟ : " وهو بهذا التساؤل يعطيههم دفعة من
الحماس المزوج بشئ من التوبيخ فكأنه يريد أن يقول : عيار عليكم أن تتخذوا
السيوف وتفخروا بها وبالرماح والجياد المشهورة ، وأنتم لم تتحركوا لفك أسر
دينكم المتحن ، ويتبع توبيخه لهم بالتشجيع والحث على اكتساب المفاخر
والثواب حيث أن أوان ذلك . وفي ختام القصيدة يركز على المعنى الاسلامي
الذي يشه في أبيات القصيدة ، فيجمل هؤلاء العرب هم أهل الاسلام
وحماته ، فلو صور شخصا لقد هم دون غيرهم لأنهم أحبابه ومعشره الذين
يعزونه .

والقصيدة تعبق بحاطفتها الصادقة الحارة في طلب الفوئ لنجدة
الدين وأهله بالأندلس وقد أكثر من ذكر الثواب الأخرى لأن فيه دافعا قويا
على الاقدام ، وحمل المسافات الشاسعة التي تكتنفها الأخطار المربكة
والبحرية والتي قد لا يجدى معها الترهيب في المطمح الدنيوي .

(١) الواسق : المحب . اللسان (وسق) .

ولقد كان الشعراء الذين هم من أصل أندلسي ، وأتيح لهم الاتصال بالموحدين لا يتركون فرصة تمرّ دون أن يحضوا الخلفاء على الغزو والجهاد لقطع أمل النصارى في الأندلس ، وافتكك ما استولوا عليه منها . وهذا أحد هم وهو أبوه جعفر الوقشي يمدح الخليفة أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ويمثله على الجهاد قائلا :- (٢)

- ألا ليت شعري هل يمد لي المدي * فأبصر شمل المشركين طويدا .
- وهل بعد يقضى في النصارى بنصرة * تغادرهم للمرهفات حصيدا .
- وغزو أبو يعقوب في شنت ياقصب * يعيد عميد الكافرين عميدا .
- ويلقى على أفرنجهم عبء كل كسل * فيتركهم فوق الصعيد هجودا .
- يغادرهم جرحى وقتلى مروحسا * ركوعا على وجه الثبلا وسجودا .
- ويفتك من أيدي الطفاة نواعسا * تبدلن من نظم الحبول قيودا .

(١) هو الوزير أحمد بن عبد الرحمن الوقشي ، نسبة إلى بلده وقش من نواحي طليطلة . كان كاتبا وشاعرا متصرفا في أفانين البيان وقد كان وزيرا لبراهيم بن هشك الشاعر بشرق الأندلس (انظر أخباره في الاطاحة ٣٠٥ / ١ - ٣١١) حتى اذا انهزم ابن هشك ودخل في طاعة الموحدين سنة ٥٦٠ هـ وجه وزيره الوقشي إلى مراكن نائبا عنه فسلم تقديم الطاعة ، وقد توفي ٥٧٤ هـ / انظر الحلة السيرا : ٢٥٧ / ٢ - ٢٦٧ .

(٢) نفع الطيب : ٤٧٨ / ٤ .

(٣) قلعة حصينة بالأندلس فيها كنيسة عظيمة عند النصارى ويؤمنون أنها مبنية على جسد يعقوب الحواري الذي قتل في القدس وأدخله بمضى تلاميذه في مركب بحري فجري به حتى حط في هذا الموضع فبنيت الكنيسة عليه . ولها عيد مشهور يقصها فيه النصارى من رومهم والقسطنطينية . انظر الروض الممطار (شنت ياقصب) .

- وأقبلن في خشن المسوح والمسا * سحبن من الوشى الرقيق برودا .
- وغبر منهن التراب ترائيبا * وخدم منهن الهجير خسدودا .
- وبالهدف نفس من معاصم طفلة * تجاور بالقد الأليم نهسودا .
- وبأسفا ما ان يزال مسرودا * على شمل أعياد أعيد بدسودا .
- وآها تمد الصوت منتحبا على * خلود يار لو يكون مفيد ا .

فالشاعر يتمنى أن يطول عمره لكي يرى النصارى طعاما لسيوف الاسلام المنتصره بقيادة أبي يعقوب والوقشى يرى ان ذلك لا يتم الا اذا فزا المسلمون وكر النصارى (شئت يا قتب) الذى يحوى كبرهم الدينى وأعظم كائناتهم ومقدساتهم التى فيها تعاك الخط ضد المسلمين ، كما أن على الخليفة العوضى أن يحطم قوتهم ليفتك من أيديهم النساء المسلمات اللواتى أخذن أسيرات ، فهن في حالة تستدعى البكاء والأسف ، أبرزها الشاعر من خلال المفارقة الناتجة من مقارنة حالتين الراهنه بحالتين الماضيه أيام العز واجتماع الشمل ، فالعجول أصبحت قيودا ، والمسوح الخشنه البالية طلت محل البرود الرقيقه ولحل الشاعر قد صب تركيزه على ما أصاب النساء مسن الذل والهوان ليستثير حفيظة الخليفة من هذه الناعية الحساسة ، وهزيده غيظا وحنقا على النصارى فيسارع في غزوهم .

قدمنا في الفصل السابق الحديث عن سقوط بلنسية بيد النصارى والأسبان سنة ست وثلاثين وستمائة بعد دفاع مجيد من أهلها الذين أرقهم

الحصار الحنيف دون أن يتلقوا مددا ، وفي أثناء الحصار وقيل سقوط المدينة انطلق أبو عبد الله بن الأبار مبعوثا من قبل أمير بلنسية إلى أبي زكريا الحفص أمير الدولة الحفصية التي كانت آنذاك في أوج قوتها - مستغيا به ، وحاملا إليه بيعة أهل بلنسية . فقام بين يديه وأنشد -
(٢)
سينيته الرائعة التي يقول فيها :-

- أدرك بخيلك خيل الله أندلسا * ان السبيل إلى منجاتها درسا .
- وهب لها من عزيز النصر ما التمس * فلم يزل منك عز النصر ملتصبا .
- وحاش ماتمانيه حشاشتها * فطالما ذقت البلوى صهاح مسا .

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القاضي الهنسي . ولد سنة ٥٧٥ هـ ببلنسية وتعلم فيها . كان فقيها محدثا نحويا ، ومسننا أكبر شعرا الأندلس وكتابها ، رحل إلى تونس عند احتلال بلنسية وعمل كاتباً لأمرائها حتى قتل فيها سنة ٦٥٨ هـ وله آثار كثيرة مسنن أهمها : الحلة السيرة ، التكليل لكتاب الصلوة ، اعتاب الكتاب انظر الفهريني ، عنوان الدراية : ٣٠٩ ، فوات الوفيات : ٤٠٤ / ٣ ، أزهار الرياض : ٢٠٤ / ٣ .

(٢) كان أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي (نسبة إلى هنتاتيه إحدى فروع قبيلة مصمودة البربرية في المغرب) واليا من قبل الموحديين على تونس منذ سنة ٦٢٥ هـ ، وعندما رأى ضعف الدولة الموحدية أعلن استقلاله بتونس دون أن يجد معارضة وذلك سنة ٦٣٤ هـ ، وقد شطت هذه الدولة بالإضافة إلى تونس ، طرابلس ، ومقاطعة قسنطينة من الجزائر انظر : أحمد بن عامر ، الدولة الحفصية :

- بالجزيرة أضى أهلها جزرا * للحادثات وأسى جدّها تمسسا .
- فى كلّ شارقة المام بائقة * يعوم مأتىها عند العدا عرسا .
- وكلّ غاربة اجحاف نائبقة * تثنى الأمان حذارا والسرور أسى .
- تقاسم الروم لآلت مقاسمهم * الأّعائلهما المعجوبة الأنسا .
- وفى بلنسية منها وقوطبة * ماينسف النفس أو ماينزف النفسا .
- مدائن حلها الاشراك مبتسما * جذلان ، وارتحل الايمان مبتثسا .
- وصيرتها العوادي العائثات بها * يستوحش الطرف منها ضعف ماأنسا .

يبدأ الشاعر قصيدته بالدخول المباشر الى غرضه الأصلي منها وهو الاستغاثة ، وذلك لأن واقع الحال أهم من أن يبدأ بالخزل أو وصف مشقات رحلته ، فهو ينطق على الفور بقوله " أدرك " وهو فعل مشعر بالخطر القريب المهدق فالقارئ يحس أن الشاعر يرتجف رعبا وهو يؤكّد ضياع الأندلس ان لم تنصر بقوله : " ان السبيل الى منجاتها درسا " ولذا فهو يطلب النجدة السريعة من خيل الله لانقاذ مابقى من البلاد التى ابتليت بأصناف المفسد والبلاء ، فالعدو محيط بها لا يفارقها وفى كل يوم له فى نواحيها وقائع تجلب على أهلها القتل والأسر والسبي فهم فى ضنك واضطراب دائم . ثم يخصص مدينته بلنسية التى لا تزال محاصرة ، ومدينة قرطبة التى سقطت منذ ثلاث سنوات لأن هاتين المدينتين من أعظم قواعد الأندلس الكبرى التى تعرضت للانتهاك والاستباحة ، وصيرت مدنا صليبية يستوحش منها الناظر الذى كانت محلّ أنسه قبل ذلك . ثم يأخذ فى تفصيل ما جرى للأندلس على يد الصليبيين استناره لهم :-

- بالمساجد مادت للعدا بيضا * وللمنداء فدا أثناها جرسا .
- لهفى طيها الى استرجاع فائقها * مدارس للمثاني أصبحت درسا .

(١)

- سرعان ما فاك جيش الكفر وأحربا * عيث الدُّبَا في مخانيها التي كهننا .
- وابتر بزتها مما تحيِّفم ————— * تحيف الأسد الضاري لما افترسنا .
- فأين عيش جنيناه بها خضرا * وأين عصر جليناه بها سلسنا .
- ما محاسنها طاع أتيح لها * مانام عن هضمها حيناً ولا نحسنا .
- ووجَّ أرجاءها لما أحاط بهمنا * ففادر الشَّم من أعلامها خنسنا .
- خلاله الجوف امتدت يداه السي * ادراك مالم تطأ رجلاه مختلسنا .
- وأكثر الزعم بالتثليث منفردا * ولو رأى راية التوحيد ملتبسنا .

ان الأمر الذي كان يحرض عليه النصاري عند الاستيلاء على مدينته
اسلاميه هو طمس المعالم الاسلاميه انبارزة فيها ، فكانوا قبل كل شيء
يحيطون المساجد الى كائس ، وتعلق الأجراس والنواقيس على المنارات الشامخه
موضع الصليب على محاريب التوحيد مساينيد المسلمين قهرا على قهرهم .
والشاعر يحاول ابراز هذه الناحيه ليستثير عاطفة السلطان ، فيصور
الكفار ومدد خلائهم الجو وأسكتوا جميع الأصوات الا صوت نواقيس التثليث
المزعومه .

ثم يأخذ في مدح الأمير الحفص ، واصفا اياه بالأمل المرجو ، ومحبي -
شعائر الهدى فيقول :-

- صل حبلا أيها المولى الرحيم فما * أبقى المراسل لها عبلا ولا مرسنا
- وأحق ما طمست منها المدادة كسا * أحييت من دعوة المهدي ما طمسا .
- أيام صرت لنصر الحق مستبقنا * وبنت من نور ذاك الهدى مقتبسا .

- وقمت فيها بأمر الله منتصرا * كالصارم اهتز أو كالعارض انجسسا .
- تمحو الذي كتب التجسيم من ظلم * والصبح ماحية أنواره الخلسا .
- وتتقضى الملك الجبار مهجته * يوم الوفى جبهة لا ترقب الخلسا .

وهو يغاطبه بتودد بلفظ (المولى) ليضفى عليه هالة من الاحترام والمعظمة التي تقوم على أساس ديني . ذلك أن الأمير الحفص من أتباع محمد بن تومرت الذي ظهر أيام المرابطين وأخذ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويطمعن في عقيدة المرابطين ويرميهم بالتجسيم والتشبيه وسعى أتباعه بالموحدين لأنهم يميلون إلى التأويل ، وينزهون الله عن كل تشبيه له بالخلق ، ثم ادعى أنه المهدي المنتظر بعد أن كثر أتباعه ، وكفر من لم يؤمن بـه ، وتمخضت حركته عن أطماع سياسية تمثلت في تشكيل نواة الدولة الموحدية التي قامت بعد ذلك على يد تلاميذه .^(١)

ثم يتحدث الشاعر عن فضل هذا الأمير وان بلنسية قد ألقت إليه مقاليدها ، وخصته بصريخها دون غيره .

- هذى رسائلها تدعوك من كتيب * وأنت أفضل مرجو لمن يثسا .^(٢)
- وافتك جارية بالنجح راجية * منك الأمير الرضى والسيد الندسا .^(٣)
- خاضت خضارة يعليها ويخضها * عابيه فتعاني اللين والشرسا .
- وربما سبحت والريح عاتية * كما طلبت بأقصى شدة الفرسا .
- تؤم يحيى بن عبد الواحد بن أبي * حفص مقبلة من تربة القدسا .

(١) انظر : ابن أبي دينار ، المؤنس : ١١١ - ١١٢ ، المراكشي ،

المعجب : ٢٥٤ ، عبد الله علام ، الدعوة الموحدية بالمغرب في عهد

عبد المؤمن بن علي : ٦٥ - ٦٦ .

(٢) رجل ندس : فهم فطن . اللسان (ندس) .

(٣) يقصد البحر المتلاطم .

ملك تقلدت الأملاك طاعته * دينا ودنيا فغشاها الرض لهما .
 من كل غاد على يمشاه مستلما * وكلّ صاد الى نعماه ملتسما .
 مؤيد لروى نجما لأثبتسه * ولودعا أفقا لبيّ وما احتبسما .
 ماضى العزيمة والأيام قد نكسنت * طلق المحيّا ووجه الدهر قد عبسما .
 كأنه البدر والعليا هالتسه * تحفّ من حوله شهب القا عوسما .
 قد نور الله بالتقوى بصيرته * فما يبالى طروق الخطب ملتبسما .
 الى الملائك ينمى والطوك معما * فى نبعة أثمرت للمجد ماغوسما .
 من ساطع النور صاغ الله جوهره * وصان صيقله أن يقرب الدنسما .
 له الثرى ، والثريا خطّتان فلا * أعز من خطّيته ماسما وروسما .

والشاعر يصفى على الأبرص صفات تجعله فوق مستوى البشر ، وذلك عن طريق المبالغة التى يتطلبها الموقف ، فهو قد صيغ من نور الله الساطع الذى لا يقربه الدنس وكأنه من الملائكة الكرام ، وقد نور الله بصيرته بالتقوى ومنحه العزيمة الوقادة التى لا تنكس ، فهذه الصورة المثالية التى جمعت الى عراقة الأصل والمنبت طيب الأخلاق ، تجعل السعيد من طرق باب صاحب هذه المكانة واستعان به لأنه سيدرك حاجته مهما كانت ، ومن هنا كان قدوم الشاعر :-

ان السعيد أمرؤ ألقى بحضرته * عصاه محتزما بالعدل محترسما .
 فظلّ يوطن من أرجائها حرما * ومات يوقد من أضوائها قهسما .
 بشرى لعبد الى الباب الكريم حدا * آماله ومن العذب المعين حسما .
 يا أيها الملك المنصور أنت لهما * عليا توسع أهدى الهدى تمسما .
 وقد تواترت الأنبا أنك ممن * يحيى بقتل ملوك الصغر أندلسا .
 طهر بلادك منهم انهم نجس * ولا طهارة مالم تغسل النجسما .

- وأوطى الفيلق الجرار أرضهم * حتى يطأطى رأسا كل من رأسا (١)
- وانصر عبدا بأقص شرقها شرقا * عيونهم أدمع تهمى زكا وخسبا (٢)
- هم شيعه الأ مروهى الدار قد نهكت * دأ متى لم تباشرحسبه انتكسا (٣)
- فاملا هنيئا لك التأييد ساحتها * جردا سلاهب أو خطية دعسا
- واضرب لها موعدا بالفتح ترقبه * لعل يوم الأعادى قد أتى وحسى

وقد حالف النجاح هذه القصيدة ، وأدت دورها فى تحويل همة الأمير
(٤)
لاغاة المحاصرين يقول المقرئ : " فهزت هذه القصيدة من الملك عطس
ارتياح ، وحركت من جنبه أخفض جناح ولشففه بها ، وحسن موقعها
منه أمر شمرا " حضرتها بمجاوبتها ، فجاءها غير واحد . "

وقد شحن الأمير الحفص الأساطيل بالمدد لانقاذ بلنسية ، ولكن
لم تستطع الوصول اليها لشدة الحصار فرجعت ، ورجع معها الشاعر ابن
البار ليحيى فى تونس فى كنف أمه وحده ، واستسلمت بلنسية سنة ست وثلاثين
(٥)
وستمائه . وقد أعجب المقرئ نفسه بالقصيدة ، ووصفها بقوله : " "

السينية الفريدة التى فضحت من بارأها ، وكبا دونها من جارها . " ولعل سبب
اعجابه هو ارتياح الأمير لها وأمره بمعارضتها فالقصيدة من ناحية المعانى

- (١) زكا : زوج ، خسا : فرد . اللسان (خسا) .
- (٢) انتكس : انقلب رأسا على عقب ، اللسان (نكس) والمقصود الاستمرار والرجوع .
- (٣) السلهب : الفرس الطويل . اللسان (سلهب) الخطية الدعسا :
- الرماح ، الصلاح (دعس) .
- (٤) نفج الطيب : ٤٥٩/٤ .
- (٥) النفج : ٤٥٧/٤ .

الراثية لا تضيف جديدا ، ولكن روعة القصيدة تكمن في عاطفة الشاعر المطمئنه وأحاسيسه المرهقة التي وشحت القصيدة بلون من الأسى العميق أثناء حديثه عما أصاب الأندلس عامة من البلاء ، وتغير الأحوال بسبب العدو والملازم لها كما يحس القارئ المرارة التي كان الشاعر يتجرعها وهو يستجدي العون لملاذه عن طريق المدح المبالغ فيه الى حد كبير أما الأسلوب فسهل مزخرف بالمحسنات اللفظية والبديعية التي جاءت من غير تكلف وطلب ، وقد أحسن في اختيار القافية مع ألف الاطلاق الداله على الفزع ومد الصوت بالصراخ ، كما أن موسيقى القصيدة تتراوح بين الشدة والخفوت ، فتشتد عند ذكر الحرب ، والفيالق الجرارة ، والخيال الجرد وتخفت عند ذكر المأسى الجماعية والالام .

ولا بن الأبار قصيدة أخرى طويلة في نفس الغرض وموجهة الى الأمير

الحفص نفسه يقول فيها :- (١)

- نادتك أندلس قلباً نداءها * واجعل طواغيت الصليب فداهها .
(٢)
صرخت بدعوتك العلية فأجبها * من عاطفاتك مايقى حهاها .
وأشدد بجلبك جرد خيلك أزرها * تردد على أعقابها أرزاهها .
هي دارك القصى أوت لا ياللة * ضمنت لها مع نصرها ايواهاها .
ومها عبيدك لا بقاء لهم سوى * سبل الضراعة يسلكون سواهاها .
خلعت قلوبهم هناك عزاهها * لما رأت أبصارهم ماساهها .
(٣)
دفعوا لأبكار الخطوب وعونهاها * فهم الخداة يصابرون عناهاها .

(١) نسب المقرئ في النفح : ٤٧٩/٤ هذه القصيدة لمجهول ، ولكنها

توجد بتمامها في ديوان ابن الأبار المخطوط بالخزانة الطكية بالرباط

من ورقه ١ - ٤ . والنقل عن النفح حيث النص محققا . ٤٨٠/٤ -

. ٤٨٣

(٢) الحها : النفس . الصحاح (حوب) .

(٣) الخطوب العون : التي تأتي مرة بعد مرة . اللسان (عون) .

- وتنكرت لهم الليالى فاقضت * سرائها وقضتهم ضراها .
- تلك الجزيرة لا بقا لها اذا * لم يضمن الفتح القريب بقاها .
- رش أيها المولى الرحيم جناحها * واعقد بأرشية النجاة رشاها .

والقصيدة تحمل نفس الأفكار والمعاني التي وردت في القصيدة السابقة فهو تبدأ بنداؤ الأندلس الحار للأمر راجية نصره لها على الصليبيين ، وطقية مقاليدها اليها فهو بلاده ، وأهلها عبيده الذين يأتونه ضارعين كمناداهم الخطوب ، وتنكرت لهم الليالى ، فهو وحده المسؤول عن الدفاع عنها ، واخاذ الوسائل التي تكفل سلامتها ، ولهذا يخاطبه الشاعر

قائلا :-

- حاشاك أن تفتنى حشاشتها وقد * قصرت عليك نداها ورجاها .
- طافت بطائفة الهدى آمالها * ترجو بيحى المرتضى أحياءها .
- واستشرفت أمصارها لا مـسـارة * عقدت لنصر المستضام لواها .

ثم ينتقل الى وصف حال بلنسية وما فعله الأعداء بها من الفساد والخراب فيقول متحسرا :

- ايه بلنسية وفي ذكراك مـا * يمرى العيون دماها لا ماها .
- كيف السبيل الى احتلال معاهد * شب الأعاجم ونها هيجاهها .
- بأبى مدارس كالتطلول د وارس * نسخت نواقص الصليب نداها .
- راحت بها الورقا تسمع شدوها * وفدت ترجع نوحها وكهاها .
- عجا لأهل النار حلوا جنـة * منها تمد عليهم أفياءها .
- أطمت لهم فتمجلوا ما أمـسـوا * أيامهم لا سوفوا املاها .
- أما العلوج فقد أحالوا حالها * فمن المطبق علاجها وشفاها .
- أهدى اليها بالمكارة جناح * للكفر كره ماها وهواها .

(١)

- وكفى أسى أن الفواجع جمّة * فمتى يقاوم أسوها أسوأها .
مولاي هاك معادة أنباءها * لتتيل منك سعادة أبناءها .

والذى يبدو أن هذه القصيدة قد قيلت فى وقت متأخر عن القصيدة السابقة ، ومعد أن فشل الأسطول الحفصى فى اغاثة أهل بلنسية المحاصرين وأصبحت المدينة وشيكة السقوط فى يد النصارى لأن الشاعر فى هذه الأبيات يعبر عما فى نفسه من الحسرات التى تهيج العبرات كلما تذكر بلنسية التى حال المدوبينه وبينها ، وكلمة فى (ذكراك) الواردة فى البيت ، لها دلالة على البعد الزمنى الذى عمل فيه أهل الصليبان والنواقيس عظمهم فى طمس معالم الهدى .

كما أن الشاعر فى البيت الأخير يشير بوضوح الى تكراره لأخبار بلنسية على مسامح الأمير لعله يهيب لنجدتها ، فهو يقول " هاك معادة أنباءها " وهذه الاعادة لابد أن يكون لها بداية ، وهى كما يتضح قصيدته السينيه . ويلاحظ على لغة الشاعر هنا شئ من الانكسار الذى ليس من طبيعته ، وذلك عندما يصف حال الحمائم التى غدت تنوح فى أوج بلنسية بعد أن كانت تشدد وتمرح ، وفى عجب من أولئك الكفار كيف حلّوا جنة الدنيا وتنعموا بأفئائها وخيراتهما حتى ضاق بهم هواؤها وماؤها ، ثم نراه يختصر تعداد المصائب والفواجع ، وكأنه لا يطيق ذلك فيقول : " كفى أسى أن الفواجع جمّة " ولكن التفجع وذكر ما فعله علوج النصارى بالمدينة ليس هو هدف الشاعر الذى يستصخ ويبحث عن النصير ، المتمثل عنده بشخص الأمير يحيى الحفصى .

(١) الأس : أصل البناء . الصماح (أسس) والمقصود هنا سيد المدينة أو حاكمها الذى يقدر على علاج الموقف .

لذا نراه يعود الى طريقته الحماسيه فينادى الأمير قائلا :-

- جرد ظباك لمحو آثار المدا * تقتل ضرافها وتسب ظباها .
- واستدع طائفة الامام لغزوها * تسبق الى أمثالها استدعاهها .
- أرسل جوارحها تجثك بصيدها * صيدا وناد لطحنها أرهاها .
- هبوا لها يامعشر التوحيد قد * آن المهبوب وأحرزوا عليهاها .
- أطوا الجزيرة نصره ان المدا * تبغى على أقطارها استيلاها .
- نقصت بأهل الشرك من أطرافها * فاستحفظوا بالمؤمنين نماها .
- حاشاكم أن تضمروا الغاءها * فى أزمة أو تضمروا اقضاءها .
- خوضوا اليها بحرها يصبح لكم * رهوا وجهوا نحوها بيداءها .
- دار الجهاد فلا تفتكم ساحه * ساوت بها أحيائها شهداءها .

فهو يلج على الأمير أن يشرع سيفه لقتل الأعداء وأسره مستعينا بجيش التوحيد المتعظم للجهاد فى سبيل الله ، ويهول من التقاعس عن نصره المسلمين فى الأندلس ويعتبر ذلك نقيصة يبرأ منها الحفص ، وهى طريقة جيدة فى الحش على الاسراع للاستعداد الذى يحاول الشاعر أن يجمله حقيقة واقعه ، وكيف يجول فى خاطر الأمير المسلم النكوص عن مواجهة أهل الشرك الذين أخذوا يزحفون على أقطار جزيرة الأندلس وينقصونها من أطرافها ..

وكما فعل فى القصيدة السابقه من الاستبشار بالفتح واتباعه بالمدح المبالغ فيه يفعل هذا فى قصيدته هذه ويطيل فى ذلك الى مايزيد على ثلاثين بيتا تجترى منها مايقى بالفرى :

- بشرى لأندلس تحب لقاها * محبب فى ذات الاله لقاها .
- صدق الرواة المخبرون بأنه * يشفى ضناها أو يعيد رواها .

- ملك أمد النيرين بنسوره * وأفاده لألاؤه لألاها .
 خضمت جبابرة الطوك لمزّه * ونضت بكف صغارها غيلاها .
 سل دعوة المهدى عن آثاره * تنبئك أن ظباه قمن ازاها .
 فغزا عداها واسترق رقابها * وحوى حماها واسترد بهاها .
 قبضت يداه على البسيطة قبضة * قادت له فى قدّة أمراها .
 فعلى المشارق والمغرب ميسم * لهداه شرف وسمه أسماها .
 دانت له الدنيا وشم طوكها * فاحتلّ من رتب العلا شماها .
 سامى الذوائب فى أعزّ ذؤابة * أطلت على قم النجوم بناءها .
 فئة كرام لا تكفّ عن الوغى * حتى تصرّع حولها أكفها .

ومعد هذا المدح المسهب الذى جعل الأمير الحفص ملكا تخرّجـه
 جبابرة البسيطة ساجدين يقف الشاعر فى آخر القصيدة معذرا ، وطالبا
 الصفح من الأمير لأنه وقف عاجزا عن احصاء مناقبه ومكارمه :-

- صفحا جميلا أيها الطوك الرضى * عن محكمات لم نطق احصاها .
 تقف القوافى دونهن حسيرة * لاعيبها تخفى ولا اعياءها .
 والقصيدة غنية بمفرداتها وتراكيبها ، وهى بلاشك تظهر مدى احماطة
 الشاعر باللغة العربية وأساليبيها كما أن طولها مع سابقتها يكشف عن
 شاعرية ابن الأبار الفذة ، وعبقريته ، وطول نفسه وحسن تصرفه فى المواقف
 الشعرية المختلفة ، الا انه أسرف فى استخدام الصنعة البيانية ،
 فشاب معانيه بعض التعميد ، وألفاظه شئ من الخرابه ، وانك لتحص
 التكلف واضحا فى كثير من الأبيات التى يحاول جهده فى تركيبها وجمع

شأت مفرداتها . وربما كان هذا التعمل راجعا الى نفسية الشاعر
الضطربة التي لم تنطلق على سجيتها ، فهو في مجال حشد فيه كسل
طاقاته النفسية والأدبية والبلاغية ليحصل على النتيجة الكبيرة التي وفدت
من أجلها ولا يكون ذلك الا بالتأثير على نفس الأمير وانعاشها ، ولذلك
ذهب الشاعر يبحث عن التأثير المنشود باظهار براعته باستخدام السجع
والجناس والطباق وغيرها حيناً ، وبالاطناب في المدح مع المبالغة الشديدة
حيناً آخر .

ومهما يكن من أمر فان الشاعر قد قام بواجبه نحو دينه ، ولاده قياما
ايجابيا فعلا سجّله التاريخ بحروف ناصعة تختلف عن شهد هــ
الأحداث من الشعراء وقصر جهده على البكاء والعويل .
(١)
استصراخ الأندلسيين لبني مريس :-

عندما كانت شمس الموحدين تحيل تدريجيا نحو الغروب ، ظهرت فـ

(١) هم بطون قبيلة زناته البربرية الشهيرة . وهم يرجعون
نسبهم الى العرب المضريه بالانتساب الى قيس عيلان . وكانت القبائل
المرينية في بداية أمرها تنتقل في صحاري المغرب الأوسط وهضابسه ،
ثم توغلوا في المغرب ابان ضعف الموحدين ، واشتبكوا معهم وهزمهم
عدة مرات حتى أزالوهم بالتالي . وملكوا المغرب مكانهم ، وكانت عاصمتهم
مدينة فاس . / انظر : الذخيرة السنية : ١٦ ، الاستقصا : ١٣/٢ ،
عنان ، نهاية الأندلس : ٩٥ .

المغرب دوطان قويتان هما : الدولة الحفصية في تونس (افريقية) والدولة المرينية في فاس ، وقد ألمحنا الى ذكر الدولة الحفصية فيما سبق . أما المرينية فهي من أعظم الدول التي خلفت الموحدين اتساعا وقوة ، فقد كانت تحكم المغرب الأقصى كله بعد أن قضت على آخر الموحدين ودخلت عاصمتهم مراكش سنة ثمان وستين وستمائيه ، وقد قامت هذه الدولة الفتية برسالتها في الدفاع عما بقى من الأندلس ، وخاصة مملكة غرناطة ، ومثلت الدور الذي أداه قبلها المرابطون والموحدون في جهاد النصاري . ففي سنة سبعين وستمائيه وصل صريخ ابن الأحمر حاكم غرناطة الى السلطان المريني أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق الطقب بالمنصور ، وكان هذا السلطان مولعا بجهاد الكفار كفا به ، فعلى الرغم من اشتغاله بحرب أعدائه من القبائل النائرة في تلمسان وغيرها ، فإنه أرسل الى ابن الأحمر رسالة يعده فيها بالنصرة ويقول : " . . . وانا لنرجو أن نصلكم بنفسوس صلح جهرها وسرها ، ونقدم عليكم بما يبسط نفوسكم وسرها ، ويطلع لها الفوج من المكارة ، ويذهب عسرها ، فلتطب نفوسكم برحمة الله وعونه " ثم جهز طرده في خمسة آلاف مقاتل وأرسله الى الأندلس ، فعبر البحر ونفذ الى أرض النصارى وانتصر عليهم وحاد مشقلا بالفتائم والسبى وفي هذا الوقت كان السلطان نفسه قد استكمل أهبطه فجاز الى الأندلس

(١) نهاية الأندلس : ٩٧ .

(٢) تاريخ ابن خلدون : ٩٢/٧ .

(٣) الذخيرة السنية : ١٦٢ .

في جيش كتيّف من البربر والعرب ، وظلّ يكتسح مافي طريقه الى أن وصل
 قريباً من قرطبه ، وهناك خرج اليه جيش نصراني كبير بقيادة قائدهم
 الأشهر (زننه) ، والتقى الجيشان في موقعة عظيمة بالقرب من (استجه)
 سنة أربع وسبعين وستمائة وصد المسلمون بقيادة السلطان الذي لم يزل
 يحضّ جنده على الاستشهاد حتى انجلت المعركة عن نصر ساحق للمسلمين
 أعاد الى الأذهان ذكريات موقعة الزلاقة والأرك المجيدتين . وتقدير
 الرواية الاسلاميه عدد قتل النصارى بثمانية عشر ألفاً جمعت رؤوسهم
 وأذن عليها لصلاة العصر . (٣)

(٤)
 وكان ما استصخ به السلطان الميرني قصيدة من نظم الشاعر ابن المربط
 شاعر ابن الأحمر يقول فيها :-

هل من معني في الهوى أو منجدي * من متهم في الأرض أو من منجس .
 هذا الهوى داع فهل من مسعف * باجابة وانابة أو مسعد .

(١) مدينة قديمه تقع جنوبي غربي قرطبه ، محكمة البناء عظيمة الأسوار
 والآثار والرسوم ، فتحها المسلمون سنة ٣٠٠ هـ وهي خصبة التربة
 كثيرة الزرع والشجر ، واشتهر أهلها بمخالفة أولى الأمر والخروج عن
 الطاعة . / الروض المعطار " أستجه " .

(٢) عنان ، نهاية الأندلس : ١٠٠ .

(٣) الذخيرة السنية : ١٧٣ .

(٤) هو محمد بن علي بن عبد الرحمن المرادي ، شاعر مطبوع رقيق الشعر
 سلك مسلك الموفقين ، وترك سبيل المتشدين

وأعباره قليله جداً لانكاد نقف منها على شيء .

من حياته الا أنه مات صغيراً ولم يتكسب بالشعر ، فلم يشتهر / الخريدة : قسم

شعراء الأندلس والمغرب : ٣ / ٥٣٣ .

(٥) تاريخ ابن خلدون : ٧ / ١٩٨ - ٢٠٠ .

- هذى سبيل الرشء قد وضعت فهل * بالعدوتين من امرئ مسترشد .
- يرجو النجاة بجنة الفردوس أو * يخشى المصير الى الجحيم الموقد .
- يأمل النصر الحزى على المسدأ * أجب الهدى تسعد به وتؤيسد .
- سر النجاة الى النجاة شمسرا * ان الهدى لهو النجاة لمن هدى .
- لا تغتر بنسيئة الأجل الذى * ان لم يحن لك نقده فكان قد .
- سفر عليك طهيلة أيامه * ولم تستعد لطلوه فاستعسد .
- أو ما علمت بأنه لا بد من * زاد لكل مسافر فاستزود .
- هذا الجهاد رئيس أعمال التقى * خذ منه زادك لا رتالك تسعد .
- هذا الرباط بأرض أندلس فرح * منه لما يرضى اليك واقتسد .

يبدأ الشاعر قصيدته بمقدمة وعظمية يبين من خلالها قصر أجل الانسان فى الحياة ، وأنه مهدد بالموت بين اللحظة والأخرى ، ومع هذا الصوت والرحيل عن الدنيا تبدأ الرحلة الأخرى الشاقه حيث الحساب والمقاب فالسعيد الفائز هو من اتبع الهدى ان هو سر النجاة الذى من تزود به رشء وسعد ، وهذا الهدى الذى يرگز الشاعر على ذكره يتلوه فى الجهاد الذى دقت ساعته ، فهو يشير اليه بهذا ليدلل على قرب ووقوعه ، فماتى السلطان المخاطب الا أن يبادر الى كسب حظه منه ثم يتوجه الشاعر الى السلطان المرنى ليشخذ همة عن طريق شرح حال الاسلام والمسلمين فسو الأندلس فيقول :-

- من ذا يطهر نفسه بعزيمة * مشحونة فى نصر دين محمد .
- أتمز من أرض المد ومدائن * والله فى أقطارها لم يحبسد ؟
- وتدك أرض المسلمين وتبتلى * بمثلثين سطوا بكل موحسد .
- كم جامع فيها أعيد كيسة * فأهلك عليه أسى ولا تتجلسد .

- القنن والناقوس فوق منساره * والخمر والخزير وسط المسجد .
- أسفا عليها أقفرت طلواتها * من قانتين مراغمين وسجسج .
- وتعرضت منهم بكل معانسد * مستكبر قد كان لم يتشمسد .
- كم من أسير عندهم وأسيرة * فكلاهما ينفى الفدا فمافسد .
- كم من عقيلة معشر معقولة * فيهم تود لوانها في ملحسد .
- كم من تقى في السلاس موثق * يبتلى لاخر في الكبول مقبسد .

ومادام مسلمو الأندلس بهذه الحالة المحزنة من الذل والقهر فـان
أولى من يستفاد به هو الجار المسلم . فنجد الشاعر يناديه باسم الأخوة
الإسلامية واسم الجوار وحقوقه فيقول :-

- أفلا تذوب قلوبكم اخواننا * ماد هانا من ردى أو من ردى ؟ :
- أفلا تراعون الأمانة بيننا * من حرمة وصحة وتود ؟ :
- أكذا يحىث الروم في اخوانكم * وسيوفكم للثأر لم تثقلسد ؟ :
- ياحسرتى لحمة الاسلام قد * خمدت وكانت قبل ذات توقد .
- أين العزائم مالها لا تقضى * هل يقطع الهندي غير مجرد .
- أبني مرين أنتم جيراننا * وأحق من في صرخة بهم ابتد .
- فالجار كان به يوصى المصطفى * جبريل حقا في الصحيح المسند .

وهو هنا يكثر من الاستفهام الخفيد للتقريع ليكون أبلغ في اشعارهم
بالتقصير وتضييع حقوق الجار التي لها منزلة عظيمة في الاسلام . وهذا
الأسلوب ربما كان أفضل ما ينتج مع قوم كالمرينيين الذين عرفوا بحبهم
للجهاد ، وتفضيلهم له على سائر الأعمال فهو يلهم حماسهم عندما يقول
" أكذا يحىث الروم في اخوانكم " أو عندما يصف حمة الاسلام بأنها

خمدت في عهدهم وكانت من قلوبهم مشتتة . ثم يأخذ في بيان فريضة
 الجهاد على المسلمين ككل ويخص أهل المغرب لقرينهم من ميدان القتال :-
 أبني مريـن والقبائل كلها * في المغرب الأدنى لنا والأبعد .
 كتب الجهاد عليكم فتباعدوا * منه إلى الفرض الأحق والأكد .
 وارضوا بأحدى الحسين وأقرضوا * حسنا تفوزوا بالحسان الخـرد .
 هذي الجنان تفتحت أبوابها * والحرور قاعدة لكم بالمرصد .
 لله في نصر الخليفة موعـد * صدق فتوروا لا نتجاز الموعـد .
 أنتم جيوش الله ملء فضائـه * تأسون للدين الغريب المفسـد .
 ماذا اعتذاركم فدا النبيكم * وطريق هذا الخدر غير مـهد .
 ان قال لم فرطتم فـسى أـمـتى * وتركموهم للعدو الممتـدى .
 تالله لو أن العقوبة لم تخف * لكفى الحيا من وجه ذاك السيـد .
 اخواننا صلوا عليه وسلموا * وسلوا الشفاعة منه يوم المشهـد .
 واسموا لنصرة دينه يسقيكم * من حوضه في الحشر أعذب مـورد .

والملاحظ على القصيدة غلوها من المدح الذي يلزم هذا النوع من
 الشعر ، فهي تقتصر على المعاني الإسلامية فحسب كبيان سبيل المجاهد
 الذي يفضى إلى إحدى الحسينين : الشهادة أو النصر كما تشير إلى عتاب
 النبي - صلى الله عليه وسلم - الشديد للذين خذلوا اخوانهم المسلمين
 وتركوهم فريسة للعدو والكافر ، ولعل سبب غلوها من المدح يرجع إلى نفس
 المستنجد به الذي لا يريد أن يكون المديح هو دافعه للجهاد ، بل يريد
 أن يجعل نيته خالصة لله ، ومنه يرجو الثواب الجزيل . وسبب آخر ربما
 قصد إليه الشاعر عند كلامه عن الأخوة الإسلامية والجوار ، وهو اشعار السلطان
 المريني بأن الأندلس بلاده ، والدفاع عنها واجب عليه ، فقيامه بهيـذا

الواجب المفروض لا يحتاج الى مدح .

أما أسلوب القصيدة فهو سهل بعيد عن التوعر ، يعتمد على الواقعيه فيما جرى ويجرى لأهل الأندلس من الفتن ، ويبعد عن الخيال ، والصور والظلال لأنه ينطق من واقع مشاهد يعيشه بمواقفه وأحاسيسه ، وهذه النفحات الانسانيه من الألم والحزن والرجاء هي معدن الجمال في هذا الشعر .

وقد عارض هذه القصيدة ، وأجاب عما فيها من استفهام شاعر السلطان المريني مالك بن المرحل وذلك بعد أن انتهت الممارك الحماسه التي دحر فيها السلطان النصاري ، وخضع شوكتهم وعقد العزم على الرجوع الى عاصمتها فاس بعد أن مكث في الأندلس ستة أشهر ، يقول ابن المرحل : (٢)

شهد الاله وأنت يا أرض اشهدى * أنا أجبن صرخة المستجند .
لما دعا الداعي وردّ معلنا * قمنا لنصرته ولم نتردد .
نسرى له بأسنة قد جرّدت * من عضبها والصبح لم يتجرّد .
لولا الأسنة والسنايك مـادى * أحد بسير خيلنا في الفرقـد .
والخيل تشكونا ولا نـبـسـوى * أنا نروح بها وأنا نقتدى .

-
- (١) هو أبو الحكم مالك بن عبد الرحمن المرحل المصمودي نسبا ، والسببى بلدا . ولد بمالقه سنة ٦٠٤ هـ . برع في الشعر والأدب وعلوم اللغة والفقه . تولى القضاء بجهات غرناطة ، ثم رحل الى فاس وكتب للسلطان المريني المنصور ثم لولده يوسف . وتوفي ابن المرحل سنة ٦٩٩ هـ بفاس أنظر : عبد الله كئون ، زكريات مشاهير رجال المغرب : ٦ / ٨ .
- (٢) رضوان الدايه ، مختارات من الشعر الأندلسي : ١٨٢ - ١٨٤ .

لو أنها علمت بنا في قصودنا * كانت تطير بنا ولم تسترد .
 الله يعلم أننا لم نعتقد * إلا الجهاد ونصر دين محمد .
 وهو هنا يبين استجابتهم لصرخ الأندلس ، وسرعة استعدادهم
 للجهاد في سبيل الله ولا عزاز دين محمد - عليه الصلاة والسلام - وهو بهذا
 يجيب نداء ابن المرابط فيما سبق حينما قال :
 من ذا يظهر نفسه بعزيمة * مشحونة في نصر دين محمد .
 ثم يسترسل الشاعر في وصف رحلة الجهاد ، وخوض البحر لا نقاذ اخوان
 العقيدة :-

ثم اعترضنا البحر وهو كأنه * ملك تقدم في الجيوش لمرصد .
 فترامت الخيل العطاش لـمـورده * هيئات ما الماء الأجاج بمسود .
 يا خيل ان ورائنا مـنـابـاً روى * وشارباً ، ومزارعاً لم تحصد .
 وأحبة بين الفوائد أصبحوا * يتوقعون الموت ان لم ننجد .
 من مطلق العبرات إلا أنه * تجري دموع جفونه لمقيتد .
 ومفجع لا يستند بمطعمهم * وروع لا يستقر بمرقد .
 إخواننا في ديننا وودادنا * ولهم مزيد تحبب وتودد .
 نسرى بأجنحة البزاة الى العدا * مثل الحمام الحمامات السورد .
 واستقبلت بحر الزقاق بعصبة * نفدت عزائمها ولم تتعبد .
 فاستبشروا في أفقهم بطلوعنا * كالشمس يوم طلوعها للأسعد .
 حتى بختنا القوم في أوطانهم * إن الحوادث لا تجئ بموعد .
 ثم التقينا بالذين استصرخوا * منا بكل مؤيد ومسدد .

(١) بحر الزقاق : هو البحر الأبيض المتوسط ، أو مضيق جبل طارق .

(٢) الأسعد : هي الكواكب المشرفة التي يقال لكل واحد منها سعد .

اللسان (سعد) .

ولاشك أن المجاهدين قد تجشموا عنا^١ كثيرا في سبيل الوصول إلى
الأندلس ، فالبحر الهائج هو أول ما يعترض الطريق وهو عقبة تحتاج إلى
عزيمة لا تقامها . ثم يصور منظر الخيل المجهدة العلى وشوقها إلى الماء
ولكن هيئات أن يكون هذا موردها وغاية منتهاها ، فهاذا البحر الأجاج
الابداية الطريق للوصول إلى الماء العذب ، والزرع الينع في ديار الأحيوة
البائسين الذين لم يعودوا يستلذون المطاعم والمشارب ، ولا يذوقون
طعم النوم لما دهاهم على يد العدو من القتل والأسر واضطراب الأحوال
الأمري الذي لا يحتمل التأخير عن نصرتهم وعونهم . فكانت البشرية في نهاية
الأمري حيث عبرت جنود الجهاد هاغت العدو ، وأوقعت به مالم يـكـسـب
يتوقع ، وفج الله بهم كرب اخوانهم . والشاعر يصف مجرى الحوادث وصفا
واقعا ويدون تفصيل كثير لأجزاء المشاهد الحربية ، ويدون مدح أوفخر
لأنه كان يهدف من قصيدته اجابة ابن المرباط ومعارضته ، أما ما جرى من
صدق الجهاد فقد شاهده الأندلسيون بأعينهم مما لا يحتاج معه إلى بيان
أو تفصيل .

ولقد كان مالك بن المرحل يقوم في المغرب بحركة واسعة تدعوا لنقاز
(١)
الأندلس المحتضرة ، فقد نظم في سنة اثنتين وستين وستمائه قصيدة طويلة
يستنفر فيها المجاهدين من بني مرين وغيرهم وكان آنذاك كاتباً للسلطان المريني
أبو مالك بن يعقوب ، وقد قرئت القصيدة بصحن جامع القرويين في فاس
بعد صلاة الجمعة ، فبكى الناس ، وانتدب كثير منهم للجهاد . وما جاء
في القصيدة : (٢)

(١) شارك في هذه الحركة أناس آخرون بأساليب متنوعة . انظر / عنان ،
عصر المرابطين والموحدين : ٤٣٥ / ٢ .

(٢) كون ، زكريات مشاهير رجال المغرب : ٢٧ / ٨ - ٢٩ .

- استنصر الدين بكم فاستقدموا * فانكم أن تسلموه يسلم .
- لا تسلموا الا سلام يا اخواننا * وأسرجوا لنصره وألجموا .
- لا ذن بكم أندلس ناشدة * برحم الدين ونعم الرحيم .
- فاسترحمتكم فارحموها إننه * لا يرحم الرحمن من لا يرحم .
- ما هي الا قطعة من أرضكم * وأهلها منكم وأنتم منهم .
- لكها حذت بكل كافر * فالبحر من حدودها والعجم ،
- لها على أندلس من جنّة * دارت بها من العدا جهنم .
- استخلص الكفار منها مدنا * لكل ذي دين عليها نسدم .
- قرطبة هي التي تبكى لها * مكة حزنا والصفا وزمزم .
- وحمى وهي أخت بغداد وما * أيامها الا صبا والحلسم .
- استخلصوها موضعاً فوضعها * واقتدروا واحتكسوا وانتقمسوا .
- وقتلوا ومثلوا وأسروا * واحتلوا وأيتسوا وأيمسوا .

يستنصخ الشاعر أهل المغرب باسم الاسلام لأنه الرحم القويمة التي تجمع المسلمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم ، ويدفعهم الى التضحية وبذل النفوس متميزة بذلك عن الروابط الأخرى التي سرعان ماتزل عند وقوع الخطر ومن هذا المنطلق فقد جاءت الأندلس تطلب صلة هذه الرحم ، راجية نصرة المجاهدين على الكفار الذين حولوا جناتها الى جحيم ، واقتطعوا منها أجزاءً غالية كقرطبة واشبيلية عاصمتي الاسلام في الأندلس ، وسامسوا المسلمين فيهما أنواع العذاب . وهم لم يفعلوا ذلك الا لأنهم ظنوا أن - لا ناصر لها :-

- ظنوا وكان الظن منهم كاذباً * أن ليس لله جنود تقدر .
- ماصدقوا أن وراء البحر من * يفضب للاسلام حين يظلم .

- ولا دروا أن لديكم عزم * يحفظها شبابكم والمهرم .
- لو عرفوا قبائل العدو * عدوا على جيرانهم واجتروا .
- اليوم يدري كل شيطان بها * أن قد رمتهم بالشعاع الأ نجم .

وهو هنا يستشير عزائمهم بوصفهم بجنود الله الذين يفضون لحرمانه
عند ما تنتهك ، كما يرفع من شأنهم بحمايتهم للجار وصيانتهم ، فمبالغة
وقد اعتدى الكفار على جيرانهم ، وعاشوا في ديارهم ، ان الدفاع قد وجب
عليهم ولا شك . ثم يحاول دفعهم الى ساحات الجهاد من جانب آخر
وذلك أن فيهم قد سبقهم في هذا المجال ، وأدى دوره ، وفاز بالأجر
والمغنم :-

- يا أهل هذه الأرض ما أخرجكم * عنهم وأنتم في الأمور أحزم .
- تسابق الناس الى مواطن * الأجر فيها وافر والمغنم .
- وقامت الحرب على ساق فمما * زلت لأهل الصدق منهم قدم .
- باعوا من الله الكريم أنفسهم * كريمة ففاض منها الحكيم .
- دعاهم الله الى رحمته * وحيهم بين يديه يخدعهم .
- أخرجهم من بيته ايمانهم * وحبهم في فعل مايقدم .
- ملهمه الا قتال أمية * يكفر عيسى قلوبهم ومريهم .
- لم يثنه عن عزمه أهل ولا * مال ولا خوف نعيم يعبد .

ومادامت عاقبة الجهاد عظيمة ، والقوم أطي ايمان وحزم فقيم القمصود

اذن ؟ :

- إخواننا ماذا القمصود بعدهم * أفي ضمان الله مايتهم .
- هل هي إلا جنة مضمونة * أو عودة صاحبها مكرم .
- حدوا السلاح انفروا وسارعوا * الى الذي من ركنهم وعدتهم .

- ان أمام البحر من اخوانكم * خلقا لهم تلتفت اليكم .
- ونحوكم عيونهم ناظرة * لا تطعم النوم وكيف تطعمهم ؟ .
- والروم قد همت بهم ومالهم * سواكم رد فأيمن الهمم .
- كلهم ينظر في أطفاله * ودعته من الحذار يسجهم .
- أين المفر لا مفر انما * هو الغياث أو اسار أو دم .

والقصيدة سهلة في أسلوبها ، واضحة في أفكارها ومعانيها ليس فيها
تعمل ولا صنعه ، وذلك لأنها كانت موجبة الى عامة المسلمين في دولة
بنى رين ، وقد انطلق فيها صوت الشاعر الناصر معبرا عن عاطفته الاسلامية
التي يحث على الذب عن الاسلام الذي جاء مسترحما مائلا في من الشدة
وداعيا الى استخلاص ما أخذ من أراضى الأندلس طمعا ببيعة ذلك على من
يخطبهم لأن أرض المسلمين واحدة وان حالت الحواجز دون اتصالها .

فما أصاب قرطبة أبكى مكة وحرمتها وفي ذكر الأماكن المقدسة على هذه
الصورة من الحزن دفعة قوية لهم القوم وعزائمهم نحو الجهاد .

لسان الدين بن الخطيب ودوره في استصراخ بنى مرين :-

في منتصف القرن السابع الهجري عاد شبح الفناء يخيم على الأندلس
من جديد ، فقد أخذت قواعدها الكبرى كقرطبة ولنسية واشبيلية تسقط
تباعا في يد النصارى ، واجتاحت الفتن والثورات المحلية أجزاء أخرى حتى
كاد يرجع عصر الطوائف من جديد . وتمخضت هذه الفوضى بالتالى
عن ولادة مملكة اسلامية جديدة في جنوب الأندلس هي مملكة

(١)

غرناطة التي عاشت حوالي قرنين ونصف في صراع مرير مع النصارى المتريسين
ما اضطر حكامها في كثير من الأحيان الى عقد صلح جائر الشروط مع النصارى
وذلك بدفع المبالغ المالية الضخمة كجزية سنوية ، مع التنازل عن كثير من
(٢)
المدن والحصون . ولعل موقعها الجغرافي كان له أكبر الأثر في صمودها
هذه المدة الطويلة فهي تقع وراء القواعد والثغور الجنوبية المنيعه ،
وفصلها عن أسبانيا النصرانية نهر الوادي الكبير ، وفي الوقت نفسه
كانت قريبة من عدوة المغرب حيث الدولة المرينية التي كانت تساعد الأيمن
لهذه المصلحة .

وقد كان لسان الدين بن الخطيب يشغل منصب الكتابة والوزارة في هذه
العطكة أيام سلطانها يوسف بن اسماعيل بن فرج بن نصر الخزرجي المكنى
(٣)
بأبي الحجاج الذي تولى سنة أربع وثلاثين وسبعمائه ثم ولده أبي عبد الله
محمد الطق ببالغنى بالله الذي تحرك النصارى صوب غرناطة في أيامه ،
فبعث وزيره ابن الخطيب مستجداً بالسلطان المريني أبي عنان فارس فقال
بين يديه : (٤)

(١) أسسها محمد بن يوسف بن محمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي .
من سلالة سعد بن عباد رضى الله عنه - ولد سنة ٤٥٥ هـ بأرجونته
(بلدة صغيرة تقع شمال غرب مدينة جيان) وعرفت ولتهم باسم
الدولة النصرية وهي آخر معاقل المسلمين في الأندلس / انظر :
الإحاطة : ١٥٨ / ١ ، عنان : نهاية الأندلس : ٣٨ .

(٢) تاريخ ابن خلدون : ١١٠ / ٧ .

(٣) ابن الخطيب ، اللبنة البدرية : ١٠٣ - ١٠٤ .

(٤) المقرئ : ازهار الرياض : ٢٠٦ / ١ .

- خليفة الله ساعد القدر * علك ملاح في الدجى قمر .
- ودافعت عنك كفّ قدرته * ماليش يستطيع دفعه البشر .
- ليس لنا طجاً نؤمّله * سواك أنت الشمال والوزر .
- وجهك في النائبات بدر دجى * لنا وفي المحل كك المطر .
- والناس طرا بأرض أندلس * لولاك ما أوطنوا ولا عمروا .
- وجملة الأمر أنه وطن * في غير طيباك ماله وطن .
- ومن به منذ وصلت جبلهم * ماجدوا نعمة ولا كسروا .
- وقد أهمتهم نفوسهم * فوجهوني إليك وانتظروا .

والأبيات كلها مدح للسلطان بصفات الفجاعة والكرم ، مع التأكيد على ولا أهل الأندلس له واعترافهم بفضل السابغ وطلبهم المزيد منه . وقد أجاد الشاعر الوزير في اختيار الألفاظ التي تصلح لهذا المقام ^(٢) ما جمل السلطان يهتز لهذه الأبيات ، ويقول لابن الخطيب قبل أن يجلس ، ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم " . ثم أثقل كاهلهم بالاحسان وردهم بجميع ما طلبوه .

وقد شغل شعر الاستغاثة ، والحث على الجهاد ومدح المجاهدين من السلاطين المسلمين حيزاً كبيراً من حياة ابن الخطيب وشعره ، وذلك بحكم منصبه الخطير ، وحرصه على سلامة بلاده . فله من قصيدة وجهها لكافسة المسلمين بالمغرب من أهل الأندلس عند كلب العدو الكفور ، وظهوره على ^(٣) بعض النجوم :

(١) الشمال : الملقب ، والنفاث . الصحاح (ثل) ، الوزر : الجبل الذي

يحتصم به ، وهو السلاح أيضا . اللسان (وزر) .

(٢) الا حاطه : ٢٣/١ .

(٣) ابن الخطيب ، ديوان الصيّب والجهم : ٦٢٨ - ٦٣٠ .

- اخواننا لا تنسوا الفضل والمطافا * فقد كاد نور الله بالكفر أن يذابا .
- وان بلغ الماء الزبا فتدراكوا * فقد بسط الدين الحنيف لكم كففا .
- تحكم في سكان أندلس المسدا * فلهفا على الاسلام ما بينهم لهففا .
- وجاشت جيوش الكفر بين خالدها * فلا حافرا أبقت عليها ولا ظلففا .
- أنوما واغفا على سنة الكسرى * وما نام طرف في حماها ولا أغففا .
- أحاط بنا الأعداء من كل جانب * فلا وزرا عنهم وجدنا ولا كهففا .

يوجه الشاعر خطابه الى اخوانه في العقيدة ملتصبا بفضلهم وهونهم لنصرة الاسلام الذي يمد يديه مستغيثا بعد أن تحكم الأعداء في بلاده ، وأحاطوا بأتباعه من كل جانب وفعلوا بهم الأفاعيل :-

- فمن معقل حل العدو وعقاله * ومن مسجد صار الضلال به وقففا .
- ومن صبيه حمر الحواصل أصبحت * تقلب ذعرا بين أعدائها الطرفا .
- ومن نسوة أضحت أيام حواسرا * يحامين في أعيانها الوهن والضمفا .
- وسيلتنا الاسلام ، وهو أخوة * من الملاء الأعلى تقرينا زلففا .
- فهل ناصر مستبصر في يقينه * يجير من استعدى ويكفى من استكفا .
- ومنتجزينا من الله وعده * فلا نكت في وعد الاله ولا خلففا .
- وهل بائع فينا من الله نفسه * فلا مشترأولى من الله أو أوففا .

ثم يتوجه الى أهل المغرب من المرينيين وغيرهم مستثيرا عواطفهم الاسلاميه بشئ من المدح المشوب بالعتاب لتأخيرهم عن الجهاد بعض الشئ قائلا :

- أفى الله شك بعدما وضع الهدى ؟ * وكيف لضوء الصبح في الأفق أن يخففا .
- وكيف يعميت الكفر فينا ود وننا * قبائل منكم تعجز الحصر والوصففا .
- غيوث نوال كلما سئلوا الندى * ليموت نزال كلما حضروا الزحففا .
- اذا كاتبت يوما فأقلامها القفا * وان أرسلت كانت صفائحها الصففا .

- (١) فقوموا برسم الحقّ فينا فقد عفا * وهبوا لنصر الدين فينا فقد أشفأ ،
(٢) وهانحن قد لذنا بعمز حماكـم * ونرجو من الله الإداة واللطفأ .

انه يخاطب قوما مسلمين أدركوا قيمة الجهاد ، وخاضوا غماره في الأندلس مرات عديدة ، وظفروا بالعدو ، وأفاثوا اخوانهم . فذلك نرى نبرته الحماسية القوية التي تستنكر أن يعرهد الكفر ويصول بالأندلس المسلمه ، ومن ورائها آلاف من ليوث أهل المغرب المروهة الجانب .

أما أسلوب ابن الخطيب فتغلب عليه الصنعة البلاغية بمختلف ألوانها ،
(٣) ويستوى في ذلك شعره ونثره ، وذلك لأن السجع والزخرفة كان هو طابع الأساليب الأدبية في الأندلس منذ القرن الخامس الهجري الى القرن التاسع وقد كان شاعرنا علما من أعلام الأدب في هذا المجال ، أما عاطفته فهي شائرة دفاقة تشف عن همة عالية تتسامى فوق الجراح والمصائب . فقد كان ابن الخطيب يرى بثاقب بصره ، ومن مجريات الأحداث النتيجة الحتمية التي سيؤول اليها أمر الأندلس المضطرب ، ولكنه ظل يحث على الجهاد فسي حماس ويمدح المجاهدين ، حتى انه عندما انهزم سلطانه ابن الأحمر ومساعدته
(٤) السلطان أبو الحسن المريني في معركة طريف لم يعدها هزيمة - مع ضاقتها -

-
- (١) أشفأ : شارب ، وقرب . الصحاح (شفى) .
(٢) الإداة : النصر والغلبة . المصدر نفسه (دول) .
(٣) انظر رسالته النثرية في استتجاد بني مرين في النفح : ٤٠٤ / ٤ ومابعدها .
(٤) طريف : جزيرة على البحر المتوسط ، يتصل غربيا بالمحيط الأطلسي وتقع في أول المجاز من المغرب الى الأندلس وهي تنصب الى طريف بين مالك مولى موسى بن نصير أول من وطئت قدماه الجزيرة حينما بعثه موسى بحملة استطلاعية قبل الشروع في فتح الأندلس . / الروض المعطار (طريف) . ومعركة طريف حدثت سنة ٧٤١هـ في هذا الموضع عندما =

(١)

مراح يشبها بمعركة أحد ، متوعدا النصارى بالنار القريب قائلا :-

- ان الحروب سجال طالما وهبت * في اليوم فرصتها واسترجعت لفسد .
- لا يفرر الروم مانالوا ومافعلوا * فان ذلك املا * الى أمـــــــد .
- فللقلوب من الغصاء منصـــــــرف * بما تقدم في بدر وفي أحـــــــد .
- وان دون طلاب النار أسد وغى * من قومك الغرأوأبائك النجـــــــد .
- قد أظعوا كل مشحون الفرار الى * شن الخوار وسلوا كل ذي مهـــــــد .
- والعزم باد وصنع الله مرتقب * والفتح منتظر ان لم يحن فقـــــــد .
- وعادة النصر لا تستبط مقدمها * ان لم توافك في سبت ففى أحـــــــد .

استمر لسان الدين بن الخطيب في وزارة أبي الحجاج الى أن توفى قتيلا في سنة خمس وخمسين وسبعمائه ، وخلفه ولده محمد الغني بالله فثبت ابن الخطيب في وزارته ورفع من منزلته وفوض اليه كثيرا من أمـــــــور الدولة ، حتى أصبح الرجل المشار اليه في حمراء غرناطة . ولكن هذا المجد لم يدم طويلا اذ سرعان ما تطورت الأمور وحدثت في غرناطة ثورة أطاحت بالغني

= حشد النصارى جموعا كبيرة للاستيلاء على ما بقى للمسلمين بالأندلس . فاستغفروا أهل الأندلس السلطان المريني فجاء بنفسه في أساطيل عظيمه وجاء ابن الأحمر بقوات الأندلس . ولكن الله قضى عليها بالهزيمة وحطمت معظم مراكبها البحرية ، وأسر ابن السلطان وحريره واستشهد فيها والسد ابن الخطيب وأخوه الأكبر . / انظر تاريخ ابن خلدون : ٢٦١ / ٧ ، النفح : ٣٨٦ / ٤ .

(١) القصيدة في ديوان ابن الخطيب السابق : ٤١٠ - ٤١١ .

(٢) الفرار : حد السيف ، اللسان (غرر) .

(٣) الميد : الميل والاضطراب . أساس البلاغة (ميد) والمقصود هنا الرماح .

(٤) انظر : أزهار الرياض : ٦٢ / ١ .

(١) بالله ووزيره ، ون بهما في المعتقل سنة ستين وسبعمائة . وكانت تربط
السلطان المخلوع علاقة مودة وصداقه بطرك المغرب أبي سالم المريني ، وكان
أبو سالم قد لجأ اليه حينما تغلب عليه أخوه ونفاه الى الأندلس فأكرم الفتي
بالله مشواه . فرعى السلطان المريني هذه اليد ، وأرسل الى غرناطة
سفيرا يسمى لدى الحاكم الجديد في السماح للفتي بالله ووزيره ابن الخطيب
بالجواز الى المغرب فنجحت المهمته ، وعاد السفير مصحبتة من كان يرافق ،
فاستقبلهما أبو سالم أجمل استقبال في فاس ، واحتفل بقدميهما في يوم مشهود .
وفي هذا الحفل أنشد ابن الخطيب قصيدة طويلة يدعو فيها لنصرة سلطاناه
(٢)
يقول :-

سلا هل لديها من مخبرة ذكسر * وهل أعشب الوادي ونم به الزهر .
وهل باكر الوسمي دارا على اللوى * عفت آيها ، الا التوهم والذكور .
بلادى التي عاطيت مشمولة الهوى * بأكافها والعيش فينمان مخضر .
وجوى الذى ربي جناحى وكسره * فيها أنذا مالى جناح ولا وكسر .

(١) قام بهذه الثورة أخو الفتي بالله ، اسماعيل الذى كان معتقلا في بعض
أبراج الحمراء ، واستطاع أن يجمع حوله بعض الأنصار وطلب رأسهم
صهره المكنتى بأبى عبد الله ، وفي الثامن والعشرين من رمضان من السنة
المذكورة استغل هؤلاء القوم تحول السلطان الفتي بالله الى سكنتى
قصر جنة الحريف الواقع شمال شرق الحمراء ، وابتعاده عن دار الطك
وهاجموا حصن الحمراء ونفذوا الى قصر الحاجب المسمى رضوان وقتلوه ،
ودقوا الطبول ونادوا باسماعيل أميرا على غرناطة . / انظر : ابن
الخطيب ، اللوحة البدرية : ١٢٠ .

(٢) القصيدة في المصدر السابق : ١٢٢ - ١٢٥ ، تاريخ ابن خلدون : ٣٠٧/٧ .
النفج : ٨٦/٥ .

- نبت بنى لآعن جفوة وملا لـ * ولا نسخ الوصل الهنى بها هجر .
- ولكنها الدنيا قليل متاعها * ولذاتها دأبا تزور وتزور .
- فمن لى بقرب المهد منها ودونها * مدى طال حتى يومه عندنا شهر .
- ولله عينا من وآنسا ولأسسى * ضرام له فى كل جانحة جسر .
- وقد بددت درّ الدموع يد النوى * وللشوق أشجان يضيق لها الصدر .
- أقول لأطعاني وقد غالمها السرى * وآنسها الحادى وأوحشها الزجر .
- رويدك بعد العسر يسران أبشرى * بانجاز وعد الله قد ذهب العسر .

يسير الشاعر فى قصيدته هذه على نهج عمود الشعر العربى القديم
أو قريباً منه . فهو قد استفتح بذكر الديار التى عفت ودرست ولم ييسق
إلا ذكرها ، ويستعين بذكر مستلزمات هذا الاستفتاح كذكر اللوى الذى أصبح
رمزاً للحنين إلى الديار استعمله الشعراء عبر عصور الشعر منذ أن بدأ بذلك
امرؤ القيس فى الجاهلية . كما يذكر العفاء ، والتوهم ، والذكر وما إلى ذلك
من الأمور الدالة على شوقه لبلاده التى أخرج منها كرها من غير طل منـه
أو جفاء ، ثم يعلل ذلك بأن هذه هى سنة الدنيا التى يتذبذب فيها الخير
والشر ، ويعد أن وقف بالديار نراه يحث الأَطعان التى أنمكها السرى
كما يقتضيه ترتيب قصيدة المدح الجاهلية والا أية أطعان يحدوبها الحادى
فى الأندلس : ثم يختم تخلصه من وصف الرحلة المضنية بالاستبشار بالفرج
بعد الشدة حيث الحلول فى ديار السلطان الكريم :

- زجرنا بابراهيم بره همومنا * فلما رأينا وجهه صدق الزجر .
- بمنتخب من آل يعقوب كمننا * دجا الخطب لم يكذب لمزمته فجر .
- تناقلت الركبان طيب حديثه * فلما رأته صدق الخبر الخـبر .
- ندى لو حواها البحر لذّ مذاقه * ولم يتمقب مدّه أبدا جـسر .

- وأس غدا يرتاع من خوفه الردى * وترفل فى أثوابه الفتكة البكر .
(١)
- أطاعته حتى العصم فى قنن الربا * وهشت الى تأمله الأ نجم الزهر .
- قصدناك ياخير الطوك على النوى * لتتصفنا مماجنى عبدك الدهر .
- كفنا بك الأيام عن غلوائها * وقد رابنا منها التعسف والكسر .
- ولما أتينا البحر يهرب موجهه * ذكرنا نذاك الفمر فاحتقر البحر .
- خلافتك العظام ومن لم يدن بها * فايما نه لغو وعرفانسه نكسر .
- ووصفك يهدى المدح قصد ثوابه * اذا ضل فى أوصاف من دونك الشعر .

وهكذا يأخذ الشاعر فى مدح السلطان بأسلوب جزل فخم ، فهو فرع من روحه بنى مريم العريقة وقد سمع بذكره ، وجوده الفخر القاصى والدانسى وعم ذلك الآفاق . وهو أيضا مثال الشجاعة والبأس الذى يرهبه الجميع حتى الموت نفسه ، ودان له الدهر وأصبح من عبيده ، وهذا من عظيم المبالغة لأن الدهر فى نظر الشعراء دائما يرمز الى البلاء المتسلط ، والعدو الذى لا يهزم أبدا . وقد وضعه ابن الخطيب بهذه المنزلة ، ليهون أمر استرداد سلطان سيده الخنى بالله من تلك الشرذمة الضعيفة اذا ما شد الممسدوح عزيمته . ثم يسترسل الشاعر فى المدح واصفا خلافة المرىنى بأنها عز للاسلام وأهله الذين كانوا يتمنون . منذ القديم تولى أبى سالم لها :
ومدت الى الله الأكف ضراعة * فقال لهن الله : قد قضى الأمر .

ومعد ذلك يصل الشاعر الى غايته وهو طلب مساعدة سيده فى ارجاع ملكه

المفتصب :

(١) العصم : الوعول ، قنن الربا : قم الجبال . / انظر الصحاح

(عصم) ، (قنن) .

- وهذا ابن نصر قد أتى وجنائه * مهين ومن عليك يلتبس الجسبر .
 غريب يرجى منك ما أنت أهله * فان كنت تبغى الفخر قد جاءك الفخر .
 ففزي يا أمير المؤمنين بببيمة * موثقة قد علّ عروتها الخسدر .
 ومثلك من يرعى الدخيل ، ومن دعا * بيا لمريم جاءه العزّ والنصر .
 وخذ يا امام الحقّ بالحقّ ثأره * ففى ضمن ما تأتى به العزّ والأجر .
 وأنت لها ياناصر الحقّ فلتقم * بحق ، فما زيد يرجى ولا عمرو .
 يكف بك العادى ويحيا بك الهدى * ويبنى بك الاسلام ما هدم الكفر .
 أنه الى أوطانه عنك راضيا * وطوّقه نعماك التى مالها حصر .
 وعاجل قلوب الناس فيه بجبرها * فقد صدهم عنه التغلب والقهر .
 وهم يرقبون الفعل منك وصفقة * تحارلها يملك ما بعدها خسر .

ثم يعود بعد هذه الأبيات الى مدح بنى مرين رهط السلطان ، واصفا
 اياهم بالشجاعة وحب الجهاد واكتساب الثناء العاطر ببذل النفوس ، والصدق
 فى الممارك ، كما يصفهم بالأخلاق الحميدة وتذوقهم للشعر :

- وان مدحوا اهتزوا ارتياحا كأنهم * نشاوى تشتت فى معاطفهم خمر .
 أما عن مدى تأثير هذه القصيدة فى نفوس سامعيها ، فيقول ابن خلدون
 الذى كان من شهود ذلك الحفل حيث كان من أكابر رجال الدولة المرينية
 وكتابتها - يقول : ان ابن الخطيب قد أبكى سامعيه تأثرا وأسى ، ويقول ابن
 الخطيب نفسه : ان الناس كانوا يرتجفون تأثرا لأقواله وتسيل منهم العبرات .

(١) تاريخ ابن خلدون : ٣٠٦/٧ .

(٢) الاحاطة : ٢٦/١ ، وانظر نفاضة الجراب : ١٠٣ وما بعدها .

ولعل سبب هذا التأثير راجع الى صدق عاطفة الشاعر الذي مسته النكبة
شخصيا فجرد من منصبه واستتصلت أمواله وضياعه ، وأصبح هو وسلطانسه
الغنى بالله بعد العزَّ غريبين لا يملكان شيئا من الدنيا .
آخر أصوات الاستغاثة :-

في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري كانت مملكة غرناطة تعيش
ظروفا قاسية جدا من الاضطراب والانقسام . فنجد أن طول الحكم فيها
السلطان أبو الحسن علي بن الأحمر سنة ثمان وستين وثمانمائة نازعه أخوه
الأمير محمد بن سعد المعروف (بالزغل) أي الشجاع الذي كان واليا على
منطقة مالقه وأيده في ذلك مجموعة من القواد والأجناد ، فأطعن الحرب على
أخيه ، وكانت النتيجة انقسام المملكة الى شطرين متخاصمين وفي هذه الأونة
التي اشتغل المسلمون فيها ببعضهم ، كانت أسبانيا النصرانية في آخر مراحل
الاتحاد النهائي ، وتم ذلك بزواج فرناندو ابن ملك أراجون من ايسابيلا
أخت ملك قشتاله ثم اعلانهما طكين لقشتاله وأرجون سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة ،
(١)

(١) مدينة بالأندلس على شاطئ البحر غربي غرناطة ، وهي قديمة البناء تحيط
بها الأسوار الصخرية المنيعه وتشتهر بكثرة أشجار التين الذي كان يحصل
منها الى الشام والعراق لجودته . وكان يتبعها في آخر عهد ها الاسلام
عدد من المدن والحصون / انظر الروي المعطار (مالقه) .

(٢) العربي الفاس ، مرآة المحاسن : ١٤٢ .

(٣) عنان ، نهاية الأندلس : ١٩٤ .

هذلك أصبحت الأندلس - مع ماتعانيه من ضعف - تواجه أعظم قوة واجهتها فس تاريخها الطويل ، وهذا من تحركات الملكين الكاثوليكين فرناند و ايسابيلا عزمهما على تسديد ضربة قاضية لاخر معقل اسلامي في الأندلس أعنى غرناطة وهنا كان لابد لمسلمي الأندلس من طلب النجدة من اخوانهم المسلمين فس المغرب كما هي عادتهم منذ زمن طويل ، ولكن هذا غير ممكن الآن ، حيث خبت قوة الدولة المرينية ودخلت في طور الانحلال ، وكان ذلك في عهد آخر حكامهم السلطان عبد الحق الذي تولى سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة ولم يكن في حزم أسلافه العظام فأهمل أمور الدولة مما جعل وزيره يحيى بن يحيى الوطاسي يستبد بالأمور ، ومحاوّل نقل السلطنة الى قومه بنو وطاس (وهم بطن من بطون مرين) ولما اشتد أمره قبض عليه السلطان وقتله مع رهط من أنصاره ، وأسلم عبد الحق زمام الدولة للرعايا وخاصة اليهود الذين عاشوا في البلاد ونفوا ، فثار الشعب وعزل عبد الحق وقتله سنة تسع وستين وثمانمائة وبه انقرضت دولة بنو مرين ، وقام على أثرهم بنو وطاس في حكم المغرب ، حيث استطاع زعيمهم محمد الشيخ بن زكريا ان يستولى على فاس سنة ست وسبعين وثمانمائة ثم يضم اليها سائر الجهات والقبائل ويكون الدولة الوطاسية ، ولكنها لم تكن من القوة بحيث تعبر البحر لا نقاذ الأندلس كالمرينية . فاستقر رأي أهل الأندلس على الاستنجاد بالمماليك حكام مصر ، فلما وصل رسول الأندلس الى القاهرة قدموا كتاب الاستغاثة الى سلطانها الظاهر جقمق سنة أربع وأربعين وثمانمائة ، فرد عليهم بأنه سيبحث الى ابن عثمان سلطان القسطنطينية أن ينجد الأندلس ولكمهم طلبوا منه عون مصر نفسها ، فاعتذر ببعده الشقة والا حثياج لكثرة المراكب والعدة . (٢)

(١) السلاوي ، الاستقصا : ١١٨ / ٤ - ١١٩ .

(٢) انظر السلوك : ق ٣ ، ج ٤ ، ص ١٢١٩ ، الضوء اللامع : ٦٧ / ٥ .

ولم تسفر هذه الرحلة عن نتيجة ، مما شجع النصارى على المضى فى تحقيق
أهدافهم بالقضاء على مملكة غرناطة قبل أن تكون نواة لخطر اسلامى داهم
ينساب من وراء البحر مثلاً فى المثمانيين ، وساعدهم على ذلك قيام أبى عبد الله
محمد بن أبى الحسن بثورة على أبيه وعزله وتولى الحكم مكانه فى غرناطة
وكان هذا السلطان ضعيفاً ، حيث حاول أن يغزو النصارى ، فوقع فى أسرهم
فاشتروا لاطلاقه أن يخضع لهم ، ويحبب الصلح معهم عند المسلمين ، ويدفع
جزية كبيرة مع اطلاق الأسرى النصارى ، وأن يقدم ولده رهينة حتى يتم وفاءه
بشروطه فلما أطلق رجع الى غرناطة حيث كان عمه الزغل قد جلس مكانه
فى الحكم ، فأخذ أبو عبد الله يحرض الناس على الثورة بعمه بعدهم بالسلامة
والأمن الذى سيعم من جراء عقد الصلح مع ملكى اسبانيا والفعل انصاع الناس
لأقواله وثاروا فى وجه الزغل الذى ارتد الى (وادى آش) ليستعد للحرب
الذى شنها عليه ابن أخيه ، وفى غمرة هذه الأحداث تحرك الجيش القشتالى
الى مالقه ليمنع باحتلالها أى مدد يأتى من البحر ، وضرب عليها الحصار فى
سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة ، وصمد أهلها صموداً رائعاً ، وأوقعوا
بالمحاصرين خسائر كبيرة ، ولكنهم اضطروا الى التسليم عندما فتك بهم الجوع
والمرض بعد ثلاثة أشهر وفرض النصارى على أهل المدينة شروطاً قاسية من
أهمها : اعتبار جميع أهل مالقه رقيقاً يجب عليهم اقتداء أنفسهم ، مع دفع
الغرامات الباهظة ، ولا يسمح لمن خرج منها أن يقيم فى غرناطة بل فى قشتالة .

(١) مجهول ، أخبار العصور فى انقضاء دولة بنى نصر : ١٥ .

(٢) مدينة كبيرة بالقرب من غرناطة ، تكثر فيها المياه والأنهار التى تنحط
اليها من جبل شليد الواقع فى شرقها ، وعلى ضفافه تكثر الأشجار المتنوعة ،
وينسب الى وادى آش كثير من العلماء . انظر الروض المحطار : (وادى آش) .

(٣) عنان ، نهاية الأندلس : ٢١٧ .

واذاً هذا الحادث أرسل الرغل سفارة أخرى الى مصر لشرح أحوال المسلمين بالآندلس وطلب النجدة من السلطان الأشرف قايتباي ، وتشير بعض الروايات الى اتفاق سلطان مصر مع بايزيد الثاني العثماني على أن يفتزو الأسطول العثماني صقلية ليشغل الأسبان عن الآندلس مقابل أن يرسل قايتباي أسطولا آخر عن طريق افريقيا يشترك في الدفاع ومقاومة النصارى . وربما كان مثل هذا الاتفاق مستبعدا بعض الشيء لأن العلاقات بين البلدين في هذه الآونة علاقات جفا وقطيعة ، وتوجس شديد لدى المماليك في مصر من تحركات العثمانيين نحوهم . وعلى فرض صحة هذه الرواية فاننا لا نجد أى أثر فعلى لآى من الطرفين المذكورين في اغاشة الآندلسيين المحاصرين .

(٢)

والذى تذكره المصادر التاريخية أن جواب قايتباي كان بإرسال سفارة مصرية الى البابا والى الملوك الكاثوليكين ، واختار لأدائها راهبين من رعاياه - النصارى أحدهما القسيس أنطونيوميلاو رئيس دير القديس فرنسيس في بيت المقدس ، وزودهما بكتب تحمل استنكاره لفعل النصارى وعدوانهم على المسلمين واحتلال أرضهم ، في حين أن رعاياه من النصارى في مصر والقدس يعيشون في أمن وحرية كاملة ، ولهذا فانه يطلب من الملوك الكاثوليك عن البطش بالمسلمين والرحيل عن ديارهم ، ورد ما أخذ منها والا فانه سيضطر الى اتباع سياسة العنف والتكيل مع نصارى بلاده ويهدم كنائسهم ومعابدهم . وما كانت هذه السفارة لتثنى عزم ملك اسبانيا عن متابعة احتلال الأراضى الاسلامية وخاصة أنهما أصبحا على وشك الظفر النهائي ولكنهما مجاملة للسلطان ووسله ردا بأنهما

(١) على محمد حموده ، تاريخ الآندلس السياسى والعمرانى والاجتماعى : ص :

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ووقائع الدهور : ٢٤٦/٣ .

لا يفرقان في المعاملة بين رعاياهما المسلمين والنصارى ، ولكنهما لا يطيقان الصبر على ترك أرض الأبا^(١) والأجداد بيد غيرهما . وذهبت هذه السفاره صيعة في واد . ولم ينفذ السلطان وعيده ، ربما لا نشغاله بتحركات العثمانيين ، وترك الأندلس تواجه مصيرها منفردة . ففي سنة خمس وثمانين وثمانمائة أرسل السلطان الى أبى عبد الله حاكم غرناطة يطلبان منه تسليم المدينة التي كانت تموج بما يزيد على أربعمئة ألف نفس من الذين هاجروا اليها عند سقوط مدنهم وحاول أبو عبد الله اقناعهم بالمدول عن ذلك ، ومذكرا اياهم بمخالفته لهم ضد بنى دينه ووطنه ، ولكن هيهات أن تستمع القوة الى كلام الضعفاء والجبنا^(٢) فقرر عندئذ المقاومه واشتبك مع النصارى في حرب غير متكافئه ، اضطر على أثرها الى التحصن داخل المدينة . فضربوا حولها حصارا شديدا مدة سبعة أشهر أنهمكوا خلالها قوة المدافعين فلجأوا الى التسليم سنة سبع وثمانين وثمانمائة على ستة وخمسين شرطا من أهمها أن تسلّم قلاع الحمراء وابراجها وجميع أبواب غرناطة الى الطليكن أو مندوبهما في ظرف ستين يوما ، ويتعهد السلطان بتأمين السلطان وشعبه بكافة طبقاته على الأرواح والأموال والدين فلا يمنعوا من تأدية شعائهم ، ولا تهدم مساجدهم ، ولا يجبر من أسلم من النصارى على الرده ، كما يحكم بين المسلمين في المنازعات قضاء منهم ، من أراد الهجرة الى المغرب فله ذلك بكامل عدته وأمواله وسفن النصارى . ومن أراد العودة من المغرب فكذاك . أما الضرائب فلا يدفع أهل غرناطة أكثر مما كانوا يدفعون^(٣) له لحكامهم في السابق - والى آخر هذه الشروط التي لم يكن يحلم بها أهل غرناطة

(١) نهاية الأندلس : ٢٢٢ .

(٢) نفع الطيب : ٥٢٥/٤ .

ولكن هل نفذ منها شيء ؟ ان فرناند ورجل الفرصة السانحة لا يحفل بوعده ولا عهد متى وانتته الظروف ، كما ان ايسابيل كانت تضطرم حماسا لعقيدتها الكاثوليكية وتستجيب لطلبات القسس الحاقدين الذين كانوا يلحون في طلب القضاء على المسلمين وتشريدهم . وماهى الا سنوات قلائل حتى بدأ الطاغية الكاثوليكي بنقض الشروط واحدا واحدا ، وأخذ يعد العدة لتذويب الشخصية الاسلاميه الأندلسية نهائيا وذلك بطرد المسلمين وارغامهم على الهجرة (١) وتنصير من بقى منهم بالأندلس قسرا ، وكانت بداية هذا الأمر سنة أربع وتسعمائة ، وقد قام المسلمون في ضواحي غرناطة بالثورة ردا على هذا القرار ، ولكنهم كانوا عزلا فقمعوا بوحشية وقسوة ، وأسس بعد ذلك في غرناطة ما يسمى بديوان التحقيق أو " محاكم التفتيش " وكان يقوم على هذا الديوان اثنان من الرهبان المجرمين المتعصبين وهما الكردينال " خنيس " رأس الكنيسه الاسبانيه ، والدون " ديجو ديسا " المحقق العام ، وقد قام هذا الديوان باكراه المسلمين على الدخول في النصرانية ، ونبذ الاسلام بكافة شعائره وعبادته وارغموا على الحضور الى الكنيسه لحضور أعياد النصرى ، وترك الصلاة والصيام ، وذكور الرسول طيه الصلاة والسلام والتوجه الى القبله والتسوى بالأسما العربيه والاسلاميه الخ وكل من يخالف هذه الأوامر يعذب بالألوان العذاب الأليم ، ثم يحرق حيا . وقد تنصرت أعداد هائلة من المسلمين ظاهريا خوفا من البطش ، وبيالغ المقرئ في ذلك عندما يقول : عن أهل غرناطة : " وبالجملة فانهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضره ، وامتنع قوم من التنصر ، واعتزلوا الناس فجمع لهم العدو الجموع ، واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبيا "

(١) المقرئ ، أزهار الرياض : ٦٨/١ .

(٢) عنان ، مواقف حاسمه في تاريخ الاسلام : ٢٣٢ .

(٣) النفج : ٥٢٧/٤ .

وقد عرف هؤلاء الذين تنصروا - في التاريخ الأندلسي - بالموريسكيين وهم
تمنى (الحرب الأصغر)^(١) . وفي هذه الآونة التي يسطق فيها المسلمون
بجحيم العذاب ، أوفد فرناند ورسولا الى سلطان مصر سنة سبع وتسعمائة
ليؤكد له ما يلقاه المسلمون في الأندلس من الرعاية والاحترام في ظل حكم
الطليين الكاثوليكين ، وكان هذا الرسول هو (بهترومارتيري) مستشار
فرناندو ، وكاتبه ومؤرخه الكبير ، ولما وصل الى مصر وحاول سلطانها جان
بلاط استقباله ضج الشعب وثار ، فاضطر الى استقباله سرا ، فقام مارتيري
بشرح بطلان المزاعم التي تنسب الى ملكيه من الاستيلاء ظلما على ارض
المسلمين ، وقهرهم على التنصير ، واستطاع ببراعته وذلالة لسانه أن يقنع
السلطان المملوكي بأن المسلمين يتمتعون بكامل حرياتهم الدينية وغيره
وقدم شهادات من بعض حكام الثغور المغربية تفيد بأن المسلمين المهاجرين
الى المغرب يصلون مع نساءهم وأولادهم في أمن وسلام ، ويلقون من مندوبي
الطليين كل رعاية . وتمكن الرسول الداهية تحقيق مطالبه في اعفاء نصارى
بيت المقدس من جطة من المغارم والغروض . ومع هذا الخذلان الذي لقيه
أهل الأندلس من اخوانهم المسلمين ، فانهم كانوا يرون في العثمانيين خير
من يستطيع المساعدة والضغط على ملكي اسبانيا لاحترام شروط تسليم غرناطة
على الأقل . ولذلك فقد وجه الموريسكيون آخر استغاثاتهم الى السلطان
العثماني بايزيد الثاني الذي حكم حتى سنة ثمان عشرة وتسعمائة ، وكانت
استغاثتهم تحوى قصيدة طهيلة تبدأ بقول الشاعر :- (٣)

(١) عنان ، نهاية الأندلس : ٢٣٢ .

(٢) المرجع السابق : ٢٧٢ ، محمد هتامله ، التنصير القسري لسلبي الأندلس :

١٠٠ .

(٣) القصيدة كامله في أزهار الرياض : ١٠٩ - ١١٥ .

- سلام كريم د ائسم متجسس د * أخص به مولاى خير خليفه
- سلام على مولاى ندى المجد والحمد * ومن ألبس الكفار ثوب المذلّة (١)
- سلام على مولاى من دار ملكه * قسطنطينة اكرم بها من مدينه
- سلام على من زين الله ملكه * يجند وأتراك من أهل الرعايه
- سلام على القاضى ومن كان مثله * من العلماء الأكرمين الأجلّة
- سلام على أهل الديانة والتقى * ومن كان ذا رأى من أهل المشورة
- سلام عليكم من عبید تخلفوا * بأندلس بالخرب فى أرض غربة
- أحاط بهم بحر من الروم زاخر * وحر عميق ذو ظلام وجبّة
- سلام عليكم من شيوخ تمزقت * شيمهم بالنتف من بعد عزّة
- سلام عليكم من وجوه تكشفست * على جطة الأ علاج من بعد ستره
- سلام عليكم من عجائز أكرهت * على أكل خنزير ولحم لجيفه
- نقبل نحن الكل أرض بساطكم * وندعولكم بالخير فى كل ساعة

ولعله مما لا يحتاج الى بيان الذلة الشديدة ، والانهمزام النفسى اللذان يغلفان مناطق الشاعر وسلامه المكرر على السلطان ، والقضاة والعلماء ، وأهل الديانة الذين يمكن أن يجد عندهم بعض ما يصبوا اليه .

ولا عجب أن نجد هذا الانكسار فى لغة الشاعر فهو قد ذاق ألوانا من الذل والحذاب النفسى والحسى أمدا ليس بالقصير ، وهو يرى أمام عينيه كل يوم ما يفعله النصارى باخوانه المسلمين صفارا وكبارا من التعذيب والقتل والاكره على فعل المحرمات زيادة فى النكابة والالام ، وهو يفصل حرمهم مع النصارى ومآلت اليه النتيجة ، لعدم اغاثة المسلمين لهم بقوله :-

(١) هى القسطنطينيه التى أصبحت عاصمة العثمانيين بعد فتحها على

شكونا لكم مولاى ماقد أصابنا * من الضرّ والبلوى وعظم الرزية .
 غدرنا ونصرتنا ودّل ديننا * ظلمنا ووطننا بكلّ قبيحة .
 وكنا على دين النّبى محمد * نقاتل عيال الصليب بنيسة .
 ونلقى أمورا فى الجهاد عزيمة * بقتل وأسر ثم جوع وقسيلة .
 فجاءت علينا الروم من كلّ جانب * بسيل عظيم جملة بعد جملة .
 ومالوا علينا كالجراد بجمعهم * بجد وعزم من خيول ومعدة .
 فكنا بطول الدهر نلقى جموعهم * فنقتل فيها فرقة بعد فرقة .
 وفرسانهم تزداد فى كلّ ساعة * وفرساننا فى حال نقص وقسيلة .
 فلما ضعفنا خيموا فى بلادنا * ومالوا علينا بلدة بعد بلدة .
 وجاءوا بأنفاط عظام كغصيرة * تهدم أسوار البلاد المنيمية .
 وشدوا عليها فى الحصار بقوة * شهروا وأياما بجد وعزيمة .
 فلما تفانت خيلنا ورجالنا * ولم نر من اخواننا من اقائسة .
 وقذّلت لنا الأقوات واشتدّ حالنا * أطعناهم بالكره خوف الفضيحة .
 وخوفنا على أبنائنا مناتنا * من ان يؤسروا أو يقتلوا شر قتلة .

والشاعر هنا يبرّر سقوط الأندلس بيد النصارى ، بأنه أمر خارج عن قدرة أهلها المسلمين الذين لم يدخروا وسعا فى الجهاد والدفاع عن الحوزة مدة طويلة ، حتى اذا ضعف عزمهم ، وقل زادهم وعنادهم ، واستنصروا فلم ينصروا ، انهال عليهم الأعداء بأعداد ضخمة ، وقوة كبيرة ، وامداد متواصل فاضطروا الى التسليم خوفا من الأسر أو الموت المحتوم ، والشاعر يحسّ أن يشمر السلطان بايزيد بمسئوليته وتقصيره لحمله يفعل شيئا من أجل أولئك

(١) آلات ضخمة تقذف الصخور المطهبة على الأسوار والمواضع فتحرق ما وقعت عليه . / أخبار العصر : ٢٢ .

المضطهدين في دينهم . والقصيدة تعتبر وثيقة دقيقة لمجريات الأحداث السياسية فهي بعد أن ذكرت وقوع الاستسلام تتحدث عن شروط الأمان الذي منحته فرناند وإيسابيلا للمسلمي غرناطة :

- على أن نكون مثل من كان قبلنا * من الديّجن من أهل البلاد القديمة .
- ونبقى على آذاننا ، وصلاتنا * ولا نترك شيئا من أمر الشريعة .
- ومن شاء منا البحر جاز مؤمننا * بما شاء من مال إلى أرض حدود .
- إلى غير ذلك من شروط كثيرة * تزيد على الخمسين شرطا بخمسة .
- فقال لنا سلطانهم وكبيرهم * لكم ما شرطتم كاملا بالزيادة .
- وأبدى لنا كتباً بعهد وموثق * وقال لنا هذا أمانى ودمىتى .
- فكونوا على أموالكم ودياركم * كما كنتم من قبل دون أذىة .

ولكن هذه الشروط التي رضيها المسلمون لم تكن أكثر من خدعة هدفها

الاسراع في تسليم المدينة ليرفع فوقها الصليب :

- فلما دخلنا تحت عقد دمامهم * بدا غدوهم فينا بنقش الحزيمة .
- وخان عهودا كان قد غرّنا بها * ونصرنا كرها بعنف وسطوة .
- وأحرق ما كانت لنا من مصاحف * وغلّطها بالنّزل أوبالنجاسة .
- وكل كتاب كان في أمر ديننا * ففي النار القوه بهز وحقرة .
- ولم يتركوا فيها كتابا لسلام * ولا مصحفا يخلو به للقسراة .
- ومن صام أو صلى ويعلم حاله * ففي النار يلقوه على كل حاله .

(١) الديّجن : مأخوذ من الألفة والاقامه ، والمقصود هنا هم المسلمون -

الذين ظلوا على دينهم بين النصارى منذ منتصف القرن السابع الهجرى أيام زهاب بلنسية واشبيلية ، وكانوا آمنين حتى إذا سقطت غرناطة ألوا إلى مال اليه الموريسكيون .

(١)

- ومن لم يجزئ منّا لموضع كفرهم * يعاقبه اللّباط شرّ العقوبة .
- وفي رمضان يفسدون صيامنا * بأكل وشرب مرة بعد مرة .
- وقد أمرنا أن نسبّ نبينا * ولا نذكرنه في رخاء وشدة .
- وقد بدلت أسماؤنا وتحولت * بأسماء أعلاج من أهل الخبابة .
- الى غير هذا من أمور كثيرة * قباح وأفعال غزار رديسة .

لقد كانت النزعة الصليبية الحاقدة هي المحرك الأول للرهبان والقسس الذين كانوا يسيرون سياسة اسبانيا النصرانية ، وكان كل ما يدور في خلد هم هو جعل غرناطة عوضا عن القسطنطينية التي احتلها المسلمون ، ولذا فقد سموا الى محو كل أثر للاسلام في تلك الديار وخاصة المصحف الشريف والكتب الاسلاميه ، وتروى الروايات أن الكردينال خميس عندما بدأ تنصيره لأهل غرناطة أمر بجمع كل ما استطاع جمعه من الكتب الاسلاميه من المدينة وما حولها فجمع منها أعداد كبيرة ومن بينها كثير من المصاحف المزخرفة ، فوضعت في أكبر ساحات غرناطة وأشعلت فيها النيران بهمجية بالغة أعدمت خلاصة تراث الفكر الاسلامي في الأندلس ، وقد استثنى منها مئات من كتب الطب والعلوم ليقوم عليها الكردينال جامعته في مدينة ألكالا ، وبالإضافة الى احراق الكتب فرض على أبناء المسلمين تعلم الدين النصراني في الكنائس ، وذلك لقطع كل صلة لهم بالاسلام منذ صغرهم وهذا ما يشير اليه الشاعر متأوها باكيا :-

- وآها على أبنائنا ونااتنا * يروحون للباط في كل فساد .
- يعلمهم كقرا وزرا وفريسة * ولا يقدرُوا أن ينمّوه بحيلة .

(١) هو الكردينال خميس زعيم محاكم التفتيش .

(٢) عنان ، نهاية الأندلس : ٣١٦ .

ثم يذكر حالة المسخ الشامل الذي أصاب البلاد عامة ، ونفى المساجد
بالنصيب الأوفر :

- وآها على تلك المساجد سورت * مزابل للكفار بعد الطهارة .
- وآها على تلك الصوامع طقت * نواقيسهم فيها نظير الشهادة .
- وآها على تلك البلاد وحسنها * لقد أظلمت بالكفر أعظم ظلمة .
- وصارت لعباد الصليب معاقلاً * وقد أمنوا فيها وقوع الاغارة .
- وصرنا عبداً لا أسارى فنفتدي * ولا مسلمين نطقهم بالشهادة .
- فلو أبصرت عينك ما صار حالنا * اليه لجادت بالدروع الخزيمة .
- فيا ملنا ، يابوس ما قد أصابنا * من الضر والبلى وثوب المذلة .

ومعد أن يوضح الشاعر الحالة المزمنة التي صار اليها الأمور يسكنون
يتوجه الى السلطان بضرعة وتوسل يستجدي عنده :-

- سألك يا مولاي بالله ربنا * والمصطفى المختار خير البرية .
- والسادة الأخيار آل محمد * وأصحابه أكرم بهم من صحابة .
- والسيد العباس مبنينا * وشيبتته البيضاء أفضل شبيبة .
- والمصالحين العارفين برهم * وكلّ ولي فاضل ذي كرامة .
- عسى تنظروا فينا وفيما أصابنا * لعل اله العرش يأتي برحمة .
- فقولك مسموع وأمرك نافذ * وما ظلت من شيء يكون بسرفة .
- ودين النصارى أصله تحت حكمكم * ومن ثمّ يأتيهم الى كل كسورة .
- فبالله يا مولاي منّوا بفضلكم * علينا برأى أو كلام بحجّة .
- فأنتم أولو الافضال والمجد والعلا * وغوث عباد الله في كل آفة .
- فسل بابهم أعنى المقيم برومّة * بماذا أجازوا الخدر بعد الأمانة .

(١) هو البابا انوصان الثامن آنذاك .

- ومالهم مالوا علينا بغدرهم * بغير أذى منا وغير جريسة .
- وجنسهم المغلوب في حفظ ديننا * وأمن ملوك ذي وفا* أجله .
- ولم يخرجوا من دينهم وديارهم * ولا نالهم غدر ولا هتك حرمة .

وهو يلج في سؤال السلطان لأنه يعلم قدرته على الإفائه ، فهو يملك الأسباب التي يستطيع بها الضغط على النصارى ، أليس هو حاكم القسطنطينية مركزهم الأول ، وتحت حكمه منهم كثير فيمكنه أن يتخذ من تهديدهم وسيلة لكبح جماح البابا وزيادته وارجاعهم الى ما ارتضوه من الشروط التي من أهمها حفظ الدين والحرمان .

ثم تكشف القصيدة عن ورود كتاب من بايزيد الثاني الى الطيكن الكاثوليكين متضمنا الشفاعة للموريسكيين وكان نصيبه الإهمال ، وربما كان هذا الكتاب نتيجة استغاثة أخرى قبل هذه القصيدة .

كما تذكر القصيدة أيضا وصول رسل سلطان مصر الى ملكي أسبانيا وكيف استطاعا خداعهم :-

- وقد بلغ المكتوب منكم اليهم * فلم يعلموا منه جميعا بكلمة .
- وما زادهم الا اعتدا* وجسرة * علينا واقدا بما بكل مسامة .
- وقد بلغت أرسال مصر اليهم * وما نالهم غدر ولا هتك حرمة .
- وقالوا لتلك الرسل عنا بأننا * رضينا بدين الكفر من غير قهرة .
- وساقوا عقود الزور من أطاعهم * ووالله ما نرضى بتلك الشهادة .
- لقد كذبوا في قولهم وكلامهم * علينا بهذا القول أكبر فريسة .
- ولكن خوف القتل والحرق ردنا * نقول كما قالوه من غير نية .
- ودين رسول الله ما زال عندنا * وتوحيدنا لله في كل لحظة .

(١)

ووالله مانرضو بتبديل ديننا * ولا بالذى قالوا من أمر الثلاثة .

ثم يقول فى آخر القصيدة مؤملا النجدة :-

- فيها نحن يامولاي نشكو اليكم * فهذا الذى نلناه من شرفركة .
- عسى ديننا يبقى لنا وصلاتنا * كماعاهدنا قبل نقضى العزيمة .
- والا فيجلونا جميعا من أرضهم * بأموالنا للغرب دار الأهنة .
- فاجلاؤنا خير لنا من مقامنا * على الكفر فى عزلى غير مطنة .
- فهذا الذى نرجوه من عز جاهكم * ومن عندكم تقضى لنا كل حاجة .
- ومن عندكم نرجو زوال كرهنا * وما نالنا من سوء حال ونذلة .
- فأنتم بحمد الله خير طوكننا * وعزكم تعلو على كل عسرة .
- وثم سلام الله تتلوه رحمة * عليكم مدى الأيام فى كل ساعة .

والقصيدة فى جملتها ركيكة الألفاظ والتراكيب ، الا أنها معبرة ، وصادقة التأثير ، وشاملة للحوادث التاريخية التى عاصرتها ، ولعل سبب ركاكتها هو العسف والبطش الاسبانى الذى شمل كل مايمت الى الاسلام والعربية بصلصة فخدمت جذوة الشعر والأدب بسرعة عجيبة ان هذه القصيدة قيلت بعد مرور عشر سنين على حطة التنصير ان لم يكن أقل ، فهى موجهة الى بايزيد الذى دام حكمه حتى سنة ثمانى عشرة وتسعمائه ، ولا بد أن تكون قد وجهت اليه قبل هذا التاريخ . وقد أشرنا فيما سبق الى أن التنصير بدأ سنة أربع وتسعمائه .

أما الشاعر الذى قال هذه القصيدة فهو شاهد عيان جرى عليه ما جاء فى قصيدته من المأسى ، ومن غير المتوقع أن نجد اسمه فى أى مصدر من مصادر

(١) هى الأقانيم الثلاثة التى يقوم عليها دين النصارى المحرف وهى (الأب ، والابن والروح القدس) . تعالى الله عن ذلك .

تلك الفترة الرهيبة ، وذلك لأن مثل هذه القصيدة تعنى أن صاحبها يأتصر
مع الدول الإسلامية عدوة أسبانيا النصرانية ، فحكمه الموت المؤكد على يده
محاكم التفتيش لمجرد أن تنسب إليه .

أما بالنسبة لصدى هذه القصيدة فهو صدى الاستغاثات السابقة ، فلم
يرد ما يشير إلى أن السلطان بايزيد الثاني قد فعل شيئاً ، وله في ذلك بعض
الأعذار التي لا تعفيه من تحمل جزءاً من تبعات ضياع الأندلس من يد المسلمين
ومن هذه الأعذار الظروف الصعبة التي واجهها بايزيد منذ بداية توليه ،
فمنذ أن توفي والده محمد الفاتح سنة ست وثمانين وثمانمائة ، وتحمل هو
أعباء الحكم أظن أخوه (جم) العصيان ، وطالبه بتقسيم الدولة العثمانية
إلى شطرين أوروبا وآسيوى ، فحاربه بايزيد واضطره إلى الفرار حيث لجأ
إلى المماليك في مصر ، ثم إلى أوروبا طالبا المون ضد شقيقه ولكنه مات
هناك سنة تسع وتسعين وثمانمائة ، وبعد ذلك كانت الجيوش العثمانية
مشتغلة بصد غارات البولنديين على بعض أقاليمها ، وكانت في الوقت نفسه
تشن هجوماً على البندقية ، وتخوض حرباً في المجر إلى أن انتهى الأمر
بالاتفاق على الصلح لمدة سبع سنوات وذلك سنة تسع وتسعمائة ، وبعد هذا
التاريخ بقليل توقفت فتوحات العثمانيين في أوروبا ، واتجهت نحو الشرق
حيث المماليك في مصر والشام ، والدولة الصفوية في إيران . ولا ندري سبب هذا
الاتجاه وترك الأندلس لمصيرها؟

(١) محمد كمال الدسوقي ، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية : ٤١ .

(٢) المرجع السابق : ٥٠ - ٥١ .

ولقد كان بايزيد نفسه ضعيفا محبا للسلم والاشتغال بالعلوم في وقت كانت الدولة المثرامية الأطراف بحاجة الى رجل شديد الحزم والقوة ، وفي سنة حكمه الأخيرة أظهر أولاده التمرد عليه ، واضطربت نار الحرب الداخلية بينهم ، وكادت تمزق الدولة لولا قوتها الكبيره ، وأخيرا سار ولده سليم الأول الى بعض نواحي الدولة وأعلن نفسه سلطانا عليها ، واستطاع أن يكسب تأييد الانكشارية الذين لم يلبثوا أن طلبوا من بايزيد التنازل عن الحكم لولده سليم ، فقبل ذلك وتنازل سنة ثمانى عشرة وثمانمائه حيث توفي بعد ذلك بزمان يسير . (١)

الخصائص العامة لشعر الاستغاثية :-

- من خلال مطالعتنا لشعر الاستغاثية يمكن أن نلاحظ الخصائص التالية :-
- أولا : الدخول المباشر في الغرض الأصلي للقصيدة ، وتجنب المقدمات التي لا تحتلها نفس الشاعر الثائره ، وخاصة عندما تكون القصيدة خلال الحصار ، والأمل في الانتقام لا يزال موجودا .
 - ثانيا : حرارة العاطفة ، وصدق المشاعر عند شعراء هذا الفن لأنهم فسوا الغالب يرون بأعينهم وطنهم يهدد وأهلهم يستباحسون .
 - ثالثا : التركيز على المعاني الاسلاميه كالأخوة ، وحق الجوار ، وفرضية الجهاد للدفاع عن أرض الاسلام ، بحيث يشعر المستغاث به أنه مسؤول ، ومحاسب أمام الله ، وكثيرا ما صور الشعراء ببراعة وقوف النبي - صلى الله عليه وسلم - خصما لمن تخاذل في الدفاع عن أمته .

(١) محمد فريد المحامى ، تاريخ الدولة العلية العثمانية : ٣٨ .

رابعاً : المبالغة في مدح المستفات به مع التركيز على الأمور الحساسة
في نفسه كذكر أصله الحريق إذا كان يفخر بذلك أو تمجيد
شجاعته وأعماله في الدفاع عن الإسلام والاختصاص في جهاد الأعداء
ابتغاء ثواب الله وجنته .

خامساً : عدم التعرض لدور الحكام الخونة الذين يمالئون الأعداء ضد
شعوبهم وسلاسلهم ويهقون رعاياهم بدفع الضرائب لتصرف على
شهواتهم ومرتزقتهم ، وسبب هذا الاعراض هو الخوف من عقاب
أولئك الحكام الذين لا يسمحون لأي صوت أن يرتفع منتقداً ، وسبب
آخر هو الخوف من تقليل حماس المرجو نصره إذا سمع أن بسلاً
الناس من حكامهم وأنفسهم .

سادساً : إبراز الدمار والخراب الذي ألحقه العدو بالمدن الإسلامية
وخاصة المساجد ومدارس التعليم إذ سرعان ما يحولها إلى كنائس
تخص بالصلبان والنواقيس ، لتبعث الشرك والجهل مكان نور الهداية
والعلم ، فيقرنون إلى عربهم العسكريه حرباً فكريه .

سابعاً : استخدام الأسلوب الخطابي والألفاظ الجرلة مع البعد عن الخيال
المجنح والتراكيب المعقدة . كما يلاحظ كثرة ركهيم للبحر الشعريه
ذات التفاعيل الكثيره كالطويل مثلاً لا تساعها لهومهم وزفراتهم
التي يطبقونها ممتدة عبر القافية المطلقة التي دأبوا على
استعمالها .

الفصل الثالث : رثاء الامارات الأندلسية :-

سنتناول في هذا الفصل الأشعار التي قيلت في رثاء امارات ملوك الطوائف عندما استولى عليها المرابطون في نهاية القرن الخامس الهجري ، وأصبحت الأندلس كلها بعد ذلك تتبع دولة المرابطين في المغرب . والواقع أنني لا أعتبر زوال ملوك الطوائف ، وانقضاء عهدهم النكد نكبة ألت بالأندلس ، بقدر ما هو نصر من الله فوّج به كرب الشعب الأندلسي على يد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين ، وأشهر هذه الامارات الفاربة امارة بني عباد فسي اشبيلية ، وامارة بني الأفطس في بطليوس ، وامارة آل صمادح في المرسية وهناك بعض الامارات الأخرى استولى عليها بعض ملوك الطوائف من جيرانهم بالخدعة حينما والحرب عينا آخر ، وكان ذلك قبل الفتح المرابطي . ومن أمثلة هذا النوع الأخير الذي استعمل فيه المكر واستغلال الضعف امارة "مريبطر" (٢) وكان أبو عيسى بن لبّون الذي كان يشغل منصب القضاء في بلنسية أيام حاكمها

(١) بلدة جبلية حصينة بالقرب من طرطوشة ، وعلى بعد عشرين كيلا

الى الشمال من بلنسية ، وهي تطل على البحر ، وتكثف فيها الأشجار وأصناف الثمار . / الروض المعطار (مريبطر) .

(٢) هو ذو الوزارتين لبّون بن عبد العزيز بن لبّون . كان من جملة أصحاب القادر يحيى بن ذي النون صاحب طليطلة وكان قائدا عسكريا وشاعرا مجودا زهد في الدنيا بعد فقد امارته وعاش خاملا الى أن مات بسرقسطه .

انظر : الحلة السيرا : ١٦٧/٢ ، المغرب : ٢٧٥/٢ - ٢٧٦ .

أبو بكر بن عبد العزيز ولما توفي سنة ثمان وسبعين وأربعمائة اضطرب حبلها وانقسم أهلها الى قسمين قسم مال الى تصييرها لبني هود أصحاب سرقسطه وقسم مال الى اسلامها لبني ذي النون حكام طليطله واستغل القبيطون هذا الوضع فمسكروا عليها وأرهقها بالضرائب . عندئذ تركها ابن لبون ولجأ الى مريطر العصينة وحكمها الا أنه لم يسلم من وطأة القبيطون ، وعند مريطر رأى أنه لا يستطيع الصمود لهذا الارهاق ، وأنف من مفاوضة القائد النصراني (١) آثر اللجوء الى جاره أبو مروان عبد الملك بن رزين حاكم شنتمرية وسلمه امارته وحصنه مقابل حمايته واجراء الرزق عليه فوافق ابن رزين وتسلم الحصن واستقدم ابن لبون وذويه الى بلاده وأنزلهم في كنفه ، ولكنه سرعان ما فاض القبيطون بالابقاء على مريطر مقابل امداد جنوده بما يحتاجون من المؤن فوافق ، عندها أخذ ابن رزين يضيّق على أبي عيسى ويقتصر عليه حتى اضطره الى الخروج من شنتمرية بعد أن سلب ملكه يندب خطبه ويرثى امارته قائلا : (٢)

- خليل عوجابى على مسقط اللوى * لعل رسوم الدار لم تتفيرا .
- فأسأل عن ليل تولى بأنسنا * وأندب أياما تقضت وأعصرا .
- ليالىّ أذ كان الزمان مسالما * وإن كان غصن العيش فينان أخضرا .
- وقد ضربت أيدي الأنان قبابها * علينا وكفّ الدهر عنا وأقصرا .

(١) مدينة بالاندلس على المحيط الأطلس ، تشتهر بالتجارة البحرية ،
 فيها دار صناعة الأساطيل ، وهى حصينة عظيمة الأسوار ، وكثيرة
 الخصب ، واليه ينسب الأعظم الشنتمرى العالم المشهور . / السروش
 المعطار (شنتمرية) .

(٢) الفتح بن خاقان ، قلائد الحقيان : ١١٤ .

(١)

فما شئت من ليهو وما شئت من د * ومن مهمم يجنيك عذبا مؤلّسا .

(٢)

وما شئت من عود يجنيك مفصحا * (سمالك شوق بعد ما كان أقصرا) .

محمد أن يمجج الشاعر الحزين على رسوم داره ويتألمها برفق ، يسبح من خلالها في بحر من الذكريات السارة التي عاشها أيام الأمان بين النساء والعود ، ولكن دوام هذه الحال السعيدة محال إذ سرعان ما تنقلب السعادة إلى شقاء مؤس ، لأن هذا هو دين الحياة :-

- ولكنّها الدنيا تخادع أهلها * تغربصفو وهي تطوى تكذّرا .
- لقد أوردتني بعد ذلك كله * موارد ما ألّفت عنهن مصدرا .
- وكم كابدت نفسي لها من طمسة * وكم بات طرفي من أساها مستهدا .
- خليلي ما بالي على صدق عزمتي * أرى من زمانى ونية وتعمدا .
- لأن ساء تمزيق الزمان لدولتي * لقد رت عن جهل كثير مصدرا .
- وأيقظ من نوم الفرارة نائما * وكسب علما بالزمان والسورى .

والشاعر رغم ما جرّعه الدهر من الفصص بتمزيق دولته وتشريدته فإنه لم يهن ولم تضعف همته وعزيمته بل ازداد تبصرا وعلما بالحياة والناس ، ولعلّه في البيت الأخير يلجج إلى غدر صديقه به الذي لم يكن يتوقعه . والأبيات في جملتها تسلك سبيل الحكمة والحظّة ، ويبدى فيها الشاعر تجلده للخطوب (٣)

أكثر من حزنه على وطنه فالبلاد كلها عنده سوا فهو القائل :-

- وكنت إذا ما بلدت لي تنكّرت * شددت إلى أخرى ملوّا ابائى .
- وسرت ولا ألقى على متعمّدا * وصمت لا أضفى إلى النصحا .
- كسم تبدت للعيون بمشروق * صباحا وفي غرب أصيل مسحا .

(١) الدد : اللهو واللعب : الصحاح (د د) .

(٢) الشطر لا مرئ القيس ، وعجزه " وحلّت سليمان بطن قوّفعرعرا . انظر :

ديوانه : ٣٠ .

(٣) القلائد : ١١٥ .

وهذا التجوال في البلاد من قبل الحكام الذين يفقدون ملكهم نجسته كثيرا في هذا العصر المضطرب فإذا ما استولى أحدهم على ملك الآخر ، فسرّ المطلوب طالبا النجدة من النصارى أو من غيرهم من المرتزقة مقابل أموال ووعود فيخبر هؤلاء على مدينة أو حصن وينصبون صاحبهم حاكما عليه ، ومن هنا كانت الجذور التي تربط هؤلاء الأُمراء بالبلاد ليست عميقة ، وصلاتهم مع الشعوب غير وثيقة بسبب التسلط والقهر .

رثاء امارة بنى عباد :-

بنو عباد من البيوت الحريقة في الأندلس ، فهم ينتسبون الى قبيلة لخم العربية اليمانية ، وكان أجدادهم من الداخلين الى الأندلس مع جيوش الفتوح ، ولكن نجمهم لم يلمع الا في آواخر الدولة الأموية عندما كان الحكم بيد الحاجب المنصور بن أبى عامر الذي عين رأس هذه الأسرة آنذاك أبى الوليد اسماعيل بن عباد قاضيا لمدينة اشبيلية ، وكان هذا القاضى على درجة كبيرة من المروء وحسن الخلق اضافة الى الدهاء والسخاء ، وذلك استطاع أن يستميل قلوب الناس اليه حتى اذا انقضى حكم بنى عامر ، وبدأت الاضطرابات والانقلابات تجتاح الأندلس أخذ يعطى فى صمت وهدوء على جمع خيوط الرئاسة فى يده فتم له تكوين النواة الأولى لدولة عبادية فى اشبيلية ، ثم توفى وخلفه ولده أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد سنة أربع عشرة وأربعمائة واستبد بالأمرو وحشد الرجال والسلاح ، وحاول أن يوسع امارته فاشتبك مع جيرانه أصحاب بطليوس الجبل وغيرهم وكانت الحروب سجالا يتخللها أحيانا

(١) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب : ٣٤٨ .

(٢) ابن الأبار ، الحلة السيرا : ٣٦/٢ .

(٣) عنان ، عصر الطوائف والمرايين : ٣٤ .

استيلاء* أحدهم على بعض ما في يد الآخر . وهكذا ظل ابن عباد في حسروب
مستمره حتى توفي سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة بعد أن هزم هزيمة شنيعة
قتل فيها ولده الذي كان يقود جيوشه ثم ولي الأرم بعد ذلك ولده الآخر
أبو عمرو عباد بن محمد الطقب بالمعتضد بالله وكان هذا داهية سفاحا
(١)
عظيم الفتك حتى بأقرب الناس اليه ، وكان أيضا يضطرم حماسة للحرب والتوسع
فمنذ أن اعطى العرش الاشبيلي وضع خطته للقضاء على امارات غرب الأندلس
وضمها الى بلاده ، فجهز لذلك الجيوش وبدأ بغزو تلك الامارات الصغيرة
وارهاقها ، وحاول أمراؤها دفع خطرهم بدفع الجزية له ، ولكنه رفض حتى تتم
(٢)
تسليمها الواحدة تلو الأخرى في حوادث يطول شرحها ، وما هي الا سنوات
قليلة حتى أصبحت دولته تشمل سائر الأراضى المعتضد من شاطئ نهر
الوادى الكبير غربا حتى المحيط الأطلسى ، ولم يقنع المعتضد بهذا الفتح
بل دعت شهوة الحكم السيطرة الى ضم الامارات البربرية الصغيرة القائمة
في جنوب الأندلس شرق الوادى الكبير ، وسلك المعتضد مع زعماء هذه الامارات
في البدايه سبيل الصداقة والود ، وتبادل الهدايا ليستفيد منهم في حرب
أعدائه ، أوليكسب حياتهم على الأقل ، وهو في أعماق نفسه يفسر لهم
الكيد ، ويتحين الفرص لاستئصال جذورهم ، وفي سنة خمس وأربعين وأربعمائة
دبر المعتضد لأمر* البربر مكره قبيح بها عليهم وأهلكهم ، وذلك عند ما
دعاهم لزيارته باشبيلية فلبوا معهم وفد من رؤساء قبائلهم ، فاستقبلهم
المعتضد بحفاوه ، ولكنه في اليوم التالي انفرد بالأمراء وأخذ يوجههم على

(١) الذخيره : ق ٢ ، ج ١ ، ص ٢٤ .

(٢) البيان المغرب : ٢٩٥ / ٣ - ٢٩٨ .

(٣) عنان ، المرجع السابق : ٤٥ .

على تقصيرهم في مساعدته أثناء حربه لأعدائه ، ثم أمر بالقبض عليهم وادخالهم
الحمام واضرام النار فيه حتى احترقوا ، ثم سار بعد ذلك بجيوشه ونازل تلك
الامارات فاستولى عليها تباعا وأهمها أرگن وقرمونه ورنده ، وهذا أصبحت
اشبيلية عاصمة لامارة شاسعة المساحة ، غنية الموارد ، عظيمة القوة العربية
وهذا المحتشد - برغم قسوته وخساسة وسائله - أمير أمراء الأندلس ، ودولته
أعظم ممالك الطوائف ، وأفسح فناءه للشعراء والأدباء ونظم بعضهم في سلك
وزارته ، كابن زيدون الشاعر المشهور ، وكان المحتشد نفسه شاعرا أدبيا .

(٢)

يقول الحميري : " كان أبو عمرو بن عباد صاحب اشبيلية ، من أهل
الأدب البارع ، والشعر الرائع ، والمحبة لذوى المعارف ، وقد رأيت لـه
سفرا صغيرا في نحو ستين ورقة من شعر نفسه " .

ورغم هذا المجد الذى بناه المحتشد على حساب جيرانه من ملوك الطوائف
والبلاط الفخم الذى اتخذه ، وشدة البطش التى عرف بها رغم ذلك كله
كانت هناك نقطة سوداء خضت من مكانته ، وهى دفعه الجزية لطك قشتالة
النصراني فرناندو الأول مقابل سكوتة عن غزوه والتعريض لامارته ، وظل

(١) أرگن : مدينة حصينه بالأندلس ، على نهر وادى لكه ، قديمة

البناء ، خربت مرارا وعمرت ، وتشتهر بانتاج الزيتون . / الروى
المحطار (أرگن) .

قرمونه : تقدمت ترجمتها في الفصل الأول من هذا الباب ، عند
رثاء اشبيلية .

رنده : مدينة قديمة في جنوب الأندلس ، عظيمة الحصانة والامتناع ، تقع
على نهر ينسب اليها ، ويصب في نهر لكه ، وتكثر حول رنده العيون
والقرى . / الروى المحطار (رنده) .

(٢) جذوة المقتبس : رقم ٧٦٢ .

المعتمد يؤديها صاغرا لفرناندو ثم لولده سانشو من بعده حتى توفي سنة
(١)
احدى وستين وأربعمائة . وتولى الحكم بعده ولده أبو القاسم محمد المطقوب
بالمعتمد على الله .

وكان أسمع من أبيه وألين جانبها الا أنه كان مولعا بالخمر منخما ففى
(٢)
اللذات ، عاكفا على البطالة وقد خاض المعتمد مثل أبيه سلسلة من الحروب
والأحداث كان من نتائجها المهمة الاستيلاء على قرطبة وضمها لاسبيليه سنة
(٣)
اثنين وستين وأربعمائة ، ثم اشتغل المعتمد بحرب البربر أصحاب امارة غرناطة
وعلى رأسهم عبد الله بلقين وأخوه تميم حاكم مالقة ، ولما أزهقهم المعتمد
بن عباد بغاراته المتكررة فكر الأمير عبد الله بالاستعانة بالنصارى ، وتم ذلك
على أن يدفع جزية سنوية محددة ، مقابل أن يمدد النصارى بسرية من الجند
لمحاربة المعتمد ، فقبول بذلك شوكته واثار في أرض اشبيليه واسترد بعض
الحصون التي كان المعتمد قد استولى عليها من قبل . عندئذ رأى المعتمد
أن يسلك طريق خصمه فأرسل وزيره الشهير أبا بكر بن عمار الى الانفونش
ملك النصارى بقتاله وعقد معه معاهدة تقضى بأن يدفع ابن عباد الجزية
ويلزم الصمت اذا ما فعله الانفونش بالامارات الاسلاميه وخاصة طليطله السقى
قرب سقوطها بيده ، ويتعهد الانفونش مقابل ذلك بمساعدة المعتمد فى
حروبه ضد ملوك الطوائف عامة ، وقد تحدثنا عن هذه المعاهدة وآثارها فى
الفصل الأول من هذا الباب عند ذكر سقوط طليطله . وقد كانت هذه المعاهدة
الدينية مالا لیس على المعتمد وعده بل على الأندلس عامة ودلت على استهتار

(١) البيان المغرب : ٢٨٤/٣ .

(٢) الحلة السيرا : ٥٤/٢ .

(٣) عنان ، عصر الطوائف والمرابطين : ٦١ .

المعتمد بالدين وتضحيتهم بالمسلمين وأوطانهم مقابل جلوسه على عرش
مزعزع مهزوز . فقد أصم أذنيه عن صرخ اخوانه المسلمين في طليطلة ،
وقعد عن نصرتهم أو امدادهم بشئ من المון حتى اضطروا الى التسليم ،
وذهبت كبرى حواضر الأندلس من قبضة الاسلام الى الأبد ، ولم يدرك المعتمد
فداحة جرمه وخطئه الا بعد أن تمكن النصارى من المدينة وبعث اليه الانفونش
سفارته المعتاده لتحصيل الجزية وكان على رأس هذه السفارة وزير الانفونش
(١)
(ابن شاليب اليهودى) وكان شديد الفطوسة والحقده على المسلمين ،
فرفض الذهاب الذى قدم اليه زاعما أنه من عيار زائف وطلب تغييره ، وتسليم
بعض الحصون زيادة على ذلك ، كما نقل الى ابن عباد رغبة سيده الانفونش
بالسماح لزوجته أن تقيم بمدينة الزهراء قرب قرطبة لتتمتع بطيب هوائها ،
ومن هناك تختطف الى جامع قرطبة لتضع حملها فى الجانب الغربى منه
لأن ذلك الموضع كانت تقوم عليه كنيسة معظمة عندهم ألحقها المسلمون بالجامع .
وزاد اليهودى فى طلباته بجفاً وظلظة ، فغضب المعتمد من ذلك وأمر
بقتله وصلبه والقبحى على من معه وزجهم فى السجن . ولما علم الانفونش
بذلك استشاط غيظاً ، وأقسم على غزو اشبيلية والانتقام من المعتمد وسدأ
على الفور باعداد جيوش جرارة لالتهام امارات الطوائف جميعاً ، وسكّر
بجيشه على ضفة نهر الوادى الكبير قبالة قصر المعتمد وكتب اليه يقول :
" وقد أبصرت منازل بطليطلة وأقطارها وماحاق بأهلها حين حصارها .
فأسلمتم اخوانكم ، وحالتم بالدعة زمانكم ، والحذر من أيقظ باله ، قبل

(١) البروس الميطار (الزلاقه) .

(٢) وفيات الأعيان : ٢٨/٥ .

(٣) الحلل الموشيه : ٣٩ .

الوقوف في الحباله ، ولولا عهد سلف بيننا نحفظ ذمامه ، ونسعى بنسـ
الوفاء أمامه ، لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورائده ، ووصل رسول الخـ
ووارده ، لكن الأقدار تقطع الأعذار ، ولا يجعل الا من يخاف الفوت فيما يرومه ،
وخش الخلبة على ما يسومه " وقد رد المعتمد على هذه الرسالة
(١)
بكتاب فيه كثير من الجرأة والحزم ومنه : " انما كانت سنة سعد أيقظ
منها مناديك ، وأغفل عن النظر السديد جميل مهاديك ، فركبنا مركب
عجز نسخة الكيس ، وعاطيناك كؤوس دعة ، قلت في أثنائها ليس ، ولم
تستح أن تأمر بتسليم البلاد لرجالك ، وانا لنعجب من استعجالك بسرأى
لم تحكم أنحاؤه ، ولا حسن انتحاؤه ، وأعجابك بصنع وافقتك فيه الأقدار
واغتررت بنفسك أسوأ الاغترار ، وتعلم أنا في العدد والعريد ، والنظر
السديد ، ولدينا من كفاة الفرسان ، وحيل الانسان ، وحماة الشجعان ، يوم
التقى الجمعان رجال تدرعوا بالصبر ، وكرهوا القبر ، تسيل نفوسهم على
حد الشفار ، ومنعاهم المنام في القفار والذي جراك على طلب
ملا تدركه قوم كالحر ، طنسوا الماقل لا تعقل ، والدول لا تتقل ، وكان
بيننا وبينك من المسالمة ، ما أوجب القعود عن نصرتهم ، وتدبير أمرهم
ونسأل الله المغفرة فيما أتينا في أنفسنا ، وفيهم من ترك الحزم واسلامهم
لأعاديهم " ويلاحظ في هذه الرسالة اظهار المعتمد لندمه على
ما فرط من قبل في اخوانه المسلمين أهل طليطله ، ثم أخذ المعتمد يفكر
في طلب النجدة من المرابطين فيما وراء البحر لعلمه بحماسهم للجهاد ومقارعة
الكفار ، ولكنه وجد من ابنه الرشيد بعض المعارضة لتخوفه من عير المرابطين

(١) المصدر نفسه : ٤٠ .

الى الأندلس واستيلائهم عليها ، فشرح له المعتمد خطورة الموقف ، وقسوة
النصارى ، وضعف ملوك الطوائف وتخاذلهم بحيث لا عون يرجى منهم ، فلما ناس
(١)
من استدعاء المرابطين ثم قال : " أى بنى والله لا يسمع عنى أبداً أنى أعسدت
الأندلس دار كفر ، ولا تركتها للنصارى ، فتقوم على اللعنة فى منابر الاسلام
مثل ما قامت على غيرى . أطلب أن أكون راعى الجمال من أن أكون راعى الخنازير " وانضم
الى المعتمد فى رأى ذلك عدد من ملوك الطوائف الذين أحسوا بالخطر ومنهم أميراً غرناطة
وطليوس ، واتفقوا جميعاً على ارسال سفارة مكونة من قضاة قرطبة وغرناطة
وطليوس الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين عاهل المرابطين ، ولما وصلوا
اليه استقبلهم بحفاوة بالغة ان عرف بحبه وتعظيمه للعلماء والفقهاء وسلموه
(٢)
كتاب الاستغاثة من ابن عباد الذى جاء فيه : " ونحن أهل هذه
الأندلس ليس لأحد منا طاقة على نصرته جاره ، ولا أغيه ، وطوشاؤوا لفظوا
الا أن الهوان منعهم من ذلك ، وقد ساءت الأحوال ، وانقطعت الأسال
(٣)
وأنت - أيدك الله - ملك المغرب أبيضه وأسوده ، وسيد حمير ، وملكها
الأكبر ، نزعنا بهم حتى اليك ، واستنصرت بالله ثم بك ، واستغشيت
بحرمكم لتجوزوا لجهاد هذا العدو والكافر ، وتحياو شريعة الاسلام ، وتذبوا
عن دين محمد طيه الصلاة والسلام " .

(١) الإشبيلي ، ربحان الألباب وريحان الشباب فى مراتب الآداب : لوجه
١٤٠ م .

(٢) الحلل الموشيه : ٨٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٤٦ .

(٤) يخاطبه المعتمد بالنسب الحميرى ليقرب النسب بينه وبين يوسف إذ كل
منهما من القبائل اليمانية القحطانية .

وكتاب آخر من ابن الأفلح صاحب بطليوس يقول فيه ^(١) : "لما كان نسور
الهدى - أي ذلك الله - دليلك وسبيل الخير سبيلك وضح العلم بأنفسك
لدولة الاسلام أعز ناصر ، وعلى غزو الشرك أقدر قادر ، وجب أن تستدعى
لما أعزل الداء ، وتستغاث فيما أحاط بالجزيرة من البلا ، فقد كانت طوائف
العدو وتطيف بها عند افراط تسلطها واعتدائها ، تُلَاطف بالاحتياض وتُستنزَل
بأموال ولم يزل دأبها الشطط والعناد ، ودأبنا الانعان والانقياد . . .
وقويت أطماعهم في افتتاح المدن ، وأضرمت في كل جهة نارهم ، ورويت من
دما المسلمين أسنتهم وشفارهم وما أحضكم على الجهاد بما فسى
كتاب الله فانكم له أتلوا ، ولا بما في حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
فانكم إلى معرفته أهدي وعلى الفور جهز يوسف جيوشه وجر بهم
إلى الأندلس ، ولحقه ملوك الطوائف وفي مقدمتهم المحتمد أجمل لقا ، وقد سوا
ما يستطيعونه من المؤونة والأموال والهدايا ، وساروا مع جيوش المرابطين
تتبعهم جيوش الأندلس إلى بسط من الأرض شرق بطليوس يعرف بالزلاق -
وهناك دارت معركة عنيفة حاسمة بين المسلمين والنصارى ، انهزم فيها النصارى
هزيمة شديدة قلعمت تشوفهم إلى الأندلس مدة طويلة ، وغنم المسلمون
غنائم كثيرة عفا عنها أمير المسلمين وآثر بها ملوك الأندلس إذ أن مقصوده
كان الغزول والنهب ، فعظم قدره في أعين الملوك والناس ، وكثر الدعا له
على المنابر ، ثم إنه أقام في الأندلس مدة من الزمن بعد الزلاقه اطلع من
خلالها على حال المحتمد اللاهية ، ووردت عليه الرعايا تشكو الظلم الذي تجده
من حكامها وتدعوه لأخذ حقوقها ، فكان يقول لم تأت لهذا ، والسلطين
(٢)

(١) الحلل الموشيه : ٣٤ - ٣٥ .

(٢) وفيات الأعيان : ١١٢/٢ .

(٣) مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين المسماة بكتاب التبيان : ١٠٧ .

أعلم بما يصنعون في بلادهم " ولم تقتصر الشكوى على الرعية فحسب بل
ان الأمراء أنفسهم أخذوا يشكون اليه ما يجدونه من بعضهم ، ولكنه أوصاهم
بالاتفاق والاتلاف ووحدة الكلمة ورجع الى عاصمته مراكش في آخر سنة تسع
وسبعين وأربعمائة وبقى الى سنة احدى وثمانين وأربعمائة حيث ورد عليه
صريح الأندلس مرة ثانية ، وكان الصريح هذه المرة من منطقة شرق الأندلس
بلنسية وموسيه ، وطورقه وغيرها حيث كان القبيطون يحاصرون بلنسية ويهلك كل
ما تصل اليه يده ، والنصارى القشتاليون اجتاحت المنطقة الواقعة بين مرسية
(٢)
وطورقة ، وعمدوا الى انشاء حصن ضخم على جبل شاهق بين المدينتين وشحنوه
بالرجال والسلاح ، واتخذوه قاعدة للاغارة على ما حوله من المناطق حتى
ضجت منازل بها من الضر وعجزت قوات الأندلس المحلية عن رد المدد وان
وكان الأمل الوحيد هو أمير المسلمين ، وكان الرسول اليه هذه المرة هو المعتمد
نفسه ان كان هو الحاكم الشرعي لتلك المناطق المهددة ، وان كانت حالها
قد استبد بها بعض القواد والوزراء ، وقد يكون جوازه للتضييق على هؤلاء
كابن رشيق المستبد بموسيه بعد أن فتحها باسم المعتمد . وعلى أي حال
(٤)

-
- (١) مدينة أندلسية شهيرة على نهر شقوره ، بناها الأمير عبد الرحمن بن
الحكم ، وهي في مستو من الأرض ، وحولها قرى عامرة تشقها الميماة .
وتشتهر مرسية بخصبها ، وصناعة البسط الرفيعة . / الروض المحطار
(مرسية) .
- (٢) من معاقل الأندلس الحصينة ، على ظهر جبل وينها بين مرسية
أربعمائة ميلا ، وهي ذات أسواق عامرة وتوجد فيها أصناف من المعادن
الثمينه وتتبعها قرى كثيرة عظيمة الخصب / المصدر السابق (لورقه) .
- (٣) الحلل الموشيه : ٦٨ .
- (٤) مصداق عوفى الكريم ، الأدب الأندلسي في عهد المرابطين : ٨ .

فقد أعد ابن تاشفين جنوده للجهاد ، وعبر بهم البحر الى الأندلس ، وطالب من ملوك الطوائف أن يوافوه عند الحصن المذكور ففعلوا ، وكان الحصن في غاية النعمة فحاصروه مدة أربعة أشهر ولم يستطيعوا اقتحامه ، وعلما أيضا أن الانفوس قد تحرك في جيش لانقاذ الحصن فانصرفوا عنه ، فقدم عليه فوجد قومه قد أنهبهم الحصار فأخرجهم منه وأحرقه . وقد أطلع أمير المسلمين في هذه الفزوة على فساد دخيلة أمراء الطوائف ، فقد أخرجوا أضغانهم الدفينة على بعضهم ، فهذا ابن عباد يشكو ابن رشيق الذي اغتصب منه مرسية ويتهمه بالتعاون مع النصارى المحاصرين ، فيستفتي أمير المسلمين الفقهاء بشأنه فيرون سجنه ، ثم يأتي عبد الله بن بلقين أمير غرناطة ليشكو أخاه تميما حاكم مالقة متهما إياه بسلبه ميراث أبيه ، وتنشب بعد ذلك المشاجرات بين الأُميرين المتنافسين المعتمد بن عباد والمعتصم بن صمادح حاكم المرية وكان كل منهما يحاول أن يوفّر صدر أمير المسلمين على الآخر بكشف مفسده وخيانتة ، وكان المعتصم يذكر ليوسف كبر ابن عباد وأعجابه بنفسه وزعم أنه قال - وقد قال له المعتصم : طالت إقامة هذا الرجل بالجزيرة - لو صوّجت له اصبعي ما أقام بها ليلة واحدة هو ولا أصحابه وكأنك تخاف غائلته ، وأي شيء هذا المسكين وأصحابه ؟ انما هم قوم كانوا في بلادهم في جهد من العيش ، وغلاء من السعر ، جئنا بهم الى هذه البلاد نطعمهم حسبة وائجارا ، فانا شعبوا أخرجناهم عنها الى بلادهم الى مثل هذه الأقوال من تحقيرهم . وجاءت الرعية - أيضا - يقدمها العلماء والقضاة الى أمير المسلمين تشكو اليه ثقل الضرائب والمغارم ، فأمرهم بعدم دفعها

(١) التبيان : ١١١ .

(٢) المراكشي ، المعجب : ٦٨ .

(١)

حتى أقضت خزائن الأمراء ولم يستطيعوا فعل شيء مع المعتصمين . كل هذه الأمور جعلت أمير المسلمين يفادر الأندلس مخضبا وقد تغيرت نفسه على أمراء الطوائف ، ورأى منهم وسمع مالم يرمعه مجالا لبقائهم حكاما للمسلمين ، ولما رأى أمراء الطوائف ذلك من أمير المسلمين سارعوا الى دفع الجزية للنصارى مقابل حمايتهم من المرابطين ، وكان أول من فعل ذلك منهم صاحب فرناطيه . فلما وقف أمير المسلمين على ذلك اشتد حنقه وخاصة عندما ظفر بكتائب ابن عباد الى الانفوش طالبا حمايته أيضا . . . عندئذ استفتى أمير المسلمين الفقهاء والقضاة في الأندلس والمغرب بشأن أمراء الطوائف فأفتوا بعدم صلاحيتهم للحكم ووجوب انتزاع الأمر من أيديهم ، كما صارت اليه فتاوى أهل المشرق مسن الأعلام كالغزالي والطرطوشي مؤيدة للحكم السابق ، فعزم حينئذ على تخليص الأندلس منهم فجهز لذلك عدة جيوش تحت إمرة ابن عمه سير بن أبي بكر وعبرت الى الأندلس في سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة ، حيث بدأت بفرناطيه فاحتلها وسبق أميرها عبد الله بن بلقين أسيرا هو وأخوه تميم حاكم مالقة الى المغرب حيث استقروا أخيرا في مدينة أغصات ولا نجد شيئا من الشمر في رثاء هذه الامارة ربما لكون الحكام من البربر فلم يهتموا بالأدب والشعر لقلّة معرفتهم فيه ، وذكروا الرعية لهم وتغنيها زوال حكمهم .

ثم سارت جيوش المرابطين نحو اشبيلية وحاصرتها بشده ، وأهدى المعتصم رسالة شديدة في الدفاع عنها لو أبداها في محاربة النصارى لحفظ ما وجهه ، واقتحمت المدينة في النهاية ، وقبض على المعتصم وذويه وأخذ أسيرا الى أغصات ودخل المرابطون اشبيلية سنة أربع وثمانين وأربعمائة . (٤)

(١) التبيان : ١٠٩ .

(٢) روض القوطاس : ٩٩ .

(٣) تاريخ ابن خلدون : ١٨٨/٦ .

(٤) الحلل الموشيه : ٧٣ .

ولقد كانت شهرة المعتمد كشاعر أكبر من شهرته كملك ، فشعره في الأسر ومافيه من الآلام والحسرات هو الذي أثار عطف الناس على قضيته وأعمالهم عن كل أخطائه السياسي واستهتاره بالقيم الاسلاميه ، ولو أنه قل فتد غيول المرابطين مدينته لما سمعنا له ذكرا ، ومن جهة أخرى كان المعتمد راعى شعراء الأندلس كلها يتهافتون على فناء تهافت الطير على الحب ، لما كانوا يجدونه منه من البذل السخى والهبات الوفيرة والمجالس الخاصة التي تفضى بأنواع اللهو واللطذات ، ولذلك فاننا نجد شعرا كثيرا في رثاء بني عباد من شعرائهم الرسميين وغيرهم . فهذا ابن اللبانة شاعر البلاط يقول :-

تبكي السماء بدمع رائج غادي * على البهاليل من أبناء عباد ،
على الجبال التي هدّت قواعدها * وكانت الأرض منهم ذات أوتاد .
والرابيات طيها اليناعات ذوت * أنوارها ففدت في خفي أوهاد .
عريسة دخلتها النائبات على * أساود لهم فيها وآساد .
(١) (٢) (٣)

(١) هو أبو بكر محمد بن عيسى من أهل دانيه (على ساحل البحر) كان متكسبا بالشعر قصد الطوك ونال جوائزهم وانقطع للمعتمد بن عباد واللبانة والدته كانت تشتغل ببيع اللبن وشعره لطيف نبيل المأخذ وشيق الألفاظ رحل الى جزيرة ميورقه بعد موت المعتمد ومدح حاكمها وتوفي سنة ٥٠٧ / انظر الذخير ق ٣ ج ٢ ص ٦٦٦ ، البخيه : رقم ٢١٣ ، الوافي بالوفيات : ٢٩٧/٤ . المغرب : ٤٠٩/٢ - ٤١٦ . الخريده : ١٠٧/٢ . قسم شعراء المغرب والأندلس .

(٢) القصيده في القلائد ص ٢٥ ، مجيد السعيد ، شعر ابن اللبانة الداني : ٣٠٩ .

(٣) العريسة : مأوى الأسد . الصحاح (عرس) ، الأساود : الحيات - العظيمة ، المصدر نفسه (سود) .

- وكعبة كانت الآمال تعمرها * فاليوم لا عاكف فيها ولا بساد
- لما دنا الوقت لم تغلف له عدة * وكلّ شيء لميقات وميمسار
- كم من درارى سعد قد هوت ووهت * هناك من درر للمجد أفسراد
- (١) • نوره ونور ، فهذا بعد نعمته * ذوى ، وذلك خبا من بعد ايقاد

ان الشاعر هنا قد هزّه المصاب الجلل بفقد أوليا تحمته الكرام ، فجعل كلّ شيء يشاركه عزه فالسما تسكب الدمع غزيرا ، والنجوم خبا نورها ، والزهر قد ذوى وذبل ، فالكون فى مأتم بعد أن كان فى عرس أيام عزهم ، وكيف لا يكون كذلك ، وقد كانوا كعبة الآمال مفقدهم تعطّل كل شيء :-

- يا ضيف أقفربيت المكرمات فخذ * فى ضمّ رحلك واجمع فضلة الزاد
- وهامؤمل واديههم ليسكنه * خفّ القطين وجفّ الزرع بالوادى
- ضلت سبيل الندى بابين السبيل فسر * لغير قصد ، فما يهديك من هادى
- وأنت يا فارس الخيل التى جعلت * تختال فى عدد منهم وأعداد
- ألق السلاح وغلّ المشرفى فقد * أصبحت فى لهوات الضيغم العادى
- (٢) • "لا عطر بعد عروس" فى عديثهم * قد أقفر الحى من هند ومن عاد
- غابت عن الفلك الأرض أنجمهم * فليس للسعد فيهم نور اسعد

فالمكرمات الواسعة قد اضمحلت ، والشجاعة والفروسية لم بعد يحرفها أحد بعد رحيلهم وذلك حكم المقادير التى لا تبقي على أحد مهما بلغ شأنه :-

هى المقادير لا تبقي على أحد * وكلّ ذى نفس فيها لامداد

وأسوة لهم فى غيرهم حسنت * فما شماتة أعداء وحساد

(١) النور ، والنوار : الزهر . اللسان (نور) .

(٢) مثل يضرب لمن لا يدّخر بعده نفيس . أنظر الميدانى ، مجمع الأمثال :

(١)

- أن يخلعوا فبنو العباس قد خلعوا * وقد خلت قبل حمص أرض بغداد .
- نقول فيهم وهم أطل برامكة * فالحال ذا الحال افساد كافساد .
- كانت أسرتها من فضلها بهم * مثل الضابر أعواد بأعواد .
- آتوا إلى الله في أيامهم فلقوا * كانت لنا مثل أعراس وأعياد .
- تباعدوا إذا اقتهم عواد ثمال * برح العذاب وما أدانوا بالحداد .
- ذلوا وكانت لهم في المزمرة * تحط مرتبة عاد وشهاد .
- كانوا ملوكا ملوك الأرض فأنصرفوا * ومالهم حومة فيهم ولا نساد .
- حموا حريمهم حتى إذا غلبوا * سيقوا على نسق في جبل مقصاد .
- تبدلوا السجن بعد القصر منزلة * وأحدقوا بلصوص عوض أجناد .
- وأنزلوا عن متون الشهب واحتطوا * فمحق دهم لتلك الخيل أنداد .
- وعيث في كل طوق من دروهم * فصيح منهمن أغلال لأجياد .
- ترى نرى بعد أن قامت قياضهم * من يوم بعث لهم فينا ومياد ؟

وهو هنا يريد أن يقطع الطريق على الشامتين والحساد بضرب أمثلة لقوم بلغوا ذروة المجد ثم أتاهم القدر المحتوم فأصبحوا أثرا بعد عين ذلك هم البرامكة وزراء الخليفة العباسي هارون الرشيد ووجه المقارنة هنا بينهم وبين آل عباس أن المصير الذي لحقه كل منهما كان بسبب السعيات والدسائس المفسدة للمودة ، ثم نرى الشاعر يتأسف على أيامهم الماضية ويتأفف من فعل الدنيا بهم عيث صاروا فيها إلى الذل والهوان بعد العز والشمخ ، وفقدت السجون المظلمة تحويهم بعد أن كانوا يرفلون في القصور الفخمة بين الحراس

(١) يشير البيت إلى خلق بني العباس واقصار بغداد قبل بني عباس وهو

خطأ إذ أن بني العباس لم يخلعوا إلا على يد التتار سنة ٦٥٦ هـ عندما

اجتاح بغداد . فرما كان البيت مدسوسا على القصيدة .

والأجناد والخدم ، كما أن دروعهم التي كانوا يعتمرون بلبسها نزعَت عنهم
وصنعت منها القيود للخيول ، وهذا ايمان في الاذلال وتعظيم للنفوس ، ومن
خلال هذه المفارقات التي يعيشها الشاعر والتي تمثل تحولا في حياته ، يطلق
زفرة بأمنية بعيدة المنال وهي أن يرجع الأحياء الى ماكانوا عليه ، وكأنهم
ولدوا من جديد : ثم ينتقل الى وصف المشهد المؤثر الذي كان يوم رحيلهم
فيقول :-

- نسيت الا غداة النهر كونهم * في المنشآت كأصوات بالحياد .
- والناس قد ملأوا العبرين واعتبروا * من لؤلؤ طافيات فوق أنجاد .
- حطّ القناع فلم تستر مغلدة * ومزقت أوجه تمزيق أبرار .
- حان الوداع فضجت كل صارخة * وصارخ من مفداة ومن فساد .
- سارت سفائنهم والنوح يصحبها * كأنها ابلّ يحدوبها الحسادى .
- كم سال في الماء من دم وكم حطت * تلك القطائع من قطعات أكباد .

انها صورة حية متحركة رسمها الشاعر المدع لركوب أسياه البحر مصفدين
كأنهم أموات في اللحود ، فالسفن التي تحطمهم تسير وسط عواصف من الصراخ
والعويل والبكاء يطلقه أولئك الناس الذين ازدحم بهم شاطئ نهر اشبيلييه
(الوادى الكبير) وهو مشهد يثير آلام النفس وأشجانها ولا شك ، ويظهر نقدار
الحب الذي يضره الشعب لقائده المعتد ، وهو موقف عمل فيه خيال الشاعر
علمه ، ان أن الحقيقة التاريخية تخالف ذلك وتشير الى أن الناس قد طّوا
(١)
الدولة العبادية وتمنوا الراحة منها . ثم يختم القصيدة بذكر كرمهم وانعامهم
عليه :-

- من لى بكم يا بنى ماء السماء اذا * ماء السماء أبى سقيا حشا الصادى .
- وأين معتمد ، نعمى يقسمها * موى وما لـ زوار مرواد .
- (١)
- وأين يوضح لى هدى الرشيد ضوى * أجلوبه فى ظلام الفى ارشادى .
- وأين لى كنف المعتمد منزلة * طوى احتفال من النعمى واعساد .
- مكارم ومعال كت بينهمها * كأننى بين روضات وأطواد .
- ان كان بعدكم فى العيش من أرب * فان فى غصن عيشى وأنكساد .
- (٢)
- ويقول ابن اللبابة من قصيدة أخرى عندما زار المعتمد فى سجنه رأى قيوده :-

- لكل شئ من الأشياء ميقات * وللمنى من منائهن غايات .
- والدهر فى صفة الحرى منغمس * ألوان حالاته فيها احتمالات .
- ونحن من لعب الشطرنج فى يده * وطالما قمرت بالبندق الشاة .
- انفض يدك من الدنيا وساكنها * فالأرض قد أقمفرت والناس قد ماتوا .
- وظل لعالمها السفلى قد كتمت * سريرة المعالم العلوى أغصت .
- طوت مظلتها لابل مذلتها * من لم تزل فوقه للعزرايات .
- من كان بين الندى والبأس أنصه * هندية وعطايه هنيئات .
- (٣)
- رماه من حيث لم تستره سابغة * دهر مصيياته نبل مصييات .

يبدأ الشاعر بمقدمة رزينة عن الغاية التى ينتهى اليها كل شئ فى هذا الوجود وهى الفناء ، ولكن لكل أجله . وقد جاءت هذه المقدمة مناسبة لنفس الشاعر التى أحست بالألم لما صار اليه أحبابها " ولكنها أعجز من أن تفعل

-
- (١) الرشيد والمعتمد هما من أبنا المعتمد بن عباد .
 - (٢) نفح الطيب : ٢٢٢ / ٤ - ٢٢٣ . ، القلائد : ٢٢ .
 - (٣) الهنيئة : المائة من الابل / اللسان (هند) .

شيئا ، لأن الناس جميعا لعب في يد الدهر يقلبها من سرور الى بؤس وكذا الحال مع المعتمد ، الرمز المشع لهذه الحياة في منظور الشاعر ، أما وقد انطفأ هذا الشماع واكتم نسوره ، فالحياة كلها ظلام ووحشة تستدعي اليأس منها ونفسي اليد . فقد انقلب كل شيء فيها الى كدر يجلب الهم والحزن فالشجاعة الفائقة والكرم الفامر كبلتهما القيود الثقيلة وميتها السهم المصيبة .

أنكرت الا التواءات القيود به * وكيف تنكر في الروضات حبات .
(١)
غلطت بين هامين عقدن لـه * وبينها فاذا الأنواع أشجقات .
وقلت هنّ ذو إبهات فلم عكست * من رأسه نحو رجله الذؤابات .
حسبتها من قناه أو أعنته * اذا بها لثقاف المجد آلات .
دروه ليثا فخافوا منه عادية * عذرتهم ، فلمدو الليث عادات .
لو كان يفرج عنه بعض آونة * قامت بدعوته حتى الجمادات .

وفي هذه الأبيات نرى الشاعر وقد أدهشته المفاجأة حينما رأى القيود تعض بساق سيده وكأنها الحيات ، فهو لا يريد أن يصدق ما يرى ولذلك يفرع الى الشك والتخمين وتغليب نفسه فيما تعتقد فبحسب القيود هامين شدت على وسطه ، أو ذو إبهات وعائم لرأسه ولكنه - رغما عنه - يخرج من صراعه النفس ليقف على واقع الأمر وحقيقة ما يشاهد فيلتمس للثقاف عذرا يزيده صاحبه فخرا وعزه ، ذلك أنه ليث عاد تخشى فتكاته فيمن حوله لو كان طليقا وخوفا من رجوع دولته وصلته مرة أخرى ان أن أتباعه ذوو عدد ووفاء .

(١) الهيمان : كيس النقود ، أو نطاق يشد على الوسط . قال ابن

دريد : أحسبه فارس معرب . / اللسان (هي) .

ثم يتطهف على أيامهم الخاليه ومآل من حظوة لديهم :-
 لهفى على آل عباد فانهم * أهلة مالها فى الأفق هالات .
 تمسكت بعمرى اللذات ذاتهم * يابئس ماجنت اللذات والذات .
 راح الحيا وفدا منهم بمنزلة * كانت لنا بكر فيها روحات .
 أرض كان على أقطارها سرجا * قد أوقدتهم بالأدهان أنبات .
 وفوق شاطئ واديهها رياض ريس * قد ظللتها من الأنشام روحات (١)
 كان واديهها سلك بلبتهم * وغاية الحسن أسلاك ولبسات .
 نهر شربت بعبريه على صبور * كانت لها فى قبل الراح سموات .
 معاهد ليت أنى قبل فرقتهم * قدمت والتاركوها ليتهم ماتوا .
 فجعت منها باخوان ذوى ثقة * فاتوا ، ولدهرفى الاخوان آفات .

والملاحظ هنا تركيزه على اللذات التى كان يقتنصها ابن عباد وصحبه ، ومن
 جملتهم شاعره ابن اللبانه فهو يقول بصراحه ان نفوسهم قد جبلت على
 حب اللهو وتمسكت به الى أن تسبب فى هلاكها .

والشاعر لا ينمى عليهم هذا ، لأنه يعتبره من سعة الملك وعزة السلطان
 فالبكر والروحيات فى ظلال الأشجار وحول خير الأنهار ، وما يتبع ذلك من
 الراح والريحان هى الحياة التى عاشها شاعرنا فى ظل سيده ، فهو عنها يتحدث
 ويصدر ، ولا يستطيع أن يخرج عن هذا الاطار فى وصفه لذكرياته ، ألا ترى
 أنه يتمنى الموت له ولبنى عباد لكونهم فارقوا هذا اللون من المعيش .

وفى قصيدته الثالثه يقول ابن اللبانه :- (٢)

(١) الأنشام : شجرتخذ منه القسي . اللسان (نشم) .

(٢) نفح الطيب : ٢٥٧/٤ - ٢٥٨ .

- أفكر في عصر مضى بك شرقاً * فيرجع ضوء الصبح عندي مظلماً
- وأعجب من أفق المجرة ان رأى * كسوفك شعاعاً كيف أطلع أنجماً
- لئن عظمت فيك الرزية اننسا * وجدناك منها في الرزية أعظماً
- قناة سعت للطعن حتى تقسّمت * وسيف أطال الضرب حتى تثلمنا (١)
- بكى آل عباد ولا كعمد * وأولاه صوب الفخامة ان همس
- حبيب الى قلبى حبيب لقلوبه * عسى طلل يدنو بهم ولعلّنا
- صباحهم كنا به نحمد السرى * فلمّا عدناهم سريننا على عسى
- وكنا رهينا الحزّ حول حماهم * فقد أجذب المرمى وقد أفتقر الحصن (٢)
- قصور خلّت من ساكنيها فما بها * سوى الأدم تمشي حول واقفة الدّم (٣)
- تجيب بها الهام الصدى ولطالما * أجاب القيان الطائر المترنّسا (٤)
- كان لم يكن فيها أنيس ولا التقى * بها الوفد جمعا والخميس مرمّسا

وهذه القصيدة لا تخرج في أفكارها عما تقدمها من قصائد فهي استشعار لما يحس به الشاعر من عمق النكبة التي بدلت ضوء حياته ظلاماً بعد أن أجذب الحصن الذي كان يرتفع فيه آمناً ، وغلّت القصور التي كانت دائمة الازدهار بالوفود والحشود . ولهذا فالشاعر سيظل دائم الحزن والبكاء :-

- (١) هو المتمدّد .
- (٢) الأدم : الظباء البيض تعلوهم غيرة . الصحاح (أدم) .
- (٣) الهام : جمع هامة وهي من طير الليل كانوا يزعمون أنها روح القتيل الذي لا يدرك ثأره تصير هامة وتزقوا عند قبره تقول اسقوني اسقوني ، فإذا أدرك ثأره طارت . وهي من خرافات العرب / الصحاح (هيم) .
- (٤) الخميس : الجيش لأنه خمس فرق : المقدمة ، والقلب ، والمهينة ، والميسرة والساق / الصحاح (خمس) .

(١)

- حكيت وقد فارقت ملكك مالكا * ومن ولمى أحكى عليك متمما .
- مصاب هوى بالنيرات من المصلا * ولم يبق فى أرض المكارم معلما .
- تضيق طوى الأرض حتى كأنما * خلقت وأياها سوارا ومحصما .
- تدبتك حتى لم يخل لى الأسى * دموعا بها أبكى عليك ولا دما .
- وانى على رضى مقيم فان أميت * سأجعل للبائكين رضى موسما .

وهذا البكاء الدائم الذى ألزم الشاعر به نفسه إنما هو من قبيل الوفاء لسيد
الذى هوى مجده بعد المنعة وليس الشاعر وحده هو الذى يملكه الأسى ،
وتضيق عليه الأرض وإنما يشاركه الكون كله ذلك :-

- بكاء الحيا والريح شقت جيورها * عليك وناح الرعد باسمك معلما .
- ومزق ثوب البرق واكتست الضحى * حداد وقامت أنجم الجوّ أفعما .
- وحار ابنك الا صباح وجدا فما اهتدى * وغار أخوك البحر فضا فما طمسى .
- وما حلّ بدر التّم بمسك دارة * ولا أظهرت شمس الظهيرة ميسما .
- قضى الله أن حطوك من ظهر أشقر * أشم وأن أمطوك أشام أدهما .
- سينجيك من نجى من السجن يوسف * ويؤمك من آوى المسيح ابن مريما .

وتظهر هنا براعة الشاعر فى استخدام أجزاء الطبيعة فى صورة نابضة
بالحزن مشحونة بالحنوطى موقفه الرثائى ، فالريح تشق الجيوب ، والرعد
يطلق صوته بالتواج مرددا اسم المعتمد ، أما البرق فقد خلق شبهه اللمع
واكتسى مع الضحى والنجوم ثوبا حالكا ، وهذه الصورة الرائعة ترفع من قدر

- (١) هو مقيم بن نهره اليربوع ، ومالك أخوه وقد أسلما أيام النجى - صلى الله
عليه وسلم - ولكن مالكا ارتد بعد ذلك فقتله خالد بن الوليد . وكان
مقيم دائم البكاء عليه والرثاء له . / انظر الاصابة : ٣/ ٣٢٦ - ٣٣٧ .
جمهرة أشعار العرب : ٢/ ٧٤٧ .

الأمير المروث حتى تقربه من منزلة الأنبياء الكرام الذين امتحنوا بالسجسنة والمطاردة من أعدائهم فأنجاهم الله ، ولهذا جاء ذكرهم في البيت الأخير .

ولعل أهم ما يميز به شعر ابن اللبانة في رثاء بني عباد الصدوق الفسنى والمطاطفة الدفاقه فقد رثى المعتمد كما يراه هو ويتصوره في النظر عين الواقع الذي كان عليه ، وقد أتاح له هذا التصور مجالا واسعا لمد أطناب الرثاء وذكر الصفات الجليله التي احتوت عليها شخصية ابن عباد ، ولا ننسى في هذا المقام الحب والوفاء الذي كان الشاعر يكتسبه لأبيه مع شئ من الأسى في رجوع عهده السابق ، هذه الأمور جعلت لغته في الرثاء قوية ، تذكر بمواقف المدح التي كان يقفها في ديوان سيده فيما مضى . وقد ألفت ابن اللبانة ديوانا شعريا خاصا في رثاء دولة بني عباد سماه " السلوك في وعظ الطوك " ولكنه لم يصل إلينا ، وأسلوبه يمتاز بالسهولة في الألفاظ واللفظة في المعاني التي يغلب عليها الابتكار ، مع ميل واضح إلى الصنعة والزخرفة البديعية واللفظية .

أما بالنسبة لشعر المعتمد في رثاء نفسه ودولته ، وأولاده فهو كثير (٢) .

يفيض بالمطاطفة والبكاء والحنين ، وسنورد منه هنا ما يحتمله البحث ، قال (٣)

من قصيدة بحث بها إلى شاعره ابن حمديس الصقلي :-

- غريب بأرض المغربين أسير * سييكي طيه منبر وسريـر .
- وتندبه البهـي الصوارم والقنـا * وينهل دمع بينهن غزيـر .
- مضى زمن والطك مستأنس بهـ * وأصبح منه اليوم وهو نفسـور .

(١) نفح الطيب : ٢٥٨/٤ .

(٢) انظر الذخيرة ، ق ٢ ، ج ١ ص ٦٢ - ٧٥ .

(٣) قلائد الحقيان : ٢٧ .

- برأى من الدهر المضلل فاسد * متى صلت للصالحين دهر ؟
 أنزل بنى ما السما زمانهم * ونزل بنى ما السما كبير .
 فماليت شمري هل ابقت ليلسة * أماى وخلفى روضة وفديسر .
 بخصبتة الزيتون مورثة العلاء * يخفى حمام أوتدن طيسر .
 بزاهرها السامى الذرى جاده الحيا * تشير الثريا نحونا ونشير .
 ويلحظنا الزاهى وسعد سموده * غيورين والصب الحب غيسر .
 تراه صيرا أو يسيرا مبالسه * ألا كل ماشا الاله يسيسر .

وهذه الأبيات زفرة حارة من الأمير الأسير أطلقها عندما شعر بذلقة
 الأسرى فى المغرب ، وأيقن بفقدان الأمل فى صفو الدهر الفرو ، ففراح
 بى طمكه المفقود الذى طالما دافع عنه بالصوارم والقنا ، وتمتع فى ظلاله
 بالعيش الرغيد ، وامتنع بطبيعته الساحره وسط روضات اشبيلية وحدائقها
 حيث كانت تقوم قصور المعتد الشوامخ التى حوت من اللهو والطرب ، مالم
 يكن بحلب لبنى حمدان ول سيف بن ذى يزن فى رأس حمدان . ولما وصلت
 القصيدة الى ابن حمدى شد رحله الى أغمات حيث المعتد قد أثقلت
 القيود فقال معارضا للقصيدة السابقه : (٣)

- جرى بك جد بالكرام عثور * وجار زمان كت فيه تجير .
 لقد أصبحت بى الظبا فى غمودها * اناثا لترك الضرب وهى ذكور .
 تجى خلافا للأمر أمورنا * ومعدل دهر فى الموى ويجور .

(١) الزاهر والزاهى من قصور المعتد باشبيلية . المصدر السابق : ٢٤ .
 (٢) النفج : ٢٧٥ / ٤ . وانظر مادة (غمدان) فى الروض الممطار .
 (٣) ديوان ابن حمدى : ٢٦٨ .

- أتيا في يوم يناقش أسسه * وزهر الدار في المروج تسدور .
 - وقد تنتخى السادات بعد خمولها * وتخرج من بعد الكسوف بسدور .
 - لئن كنت مقصرا بدار عمتها * فقد يقصر الضرغام وهو حصور .
 - أغر الأسارى أن يقال محمد * غريب بأرض المغربين أسير .
- الى أن يقول :

- ولما رحلت بالندی في أهكم * وقلقل رضوى منكم وشير .
- رفعت لسانى بالقيامة قد أتت * الا فانظروا هذى الجبال تسير .

والشاعر يحاول أن يواسي سيده ويهون عليه ما هو فيه بنسبة ما أصابه الى الحظ العاثر ، والزمان الجائر الذى ربما يبتسم مرة أخرى فتحسود الدور المحبديه الى لمعانها بعد الكسوف ، ولا عبرة بهذا الأسير والبعد عن الوطن إذ أنه لا يقل عنزمة رجل كابن عباد . والشاعر فى واقع الأمر غير مقتنع بهذا الأمل والتفاؤل وخاصة بعد أن قتل المرابطون ولدى ابن عباد بقرطبة وندده عندما حاولا المقاومة والامتناع ، فنراه يصرخ يائسا قد فقد كل شئ حوله وكان القيامة قد أرقت .

(١)

وفى رثاء قصوره ومنازله يقول المحمّد أيضا :-

(٢)

- بكى المارك فى اثر ابن عباد * بكى على اثر غزلان وآساد .
- بكت ثريباه لا غمت كواكبها * بمثل نو الثريا الراجح الفادى .
- بكى الوحيد ، بكى الزاهى وقته * والنهر والتاج ، كل ذلك بادي .
- ما السما على أفئائه درر * يالجة البحر دوى ذات انساد .

(١) القلائد : ٢٦ .

(٢) هو قصر الحكم والامارة وكان يقع فى شرق نهر الوادى الكبير . / عنان

عصر الطوائف والمرابطين : ٥٥ .

والملاحظ هنا تكراره للفظ البكا" واسقاطه على القصور ، والنهر ،
والتاج ليشعر السامع بروعة الطك وفخامة السلطان ، والتصاق
بيانيه وشيد أركانه . ومن ناحية أخرى يمكن أن نتبين محجم ابن عباس
الشعري الذي مداره على الغزل والاستمتاع بالحياة والطبيعة ، فهو لا ينفك
- حتى في رثائه - يذكر الروع والغدير ، والسهر ، والثريا ، والقصور
والطيور المفردة الخ أما ما نزل بقصوره من خراب واهمال وشيبدل
أحوال فيكتفى بذكر كلمة " بكي " لتعبر عن ذلك كله :

ومر على المعتمد وهو في معتقله سرب من القضا يرح في الفضا فهياج

وجده الى حريته المفقوده فقال :- (١)

- بكيت الى سرب القضا ان صررت بي * سواح لاسجن يهوق ولا كهل .
- ولم تك - والله المعيد - حسادة * ولكن حيننا أن شكن لها شغل .
- فأسرح لاشطى صديق ، ولا الحشا * وجيع ولا عيناى يبيكيهما ثكل .
- هنيئا لها أن لم يفرق جميعها * ولا ذاق منها البعد عن أهلها أهل .
- وان لم تبت مثل طير قلوبها * اذا اهتز باب السجن أو صلصل القفل .
- وماذا لك مما يعتريه ، وانسا * وصفت التي في جبلة الخلق من قهل .
- لنفسى الى لقيا الحمام تشوف * سوى يحب الحيش في ساقه كهل .
- ألا هم الله القضا في فراخها * فان فراخى خانها الماء والظهل .

وهو يتحنى الموت ليتخلص من حياة القيود التي تأنف نفسه منها ، وليخيب

(٢)

عن مشاهدة أولاده وهم يعيشون في بؤس وشقا بعد النعيم وفي ذلك يقول :

(١) نفح الطيب : ٢٢١ / ٤ - ٢٢٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٧٣ / ٤ - ٢٧٤ .

- ترى بناتك في الأطلال جائعة * يفرزن للناس ما يطغى قطمورا .
- برزن نحوك للتسليم خاشعة * أبصارهم حسيرات مكاسيرا (١)
- يطأن في الطين والأقدام حافية * كأنها لم تطأ سكا وكافسورا .
- لاخذ الآتشكي الجذب ظاهره * وليس الآ مع الأنفاس مطسورا .
- أفطرت في العيد لاعادت صا * فكان فارك للأكباد تفلسيرا .
- قد كان دهره ان تأمره متشلا * فردك انه دهر منهيها ومأسورا .
- من بات بعدك في طك يسرته * فأنما بات بالأحلام مفسورا .

ان الحزن والألم قد دخل الى نفس ابن عباد من جوانب كثيرة ، فهو يبكى فقد الطلح ، ويبكى ذل الاسار الذي قيد حريته ومجده ونواله ، وهنا نراه يصف بحاطفة الأبوة منظرا حزينا لبناته عندما أقبلن لتنهتته بالعيد فرأى منهن ما فطر قلبه وأدامه فالملابس بالية ، والأقدام حافية ، وأشر الجوع ياد على الوجوه المنكسرة الخاشعة من الذل ، وهذه الصورة الحزينة الموحية وأمثالها من شعر المعتمد - وان كانت لا تخلو من المبالغة - هي التي جعلت نكبة المعتمد تأخذ الطابع الأسطوري على مر العصور ، وقصد أحسن المعتمد بذلك فقال متجاهلا مع الاحساس بالعظمة الكامنة في نفسه :- (٢)

• أنباء أسرك قد طبقت آفاقا * بل قد عنن جهات الأرض اقلاقا .

• سرت من الغرب لا تطوى لها قدم * حتى أتت شرفها تنمك اشراقا .

• فأحرق الفجع أكبادا وأفلسدة * وأغرق الدمع آفاقا وأسد اقلاقا .

(١) يشير المعتمد هنا الى حادثة " يوم الطين " وذلك أن زوجته " اعتماد الزميكية " رأت الناس يمشون في الطين فاشتبهت أن تفعل مثلهم ، فأمر المعتمد بسحق كميات من الطيب وعجنها بما " الورد حتى أصبحت كالطين فخاضته مع جواربها ، أنظر : المصدر السابق : ٢٧٢/٤ .

(٢) نفج الطيب : ٢١٩/٤ .

قد ضاق صدر المصالي اذ نعت لها * وقيل : ان عليك القيد قد ضاقا .
 انى ظبت وكنت الدهر ذا غلب * للغالبين وللسباق سباقا .
 قلت الخطوب اذ لنتنى طوارقها * وكان غرس الى الأعداء طواقا .
 متى رأيت صروف الدهر تاركسمة * اذا انبرت لذوى الأخطار أرماقا .
 فنبأ أسره الفاجع قد أطلق مشارق الأرض وصفارها ، وتقروحت قلوب
 الناس هنا وهناك حزنا وألما من فعل الدهر المولع بتحطيم العظام ، فبينما
 كان ابن عباد ملء سمع الدنيا ومصرها اذا به يحويه سجن ضيق ، ويطوقه
 قيد ثقيل يطوى أخباره وآثاره .

وهكذا ظل المعتمد فى سجنه الى أن مات سنة ثمان وثمانين وأربعمائة
 ودفن بأفمات وعندما وافى العيد من تلك السنة زار الشاعر أبو بكر بن
 عبد الصمد قبر سيده المعتمد وطاف به وخسر على تربه ولثمه وأنشد :
 ملك الطوك أسامع فأنادى * أم قد عدتلك عن السماع مدواد ؟
 لما غلت منك القصور ولم تكن * فيها كما قد كنت فى الأعياد .
 أقبلت فى هذا الثرى لك خاضعا * وتخذت قبرك موضع الانشاد .

-
- (١) هو أبو بحر يوسف بن أبى القاسم خلف بن أحمد بن عبد الصمد . أصله
 من كهوة جيان ، وجدّه الأول السمع بن مالك أحد أمراء الأندلس
 قبل دخول عبد الرحمن الداخل اليها . ويبتهم مشهوراً بعلم والأدب
 والنباهة . وأبو بحر هذا شاعر ونثر مدح ، وذو روية يديها ،
 كان من جملة شعراء المعتمد بن عباد . / أنظر الذخيرة ، ق ٣ ، ج ٢
 ص ٨٠٩ ، المغرب فى حلل المغرب : ٢٠٣ / ٢ .
 (٢) أورد جزاً منها صاحب القلائد : ٣٤ ، وأوردها بطولها مصطفى
 عوض الكريم فى كتابه الأدب الأندلسى فى عهد المرابطين : ٣١ - ٣٤ .

- قد كنت أحسب أن تبدر أدمى * نيران حزن أضربت بفؤادى .
- فإذا بدمى كما أجريتـه * زادت على حرارة الأكباد .
- فالعين فى التسكاب والتهتان والـ * أحشاء فى الحراق والايقاد .
- يأيها القصر المنير أهكـذا * يمحى ضيا النير الوقاد .
- ماكان ظنى قبل موتـك أن أزر * قبرا يضم شواصخ الأطواد .
- المهضبة الشما تحت ضريحـه * والبحر ذو التيار والازباد .

يستمر الشاعر فى ذكر صفات الأمير الراحل التى هى فى نظره مشال
للكمال الانسانى فهو قائد الفرسان والكثائب يرى الهجاء روضا يانعا ،
وفبارها فى أنفه أطيب من دخان النّد العابق . وهو محل الجود والندى
متلبل الوجه لقصاده فى كل الظروف ، أما العلوم والآداب فهو حاصل
لوائها والعلم بأخبارها :

- من يفهم المعنى الخفى ومن له * صدق الحديث وصحة الايراد .
- ثم يدور الزمان دورته ويلمع بابن عباد ، وهذا ليس عجيبا لأن الأيـام
دول بين الناس وفى التاريخ أكبر دليل :

- حتى اذا ما الدهر أظهر حقهـه * والدهر للأحرار ذو أحقاد .
- ألقت بأيديها محافلـك السـتى * ملك من العقبان والامـداد .
- وتهدمت أركان كل سياسـة * وانهد حول الطك كل عمـاد .
- حازت بنو الحباس ملك أميـة * وهم ذوو الأعداد والأعداد .
- والدهر أنـهـب تبعا وجنـوده * وأزال ملك الأرض عن شـداد .

ثم يستلرد الشاعر فى ذكر النعم التى أولاها اياها المعتمد أيام حكمـه
باشبيلية ، والتى مهما رثى وهى فلن يوفيهـا حقها :-

- كم نعمة خفرا* قد ألبستني * ومواهب والبتها وأيساري .
- أفرقتني فو بحرك الطامى الذى * منع الظما* ورد كل ثصاد . (١)
- وسللت فو نصرى سيوف مكسارم * تركت سيوف الهند فير حداد .
- عادت بحارا ان سقيت ضحا ضحى * وفدت هضابا ان رفعت وهادى .
- وأقمتنى لما رأيت حوادث الـ * أيام قد أسرفن فو اقصدادى .
- فالجفن بعدك ليس يدري ما الكرى * فو دمة منهلة وسهمساد .
- وكان قلبى فوق مغلب طائر * وكان جنبى فوق شوك قتصاد .
- ان لم تطب فيك المرائى والثنا * متى فلتت بطيب الميلااد .
- ولقد تراج حبكم بجوانحى * كحتاج الأرواح بالأجساد .
- ولقد رثيت وما قضيت حقوقكم * والله يعلم ما يكن فيؤادى .

والشاعر فيما يبدو صادق العاطفة ، يتحدث عن أمير أحببه وعن واقع

عاشه فو كلفه ، وقد مرّ فو رثائه بين المعبرات المنسكة حزنا

وألمأ حين المدح لشخصية المعتمد . التى أمدته بكثير من مادة شعره .

وأما عن تأثير هذه القصيدة فو سامعها فيقول الفتح بن خاقان : " (٢)

وهى قصيدة أطل انشادها ، ونى بها اللوايح وشادها ، فأنشتر الناس

اليه وأحفلوا ، هكوا لبكائه وأعطوا وأقاموا أكثر نهارهم مطيفين به طواف

المجيج ، مديمين البكا* والمجيج ، ثم انصرفوا وقد نزلوا ما* هونهم

وأقرحوا ما* هونهم بغيض شجونهم " .

(١) الثمار : الما* القليل . الصحاح (ثمد) .

(٢) قلائد العقيان : ٣٥ .

قضية ابن حاد في اطارها الحقيقي :-

لقد شغلت هذه القضية جانبها كبيرا من جوانب الأدب والتاريخ فليس الأندلس والمغرب على وجه الخصوص ، فائنا لانكاد نجد كتابا في هذين الفنين يخلو من ذكرها ومن الخوض فيها ، ومن هنا فقد كبرت الآراء والأحكام التي تصمم يوسف بن تاشفين بالقسوة والغلظة والخشونة ، ودولة المرابطين عامة بالجهل والتخلف وصحابة الآداب والعلوم غير الشرعية ، ولعل هذه الأحكام ترجع الى عاملين اثنين هما ، الشعر ، ووجود المؤرخين المعادين له لهذه الدولة . فالشعر الذي نظمه المعتمد نفسه أو شعراؤه الذين فقدوا مصدر رزقهم بأسره على عمل السحر في نفوس الناس لما كان يحوى من مبالغات كبيرة في وصف الآلام والأحزان الرهيبة التي كان يعانيها المعتمد ونسائه الصغار من جراء السجن وقلة الزاد ، والمعاناة السيئة القاسية ، وقد قدمنا فيما سبق طرفا من هذا الشعر . أما المؤرخون فأشهرهم عبد الواحد المراكشي صاحب كتاب " المعجب في تلخيص أخبار المغرب " الذي صور إعجاب ابن تاشفين بهلاد الأندلس ، وطمعه في الاستيلاء عليها لأجل ذلك ، فقد قال عن هودته بعد الزلافة : " ورجع أمير المسلمين الى مراكش ونفسه من أمر الجزيرة المقيم المقعد ، فبلغني أنه قال لبعض ثقاته من وجوه أصحابه : كنت أظن أني قد ملكت شيئا ، فلما رأيت تلك البلاد صغرت فني صبي ملكتي فكيف الحيلة في تحصيلها ؟ " ويزيد أيضا أن أمير المسلمين كان يقول للمعتمد هلم ماجئنا له من الجهاد ، وجعل يتأفف من الإقامة بالأندلس ويتشوق الى مراكش ويقول : " كان أمر هذه الجزيرة عندنا عظيما قبل أن نراها فلما رأيناها وقعت دون الوصف . وهو في ذلك كله يسر حسوا في ارتضا " .

(١) المعجب : ١٩٩ .

(٢) المصدر نفسه : ٩٣ ، ومعنى المثل أنه يعتقد خلاف مايقول ، كالذي يتظاهر بأخذ الرغبة يحتسب اللبن من تحتها .

الى غير ذلك من أشباه هذه الروايات التي لا يوثق بصحتها فقائلها مسوؤ
 موحدى مؤمن بالعقيدة الموحديه لدرجة أنه يذكر المعجزات التي لا تصدق
 من المهري ، والتي أعلن عدد من المؤرخين شكهم فيها . فهل ينتظر
 من مثل المراكشي أن يذكر جهاد المرابطين واخلاصهم وهم أعداء قومه وبلادهم ؟
 ولعل الذى جعل أمير المسلمين يتأفف من الإقامة فى الأندلس على فرض
 صحة ذلك - هو ما رأى من اللهو والعبث والتبذير الذى كان عليه المعتد بسن
 عباد كبير أمرائها مما دفعه الى القول : ^(٢) " الذى يلوح لى من أمر هذا
 الرجل (أى المعتد) أنه مضيع لما فى يديه من الملك ، لأن هذه
 الأموال التى تحينه على هذه الأحوال لابد أن يكون لها أرباب لا يمكن أخذ
 هذا المقدار منهم على وجه العدل أبدا ، فأخذه بالظلم ، وأخرجته فسوس
 هذه الغزوات . وهذا من أفحش الاستهتار . " وإذا كان يوسف بن يوسف
 الأندلسى بدافع الطمع وحسب السيطرة فلماذا لم يحطها مباشرة بعد معركة
 الزلاقة التى جعلت أهل الأندلس يلهجون بحبه والدعاء له ولو أراد ذلك لما
 وجد مقاومة ، ولكنه أعطى أمراء الطوائف فترة خمس سنوات فلما بان هجزهم
 واختلافهم ، استفتى أمير المسلمين بشأنهم الفقهاء وعمل برأيهم وهو إزالة
 هؤلاء الحكام انقادا للمسلمين وأرضهم ، ذلك أن الأندلس لو لم تنضو تحت
 لواء المرابطين لسقطت لا محالة فى يد النصارى الملازمين لها كالسيف ، والذين
 استشرى طمعهم بعد احتلالهم طليطلة . ثم اننا لو نظرنا الى الدعاء
 الذى استفتح به يوسف بن تاشفين جوازه الى الأندلس لقدرنا قيمة أقوال
 المراكشي السابقه حيث قال عندما ركب سفينته : " اللهم ان كنت تعلم

(١) أحمد بدر ، من كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب ؛ ٢٩ .

(٢) وفيات الأعيان : ٤٨٥ / ٢ .

(٣) روض القُرطاس : ٦٣ .

أن في جوازي هذا خيرا وصلاحا للمسلمين ، فسهّل على جواز هذا البحر ، وإن كان غير ذلك فصعبه على حتى لا أجسوزه . ”

ولو أننا الآن نظرنا إلى أحداث هذه القضية نظرة شاملة بعيدة عن تأثير العوامل المختلفة لا يمكننا التعرف على واقع الحالة التي كان يعيش فيها المعتمد بالمغرب ولا نصفنا أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين مايتهم به من الغلظة والقسوة والأناحية . ولا بد أن نذكر بادئ ذي بدء أن المعتمد كان يعيش في الأندلس منقسما في الطغيات والشبهوات يهزم طغيه خيلا وسط ذلك الحشد من الشمر^(١) الذين خلدوا فيه من الأمداح ” مالمسحح به الليل لصار أضوا من الصباح . فلم تكن حياة المرابطين لتعجبه ولو وضعوه في قصر أمير المسلمين نفسه ، وهل يرضى المعتمد المتعم بخبز الشعير ولحم الابل اللذين كانا غذا^(٢) أمير المسلمين الدائم كما يشهد بذلك المستشرق أشباح بالرغم من عداوته الشديد للمرابطين . ان يقول : ” قد بلغ من اعتدال^(٣)ه ، وتقشفه أنه لم يكن يأكل سوى خبز الشعير ولحم الابل ولا يشرب سوى لبنهما . ” وقد كان أمير المسلمين يكن للمعتمد شيئا من الاحترام لمشاركته في الحروب التي خاضها المرابطون في الأندلس ، ولذا فقد أمر ابن تاشفين قائده بترك اشبيلية حتى يفرغ من جميع امارات الطوائف ثم يعرض على المعتمد التحول إلى المغرب بأهله وماله ، فان فعل والا نازله . فلما أبى المعتمد التحول كان هن أسره ماسبق ايضاحه . وعن معاملة هذا الأسير يحدثنا زميله في الأسر عبد الله بن بلقين أمير غرناطة الذي أسره المرابطون قبل المعتمد واستقر في مدينة مكاسة حيث وافاه المعتمد هناك ، وانتقلا معا إلى أفسات .

(١) نفح الطيب : ٢٢٥ / ٣ .

(٢) تاريخ الأندلس : ٧١ / ١ .

(٣) الوفيات : ٤٨٧ / ٢ .

(٤) التبيان : ١٧١ .

وفى ذلك يقول : ^(١) وأمرنا أن نستوطن أغمات ، فأتيناها ، ولقينا من أسير المسلمين كل جميل ، وأنزلنا بداره الصفري فى الحرم ، ولم يزل يعتقدا منا من انعامه كيف ما هبأ الله على يديه ، ووجدناه يمد الله أرفق بنا وأحسن مذهبا فينا من الناس أجمعين ، ومن كل من سبق اليه منا احسان ، ”

ولم تكن أغمات آنذاك مدينة مهتلة أو صغيرة فقد كانت عاصمة المرابطين قبل مراكن تشتهر ببساتينها الفسيحة وأسواقها التجارية الفرحه ، وقد كانت للمعتد حرية الاتصال بالناس ، وكان الشعراء - وهم الطبقة المفضلة لديه - على اتصال دائم به ، فمضى أن وصل مدينة طنجه فى طريقه إلى أغمات تلقاه الشعراء الملحفون والمكروين وأسمعوه بعض أشعارهم فيه فأعطاهم ^(٢) ما كان معه من المال وقال :-

شعراء طنجة كلهم والمغرب * ذهبوا من الاغراب أبعد مذهب .
سألوا الحسير من الأسير وانسه * بسرؤ الهم لاحق فأعجب وأعجب .

وأما عندما استقر فى أغمات فقد زاره شعراؤه الثلاثة ابن اللبانة وابن حمد بن الصقلي وبعد الصمد وأنشده من أشعارهم الشئ الكثير ، ومكثوا عنده فى حرية تامة بل ان بعضهم كابن اللبانة أنشده شعرا لا يمكن أن يسمح بمثلته

(١) العبد ر نفسه والمفحة نفسها .

(٢) عباس الجزارى ، الأدب المغربى : ١ / ١٢٣ نقلا عن البكرى فى الممالك والممالك ص ١٥٣ .

(٣) مدينة قديمة بالمغرب على ساحل البحر المتوسط ، افتتحها عقبة بن نافع ، وكانت قصبة بلاد البربر ، ومنها يجوز أهل المغرب إلى شواطئ الأندلس . / الروض المظمار (طنجه) .

(٤) عوض الكريم ، الأدب والأندلس فى عهد المرابطين : ٣٦ .

في تلك الظروف في أي زمان أو مكان ، وذلك أنه مدح المعتمد فأراد أن يجيزه

بما معه من المال فرفض الشاعر وقال من قصيدة طويلة :- (١)

- رهدك سوف توسعني سرورا * اذا عاد ارتقاؤك للسريسر
 - سوف تحلني رتب المعالي * غداة تحلّ من تلك القصور
 - تأهب أن تعود الى طلوع * فليس الغسق ملتمز البسدر
- وله أيضا :

ليت لي قوة أو اوى لركسن * فترى للوفاء مني ســـــــرا

وشاعره أبو بحر عبد الصمد الذي أنشد على قبره هيكي واعتشد الناس من حوله في مشهد كبير صان . فهل نجد أكثر من هذا القول والفعل دليلا على الحرية التي كانت مقاحة للمعتمد وشعرائه ، وإذا أضفنا الى هذه الحرية بعض جوانب اهتمام ابن تاشفين بأسيره كآمره لطبيبه الخاص أبي العلا بن زهر بعلاج اعتماد الرميكيه زوجة المعتمد استطعنا أن ندرك مدى المبالغات التي أحاطت بهذه القضية ، واستطعنا أيضا أن نرد أقوال المؤرخين المبالغين في الماض والحاضر ، كقول ابن الأثير : عن بني عباد : " وفعل أمير المسلمين بهم أفعالا لم يسلكها أحد من قبله ولا يفعلها أحد من بعده الا من رضى لنفسه بهذه الرذيلة وأبان أمير المسلمين بهذا الفعل من صغر نفسه ولؤم قسدره " .

وعذر ابن الأثير في هذا الكلام أنه ينقل عن كتاب السلوك في عهد الطموك لابن اللبانة شاعر المعتمد وصنيحته الاتف الذكر ، وكلامه لا يلتفت اليه لأنه

(١) المحجب : ٢٢١ .

(٢) الذخير : ٢٥ ، ج ١ ، ص ٢٢٧ .

(٣) الكامل في التاريخ : ١٠ / ١٠٠ .

خصم همه تشبهه سمعة أمير المسلمين . ولم يخلق ابن الأثير على ما نقله
شيئا فتعلم بذلك وزير ماصنع .

(١)

ومن المحدثين المستشرقين هنري دوزي الذي يقول : " ان معاطة ابن
تاشفين للمعتد كانت قاسية ومقينة " . وقد تبعه في هذا الرأي المؤرخ محمد
عبد الله عنان الذي يقول : " ولم يكن مقامه (أي المعتد) بأغصان
معتقلا عاديا بل كان سجنا شنيعا بكل معاني الكلمة ، ضيق فيه على المعتد
وألمه أشد التضيق فلم يكن يطلق لهم ما يقيهم من النفقة ، وكان المعتد
وزوجه الرميكية ، وأبنائهم الأحرار ، وناتجته الأقسام يرددون الثياب الخشنه " .
وقال أيضا : " وأي ضرورة اقتضت أن يحاط سيد المرابطين المعتد
بن عباد وألمه بهذه القسوة المروعة ، بعد أن غدا في يده أسرى لا حول لهم
ولا قوة ؟ وكيف سمح أمير المسلمين القوي القادر لنفسه أن تمتد هذه القسوة
إلى البلد الضعاف والنساء والبنات . "

ولا أدري من أين أتى عنان بهذه المعلومات إلا أن يكون ذلك من تأشير
مبالغات الشعر الذي قيل في هذه القضية ، أو من مقابلة هذا الرجل لجبهة
المستشرقين الدارسين لتراث الأندلس ، والذين كانديدتهم الحامن في الجوانب
المختلفة لدولة المرابطين . لا شيء إلا أنها دولة إسلامية مجاهدة حاصلة
شوكة النصرى ردحا من الزمن ، وقضت على مظاهر الفسق والفجور التي كانت
تجتاح بها الأندلس يقول دوزي : " كان مجيء المرابطين إلى بلاد الأندلس
(٤)

(١) تاريخ ملوك اسبانيا : ١٦٨/٣ .

(٢) عصر الطوائف والمرابطين : ٣٥٧ .

(٣) المرجع نفسه : ٣٦٥ .

(٤) حسن محمود ، قيام دولة المرابطين : ٤٤٠ .

نذيرا بانقلاب بعيد المدى ، فقد دالت دولة الحضارة وقامت الهنجيسه على أنقاضها ، أما حسن الإدراك فقد حلت محله الخرافات ، ذهب التسامح وسيطر التعصب فبدلا من أن نسمع مساجلات العلماء في دور العلم ومناقشاتهم في الفلسفه ، ونشيد الشعراء ، ونشأ أهمل الموسيقى بدأننا نسمع الا أصوات الفقهاء و صليل السيوف .

(١)

ويقول أشباح : " كان المرابطون يعملون على سحق جميع العلوم والفنون التي بلغت ذروتها في ظل السيادة العربية ، فكانوا يطاردون العلماء الذين ينحرفون عن معتقداتهم ، ويحرقون كتبهم ، ويعذبون بالأحرى على تحطيم الروح الشعرية الأندلسية التي كانت تجدد متعتها في قريبي الفروسيه ، والقصص الحادي ، وكانت قراءة هذه الكتب تحظر ومعاقب عليها بأشد العقوبات . " وخلق الدكتور مجيد السعيد على هذا النص (٢) بقوله : " اننا لا ندري ماذا يقصد المؤلف بقصص الفروسيه والقصص الحادي ؟ ومن أين أتى بهذا النص ؟ وهل كان لدى الأندلسيين قبل المرابطين مثل هذا الفن ؟ الذي نراه أن الرجوع الى كتب التراجم والسير ، وكتب الأدب المؤلفه خلال هذا العصر وما بعده مما تنضم أسماء أعلام برزوا في علوم مختلفه يعتمهر خير رد على أشباح هيين خاسل ما ذهب اليه . "

والواقع أن عصر المرابطين كان عصرا زاهرا بالعلم والأدب وحق أنسه عصر ابن بسام والفتح بن خاقان ، وعصر ابن خفاجه شاعر الأندلس ، وعصر الموشحات والأزجال ، التي يعتبرها المستشرق فارسيه غومشت انحطاطا

(١) تاريخ الأندلس : ١ / ٤٩٣ .

(٢) الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس : ٦٣ .

في الذوق نتيجة لتعصبه ضد المصر الذي ازدهرت فيه . يقول كورد على
(١)
عن المرابطين واهتمامهم بالناحية الفكرية : " فاجتمع لهم فـسـو
بلاطهم بمراكش من الكتاب ، وفرسان البلاغة ، وأقطاب العلوم ، عالم يتفوق
اجتماعه في عصر من الأعصار ، حتى أشبهت حضرتهم حضرة بني العباس
في صدر دولتهم . " ولو أردنا أن نستقصى ذلك تفصيلا لاحتجنا إلى كثير
من الصفحات التي لا يتسع لها المجال .

ومعد فهذا قليل من كثير من الآثار التي انتجتها قضية المتمدن بن حيان
ولا تزال إلى اليوم حية تخوض غمارها الأتلام واني لأرجوه أن أكون
قد وضعتها في أطارها الحقيقي أوفى قريب منه .

رثاء امارة بني الأفطس :-

إلى الشمال من امارة اشبيلية كانت تقوم امارة بني الأفطس على رقعة
كبيرة من الأرض تمتد من غرب طليطلس حتى المحيط الأطلس وكانت مدينته
بطليوس عاصمة هذه الامارة تقع في وسط تلك الرقعة ، أما أمراؤها بنسـو
الأفطس فهم من قبائل المغرب البهرية ، ولكنهم ينتسبون إلى قبيلة تـجـسـب
المربية واشتهروا بهذا النسب وندحتهم به الشعراء ، هنكر ذلك طـيـهـم
المؤرخ ابن حيان وأطهم عبد الله بن سلمه المعروف بابن الأفطس السدي
(٢)

(١) كورد على ، غابر الأندلس وحاضرها : ٢٠ .

(٢) مدينة جلييلة في بسيف من الأرض ، بنيت في عهد الأمويين ، وتعيـط
بها الأسوار المنيعة ويجرى في شرقها نهر تقوم عليه قرى كثيرة
نفسه . / الروي المحطار (بطليوس) .

(٣) الحلة السيرا : ٩٧/٢ .

كان وافر الحزم والسياسة استطاع أن يحمّد مدة سنوات في الحروب التي دارت بينه وبين جاره ابن عباد بسبب أطماع الأخير أن توفي سنة سبع وثلاثين وأربعمائه وخلفه ولده محمد الملقب بالمظفر وكان عالما وفارسا اشتبك مع ابن عباد في معارك كانت الدائرة عليه وتوفي ابن عباد في أراضيه ، ولم ينقذه إلا صاعى ابن جهور حاكم قرطبة ونجّاه في توقيع الصلح بين الطرفين سنة ثلاث وأربعين وأربعمائه ، وقد اشتهر المظفر بالعلم والأدب ، وله التأليف الكبير المسمى بالمظفر في خمسين مجلدة احتوى على الأخبار والسير والآداب ، والطرف المستملحة ، والنكبات (٢) البديعة .

وقد استغل النصارى القشتاليون الخلافات القائمة بين الأمراء الأندلسيين وأغاروا على أطراف إمارة بنى الأفطس من الشمال والغرب واحتلوا بعض الأجزاء واستوطنوها وأخذوا يهددون ابن الأفطس الذي لم يجد بدا من دفع الجزية لهم لعجزه عن دفعهم بسبب انشغاله بحرب ابن عباد ، وظل الأمر كذلك إلى أن توفي المظفر وخلفه ولده يحيى المنصور الذي نشب النزاع بينه وبين أخيه المتوكل حيث كان يرى أنسه أحق بالحكم من المنصور واستمر النزاع عدة أعوام اضطربت خلالها الإمارة اضطرابا كان يهدى بها لولا أن انتهى الخصام بموت يحيى فجأة سنة أربع وستين وأربعمائه ، فتولى عمر المتوكل الحكم مكانه بهدوء وسلام . وكان المتوكل أدبيا وشاعرا كبيرا ، وكان يفاهى المعتمد بن عباد في فخامة البلاط

(١) فنان ، عصر الطوائف والمرابطين : ٨٤ .

(٢) البيان المغرب : ٣ / ٣٦٦ .

(١)

وجلب الشعراء والعلماء والمخنيين وفيرهم ويصفه الفتح بن خاقان بقوليه :
 " ملك جند الكئاب والجنود ، وهقد الألوية والبنود وأمر الأيام فأتمسرت
 وطافت بكعبته الآمال واعتمرت ، الى لسن وفصاحه ، مرحب جناب للوافد
 وساحه ، ونظم يزى بالدر النظيم ، ونثر تسرى رفته سرى النسيم ، وأمام
 كأنها لحسنها جمع ، وليال كان فيها على الأئس حضور مجتمع ، راقا اشراقا
 وتبلجا ، وسالت مكارمه أنهارا وخلصا " .
 (٢)

ويقول لسان الدين بن الخطيب : " وكان المتوكل ملكا عالميا
 القدر ، مشهور الفضل ، مثالا في الجلالة والسرور ، من أهل الرأي والحزم
 والبلاغه ، وكانت مدينة بابل في مدته دار أدب وشعر ونحو وطهم .
 وقد شمرت الأماره في عهده شيئا من الاستقرار والأمن الى أن استولى
 القشتاليون على طليطله وبعث ملكهم الى المتوكل يطلب منه تسليم بعض
 الحصون والقلاع مع أداء الجزية ، فرفض المتوكل ذلك ورد على ملك قشتاله
 برسالة حازمة منها : " وأما نحن ان قللت أعدادنا ، وعدم من
 المخلوقين استمدادنا ، فما بيننا وبينك بحر نخوضه ، ولا صعب نروضه
 الا السيوف تشهد بحدها رقاب قومك ، وجلاذ تبصره في ليالك ويومك ، وبالله
 تعالى وملائكته المسمومين ، فنقوى عليك ونستعين " ثم بعث المتوكل
 قاضيه أبا الوليد الباجي ليألف بعواضير الأندلس ويحضهم على الوسادة
 لمدافعة العدو ، فقام بالمهمة وما وسعه ذلك ، ولكن هيهات أن يستجيب
 الأموات عندئذ استقرار المتوكل بن الأفطاس والمعتمد على استدعاء

(١) قلائد الحقيان : ٤١ .

(٢) أعمال الأعلام : ١٨١ .

(٣) الحلل الموشيه : ٣٧ .

(٤) الحلة السيرا : ٤٨/٢ .

المرابطين ، فكان قد وصيهم وحدوث معركة الزلاقة . كما سبق بزمانه . ولما
أراد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين انقاذ الأندلس وازالة هؤلاء الأعداء
وهدأ باشبيلية ، شعر ابن الأفلح بالخطر فسلح مسلح ابن عباد من قبل
(١) وهو الاستغاثة بالاندلس ففوض ملك قشتالة مذل له ثلاث مدن هامة من أملاكه ،
وكان لهذا التصرف الأثر في نفوس الناس ، فانهضوا عن المتوكل
وكتب أعيانهم الى المرابطين يستدعونهم ، فتحرك في أوائل سنة ثمان
وثمانين وأربعمائة جيش مرابطي من اشبيلية واغترق أراضى بطليوس بسرعه
الى أن وصلوا الى مأوى المتوكل فاقتحموه وقبضوا على المتوكل وهدموا
الفضل والعباس وضرخوا أبنائهم ، وهكذا انتهت اماره بني الأفلح ففوض
بطليوس بعد أن دامت قرابة خمس وسبعين سنة . (٢)

وقد رثى هذه الامارة وأصحابها وزهرهم الشاعر الأديب عبد المجيد
(٣)
ابن عبدون ، بقصيدة طويلة اشتهرت باسم البسامه حشد فيها جملة كهيرة
(٤)
فمن أصابتهم حوادث الأيام في مختلف المصور . يقول :-

-
- (١) عصر الطوائف والمرابطين : ٣٦٨ .
(٢) أعمال الأعلام : ١٨٦ .
(٣) هو ذو الوزارتين أبو محمد عبد المجيد بن عبد الله بن عبدون الفهري .
من أهل مدينة يابره ، كان أديب الأندلس في عصره شعرا وكتابه
وترسلا مع العلم بالخبر والأثر ومعاني الحديث . تولى الوزارة لبني
الأفلح حتى انقضاء دولتهم ثم انتقل الى خدمة المرابطين ، له
كتاب في نصرة أبي عبيد على ابن قتيبة ، وروى عن الأظم الشافعي
انظر الصلح : ٣٨٨/٢ - ٣٨٩ ، فوات الوفيات : ٣٨٨/٢ ، دائرة
المعارف الاسلاميه ٢٢٥/١ .
(٤) القصيده في المعجب : ١٢٩ - ١٤٠ .

- الدهر يفجع بعد العين بالأثر * فما البكاء على الأشباح والصور ؟
 أنهلك أنهلك لا ألك موعظة * عن نومة بين ناب الليث والفرس .
 (١)
 فالدهر حرب وان أبدى سائمة * والبيض والسود مثل البيض والسم .
 ولا هوادة بين الرأس تأخذه * يد الشراب بين الصارم الذكر .
 فلا يفرك من دنياك نومتها * فمصانة عينها سوى السهر .
 مالليالي أقال الله عثرتنا * من الليالي وخانتها يد الخير .
 فو كل عين لها فو كل جارحة * منا جراح وان زافت عن البصر .
 (٢)
 تسر بالشئ لكن كي تغربسه * كالأيام ثار الى الجاني من الزهر .
 كم دولة وليت بالنصر خدمتها * لم تبق منها ، وصل ذكرك من خبر .

يبدأ الشاعر قصيدته بهذه المقدمة الرزينة التي تنم عن حكمة ومعرفه
 بأحوال الدهر وتقلبات الأيام التي لا تفتأ في حركة مستمرة تأتي بكل عجيب
 لا يخطر على بال من غفل واغتر بمصالحه فلأيام في نظر الشاعر عد وشاكي
 السلاح ، واقف بالمرصاد لمحو العين والأثر لئلا يحس مهما تنعم ولكل دولة
 وان ازدهرت وشمخت والأشلة على ذلك تفوق كل حصر :-

- (٣) و
 هوت بدارا وفلتت غرب قاتله * وكان ضبا على الأملاك ذبا أثر .
 (٤)
 واسترجعت من بنى ساسان ما وهبت * ولم تدع لبنى يونان من أثر .

(١) البيض والسود : هي الأيام والليالي ، والبيض والسم : هي السيوف
 والرماح .

(٢) الأيم : الحية . الصحاح (أيم) .

(٣) قام بشرح هذه القصيدة ابن بدرون الشلبي الأندلسي ، وعلى شرحه

المخطوط بمرکز البحث العلمي اعتمدت في تفسير النواحي التاريخية .

دارا : هو آخر ملوك الفرس الأوائل ، وقاتله هو الاسكندر ذو القرنين

الذي تغلب على سائر الملوك ومات من بضع وثلاثين سنة . / انظر

لوحه ٣-٤ ، الأثر : فرند السيف . / اللسان (أثر) .

(٤) بنو ساسان : هم الأكاسرة من ملوك الفرس ، وساسان جد هم ، وحكموا أربعة

قرون . لوحه : ٦ .

(١)

- وألحقت أختها داسما ، وعاد على * عاد وجرحهم منها ناقض المسرر .
- وما أقالت ذوى الهيئات من يمن * ولا أجارت ذوى الغايات من مضر .
- ومزقت سبأ فى كل قاصية * فما التقى رائج منهم بهتكسر .

يسير الشاعر بتسلسل هرمى إذاً الأقباط الذين أنماح عليهم الدهر وأبادهم ، ويبدأ بالأمة القديمة الفابرة ، كالفرس الأوائل والأكاسسـره واليونانيين ، ثم ينتقل إلى قبائل العرب البائدة كداسم وجديس ، وعاد وجرحهم وغيرهم من القبائل اليمانية والضريبة التى عاشت حيناً من الدهر فى خفى وترف ورياسة ، ثم عفت وأصبحت أحاديث وأخبارا . وينتقل بعد ذلك إلى العصر الجاهلى قائلًا :

- وأنفذت فى كليب حكما ، ورمت * مهلهلا بين سمع الأرض والبحر .
- ولم ترد على الضليل صحتـه * ولا ثنت أسدا عن ربها حـجر .
- ودوّخت آل ذبيان واخوتهم * عيسا ، وضعت بنى بدر على النهر .

(١) داسم وجديس من قبائل العرب البائدة . كان موطنهما باليمامة ، ويحكمهما

ملك من داسم اسمه عطوق شديد الظلم والحسف ، وكان مصرمه بتدبير امرأة من جديس ، فكان فى ذلك إبادة القبيلتين . / المخطوط السابق ، لوجه ٨ .

جرحهم : قبيلة يمانية هاجرت إلى الحجاز ، وأصهر اليهم اسماعيل عليه السلام ثم بنوا وضلوا فأهلكهم الله . المرر : القوه .

(٢) الضليل : هو أمرو القيس ، ذهب يستمدى قيصر الروم على بنى أسد قتلة أبيه فهلك هناك .

(٣) بنو بدر : هما حط بن بدر وحذيفة بن بدر من سادة ذبيان ، وهما

خيل عيس وهما على ما اسمه جفر الهباء وذلك أثناء حرب داحس والخبراء ، المصدر السابق ، لوجه : ٥٥ .

(١)

- وألحقت بعدى بالعراق على * يد ابنه أحمر العينين والشعر (٢)
- وأهلكت أبر ونرا بابننه درمت * بيزد جرد الى مرد فلم يحمر •

والشاعر قد جعل القصيدة ميدانا لذكر ثقافته التاريخية الواسعة التي كانت من الروافد الأساسية التي يجب أن يلم بها من يتولى السوزارة والكتابة كابن هرون ، فنراه يفيض في ذكر أيام العرب وحوادث الأشهراف منهم ومن عاصرهم من الفرس وغيرهم ، ثم يتدرج الى العصر الاسلامي منذ بداية محاركة الأولى :-

- يوم القليب بنو بدر فنوا وسحقى * قليب بدر يمن فيه الى سقر •
- ومزقت جعفرا بالبقيع واغتسلت * من غيله حمزة الظلام للجسر •
- وأشرفت نجيب فوق قارعة * وألصقت طلحة الفياض بالحفر •
- وخضبت شيب عثمان دما وخطت * الى الزبير ولم تستحي من عسر • (٢)
- ولا رعت لأبي اليقظان صحبتته * ولم تزوده الا الضيغ في الخمر •
- وأجزرت سيف أشقاها أبا حسن * وأمكت من حسين راحتي شمر •

(١) عدى بن زيد الشاعر قتله النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، وكان لعدى

ولد اسمه زيد سمى بالنعمان لدى كسرى حتى قتله . لوحه : ٦٠ •

(٢) أبرهيز بن هرمز من طوك الفرس هذر أباه واستولى على العرش ثم كانت

نهايته على يد ولده شيرويه ، يزد جرد هو الطك الذي فر أسام

المسلمين في القادسية وعقد حلفا مع الترك والصغد ولنگهم أسلموه

فقتل بمرو . لوحه ٦٥ • ، محور : يرجع •

(٣) هو عمار بن ياسر ، الضيغ : اللبن حيث طلب ما " فجي " بلبن فشربه

وقتل بعد ذلك سنة ٣٦ هـ يوم صفين . لوحه : ٦٨ •

محمد مصر الراشدين يأتي لذكر حوادث الحصر الأموي :-

(١)

- وفي ابن هند وفي ابن المصطفى حسن * أتت بمعضلة الألباب والفكر .
- فبعضنا قائل ما قتاله أحد * ومعضنا ساكت لم يؤت من حصر .
- وأردت ابن زياد بالحسين فلم * ييؤ بشمع له قد طاح أو ظفر .
- وعصت بالثقي فودي أبي أنسس * ولم ترد الردى منه قنا زفر .
- ولم تراقب مكان ابن الزبير ولا * راعت عيادته بالبيت والحجر .
- واظفرت بالوليد بن يزيد ولم * تبق الخلافة بين الكأس والوتر .

ثم يخرج بعد ذلك على مصر العباسي إذا كان الكثير من عظمائهم الذين

عصفت بهم يد الحدثان :

- ولم تعد قصب السفاح نائبة * عن رأس مروان أو أشياعه الفجر .
- وأسلبت دمة الروح الأمين على * دم بفتح لال المصطفى هدر .
- وأشرقت جعفرا والفضل ينظره * والشيخ يحيى بزيق الصارم الذكر .

-
- (١) ابن هند : معاوية بن أبي سفيان ، وفي البيت إشارة إلى ارتياب بعض المسلمين في مية الحسن بن علي ، واتهامهم معاوية بتدبيرها ليكون العرش من بعده لولده يزيد . / المصدر السابق ، لوجه : ٧٣ .
- (٢) أبو أنس هو الضحاك بن قيس الفهري ، وزفر بن الحارث الكلابي من أصحابه . كان يدعو لابن الزبير . التقى بجيوش الأميين بمنج راهط سنة ٦٤ هـ ودارت الدائرة عليه فقتل وفر عنه زفر . / لوجه : ٨٠ .
- (٣) فتح : موضع قريب من مكة ، قتل فيه ثلاثة من أبناء وأحفاد الحسن بن علي في زمن الخليفة المهدي العباسي / لوجه : ١١٤ .
- (٤) يشير في هذا البيت إلى مصر البرامكة على يد الرشيد ، وجعفر والفضل هما ابنا يحيى البرمكي . وقصتهم مشهورة .

(١)

- وأخفرت في الأمين العهد وانتدبت * لجعفر بابنه والأعبد الخيدر .
- وروّعت كلّ مأمون ومؤتمنين * وأسلمت كلّ منصور ومنتصر .
- وأوشقت في عراها كلّ محتصد * وأشرقت بقذاها كلّ مقتدر .

بعد هذه المقدمات التاريخية الطويلة يصل ابن عبدون الى غايته

من القصيدة وهي رثاء بني الأفلح فيقول :-

- بني المظفر والأيام ما برحت * مراحلا والورى منها على سفير .
- سحقا ليومكم يوما ولا حطت * بحثله ليلة في مقبل العصر .
- من للأسرة أو من للأغنية أو * من للأسنة يهديها الى الثغر .
- من للبراعة أو من للبراعة أو * من للسماحة أو للنفع والضّرر .
- أو دفع كارثة أروع آفة * أو قمع حادثة تعيا على القدر .
- وحي السّاح وحي البأس لو سلما * وحسرة الدين والدنيا على عصر .
- سقت ثرى الفضل والعباس هامية * تعزى اليهم سماحا لا الى المطر .
- ثلاثة ما ارتقى النسران حيث رموا * وكلّ مطار من نسر ولم يطر .
- ثلاثة كذوات الدهر منذ نأوا * عنى ، مضى الدهر لم يربح ولم يجر .

(١) جعفر المذكور هو جعفر بن المعتصم الطقب بالمتوكل الخليفة العباسي

قامر عليه ولده المنتصر مع بعض العبيد وقتلوه . لوجهه / ١٢٨ .

(٢) هو عمر المتوكل بن المظفر آخر أمراء بني الأفلح .

(٣) الفضل والعباس هما ولدا المتوكل اللذان قتلهما المراهطون عند فتح

باليوس .

(٤) يربح : يقف / الصراح (ربح) .

وهنا نلاحظ اختلاف نغمة الشاعر من السرد التاريخي السابق ، ففي
رثائه لقومه بنى الأطلس نجد مسحة خفيفة من الوزن تبدو من خلال
حديثه عن صفاتهم المجيدة ، وعزهم الباذخ الذي انهار بعد أن كانوا
طوكا على الأسرة ، فرسان السيف والقلم ، تفيض أيديهم وأنفسهم كرمسا
وسماحه .

فعلى هؤلاء تبنى الدنيا ، ويندب الشاعر المآثر التي خبرها عن قرب
مرددا مستفهما بتفجّع :-

- أين الجلال الذي صمت مهابتته * قلوبنا وهيون الأنجم الزهر
- أين الأبا الذي أرسوا قواعد * على دعائم من عز ومن ظفر
- أين الوفا الذي أصفوا شرائعه * فلم يرد أحد منهم على كدر
- كانوا رواسى أرض الله منذ نأوا * عنها استطارت بمن فيها ولم تقر^(١)
- كانوا مصابيحها فمذخبوا عشرت * هذى الخليفة يالله فى صدر
- من لى ولا من بهم ان أظلمت نوب * ولم يكن ليلها يفضى الى سحر
- من لى ولا من بهم ان أظلمت محن * ولم يكن وردها يفضى الى صدر
- من لى ولا من بهم ان عطلت سنن * وأخفيت السن الآثار والسنن

وتظهر من خلال هذه الأبيات براعة الشاعر فى استعمال التكرار المفضى
الى معان رثائية متعددة ومبتكرة تضع المرثيين فى ذروة الكمال الانسانى ،
مخاصة تلك الأوصاف المعنوية التى يخرجها الى حيز المادى فهم الذين
أرسوا قواعد الأبا ، وصفوا شرائع الوفا ومناهله .

وقد لعب خيال الشاعر دوره فى إبراز صور العظمة التى تفرد بها بنو
الأطلس فهم : أوتاد الأرض ورواسيها ، وفقد هم تزلزلت أركانها ، وهم

(١) السدر : تحيّر البصر / المصدر نفسه (سدر) .

مصاييح هداها ، فلما انطفأت ترددت الخليقة في دياجير العيرة والاضطراب
وتكالبت عليها المحن التي لا تنتهي ، وازاء ذهاب فضائل هؤلاء الأُمَمِ
لا يجد شاعرهم أوسع من الصبر :-

على الفضائل الا الصبر بعد هم * سلام مرتقب للأجر منتظر .
محمد ، فلمل ابن عديون وقومه بنى الأقطار مدينون بشهرتهم السوسى
هذه القصيدة التي طار ذكرها في آفاق الأدب العربى ، وكثر الثناء عليها
وسلخ في تقديرها ، فالمراكشى يصفها بأنها القصيدة الخراء ، والمقيلسة
الحذراء التي " أوزت على الشعر ، وزادت على السحر ، وفعلت في الألباب
فعل الخمر ، فجلىت عن أن تسامى ، وأنفت من أن تضاهى ، فقل لها
النظير ، وكثر اليها المشير ، وتساوى في تفضيلها وتقديرها باقل وجريز ...
سلك فيها أبو محمد - رحمه الله - طريقة لم يسبق اليها ، وورد شرة لـ
(١)
يزاحم عليها ، فلذلك قل مثلها لا بل دم ، وعز نظيرها فيما توهم ولا علم " .
ومما لا جدال فيه أن القصيدة ذات أسلوب رصين مشرق وشيقة الألفاظ جيدة
المعاني والأفكار ، موشحة بالبديع والترصيع ، ولكن - فيما يبدو - أن تفضيلها
لم يأت من هذا الجانب ، وإنما من جانب الطريقة التي اتبعها الشاعر في نظم
الحوادث التاريخية التي تدل على علم واسع ، وثقافة راسخة . أضف السوسى
ذلك أن الأدباء والنقاد في عصر ابن عديون كانوا يحتفون بالآثار الأدبية
المنشورة والمنظومة لا لقيمتها الفنية ، وإنما لما تحوى من اشارات تاريخية
تفسح المجال للشرح والمفسرين ليبدؤا فيها ويميدوا . وغير مثال على هذا
القول رسالتا ابن زيدون - المعاصر لابن عديون - الجديّة والمهزلية فقد

(١)

شرحت كل منهما بسفر مستقل كما برزت في الأندلس في هذا العصر الأراجيز
التاريخية ، حيث ينظم الشاعر حوادث التاريخ شعرا في قوافٍ وهو متعدد
وأشهر من يذكر في هذا المجال الشاعر الراجز أبو طالب عبد الجبار السدي
(٢) نظم أرجوزة طويلة بدأها بالتحميد ثم التفكير في ملكوت الله ثم بدأ الخليفة
من لدن آدم - عليه السلام - مرورا بالرسل الكرام مفصلا أخبارهم ثم الخلفاء
الأربعة وسيرتهم ، فبنى أمية - فالعباسيين ، ثم يخرج على الأندلس فيذكر
حكم الأمويين ثم ملوك الطوائف فالمرابطين حتى حكم على بن يوسف بن تاشفين
الذي تولى الحكم سنة خمس مائه من الهجرة ، وقد ذكر صاحب الأرجوزة
(٣) كلامه فيها بأنه " في معنى ما تضمنته كتب التاريخ ، قطعت ميون زهرها ،
والتقطت مكون دررها ، واقتصرت على أقلها دون أكثرها مالا يسع جملته ،
وحذفت كل حديث يتخلل ، وخبر بتسلسل ، إلا ما زدت حلا رونقا ،
ومجتلاه تألقا " .

(١) شرح الرسالة الجديّة خليل بن أبيك الصفدي بكتاب سماه " تمام المتون "
وشرح الرسالة الهزلية جمال الدين بن نباتة المصري بكتاب سماه
" سرح الميون " وهما محققان مطبوعان .

(٢) من أهل جزيرة شقر بنواحي بلنسية ، كان يعرف بالمتنبى ، من أبسرع
أهل وقته أدبا ، وأعجبهم مذهباً وأكثرهم تفننا في العلوم ، وأجاده
في المنثور والمنظوم . ولم تمدنا المصادر بتفاصيل عن حياته / انظر
الذخيرة : ق ١ ، ج ٢ ، ص ٩١٦ ، الخريدة - قسم شعرا - المفهرج
والأندلس : ١١٠ / ٢ .

(٣) انظر الذخيرة : ق ١ ج ٢ ص ٩٢٠ - ٩٤٤ .

(٤) المصدر السابق ص ٩١٩ .

ولعل أصول هذا الاتجاه الجديد في الشعر ترجع الى المشرق ، حيث كان أبو تمام يضمن قصائده شذرات من التاريخ ثم توسع في ذلك الطك الشاعر عبد الله بن المعتز فنظم أرجوزته التاريخية الشهيرة التي ذكر فيها أحوال الخلفاء العباسيين ، والمتلاحمين بالخلافة في منتصف القرن الثالث الهجري ووصف فتنهم ومنكراتهم بشئ من التفصيل .

وفي تقديري ان الذين أعجبوا بقصيدة ابن عبدون كان اعجابهم بالشاعر لا بالشعر ، فالقصيدة تخلو من العاطفة الصادقة الفياضة بالآلم والحزن الذي يمثل الروح في قصائد الرثاء .

فجاء تأثيرها ضعيفا في النفوس اذا ما قيس بتأثير قصائد شعراء المعتمد السابقة ، التي تفيض بالأشجان والحسرات والصدق لأنها صادرة عن أنفسهم واحساسهم بعكس ابن عبدون الذي كان يصدر عن ثقافته ولسانه ولذا فلاعجب أن نراه بعد هلاك قومه بنى الأفطس يعمل في بلاط أعدائهم المرابطيين .

ولعل أبيات القصيدة الأخيرة تدل على أن هدف شاعرنا كان اظهار البراعة والتفوق الأدبي وذلك عندما يقول :

- قرطت آذان من فيها بفاضحة * على الحسان حصي الياقوت والدرر .
- سيارة في أقاصى الأرض قاطعة * شقا شقا هدرت في البدو والحضر .
- مطاعة الأمر في الأبواب قاضية * من المسمع ما لم يقضى من وطـر .

رثاء امارة بنى صمادح فى المريّة :- (١)

لما سقطت الدولة الأموية فى الأندلس استبد موالى المنصور بن أبى عامر بحكم مدينة المريّة وماجاورها ، ولمع فى عصر الطوائف اسم الفتى (خيران الحامرى) قائدا وسياسيا وأديبا ، استطاع أن يحافظ على ما فى يده حتى توفى ثم خلفه أخوه الفتى (زهير الحامرى) وكان خطيرا داهية شديدا البأس ، وسّع امارته حتى بلغت حدود طليطلة شمالا . ثم قرر غزو غرناطة على أثر موت أميرها ، فسار اليها بجمع كبير ولكنه هزم وقتل فى هذه الوقعة . فغدت المريّة بلا حاكم ، فاجتمع وجوه أهلها على استدعاء حاكم بلنسية آنذاك - عبد العزيز ابن أبى عامر لكونه صاحب الحق فى ميراث موالى أسرته ، فجسّأ وضبط أمرها ، ولكنه اضطر الى العودة الى بلنسية ، ووكل أمر تدبير المريّة الى وزيره أبى الأحوص معن بن صمادح التجيبي كائب له فيها . ولكن هذا الوزير سرعان ما أخذ يمهّد ويخطط للاستئثار بالسلطة ، والاستبداد بالمريّة ، فتم له ما أراد وجاهر بخلق الطاعة لعبد العزيز ، وأيده الناس فى ذلك . وتم هذا الأمر فى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة .

قال ابن حيان عن ابن صمادح " فكان شر خليفة استخلف ، لم يكد يوارى وجهه عبد العزيز عنه حتى خان الأمانة ، وطرده من الامارة ، ونصب

(١) مدينة حصينة بالأندلس ، بناها عبد الرحمن الناصر سنة ٣٤٤ هـ تقع

على شاطئ البحر المتوسط ، وتكثر فيها الأودية الجارية التى تسقى بساتينها ، وتشتهر بصناعات الحرير والمعادن . وكانت مراكز التجار تقصروا من الشام ومصر . / الروض المعمار (المريّة) .

(٢) البيان المغرب : ١٦٨ / ٣ .

له الحرب ، فغرب في اللؤم ماشاء ، وتنگب ابن أبي عامر التوفيق لاستدعائه
الذئب الأزل على ثلثه ، ومستدعى الذئب أظلم . وكان من العجب أن تملأها
ابن صمادح ، وخلفها ميراثا في عقبه " . (١)

واستمر ممن في الحكم زهاء عشرة أعوام ثم توفي وخلفه ولده محمد الذي
اتخذ على عادة أمراء الدوائف - الألقاب الفخمة فلقب بالمعتصم بالله
الواثق بفضل الله ، ولم يكن المعتصم من رجال الحرب الا انه استطاع أن يحافظ
على امارته ضد الثورات الداخلية التي كان يحرکها عبد العزيز بن أبي عامر
والحروب الخارجية مع المعتمد بن عباد الذي استطاع أن ينتزع بعض أراضى
الامارة فيما بعد . وثابت للمعتصم أطماع في الاستيلاء على أراضى جارتها
غرناطة وذلك بتدبير اليهودي يوسف بن النضر اله وزير غرناطة . فاستولى
على بعض حصونها الشرقية ، ولكن المؤامرة كشفت وقتل الوزير اليهودي
(٢)
وفشلت خطته . على أن أهم ما عني به هو تشييد القصور الفخمة وحماية دولة
الشعر والأدب فقد شيد قصره الشهير المعروف " بالصمادحية " حيث يشرف
على البحر وتحيط به الجنات والبساتين ومنه يستطيع مشاهدة مدينة المريسة
كلها . وفي بلاط هذا القصر كانت تقوم جامعة أدبيه وطميه تنافس بلاط اشبيلية
(٣)
ومطليوس . يقول ابن بسام : " ولم يكن أبو يحيى (المعتصم) هذا . ممن
فخولة طوك الفتنة ، أغلذ الى الدعة واكتفى بالضيق من السعة ،
واقصر على قصر بينيه ، وطلق يفتنيه ، وميدان من اللذة يستولى عليه

(١) الذخيرة : ق ١ ، ج ٢ ، ص ٧٣١ .

(٢) التبيان : ٥٣ .

(٣) الذخيرة : ق ١ ، ج ٢ ، ص ٧٣٢ .

ويبرز فيه غير أنه كان رحب الفناء ، جزل المطأ ، حليماً عن الدماء والدهما ، طافت به الآمال ، واتسع في مدحه المقال ، وأعطت الى حضرة الرحال ولزمه جملة من فحول شعراء الوقت

(١)

وقال ابن خاقان : " ملك أقام سوق المعارف على ساقها ، وأبدع فسوس انتظام مجالسها واتسافها لم تخل أيامه من مناظره ولا عصرت الا بمذاكره ومحاضره ، الا ساعات أوقفها على العدم وكانت دولته مشرعا للكرم نفقت فيها أقدار الأعلام ، وتدفقت بحار الكلام "

وقد كان المعتصم منزه جميعا ، معز الدولة ، ورفيع الدولة ورشيد

(٢)

الدولة من أهل الأدب والشعر ، كما كانت ابنته أم الكرام من أشهر شاعرات

(٣)

العصر ، وبالإضافة الى الشعر ورعاية الشعراء فقد كان للمعتصم يوم من أسبوع يخصصه للعلماء والفقهاء يتناظرون فيه بمسائل الفقه والتفسير

والحديث ونتيجة لهذه الحياة الوادعة لم يكن المعتصم من المتحسين لاستدعاء

المرابطين ، ولكنهم لما عبروا الى الأندلس شارك في استقبالهم ونال حظوة

عند ابن تاشفين استغلها في الطعن على المعتد وغيره ، وفي سنة أربع

وثمانين وأربعمائه توجهت القوات المرابطية الى المريه لاكمال مشروعها

في ازالة الامارات المفككة المنحلة فحاصرتها ، وكان المعتصم آنذاك يعانق

(٤)

من مرض كان غاتمة حياته ، فقال عبارته الشهيرة " نفس علينا كل شيء حتى

الموت " وهكذا هلك المعتصم بعد حكم دام أربعين سنة ، ودخلت المريه

تحت راية المرابطين .

(١) قلائد العقيان : ٥٣ .

(٢) انظر أخبارهم وأشعارهم في الحلة السيرة : ٧٨ - ٩٦ .

(٣) نفح الطيب : ١٧٠ / ٤ .

(٤) الخريدة : ٨٨ / ٢ .

والمخمسة فيما أحسب تقصد الى اظهار شاعرية كاتبتها في المقام الأول ،
فحاطفة الحزن والتأثر النفس بالحدث لا تكاد تظهر ، والصورة الرثائية باهتة
لا روح فيها ، ومن العجيب أن الشاعر بدأ هذه الخمسة بالغزل ووصف المحبوب
ولم يأت إلا بس به ثم مكابدة الشوق :-

- من لو بمجبول على ظلم البشر * صحف في أحكامه حاء الحور .
- مرثنا يسحب أنيال الغفر * ما أحسد الظبي له اذا نفر .
- وأشبه الفصن به اذا خطر .

- كافورة قد طرزت بمسلك * جوهرة لم تتهن بسلك .
- نبذت فيها وري ونسك * بعد لجابي في التقى ومحكى .
- فاليوم قد صح رجوعى واشتمر .
- سقى الحيا عهدا لنا بالطباق * معترك الألباب والأحداق .
- وملتقى الأنفس والأشواق * أياس فيه الدهر عن تلاقى .
- وربما ساك دهر ثم سر .

وهكذا يستمر على هذا المنهج في خمسة المقاطع الأول من القصيدة ثم
يمر على رثاء ابن صمادح كنوع من الواجب يراه الشاعر لمن أحسن اليه
"والروض لا ينكر معروف المطر" .

ومعد الرثاء يذكر رحلته وركوبه البحر ميمما شطربخداد في أرمسة

مقاطع :

- يؤم عدل الطك الرضى * الهاشمى الطاهر النقى .
- (١)
- والمجتبى من ضئضى النبى * من ولد السقاج والمهدى .
- فخر معد ونزار ومضر .

ولا نلاحظ في مفارقتة للديار التي ذاق حلاوة العيش فيها أي أسف
أوحنين بل نجده قد ملّها إلى مفادرتها : " ومن نأى عن وطن نال وطير " .
أما أسلوب القصيدة فهو سهل فيه رقة وعذوبة . وتبدو الصنعنة
البلاغية فيه واضحة ولكنها لا تشوبه بتعقيد ولا توعر .

الفصل الرابع رثاء الأندلس عامّة

سنتناول في هذا الفصل القصائد التي قيلت في رثاء الأندلس الإسلامية عامة، وتسير هذه القصائد في مسارين : المسار الأول يمثل القصائد التي قيلت بعد سقوط عدد كبير من قواعد الأندلس الهامة بيد النصارى، وذلك في الفترة الممتدة من بداية القرن السابع الهجري إلى ما بعد منتصفه، وهي فترة الغروب الأخير لدولة الموحدين في المغرب والأندلس، وقد سقطت خلالها : قرطبة واشبيلية وجيان وبلنسية وبطليوس وغيرها كثير^(١). وانحصر الوطن الأندلسي الذي كان يشمل نصف الجزيرة الأسبانية في رقعة صغيرة هي مملكة غرناطة التي لم تكن بعيدة عن الخطر الداهم أيضا . هذه الحالة الخطيرة أكدت في النفوس وقوع الانهيار النهائي للصرخ الشامخ، فتفجرت ينابيع البكاء ونظمت قصائد الرثاء .

أما المسار الثاني فيمثل القصائد التي قيلت بعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس في نهاية القرن التاسع الهجري حيث عادت الأندلس كلها دار كفر، واكره المسلمون على اعتناق النصرانية . ومن أشهر قصائد المسار الأول نونية أبي البقاء الرندي^(٢) التي قالها عندما تنازل ابن الأحمر محمد بن يوسف ملك غرناطة عن عدد كبير من

(١) غنان، نهاية الأندلس : (٢٠) .

(٢) هو أبو البقاء أو أبو الطيب صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن شريف الرندي (نسبة إلى مدينة رندة)، وأصله من قبيلة نفزة البربرية كان فقيها حافظا وفرضيا متفننا في معارف شتى، بلغ الذروة في التصرف بمنشور الكلام ومنظومه . كان يتردد على غرناطة ويمدح بسني الأحمر ويلتقي بوزيرهم لسان الدين بن الخطيب، ومن آثاره كتاب " الوافي في نظم القوافي " وكتاب " روضة الانس ونزهة النفس " وتوفي سنة ٦٨٤ هـ . انظر الاحاطة : ٣ / ٣٦٤ ، رضوان الياية، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس : ٤٥ . عبد الله كنون، صحيفة معجم الدراسات الإسلامية : ٦ / ٢٠٥ - ٢٢٠ .

الحصن والمدن المسورة بلغ اكثر من مائة وخمسين موضعاً للنصارى مقابل ان يحتفظ بعرش غرناطة ولو تحت سيادة فرناند و ملك النصارى القشتاليين وكان ذلك فى سنة خمس وستين وست مائة، وكانت هذه الخطوة من قبل ابن الاحمر ليست الاولى من نوعها بل سبقتها اخرى فى سنة ثلاث واربعين وستمائة حيث قدم الجزية وسلم عددا من المدن واشترك مع النصارى فى حصار المدن الاسلامية واهمها اشبيلية، وقد اشرنا الى ذلك فى فصل سابق ولعل ابن الاحمر كان يقصد من معاهداته هذه ان تتاح له فرصة الاستعداد وانشاء القوة التى تمكنه من مواجهة النصارى، وذلك بجمع الحشود التى تلجأ اليه فارة من المدن الساقطة، وعن طريق طلب النجدة من المرينيين فى المغرب الذين عبرت كتابهم فعلا وجاهدت فى سبيل الله . ولكن النصارى كانوا يرون فى ابن الاحمر الخصم الذى يجب تحطيمه واذلاله بسرعة قبل ان يكون له شأن، ولذلك شددوا الضغط عليه فتقهقر امامهم وشرب الكأس المرة حتى الثمالة .

يقول الرندى (٢) :

للكل شىء اذا ماتم نقصان	فلا يفر بطبيب العيش انسان
هى الامور كما شاهدتها دول	من سره زمن ساءت ازمـان
وهذه الدار لا تبقى على احد	ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر حتما كل سابغة	اذا نبت مشرفيات وخرصان (٣)
وينتضى كل سيف للفناء ولو	كان ابن ذى يزن والغمد غمدان (٤)
ابن الملوك ذوو التيجان من يمن	واين منهم اكاليل وتيجان
واين ماشاده شداد فى ارم	واين ماساسه فى الفرس ساسان

(١) الذخيرة السنية: ص ١٢٧ .

(٢) النفع : ٤٨٧ - ٤٨٨ .

(٣) المشرفيات : السيوف، الخرصان : جمع خرص وهو الرمح . اللسان (شرف، خرص) .

(٤) غمدان : قصة صنعا، وفيها قصر ابن ذى يزن . البكرى، معجم ما استعجم (غمدان) .

واين عاذ وشداد وقحطان	واين محازه قارون من ذهب
حتى قضوا فكان القوم ماكانوا	اتى على الكل امر لا مرد له
كما حكى عن خيال الطيف وسمان	وصار ماكان من ملك ومن ملك
وام كسرى فما آواه ايان	دار الزمان على دارا وقتله
يوما ولا ملك الدنيا سليمان	كانما الصعب لم يسهل له سبب
وللزمان مسرات واحزان	فجائع الدهر انواع منوعة

يفتح الشاعر قصيدته بمقدمة تنبض بالحكمة ، والمعرفة اليقينية
 بالحقيقة الخالدة وهي ان لا بد لكل شىء من نهاية تودى به مهما بلغ من
 العظمة والشموخ ، فحال الدنيا مجبول على الكدر ، وصفوها قليل مهما
 طال امده ، والدهر موكل بتحطيم ذوى الشأن على مر العصور والايام
 ويسرد لنا الشاعر نماذج من الذين سل عليهم الدهر سيفه ، فاصبحوا
 احاديث وذكريات في زوايا التاريخ بعد ان ملأوا الدنيا حيناً من الوقت
 باخبارهم واكاليهم وتيجانهم ، فاين ملوك اليمن ؟ واين ملوك الفرس اهل
 العمران والسلطان واين قارون ؟ وهكذا يستمر في تعداد فواجع
 الدهر المتنوعة حتى يصل الى مادهى جزيرة الاندلس . ولعل هذا التسلسل
 التاريخي الذى يورده الشاعر يذكركم بصنيع ابن عبدون في قصيدته البسامة
 التى مرت بنا في الفصل السابق ، ولعل مانالته تلك القصيدة من شهرة
 جعلت ابا البقاء يستضيء بنورها في ابيات قصيدته الاولى وبخاصة عند حديثه
 عن فعل الدهر وتقلب الايام ، وذكر الاقوام انفسهم ، كقوله : " دار الزمان
 على دارا وقتله " .

وقول ابن عبدون : هوت بدارا وفلت عرب قاتله .

ويقول ابو البقاء :

اذا نبت مشرفيات وخرصان

يمزق الدهر حتما كل سابغة

ويقول ابن عبدون :

والبيض والسود مثل البيض والسمر

فالدهر حرب وان ابدا مسالمة

فالتشابه واضح في المعاني والالفاظ ، وربما كان لوحدة الموضوع وهو
رثاء دولة كبرى او دول - اثر في هذا التشابه . فالرندى يرثى الاندلس كلها
وابن عبدون يرثى عصر الطوائف كله ممثلا في بني الافطس . وعندما يصل ابو
البقاء الى غايته من القصيدة وهي رثاء الاندلس يبكي بحرارة مصير الاسلام
ومعاقله الفارية قائلا :

وللحوادث سلوان يهونها	وما لما حل بالاسلام سلوان
دهى الجزيرة امر لاعزاء له	هوى له احد وانهد شهـلان
اصابها العين فى الاسلام فامتحنت	حتى خلت منه اقطار وبلدان
فاسأل بلنسية ماش أن مرسية	واين شاطبة ام اين جيان
واين قرطبة دار العلوم ، فكم	من عالم قد سما فيها له شان
واين حمص وما تحويه من نزه	ونهرها العذب فياض ومسيلان
قواعد كن اركان البلاد فما	عسى البقاء اذا لم تبق اركان
تبكى الحنيفة البيضاء من اسف	كما بكى لفراق الالف هيمان
على ديار من الاسلام خالية	قد اقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما	فيهن الانواقيس وصلبان
حتى المحارب تبكى وهي جامدة	حتى المنابر ترثى وهي عيدان
يا غافلا وله فى الدهر موعظة	ان كنت فى سنة فالدهر يقظان
وما شيا مرحا يلبيه موطنه	أبعد حمص تغر المرء أوطان
تلك المصيبة انست ماتقد مها	ومالها مع طول الدهر نسيان

ان مصيبة الاندلس لا تشبهها مصيبة من حيث الضخامة والشمول ، فهي
تمزق لشعب عريق ثابت الجذور فى ارض افتتحها وغرس فيها حضارة الاسلام
العظيم ، التى اثمرت واينعت فى شتى المجالات العلمية والادبية والعمرانية
ومن هنا كان الكيد الشديد لهذا الاسلام حتى اصيب فى النهاية بما لاعزاء
لنه ، والشاعر يتلمس اسباب هذه المحن فيرجعها الى العين الحاسدة
التى اصابت قواعد الاندلس واركانها فابتليت باهل الصليب الذين جاسوا
خلالها وعمروها بالكفر ، فالمساجد قد عادت كنائس تقرع فيها النواقيس

والمحارب والمنابر تنوح وتئن من جور الصليبان المنصوبة فوقها . هذه الصورة القاتمة لما آلت اليه مدن الاندلس العظمى - قرطبة ، بلنسية ، مرسية ، اشبيلية عملت عملها في قلب الشاعر ونفسه ، ولكنه لم يستسلم لاحزانه بل فزع السبي طلب النجدة ، ورفع صوته مناديا اخوانه المسلمين من اهل المغرب :

ياراكبين عتاق الخيل ضامرة	كانها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة	كانها في ظلام النقع نيران
وراتعين وراء البحر في دعة	لهم باوطانهم عز وسلطان
اعندكم نبأ من اهل اندلس	فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم	قتلى واسرى فما يهتزانسان
ماذا التقاطع في الاسلام بينكم	وانتم يا عباد الله اخوان
الانفوس ابيات لها همم	أما على الخير أنصار وأعوان

ولهجة الشاعر في استصراخه فيها حدة وصرامة ، لانه يخاطب قوما يقع عليهم عبء الدفاع عن جيرانهم واخوانهم في الاندلس ، وهو ينكر عليهم تقاعسهم عن الجهاد ، وتفضيلهم لعيش الدعة والامان مع سماعهم اصوات الاستغاثة من المستضعفين . وبخاصة انهم فرسان وشجعان يقدرون على تلبية النداء .

ثم يشرح بعد ذلك ما حل باولئك المستضعفين من الذل والعذاب بحيث لا يبقى بعد ذلك عذر لمتقاعس :

يامن لذلة قوم بعد عزهم	احال حالهم كفر وطغيان
بالامس كانوا ملوكا في منازلهم	واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم	عليهم من ثياب الذل السوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم	لهالك الامر واستهوتك احزان
يارب ام وطفل حيل بينهما	كما تفرق ارواح وابعدان

وطفلة امثل حسن الشمس اذ طلعت كأنما هي يا قوت ومرجان
يقودها العلاج للمكروه مكرهه والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد ان كان في القلب اسلام وايمان

ان روعة هذه القصيدة تكمن في صدق عواطف الشاعر واحاسيسه
الانسانية، فجاءت قصيدته قطعة من نفسه، يحى القارىء عند قراءتها انه
انتقل الى ذلك الجو، ووقف امام تلك المآسى الدامية يتأملها بفصحة
ومرارة، فالناقوس يجلجل على انقاض الاذان الصامت والمساجد الشامخة
تتقد حسرة وهى تحول الى كنائس، وقد زاد من تأثير هذه القصيدة فى
النفوس ما اشتملت عليه من شعور اسلامى فياض يحرك النفوس ويدفعها الى
نجدة البلاد واهلها، وبخاصة عندما يذكر بكاء الاسلام لفراقه قواعده التى
الفها والفته، او عندما يصف المشهد الحى لحالة اهل الاندلس حين
اصبحوا فى قبضة الاعداء، فقد غدا عبيدا يباعون بعد السيادة ناهيك عن
القتل والاسر، وهتك الاعراض المصونة . والمعانى الرثائية والصور فى
هذه القصيدة مطروقة من قبل فى شعر رثاء الدول فى الاندلس ولكن
اسلوب الشاعر العذب الذى يميل الى الحماس والغزوة الخطابية
وطريقة عرضه للأفكار موشحة بظلال كثيفة من الحزن، كل هذه الاسباب هى
التى خلدت هذه القصيدة واكسبتها الشهرة على مر الاجيال . ولشهرة
هذه القصيدة وذيوها فقد زيدت فيها ابيات كثيرة فيما بعد . وقد نبه
المقرئ^(١) الى ذلك بقوله - بعد ان سرد القصيدة - :

" انتهت القصيدة الفريدة، ويوجد بايدى الناس زيادات فيها
ذكر غرناطة وبسطة وغيرهما مما اخذ من البلاد بعد موت صالح بن شريف
وما اعتمدته منها نقلته من خط من يوثق به على ما كتبه، ومن له ادنى
ذوق علم ان ما يزيد من فيها من الابيات ليست تقاربها فى البلاغة، وبالسبب
ظنى ان تلك الزيادة لما اخذت غرناطة وجميع بلاد الاندلس، اذ كان
اهلها يستنهضون هم الملوك بالشرق والمغرب، فكان بعضهم لما اعجبته
قصيدة صالح بن شريف زاد فيها تلك الزيادات " .

وقد عرض لهذا النص ونص آخر من كلام المقرئ في وصف الرندي
 الاستاذ محمد عبدالله عنان ، واستشف منهما ان المقرئ قد وهم في تعيين
 العصر الذي قيلت فيه هذه القصيدة ، يقول ^(١) : " وقد التبس الامر على المقرئ
 في تعيين العصر الذي قيلت فيه هذه القصيدة والذي عاش فيه ناظمها
 صالح بن شريف ، فوصفه بانه خاتمة ادباء الاندلس ، وذكر في نفع الطيب ان
 ابياتا اخرى اضيفت اليها تشتمل على ذكر بسطة وغرناطة وغيرهما ليست من
 نظم صاحبها لانه توفي قبل سقوطها (اي غرناطة) مما يدل على اعتقاد
 المقرئ بان ابا الطيب عاش في اواخر ايام مملكة غرناطة (اواخر القرن
 التاسع الهجري) . بيد انه واضح من سياق القصيدة وذكر القواعد الاندلسية
 التي تبكيها وهي بلنسية ومرسية وشاطبة وجيان واشبيلية ، وهي التي
 سقطت كلها في يد النصارى بين سنة ٦٣٥ هـ و ٦٥٠ هـ ، ان الشاعر
 قد عاش في هذا العصر . ومن جهة اخرى فقد ذكر صاحب الذخيرة السنية
 صراحة انها نظمت حينما نزل ابن الاحمر للنصارى سنة ٦٦٥ هـ عن عدد كبير
 من القواعد الاندلسية . وقد توفي الرندي بعد هذه الاحداث بعشرين عاما
 في سنة ٦٨٤ هـ . "

والمدقق فيما قاله الاستاذ عنان يرى ان المقرئ برى مما اتهمه به
 فوصف المقرئ للرندي بانه ^(٢) " خاتمة ادباء الاندلس " لا يلزم على الاطلاق
 ان يكون الموصوف بذلك خاتمة او آخر ، فهذا الوصف يطلقونه في كل عصر على
 الفضلاء والمبرزين من الادباء والعلماء فيقولون خاتمة العلماء وبقية اولي
 الفضل ، وآخر قضاة العدل وغير ذلك ، ثم ان المقرئ نقل هذا الوصف عن ^(٣)
 ابن عبد الملك المراكشي ولم يبتدعه ابتداء ، ومن ناحية اخرى فان عنان
 يرجع الضمير في كلمة (سقوطها) الواردة في نصه الى غرناطة ، وهذا

(١) نهاية الاندلس : ٥٠ .

(٢) ازهار الرياض : ١٠٤٧ .

(٣) الذيل والتكملة : بقية السفر الرابع : ١٣٧ .

اعتساف منه لتأييد رأيه بما لم يقله المقرئ أولا ، والضمير يرجع على كل ما ذكر في النص وليس على غرناطة وحدها ثانيا .

اما عن امر الزيادات في هذه القصيدة فاننا نجد الشهاب الخفاجي الذي عاش من (٩٧٧ - ١٠٦٩ هـ) يترجم لمن يسميه بالسيد يحيى القرطبي^(١) وما كان من وقعة الاعداء بالمسلمين واسريحي وارساله هذه القصيدة الى السلطان سليمان العثماني^(٢) مستنجدا وناعيا حال الاندلس، وقد اورد الشهاب القصيدة مزيدا عليها واحدا وعشرين بيتا عما في نفح الطيب ولم يشر لنسبتها الى ابي البقاء الرندي ، والذي يبدو ان يحيى القرطبي هذا شهد السقوط النهائي للاندلس، وذهب عاصمتها الاخيرة (غرناطة) وفتك النصارى بالمسلمين واجبارهم على التنصير، فاضاف هذه الزيادة التي ذكر فيها غرناطة وبسطه ومالقه وغيرها من مدن مملكة بني الاحمر، ثم وجهه القصيدة الى السلطان سليمان راجيا مساعدته . ولعل يحيى القرطبي لم يقصد نسبة القصيدة الى نفسه ، لانه لا مجال للفخر بذلك في تلك الظروف العصيبة ، وانما رأى بلاغة القصيدة وعمق تأثيرها في النفوس، بالاضافة الى ذكرها لعدد من القواعد الاندلسية الداهية ، فاكمل سلسلة هذه القواعد متحسرا عليها وعلى ما فيها من العلماء والمعالم الاسلامية التي ازيلت ، ثم اضاف في آخرها عدة ابيات في الحث على الجهاد والترغيب فيه فرسم بذلك صورة متكاملة لما اصبحت عليه الاندلس ووضعها بين يدي الخليفة العثماني ليوقفه على الواقع المر .

وممن تعرض لراث الاندلس في هذه - اى القرن السابع الهجرى - حازم القرطاجني^(٣)

-
- (١) ربحانة الالباء : ١ / ٣٧٠ .
 (٢) هو سليمان بن سليم خان العثماني ، ولي سنة ٩٢٦ هـ ، وتوفي ٩٧٤ هـ وهو السلطان الحادي عشر من آل عثمان . الشذرات : ٨ / ٣٧٥ .
 (٣) هو حازم بن محمد بن حسن بن خلف بن حازم الانصاري القرطاجني يكنى ابا الحسن ، وهو من قرطاجنة الاندلس لا من قرطاجنة تونس . ولد سنة ٦٠٨ هـ ، تعلم على والده ثم على شيوخ مرسية حتى غدا فقيها =

في مقصودته^(١) التي مدح بها المستنصر بالله السلطان الحفصي في تونس
ويستهلها بذكر ما كانت عليه الاندلس من القوة والمنعة بفضل الموحديين
اسلاف الحفصيين رهط الممدوح . يقول^(٢) :

قادوا الى اندلس كتائبها	امامها النصر العزيز قد قدى ^(٣)
وصبحوا الاراك بجيش غط في	آذيه اذ فنش لما ان غطا ^(٤)
فلم يدع جهادهم للشرك من	دار ولم يتراء لهم من مدرى ^(٥)
ثم دعاهم ربهم فابتدروا	الى محل القرب منه والرضى

وبرحيل هؤلاء المجاهدين عن الدنيا تبدل الحال ، وقل النصير
واصبحت الاندلس فريسة سهلة للاعداء .

واصبحت من بعدهم فريسة	لمن بغى ، وفرصة لمن بعا ^(٦)
فانشأت ايدي الجياد فوقها	غيما كثيفا غير شفاف الغمى ^(٧)

- = مالكا ، نحويا بصريا واديبا شاعرا ، ومن شيوخه ابو علي الشلوبين
وروى عنه جماعة يقرؤون الفا . رحل الى مراكش بعد سقوط قرطبة
سنة ٦٣٣ هـ ، ثم تركها الى تونس حيث المستنصر الحفصي قبله الادباء
والعلماء وظل في كنفه الى ان توفي سنة ٦٨٤ هـ . ومن أشعاره
كتاب منهاج البلاء وسراج الادباء ، ديوان شعر ، ورسائل في النحو
وغيرها . انظر السيوطي ، بغية الوعاة (١ : ٤٩١) ، المكناسي
درة الحجال (١ : ٢٥٤) ، منهاج البلاء (ص ٥٣ - ٥٤) .
- (١) المقصودات : من المطولات في الشعر العربي ، تكون على الروي المقصور
وتكون في الغالب من بحر الرجز ، وتحتوي على عدة اغراض شعرية
الى جانب فرضها الرئيسي . انظر مهدي علام ، حوليات كليسة
الاداب (عين شمس) مجلد ١ (ص ١٩) سنة ١٩٥١ م .
- (٢) حازم القرطاجني : قصائد ومقطعات (ص ٦٥) .
- (٣) قدي : اسرع . تاج العروس (قدي) .
- (٤) الاذى : الموج . المصدر نفسه (اذى) ، غطا : استطال وتمادى .
المصدر السابق (غطا) .
- (٥) مدرى : ما يدرا به عن النفس . الصحاح (درأ) .
- (٦) بعا : اصاب مغنا . اللسان (بعا) .
- (٧) الغمى : غمى كل شيء اعلاه ، والمراد انه لا يرى من خلاله لكثافته .

- قد طبق الافاق من اندلس
فاشرق الشرق بما اشجى الملا
ودمرت تد مير سحب فتنة
ومحقت قرطبة كمثيل ما
وصار للوحشة كل منزل
واختزلت وسطى الثغور وثبة
طوفان هيجاء اطا ف هيجاه
وفتنة عمياء سال سيلها
فمن رد طاح جفاء فوقها
فكم صدى فيها وهام مجتلى
- ودار في ارجائها دور الرحي
وما اغص كل جـو ومـلا
(١) وبارق من مطلع البغي بغـي
(٢) محق البدر السرار ومحـا
(٣) قد كان للانس بـحص يعتري
(٤) من كل ضار طالما رب الضرا
(٥) بها فلم يدع عـرى الا عـرا
ففض شمل المسلمين وعمـي
(٦) وفعلت به المهاد قد جفـا
(٧) يشكو الصدى مابين هام في جـي

ان طوفان العدو والمد مرقد انهال على مدن الاندلس الزاهرة امثال قرطبة واشبيلية وتد مير وغيرها ، وحولها الى انقاض وخرائب لا يشاهد فيها الا الدماء والاشلاء الممزقة ، هذا المنظر الكئيب الباكي اثار حزن كل من رآه حتى الانهار والادوية .

- (١) تد مير : من كور الاندلس ، سميت باسم ملكها تد مير بن غندرس . السروض المعطار (تد مير) .
(٢) السرار : آخر ليلة او ليلتين في الشهر وتكون شديدة الظلمة . الصحاح (سرر) .
(٣) يعتري : يفشى . الصحاح (عرا) .
(٤) دب الضرا : اى مشى طريق المكر والخداع . المصدر السابق (ضرا) .
(٥) العرى : الساحات ، عرا : اعتري . الصحاح (عرا) .
(٦) رد : قتيل ، جفاء : جفاه رماه وصرعه . التاج (جفا) .
الفوق : خروج النفس عند الاحتضار . الصحاح (فوق) .
(٧) صدى : موضع السمع من الرأس . اللسان (صدى) ، الصدى : العطش . الحبثي : الحجارة المجموعة . الصحاح (جثا) .

فقد بكت انهارها بمد مع
فالنهر الابيض بيكي شجوه
وقد بكى النهر الكبير صنوه
وكاد شقر ان يفيض عند ما
وكم بها من سلك لهر قد حوى
قد نذبت امصاره انصاره
فيالها من درر تخروست
اضحت على ايدى العدى مفشورة
واحتويت ذخائر الدين التي
هام من الوجد لهام ما ارتوى
بكل دمع مستفيض مارقا^(١)
اذ لم يطق يروى صدى هام زقا^(٢)
غيظ بعيث الشقر في كل عرى^(٣)
كرس فلك سمطه فيما حوى
اذ لا اذاة من عدو تشتكى
بالغر من در السلوك تفتدى
وارخص الاشراك ملها ماغلا
قد طالما اعيى العدى ان تحتوى

الله تصوير جميل من الشاعر لعظم الثكبة وشمولها ، حيث سرى التأثير
الى الانهار فعبزت عن حزنها بفيض من الدمع المتدفق في مجاريها ، وكاد
بعضها يفيض مأوه وينضب ، لما اصابه من جراه زوال حواضر الملك التي يجرى
من تحتها ، والتي كانت منارا للاسلام قبل ان يلغها ظلام الكفر ، وهذا اللون
من بعث الحياة في الجمادات ، وازفاء صفات الاحياء عليها ، وجعلها
تشعر وتحس بما حولها ، يعطى شعر الرثاء وبخاصة في الاندلس - ابعادا
جمالية تشارك طبيعة الاندلس الجميلة في صنعها مع خيال الشاعر .
ثم ينتقل القرطاجنى ليقف متأملا حال الطاعنين عن بلادهم نجاة
بانفسهم قائلا :

قسمت الحاظى ودمعى عند ما
ما بين ظعن سطرت جمالها
تقسمت نفسى النواحي والنوى
ود من جمالها قد امحى^(٤)

- (١) النهر الابيض : يجرى في الجنوب الشرقي من الاندلس .
(٢) النهر الكبير : هو نهر الوادى الكبير الواقع في شمال غرب الاندلس وتقع
عليه قرطبة واشبيلية وغيرهما . الهامة : طائر خرافى كان العرب
يعتقدون انه روح القتيل الذى يذهب دمه هذرا ينزل يصيح حتى
يدرك ثأره . اللسان (صدى) .
(٣) شقر : نهر بالاندلس منه اخذت مدينة شقر اسمها . الروض المعطار
(شقر) ، الشقر : الخيل .
(٤) ظعن : جمع ظعينة وهو اليهودج . الصحاح (ظعن) .

مر الا عاصير بها مفاقد سفي	دار سفي قمر الا عاصير على
قد لويت اضلعه على لوى ^(١)	ألوا بكل مفهم كأنما
فواده من كثرة الوجد غمي	من كل ساهي الفكر مغمي على
كأنما باتوا على حد المدى ^(٢)	تململوا فوق ذرى اكوارهم
بشمطة من المشيب وجلا	قد رسم الحب جسوما منهم
تدكدن لا يبصرن من فرط الضوى	اعدت جسوم العيس اجسام لهم
منهم فرقت من غرام وهوى	واعدت الانفس منها انفس

ان الشاعر يحاول الفوص في نفوس اولئك المشردين ليحلل الاحاسيس
والشاعر الدقيقة التي تحويها تلك النفوس الحزينة، ومن ثم يعرضها علينا في
صورة ادبية رائعة وان كان الاسراف في استخدام الصنعة البلاغية قد ذهب
بكثير من حسناتها فالألم والقلق النفسي الذي تخفق به قلوب الطاعنين
الحيارى قد رسم جسومهم بالضعف والانهك الذي انتقل بدوره الى العيس
التي تحملهم فاضاها واشعل نيران الشوق والوجد في نفوسها فرقت بعد
غلظتها، وهذه الومضات الشعرية الموحية التي تغني عن كثرة تفاصيل متعانيه
النفوس تدل على مقدرة الشاعر وجوده ملكته وافتنانه في المعاني .

وبعد ذلك يتلمس الشاعر اسباب هذه النكبات فيستنتج ان ذلك بسبب
الظلم والظفیان الذي يمارسه الناس، فيعاقبهم الله جزاء ذلك، ويضرب
الامثال على ذلك من الامم البائدة والاثار الشاهدة . يقول :

عظمها بالعون من رب العالا	فاصغر الاشياء قد أثر في
جيوشهم بمكة بما رمى	قد اهلك الاحبوش طير قدرمى
ماكان هدهاد لبلقيس ابنتي ^(٣)	وهو قدما هدهد بنبا

- (١) اللوى : العلم او الراية . الصحاح (لوى) .
(٢) المدى : جمع مديه وهي السكنى او الشفرة . المصدر السابق (مدى) .
(٣) هو الهدهاد بن شرحبيل بن غالب . احد ملوك اليمن . وبلقيس ابنته .
انظر قصائد ومقطعات : ٦٤ .

وقد اعاد الفأرسد مأرب
والقت النمرود عن كوسيه
وقلما مد المدى لمن غدا
وكيف لا يخاف عقبي البغي من
دكا كان لم يبينه من قد بني
بعوضة عدت عليه اذ عدا^(١)
في الظلم والعدوان ومد ود المدى
رأى عقاب الله فيمن قد بغى ؟

ثم يتوجه القرطاجني الى خليفته المست نصر بالله الحفصي داعيا اياه
الى انقاذ الاندلس مهونا عليه ذلك الامر بعد ان اطنب في مدحه يقول :

ولو سما خليفة الله لها
ففي ضمان سعده من فتحها
فقد اشادت السن الحال به
أتأى العدى ما كان مرويا بها
يزجي اليها كل ريح زعزع
تبكي الاعادى بعد طول ضحكها
لافتكها بالسيف منهم وافتدى
دين على طرف العوالي يقتضى
حي على استفتاحها حي على
وهوالذى يرجى به رأب الثأى^(٢)
عاتية عاصفة بمن عتا
وتضحك الاضبع من بعد الضهى^(٣)

وبعد ، فلاريب ان القرطاجني شاعر كبير ، وصاحب نفس طويل ففى
الشعر مكنه من تأليف مقصوده التى بلغت الف بيت ، ولعله كان يأمل
ان تحرر الدولة الحفصية الاندلس وتعيد ما ذهب منها الى حيز الاسلام
وقد سعى لتقوية هذا الامل عن طريق مدح الحكام الحفصيين ، وعرض حال
الاندلس من خلال ذلك . وهذا مانراه فى مقصوده التى مرت بنا ، وفى
قصائده الاخرى ، وهو بهذا متأثر بالمتنبى الذى يعتبره رأس شعراء العربية^(٤)
لما فى طريقته من ابداع فى الجمع بين الاسلوب الشعرى القائم على التخيل
والاسلوب الخطابي القائم على الاقتناع .^(٥)

-
- (١) النمرود بن كنعان اول من لبس التاج من الملوك ، وهو الذى حاج
ابراهيم - عليه السلام - فى ربه كما فى سورة البقرة ، الاية : ٢٥٨ .
(٢) الثأى : الخرم والفتق ، الصحاح (ثأى) .
(٣) الضهى : الضحايا : المرأة التى لاتلد ، والارض التى لاماء فيها ولانبات .
اللسان (ضها) ولعله اراد هنا الجوع .
(٤) انظر القصيدة الصادية الطويلة فى الديوان : ص ٦٦ .
(٥) منهاج البلغاء وسراج الادباء ٢٩٨ - ٣٠٠ .

اما ما يلاحظ على رثائه لاندلس الوارد في المقصورة من هدوء العاطفة وضعف صوتها ، فهذا راجع الى طبيعة المقصورة القائمة على الصنعة البلاغية التي هي قوام نظرة حازم للشعر . فالشعر عند حازم ملكة وصناعة مكتسبة ، ولكن هذه الملكة (الطبع) بحاجة الى عناية تحقق نموها وتصلقها ، وذلك بالعلم بأسرار الصناعة الشعرية ، ولا يكن ذلك الا بالمعرفة التامة بعلم البلاغة الذي تندرج تحت تفاصيل كلياته ضروب التناسب والوضع ، وهذا العلم يحتاج الى طول دربة ومران ، فالمتنبى - وهو امام الشعر - لم يستقم شعره الا عن مزاولة الصداقة عشرين عاما ، ثم زاول بعد ذلك زمنا طويلا وقد توفى وهو يصيب فيها ويخطئ^(١) . وقد جعل القرطاجني من المقصورة معرضا لثقافته البلاغية والنحوية ، فنراه يحشد فيها الوانا متعددة من المحسنات اللفظية والبديعية حتى بدت لوحة زخرفية لامعة ، كما نلاحظ وفرة المفردات وغرابتها في كثير من الاحيان ، والغوص وراءها وتتبعها .

اما قول الحبيب ابن الخوجة^(٢) ان القرطاجني لم يعان من الشعر الا المدح والفضل والوصف والزهد ، ولا نجد له هجاء ولا رثاء ، فهذا لا يعني انه لم يقل في رثاء الاندلس ، وطنه الذاهب قصائد مستقلة كاملة ، فربما كان ذلك ، لان شعر حازم - في الغالب - لم يجمعه ديوان . اما ما يسمى بديوان حازم الذي حققه عثمان الكماك فلا يمثّل الاجزاء بسيطا جمعه من المصادر المختلفة بالاضافة الى مخطوط صغير اكتشفت بعده مخطوطات اخرى^(٣) .

وللقرطاجني شعر في رثاء الاندلس وانتشار سلكتها ، وهو جزء من قصيدة مدح ، يقول بعد ان وصف ايام انسه الماضية حين كانت الاندلس آمنة مطمئنة^(٤) :

-
- (١) المصدر السابق : ص ٦٨ .
 (٢) انظر قصائد ومقطعات : ص ٥٥ .
 (٣) مقدمة منهاج البلغاء : ص ٧٣ .
 (٤) ديوان حازم القرطاجني : ص ٤٦ - ٤٧ .

فأوحشت بعد ايناس وصار بها
كانت نوائب ادني ما جنته نوى
وعضُّ ظفر باسنان على زمين
ابقي المنازل اصفارا وغادرها
كانوا كطير باوكر فصيرهم
عرفت من بعد انكار معاهد هم
ابكي لمعرفة العهد القديم وما
شيت موارد انسي بعد ما خلصت
كم اوجه للمني غر تغمت بها
ثم انتحت ازمين بهم مبدلة
ففرقت شمل احباب وشمل مني
ومذ تفرقت الامال ما اجتمعت
ولو تيقظ من اغفائه املي

صرف الحوادث طلابا بأوتار
ادني جناياتها تهيج افكار
قد عض او قزع اسنان باظفار
من كان فيها ، شريدا حلف اشفار
زمانهم فوق طير ذات اكوار
فكدت انسي اضطباري بعد تذكري
انكوت من خطب دهر طارق طار
جمامها الزرق من شوب واكدار
في ازمين مثلها غر واعصار
حالا بحال واطوارا باطوار
والفت شمل اعداء واشرار
لي في دجي الليل اشفار باشفار
ما واصل اليأس ايقاظي واسهاري

وبعد ذلك يأخذ الشاعر في مدح صاحبه الذي عقد عليه الامال في
ايقاظ آماله قائلا :

وليس يوقظ آمالي سوى يقط
محمد بن سعيد خير ما سعدت
السيد المذحجي المكتسى حللا
حاطت حجابته الدنيا بما ضربت
ناهيك من جنة للدين واقية
وهضبة من هضاب الحلم راجحة

(١) ينمي لمجد ابي اليقظان عمار
(٢) به المنى بين ايراد واصدار
من العلاج ددا ليستباطمار
د هن الحوادث من حجب واستار
وصارم في يد الاسلام بتار
وروضة من رياض العلم معطار

(١) يقصد الصحابي عمار بن ياسر رضي الله عنه .
(٢) هو احد القادة في الدولة الحفصية بتونس .

سنت الى ابعد الغايات همته فادرگتها وليست ذات اقصار
فليس يرجو سوى اجر وليل علا وليس يحذر غير الاثم والعار

الذي يبذو ان هذه القصيدة قد قيلت بعد امد ليس بالقصير من رحيل
الشاعر عن الاندلس لانه يتحدث بصيغة الماضي " كانت نواب" ، " كانوا كطير "
" عرفت من بعد انكار معاهد هم " وغير ذلك مما هو واضح في القصيدة
فقصيدته هذه بمثابة ذكرى مؤلمة هزت من الشاعر جانب الندم والاسف على
الايام السعيدة التي قضاها في ربوع تلك الديار حين كان الشمل مجتمعاً
والمورد عذبا . ونراه يطلق لذاكرته العنان فتسرح بعيدا شارحة - بالكلمات
الشعرية - حالته من خلال المفارقة بين ماضيه المشرق وحاضره الذي تشتت فيه
الامال والاصحاب ، مما اورثه سهرا دائما وهما ملازما كاد يفضي به الى
اليأس لولا استجارته بذلك الممدوح محمد بن سعيد .

والايات لا تخلو من عاطفة ومشاعر وجدانية ، ولكنها مشوبة بغلبة
الطابع الفردي ، والمصلحة الشخصية عليها .

ومن قصائد المسار الاول - ايضا - قصيدة للشاعر ابن فرقد القرشي^(١)
يرثي فيها جزيرة الاندلس حينما شاهد ضياع اجزاء كبيرة منها . يقول :^(٢)

الامسعد منجز ذوفطن	يبكي بدمع معين هـتن ^(٣)
جزيرة اندلس حسرة	لا غالب من حقود الزمن
ويندب اطلالها آسفا	ويرثي من الشعر ماقد وهن

(١) هو ابراهيم بن خلف بن محمد بن عمر بن فرقد القرشي العامري ، من
اهل موره وهي بلدة تتبع طليطلة ، وتقع في جنوبها الشرقي ولد ومات في
عهد الموحدين ، كان متفنا في معارفه : محدثا راويه ، فقيها حافظا ،
وشاعرا كاتبا . دون برنامجا في ذكر شيوخه ، وله رجز مشهور في
الفرائض وترسل منوع . الاحاطة : ٣٦٤ - ٣٦٥ .

(٢) المصدر السابق : ص ٣٦٦ .

(٣) المسعد : المعين . اللسان (سعد) .

ويبكي الایامي ويبكي الیتامي
ويشکو الی الله شکوی شج
ويحكي الحمام ذوات الشجن
ويدعوه في السرثم العلن

الی ان يقول :

وكانت رباطا لاهل التقى
وكانت معاذا لاهل التقى
وكانت شجی فی حلق العدا
فعادت مناطا لاهل الوثن
فصارت ملاذا لمن لم یبدن
فاضحی لهم مالها محتجن

هذا ما ذكره ابن الخطيب من القصيدة ، وأشار الى انها طويلة غير اني لم اشر على بقيتها فيما توفر لدي من المصادر الاندلسية ، وقد علق على القصيدة بقوله : ^(١) " ولدي خلاف فيمن افرد في استحسانها ، وهي عندي ليست بذات عاطفة متوهجة ، فهو يسلك مسلك المقابلة بين حالين : حال حكمها ايام المسلمين ، والان ايام اهل الوثن النصاري . واللحن العام المسيطر عليها الحسرة والندبة " . والامر - كما يبدو من الابيات - على نحو ما ذهب اليه ابن الخطيب فالشاعر يمعن في البكاء والتحسر ، ولا يكتفي ببكائه هو بل يبحث عن معين يذرف دمعہ بسخاء لانه يعتقد ان دمعہ لا يفي بعظم المصاب ، ابيكي لليتامي ام للايامي ، ام لدولة الشعر والادب التي ذوت وتبدد شمل اهلها بعد ان اصبح الاندلس - مصدر الهامهم - ملاذا لاهل الوثن ، والابيات لا تخلو من عاطفة صادقة غير انها ساكنة يائسة لا يصدر عنها انفعال غاضب يبحث عن مسببي النكبة منبها الناس لما هم عليه من الفساد وموجها سهام اللوم والتقريع اليهم .

اما قصائد المسار الثاني التي ترثي الاندلس بعد سقوط غرناطة - آخر المعازل الاسلامية هناك فاول ما تطالعنا قصيدة الفقيه الصنهاجي المشهور بالدقن ، وقدم للقصيدة بقوله : ^(٢) " انه لما غابت شمس الجزيرة الخضراء باخذ

(١) الاحاطة : ١٠ / ٣٦٧ .

(٢) هو ابو العباس احمد بن محمد بن يوسف الصنهاجي . خطيب جامع القرويين ، اخذ عن اعلام من المشرق والمغرب ، وكان ادبيا نحويا وعالما بعلم الفقه والرواية والحديث . وقد توفي بفاس سنة ٩٢١ هـ . انظر ابن القاضي : درة المجال : ٩٢ / ١ ، جذوة الاقتباس : ١٣٢ / ١ ، محمد مخلوف ، شجرة النور الزكية : ١ / ٢٧٦ .

الحمراء ، قرعت باب الندبة ، لما تقدم من الصحة ، فقلت ابياتا صدرت من
 قلب كئيب مبكية لكل لبيب اريب ، وسميتها بالموعظة الغراء باخذ الحمراء
 يقول :^(١)

امنت من عكس آمال واحوال	وعشت ما بين اعمام واخوال
ولا ابتليت بما في القلب من نكد	فالجسم مشتغل من غير اشغال
وكيف لا ويقاع الدين خالية	من ارض اندلس من اجل احوال
عمت فغمت قلوب المسلمين فيا	للمسلمين من اعداء وانكـال
جاشت بهام من جيش الكفر ماد رست	بهم معالم اخيار واقـال ^(٢)

يبدأ الشاعر قصيدته بالدخول المباشر الى الموضوع ، فيطلق زفرة
 حارة من قلب يشتغل بالوان من النكد والاحزان على ما ابتليت به
 ارض الاندلس من الاحوال والنكبات التي لم يعرف لها التاريخ مثيلا ، فالامر
 ليس ذهاب ارض وتشقت امة فحسب وانما هو زوال دين ساد قرونا ، وتحطم
 حضارة وسلطان ذو جذور راسخة .

اما اهلها الذين دارت عليهم الدائرة ومزقهم جيش الكفر فهم :

اهل الشجاعة اهل العلم اهل تقى	اهل النفاسة في قول وافعال
عنهم وفيهم احاديث النبي بدت	وهم معاقل قول الله للتالى
رهبان ليل وفرسان النهار فمن	يلم بساحتهم يظفر بآمال
لا عيب فيهم سوى ان المضاف لهم	يسلوعن اهل واوطان واموال
فهمل ترى بعد هذا النفس سائلة	وكيف تسأل عن وصف وعن حال
تالله لا زال ما في القلب من اسف	ولو اكن حديق المنزل الخالى
او يفتح الله في نصر يمين به	فالله باق يقى من كل محتال

(١) القصيدة في ازهار الرياض : ١٠٤ - ١٠٨ .
 (٢) الاقيال : الملوك دون الملك الاعظم ، والقيال من ملوك حمير .
 الصحاح (قول) .

ويواصل الشاعر هنا حسراته وهو يتذكر أولئك القوم وما هم عليه من الصفات الحميدة والاخلاق الفاضلة، ونلاحظ تركيزه على الجانب الديني فيهم فهم اهل التقى والعلم، وفيهم احاديث النبي بدت وهم رهبان بالليل فرسان في النهار مع الكرم والشجاعة وسداد الرأي والفعل. وهذا بلا شك من تأثير ثقافة الشاعر الدينية فهو فقيه قبل كونه شاعرا.

ثم ينتقل بعد ذلك لوصف مشهد الاعداء الصليبيين بزعامة ملكهم فرناند وما كان معهم من العدد وادوات الدمار وما الى ذلك :

قد رام اطفاء نور الله مجتهدا	ويا ذلا كل ما قد حاز من مال
سطا به جيش كموج البحر في عدد	نعمه وفي عدد من رهن ابطال
مويدا باجتماع المصر يتبعه	شر الخلائق مسرورا باقبال
يسبى المسمع بالانفاط ^(١) مشبهة	وقع الصواعق في هذا وزلزال
يبني ليهدم ما الاسلام شينه	والوصف يعجز من يدعي بقلقال ^(٢)
فهو المقاتل في الابراج منتقل	الف النحوس وتغير وترحال
فاستوطن المرح ^(٣) لا ينوى الرحيل ولا	يخشي المغيث بسهل او باجبال

وامام هذا العدد والجبار الذي يسعى جاهدا لاطفاء نور الله بما لديه من عدد وعديد، ونار وحديد لم يكن للمسلمين جيش يقف امامه، ولم تكن كلمتهم واحدة، وانما تفرقت بهم السبل حسب المطامع والاهواء وامتلات قلوبهم بالاضغان لبعضهم مما سهل استسلامهم :

-
- (١) الانفاط : آلات تقذف الذهب والحجارة ويصحبها دوى كالرعد، تهدم الاسوار وتحرق ما وقعت عليه . انظر حنان، مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام: ص ١٢٨ .
- (٢) القلقال : الفصح اللسن، او كثير الاسفار . اللسان (قلل) .
- (٣) هومج غرناطة، الواقع في جنوبها الغربي ويجرى فيه بعض الانهار وهو من اخصب بقاع الارض تربة واكثرها اشجارا . الروض المعطار (اغرناطه)، عنان، نهاية الاندلس: ص ٢٣٦ .

والمسلمين من الاضغان قد ملئت
والحق مختلف والحق مؤتلف
وهم لديه كطير وهو ينتفسه
اذا تجرد من ريش يطير به
سد و مسالك ارزاق ومنفعة
ثم استفاثوا : الافراسان عادية
والصيف ضيقت ما اقلت من لبن
وارحل بنحلك نحو الغرب في كرم
فاستمكن الرعب في الاكباد واتفتت

قلوبهم وابوا تسديد اخلال^(١)
والكل منصرف عن نصر ابطال
والطير يرجو البقا مع كيد قتال
اضحى يدافع عن روح باوصال
كدودة القز في نسج لسربال
قال الصدي : لست ذا رمح ونبال
ففارق الجبح من تدخين نحال^(٢)
من قبل وضعك في قيد واغلال
بعد اختلاف علي تأمين ارذال

وهذه الابيات تعبر بصدق عن الواقع المؤلم الذي كانت تمر به مملكة
غرناطة في جميع نواحيها فهي وثيقة تاريخية هامة تلخص تاريخ حقبة من الزمن
ساد فيها النزاع والخلاف بين حكام بني الاحمر اصحاب غرناطة بسبب
الاطماع والمصالح الشخصية التي طغت على الاهتمام بالصالح العام واتسمت
شقة الخلاف في سنة ثمان وستين وثمانمائة وما بعدها ، وذلك حين توفي
السلطان سعد بن محمد بن يوسف النصري وآل الامر الي ولده ابي الحسن
الذي اساء السياسة ومال الي الترف فنارعه اخوه محمد بن سعد المعروف
بالزغل (اي الشجاع) وايده جزء كبير من المملكة التي كانت تنتحر ببطء من
جراء المعارك الطاحنة بين الفريقين ، وقد كان كل من المتنازعين لا يجد
غضاضة في التحالف مع النصارى اعداء دينه باذلا لهم شروطا سخية فسي
سبيل الحصول علي المساعدة للوقوف في وجه اخيه ، وتجسد الصراع فسي
انقسام مملكة غرناطة الي قسمين متناحرين سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة^(٣)
حينئذ ادرك النصارى ان فرصتهم الذهبية قد لاحت ، فقابلوا فرقة المسلمين

(١) اخلال : جمع خلل وهي الشفرة ، او الفرجة بين الشيئين . الصحاح
(خلل) .

(٢) الجبح : خلية النحل . اللسان (جبح) والنحال : القائم علي امر النحل .

(٣) عنان ، نهاية الاندلس : ص ٢١٤ .

باتحاد كبير وهو اتحاد مملكتي قشتاله وارجون تحت زعامة الملكية الكاثوليكيين (فرناندو وايسبيللا) . واخذوا على الفور في التخطيط لاحتلال غرناطة آخر عاصمة اسلامية في الاندلس ، فاتجها الى تقويض اطراف المملكة من الغرب كمدينة مالقه وماحولها من الحصون المنيعة التي كانت عقبة في طريق تقدمهم واستطاعوا بعد جهد جهيد وصمود شديد من اهلها ان يحتلوها وان يقطعوا بذلك كل اتصال بين الاندلس والمغرب . ثم توفي السلطان ابو الحسن وخلفه ولده ابو عبد الله الذي حاول مدافعة النصارى ، ولكنه وقع في اسرهم في احدى غزواته ولم يطلقوا سراحه الا بشروط قاسية منها تقديم الطاعة ودفع جزية كبيرة وغير ذلك (١) .

وظل الامر يضطرب والنصارى يتطلعون المناطق شيئا فشيئا ، وصرخات الاستغاثة تتعالى ، وتنادى المسلمون في المشرق والمغرب ، ولكنها لم تلقى صدى ولا جوابا ، وقد شرحنا ذلك في الفصل السابق ، وبعد ذلك تقدمت جيوش النصارى نحو مدينة غرناطة وضربت حولها حصارا شديدا ، الا انها كانت من الحصانة بمكان اضافة الى وجود اعداد هائلة من المدافعين وجلهم من الذين فروا الى غرناطة حين احتلت مدنهم ، واستمر الحصار زهاء سبعة اشهر حتى نضبت الموارد ، واخذ الخور والضيق يدب الى نفوس الناس وفي مقدمتهم سلطانهم ابو الحسن ، ومن جانب آخر اخذ النصارى يرسلون الوعود والشروط المغرية للقوم على التسليم وهي تتضمن حرية الدين والمال وحرية الانتقال وعدم دفع المغانم وغيرها كثير (٢) .

ولم يلبث اهل غرناطة ان قبلوا ذلك واستسلموا ، فدخلها النصارى وظهروا حقدهم الدفين على الاسلام واهله فسرعان ما رفعوا الصليبان وحولوا الجوامع الى كنائس وبدأوا باجبار المسلمين على التنصر او الرحيل ولم ينفذوا شيئا من الشروط التي قطعوها على انفسهم . والى هذا يشير الشاعر بقوله :

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠٣ .

(٢) انظر نفح الطيب : ٤١٠ / ٥١٥ - ٥٢٥ .

واحتل غرناطة الفسراء قد عدت
 كأنها الشمس في افق العلى كسفت
 وهل تعود ليال قد سلفن بها
 وهل يعود لها الدين الذي انست
 فاصبحوا لا ترى الامساكنهم
 فلا المساجد بالتوحيد عامرة
 ولا المنابر للوعاظ بارزة
 ولا الكاتب بالصبيان آنسة
 آه على الدين والدنيا وما نفعت
 حب الحصيد ونصر الله والآل
 فمهل على طلل ترمى بابطال
 ونحن لانشتكى تنكيد ضلال ؟
 به وقد ايسر من فتح ابدال ^(١)
 كمثل عاد وما عاد باشكال
 اذ عمروها بناقوس وتمثال
 للامر والنهي او تذكير آجال
 تتلو القرآن باسحار وآصال
 آه اذا صدرت من قلب بطال

وهنا نرى الشاعر يعود الى تذكر ما كانت عليه غرناطة قبل ذهابها
 فيطلق الاهات والزفرات التي لم تعد تغني شيئا بعد التحول الخطر ففى
 حياة المدينة، فاهلها الصا لحن تفرقوا ايدى سبأ، ومساجدها غدت عامرة
 بالتثليث بعد التوحيد، والمنابر غدت محطا للنواقيس والتماثيل ومكاتب الصبيان
 التي كانت مراكز اشعاع اسلامي قد هجرت واسدل عليها ثوب بال من النسيان
 والطمس، ومادام الحال هكذا، وكان ما كان فان على المسلمين من اهل
 المغرب اذ لم ينجدوا اخوانهم ايام الحصار، عليهم ان يكرمهم الان عند ما
 يفرون اليهم فنرى الشاعر يتوجه الى اهل بلده (فاس) حاضا اياهم على مواساة
 اولئك المشردين وحسن معاملتهم يقول :

فلنكرم الان من ينزل بمنزلنا
 واذ ولا قدرة تدنى المنى فلهم
 نلقاهم ولنا بشر ومعدرة
 ولا نذد عن ورود الحوض وارد ه
 اخوانكم رفعوا ايدى الضراعة مع
 وقل لوال تلتطف في مفارمهم
 فالدهر ذو دول فاسمع لامثال
 حق الجوار ولات وصف باهمال
 ورحمة يا حمة العم والخال
 ولا ندع قول ذى نصح واجمال
 كسر القلوب فلا نقلوا باخمال
 يلطف بك الله اذ تدعى لاحمال

(١) الاولياء الصالحين الذين يستنصر بهم، وفي البيت دلالة على التواكل وترك العمل مما ادى الى ضياع الاندلس .

ثم يتخذ الشاعر من الحالة التي آل اليها أولئك الناس بعد الامن والغنى ، يتخذ من ذلك سبيلا ليوجه الى قومه زواجر الوعظ ، ويأمرهم بتقوى الله - عز وجل - واخذ الحذر من العدو وبذل الجهد في جمع شمل المسلمين :

والاذن في صمم عن قيل او قال	هذا النذير جهارا جاء يندرنا
نمشي على مهلة من طول امهال	ونحن في غفلة عما يراد بنا
ان السعيد لموعظ بامثال	يا اهل فاسق اما في الخير موعظة
فالامر جد فلا تصحب لمكسال	فقل تعالوا الى نصح وتذكرة
علي السواحل او همت بارسال	كيف الحياة مع الحيات قد نفعت
والحزم في سعة من قبل اعجال	ولا سبيل الى الترياق غير تقى
بذل النصيحة او ابراء ادخال	والاخذ بالجد في جمع القلوب على
والامر بالعرف مع تحسين مقوال	والزهد في هذه الدنيا وزخرفها
خوفا على الدين او بعد امن انزال	ولا نرم في امان الروم منزلة
لسخط مولى ، ولا عذر باثقال	فمن بيت في امان الكلب منتصبا
فحيثما كنت لا تخشى من اقلال	واربا بنفسك من ارض تهان بها
قد اكتسى بعد عز ثوب اذلال	فالموت عندى خير من حياة فتي
فافهم تفاصيل اقوال واجمال ^(١)	والهجرة الان قد عادت كما سبقت

(١) بعد سقوط غرناطة بسنوات قليلة بدأ النصارى سياسة تنصير المسلمين قهرا ومن ابي ذلك قتل او احرق ففرت الوف من المسلمين بدینها الى فاس وتلمسان ووهران ، فتسلط عليهم الاعراب في الطريق فقتلوا كثيرا منهم ونهبوا اموالهم ، فرجع بعضهم الى الاندلس ، وتقاعس الجميع عن الهجرة . انظر ازهار الرياض ١٠ / ٦٨ .

وهنا اصدر فقيه المغرب في القرن التاسع الهجري ابو العباس احمد بن يحيى بن محمد التلمساني الونشريشي فتواه المسماه : " اسنى المتاجر في بيان من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر " . وفيه يوجب الهجرة على الاندلسيين ، يقول فيه " . . . ولا يسقط هذه الهجرة الواجبة على هؤلاء الذين استولى الطاغية - لعنه الله - على معاقلمهم وبلادهم الا تصور العجز عنها بكل وجه =

واحتل بذهتك ولتسمع نصائح من قد طب من حب لم ي وصف بمحتال^(١)

ثم يختم قصيدته بتاريخ ذهاب غرناطة بقضاء الله وقدره الذي لا اراد له ، يقول :

شمس الجزيرة غابت بعد اكمال	في صدر سبع على التسعين زائدة
اذ لم يجد ذائدا عن ديننا الفالى	ويلغ الكلب ما قد شاء من ارب
والامر لله في قول وافعال	ليقضى الله امرا كان قدره
سحاب الدمع لم تقلع عن انزال	وقد وعظت ولو اسمعت لانتشرت
والله يحفظنا من كل مهووال	فليشتغل كل مسكين بمهجته

ان اهم ما تميزت به قصيدة هذا الفقيه الشاعر هو العاطفة الدينية الدافقة ، حيث كانت هي الخيط الرئيسي الذى ربط جميع اجزاء القصيدة فحزنه العميق ، واصراره على هذا الحزن والبكاء حتى الموت لم يكن من اجل تراب الاندلس ، وانما بسبب جلاء الاسلام - بنظامه وشريعته - عن تلك البقاع ، وعند ما يوصى بالعطف على المهاجرين والاحسان اليهم يعتبر ذلك واجبا اسلاميا توجبه الاخوة في العقيدة اضافة الى حق الجوار المأمور به شرعا . كما اننا نحس في القصيدة قوة النفس وعلو الهمة عند شاعرها ، فهو رغم حزنه الشديد لم يملكه الخور والجزع فيشتغل بالعويل والندب ، وانما اتخذ من المحنة سبيلا ، وشاهدا حيا يقرع بها آذان مستمعيه من اهل فاس بزواج الوعظ

= و حال ، لا الوطن والمال فان ذلك كله ملغى في نظر الشرع . قال تعالى (ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي انفسهم قالوا فميتا قالوا كذبا مستضعفين في الارض قالوا الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها فاولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا .) النساء : ٩٦ - ٩٧ . والظالمون انفسهم في الآية هم التاركون للهجرة مع القدرة عليها . فلا تجد في تحريم هذه الاقامة وهذه الموالاة القرآنية مخالفا من اهل القبلة المتسكنين بالكتاب العزيز . فهو تحريم مقطوع به كتحريم الميتة ولحم الخنزير وقتل النفس ، فمن جوز هذه الاقامة واستسهل حكمها فهو مارق من الدين ومفارق لجماعة المسلمين . انظر اسنى المتاجر : ص ٢٦ - ٢٨ . معناه : صنعة حاذق لانسان يحبه ، ويضرب في التنوق في الحاجة واحتمال التعب فيها . الميداني ، مجمع الامثال : ١ / ٣٩٧ .

وداعيا اياهم الى التقوى وجمع الشمل في مواجهة العدو وبإصلاح النفوس
والبعد والحذر من تطلعات العدو والمتربص الذي يرمى الى اذلال المسلمين
في دينهم وانفسهم غير اننا مع ذلك لا نجد في القصيدة استصراخا او طلب
نجدة بل اكتفى الشاعر بالحض على حسن معاملة المهاجرين ، والتلطف في
اخذ المغارم منهم وما الى ذلك . ولعل جواب ذلك يكون بالنظر الى الحالة
التي كانت عليها دولة بني مرين صاحبة اليد الطولى في انجاد الاندلس فيما
سبق . فهي اليوم - في ظروف سقوط غرناطة - تمر بمرحلة ضعف وتفكك ، ويظهر
زعامات جديدة متمثلة ببني وطاس الذين تمكنوا فعلا من الاستيلاء على الحكم
في فاس سنة ست وسبعين وثمانمائة (١) . ثم ان الشاعر قد نظم قصيدته في
وقت متأخر عن هذا التاريخ ، فلم يكن حوله من يستصرخه .

واسلوب القصيدة سهل سلس ، والفاظها مألوفة ، ومعانيها خالية من
التعقيد ، كما خلت من الصنعة البلاغية الا ما يورد عفوا ، لاشتغال الشاعر
بالحدث التاريخي الهائل ، لذا نجد القصيدة سجلا حافلا للحسوس
التاريخية التي كانت تجري على ارض الاندلس . ولم ينس الشاعر استعمال
الحكمة والمثل وبخاصة عند ما يعجز ، لان ذلك من خصائص اسلوب الوعظ
والارشاد وذلك كقوله " الصيف ضيعت اللبن " ، " صنعني طب لمن حب " وغير
ذلك . وقد استفاد الشاعر - ايضا - من اقوال من سبقه من الشعراء ، فقولہ :

كيف الحياة اذا الحيات قد نفحت على السواحل او همت بارسال

مأخوذ من قول الزاهد ابن العسال .

من جاور الشر لا يأمن عواقبه كيف الحياة مع الحيات في سفظ

(١) انظر السلاوي ، الاستقصاء ، ٢ : ١٤٨ .

وبالجملة فالقصيدة من جيد مارثيت به الاندلس بعد غروب شمسها
فهي على طولها لم تسعم القارىء لبحرارة الشاعر في الانتقال من مجال الى
مجال آخر، داخل اطار الرثاء، ولئن خلت بعض الشيء من الصور المتخيلة
فانها كانت غنية بعواطفها واحاسيسها الانسانية.

ومن روائع مارثيت به دولة الاندلس الزائفة قصيدة بليغة طويلة لشاعر
مجهول تتبع فيها سقوط قواعد مملكة بنى الاحمر مدينة بعد اخرى، وقد بدأ
بمدينة رندة قائلاً: ^(١) ^(٢)

احقا خبا من جورندة نورها	وقد كسفت بعد الشمس بدورها
وقد اظلمت ارجاؤها وتزلزلت	منازلها ذات العلا وقصورها
احقا خليلي ان رندة اقفرت	وازعج عنها اهلها وعشيرها
وهدت مبانيها وثلت عروشها	ودارت على قطب التفرق دورها
وكانت عقابا لا ينال مطارها	ومعقل عزه زاحم النسر صورها ^(٣)
هوت رندة الفراء، ثم حصونها	وانذارها شنعاء، عز نظيرها

(١) مدينة اندلسية قديمة البناء، بها آثار كثيرة، وهي تقع على نهر ينسب
اليها، ويأتيها الماء من قرية بشرقيها ومن جبل بغربيها، فيوافيها
الماء الى داخلها فيكسبها خصوبة وجمالا. الروض المعطار (رندة)
وقد كان سقوطها بيد النصارى في سنة ٨٩٠ هـ حينما كان الاضطراب
الشامل يسود جميع ما بقي من الاندلس، وقد وجه النصارى القشتاليون
حملة قوية الى المنطقة الغربية من مملكة غرناطة (ولاية مالقة) واستولوا
على عدة حصون في منتصف الطريق بين مالقة ورندة، وبذلك تمكنوا
من عزل رندة التي كانت حصن الاندلس من الغرب، فحاصروها وضربوها
بالانفاط حتى هدموا اسوارها، فاضطرا اهلها الى التسليم لصعوبة
وصول المدد اليهم وبعد هم عن العاصمة (غرناطة)، وكان سقوط هذه
المدينة ضربة شديدة للمسلمين حيث استولى القشتاليون على سائر
القواعد والحصون الموجودة في تلك المنطقة بعد ذلك بسهولة.

انظر، عنان، نهاية الاندلس: ص ٢٠٦.

(٢) الطاهر احمد مكي، دراسات اندلسية في الادب والتاريخ والفلسفة:
ص ٣٧٦ وما بعدها.

(٣) الصور: العصفور الاليف، يقال عصفور صوار الذي يجيب اذا دعي.
الصالح (صور).

وقد كن عقدا زين القطر نظمها	فقد فتح الان البلاد نثيرها
وفرق شمل المؤمنين لهيبها	وقطع من ارحامهم زمهويرها
تسلمها حزب الصليب وقادها	وكانت شرودا لايقاد نفورها
وقد ذهبت اديانها ونفوسها	وقد دفرت تحت السباء دثورها ^(١)
فباديها الاسلام حتى تقطعت	مناسيبها . واستأصل الحق زورها
فاصبحت الصلبان قد عبدت بها	تماثيلها دون الاله وصورها
لقرع النواقيس اعلى بمنارها	كرائه اصوات يروع صريرها

الذى يبدو من هذه الابيات ان الشاعر كان ممن شهد الاحداث المؤلمة التي اودت بقواعد الاندلس، وعاشها عن قرب واطلاع، فهو يصدر عن عاطفة هدها المصاب الفاجع، فيصرخ في دهشة افقدته صوابه متسائلا عما يحدث وهل حقا حدث ما حدث، وكأنه يجهل ذلك . ولعل سبب ذهولها كان عدم توقعه لحدث مثل هذه الكارثة لمدينة حصية منيعة كرنده، لذا نراه يكرر استفراجه " احقا خبا من جورندة نورها"، " احقا خليلى ان رندة افقرت" . ويستعمل الالفاظ الفخمة ذات الصدى المجلجل : " وهدت مبانيها وثلت عروشها"، " همت رندة الغراء... "، " وكانت عقابا لاينال مطارها... " الخ . ولا يلبث الشاعر ان يفيق من شروده ليرى الاسلام وقد هد ركنه وزحزح من مكانه ليقوم مكانه دين الصليب بتماثيله الشركية ونواقيسه ذات الاصوات الكريهة . ثم يسبح الشاعر في بحر من الالام والعذاب النفسى وهو يتذكر احبته اهل تلك المدينة وما حل بهم فيقول :

فيا ساكني تلك الديار كريمة	سقى عهدكم من يصبو نميرها
احقا اخلائي القضاء ابادكم	ودارت عليكم بالصروف دهورها
فقتل واسر لايفادى وفرقة	لدى عرصات الحشرياتى سفيرها
ولوعة ثكل ليس يذهب روعها	ولا تنقضى اشجانها وزفيرها

(١) السباء : الاحراق بالنار . الصحاح (سباء) .

ونفس على هذا المصاب حزينة
 وقلب صريع ماج فيه بلاؤه
 سأبكي وما يجدى على الفات البكا
 شآبيب دمع بالد ماء مشوبة
 عويلا يوافي المشرقين بريحه
 فواحسرتا كم من مساجد حولت
 وواأسفا كم من صوامع اوحشت
 فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى
 وكم من لسان كان فيها مرتل
 يذوب كما ذاب الرصاص صبورها
 سويداه سوداه جسم ثبورها
 يعبرة حزن ليس يرقا عبورها
 يساجل قطر الفاديات درورها
 وثكلا باقمار قد اطفئ نورها
 وكانت الى البيت الحرام شطورها
 وقد كان معتاد الاذان يزورها
 وآياتها تشكو الفراق وسورها
 وحفل بختم الذكرو تمضى شهرها

ان الشاعر لابد ان يكون قد عاش في مدينة رندة شطرا من حياته
 لذا فان ذكرى تلك المدينة واهلها تثير اشجانه وا حزانه ، فتنتطق شآبيب
 الدمع من عينيه ممزوجة بالزفرات الحارة المنبعثة من قلبه الصريع . اننا
 نحس فعلا لوعة الشكل التي يعانيها الشاعر وبخاصة عند ما يأخذ في تفصيل
 ما حدث لاحبابه اهل رندة جميعا رجالا ونساء ، واطفالا . . . يقول :

وكم طفلة حسناء فيها مصونة
 تميل كغصن البان مالت به الصبا
 فاضحت بايدي الكافرين رهينة
 وقد لطمت - واحرق قلبي خدودها
 وان تستغث بالله والدين لا تنفث
 وقد حيل ما بين الشقيق وبينها
 وكم من عجوز يحرم الماء ظموها
 وشيخ على الاسلام شابت شيوه
 وكم فيهم من مهجة ذات ضجة
 اذا سمرت يسبي العقول سفورها
 وقد زانها ديباجها وحريرها
 وقد هتكت بالرغم منها ستورها
 وقد اسبلت - واد مع عيني - شعورها
 وان تست جر ذارحمة لا يجيرها
 واسلمها آباؤها وعشيرها
 على الذل يطوى لبثها ومسيرها
 يمزق من بعد الوقار قتيورها^(١)
 تود لو انضمت عليها قبورها

(١) القتير : الشيب . الصحاح (قتر) .

لها روعة من وقعة البين ، دائم
وكم من صفر حيز من حجر امه
وكم من صفر بدل الدهر دينه
كروب واحزان يلين لها الصفا
اساها ، وعين لا يكف هديرها
فاكبأها حراء لفح هجرها
وهل يتبع الشيطان الا صفرها
عواقبها محذرة وشروها

وهو هنا يرسم لنا صورة ذات ظلال سوداء متشعبة عمادها الحركة
وصدق الوصف الذي يلفح الوجوه بحرارته رغم مرور مئات السنين عليه ، وهذه
الحرارة والانفعال الصادق هي التي اكسبت المعاني والصور الرثائية روحا
وطرافة ، وان كانت معاده قد قالها شعراء رثاء المدن من ذى قبل ونتيجة
لهذه المآسى المؤلمة نرى الشاعر يتمنى ان لم يكن ولد فضلا عن تمثيـه
الموت ولكن رغم ذلك لا يزال عنده بصيص من امل شاحب لم يقو على الوقوف بعد :

فيا ليت امي لم تلدننى وليتـننى
وما خير عيش يعذب الموت دونه
فيا ليت شعري بعد ما صح موتها
ويا ملأ الاسلام هل لك عودة
وهل نسمع الاذان صوت الاذان في
ويا لعزاء المؤمنين لفاقـة
لا ندلس ارتجت لها وتضعفت
منازلها مصدرة ومطاحـها
تهائمها مفجوعة ونجودها
وقد لبست ثوب الحداد ومزقت
فاحياؤها تبدى الاسى وجمادها
فلوان ذا الف من البين هالك
على فرقه الدين الذي جاءها به
بليت ولم يلفح فؤادى حرورها
ويغبط قل الاهل فيه كبرها
ايرجى على رغم العداة نشرها؟
لارجائها يشفى الصدور صدورها؟
معالمها تعلو بذاك عقبرها
على الرغم ، اغنى من لديها فقيرها
وحق لديها محوها ودشورها
مدائنهم موتورة وشغورها
واحجارها مصدوعة وشغورها
ملابس حسن كان يزهو حبرها
يكاد لفرط الحزن بيد وضميرها
لذابت رواسيها وفاضت بحرورها
بشير الانام المصطفى ونذيرها

ان الاندلس كلها في ماتم كبير لفقد هذه المدينة العظيمة ، وانطفاء نور الاسلام الذى ماكان يسطع من جنباتها ، فالمدن والشفور والاندلسية قد لبست ثوب الحداد ، والتهائم والنجود تتفجع ، والحجارة تتصدع والرواسى الشامخات تكاد تذوب وتندك ، والانهار يفيض ماؤها .
هذه اللوحة الحية للجماد ابداعها الشاعر منسجمة مع نفسه المنفعلة بالحنن والتي لاترى حولها الا باكيا موتورا ، وهذا يزيد من اهمية المدينة المرثية وشدة تأثير سقوطها .

ثم ينتقل الشاعر الى رثاء قاعدة اخرى من قواعد الاسلام فى غرب الاندلس هي مدينة مالقة^(١) ومتابعها :

فمالقة الحسناء ثكلى اسيفة	قد استفرغت ذبحا وقتلا حجورها ^(٢)
وجزت نواصيها وشلت يمينها	وبدل بالويل المين سرورها
وقد كانت الغريبة الجنى التى	تقيها فاضحى جنة الحرب سورها
وبلش قطت رجلها بيمينها	ومن سريان الداء بان فطورها ^(٣)

(١) تقدم التعريف بهذه المدينة فى الفصل السابق . وكان سقوطها بيد النصارى سنة ٨٩٢ هـ وذلك انه بعد سقوط رندة اصبح القشتاليين يهددونها من الغرب ، واستغلوا فرصة الحرب المحتدمة بين ابى عبد الله وعمر المصروف بالزغل ووجهوا حملة قوية الى بلش مالقة (وهي منطقة حصينة تقع شرقي مالقة) وحاول الزغل انجادها ولكنه فشل فسقطت بلش فى السنة المذكورة ، واستمر النصارى فى زحفهم فاحتلوا حصن تمارش، وحصن مونتمبور حتى اشرفوا على ثغر مالقة من كل صوب، فضربوا حولها حصارا شديدا من البر والبحر، ودافع اهلها دافعا مريرا لمدة ثلاثة اشهر، ولم ينجدها الزغل خوفا ممن غدر ابن اخيه ، وتركها مهيبة وهو يذوب حسرة والما فاستسلمت فى النهاية ودخلها النصارى دخول الفاتحين فنهبوا واحرقوا وسبوا النساء والاطفال وفرضوا على اهل المدينة شروطا قاسية . انظر نهاية الاندلس (ص ٢١٧) وتصف الرواية ذلك بقولها " وكان مصابهم مصابا عظيما تحزن له القلوب، وتذهل له النفوس، وتبكي لمصابهم العيون" . مجهول ، اخبار العصر (ص ٢٧ - ٢٨) .

(٢) الحجور: النواحي والارجاء . اللسان (حجر) .

(٣) الفطور: مفرد فطر وهو الشق . اللسان (فطر) .

وبالله ان جئت المنكب^(١) فاعتبر
وسكرها قد بدل اليوم علقما
وعن على الاقليم فابك ربوعها
وودع بها وفد النعيم فانها
فقد خف ناديمها وجف نضيرها
لها رجة ، نار الهيام تثيرها
بسحب يضاهاى المعصرات غريها
لها ادمع فيض الدموع يميزها^(٢)

ولعلنا نلاحظ هنا مقدرة الشاعر على التفنن فى جلب الاوصاف الحية
لما اصببت به المدينة الثكلي ، فكأنه يرثى لحال امرأة حسناء فقدت بنيتها
فجزت شعرها اسفا ، ولا زمها حزن فظيع افقدها الحركة . اما المنكب فامرها
يدعو الى الاعتبار مما اصابها من التدمير والهلاك على الرغم من منعتهما
وقوة حصونها وتلك ارادة الله النافذة لا محالة . ثم يأتى دور مدينة المرية^(٣)
مسقط رأس الشاعر فيرثيها بقوله :

وما انس لانس المرية انما
فلقد احرق الشك المصابين اصبحت
فيا اصدقائي ودعوها كريمة
منازل آبائي الكرام ومنشىء
واقروا عليها من سلامي تحية
قتيلة اوجال ازيل عذارها^(٤)
تأجج من حر الوجيف بحورها
او استودعوها من اليه امورها
واول اوطان غذاني خيرها
تجدد لها آصالها وبكورها

(١) المنكب : مدينة حسنة متوسطة الحجم ، وهي مرسى الاندلس ، وتشتهر
بحصنها المنيع الذى لا يرام ومنها الى غرناطة اربعون ميلا ، وبها
خرج عبدالرحمن الداخل عند دخوله الاندلس سنة ١٣٨ هـ . الروي
المعطار - المنكب . وقد سقط هذا الشجر الحصين فى يد النصارى سنة
٨٩٥ هـ وذلك بعد ان سقطت مالقة وجميع ما حولها من الحصون
وانقطع بذلك المدد البحرى عن الاندلس ، قرر فرناند ونزع ما بقى فى
ايدى المسلمين من المناطق وهي تنحصر فى (شجر المرية والمنكب) حيث
فرت اليهما جموع كثيرة من اهل مالقة وغيرها ، فسار فرناند الى المنكب
بعد سنة من الاعداد وحاصرها ثلاثة اشهر حتى اضعفها فاستسلمت على
شروط كثيرة ، وعود مغرية للقادة والامراء فيها . انظر نهائية
الاندلس : ص ٢٢٤ .

(٢) يميزها . اللسان (مير) .

(٣) اما المرية فهي شجر حصين يقوم على جبلين بينهما خندق . وقد تقدم
التعريف بها فى الفصل الثانى ، وقد سقطت فى نفس السنة التى سقطت
فيها المنكب حيث لم يبق الا هي امام العدو فحاصرها ، ودكها حتى
استسلمت على شروط كثيرة غادة .

(٤) في كلمة (عذارها) جاءت الالف قبل الروي ، وهي المرة الوحيدتين تعاقب
الياء والواو .

وهنا نرى الشاعر وقد ودع مدينته الوداع الاخير بعد ان فقد كل امل
فى رجوعها الى حيز الاسلام ، ثم ذهب - فى اسف شديد - يبحث عن الاسباب
التي ادت الى هذه الطامة فيجدها فى اضاعه حقوق الله ، والاسراف فى
المعاصي . يقول :

اضعنا حقوق الرب حتى اضاعنا	وفضت عرى الاسلام الايسيرها
وملتنا لم نعرف الدهر عرفها	من النكر فانظر كيف كان نكيرها
بما قد كسبنا نالنا ما انا لنا	كذا السيرة السوأى لدى من يسيها
بشقوتنا الخذلان صاحب جمعنا	وبؤنا باحوال ذميم حضورها
بعصياننا استولى علينا عدونا	وعاثت بنا اسد العدا ونمورها

ومن جراء هذا العصيان ، والتفريط فى جنب الله فقد عوقبوا بالخذلان
فلم يقيض الله لهم ناصرا وسلط عليهم عدوا كاسرا يصفه الشاعر بقوله :

نعم سلبوا اوطاننا ونفوسنا	واموالنا فيثا ابيحت وفورها
علوها بلامهر وما غمزت لهم	قناة ولا غارت عليهم ذكورها
وقد عوت الافرنج من كل شاهق	علينا فوفت للصليب نذورها
وقد كشرت ذؤبانها وكلابها	وقد كسرت عقبانها ونسورها
وجاءت الى استئصال شأفة ديننا	جيوش كموج البحر هبت دبورها
علامات اخذ مالنا قبل بها	جنايات اخذ قد جناها مشيرها

ثم يختم الشاعر سلسلة الاسى برثاء واسطة عقد الاندلس ، وعاصمة
آخر مملكة اسلامية فيها وهى غرناطة . يقول :

ألا ولتقف ركب الاسى بمعالم	قد ارتج باديبها وضج حضورها
بدار العلى حيث الصفات كأنها	من الخلد والمأوى غدت تستطيرها ^(١)

(١) المأوى : يقصد جنة المأوى اخذا من الاية (عندها جنة المأوى) سورة
النجم : ١٥ ، تستطيرها : اى تطيرها اليها . الصحاح (طير) .

محل قرار الملك غرناطة التي	هي الحضرة العليا زهتها زهورها
فما في العراقيين العتيقين مثلها	ولا في بلاد الله طرا نظيرها ^(١)
تري للاسي اعلاها وهي خشع	ومنبرها مستعبر وسريرها
ومأمومها ساهي الحجى وامامها	وزائرها في ماتم ومزورها
لها حال نفس قد اصيبت فودها	وبنت لها اليمنى وحم ثورها
فانفسها في الصعق دون افاقة	كنفس كليم الله اذ دك طورها ^(٢)
وقد ذعرت تلك البنيات حولها	فهن بواكى الاعين الرمد مورها ^(٣)

لقد كان لغرناطة - في نفوس المسلمين عامة - مكانة عظيمة ، ولكونها هي الجانب الوحيد الذي بقي صوت الاسلام مسموعا فيه ، ولكن من المحال ان تصمد تلك المدينة وحدها وسط خضم زاخر من وحوش الصليبيين الحاقدين ، وبخاصة بعد ان جردوها من جميع الحصون والارياض التي من الممكن ان تشكل خط دفاع اول عنها ، ولذا فقد جاءت النتيجة الحتمية لهذا المسلسل الدامي وسقطت غرناطة سنة سبع وتسعين وثمانمائة . فكان لذلك رنة حزن دوت في ارجاء العالم الاسلامي الذي لم يفعل شيئا اكثر من ذلك . ولعلنا نلاحظ خفوت صوت الموسيقى الشعرية ، لمناسبة موقف السذل والبؤس الذي جلل اعلام غرناطة الشوامخ ، كما استعمل الشاعر الالفاظ الدالة على الضعف والانكسار كقوله : " تري للاسي اعلامها وهي خشع ... ومنبرها مستعبر وسريرها " . وقوله : " ومأمومها ساهي الحجى وامامها ... " " وقد ذعرت تلك البنيات حولها ... الخ .

-
- (١) المقصود عراق العرب وعراق العجم .
 (٢) يشير الى قوله تعالى (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب انري انظر اليك . قال لن تراني ولكن انظر الي الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا . . الاية سورة الاعراف : ١٤٣ .
 (٣) مارالدمع : سال وجري . اللسان (مور) .

وفى معرض حديثه عن حال غرناطة يعرج الشاعر على ذكر بعض المناطق التي سقطت قبل غرناطة بزمن يسير فيقول :

وقد رجفت وادى الاش ^(١) قباعها	سكاري وما استاكت بخمر ثغورها
وبسطة ذات البسط ما شعرت لما	دهاها ، وانى يستقيم شعورها
على عظم بلواها وطول وبالها	وما كابدت من ذا المصاب نحوها

ثم يختم الشاعر قصيدته بصرخة استنفار يوجهها الى المسلمين لحل وعسى :

معاشر اهل الدين هبوا لصعقة	وصاعقة وارى الجسوم ظهورها
اصابت منار الدين فانهد ركنه	وززعزع من اكنافه مستطيرها
ودبت افاعيها الى كل مؤمن	وعض باكباده الثقة عقورها
انادى لها عجم الرجال وعربها	نداء سراة القفر اذ ضل غيرها
واستنفر الادنى فالادنى فريضة	على زمر الاسلام جلت اجورها
الا واستعد والجهاد عزائمها	يلوح على ليل الوغى مستنيرها
باسد على جرد من الخيل سبق	يدع الاعداء سبقها وزئيرها
بانفس صدق موقنات بانها	الى الله من تحت السيوف مصيرها

(١) الملاحظ هنا ان الشاعر لم يراع الترتيب الزمني ، فان بسطه سقطت قبل وادى اش بعدة اشهر واد هنا ان اسير حسب نسق الحوادث فاتحدث عن بسطة وسقوطها ثم عن وادى اش . فبسطة مدينة حصينة ذات اسوار تتبع لمنطقة جيان ، وهي متوسطة المقدار وكثيرة السكان ، وذات خصوبة عالية . انظر الروى المعطار (بسطة) . ولما كانت هذه المدينة من امنع ولايات غرناطة الشرقية ، فقد سار اليها فرناندو سنة ٨٩٥ هـ وحاصرها بشدة ، ولكنها صمدت وقاوم اهلها مقاومة الابطال بقيادة القائد (يحيى النيار) ولما طال الحصار وفتك بالناس الجوع والمرى ، جنحوا الى المفاوضة وبذل لهم فرناندو كعاداته من الشروط والوعود ما حطمهم على التسليم ومفاداة المدينة نحو وادى اش . وبهذا يكون فرناندو قد بسط سلطانه على قواعده =

وحالة نور الورد ذر ذرورها	وضرب كأن الهام تحت ظلالها
كاقلام ذات الخط خطت سطورها	وطعن يرى الخطي في مهبج العدا
وتحظوا بآمال يشوق غريرها	يمين هدى ان تتقوا الله تنصروا
تدين بدين الحق وهو نصيرها	فلا يخذل الرب المهيمن اممة
بواد رسخط ليس يرجي فتورها	وان انتم لم تفعلوا فترقبوا
يطاول آناء الزمان قصيرها	وايام ذل واهتضام وفرقة

ولعل الشاعر يشير في اول هذه الابيات الى بداية المحاولة الاثمة التي قام بها الاسبان لتنصير المسلمين وذلك نحو سنة خمس وتسعمائة حينما استعملت الكنيسة الكاثوليكية كل وسائل الضغط على فرناندو وايسبيللا ليشرعافسي نقض شروط تسليم غرناطة التي منها حرية العقيدة وممارسة الشعائر - ولينفذ سياسة التنصير التي اعدتها الكنيسة بحجة ان بقاء المسلمين على اسلامهم وسط المجتمع النصراني يشكل خطرا على امنه وبالفعل استجاب الملكان لذلك واصدرا قرارا بتنصير المسلمين قسرا واستدعى الكردينال خميس رأس الكنيسة الاسبانية الى غرناطة لينفذ المهمة (١) .

ولهذا نرى الشاعر يستنجد باهل الدين من المسلمين ليقفوا في مواجهة الصاعقة التي هدت ركن الدين ، وسعت لاستئصال جذوره بكل الطرق .

اما قوله : الا واستعدوا للجهاد عزائما . . . الى آخر الابيات فلعله يشير بذلك الى الثورة التي حاولت بعض الاحياء الاسلامية القيام بها كحي البيازين (حي غرناطة الشعبي الواقع في شمالها الشرقي) وذلك ردا

= الاندلس الشرقية كلها ولم يبق خارج طاعته سوى وادي آش مدينة الزفل الذي رأى عبث المقاومة ، فسار اليه معسكر فرناندو وقدم الطاعة والخضوع وعقد معه معاهدة سرية فيها المنح والامتيازات الخاصة به بعد تسليم المدينة ، وتم التسليم في اواخر سنة ٨٩٥ هـ ودخلها النصاري وغادرها الزفل الى المغرب . انظر نهاية الاندلس : ص ٢٢٧ .

(١) انظر نهاية الاندلس : ص ٣١٥ .

على قرار التنصير الذي اتخذ من هذا الحى مركزا للمنصرين ، وحول المسجد الجامع فيه الى كنيسة ، كما قامت ثورة اخرى في منطقة جبلية وعرة بجوار منطقة رندة فالحقوا بالحملة النصرانية التي جاءت لقمعهم هزيمة شديدة ، اضطرت ملكي اسبانيا الى استعمال اللين مع الثائرين حتى هاجروا الى المغرب (١) والشاعر ما ان رأى قبسا بسيطا من الجهاد يحاول الاشتعال حتى اخذه الحماس وراح يحرض على اخلاص النية لله وتجريد السيوف والرماح في وجه العدو والكافر ويحذر من التقاعس الذي يجلب سخط الله ، ويدعو الى تحكم العدو في مصير المسلمين واغراقهم في ذل لانهاية له ، وهذا ما حصل فعلا في الاندلس بعد ان اخمد فيها صوت الجهاد الى الابد . ولعلنا نلاحظ ان القصيدة وقفت عند هذه الواقعة في الاشارة الى الحوادث التاريخية ولم تتجاوزها ، مما له دلالة على انها آخر ما ادركه الشاعر عند نظمه قصيدته ، وهنا يمكننا ان نستنتج ان القصيدة قيلت في سنة اربع وتسعمائة او خمس وتسعمائة .

ويبدو ان الشاعر قد يعيش من نصرة البشر ، فتوجه الى الله بهذا الدعاء الخاشع :

اله الورى ، ندعوك يا خير مرتجى	لكالحة هز الصليب سرورها
وشقت جيب المؤمنين واسخنت	عيونهم والكفر ظل قريرها
وليس لها ياكاشف الكرب ملجأ	اذا لم يكن منك التلاقي ظيورها
افت دعوات المستغيثين انهم	ببائك موقوفو الحشاشات بورها
وارسل على هذا العدو رزية	يروح ويغدو بالبوار ميرها

وبعد ، فالقصيدة من اروع ما قيل في رثاء الاندلس ، فقد اضفى عليها صاحبها من ذوب نفسه التي يمتزج فيها انفعال الحزن والالم بانفعاله

الغضب والحماسة ، فراه قد خلق في عالم شعري هو في جانب من كـهـف مظلم تتمزق فيه نفس الشاعر وهو يشاهد مسقط رأسه ، ومرتع شبابه وقواعد الاسلام العظيمة تهوى في جحيم الصليبية الحاقدة ، فيبكي بكاء الشكلى ويندب كالنائحة . فيسرى منه هذا الشعور ليشمل المدن والحجارة والانهار والجبال . . . فتتخرط كلها في موكب حزين مضطرب . وهذه الطبيعة الحية ذات الوجدان والشعور التي تبرز في هذه القصيدة وغيرها من الادب الاندلسي كانت المرتكز التي قامت عليه النظرية الرومانتيكية في الشعر عند الغربيين فيما بعد .

اما الجانب الاخر من العالم الشعري الذي عاش فيه الشاعر فتخلله ومضات مضيئة تنعش نفس الشاعر بعض الشيء ، فيمد بصره بعيدا ، وتدور في نفسه آمال كبيرة ، فيندفع ليفذيهما بعض الناس على التقوى وطاعة الله واصلاح النفوس بحملها على الجهاد في سبيل الله الذي هو الطريق الوحيد للعزة الابدية .

اما اسلوب الشاعر فهو رصين محكم ، مشرق العبارة قويها ، ولعلنا نستشف من هذا ان القصيدة قد قيلت بعد سقوط غرناطة بزمان يسير قبل ان تفعل السياسة النصرانية فعلها في محاربة اللغة العربية ومسختها ، كما حدث بذلك فيما بعد ايام المورييسكيين : المضطهدين والشاعر - كما يتضح من القصيدة - ذو نفس طويل وشاعرية فذة ، وطبع ابتعد به عن الجري وراء الصنعة البلاغية ، كما نلاحظ التأثير بقصيدة ابي البقاء الرندي في رثاء الاندلس ، فقول شاعرنا المجهول :

فوا حسرتا كم من مساجد حولت	وكانت الى البيت الحرام شطورها
ووا أسفا كم من صوامع اوحشت	وقد كان معتاد الاذان يزورها
فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى	وأياتها تشكو الفراق وسورها

مستوحى من قول ابي البقاء :

حيث المساجد قد صارت كنائس ما فيهن الانواقيس وصلبان
حتى الحاريب تبكي وهي جامدة حتى المنابر ترثي وهي عريان

وقول الشاعر :

وكم من طفلة حسناء فيها مصونة اذا اسفرت يسبي العقول سفورها
تميل كفصن البان مالت به الصبا وقد زانها ديباجها وحريرها
فاضحت بايدي الكافرين رهينة وقد هتكت بالرغم منها ستورها

مستوحى من قول الرندي :

وطفلة مثل حسن الشمس اذ طلعت كأنما هي يا قوت ومرجان
يقودها العليج للمكروه مكرهة والعين باكية والقلب حيران

اما بالنسبة للشاعر فلم يتحقق احد من الباحثين من شخصيته على وجه اليقين ، يقول الاستاذ عبدالرحمن الحجى الذى نشر القصيدة (١) : "قصيدة بليغة من الادب الاندلسي الرائع ، تصف احسن وصف المأساة الاندلسية لم نعثر على قائلها ، وقد طبعها لأول مرة الدكتور صوالح محمد بالجزائر سنة ١٩١٤م مع ترجمة فرنسية وبعض التعليقات ، وذكر فيها انها من جملة قصائد بعثت الى السلطان بايزيد العثماني بقصد الاستغاثة . وقد عرضتها على المؤرخ المغربي الكبير محمد بن علي الدكالي السلوى فذكر لـ (٢) ان صاحبها كما يفهم من القصيدة من مدينة المرية ولعله ابو جعفر بن خاتمة

(١) مجلة الرسالة ، العدد : ١٣١ ، السنة الرابعة مج ١ ، ١٣٥٤ هـ /

١٩٣٦ م .

(٢) هو ابو جعفر احمد بن علي بن خاتمة الانصارى الاندلسي . من اهل المرية . شاعر كاتب مترسل ، وفقه مصنف ، جلس الى الشيوخ حتى اتيح له التدريس في جامع المرية فدرس علم العربية وغيره . قال فيمصدق له ابن الخطيب " هو حسنة من حسنات الاندلس ، وطيفة في النظم والنثر " وقد كان يعد من وجوه العصر الثامن وادبائه المعدودين . توفي سنة ٧٧٠ هـ وله كتاب مزية المرية وهو مفقود ، وكتاب " ايراد اللال من انشاد الطوال " . انظر الاطاحة : ١١٤ ، الكتيبة الكامنة : ص ٢٣٩

- ٢٤٥ ، نشر الجمان : ص ١٧٥ .

ولعل شكيب ارسلان^(١) اطلع على هذا الكلام فاورد جزءا من القصيدة ونسبها ايضا لابن خاتمة ، وذكر انه نظمها سنة اربع وتسعمائة او بعد هــا بقليل . ولكن الواقع التاريخي يثبت بطلان هذه النسبة لان ابن خاتمة المذكور توفي سنة سبعمائة وسبعين وسبعمائة اي قبل سقوط المدن المذكورة في القصيدة بنحو قرن وربع القرن ، كما ان ابن خاتمة لم يكن شاعرا مغمورا فقد طبقت شهرته الاندلس في زمانه ، فهو يقارن بلسان الدين بن الخطيب واضرا به اصف الى ذلك ان ديوان شعره قد وصلنا بخط يده وهي النسخة التي صنعها سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة وهي تخلو من ذكر القصيدة تماما^(٢) .

اما ما قيل من انها وجهت الى السلطان العثماني . فليس في القصيدة اي اشارات تدل على ذلك ، وقد عرضنا في فصل سابق للقصيدة الطويلة التي ارسلها الموريسكيون للسلطان بايزيد العثماني . واخيرافمن غير المتوقع ان نثر على شخصية قائل هذه القصيدة التي قيلت في تلك السنوات العجاف ، وبخاصة انها تتعرض للعدو المسيطر .

(١) انظر الحلل السندسية : ٣ / ٥٤٧ - ٥٤٩ .

(٢) حقق الديوان الدكتور رضوان الداية ، وطبع في دمشق سنة ١٣٩٢ هـ /

الباب الثالث

دراسة تفصيلية لشعر رثاء الدول والأُمَم

الفصل الأول رثاء الدول والأمصار بين التأثير والتأثير

قبل ان اتحدث عن تفاصيل رثاء الدول والأمصار في الشعر العربي اود في هذا الفصل ان اتناول بالبحث نشأة هذا الشعر، فقد دارت تساؤلات كثيرة بين الباحثين في الشعر العربي، مشرقية واندلسية حول المهـد الاول الذي ولد فيه شعر رثاء الدول والأمصار الذي اشتهر في الاندلس خاصة بصورة كبيرة، فهل هو غرض شعري ابتدعه الاندلسيون؟ او انه كان معروفا في المشرق، وتناوله شعراء الاندلس على سبيل المحاكاة والتقليد عندما حلت ببلادهم النكبات؟ وقد تضاربت الردود والاجوبة حول هذا الموضوع فذهب بعضها الى أن الأدب الأندلسي بجملته لم يأت بجديد، ولم تكن له الشخصية المميزة، بل هو تقليد لادباء المشرق ودوران في فلكهم وضمن آفاقهم، ومن اصحاب هذا الرأي الدكتور شوقي ضيف الذي يقول (١):

" ونحن لا نبالغ اذا قلنا بان شخصية الاندلس في الادب العربي ليست من القوة كما ينبغي فقد كانت الكتلة الاندلسية تنساق نحو التقليد المشرقي بكل ما فيه، وحتى شعر الطبيعة عندهم لم يأتوا فيه بجديد سوى الكثرة. اما بعد ذلك فصورته كله بما فيها من افكار واخيلة واساليب هي الصورة المشرقية. . . . وما أراني أبعد، اذا قلت أن الأندلس كانت تستمد نهضتها وحياتها من بغداد شأنها في ذلك شأن الأقاليم الاخرى".

ولا يخلو هذا القول - في نظري - من المبالغة والمغالاة، فبالرغم من أن الادب المشرقي ظل انموذجا يحتذى عبر عصور الأندلس الأدبية - على تفاوت في الاحتذاء بين الفترات الزمنية - برغم ذلك فان للأدب الأندلسي شخصية متميزة وطابعا خاصا،

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي: ص ٤١٢ .

ماذا نسمى ابتكارهم لفن الموشحات، واقتنائهم في اختراع الصور النابضة من شعر الطبيعة حتى كاد هذا اللون يكون وثقا عليهم لجودته وكره شعرائه وما هو بالصورة الساذجة التي يشير اليها الدكتور شوقي ضيف، فالشاعر الاندلسي امتزج بطبيعة بلاده الساحرة حتى نراه لا ينفك عن ذكرها واستعمال صفات اجزائها في اغراض لا تمت الى الطبيعة بسبب كالمدهج والرثاء كقول ابن خفاجة في المدهج :^(١)

لذكرك ما عب الخليج يصفق^(٢) وباسمك ما غنى الحمام المطوق
ومن اجلك اهتز القضيب على النقا واشرق نوار الربى يتفتق

وكهوله ايضا في الرثاء البعيد كل البعد عن وصف الطبيعة وموحياتها :

في كل ناد منك روض ثناء وبكل خد فيك جدول ماء
ولكل شخص هزة الفصن الندى غبَّ البكاء، مونة المكاء^(٣)
يا مطلع الانوار . . ان بمقلتي اسفا عليك، كمنشأ الانواء

كما لاننسى ايضا بروز الاندلسيين الى حد كبير في مجال رثاء الدول والمدن وتفردهم في ابتداء شعر الاستصراخ والاستغاثاة حتى غدا فنا قائما بذاته انطبع بطابعهم، ولعل الدكتور شوقي ضيف يريد من الادب الاندلسي ان يتميز باغراضه واساليبه تميزا كاملا عن ادب المشقوق بحيث يبدا اذبا آخر له مقوماته ومجالاته الخاصة . وهذا امر عسير، ومن غير المتوقع حدوثه، وذلك لان الاندلس كانت جزءا من الدولة الاسلامية في كثير من الفترات، واهل تلك الجزيرة ما هم في غالبيتهم وبخاصة اهل الشعر والادب - الاجزاء من القبائل العربية التي دخلت ايام الفتح اوفى

(١) ديوان ابن خفاجة : ص ١٨٥ .

(٢) العب : شرب الماء وتتابع جره . القاموس المحيط (عب) .

(٣) غبَّ البكاء : البكاء الشديد الذي يكون بعد شوق وانقطاع، المكاء :

طائر له صوت رنان . الصحاح (مكاء) .

زمن الامويين ، وتجمعهم باهل المشرق وحدة الاصل ، ووحدة العقيدة واللغة . اصف الى ذلك ان هؤلاء الشعراء والادباء الذين ذاع صيتهم في الاندلس قد تتلمذوا على مؤلفات المشاركة وثقفوا بها ، فلاعجب ان يسيطر الطابع المشرقي على آثارهم ومؤلفاتهم الادبية وغيرها ، فهم في الواقع كانوا يستقون من منبعين احدهما مشرقى والاخر ينبع من داخل جزيرة الاندلس . ولعل ادباء الاندلس وجدوا انفسهم مدفوعين الى ورود مآهل الادب المشرقي لان ماحولهم من بلاد اوروبا آنذاك لم يكن فيها من العلم والادب ما يدفع الاندلسيين الى اخذه والاستغناء به عن ادب المشرق .

وذهب فريق آخر من الباحثين الى القول بان رثاء الدول والامصار فن اندلسى المنشأ لم يظهر في المشرق الا في فترات متأخرة ، وما وجد منه يوصف بالضعف والتكلف . يقول احمد امين : ^(١) " لقد رأينا مدنا في المشرق تتساقط تساقط اوراق الشجر ، تستوجب الرثاء والبكاء ، كما سقطت بغداد في يد التتار ، وازالوا كل ما فيها من مظاهر مدنية وحضارة ، وفعل التتار فيها ما لا يقل عما فعله الاسبانين في الاندلس ، وغزا هولاء كوتيمور لنك ونحوهما الشام ، واسقطوها بلدا بلدا ، فما رأينا عاطفة قوية ، ولا رثاء صارخا ، ولا ادبا رقيقا ، ولا تاريخا مسجلا ، كالذي رأيناه في الاندلس ، فان قلنا ان هذه الناحية في التاريخ الاندلسى اقوى واشد لم نبعد عن الصواب " .

ويعلق الدكتور محمد رجب البيومي على هذا الكلام بقوله : ^(٢) " وبمارة استاذنا الكبير - رحمه الله - على شيء من التناقض اولا واخيرا ، اذ ان قوله فان قلنا ان هذه الناحية في التاريخ الاندلسى اقوى واشد لم نبعد عن الصواب ، قد يبد ومتعارضا مع قوله فما رأينا رثاء صارخا ، ولا ادبا رقيقا ولا تاريخا مسجلا . . لان القول الاخير يعترف بوجود هذا اللون على نحو اقل

(١) ظهر الاسلام : ٣ / ٢٨٧ .

(٢) الادب الاندلسى بين التأثر والتأثير ، ص ٢١١ .

من لون الاندلس، والقول الاول يكاد يحكم بعده . . مع ان القصص لكاتب الادب والتاريخ يرى رثاء المدن ذائعا في كل محنة تجد . ولم يتعرض امثال الطبرى وابن الاثير والمسعودى لمحنة ما الا روي عنها في كتب التاريخ - فضلا عن كتب الادب الخالص - نماذج رائعة فيها الرثاء الصارخ والادب الرقيق والتاريخ المسجل .

ويذهب بطرس البستاني الى ان العاطفة الوطنية ضعيفة في شعر بكاء المدن في المشرق حتى لانكاد نلمح لها خيالا الا في النادر، وأشار الى ان الفرق واسع بين شعراء الاندلس وشعراء العباسيين من حيث حب الوطن والتعلق به .^(١)

ويشارك الدكتور محمد مجيد السعيد هذا الفريق، فيشير الى ان بكاء الدول والمدن الزائلة ولد بالاندلس بفعل الكوارث التي عاشتها، والمحن التي قاستها، فقيلت القصائد لتخليد مآثرها، وبرزت المشاعر الوطنية التي تدعو الى الجهاد، والوقوف في وجه الاطماع والتوسع في حين تأخر ظهور مثل هذا الفن في المشرق حتى سقوط بغداد، اما قبل ذلك فالشعر المشرقي يكاد يخلو تماما من امثال هذا اللون سوى ما قيل في الاستعمار والاستذكار، وايوان كسرى .^(٢)

والناظر في هذه الآراء يجد انها تكاد تجمع على سبق الاندلس في هذا المضمار، وتكاد تنكر ظهور مثل هذا الشعر قبل سقوط بغداد سنة ست وخمسين وستمائة على يد المنصور . والواقع ان الزعم بتأخر شعر الرثاء كل هذه الفترة قد يكون مجانباً للصواب، وفيه اجحاف شديد بحق شعراء المشرق . اذ اننا نجد قصائد رائعة في رثاء بغداد ايام فتنة الامين والمأمون في اواخر القرن الثاني الهجري، كقصيدة ابي يعقوب الخريمي الطويلة

(١) ادباء العرب في الاندلس وعصر الانبعاث: ص ٢٩ .

(٢) الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالاندلس: ص ٣٠٨ .

التي صورت المأساة اصدق تصوير بعيدا عن الصخب والتكلف، فصاحبها شاعر مطبوع شعر بهزة عظيمة عندما رأى مدينته العظمى تصبح اطلالا وخرائب، فاطلق هذه الزفرات الحارة . ولكن لا ادري لماذا ادارت كتب الادب ظهرها لهذه القصيدة، حتي كادت تنسى بالرغم من جودتها، فلم يوردها كاملة الا الطبرى في تاريخه^(١) . ولعل ذلك راجع لخمول ذكر صاحبها بسبب بعده عن دواوين الخلفاء والرؤساء وعدم مدحه لهم تعففا عن التكسب بالشعر .

او ربما كانت الدولة تدفع الناس لنسيانها رأبا للصدع ولأما للجرح بين بني العباس، وقصيدة هذه حالها في المشرق من الصعب ان نفترض انها وصلت الى الاندلس، ولكن لا يجوز لنا اغفالها فهي - ولا ريب - رائدة في مجالها . وكذلك قصيدة ابن الرومي في رثاء مدينة البصرة حينما دمرها الزنج في منتصف القرن الثالث الهجري فقد بكأها بحرارة وصدق، ووثب خياله فيها وثبات جميلة معبرة لم يسبق اليها، وذلك حين صور مشهد المحشر الرهيب يوم القيامة وقد وقف معاصرونكبة البصرة خاشعين من الذل، والجبار - عز وجل - يقرعهم ويبكيهم :

يا عبادي اما غضبت لوجهي	ذي الجلال العظيم والاكرام؟
اخذلت اخوانكم، وقعدتم	عنهم - ويحكم - تعود اللثام؟
كيف لم تعطفوا على اخوات	في حبال العبيد من آل حام؟
لم تغاروا لغيرتي، فتركتم	حرماتي لمن احل حرامي
ان من لم يفر على حرماتي	غير كف لقاصرات الخيام

او حينما يصور عتاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - لهم في ذلك الموقف العصيب :

(١) اورد ابن قتيبة ابياتا منها في الشعر والشعراء ٨٥٥/٢ . وجاء الجاحظ بابيات منها اقل في كتابه الحيوان ٢٢٥/١ . ٢٠/٥

امتى . اين كنتم اذ دعتنى
صرخت "يا محمداه" فـهـلـا
لم اجبها اذ كنت ميتا فلولا
حرة من كرائم الاقوام
قام فيها رعاة حق مقامى
كان حى اجابها عن عظامى

انها صور بدیعة مؤثرة تدفع سامعها الى العمل الايجابى ، فيهب
للجهاد فى سبيل الله والدفاع عن حرماته ، لينجوبذلك من الخـزى
والعذاب ، وهذا مايسعى اليه الشاعر .

واكد اذهب الى ابعد من هذا كله ، الى العصر الجاهلى حيث
البكاء على الأطلال والرمم الذى يدل على العاطفة الصادقة لدى العربى
نحو منازلهم وصحرائهم ، فكيف يكن حال هذا الشاعر البدوى لو كان يعيش فى
مدينة ، والمت بها نكبات الدهر ، لاشك انه سيتدفق كالسيل باكيا وراثيا
فى قصائد رنانة ، وقد قدمنا فى الفصل الخاص برثاء الممالك فى الجاهلية
نماذج لهذا الشعر .

اما قول القائلين بان العاطفة الوطنية فى شعر المشاركة ضعيفة
ولا تكاد تلمح فهو ليس على اطلاقه ، لان لدينا من القصائد ذات العاطفة
الصادقة والمشوبة ما يضاهاى رثاء الاندلسيين ان لم يفق الكثير من قصائده
فبالاضافة الى قصيدتى الخريمى وابن الرومى نجد الشعر الذى قيل فى
رثاء بيت المقدس عندما سقط بيد الصليبيين فى اواخر القرن الخامس الهجرى
وبخاصة قصيدة ابى المظفر البيمردى التى يصف فيها ملاقته المدينية
المقدسة من الاهوال العظام بأسلوبه المثير الذى ابكى عين سامعيه دما
وصور الحدث تصويرا اصاب الناس بالذ هول والدشة تمهيدا لحثهم على
نصرة اخوانهم . ونراه قد ألم بطرف من صور ابن الرومى ومعانيه حينما
يتخيل النبى - صلى الله عليه وسلم - وقد رأى تقاعس الامة عن الجهاد
والدفاع عن حرمت الله التى انتهكها الصليبيون وعملوا بالمدينة المقدسة
واهلها اعمالا :

يكاد لهن المستجن بطيبة	ينادى باعلى الصوت يا آل هاشم
ارى امتي لا يشرعون الى العدى	رماحهم والدين واهى الدعائم
ويجتنبون النار خوفا من الردى	ولا يحسبون العار ضربة لازم
فليتهم اذ لم يذودوا حمية	عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم

فعاطفته الاسلامية متأججة ثائرة، تنادى المسلمين عربا وعجماء
للدفاع عن الوطن الاسلامى مهما بعدت اصقاعه .

وهناك - ايضا - الشاعر الفقيه عمارة اليمنى الذى ظل يرثى الخلافة
الفاطمية بمصر بشعر يفيض بالصدق وحرارة المشاعر، فقد كان هـذا
الشاعر محبا لا ولئك القوم بالرغم من كونه سنيا وهم شيعة، وقد ملك عليه
هذا الحب وجدانه، حتى كانت قصور الفاطميين هي مبعث وجدده واشجانده
بعد ان اقفرت من اهلها، حتى اوردته ذلك موارد الهلاك، بعد ان لم
يطلق رؤية الايوبيين في تلك الربوع فذهب يدبر الخطط ضد هم حتى ظفروا
به فقتلوه .

وبعد فلعل في هذه الامثلة والمناقشات ما يثبت وجود شعر رثاء
الدول والامصار في المشرق قبل سقوط بغداد بقرن عدة، كما ان فيها
ما يرد القول بضعف العاطفة الوطنية عند الشعراء المشاركة.

اما ما قيل في رثاء بغداد والشام عندما دمرت على يد التتار، فلا
يخلو ايضا من صدق العاطفة فقد هز النبأ الهائل - سقوط الخلافة
الاسلامية وتد مير عاصمتها بغداد - نفوس جميع المسلمين وادمت قلوبهم
تلك الصور البشعة من القتل والحرق والسحق الهمجي لكل شيء، فانبرى
الشعراء يبكون البلاد والعباد، ولكن شاب قصائد هم الاسراف في المنفعة
البلاغية كالجناس والطباق والمقابلة، والتضمن الى غير ذلك . فهـذا
الشيخ شمس الدين الكوفي يفتح احدى مراثيه بقوله :

ان لم تقرح ادمعي اجفانسي من بعد بعدكم فما اجفانسي
انسان عيني مذتئات داركم ماراقه نظر السى انسان
مالى وللايام شتت شملها حالى وغلانى بلا خلان

فهذه الابيات وغيرها يشم منها رائحة التكلف فتبدد و العاطفة ضعيفة شاحبة وسط هذا الجنس المتلاحم . ولعل السبب في ذلك اسلوب العصر الذى انحدر فيه الفهم العام لمدلول الشعر عند النقاد والشعراء ، فحكمم بالجودة للقواعد التى تحوى قدرا كبيرا من المحسنات اللفظية والبديعية وتظهر مقدرة قائلها على الزخرفة واستعمال الوان ثقافته في شعره ، ومن الجدير بالذكر ان الذين برزوا في رثاء بغداد والشام لم يكونوا شعراء منقطعين للشعر وانما هم بين واعظ ، ومهزج ، كاهن العديم ، وطبيب كهلاء الدين الغزولي .

ولعل الذى حمل النقاد على وصف مرثي المشاركة لمدنهم بضعف العاطفة هو نظرهم باعجاب الى عواطف الشعراء الاندلسيين نحو بلادهم فالاندلسيون - بحق - من شعرهم يتعلم حب الوطن ، فهو ممتزج بدماهم وارواحهم ، والاندلس تظل قبلة شاعرها انى ذهب ومهما اغترب ، وحنينه اليها يبقى مشتتلا مرتلا في قصائد شجية تبقى انموذجا شامخا على مر الايام ولا عجب في ذلك ، فطبيعة وطنهم الساحرة ذات فضل كبير عليهم ففى شخذ قرائحهم واكسابها الخيال الجميل ، والامر الثانى يكمن فى وقوع ^{فى وسط نصرانى يعمل جاهد السحق الامم الاسلاميه} الاندلسيين المسلمة وطرد لها من تلك البقعة ، الامر الذى ولد عند الاندلسيين شعورا قويا بانهم يملكون علقا نفيسا تتطلع اليه عيون الطامعين فازدادت العاطفة الوطنية فى نفوسهم تأججا ، فما تسقط مدينة الا رأيت الشعراء يسارعون فى بكائها وتسجيل مآثرها مع الدعوة لرأب الصدع والحث على الوحدة ، والتوجه الى اخوانهم المسلمين يناشدونهم النصر لاجسادهم بان طمع العدو لن يتوقف عند مدينة او سلسلة من المدن .

وفي نظري ان البحث عن سابق ولاحق ، ومؤثر ومتأثر بين المشرق والاندلس في فن رثاء الدول والامصار امر يحتاج الى اعادة نظر ، وربما حدث شيء من ذلك بين شعراء القطر الواحد ، كما هو الحال عند الاندلسيين في احتذاء قصيدة ابي البقاء الرندي لشهرتها الكبيرة .

والذي يدفعني الى انكار التأثير والتأثير على نطاق واسع هو ان هذا الفن يختلف عن باقي الفنون والاغراض الشعرية التي يمكن ان تطبق عليها حكم التأثير والتأثير . اذ ان الصادق منه يقوم على جيشان العاطفة والانفعالات الداخلية عند الشاعر ، وهذه العاطفة تكمن بسكن في نفس كل شاعر - على تفاوت في رهاقة الاحساس وعمقه - فاذا ما حدثت النكبة ، واصيب الوطن اشتعلت نيران هذه العاطفة ، فتفجرت بناابيعها الشره . فمثل هذا الشعراذن لابد ان يكن مبعوثا في كل ادب ، ما وجد الشعراء ، ووجدت النكبات التي تحرك وجدانهم ، وهذان الامران لا يخلو منهما زمان من الازمنة على مدى الدهر كله . اما تكرر معاني الرثاء وتشابهها في كثير من القصائد ، والذي قد يحمل الباحث على القول بالا تباع فان سببه هو تكرر المأساة نفسها ، فماذا عسى ان يقول الشاعر الذي يشاهد مدينته او دولته التي عاش في ظلها ، تستباح وتدمر من قبل الاعداء ، لاشك انه سيكفي للدمار والخراب الذي صيغ المدينة ، ويرثي لحال القتلى والاسرى ، ويصور مصارع الضعفاء من الاطفال والنساء والشيخوخة بحيث يؤثر في السامع ويستدر عطفه وعبرته ، وتشابه هذا الواقع المؤلم في كل مدينة تسقط لا يكن مبررا لاهماله او تجنبه من قبل الشاعر اللاحق بحجة انه قيل من قبل . على ان الجدة والطرافة لدى الشاعر الملهم تبرز في صوره واخيلته والوانه .

وحاصل القول في هذه القضية ان رثاء الدول والمدن مبعوث في الشعر العربي ككل في المشرق والاندلس ، ولكنه اشتهر بالاندلس حتى اقترن ذكره بادبها لما يلي :

اولا : تتابع الاحداث المساوية . فقد ظلت الحروب مشتعلـة بالاندلس على مدى خمسة قرون تقريبا ، يتخللها فترات سلام مؤقتة مادام المسلمون هم المسيطرين ولا تلبث الحرب ان تعود جذعة عند ما يجد الفصاري من انفسهم قوة تمكنهم من الهجوم على المسلمين .

وقد كانت الحروب تصطبغ بالصبغة الدينية الخالصة، فهي تطاحن من اجل البقاء بين عقيدتين اسلامية، ونصرانية . لذلك نجد المعاننى الاسلامية هي اهم مايتفجع عليها الشاعر ويتأسف، كالمساجد التي سرعان ماتحولت الى كنائس متنصب على محاربيها الصلبان المعدة لهذه الغاية فور السقوط، وكالمدارس ومعاهد العلم التي تهدمت ومالي ذلك .

وهذا الامر لم يوجد في شعر المشرق بهذه الصورة الا حينما سقط بيت المقدس وفعل الصليبيين به تلك الافاعيل المعهودة عنهم ، اما التتار فهم جيش هلكة وتدمير ، وليس لديهم عقيدة ينشرونها ، فشعراء المشرق تعرضوا لذكر التدمير فقط من غير ذكر للتغيير . وذكر مصر الاسلام والتفجع عليه ، مع كثرة المدن العظمى الساقطة اكسبت شعر الشاعر الاندلسي لونا خاصا من التأثير في نفوس قارئيه وسامعيه على مر الزمان .

ثانيا : ان معظم المؤرخين الاندلسيين الذين اوردوا لنا الاشعار التي قيلت في رثاء الاندلس هم ادباء وشعراء في الوقت نفسه ، فكان ان مزجوا الحوادث التاريخية بالادب مزجا يشعر القارىء بتفاعلهم مع الاحداث التي اوفوها حقها من التحليل الدقيق كفعل ابن بسام صاحب " الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة " ، وابن سعيد صاحب " المغرب في حل المغرب " ، ولسان الدين ابن الخطيب صاحب " الاحاطة في اخبار غرناطة " . . . وغيرهم كثير وكثير .

ونحن هنا لانكر دور مؤرخي المشرق في ايراد الاشعار اثناء سرد الحوادث، فكثير من شعر رثاء المدن والدول في المشرق جاء في كتب التاريخ كتاريخ الطبري، وتاريخ المسعودي مروج الذهب، والكامل في التاريخ لابن الاثير وغير ذلك. ولكن طريقة المؤرخين الاندلسيين كانت اشهر في ابراز الشعر والاهتمام به .

الفصل الثانى
دراسة شكل قصيدة الرثاء
متممة

من الصعوبة بمكان ان يضع الباحث خصائص ومميزات لاي غرض من اغراض الشعر العربى ينفرد بها ولا يشاركه غيره فيها ، وذلك لطبيعة هذا الشعر الذى تغلب عليه الغنائية ، وتتداخل اغراضه وتتفرع عن بعضها ، فالرثاء مثلا يرجع الى المديح لانه مدح الاموات ، وكذلك الفزل والوصف . . . الخ^(١) وفى شعر رثاء الدول والامصار تزداد المشكلة تعقيدا لان هذا الشعر لا يمثل وحدة متكاملة يمكن دراستها من خلال تسلسل القصائد والاساليب والظروف المتشابهة . فنحن بازاء حشد من القصائد التى قيلت فى رثاء المدن والدول الساقطة والدمرة على مدى قرون طويلة ومتباعدة ، اصف الى ذلك انه لا يوجد شعراء مكثرين فى هذا الفن ، نستطيع بتتبع شعرهم وتحليله تكوين فكرة متبلورة عن سمات هذا اللون الشعرى ، فافكر الذين وردت اشعارهم فى هذا البحث لم يزيدوا على ثلاث قصائد او نحوها فى المناسبة الواحدة . فلا بد - والحالة هذه - من تناول كل قصيدة على حدة وقد فعلت هذا فى جميع القصائد التى مرت بنا . ولكن اريد هنا ان اشير بشيء من التفصيل الى الظواهر البارزة التى تشترك فيها معظم القصائد التى بين ايدينا من ناحية الشكل والمضمون .

اما من حيث الشكل فيشمل الحديث المباحث التالية :

(١) يقول ابن رشيق القيروانى : " الشعر كله نوعان : مدح وهجاء ، فالمدح يرجع الرثاء والافتخار والتشبيب ، وما تعلق بذلك من محمود الوصف ، كصفات الطول والاثار ، والتشبيهات الحسان ، وكذلك تحسين الاخلاق كالامثال والحكم والمواعظ . . . والهجاء ضد ذلك كله . . . " . العمدة ١ / ١٢١ .

المبحث الاول : مقدمات القصائد

تنوعت المقدمات في شعر رثاء الدول والامصار تبعا لمقدرة الشاعر ودرجة تأثره بالحدث، ومن اشهر هذه الانواع :

(١) المقدمة الطللية :

وهي مقدمة تقليدية فرضت سيطرتها على الشعر من أيام الجاهليين وظل سلطانها مستمرا عبر العصور الأدبية، فتجد الشاعر يقف على مدبنة زاهرة أصيبت بالدمار واستببح أهلها، يأخذ في مناجاة الأطلال ومناشدتها عن الأحباب ويستوقف الصاحب والرفيق، ويدعو بالسقيا وما إلى ذلك. كقول ابن أبي هاشم في رثاء دولة بني طولون :

يا منزلا لبني طولن قد دثرا
سقاك صوب الخوادي القطر والمطرا

بالله عندك علم من احبتنا
ام هل سمعت لهم من بعدنا خبرا

وقول ابن منقذ فی شیرز :

حيا ربوعك من ربا ومنازل
وستقك ياد ارالهوى بعد النوى
ابيك ام ابكى زمانى فيك ام

سارى الفخام بگل هام هامل
وطفاء تسفح بالهتو الهاتل
اهليك ام شرح الشباب الراحل

وقول شمس الدين الكوفي في رثاء بغداد عندما دمرها المغول وقضى
على الخلافة الاسلامية فيها :

ولقد قصدت الدار بعد رحيلكم
وسألتها لكن بغير تكلّم

ووقفت فيها وقفه الحيران
فتكلّمت لكن بغير لسان

وفي قصيدته الأخرى يضمن مقدمته اشطرا كاملة عن شعر الاطلال
حين يقول :

قف في ديار الطاعنين ونادها (يادار ما صنعت بك الايام)
اعرضت عنك لانهم قد اعرضوا (لم يبق في بشاشة تستام)

وهذا ابن شهيد الأندلسي، شاعر الأندلس المطبوع، عاش في بيئة
لا تمت إلى الصحراء واطلالها بصلة، وعندما أراد رثاء قرطبة، حاضرة أوروبا
كلها في ذلك الوقت، لم يجد مناصا من البدء بذكر الطلول مراعاة لتقاليد
الشعر التي حرم ابن قتيبة^(١) على الشعراء المتأخرين الخروج عنها .
يقول ابن شهيد :

ما في الطلول من الأحبة مخبر فمن الذي عن حالها نستخير؟
لا تسألن سوى الفراق فانه ينبئك عنهم انجدوا ام اغوروا

ويقول ابن لبّون في رثاء امارته الفاربية :

خليلى عوجابى على مسقط اللوى لعل رسوم الدار لم تتفيرا
فاسأل عن ليل تولى بانسنا واندب اياما تقضت واعسرا

اما السهيلي فيسأل قريته المحتلة قائلا :

(١) يقول ابن قتيبة بعد ذكر بنية القصيدة على ذكر الديار والد من شم
النسيب فوصف الرحلة والتعب حتى الوصول إلى الفرض وهو المدح ..
يقول : " وليس لتأخر الشعراء ان يخرج عن مذهب المتقدمين في
هذه الاقسام ، فيقف على منزل عامر ، او يبكي عند مشيد البنيان
لان المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العافي ... " .
انظر الشعر والشعراء : ١ / ٧٤ - ٧٦ .

يادار ابن البيض والأرام ام ابن جيران على كرام ؟
 راب المحب من المنازل انه حيي فلم يرجع اليه سلام

ولعل هؤلاء الشعراء وغيرهم كانوا يرون في المقدمة الطللية مظهرا من مظاهر الاصاله التي يجب المحافظة عليها ، ولذلك نجد في مابين ايدينا من اشعار الرثاء - وبخاصة في الاندلس - اسماء بعض الاماكن والمناطق في جزيرة العرب تتكرر كثيرا لالذاتها وانما لانها اصبحت رموزا يقترن ذكرها بالشوق والوجد والحنين الباكي ، وهذا الامر ابتداء الشعراء القدماء في حنينهم الى مفانيهم ثم شاع في الشعر العربي كله واصبح رمزا ، ومن تلك الرموز كلمة نجد واللوى ، والمشقر ، وشبر ، وجبل الريان وغيرها .
 يقول ابن عميرة الاندلسي في رثاء بلنسية :

ويندب عهدا بالمشقر فاللوى واين اللوى منه واين المشقر ؟

ويقول ايضا :

يحن الى نجد ، وهيها ت حرمت صروف الليالي ان يعود الى نجد
 فياجبل الريان لارى بعد ما عدت غير الايام عن ذلك السود

ونحن هنا لانعيب على الشعراء وقوفهم التقليدي بالاطلال ، بقدر ما نبين ان الشاعر المغلق اذا تصدى لموضوع الرثاء ، لا ينبغي له ان يكتب نفسه ويفقد ما قيمتها بالجري وراء غيره في الشكل او الموضوع ، لان ذلك لا يسمح للعواطف - التي هي عماد هذا الشعر - ان تنطلق معبرة عن نفسها في انسياب طبيعي يريح نفس الشاعر المشحونة بالالام ، ويبلغ من السامع ، او القارئ درجة عالية من التأثير .

(٢) مقدمة الحزن والشكوى :

وفي هذه المقدمات يمهد الشعراء لقصائد هم الرثائية بشدة وقمع
الحدث على انفسهم حيث اوشهم الالم والنكد والسهر الخ . وهذا
النوع كثير جدا في شعر رثاء الدول والامصار ، ومنه قول العبلى في رثاء
الدولة الاموية :

نشوزى عن المضجع الانفس	تقول امامة لما رأت
لدى هجعة الاعين المعس	وقلة نومي على مضجعى
عروى اباك فلا تبلسى	ابى ما عراك ؟ فقلت الهموم
من الذل فى شر ما محبسى	عروى اباك فحبسنه

وقول ابن الرومى فى رثاء البصرة :

شغلها عنه بالدموع السجام	زاد عن مقلتي لذيد المنام
حرة ماحل من هنات عظام	اي نوم من بعد ماحل بالبصم
ج جهارا محارم الاسلام	اي نوم من بعد ما انتهك الخدم

اما الابیوردی فنجدہ یمزج الدمع بالدم حزنا على خراب بيت المقدس
ووقوعه بيد الصليبيين :

فلم يبق منا عرصة للمراحم	مزجنا دماء بالدموع السواجم
اذا الحرب شبت نارها بالصوارم	وشر سلاح المرء دمع يفيضه

ويشاركه - ايضا - فى الموضوع نفسه شهاب الدين بن الجار بقله :

صلى فى البكاء الاصال بالبكرات	اعينى لا ترقى من العبرات
توقد ما فى القلب من جمرات	لعل سيل الدمع يطفى فيضها
خبت باد كارب يبعث الحسرات	ويا قلب اسمر نار وجدك كلما
بروح ما القى من الكربات	ويا فم يح بالشجو منك لعلنه

ويتخذ علاء الدين الاوتارى من السهام مؤنسا له يلزمه فى شدته
بعد ان جفاه الرقاد على اثر نكبة دمشق ، يقول :

لك علم بما جرى ياسهادى	من جفوني على افتقاد رقادى
لم اجد عند شدتي مؤنسا لى	غير سهدى ملازما لسوادى
وحبيب العين الرقاد جفاها	مذ رأها حليفة الانكساد

ويذرف ابو المطرف بن عميرة الاندلسى الدمع مدرارا ، ويفرق فى
بحر زخار من الاحزان ويفرق معه غيره وذلك فى مقدمة رثائه لبلنسية :

ما بال دمك لا ينى مدراره	ام ما لقلبك لا يقر قراره
اللوعة بين الضلوع لطاعن	سارت ركاكبه وشططت او
ام للزمان اتى بخطب فادح	من مثل حادثة خلت اعصاره
بحر من الاحزان عب هبابه	وارتج ما بين الحشا زخاره
فى كل قلب منه وجد عنده	اسف طويل ليس تخبوا ناره

ويقول الدقن فى مطلع رثائه للاندلس :

امنت من عكس آمال واحوال	وعشت ما بين اعمام واخوال
ولا ابتليت بما فى القلب من نكد	فالجسم مشغول من غير اشغال
وكيف لا ويقاع الدين خالية	من ارض اندلس من اجل احوال

وهذه المقدمات اكثر مناسبة لاشعار الرثاء من المقدمات الطليقة
لانها ذات اتصال مباشر بنفس الشاعر واكثر ملائمة للارتباط بالموضوع الاصلى
حيث لا يظهر اثر الانتقال واضحا فى القصيدة .

(٣) مقدمة شكوى الدهر ، وذكر الحكمة والعبرة ؛

وفي هذه المقدمات يذكر الشعراء تقلب الدهر وتلونته ، وفتكه بالأمم
العظيمة ، الأمر الذي يوجب التيقظ واخذ العبرة .
يقول عثمان القرشي في رثاء دولة بني أمية :

من يأمن الدهر مصاه ومصبحه	في كل يوم له من معشر جزر
بعد ابن مروان اودى بعد مقدرة	فانت لهيبتها الامصار الكور
ثم الوليد فسل عنه منازلــــه	بالشام والشام معسول له خضر
وفي سليمان آيات وموعظة	وفي هشام لاهل العقل معتبر

ويقول الخريمي في رثاء بغداد :

قالوا : ولم يلعب الزمان ببغــــد	داد وتعثر بها عواثرها
اذ هي مثل العروس باطنها	مشوق للفتى وظاهرها
فلم يزل الزمان ذو غــــير	يقدر في ملكها اصاغرها

اما عمارة اليميني فيشكو الدهر شكوى العاجز لانه يرى ضرباته القاصمة
التي لا ينجو منها من وجهت اليه . يقول في رثاء دولة الفاطمية :

رميت ياد هر كف المجد بالشليل	وجيده بعد حسن الحلى بالعطل
سعت في منهج الدهر العثرفان	قدرت من عثرات الدهر فاستقل
هدمت قاعدة المعروف من عجل	سقيت مهلا ما تمشي على مهل

وفي رثاء حلب يقول ابن العديم :

هو الدهر ما تبنيه كفاك يهدم	وان رمت انصافا لديه فتظلم
اباد ملوك الفرس جمعا وقيصرا	واصمت لذي فرسانها منه اسهم
وافني بني ايوب مع كثر جمعهم	وما منهم الا ملك معظــــم
وملك بني العباس زال ولم يدع	لهم اثرا من بعد هم وهم هم

وعلى هذا النقط من تعداد الاقوام الذين اناخ عليهم الدهر منذ
غابر الزمان ، قصيدة ابن عبد بن الشهيرة في رثاء امارة بنى الافطس والبتى
مللمها :

الدهر يفجع بعد العين بالاثـر	فما البكاء على الاشباح والصـور
انهاك انهاك لا الـوك موعظـة	عن نومة بين ناب الليث والظفر
قالدهر حرب وان ابدى مسالمة	والبيـض والسود مثل البيـض والسمر

ثم يأخذ في ذكر الاشخاص المشهورين الذين مضوا في التاريخ من
لدى الفرس واليونان الى ان يصل الى بنى الافطس وانقضاء دولتهم
بالاندلس في القرن الخامس الهجرى .

اما البحترى فيكشف عن علاقة العداء المستحكمة بين الدهر وذوى
الشأن ، فهو مولع بتحطيمهم واتعاسهم ، يقول :

صنت نفسى عما يدنس نفسى	وترفعت عن جدا كل جـبس
وتماسكت حين زعزعتنى الدهـ	ر التماسا منه لتعسى ونكسى
وكان الزمان اصبح محمـو	لا هواه مع الاخس الاخس

وممن سلك سبيل الحكمة في مقدمة رثاء الحصرى القيروانى في رثاء
القيروان حيث يقول :

موت الكرام حياة فى مواطنهم	فان هم اغتربوا ماتوا وماتوا

وهو يعبر عن تجربة صادقة ، فقد اضطر الى التشرذ بعد خراب بلده
وجاز الى الاندلس مادحا متكسبا . وتكثر مقدمات شكوى الدهر وفعلـه
بالاقوام فى الشعر الجاهلى ، كقول عدى بن زيد العبادى :

ايها الشامت المعير بالدهـ	ر أنت المبرأ الموفـر
ام لديك العهد الوثيق من الـ	ايام ام انت جا هل مفرهـ

ابن كسرى كسرى الملوك ابوسا سان ام ابن قبله سابور
ويخو الاصغر الكرام ملوك السر وم لم يبق منهم مذكور

وهذا النوع من المقدمات يكسب القصيدة شيئا من الرزانة والوقار اذ ان الشاعر فيها يبدي تجلدا ويكظم الممء وحزنه عندما يتأسى بذكر حوادث الدهر الرهيبة فى مختلف العصور .

(٤) مقدمة تقوم على التذكير بحتمية الموت :

يسلك الشاعر هذا السبيل فى مقدمته عندما يكون الحادث هائلا
فياخذ الشاعر الاسى والاسف حتى يذهل لفترة ، ثم يتذكر نهاية كل حى
فيبدأ بذكره . يقول ابن الذئبة فى رثاء دولة حمير :

لعمرك ماللفتى من مفسر مع الموت يلحقه والكبر
لعمرك ماللفتى صحرة لعمرك ما ان له من وزر
ابعد قبائل من حمير اتوا ذا صباح بذات العبر
بالف الوف وحرابسة كمثل السماء قبيل المطر

ويقول ابن اللبانة فى رثاء امارة بنى عباد فى الاندلس :

لكن شىء من الاشياء ميقات وللمنى من منائيهن غايات
والدهر فى صفة الحرباء منغمس ألوان حالاته فيها استحالات

ويقول ابو البقاء لرندي مفتتحا نونيته الشهيرة فى رثاء الاندلس :

لكل شىء اذا ماتم نقصان فلا يفر بطيب العيش انسان
هى الامور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته ازمان
وهذه الدار لا تبقى على احد ولا يدوم على حال لها شان

ولتأكيد حتمية الموت نرى بعض الشعراء يطلق لفظ الموت على المدينة المدمرة حين لا ترجى عودتها ثانية . يقول السميسر في رثاء الزهراء :

وقفت بالزهراء مستعبرا	معتبرا اندب اشتاتا
فقلت يا زهرا الا فارجمي	قالت وهل يرجع من ماتا ؟
فلم ازل ابكي وابكي بها	هيئات يفتني الدمع هياتا
كأنما آثار من قد مضى	نوادب يندب من امواتا

ويقول ابن المعتز في رثاء سامراء :

قد اقفرت سر من را	وما لشيء دوام
فالنقص يحمل منها	كأنه آجام
ماتت كما مات فيل	تسل منه العظام

والمجهول في رنده :

فياليت شعري بعد ما صح موتها	ايرجى على رغم العداة نشورها
وبأملة الاسلام هل لك عودة	لارجائها يشفي الصدور ودورها

هذه هي انواع المقدمات التي برزت فيما جمعته من شعر رثاء الدول والامصار، وهناك قصائد كثيرة اعتمد قائلوها الدخول المباشر في الموضوع، وهي من اصدق القصائد عاطفة تحس فيها حرارة الانفعال كلما قرأتها، ومن امثلتها قول بعضهم في رثاء القدس :

احل الكفر بالاسلام ضيما	يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع، وحمى مباح	وسيف قاطع، ودم هيب

وقول ابن العسال في رثاء بربرشت :

ولقد رمانا المشركون بأسهم	لم تخط لكن شأنها الاصماء
هتكوا بخيلهم قصور حريمها	لم يبق لاجبل ولا بطحاء
كم موضع غنموه لم يرحم به	طقل ولا شيخ ولا عذراء

او قول الشاعر المجهول في رثاء الاندلس عند ما غربت شمسها :

احقا خبا من جورندة نورها	وقد كسفت بعد الشمس بدورها
وقد اظلمت ارجاؤها وتزلزلت	منازلها ذات العلا وقصورها
تسلمها حزب الصليب وقادها	وكانت شرودا لا يقاد نفورها

وغیر هذا کثیر . . . قصائد ابن الابرار فی بلنسية ، وثناء اشبيلية
وغیر ذلك .

المبحث الثاني : الالفاظ

الكلمة عنصر رئيسى من عناصر البناء الشعرى ، بل هى ركن ركن لكل عمل ادبى . ومن هنا جاء الاحتفاء بها عند الادباء والنقاد . فالشاعر يحرس دائما على توفير الالفاظ التى تنسجم تمام الانسجام مع معانيه ، ولكنه لا يوفق فى جميع الحالات . ذلك لانه ملتزم بلغة لا بد له من الوقوف عنده قواعد ما وحدودها ، وهذا الامر لا يبيح له ان يخترع اللفظ الذى يريد اويشتقه فى كل حال . كما انه مرتبط باوزان وقواف تتطلب نوعا خاصا من المعالجة . عندئذ لا بد ان يحول الشاعر على معجمه اللغوى لانتخاب الالفاظ التى تناسب غرضه ، ثم يجتهد فى توفير جو من الالفة والالتئام بين هذه الالفاظ بحيث يسمح لها ان تشع اكبر قدر من المعانى الكلية المتداخلة بالاضافة الى شحنة من الصور والظلال والايقاعات الموحية التى تتناسق مع الجو الشعورى الذى يريد ان يرسمه . وبهذا يستطيع الشاعر المبدع ان ينتج من الكلمات العادية قطعاً سحرية يعطيها من روحه قوة وحيوية حتى يجعلها تتسع لمشاعره وعواطفه واحاسيسه التى يريد نقلها الى السامعين . فالكلمات لها فى ذاتها دلالات معينة ، فقد يكون للكلمة الواحدة من الفضل والمزية فى موقع من مواقع الكلام ما ليس للكلمة نفسها فى موقع آخر ، والكلمة هى الكلمة ، والجرس هو الجرس ، والحروف هى الحروف ^(١) . فالكلمات اذن ليست مجرد رموز للافكار والمعانى وانما هى كائنات حية يجرى فيها الشاعر عمله فهى اشبه ماتكهن بالالوان عند الرسامين ، على طبيعة اختيارها وتناسقها يتوقف النجاح او الاخفاق .

وفى شعر رثاء الدول والامصار - الذى بين ايدينا - نلاحظ تركيز الشعراء على الالفاظ الموحية ذات الدلالة الشعرية ، والمعانى المكثفة

(١) انظر: عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الاعجاز : ٣٢ - ٣٥ .

المتشابهة ليستطيعوا تفريغ همومهم واحزانهم ونقلها الى السامعين اولئك
معنى من المعاني الرثائية وبلورته بصورة بعيدة عن الجفاف .
يقول الخريمي في رثاء بغداد :

قفراء خلاء تعوى الكلاب بها ينكر منها الرسوم زائرها
واصبح البؤس ما يفارقها الفا لها والسرور هاجرها

فاختياره الموفق للالفاظ المتقاربة اشاع جوا من الشعور بالوحشة
يجعل السامع يقف واجما مفكرا في العظمة المصطمة ، فهو ازاء طلل حزين مقفر
اضحى مأوى للكلاب بعد ان كان قبل مدة قصيرة سريرا للملك . فالقفور
والخلاء يكملان بعضهما في اعطاء معنى الخلو من كل انس بحيث يتصور
السامع انه واقف بببداة موحدة ، وليزيد الرعب قوة جعل الكلاب تعوى بها
والعواء غير النباح الطبيعي ، ولا يفعله الكلب الا عند خوفه او الهمة ، ثم جاء
بالطباق بين البؤس الملازم والسرور المفارق ليعمق معنى الوحشة بمزيد من
السكون والصمت الرهيب .

اننا نلاحظ سبلا من المعاني يقفز الى الاذهان من جراء تناسق
الاصوات ، ونلاحظ هذا - ايضا - جليا في رثاء البحري للقصر الجعفري حيث
يقول :

ولم ار مثل القصر از ربح سربه واذ ذعرت اطلاؤه وجآذره
واذ صيح فيه بالرحيل فهتكت على عجل استاره وستائره
كان لم تبت فيه الخلافة ملقاة بشاشتها والملك يشرف زاهره
ولم تجمع الدنيا اليه بهاها وبهجتها والعيش غض مكاسره

وفى وقوفه على ايوان كسرى كذلك :

فكان الجرماز من عدم الان س واخلاه بنيسة رمس
لو تراه علمت ان الليالي جعلت فيه مأتما بعد عرس

وهو ينبيك عن عجائب قوم لا يشاب البيان فيهم بلبس
يتضمن من الكآبة اذ يبب د ولعيني مصبح او ممسى
مزجها بالفراق عن انس السف عز او مرهقا بتطبيق عرس

ففي الابيات الاولى نجد ان الصورة التي برزت من خلال تشابك العلاقات بين الالفاظ وانسجامها قد انطبعت في ذهن السامع او القارئ بشكل حركة مضطربة مرتجفة تزيد من سرعة دقات القلب .

وقد تمكن البحترى من رسم هذه الصورة باستخدامه لمعجم الالفاظ البدوى الصحراوى ، فالسرب والاطلاء والجآذر ريعت وذعرت ، والقصر هنا بيت من الشعر يصاح فيه بالرحيل على سمت اهل البادية . وكلمة الروع والذعر تحمل معانى نفسية كبيرة للخوف والحيرة والتحفز ، فهذا الموقف يشبه العقدة فى القصة ثم تنحل هذه العقدة فى البيت الثانى بالعبارة النابضة (صبح بالرحيل) اذ ان الرحيل هو الذى يعقب الحيرة والتحفز وبخاصة بالنسبة للاطلاء والجآذر التى لا حول لها ولا قوة .

ولفظ (صبح) بجرسه الرنان اعطى صورة نشطة للسرعة المصحوبة بالضجيج والاضطراب وهتك الاستار والستائر ، ولو استعمل جملة (نودى) مثلا بدل صبح لما ناسبت عبارة (على عجل) التى فى الشطر الثانى لما فيها من البطء اضافة الى عدم الانسجام الصوتى .

وبعد ان يفد والقصر خاويا غربا تهدا الحركة ، فيأتى مجال الالفاظ العذبة الرقيقة لبيان ما كان يحويه ذلك القصر ايام سوده من العظائم كبشاشة الخلافة ، وزهرة الملك ، وبهاء الدنيا كلها . . .

والملاحظ ان هذه الالفاظ توحى - ايضا - بالهدوء والدعة ، فالطلاقة والبشاشة ، البهاء ، والعيش الفضى وذلك لتظهر المفارقة المحزنة من خلال حالة الرعب والاضطراب الراهنة وحالة الامن والرفاه السابقة .

ومثل هذا التناسق الصوتى الجميل نجده - ايضا - فى الابيات السينية حيث صنع البحترى من الالفاظ العادية المألوفة صورة ناطقة للايوان ، وهذه

هي مهمة الشاعر العبقري ان يفجر ما هو مألوف لينتج منه جديداً ، وبذلك تجتمع له الاصاله والطراقة . فالايوان ضخيم الصنعة يبنى بعظمته الباني ، غير انه موحش ناطق بصمت المقابر . والشاعر هنا يحاول تجسيم هذا الصمت الكتيب من طريق الالفاظ الموحية بمعاني البؤس ، فيأتى بالطباق بين العرس والماتم ، حيث تفتح هاتان اللفظتان للسامع آفاقاً يتطلع من خلالها الى الانقلاب المريع الذي حصل للايوان فصبغه بكآبة المفارق للاحباب او النادم على تطبيق عرسه ، ولما كانت هذه الكآبة مستمرة استمرار الايام ومتجددة على الدوام جاء بالطباق الاخر " مصبح او مصسي " كما نلاحظ ان الشاعر استعمل كلمات : الفراق ، الازعاج ، الارهاق التي هي من خواص الاحياء ليلهن الصورة بما يزيد لها تأثيراً في النفوس .

واحيانا تأتي الفاظ الشاعر مشبعة بالدلالة النفسية ، وذلك عند ما يكن هو نفسه قد غرق في لجة الحدث الفاجع ، حيث يتسرب شعوره الداخلي الى الفاظ قصيدته ، كقول ابن الرومي في وصف ماحل باهل البصرة على يد الزنج :

ووجوه قد رملتها دماء	بابي تلغم الوجوه الدوامى
وطئت بالهوان والذل قسرا	بعد طول التبحيل والاعظام
فتراما تسفى الرياح عليها	جاريات بهبوة وقتام
خاشعات كأنها باكيات	باديات الثغور لا لايتسام

ان اختياره للوجوه - تلك الاجزاء العزيزة لبني الانسان - له دلالة نفسية لان الوجوه هي المواضع التي تظهر عليها مختلف الانفعالات ، والتي جاء الشاعر بطرف منها هاهنا . ومن ثم ينفذ ابن الرومي من خلال وصف الوجوه الى تكوين صورة عامة للاذلال والقهر .

فتلك الوجوه التي كانت موضعاً للتبحيل والاعظام لطختها الدماء وامتزجت بها الرمال ، ووطئت بالهوان ، وكلمة وطئت جاءت متمكنة في موضعها فاشعت بكل ما يخطر على البال من معاني الذل والارغام ، كما انه

ذات دلالة نفسية لدى الشاعر والمستمع، فهي قطعة من نفس الشاعر ومهما حاولت ان تستبدل بها كلمة اخرى فلن تجد ، واذا وجدت فلن يكون الوقع متماثلا . والمستمع او القارئ يدرك بذوقه وحسه مرامي هذه الكلمة ومدى تأثيرها ولكنه لا يمكن ان يفرغ كل ما احاط به من معانيها اذا اراد التعبير عن احساسه بواسطة الكلمات . وكذلك بالنسبة لكلمة خاشعات وانسجامها مع باكيات وباديات فانها نبضة الم من قلب الشاعر الذي احس بالذلالة والخسف نتيجة لتمثله تلك التجربة المريرة .

ويقول المجهول في رثاء طليطلة :

لقد خضعت رقاب كن غلبا	وزال عتوها ومضى النفـ
وهان على عزيز القوم ذل	وسامح في الحريم فتى غيـ
اديلت قاصرات الطرف كانت	مصونات مساكنها القصـ
وكان بناو بالقينات اولـ	لو انضمت على الكل القبر
لقد سخنت بحالتهن عـ	وكيف يصح مغلوب قريـ

وهنا - ايضا - يريد الشاعر ان يبرز مقدار الذي الذي لحق بالناس من جراء سقوط مد ينتهم بيد الكفار ، فجاء بلفظ الخضوع الذي يحمل معنى الانحناء ، والطاعة واسنده الى الرقاب التي كانت مشرئبة بالعز نافرة من الضيم فتقبلته وسلمت له امرها على الرغم من مقتها له ، وهنا تكمن دلالة كلمة الخضوع اذ ان اكراه الانسان على ما لا يحب او ما لا يطيق هو ابشع انواع الذل والقهر والتحقير النفسى . . . وهكذا تستمر الابيات مصورة تهدم القمم الشامخة . فعزیز القوم يستمرى الذل ، والفتى الكريم الفير يفضى على انتهاك المحارم . ولا تخفى الدلالة النفسية لهذه الالفاظ، فهي تشف عن الالام والهموم العظيمة لتي تتلجلج في نفس الشاعر والتي لا يتردد معها في تمنى الموت ليهرب من جحيم شقائها .

وفي رثاء الاندلس بعد استكمال سقوطها يقول المجهول الاخر :

منازلها مصدرة وبطاحها	مدائنها موترة وثغورها
تهائمها مفاجعة ونجودها	واحجارها مصدوعة وثغورها
وقد لبست ثوب الحداد ومزقت	ملابس حسن كان يزهو حبورها
فاحياؤها تبدى الاسى وجمادها	يكاد لفرط الحزن يبد وضميرها
قلوان ذا الف من البين هالك	لذابت رواسيها وفاضت بحورها

وفي القصيدة نفسها يقول :

ترى للاسى اعلامها وهي خشم	ومنبرها مستعبد وسريرها
ومأمومها ساهى الحجبى وامامها	وزائرها فى ماتم ومزورها
لها حال نفس قد اصيب فؤادها	وبنت لها اليمنى وحم ثبرها
فانفسها فى الصعق دهن افاقة	كففس كليم الله اذ دك طورها
وقد رجفت وادى الاشى فبقاعها	سكارى وما استاكت بخمرثورها

ان المتأمل لهذه الابيات يدرك ان قائلها قد التصق ببلاده التصاقا شديدا ، فقلبه متصدع لهوانها ، ونفسه منكسرة لذليها وضياعها ، وتلمس اثر ذلك جليا فى تعاطفه مع الكلمات التى استعملها ، فقد جاءت رقيقة مفعمة برنين الاسى ، ومتشابكة الوشائج يجرى من خلالها سيل من المشاعر والمعانى فهذا الجرس الحزين للسجع الذى ينساب سليقة فى البيتين الاولين يسمعنا زفرات المنازل والبطاح المصدرة ، وعويل المدن والشجر الموترة والحجارة المصدوعة . والطباق الحاصل من لبس ثوب الحداد وخلع الملابس الزاهية وتمزيقها يجعل السامع يتيه فى آفاق بعيدة من التفكير ليتصور المعانى التى رافقت هذا التحول الخطير الذى كادت - لروعته - تفيض البحار وتخرى الجبال هدا . ثم نرى لسات الشاعر الحانية تمر على الصوامت فتبعث فيها الحياة ، ولكن بدن صخب ولا ضجيج :

تري للاسى اعلامها وهي خشع
ومأمومها ساهى الحجي وامامها
ومنبرها مستعبد وسريرها
وزائرها في ماتم ومزورها

انه الخشوع والخضوع الذي يلف الاعلام الشامخة والمنبر المنيف ثم
الماتم الحزين الذي يلف الجميع في شroud مستعبر، فكلمة خشع اثارت في
الذهن معنى الوجوم والاستفراق في التفكير لاخذ العبرة والعظة.
ويقول اسامة بن منقذ في رثاء قومه حينما اهلكتهم الزلازل :

ذهبوا ذهاب الاسى ما من مخبر
وبقيت بعد هم حليف كآبسة
عنهم ، وزالوا كالظلال الزائل
مستورة بتجمل وتحامل
سعدوا براحتهم وما انا بعد هم
في شقوة تضني وهم داخل

فاستعمله لعبارة (ذهاب الاسى) ومناسبتها لزوال الظلال
اعطت المعنى الذي يريده قوة وزخما حيويًا . يقف السامع معه على صورة
الاضمحلال التام الذي لا ترجى بعده عودة ، ولذا حق لنفس الشاعر ان
تحالف الكآبة والهم المستمر الذي يحاول اخفائه بالصبر والتحمل . وجاءت
كلمة (مستورة) حسنة الموقع لمناسبتها للذهاب والياس حيث لا فائدة من
الاعلان والبوح .

ومن الالفاظ ذات الدلالة النفسية - ايضا - قول الفزولي في رثاء

دمشق :

لهفى على وادى دمشق ولطفه
وشكا الحريق فوادها لما رأت
وتبدل الفزلان بالثيران
نور المنازل ابدلت بدخان
والان صرن كذائب العقيان
فتخضبت منها باحمر قان
كوهت جد اولها حوافر خيلهم
ما ذاك الا تركهم ولجت بها
فتسابت هربا كخيل رهان

انه يريد ان يبين فظاعة الاعمال التي ارتكبها جنود التتار بحق
 المدينة واهلها فظاهر ذلك عن طريق تأثر الوادى والنهر والمنازل
 فقواد المدينة يشكو من حرارة اللهب ومرارة الدخان وما هذه الشكوى
 الا صدى لشكوى فواد الشاعر المشتعل الما وحزنا ، وهذه الجداول التي
 اشمازت من حوافر خيل المغول ثم ولت هاربة بسرعة ، ماهي الا صورة للكراهية
 والخوف الكامنين في نفس الشاعر ونفوس الناس .
 ويعبر ابن شرف القيرواني عن شعوره بالوحشة من ديار القيروان
 المقفورة بقوله :

كواسد قد ازوت بهن الضرائر	كان الديار الخاليات عرائس
بها وحشة منها القلوب نوافر	اذا اقبل الليل البهيم تمكنت
تجود مرارا بالكلام المقابر	ويمتد عمر الصوت فيها وربما

فقد شبه الديار الزاهرة بعد تجردها من كل مظاهر الزينة والجمال
 بالعرائس اللواتي تهدم جمالهن لتبذلن ولا همالهن الزينة بسبب كيد
 الضرائر لهن ، وكلمة العرائس هنا شفت عما كانت عليه ديار القيروان من
 الجمال والحضارة قبل خرابها . اما الان فالصورة صورة الصمت الموحش
 الذي يزداد وحشة عند ما يوافي الليل بظلامه ، وفي وسط هذه الوحشة
 التي تروع اللب والقلب ليس هناك ما يمكن ان يؤنس الا الكلام ، فاقفل
 الشاعر هذا الباب بعبارة (يمتد عمر الصوت) حيث لا صدى ولا جواب وبذلك
 تستكمل الوحشة حتى تفوق وحشة المقابر .

اما الحصرى القيرواني فيأتي بصورة جديدة لشعوره بالوحشة بعد
 خراب القيروان ايضا ، يقول :

فاتبعت زفرا تي فيه انات	ما ان سجا الليل الازادني شجنا
الابدت حسرائي المستكنات	ولا تنفست انفا في الرياض ضحى

وكم دعيت لبستان فجدد لى وجدا وان كان فى معناه سلوات
ولو تراه اذا غنت بلابلـــــــــــــــــه اشكو البلابل لو تغنى الشكايات
انى لا ظمأ والانهار جارية حولى واضحى ودون الشمس دوحات

انه هنا لا يقف وسط ديار خالية، ولا اطلال صامته، وانما يتجول وسط
الرياض والحدائق الخضرة بين خريف الانهار وشدة البلابل، فهل استمتع
بشيء من ذلك؟ كلا لقد اثارت تلك المناظر اشجانه، فراح يمزج آلامه
ويطلق زفراته، وقد ادى تجانس الالفاظ وتلاؤمها دوره فى تجميل الصورة
وتناسقها، فالليل هو كهف الحزان والهموم - كما هو معروف عند الشعراء -
فقد اطلق فيه الحصرى زفراته واناته، ولكن هذا الشجن هل ينقضــــــــــــــــى
مع انقضاء الليل؟ لا انه مستمر متجدد، ولذلك جاء بوقت الضحى - الذى
هو وقت النشاط والسرور - وفى الرياض ايضا، ومع ذلك زاد الزفرات حشرات
وشكايات .

ومن الصور الجديدة فى الرثاء استخدام عناصر الطبيعة واستغلال
صفاتھا وخصائصھا، كقول ابن اللبانة فى رثاء المعتمد بن عباد عنده
سقوط امارته :

بكاك الحيا والريح شقت جيبها عليك وناح الرعد باسمك معلما
ومزق ثوب البرق واكتست الضحى حداد اوقامت انجم الجوافحما
وحارابنك الا صباح وجدا فما اتى وفار اخوك البحر غيضا فما طمى

لقد صنع الشاعر من الاشياء المحسوسة المألوفة لكل الناس - كالرياح
البرق، المطر، النجوم صورة بديعة جعلت الكون كله فى مأتم لانقضاء
ملك ابن عباد، فكيف تم له ذلك؟

والجواب انه احسن اختيار الكلمات التى تثير اصواتا متناسقة متجانسة
ووفر لها مجالا ملائما بمقدرته الشعرية وذكاؤه . فالريح تشق الجيوب، وشق
الجيب لا بد ان يرافقه نواح فجعل الرعد ينجح معلما باسم المراثى . واستعمال

صوت الرعد في النواح امر ابتدعه الشاعر ليوافق الشق ، والا فقعة الرعد تقترن عند الشعراء بالصواعق ، وتستخدم في مجال الحرب والقوة وما الى ذلك . ثم يستمر في اكمال صورة المأتم عن طريق سلب الخواص الايجابية للاشياء المستخدمة ، فالبرق يتمزق ثوبه الزاهي فيظلم ، والضحي المشرق والنجوم المشعة تفقد كل قدرة على الاشعاع والاصباح لا يهـدي السارين لما به من الوجد وهكذا .

ومثل هذه الصور المتعددة بالقصيدة الواحدة ، والالفاظ الشعرية الموحية بالمعاني المكثفة تكثر في شعر الاندلسيين بصفة خاصة وتستأثر بكبير عنايتهم مما جعل المستشرق غارسيه غوس يقول عنهم :^(١) " وعاشوا اعمارهم مكبلين بقيود القوالب الشكلية الجامدة ، ومن ثم لم يستطيعوا ان يدخلوا على الشعر من التفسير الاشياء تمس المعاني مثلهم في ذلك مثل اترابهم من المشاركة ، فحاولوا ان يعطوا هذه المعاني صورا جديدة عن طريق تقطيرها في انايب بلاغية ، واغلوها في ذلك حتى استخرجوا منها تلك الزخارف الشعرية التي تشبه ان تكون قصورا حمراء لفظية ولم يكن هذا الشعر الاندلسي مترعا بالاخيلة فحسب ، بل كان مثقلا بها حمل منها فوق ما يطيق ، بل بلغ من حشد المعاني فيه ان استعصى معظمه على الحفظ والبقاء وكاد يعسر على الفهم الكامل " .

ونحن لانكر اهتمام شعراء الاندلس باللفظة الشعرية ، وكثرة الصور عندهم الى حد ما ، ولكن ذلك لم يكن الى الدرجة التي يصعب معها فهم القصائد وحفظها ، فالسهولة والوضوح يسمان الشعر الاندلسي ويغلبان عليه ، ونادرا ما تجد فيه مضامين فلسفية تحتاج الى كد ذهن . على ان هذا لايعني السطحية بحال . ولعل الذي دفع غوس الى رأيه ذاك هو طبيعة الشعر العربي - ومنه الاندلسي - الذي يهتم باستقلال البيت ووحدته ومن هنا كثرت الصور والمعاني وتجاورت في غير اندماج كامل .

(١) الشعر الاندلسي : ص ٢٥ .

ويقول ابن اللبانة - ايضا - في بني عباد :

تبكي السماء بدمع رائج غادى	على البهاليل من ابناء عباد
على الجبال التي هدت قواعدها	وكانت الارض منهم ذات اوتجاد
وكعبة كانت الامال تهرها	فاليوم لا عاكف فيها ولا باد
ياضيف اقفر بيت المكومات فخذ	في ضم رحلك واجمع فضلة الزاد
ويامومل واد بهم ليسكنه	خف القطين وجف الزرع والوادى
ضلت سبيل الندى بابن السبيل فسر	لغير قصد فما يهديك من هادى

وفي صورته هنا شبه كبير من سابقتها ، فهي صورة المجد الزائل والماثر العظيمة التي افتقدت بزوال بني عباد من دنيا الناس . وقد جاء المطلع مناسباً للمقام لما فيه من الفخامة وقوة الجرس . فالسما تبكى بدمع مدار لا ينقطع . وقد تعمد الشاعر جعل السماء تبكى وتذرف الدمع ولم يجعلها تسح السوايل وتسقي الاثار ، وذلك لمناسبة لفظة البهاليل المججلة بالهالة العظيمة ، ثم يضيف الى البهاليل لفظة اخرى تزيد لها قوة وهي لفظة الجبال .

ومن الجدير بالذكر ان وصف الميت بانه جبل قديم في الشعر العربي وبخاصة في شعر النساء لشعورهن بالضعف والحاجة الى الحماية^(١) . ولكن ابن اللبانة لم يكتف بالسير على طريق السابقين ، وانما جاء بصورة جديدة اوسع واشمل في المعنى ، وذلك لحسن الموقع الذي اختاره لكلمة الجبال ومناسبتها لما بعده . فاذا كان الشاعر القديم يصف مرثيه بالجبل لعلاقته الشخصية به فان شاعرنا جعل بني عباد جبالا حقيقية تثبت الارض وتمنعها ان تميد ، ولهذا جاء بعبارة (هدت قواعدها) لتوحى بعظم الخطب وشموله

(١) كقول فاطمة بنت الاحجم في رثاء زوجها :
قد كنت لي جبلا الود بظله فتركتني اضحى باجرده ضاح
انظر عبد البديع صقر ، شاعرات العرب : ص ٢٩٦ .

لجميع الناس فذوو الآمال لم يعد لهم أمل يرجون تحقيقه ، والضيوف وابنائه
السبيل تفرقت بهم السبل ، وأوحشتهم المنازل .

ولعلنا نلاحظ الفرق بين هذه الصورة والصورة التي رسمها ابن
حمد يس الصقلي باستخدام لفظ الجبال في رثاء ابن عباد أيضا ، يقول :

ولما رحلت بالندي في الكفكم وقلقل رضوى منكم وشبير
رفعت لساني بالقيامة قد اتت إلا فانظروا هذي الجبال تسير

فالألفاظ هنا أقل إشعاعا وإيحاءا بمعاني النكبة ، وابن قول ابن
حمد يس (قلقل) ، و (هذي الجبال تسير) من قول ابن اللبانة (على الجبال
التي هدت قواعدها) أن كلمة (قلقل) لا تعطي معنى العنصف
والسحق الذي يستحقه موقف مثل هذا قامت فيه القيامة ، وعبرة (هذي
الجبال تسير) لم تكن متمكنة في موقعها لأن الشاعر جاء بها مضطرا ليكمل
معنى الشطر الأول ، إذ لا بد للقيامة من شاهد هو مسير الجبال .
وأما قول أبي بكر بن عبد الصمد في الموضوع نفسه :

يا أيها القمر المنير امكث يمحي ضياء النير الوقاد
ما كان ظني قبل موتك أن ازدد قبرا يضم شوامخ الأطواد

فقد استعمل لفظ الأطواد بدل الجبال لما فيه من معنى العلو
والفخامة ليناسب الشمخ الذي ازدرده قبر ضيق ، الأمر الذي لم يخطر على
بال الشاعر لغرابته . ولعل المنعم للنظر في البيتين يجد تناسبا دقيقا
وخفيا في معنى الرفعة والعلو جاء من قوله " القمر المنير " الذي فيه معنى
العلو والضياء ، وذهاب نور القمر ناسب ضم القبر للأطواد الشوامخ .
وهو هنا يذكر القبر لأن البيتين من قصيدة قيلت بعد موت ابن عباد
أما قصائد ابن اللبانة وابن حمد يس فقيلت عندما استولى المرابطون على
الاندلس كلها ، وساقوا بني عباد وغيرهم أسارى إلى المغرب .

واذا ما انتقلنا الى شعر الاستغاثة والاستصراخ نجد الشعراء يستعملون نوعين من الالفاظ : نوع تغلب عليه الفخامة وقوة الجرس عند ما يكن الموقف يتطلب بث الحماس والنخوة في نفس المستغاث به ، واشعاره بقدرته على النجدة ، ونوع آخر طابعه الرقة والسلاسة ، عند ما يقف الشاعر موقف الملهوف المستجدي للنفوس عن طريق تعداد الفواجع والمصائب النازلة ببلاده وقومه .

ومن النوع الاول قول ابن عياش :

وقود وا الى الهيجاء جرد الصواهل	اقيموا الى العليا عوج الرواحل
وشد وا على الاعداء شدة صائل	وقوموا لنصر الدين قومة ثائر
تموت الصبا في شدة المتواصل	فما العز الا ظهر اجرد سابع
على الماء محبوك وليس بسائل	وابيض ماثور كان فرنده
وتحجب عنه الشمس سحب القساطل	بجيش يظل الطير في حجراته
من البيض او من مرهفات المناصل	ويطلع ليل النقم فيه كواكبا
باسمر عسال وابيض ناصل	ويضحى به بحر الدماء مفجرا

فالسجع والتصريع في مطلع القصيدة مع افعال الامر : اقيموا ، قود وا قوموا ، شد وا . . . ذات الاحرف الشديدة اشاعت حالة من الشعور بالقوة تجذب المخاطب جذبا وتدفعه الى الشد على الاعداء . وتستمر الموسيقى قوية والالفاظ فخمة ، للمحافظة على الحالة نفسها فيأتي الشاعر بلفظ (العز) الذي يشتمل على معان كثيرة ، ويجعله ممثلا في الحرب والجهاد . ويرسم من الالفاظ الحربية صورة متحركة نشطة لذلك العز ، فالاجرد السابع يطير مسابقا للريح ، والفرد المحبوك ، والابيض الناصل والاسمر العسال تلمع في ليل من القتام وتهوى مفجرة بحر الدماء .

ويقول ابن حمد يس في حث قومه على حرب الاعداء :

زبانية خلقوا للحروب	يشبهن نيرانها بالوقود
مساعدهم مرهقات بنين	لهد الجماجم من عهد هود
هم المخرجون خبايا الجسوم	اذا ضربوا بخبايا الفمود
تخط حوافر من جرد هم	محاريب مبثوثة في الصعيد
تخر رؤوس العدى في الوفى	لها مسجدا ياله من سجود

والشاعر هنا لا يستعمل اسلوب الحث المباشر كسابقه، وانما يلجأ الى اذكاء مشاعرهم والهباها عن طريق الوصف الموحى بالقوة والخبرة والشجاعة، فهم زبانية حروب . وهذه اللفظة تحمل معنى الامتزاج ولهذا جاء بعدها بعبارة " خلقوا للحروب " التي يتبادر الى الذهن عند سماعها طائفة من معانى الاعتیاد والممارسة وعدم الرهبة . . . الخ ولمناسبة كونهم زبانية جاء بلفظ مساعده وجعلهن مرهقات تهد الجماجم لترتبط بلفظ الحروب، ولتتكمّل صورة الممارسة والخبرة الحربية جاء بمظهر من مظاهر قوة الفرسان تلك هي الخيل الجرد التي تحفر الصعيد بحوافرها على شكل محاريب تسجد فيها رؤوس الاعداء . ولفظة محاريب اعطت لحوافر خيلهم صفة الصلابة والقوة التي تناسب الجو العام للابيات .

ومن النوع الثانى سينية ابن البار فى الاستنجاد بالامير الحفصى ومنها:

ادرك بخيلك خيل الله اندلسا	ان السبيل الى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمت	قلم يزل منك عز النصر ملتصقا
وحاش ماتعانيه حشاشته	فطالما ذقت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة اضحى اهلها جزرا	للحادثات وامسى جدها تعسا
صل حبلى ايتها المولى الرحيم فما	ابقى المراس لها حبلا ولا مرسا
واحشى ما طمت منها العداة كما	احييت من دعوة المهدي ما طمسا
هذى رسائلها تدعوك من كعب	وانت افضل مرجو لمن يثسا

فالشاعر هنا يقف فزعا مرعوبا امام الامير الحفصي ، ويحاول ان يثير عاطفته بالمثير المناسب ، فلم يجد افضل من البداية بشرح الحالة الراهنة التي تستدعي علاجاً فورياً ، فقال : (ادرك بخيلك) ، ثم جعل هــذ هـ الخيل هي خيل الله ليعطيها صفة الاستعداد للدفاع عن ارض المسلمين اينما كانت ، ويتبع ذلك بقوله : (هب لها من عزيز النصر) ولفظ هب يوحي بقدرة الامير علي منح النصر بسهولة . ثم تخفت الموسيقى بعد ذلك وتشرق الالفاظ لتناسب المجال الذي يحلق فيه الشاعر فنجد الكلمات : حـاش حشاشتها ، البلوى ، جزرا للحادثات حيث نقف من خلال اشعاعاتها على المعاني الجزئية الكثيرة التي تتدافع لتكون صورة البلاء الشامل المستمر الذي لاينجلي الابنجدة الامير ، فيقول الشاعر في استعطاف وخضوع (صل حبلى ايها المولى الرحيم) والوصل فيه معنى المودة والعطف ، ولا يكون الا من قادر علي ضعيف فناسب ان يخاطبه بلفظ المولى الرحيم .

واما لسان الدين بن الخطيب فيسلك مع المستغاث به سبيل المدح حين يقول :

قصد ناك ياخير الملوك علي النوى	لتنصفنا فما جنى عبدك الدهر
كفنا بك الايام عن غلوائها	وقد رابنا منها التعسف والكبر
ولما اتينا البحر يرهب موجاه	ذكرنا نذاك الفمر فاحتقر البهر
ووصفك يهدي المدح قصد ثوابه	اذا ضل في اوصاف من د وطك الشعر

فالابيات كلها مدح ، ولعل ابن الخطيب وجد ان المدح هو الطريق الامثل لهز اريحة ذلك الملك ، فجعله صورة متكاملة للعظمة ، فلعرزته القى الدهر بالقياد ، وهذه صورة جديدة للدهر ، ففيما مربنا من شعر رأينا الدهر هو المتسلط الذي يبدك عروش جبابرة الملوك ، اما هنا فهو عبد يقتضى منه سيده انصافا لظلمهم ، وقد مهد الشاعر لهذه الصورة بانتقاء الفاظ الشطر الاول ، فقلوه (قصد ناك ، علي النوى) يدل علي اصطفاؤه

لذلك الملك من بين ملوك الدنيا على الرغم من بعده ، ثم يستمر في بسط
الاصاف التي ليست في مقدور البشر كقوله : (كفنا بك الايام) ،
(ذكرنا نداك الغمر فاحتقر البحر . . .) (ووصفك يهدى المدح . . .) وهو
يريد من ذلك افراد هذا الملك بصفات لا يستطيع احد بلوغها ، ومن ثم فلا قوة
تقف في طريقه ، فهو اذن خير منجد للمستفيدين وذلك هو مطلب الشاعر .

المبحث الثالث: الالوزان والقوافي

الموسيقى الشعرية عصب حيوى فى بناء اسلوب القصيدة العربية، وتلاحم اجزائه، فهى تمتزج بالالفاظ امتزاجا يصعب معه الفصل بينهما، وممن حقهما ان يدرسا معا، ولكننا فصلنا بينهما هنا لامر تقتضيه الدراسة التفصيلية فحسب. والدارس للشعر العربى يدرك قيمة الجرس الناتج عن وقع اللفظة فى الاذن وكيف يزيد موسيقى القصيدة جمالا وقوة. ومن هنا جاءت عناية الشعراء ببعض المحسنات البدعية كالجناس والمقابلة ورد العجز على الصدر اكثر من غيرها، وذلك لما فيها من رنة موسيقية ذات تأثير حسن وبخاصة اذا جاءت عفوية. فما الجناس الا تفنن فى طرق ترديد الاصوات فى الكلام حتى يكون له نغم موسيقى تستلذه الاسماع، اما المقابلة فلها دورها فى شد اواصر التناسق الموسيقى حينما تعمل على توازن كل لفظ مع اللفظ المقابل له فى العبارة التالية. وكذلك فى رد العجز على الصدر الذى يقوم على ترديد كلمة او كلمات بعينها فى صدر البيت وعجزه. فانه بالاضافة الى اظهار العناية بالكلمة المكررة لفظا ومعنى يزيد من رنة الالوزان. كقوله ابن البار:

صل حبلىها ايها المولى الرحيم فما ابقى المراس لها حبلا ولا مرسا

فترديد كلمة (حبلى) فى الشطرين زاد نغمة البيت، ومهد للقافية (مرسا) التى هى بمعنى الحبل ايضا.

وقول ابن شهيد:

ما فى الطلول من الاحبة مخبر فمن الذى عن حالها نستخبر

وغير ذلك كثير. واحيانا يستعين الشاعر بتكرار بعض الحروف، او الكلمات التى تكسب البيت لونا من الموسيقى تستريح له النفس وتقبل عليه

كتكرر حرف السين في شطر بيت البحترى - مثلاً . " صنت نفسي عما يدنس
نفسى " فانه رغم كثرة وروده قد حسن موسيقى الشطر لكونه وقع فى
مواضع موفقة منه من غير تعمد من الشاعر اوان النظم .

وفى الغالب يتحقق نجاح الشاعر عندما يوفق لبحر يلائم معانيه
والفاظه ، لانه قد حصل بذلك تكامل بين اجزاء القصيدة الرئيسية . فالى
اى مدى تحقق هذا التكامل فى شعر رثاء الدول والامصار ؟ انه من
الاستعراض الشامل لاوزان القصائد والمقطوعات الرثائية التى وردت فى هذا
البحث ، تبين ان اكثر البحور التى ركبها شعراء المراثى كانت من ذات الاوزان
الطويلة ، والتفاعيل الكثيرة كالبهر الطويل ^(١) والبسيط ^(٢) وغيرهما ، فقد جاءت على
البحر الطويل اربع وعشرون قصيدة ، وعلى البسيط ثلاث وعشرون ، وهذان
البحران من دائرة عروضية واحدة ^(٣) .

ويليهما فى نسبة الشيوخ البحر الكامل ^(٤) ، والوافر ^(٥) فعلى الكامل
جاءت ثمانى عشرة قصيدة وعلى الوافر سبع قصائد ، وهما ايضا من دائرة
عروضية واحدة . ثم بعد ذلك تتفرق القصائد على عدد من البحور كالخفيف ^(٦)
والمقارب ^(٧) والرجز ^(٨) والسريع ^(٩) . . . بنسب متفاوتة ولكنها اقل عددا مما تقدم

-
- (١) وزن البحر الطويل :
- | | | | |
|-------|---------|-------|---------|
| فعولن | مفاعيلن | فعولن | مفاعيلن |
|-------|---------|-------|---------|
- (٢) وزن البحر البسيط :
- | | | | |
|---------|-------|---------|-------|
| مستفعلن | فاعلن | مستفعلن | فاعلن |
|---------|-------|---------|-------|
- (٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد : ١٦٣ / ٣ ، عبد العزيز عتيق ، علم
العروض والقافية : ٢٦
- (٤) وزنه : متفاعلن متفاعلن متفاعلن
- (٥) وزنه : مفاعلتن مفاعلتن فعولن
- (٦) وزنه : فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن
- وجاءت عليه تسع قصائد .
- (٧) وزنه : فعولن فعولن فعولن فعولن
- وجاءت عليه اربع قصائد .
- (٨) وزنه : مستفعلن مستفعلن مستفعلن
- وعليه خمس قصائد .
- (٩) وزنه : مستفعلن مستفعلن فاعلن
- وعليه ثلاث قصائد .

ولم تستخدم مجزوات البحور الا على نطاق ضيق جدا حيث جاءت عليها مقطوعتان فقط الاولى من مجزوة^(١) الرمل ، والثانية من مجزوة^(٢) البسيط .

وامام هذه الظاهرة لابد ان نتساءل ، هل يمكن ان توجد علاقة بين انفعالات الشاعر النفسية ووزن قصيدته ؟

ان نظرة فاحصة للحالة التي يكون فيها الشاعر تكشف عن وجود مثل هذه العلاقة ، فالشاعر الذي يشهد مدينته وهي تتحطم وتنهار على ايدي الاعداء ، تتحطم في نفسه كل الامل ، وتسود الحياة في عينيه ، ويصبح عيشه في دامة مضطربة من الهم والحزن والالام . ولهذا فهو بحاجة الى وزن طويل يتسع لما في صدره من انات وزفريات يود اطلاقها ليشفي نفسه من احراقها فيأتي شعره من البحر الطويل او البسيط الذي يمكنه مع انشادها التأوه واعادة النفس بعد كل بيت او في وسطه . كقول المعتمد بن عباد من الطويل :

غريب بارض المغربين اسير سبيكي عليه منبر وسريـر

اننا نتصوره هنا وقد جلس مكتئبا ينظر في حاله ، فاذا هو غريب اسير وتمتد به الذكرى فمرى منبره وسريره يبكيانه في صغار يائس . وهنا لابد ان تكون حالته هذه ، وذكراه تلك قد ولدتا في نفسه سلسلة طويلة من الهموم والاحزان لا يحتملها البحر الطويل ، ومن هنا جاء نجاح القصيدة وقوة تأثيرها .

وقوله ايضا من البحر نفسه :

بكيت الى سرب القطا اذ مرن بي سوارح لاسجن يعوق ولا كبل

-
- (١) وزنه : فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن
(٢) وزنه : مستفعلن فاعلن مستفعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن

فهو يبكي من هول سجنه وقيدته عندما اثار شجنه سرب من القطا طليق
يمرح في الفضاء الرحب . فالمفارقة الكبيرة الحاصلة من الموقفين شحنت نفسه
بآلام محرقة قذفها في البحر الطويل ايضا .
واما الهراق عندما يقول :

من ذا اصابك يا بغداد بالعين الم تكوني زمانا قرة العين

فهو في حالة ذهول وتعجب مصحوبين بالاحزان السوداء لما اصاب
بغداد من الخراب بعد ان كانت "قرة العين" زمنا طويلا ، وعبرة قرة العين
تحمل معاني كثيرة عند تدقيق النظر فيها . ولهذا جاء البحر البسيط لتحمل
عليه هذه المعاني بكل ما تشيره من انفعالات هادئة .

وميزيد الدكتور ابراهيم انيس الامر تفصيلا بقوله :^(١) " اننا
نستطيع ونحن مطمئنون ان نقرر ان الشاعر في حالة اليأس والجزع يتخير عادة
وزنا طويلا كغير المقاطع يصب فيه من اشجانه ما ينفس عنه حزنه وجزعه ، فاذا
قيل الشعر وقت المصيبة والهلم تأثر بالانفعال النفسي ، وتطلب بحرا قصيرا
يتلاءم وسرعة التنفس وازدياد النبضات القلبية ، ومثل هذا الرثاء الذي ينظم
ساعة الهلم والفرع لا يكون عادة الا في صورة مقطوعة قصيرة لا تكاد تزيد
ابياتها عن عشرة . اما تلك المراثي الطويلة فاغلب الظن انها نظمت بعد
ان هدأت ثورة الفرع واستكانت النفوس باليأس والهلم المستمر " .

ثم يشير الى ان الانفعال النفسي الحاد الذي يصاحب الشعر
الداعي الى شن حرب لا يمكن الشاعر من الاسترسال واطالة القصيدة .^(٢)

واول مايلفت النظر في كلام الدكتور انيس انه يقرر ان الشاعر في حالة
اليأس والجزع يتخير عادة وزنا طويلا كغير المقاطع الخ فهل الشاعر هو
الذي يختار البحر قبل ان ينظم ؟ ثم يختار المعاني والالفاظ المناسبة

(١) موسيقى الشعر : ١٧٨ .

(٢) المرجع نفسه : ١٧٩ .

اختياراً ؟ في نظري ان هذا الاختيار هو عمل المتكلفين من الشعراء ، اما الشعراء المطبوعين ذوو التجربة الصادقة فان الانفعال يقذف ما يجيش في صدورهم على السنتهم بشكل كلام موزون على احد بحور الشعر . وللشاعر بعد ذلك ان ينقح ويصحح ويستبدل بالالفاظ غيرها كما يشاء اما البحر فيبقى وزنه كما ولد .

وقوله بان الاوزان الطويلة تناسب النفس الهادئة الياسة ينطبق على كثير من قصائد الرثاء التي نحن بصدد ها واما ما يقرره بان الشعر الذي يتأثر بالانفعال النفسي يتطلب بحراً قصيراً ، وان الفظم حينئذ لا يكون الاعلى شكل مقطوعة قصيرة فهذا لم ينطبق تماما على المواقف الشعرية الانفعالية في القصائد التي وقفنا عليها . فهذا ابن اللبانة شاعر المعتمد بن عباد المنقطع اليه ، يشهد عن كعب سقوط دولة سيده الذي احبه حبا جما ويبلغ الانفعال عنده ذروته وهو يقف مع الواقفين على شاطئ النهر ينظر بعين منكسرة الى ملكه الذي القى في السفينة اسيراً مكبلاً ، وفي ذلك قال قصيدته التي مطلعها :

تبكي السماء بدمع رائج غادى علي البهاليل من ابناء عباد

وهي من البحر البسيط ذي التفعيلات الثمان ، وقد نيفت على الخمسين بيتاً ، وكذلك قصيدة ابن الابار السينية التي قالها امام الامير الحفصي والرعب ملء جوانحه وفرائصه ترعد من هول ماتعانيه مدينته بلنسية على يد الصليبيين ومع ذلك جاءت القصيدة من بحر البسيط وقد بلغت اكر من سبعين بيتاً ومطلعها :

ادرك بخيلك خيل الله اندلسا ان السبيل الي منجاتها درسا

وقصيدة لسان الدين بن الخطيب التي انشدها مستنجدا باهل المغرب عندما اشتد الحصار النصراني لما تبقى من الاندلس في اواخر ايامها والتي بدأها بقوله :

اخواننا لا تنسوا الفضل والعطفا فقد كاد نور الله بالكفر ان يطفأ

وهي من بحر الطويل بوابياتها تزيد على الثلاثين ، وكان ابن الخطيب في ذلك الوقت وزير الاندلس المشار اليه ، ومن تمسه الذكبة مسا مباشرا وقصيدة ابن الابار وابن الخطيب - كما هو ملاحظ - فيها دعوة ملحة لشحن الحرب على الاعداء ، ومع ذلك اصطبغت بطول النفس والامتداد . ولعل سبب ذلك ان النفس حينما تنفعل تهيج بمعان وصور كثيرة تتدافع متدفقة لتمد الشاعر بقوة الاستمرار والاندفاع ، ولربما نظم الشاعر قصيدة طويلة قبل ان يهدأ ذلك الجيشان وينضب فيضه .

وكانى بالدكتور انيس قد احس بعدم شمول قواعده المتقدمة فعقب على عباراته السابقة بقوله :^(١)

" ويحسن بعد كل هذا الانفرض قواعد معينة يلتزمها الشاعر في تخير وزن من الاوزان تحت تأثير عاطفة خاصة ، وعلى ناقد الادب ان يبحث هذا بحثا مستقلا في كل قصيدة " .

على انه من الانصاف ان نشر هنا الى المقطوعتين اللتين سبق ذكرهما فقد انطبقت عليهما تقريبا قاعدة الدكتور انيس من حيث الوزن وعدد الابيات . فالاولى للوراق الشاعر البغدادي الذي شهد بغداد وهي تحترق في فتنة الامين والمأمون ، ورأى الناس يقتلن بعشوائية همجية فيقف صارخا في رماة المنجنيق بانفعال عنيف :

لكم غير شفيق
كان او غير صديق
ممن مرار الطريق

يارماة المنجنيق
ماتبالن صديقا
ويلكم تدرون ماطر

والمقطوعة لم تتجاوز ثلاثة أبيات وهي من مجزوء الرمل ، ونحس فيها
فعلا حدة التعنيف الذي تزداد معه ضربات القلب .

والمقطوعة الثانية لفتي من فتیان بغداد - ايضا - هاله ان يرى سقلية
الناس واباشهم يملكن زمام الامور ، فيفرضون الضرائب ويهجمون على
البيوت الآمنة لسلب كل ما يقع تحت ايديهم من مال ومتاع ، وكان احد زعماء
تلك الفئة يعرف بالهرش وجامع الضرائب يعرف بزريح وفيهما وفي اعمالهما
التي ارغمت الناس على الهرب من اوطانهم متعللين بشتى الاعذار يقول
شاعرنا :

اظهروا الحج وما ينوونه	بل من الهرش يريد من الهرب
كم اناس اصبحوا في غبطة	وكل الهرش عليهم بالعطب
كل من راد زريح بيته	لقى الذل ، ووافاه الحرب

وهي ايضا ثلاثة أبيات ، ومن مجزوء البسط . ولا شك ان الشاعر يصدر
عن انفعال قوى وحقيقي ، اذ انه واحد من اولئك الناس الذين حل بهم البلاء
واجبروا على دفع المخارم دهن ذنب او جريرة .

اما بالنسبة للقوافي فليس ثمة نظام معين في استخدامها ، فقد
استعملت معظم حروف الهجاء غير انه من الملاحظ اكثر الشعراء من استخدام
القافية المكسورة ، مع تعدد احرف الروي ، كالكاف والراء والسين والنون . . . الخ
وقد بلغ عدد القصائد ذات الروي المكسور سبعا واربعين قصيدة ويلى
ذلك الروي المصحوب بالف الاطلاق حيث استعمل خمس عشرة مرة اما الروي
المضموم فاستخدم ما يقرب من اربع وعشرين مرة ، وابتعد الشعراء عن القوافي
الساكنة الا قليلا ، لانها توحى بالجفاف والصمت الذي لا يوافق حال الشاعر
المتفجع .

ولعل تفضيل الشعراء للكسر راجع الى الانكسار الذي اصاب انفسهم
 من جراء الحوادث التي عاشوها وتمثلوها ، لان الكسرة عندما تأخذ امتداد
 حرف الروى تطفه وتجعله مستساغا ، ولو كان في طبيعته شيء من الثقل
 كحرف القاف مثلا . ^(١) اصف الى ذلك ان الصوت الناتج من اشباع الكسرة فيه
 معنى الانين والتفجع الذي يلائم موضوع الرثاء .
 اما الف الاطلاق فانها تعين الشاعر على مد صوته صارخا مستغيثا
 اوباكيا منفعلا يحاول تعميم ما يشعر به من حزن والم على جميع من يسمعه .

(١) كقول الشاعر :
 بكيت دما على بغداد لما
 فقدت غضارة العيش الانيق

المبحث الرابع : الاقتباس والتضمين

يكثر شعراء رثاء الدول والامصار من الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف، كما يهتمون بتضمين الابيات الشعرية والحوادث التاريخية وتبرز هذه الالوان في شعر الاندلسيين بروزا يفوق شعر المشرق بـ **كثير** وذلك راجع لسببين فيما اعتقد :

اولهما : ان قرب الاندلس من العدو، واستمرار الجهاد فيها ساعد على بروز الناحية الدينية في شعرهم، فطفق الشعراء يحضن على الجهاد ويولفن القلوب، ويحذرون من التفريط في بلاد الاسلام، مستمدين ذلك من آيات القرآن واحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

وثانيهما : ان اسلوب الشعر الاندلسي او الادب الاندلسي بعامة كان يقوم على فكرة الاقتباس والتضمين ، والفوضى في التراث التاريخي الاسلامي وغير الاسلامي للاستفادة من احداثه الحقيقية والخيالية حينما يناسب مجال القول . كما كان الاحتفاء بالابيات الشعرية المشرقية والقصائد الذائعة احد مقومات ذلك الاسلوب، ومن هنا كبرت المعارضات الشعرية، واشتهر تخميس القصائد المشهورة وشرحها وما الى ذلك . وقد كان النقاد الاندلسيين يحكمون بالجودة والسبق للاعمال الادبية التي تحفل بالشئ الكثير من تلك الالوان لانها تكشف عن ابعاد ثقافة الاديب في مجالات متعددة، وكان النظرة هنالك كانت للاديب لا للادب نفسه . وخير ما يمثل ذلك قصيدتنا ابن عبدون وابي البقاء الرندي ورسالتا ابن زيدون الجديدة والهزيلة . فاذا كان هذا هو حال الادب بصفة عامة، فما بالك بالشاعر الذي يرثى بـ **لاده** المقهورة الفاربة، ويبكي امته المتشردة الهالكة او يقف امام الملوك والسلاطين طالبا عونهم ونجدتهم . لاشك انه سينثر كل ما في كنانته من ثقافة اسلامية وتاريخية وشعرية ليظفر بالتأثير المنشود ، واي تأثير هو اشد من تأثير القرآن الكريم على النفوس المسلمة، ولهذا نجد الشاعر الاندلسي يستعمل التعبير القرآني ، ويستوحى معانيه على وجوه مختلفة :

ففى حالة الاعتبار من تقلب الدهر يقول الشاعر الدقون :

فلنكرم الان من ينزل بمنزلنا فالدهر ذو دول فاسمع لامثال
والزهد فى هذه الدنيا وزخرفها والامر بالعرف مع تحسين مقال

فهو هنا يخاطب اهل مدينة فاس، بعد ان وصل اليها الاندلسيون
لاجئين ، حين تم سقوط الاندلس، داعيا اياهم الى الاحسان لهؤلاء
المشردين ، فلا يجد افضل من التذكير بمصائب الايام التى لا يؤمن جانبها
وهو بذلك يستوحى قوله تعالى :^(١)

(ان يعسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الايام نداؤها بين
الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين) .
وقوله تعالى :^(٢)

(وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) .

واما البيت الثانى الذى يدعو فيه لالانة الجانب والسماحة ، وطيب
الكلام فمأخذ من قوله تعالى :^(٣)

(خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين) .

وعند ما يعتبر الشاعر ايضا بفناء الاشياء العظيمة يلجأ الى القرآن الذى
فيه خبر من قبله ، فيجد بغيته .
يقول حازم القرطاجنى :

قد اهلك الاحبوش طير قد رمى جيوشهم بمكة بما رمى
وهد قد ما هدد بنبأ ما كان هدهاد لبلقيس ابنتى

وهو هنا يشير الى قدرة الله المطلقة على فعل ما يشاء ، فهو سبحانه -

(١) سورة آل عمران ، الاية : ١٤٠

(٢) سورة العنكبوت ، الاية : ٤٣

(٣) سورة الاعراف ، الاية : ١٩٩

يسلط على الجبابرة المتفطرسين عذابا مهلكا بواسطة اضعف جنده كقصّة
ابرهة الحبشى الذى اراد غزو الكعبة معتزا بجيشه وقوته فرماه الله بطير تقذفه
بحجارة صغيرة حتى تمزق ذلك الجيش وباء بالخسران .

يقول تعالى : (١) الم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل . الم يجعل
كيدهم فى تضليل . وارسل عليهم طيرا ابابيل ترميهم بحجارة من سجيل .
فجعلهم كعصف مأكول) .

وفى البيت الثانى يشير الى قصة سليمان عليه السلام مع بلقيس ، وكيف
استطاع الهدد - بامر الله - ان يكن سببا فى تدمير مملكة بلقيس على
ضخامتها وعظم بنائها . (٢)

واحيا انا يحاول الشاعر طرد اليأس من نفسه ونفوس السامعين ، ويأخذ
فى بث شيء من الامل فى النصر والرجوع الى الوطن الذى اخرج منه
فيجد فى الايات الطريق الذى يجب اتباعه لمن اراد تحقيق ذلك . يقول
الشاعر المجهول :

يمين هدى ان تتقوا الله تنصروا وتحظوا بآمال يشوق غيرها
فلا يخذل الرب المهيمن امة تدين بدين الحق وهونصرها

فقله مستوحى من قوله تعالى : (٣) يا ايها الذين آمنوا ان تنصروا الله
ينصركم ويثبت اقدامكم) . ومن قوله تعالى : (٤) ان الله مع الذين اتقوا والذين
هم محسنون) .

ويقول لسان الدين ابن الخطيب :

رويدك بعد العسر يسرا ابشرى بانجاز وعد الله قد ذهب العسر

(١) سورة الفيل .

(٢) انظر سورة النمل : الايات : ٢٠ - ٤٤

(٣) سورة محمد ، الاية : ٧

(٤) سورة النحل ، الاية : ١٢٨

وهو مستمد من قوله تعالى : (١) فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا)
 واحتذاء لقول عمر - رضي الله عنه - : " . . . انه لن يغلب عسر يسرين " .
 ويحاول الحصري القيرواني من خلال رثائه للقيروان ان يدافع بأسه
 ببيان تغير احوال الدنيا ، فليس بمحال اذن ان ترجع بلدة القيروان الى
 عهد ما السابق من العز والحضارة ، يقول :

ولم يزل قابض الدنيا وباسطها فيما يشاء له محو واثبات

وهو يستضيء بقول الله تعالى : (٣) (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده
 ام الكتاب) .

ويستمد الشعراء - ايضا - من القرآن الكريم معاني مؤثرة عند ما
 يصفون ما حل بالناس من حولهم من بلاء او حينما يصفون خراب المدن
 وافعال الاعداء بها ، يقول الخريمي عن اهل بغداد :

كانما اصبحت بساحتهم عاد ومستهم صراصرها

فاى صورة للاهلاك الشامل ابلغ من تصوير القرآن لمصر عاد الذى
 يحذيه الشاعر هنا . يقول تعالى : (٤) (واما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية .
 سخرها عليهم سبع ليال وثمانية ايام حسوما فترى القدم فيها صرعى كأنهم
 اعجار نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية) .

ويقول ابن شرف القيرواني في وصف حالة اهل القيروان وملاقوه من
 العذاب الحسى والنفسى :

-
- (١) سورة الانشراح ، الاية : ٥ ، ٦
 (٢) الامام مالك ، الموطأ ، كتاب الجهاد : ٢ / ٤٤٦ .
 (٣) سورة الرعد ، الاية : ٢٩
 (٤) سورة العاقه ، الاية : ٦ - ٨

بعد يوم كأنما حشر الخلق — ق حفاة به عوارى رجلى
ولهم زحمة هنالك تحككي — زحمة الحشروالصحائف تتلى
وعجيج وضجة كضجيج ال — خلق يبكون والسرائر تبلى

وهو يستمد في وصفه هذا من وصف القرآن الكريم والحديث الشريف
لا هو ال يوم القيامة حيث الموقف الرهيب في المحشر وتطير صحف الاعمال
وغير ذلك . يقول تعالى : (يوم تبلى السرائر) . ويقول - ايضاً - : (واذا
الصحف نشرت) ويقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : " يحشر الناس يوم
القيامة حفاة عراة غرلاً " الحديث " (٤)

وفي وصف الاعداء وغدرهم يقول ابن رشيح القيرواني :

نقضوا العهد المبرمات واخفروا — ذم الاله ولم يفوا بضمن

فالفدر ونقض العهد واخفار الذم من صفات الكافرين التي بينها
القرآن الكريم بقوله : (كيف وان يظهرها عليكم لا يرتبوا فيكم) (٥) ولا ذممة
يرضونكم بافواهم وتأبى قلوبهم واكرهم فاستقن) . ويقول تعالى : (ان شر
الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم
ينقضون عهدهم في كل موة وهم لا يتقن) .
ويقول ابن العسال :

جاسوا خلال ديارهم فلمهم بها — في كل يوم غارة شعواء

-
- (١) سورة الطارق ، الاية : ٩
(٢) سورة التكويد ، الاية : ١٠
(٣) صحيح البخارى ، كتاب الرقاق : ٩٢ / ٨ .
(٤) غرلاً : غير مختونين . اللسان (غرل) .
(٥) سورة التوبة ، الاية : ٨
(٦) الال : العهد والقراة . الصحاح (ألل) .
(٧) سورة الانفال ، الاية : ٥٥ - ٥٦

وعبارة "جاسوا خلال ديارهم" هي عبارة قرآنية وردت في قوله تعالى (١)
(فاذا جاء وعد اولاهما بعثنا عليك عبادا لنا اولي بأس شديد فجاسوا
خلال الديار وكان وعدا مفعولا) .

وهي تحمل معنى شا ملا للقهر والتدمير لا يتأتى لغيرها .
ويقول الشاعر الاندلسي المجهول في وصف حالة المدن الاندلسية
التي استباحها العدو :

فانفسها في الصعق د من افاقة كنفس كليم الله اذ دك طورها

فهو يستأنس هنا بقصة سيدنا موسى - عليه السلام - حينما ذهب
لميقات ربه والتي اوردها القرآن الكريم يقول تعالى : (ولما جاء موسى لميقاتنا
وكلمه ربه قال رب ارني انظر اليك قال لن تراني ولكن انظر الى الجبل
فان استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى
صعقا فلما افاق قال سبحانك تبت اليك وانا اول المؤمنين) .

وكلمة الصعق توحى بعظم الخطب وجلال الموقف الذي لا تحتمله
النفوس ، واذا كان موسى - عليه السلام - قد افاق من صعقته فان الشاعر جعل
لتلك المدن المنكوبة انفسا لا تفيق ابدا .

اما شاعر طليطلة المجهول - ايضا - فيقول في وصف الهزيمة النفسية
والخو الذي اصاب الناس :

ونلقى واحدا ويفر جمع كما عن قانص فرت حمير

وهو ينظر في هذا الى قوله تعالى في وصف الكافرين : (فما لهم عن
التذكرة معرضين . كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة) (٤)

(١) سورة الاسراء ، الاية : ٥

(٢) سورة الاعراف ، الاية : ١٤٣

(٣) سورة المدثر ، الاية : ٥١

(٤) القصيدة : الاسد ، او الماهر من الصيادين . الصحاح (قسر) .

وفى مواقف الاستغاثة والحث على الجهاد يبرز عند الشعراء الاهتمام
بسور القتال كسورة التوبة وسورة محمد - عليه الصلاة والسلام - حيث فيهما
التفاصيل الكثيرة عن الجهاد واحكامه مما يتيح المجال للشاعر ليبدى* فى
تلك المعانى ويعيد اذ هو فى موقف يحتاج معه الى كل مؤثر يمس القلوب
ومثير المشاعر . يقول ابن سهل الاندلسى :

ان الاله قد اشترى ارواحكم بيعوا ، ويهنكم ثواب المشتري

والبيت فيه حضى شديد على الاقدام ، والموت فى سبيل الله طلبا
لما اعدّه - تعالى - من التكريم للشهيد فى جنات النعيم . يقول سبحانه:
(١) ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون فى
سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ومن اوفى
بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) .
ويقول ابن البار للامير الحفصى :

طهر بلادك منهم انهم نجس ولا طهارة مالم تفصل النجسا

والبيت يشتمل على التعبير القرآنى الذى يصف المشركين بانهم نجس
بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانى النجاسة الحسية والمعنوية . يقول
تعالى : (يا ايها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام
بعد عامهم هذا وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله
عليم حكيم) . والشاعر عند ما يصف الاعداء بانهم نجس يبعث فى نفس الامير
حماسة قوية لاسراع فى ازالة هذا النجس الذى ما خالط شيئا الا افسده .
اما شاعر طليطلة فيدعو بالحاح الى الحرب ونبذ السلم لان الحرب
وحدها هى الكفيلة برد الحقوق الى اصحابها . يقول :

(١) سورة التوبة ، الاية : ١١١

(٢) سورة التوبة ، الاية : ٢٨

ولا تجنح الى سلم وحارب عسى ان يجبر العظم الكسير

والبيت مستمد من قوله تعالى : (١) (فلأتبهنوا وتدعوا الى السلم وانتم
الاعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم) . (٢) ونلاحظ ان الآية التي يعتضد بها
الشاعر تؤيد موقفه اشد التأييد فهي تسمى الدعوة الى السلم في الوقت
الذي يحتاج الى الشدة مهانة ، والشاعر كان في موقف ليس له علاج الا الحرب
فقد سقطت طليطلة ومسح النصارى كل معالمها الاسلامية واتخذوها عاصمة
فأى سلم يمكن ان يعيد تلك المدينة الى حيز الاسلام ؟ ؟

ويخاطب ابن المرابط سلطانه مذكرا له بان يتزود بالاعمال الصالحة
في هذه الحياة لانه مقبل على سفر طويل يحتاج الى زاد وافر . يقول :

او ما علمت بانه لا بد من زاد لكل مسافر فتزود
سفر عليك طويل ايامه لم تستعد لطوله فاستعدد

وهو متأثر بقوله تعالى : (٣) (وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون
يا اولى الالباب) .

ثم يبين من اين يكتسب هذا الزاد بقوله :

هذا الجهاد رئيس اعمال التقى خذ منه زادك لارتحالك تسعد
فالجار كان به يوصى المصطفى جبريل حقا في الصحيح المسند

والبيت الاول مستمد من حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
الذي يرويه معاذ بن جبل رضى الله عنه - ومنه : (٤) . . . قال الا اخبرك برأس
الامر كله وعموده وذروة سنامه ؟ قلت بلى يا رسول الله ، قال : رأس الامر

(١) سورة محمد ، الآية : ٣٥

(٢) يتركم : ينقصكم . الصحاح (وتر) .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٩٧

(٤) الجامع الصحيح ، كتاب الايمان : ١٢/٥ ، احمد بن حنبل ، المسند :

الاسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد الحديث). رواه الترمذى وقال حسن صحيح . وذروة سنامه اعلى شىء فيه ومن هنا قال الشاعر عنه :
رئيس اعمال التقى .

اما البيت الثانى فمستلهم من حديث ابن عمر - رضى الله عنهما - قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (١) : (ما زال جبريل يوصيني بالجار حمقى ظننت انه سيورثه) .

ولقد استغل الشاعر مجاورة الاندلسيين لاهل المغرب الاقوياء فاخذ يضرب على هذا الوتر الحساس من خلال ايراد الاثار النبوية، والايات القرآنية التى تبين عظم حقوق الجار ووجوب نصرته .
ثم يبين مصير المجاهدين فى سبيل الله، وهو الافضاء الى احدى الحسينيين : الشهادة او النصر . يقول :

وارضوا باحدى الحسينيين واقرضوا حسنا تفوزوا بالحسان الخرد

وبيته مستمد من قوله تعالى : (٢) : (قل هل تربصون بنا الا احدى الحسينيين الآية) . ومن قوله تعالى : (٣) : (من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له اضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط واليه ترجعون) .
ويقول ابن المرحل حاضاً اهل المغرب على نصره الاندلس :

فاسترحمكم فارحموها انه لا يرحم الرحمن من لا يرحم

فالشاعر يستعطف القلوب ويسترجمها فلا يجد ابلغ من حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى التأثير على النفوس التى ترجو رحمتهم الله - والحديث : عن اسامة بن زيد قال ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (٤)

-
- (١) صحيح البخارى، كتاب الادب : ٩/٨ .
(٢) سورة التوبة، الآية : ٥٢ .
(٣) سورة البقرة، الآية : ٢٤٥ .
(٤) صحيح البخارى، كتاب الجنائز : ٧١/٢ .

(انما يرحم الله من عباده الرحماء) . ومن حديث ابي هريرة ^(١) : (..... من لا يرحم لا يرحم) .

وبعد الاسترحام تشتد عاطفة الشاعر فيحاول دفعهم الى القتال دفعا بصيغة الامر فيقول :

حدوا السلاح انفروا وسارعوا الى الذي من ربكم وعدتم

وهو في هذا ينظر الى قوله تعالى ^(٢) : (انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا باموالكم وانفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون) . وقوله ^(٣) : (وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين) . وعندما تستجاب دعوة الشاعر من قبل المستنجد به ، وتتحرك الجيوش الجرارة صوب الاندلس ، يقول مهددا النصارى المتفطرسين :

اليوم يدري كل شيطان بها ان قد رمتهم بالشعاع الانجم

فهو وعيد شديد للنصارى ، وتفخيم لقوة المسلمين التي شبهها بالشهب المحرقة حيث لا قبل لاحد بمقاومتها ، وهو بهذا يغترف من معين القرآن الكريم ، اذ يقول - عز وجل - علي لسان الجن ^(٤) : (وانا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الان يجد له شهابا رصدا) .

واما بالنسبة للحوادث التاريخية فقد اكر الشعراء من ذكرها وذلك على سبيل الاعتبار وتهوين الخطب على نفوسهم ونفوس الناس بالتأسي ولاظهار الثقافة وسعة العلم باحداث الزمان ، ولهذا نجد الشاعر مهما تأخر

(١) المصدر السابق ، كتاب الادب : ٧ / ٨ .

(٢) سورة التوبة ، الاية : ٤١

(٣) سورة آل عمران ، الاية : ١٣٣

(٤) سورة الجن ، الايتان : ٨ ، ٩

عصره يرجع الى التاريخ منذ بدايته ، ومن لدن نوح - عليه السلام - مروراً بالاحداث المشهورة حتى يصل الى ما قبل الاسلام بقليل فيعرج على ذكر عظمة دولتي الفرس والروم وكيف تولى الدهر ازالتهما من الوجود ، وفي هذا المجال نلاحظ تشابهاً كبيراً بين الشعراء سواء في المشرق او في الاندلس مع الاختلاف في العاطفة لدى كل شاعر .

يقول عدي بن زيد العبادي :

وتبين رب الخورنق اذ أشهد	رف يوماً وللهدي تفكـمـ
سره حاله وكثرة مايمـ	لك والبحر معرضاً والسدير
فارعوى قلبه فقال : وماغبـ	طمة حتى الى الممات يصـمـ

والشاعر هنا يصدد ذكر الممالك الزائلة . التي عاشت ببذخ حيناً من الدهر ، وينفذ من ذلك الى بيان تفاهة الدنيا وسرعة زوال لذاتها ومتعتها ويضرب لنا مثلاً بالنعمان الاكبر صاحب الملك العظيم ، والقصور الفخمة الذي ادرك حقيقة هذه الحياة وانها لا تدوم على حال ، فانخلع من ملكه وترك حياة الترف واللهو ، ولبس المسح وساح في الارض زاهداً مترهباً^(١) . ويقول عمارة اليميني في رثاء الفاطميين :

باللهز ساحة القصرين وابك معي عليهما لاعلى صفين والجميل

فهو يشير الى معركة الجمل وصفين اللتين وقعتا في خلافة الامام علي ابن ابي طالب - رضي الله عنه - وكانتا بداية لمسلسل دموي افني آفاً عديدة من المسلمين ، ارتجت لها الدولة الاسلامية آنذاك . والشاعر هنا يريد ان يبين عظم المصيبة التي حلت بالناس من جراء زوال الدولة الفاطمية فجعلها اشد وقعاً واعظم اثراً من حروب الفتنة تلك . ولعله اختار صفين والجميل دون غيرها من معارك المسلمين ، لمناسبة مقام قصيدته ، فهو يرثي

(١) انظر : جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام : ٢٠٣ / ٣ .

دولة شيعية تعتبر الامام علي امامها ، وقد كان له الدور البارز في هاتين المعركتين .

ويصور ابن اللبانة العلاقة الحميمة التي بينه وبين المعتمد بن عباد بقوله :

حكيت وقد فارقت ملكك مالكا ومن ولهي احكي عليك متمما

ومالك ومتم هما ابنا نويرة بن حمزة اليربوعي التميمي وقد كان بينهما من المحبة والود والصفاء ما يفوق الوصف ، فلما قتل مالك على يد جيش المسلمين لارتداده عن الاسلام^(١) - فيما يقال - حزن عليه متم وظل يبكيه شعرا طيلة حياته ، وقد استغل ابن اللبانة هذه الحادثة فاسقطها على نفسه وعلى المعتمد وذلك لشهرتها ومجرد قوله " ومن ولهي احكي عليك متمما " يسد مسد كلام كثير في تأكيد استمرار الولاء والاخلاص الى آخر لحظات حياته . ويقول ابن العديم في تتابع الدول وافناء الدهر لها :

اباد ملوك الفرس جمعا وقيصرا	واصمت لذي فرسانها منه اسهم
وافنى بني ايوب مع كثر جمعهم	وامنهم الا مليك معظم
وملك بني العباس زال ولم يدع	لهم اثرا من بعد هم وهم هم

ويقول ابو بكر بن عبد الصمد :

(١) كان مالك بن نويرة عاملا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على صدقات قومه ، فلما بلغه ان الرسول قبض امسك الصدقة وفرقها في قومه ، فسار اليهم خالد بن الوليد وحاربهم ووقع مالك في الاسر فقتله ضارر بن الازهر صبرا بامر خالد وهناك روايات تنفي رده وتزعم ان قتله كان خطأ . والله اعلم . انظر : ابن حجر : الاصابة : ٣ / ٣٣٦ ، ابن قتيبة : الشعر والشعراء : ١ / ٣٣٧ ، القرشي ، جمهرة انساب العرب : ٢ / ٧٤٢ وقد اورد رثاء متم له .

حازت بنو العباس ملك امية
والد هر اذ هب تبعا وجنود ه
وهم ذوو الاعداد والامداد
وازال ملك الارض عن شداد

واذا ما وصلنا الى قصيدة ابن عبدون في رثاء بنى الافطس نجد ان
الحوادث التاريخية التي اوردتها قد شغلت اكثر من نصف القصيدة، وقد
بدأها بذكر الامم الفاهرة كالساسانيين واليونانيين ثم سار بتسلسل زمني
منتظم معرجا على ملوك اليمن وقبائل العرب البائدة ثم على ايام العرب في
الجاهلية ثم معارك الاسلام والفتن التي حصلت في آخر عصر الراشدين
ثم يذكر الدولة الاموية فالعباسية وما فيها من فتن ماحقة كفتنة البرامكة، وفتنة
الامين والمأمون وغيرهما . ولكثرة هذه الاشارات التاريخية وتنوعها، فقد قام
ابن بدرون الاندلسي بشرحها في مجلد كامل وقد اشرنا الى هذا في
فصل سابق .

وجاء بعد ابن عبدون ابو البقاء الرندي الذي سار على الطريقة نفسها
ولكنه لم يطل في مقدمته التاريخية كما اطلال ابن عبدون ولم يفصل الحوادث
ويسلسلها على العصور المختلفة وانما جاء بامثلة مشهورة كابن ذي يزن
وملوك اليمن والساسانيين، ثم يذكر قارون وخزائنه التي لم تفده عند ما رماه
الدهر بقوارعه وينتقل بعد ذلك الى ملوك الفرس دارا وكسرى صاحب الايوان
العظيم الذي حطمته فجائع الدهر، واخيرا يأتي بمثل كبير لسعة الملوك
والسيادة وهو سليمان - عليه السلام - الذي ملك الدنيا وخضعت لامره الجن
والريح باذن الله تعالى . ومع ذلك زال وكأنه لم يكن .
ولعل اهتمام هذين الادبيين الكبيرين بهذه النواحي التاريخية
يوقفنا على ما كان لها من شأن في تخليد القصائد .

ويقول حازم القرطاجني :

وقد اعاد الفارسد مأرب
والقت النمرود عن كرسيه
دكا كان لم يبينه من قد بني
بعوضة عدت عليه اذ عدا

والشا عر هنا يحذر من عواقب البغى والتطاول على الله - عز وجل -
وكانه يريد ان يبين السبب الاكبر في ضياع الاندلس وهو ارتكاب المعاصي
والبعد عن طاعة الله، ويستشهد بحادثتين من حوادث التاريخ القديم كان
الاعراض عن الهدى الرباني فيهما سببا في جلب العقاب الاليم الشامل .

الاولى حادثة سد مأرب العظيم الذي بناه ملوك دولة سبأ في اليمن
بهندسة عجيبة بحيث يحجز خلفه بحيرة كبيرة من المياه المنحدرة من الاودية
فكان القوم يشربون منه ويستقون زروعهم حتى اصبحوا يعيشون في جنات وارفة
الظلال كثيرة الثمار، ولكن عندما جاءهم الرسل من عند الله كذبوهم وانكروا
نعم الله ونسبوها الى قوتهم وجهد هم، فعاقبهم الله باضعف مخلوقاته
وهو الجرد الذي نقب ذلك السد حتى اذا جاء السيل العظيم جرفه
وجرف معه الجنات واغرق الارض والناس .^(١)

والحادثة الثانية هي حادثة الملك المتجبر النمرود بن كنعان بن سام
الذي كان يدعى الالوهية ويفسد في الارض ويحرق من لا يطيعه بالنار، ولما
جاءه ابراهيم - عليه السلام - اخذ يجادل ويماري في الله، فسلط الله عليه
وعلى جنوده البعوض فاكلت لحومهم وشربت دماءهم، ودخلت احداها في
دماغ النمرود فاكلته، فكان اعز الناس عنده من يضرب رأسه بمطرقة او بحذاء
حتى يهدأ مابه . ومكث في هذا العذاب اربعين يوما .^(٢)

(١) انظر : معجم البلدان ، مادة (مأرب) ، ابو حيان ، تفسير البحر
المحيط : ٢٦٨ / ٧ ، عند قوله تعالى عن سبأ : (فاعرضوا فارسلنا
عليهم سيل العرم ويد لناهم بجنتيهم جنتين ذواتي اكل خبط وائل
وشيء من سدر قليل) . سورة سبأ ، الاية : ١٦ .

(٢) انظر : تفسير القرطبي : ١٠٩٢ / ٢ ، عند قوله تعالى : (الم تر الى
الذي حاج ابراهيم في ربه الاية) .
سورة البقرة ، الاية : ٢٥٨ .

واذا ما انتقلنا الى استفادة شعراء المراثي من الابيات المشهورة فى الشعر العربى نجد انهم تفتنوا فى ذلك فتارة يحتذون البيت وينسجون على منواله وتارة اخرى يأخذون البيت بلفظه كله او نصفه ويدخلونه فى القصيدة حينما يبرز مكانه المناسب، ونلاحظ على الاندلسيين - خاصة - الاحتفاء بمعارضة ابيات الشواهد النحوية والبلاغية وتضمينها . ويمكننا هنا ان نقسم الابيات التى بين ايدينا حسب موضوعات الرثاء كما يلي :

اولا : الحنين الى الوطن الذى اخرج منه الشاعر، وشدة شوقه اليه، وبكائه على ايامه الجميلة التى قضاها فى ربوعه، يقول ابن عميرة الاندلسي فى شوقه الى مدينته بلنسية :

ملاعب افراس الصبا والصبا نروح اليها تارة ونبكر

وهو من قول زهير بن ابى سلمى :

صحا القلب عن سلمى واقصر باطله وعري افراس الصبا وواحله (١)

ولابن عميرة ايضا :

تغير ذاك العهد بعدى واهله ومن ذا على الايام لا يتغير

وهو صدى لقول كغيره :

وقد زعت انى تغيرت بعدها ومن ذا الذى ياعز لا يتغير (٢)

ويقول المعتمد بن عباد فى تذكار ايامه الخوالى وعيشه اللاهى باشبيلية :

فيا ليت شعري هل ابىتن ليلة امامى وخلفى روضة وغدير

(١) ديوان زهير : ٦٤ .

(٢) ديوان كغير : ١٠٧ .

وهو من قول جميل بثينة :

الاليت شعري هل ابيتن ليلة
(١) بواد القرى انى اذن لسعيد

ويقول ابن شرف القيرواني متشوقا الى القيروان ومن فيها : :

واذا تجدد لى اخ ومنادم
جددت ذكر اخاء خل اول

وهو متأثر بقول ابى تمام :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى
(٢) ما الحب الا للحبيب الاول

ويقول :

منازل ابائى الكرام ومنشئى
واول اوطان غذانى خمرها

وهو احتذاء لقول الاعرابى فى الحنين الى موطنه منعج

بلاد بها حل الشباب تميمتى
(٣) واول ارض مس جلدى ترابها

اما ابن عميرة فيعرض عن لائمه على البكاء والوجد قائلا :

اقلوا ملامى او فقولوا واكثروا
ملومكم عما به ليس يقصر

ونشم من قوله رائحة كبرياء المتنبي فى قوله :

ملومكما يجل عن الملام
(٤) ووقع فعاله فوق الكلام

(١) ديوان جميل : ١٦ .

(٢) ديوان ابى تمام : ٣٠٣ / ٤ .

(٣) معجم البلدان (منعج) .

(٤) ديوان المتنبي : ٤٨٢ .

ثانيا : الابيات العربية . نقول ابن حمديس الصقلي :

ويارب براق النصال تخالسه من النقع ليلا مشرق الشهب داسا

وقول ابن عياش :

ويطلع ليل النقع فيه كواكبا من البيض او من مرهفات المناصل

وكلا البيتين من وحي بيت بشار المشهور :

كان مشار النقع فوق رؤوسنا واسيا فنا ليل تهاوى كواكبها^(١)

ويقول ابن المراكبي في حنى اميره على الجهاد ، والتأكيد على وقوع
النصر وان تأخر بعض الشيء :

لا تغترر بنسيئة الاجل الذى ان لم يحن لك نقده فكان قد

وهو من قول النابغة الذبياني :

أفد الترحل غير أن ركبنا لما تزل برحالنا وكان قد^(٢)

ثالثا : تضمن الابيات والاشطر ، وقد اكر الشعراء من ذلك اظهارا
للثقافة ، ولان البيت المضمن او الشطر غالبا يأتي في موقع متمكن من القصيدة
فيزيد لها روعة ويساعد في جلاء المعانى التى يريد ها الشاعر . يقول ابن
المعتز العباسي في مدينته سامراء :

غدت سر من رأ فى العفاء كأنها (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل)
واصبح اهلها وشبيها بحالها (لما نسجتها من جنوب وشمال)
واذا ما امرؤ منهم شكوا سوء حاله (يقولون لا تهلك اسي وتحمل)

(١) ديوان بشار : ٣١٨/١ . وفيه (رؤوسهم بدل رؤوسنا التى هي رواية
الاغاني وغيره) .

(٢) ديوان النابغة : ٣٠ .

والاشطر الاخيرة في هذه الابيات هي بعض صدور واعجاز معلقة امرىء
القيس المعروفة ^(١).

ويقول ابن خفاجة في رثاء مدينته :

كُتبت يد الحدثان في عرصاتها (لانت انت ولا الديار ديار)

والشطر الاخير لابي تمام من بيته المعروف :

لانت انت ولا الديار ديار خف الهوى وتولت الاوطار ^(٢)

ويقول ابن خلصة في بلنسية :

لو انها نطقت قالت لفقد هم (بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا)

وعجز البيت لزهير بن ابي لسلمي من قوله :

بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا وزودرك اشتياقا اية سلكوا ^(٣)

ويقول ابن المرباط عن الاندلس :

كم جامع فيها اعيد كنيسة فاهلك عليه اسي ولا تتجلد

وعجز البيت لطرفة بن العبد وقد اجرى عليه ابن المرباط بعض التفسير
والبيت بتمامه من معلقة طرفة :

وقوفا بها صبحي على مطيهم يقولون لا تهلك اسي وتجلد ^(٤)

اما السهيلي فيأتي بببيت كامل لابي نواس خلال ابياته في رثاء بلده

والبيت هو :

يادار ما فعلت بك الايام ضامتك والايام ليس تضام ^(٥)

(١) انظر ديوانه : ٨ - ٩ .

(٢) ديوان ابي تمام : ١٦٦ / ٢ .

(٣) ديوان زهير : ٤٧ .

(٤) ديوانه : ٦ .

(٥) ديوانه : ٤٠٧ .

الفصل الثالث

دراسة مضمون قصيدة الرثاء

من خلال دراستنا للمعاني والأفكار والظواهر التي يحويها شعر رثاء الدول والامصار استطعنا ان نقف على بعض الموضوعات او الظواهر التي تبرز بجلاء في هذا الفن بشكل عام وسنتناولها هنا بشيء من التفصيل ، وهي كما يلي :

المبحث الاول : الواقعية

شعر رثاء الدول والامصار واقعى بطبيعته فهو يسجل حوادث تاريخية او ظواهر انسانية واجتماعية مشاهدة فى المجتمع البشرى ، ولكنه لا يوافق تماما المذهب الواقعى الذى يجمد عند الرصد المجرد للظواهر دون اى تدخل لعواطف الشاعر واحاسيسه ، لان ذلك يبعد بالشعر عن مفهومه الحقيقى كفن مؤثر كما يحصر الشاعر فى مجال ضيق من القول لا يحس معه بقيمة شاعريته وفعالية ابداعه . ولا اخل الشاعر الصادق الذى يقف على مدينته المنكوبة او دولته الزائلة راثيا باكيا ، ومفصلا لدقائق الحادث وملابساته يستطيع ان يكون حيادى الاحساس والوجدان ، وان استطاع ان يقيم التحليل مقام التخيل ، والمنظور محل الموهوم الى حد ما . وذلك لان الشاعر فى مثل ذلك الموقف يكون تعبيره - فى الغالب - صادرا من منبع العاطفة الدفء الذى لا يمكن للحياد والتجرد ان يقاوماه . ومن جانب آخر فان الشاعر الراثى عندما يستمد عناصر تجربته الشعرية من احداث التاريخ لا خرج عليه فى الخروج عن حرفية التاريخ وتخيل ما ليس فى الواقع مع المحافظة على جوهر الفكرة . ان الواقعية التى نلمسها فى شعر رثاء الدول والامصار هى الواقعية الروحية^(١) التى تعكس الواقع بحقائقه وتتسع لكل ما يحدث بداخل

(١) عز الدين اسماعيل ، الاسس الجمالية في النقد العربي : ٣٨٠ .

الشاعر من افكار وآلام ومشاعر . يقول ابو عدى الحبلى فى رثاء دولــــة
بنى امية :

وقتلى بـكـوة لم ترمــــس	افاض المدامع فتلى كـدى
من يثرب خير ما انفــــس	وقتلى بوج وباللابتــــين
وقتلى بنهر ابى فطــــرس	وبالزابين نفوس ثــــوت
نواب من زمن متعــــس	اولئك قوم تداعــــت بهم
والزقت الرغـم بالمعطــــس	اذلت قيادى لمن رامــــنى

فالشاعر يصدر عن واقع تاريخى تجرى احداثه امام عينيه ، فهو يتحدث
عن مصارع قوم رآهم وعاشهم ، ويذكر اسماء الاماكن التى لقوا فيها حتفهم
بمنطق بعيد عن الخيال ، ولكنه لم يقدر على منع عاطفته من التدخل ، فراح
يشرح اثر ذهاب اولئك القوم على نفسه وحاله كما نلاحظ حزنه وجذعه مــــن
نواب الزمن المتعسة لكل سعيد .

ويقول ابو يعقوب الخريمى فى وصف مشهد من مشاهد الويلات التى
حدثت فى بغداد اوان فتنة الامين والمأمون :

يا هل رأيت الشكلى مولولة	فى الطرق تسعى والجهد باهرها
فى اثر نعش عليه واحدها	فى صدره طعنة يساورها
تنظر فى وجهه وتهتف بالثــــ	كل وجارى الدموع حادرها
غرغر بالنفس ثم اسلمها	مطلولة لا يخاف ثائرها

فهى صورة حقيقية يشاهدها الشاعر عن كـب، ويعبر عنها بلفظ
(رأيت) التى تضع المنظر باجزائه امام عينيك وتشعرك بان هذا المنظر ما هو
الاجزاء بسيط من المناظر المتعددة المشابهة له والتى يتمزق الشاعر لها
اسفا وحسرة . كما نلاحظ فى آخر قصيدة الخريمى هذه تأكيد على واقعتها
وانها بعيدة عن المبالغات والاختيلة الجامعة حين يقول :

لا طمعا قلتها ولا بطرا لكل نفس هوى يؤامرها
سيرها الله بالنصيحة والـ خشية فاستد مجت مرائرها
جاءتك تحكي لك الامور كما ينشر بز التجار ناشرها

وهو في البيت الاخير يخاطب طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون المنتصر، مؤكدا له هدف قصيده السامي وهو جلاء الحقيقة المأساوية التي تعرضت لها مدينة بغداد عسى ان يكون ذلك سببا في وقف تلك الحرب المدمرة.

ويقول البحتري في بكاء القصر الجعفري :

اذا نحن زرناه اجد لنا الاسى وقد كان قبل اليوم يبهج زائره
ووحشته حتى كان لم يقم به انيس ولم تحسن لعين مناظره
كان لم تبت فيه الخلافة طلقة بشاشتها والملك يشرق زاهره
ولم تجمع الدنيا اليه بهاءها وبهجتها والعيش غص مكاسره
واين عميد الناس في كل نوبة تنوب وناهي الدهر فيهم وآمره
تخفي له مفتاله تحت غمرة واولى لمن يفتاله لو يجاهره

ان الشاعر يصدر عن تجربة واقعية عاشها، فهو يصف لنا القصر الجعفري الذي كان ينادم صاحبه الخليفة المتوكل ايام حكمه، ثم لم يلبث الزمان ان دار دورته فاغتيل المتوكل غدرا والشاعر بين يديه، وهدم القصر الزاهر وهجر واوحش، ولكن البحتري لا زال يزوره ويتجرد لديه انفعال الحزن والاسى كلما وقف عليه . وهذا ما يمكن ان نسميه بالصدق الشعري^(١) حيث تنطلق الشرارة العاطفية عند التقاء التيار النفسي المتدفق من اعماق نفس الشاعر بالتيار الحسي المنطلق من الحدث الخارجي المثير للانفعال . ومن هذا الضرب قول ابن الرومي في رثاء البصرة ووصف اعمال الزنج الوحشية :

(١) انظر: انور المعداوي، نماذج فنية من الادب والنقد : ٣٠ .

ان هذا من الامور لا مـر
لرأينا - مستيقظين - امـورا
اقدم الخائن اللعين عليها
وتسمى بغير حق اماما
كاد ان لا يقوم في الاوهام
حسبنا ان تكون رؤيا منام
وعلى الله ايما اقدام
لا هدى الله سعيه من امام

الى ان يقول :

بينما اهلها باحسن حال
دخلوها كأنهم قطع الليـ
اي هول رأوا بهم اي هول
اذ رموهم بنارهم من يمين
اذ رماهم عبيد هم باضطلام
ل اذ راح مد لهم الظلام
حق منه يشيب رأس الفلام
وشمال وخلفهم وامام

ان الانفعال والدهشة قد بلغت مداها عند الشاعر من خلال معاينته
لعظام الامور التي ارتكبت والتي لم يكن يتوقع ان تصورها له الاحلام ، وذلك
كاقدام الزنج بهذه الصورة الرهيبة على اجتياح مدينة البصرة واحراقها
والفتك باهلها بابشع الوسائل والشاعر يذكر بعض الاشارات التاريخية كقوله
عن صاحب الزنج : " وتسمى بغير حق اماما " اذ انه انتحل هذا اللقب فعلا
ليظهر سلطته بمظهر ديني ، وقوله - ايضا - في وصف عملية الاحراق :

اذ رموهم بنارهم من يمين
وشمال وخلفهم وامام

فهذا الطوق المحيط من جميع الجهات يؤكد المؤرخون كالتبري وغيره
والبيت كما هو ملاحظ من ابلغ الابيات المكونة للتيار الحسى لانه يجسم
الحدث الخارجى وينصهر بالتالى فى نفس الشاعر فتتفجر عواطفه الشعورية
الصادقة ، ولعله من هنا يتضح الفرق بين الصدق الشعوى الحقيقى الواقعى
والصدق الفنى الذى يلغى الواقع ويعتمد على نظرة الشاعر نفسه للحدث
او للشخص .

وتظهر النظرة الواقعية فى رثاء بهاء الدين البهائي لدشق ايام
التتار حيث يقول :

لو عاينت عيناك جامع تنكز	والبركتين بحسنها الفنان
وتعطش المرجين من اورادها	وتهدم المحراب والايمان
لانت جفونك بالدموع ملونا	دمعا حكي اللولو على المرجان
قطرات جفن ترجمت عن حرقتي	فكانهن قلائد العقيان
ابنى امية اين يمن وليدكم	والمفل تفتل في ذرى الاركان
شربوا الخمر بصحنه حتى انتشوا	القوا عرايدهم على النسوان

فهو يذكر بعض المعالم البارزة في دمشق والتي صب التتار جحيمه عليها فاحالها الى خرائب وانقاض . تلك المعالم كالساجد والحصون وغيرها يراها الشاعر تدنس وتحرق امامه فيذرف الدموع الممزوجة بالدماء من الالم والقهر ، ونراه يبتعد عن الخيال لانه لا داعي له هنا حيث الواقع الموحى هو الذي يعبر عن نفسه على لسان الشاعر ، ومالجوء الشعراء الى الخيال الالتقريب الحقائق المحجبة بعيدا عن دنيا الواقع . ويصف الشاعر هارون بن هارون زحف النصارى على اشبيلية بقوله :

ويمموا حمص في جمع يضيق به	ذرع الفضا بالمرهفات الماع فاكتما
واستوطنوا القبر في الوادي وقام لهم	جسر من الفلك لا تشكوبه الساما
فكم اسارى غدت في القيد موثقة	تشكو من الذل اقدا ما لها حطما
وكم صريع رضيع ظل مختطفها	عن امه فهو بالامواج قد فطما
يا عين فابك على حمص وقل لها	منك البكاء اذا ما ترسله دما
سطا بها الكفر اذ قل النصر بها	فمن معز بها الاسلام ماسلما

فالشاعر الاشبيلي يمر بتجربة واقعية مؤيرة ، فهو يرى جموع الكفار الهائلة تزحف على مدينته وتحاصرها ، وتعمل الجسور البحرية لاقتحامها وتفتك بالناس صفارا وكبارا قتلا واسرا دون ان يجدوا نصيرا من المسلمين فلاحيلة للشاعر اذن سوى البكاء والندب والثناء .

وعلى الطريقة نفسها يسير الفقيه الدقن في وصف جيش النصارى
المهاجم لآخر معاقل الاندلس بزعامة فرناند واذ يقول :

سطا بجيش كمج البحر في عدد	نعم وفي عدد من رهط ابطال
مؤيدا باجتماع المصر يتبعه	شر الخلائق مسرورا باقبال
يسمى السامع بالانفاط مشبهة	وقع الصواعق في هد وزلال
يبني ليهدم ما الاسلام شيده	والوصف يعجز من يدعى بقلقال
والمسلمون من الاشغان قد ملئت	قلوبهم وابوا تسديد اخلال
والحق مختلف والحق مؤتلف	والكل منصرف عن نصر ابطال

فهو يصف عدد الجيش وقوته وما كان يملك من ادوات الدمار كالانفاط
وغرها مما يعجز عنه الوصف في تقويض بنيان الاسلام، ثم يبين حالة المسلمين
السيئة مشفقا عليهم من الفرقة والاختلاف والقعود عن الجهاد مما ادى بهم
في النهاية الى الطرد من بلادهم .

اما شاعر طليطلة المجهول فيصف لنا موقفا محزنا اشعل قلبه عند ما
رأى فريقا من اهل مدينته طليطلة يصرون على البقاء تحت نير النصارى
المغتصبين ويرضون بدفع المغارم . يقول :

كفى حزنا بأن الناس قالوا	الى اين التحول السير
انترك دورنا ونفر عننا	وليس لنا وراء البحر دور
ولا ثم الضياع تروق حسنا	بناكرها فيعجبنا البكور
وظل وارف وخريير ماء	فلا قر هناك ولا حور
يؤدى مغرم في كل شهر	ويؤخذ كل صائفة عور
فهم احمي لحوزتنا واولى	بنا، وهم الموالى والعشير
لقد ذهب اليقين فلا يقين	وغر القوم بالله الغرور
فلادين ولاد نينا ولكن	غره بالمعيشة ماغور
رضوا بالرق ياالله ماذا	رآه وما اشار به مشير

فالشاعر يعرض لنا مشهد الذل الذي تسرب الي نفوس القوم حيث غرهم طيب العيش ولو كان فيه رقيهم ، وهو يقف موقف المصالح لهذا الامر الخطير ويشارك مشاركة فعالة في تذكير قومه باوامر الدين التي تجاوزوها بفعل ———— تزيين الشيطان لهم ، ويعلن انكاره - بصوت عال - لما هم فيه من الزيف والمهانة من اجل اللذات الدنيئة .

وفي بعض الاحيان يصدر الشاعر عن تجربة واقعية عاشها بكامل احساسه ورأى احداثها ماثلة امامه ، ولكنه بدلا من سرد الاحداث بحجمها اثناء الرثاء يأخذ في المبالغة وتضخيم الحدث الى حد كبير ، فهل نعتبر هذا زيفا وخروجا عن حدود الصدق والواقع ؟ ولنأخذ مثالا على ذلك قول ابن رشيق القيرواني في رثاء القيروان :

اعظم بتلك مصيبة ماتنجلي	حسراتها او ينقضي الملوان
لو ان شهلانا اصيب بعشرها	لتدكت منها ذرا شهلا
حزنت لها كوالعراق باسرها	وقرى الشام ومصر والخرسان
وتزعزت لمصابها وتنكدت	اسفا بلاد الهند والسندان
وعفا من الاقطار بعد خلائها	ما بين اندلس الى حليوان
وارى النجوم طلعت غير زواهر	في افقهن واطلم القمران
والارض من وله بهاقد اصبحت	بعد القرار شديدة الميلا

ان المبالغة في وصف حادث خراب القيروان ظاهرة في الابيات ولا يمكن لاحد ان ينكرها . ومع ذلك فالشاعر في حقيقة الامر واقعي وليس بمزيف ولا مهول لانه يعبر عما يرى ويحس ولا شك ان رهيته ادق واحساسه اعق ممن هم ليسوا بشعراء ، ولذلك فهو يرى ما لا يرون ، يرى الاشياء ضخمة هائلة فيعبر عنها بما يناسبها حسب رهيته لها . فيأتي شعره في نظر الناس غاصا بالمبالغات دون ان يدري هو انه يبالغ . ولعل هذا هو المقصود بالكذب الذي كان يستحسنه القدماء من النقاد كقول قدامة بن جعفر :^(١) " وقد بلغني عن

بعضهم انه قال : احسن الشعر اذ به " . فابن رشيق نظر السى
بلده الذى احبه كل الحب وقد غدا خربا منكرا الهيئة بعد الجمال والازدهار
فها له الامر وتصور المصيبة هذا التصور الكونى الواسع فهى تدر احزاننا
متواصلة لا تنقضى حسراتها ابد الدهر والدنيا بجميع جهاتها قد تملكها
الاسف والنكد ، والسماء اظلمت اقمارها والارض اضطرب قرارها . ويقول ابن
اللبانة فى غروب دولة المعتمد بن عباد واخذه اسيرا الى المغرب ففى
الفلك :

نسيت الاغداة النهر كونهم	فى المنشآت كاموات بالحاد
والناس قد ملأوا العبرين واعتبروا	من لؤلؤ طافيات فوق ازباد
خط القناع فلم تستر مخدرة	ومزقت اوجه تمزيق ابراد
حان الوداع فضجت كل صارخة	وصارخ من مفداة ومن فاد
سارت سفائنهم والنوح يصحبها	تلك القطائع من قطعات اكباد

ويقول :

انفض يدك من الدنيا وساكنها	فلا لارض قد اقفرت والناس قد ماتوا
وقل لعالمها السفلى قد كتمت	سريرة العالم العلوى اغمات

ان ابن عباد كان يمثل العصب الحيوى فى حياة الشاعر ماضى السى
ذلك انه كان ذا سلطان وهيلمان كبيرين ، فلما كانت نهايته على تلك الصورة
من الالهانة والذل اصيب الشاعر بصاعقة من الحزن والفرع ، فتصور ان الكون
كله يتحطم وينهار وسط الضجيج والتمزيق والحويل ولذلك فهو ينفذ يديه عن
الدنيا ومن فيها . وهو فى هذا كله صادق الاحساس واقصى التعبير لانه
فى غمرة التجربة المريرة الحية ، فالمشهد المرعب المثير يجرى امامه ، فيرى عن
كعب آماله وهى تبدد وتصفد وتدفن فى الحاد النفى والاسر .

واذا ما انتقلنا الى شعر الاستغاثة والحث على الجهاد نجد انه ذو صبغة واقعية ايضا لانه منطلق من شعراء احسوا بالخطر المحدق باوطانهم فذهبوا يبحثون عن النصير في لهفة والم، وان كنا نلاحظ على شعرهم الاطناب في مدح المستغاث به فذلك امر يقتضيه الموقف وتنطق به العاطفة الشائنة . يقول ابن سهل الاندلسي مستصرخا عرب المعقل في افريقيــــــــــــا لنجدة الاندلس :

اضحي الهدي يشكو الظما ولا نتم	ظل وري كالربيع المطر
وعلا الجزيرة غيب وغمودكم	مطوية فوق الصباح المسفر
الدين ناداكم وفوق سروجكم	غوث الصريخ وبغية المستنصر
لم يبق للاسلام غير بقيــــــــــــة	قد وطئت للحادث المتكسر
جدوا ونموا بالجهاد اجوركم	ماخاب قصد مشمر ومشمـر
عند الخطوب الفكر بيد وفضلكم	والنار تخبر عن ذكاء العنبر
لو صور الاسلام شخصا جاءكم	عمدا بنفس الرزق المتخير
لو انه نادى لنصر خصكم	ودعاكم يا اسرتي يامعشري

فهو ينطلق من واقع ملموس، واقع الاسلام الذي يهدف النصارى فى المقام الاول الى القضاء عليه، واجلائه عن ارض الاندلس، ولقد مرت بنا مواقف كثيرة في هذا البحث كان النصارى فيها يحولون المساجد الى كنائس بمجرد ان تطأ اقدامهم ارض المدينة الاسلامية الساقطة ثم يبحثون عن كل مايتعلق بالدين الاسلامي كالمدارس والكتاتيب والكتب فيمحرقونها على عجل، ولعلنا نلاحظ اثر ذلك جليا في قلة الكتب الاسلامية التي وصلتنا من تراث الاندلس بالنسبة لكثرة ما الف في مختلف الفنون منه . فابن سهل يأخذ في شرح حالة الاسلام في البلد المستغيث وما هو فيه من الضعف والذبول، ويتوجه الى المستغاث بهم يحثهم على النجدة مستعينا بحقائق النصوص الاسلامية التي تدعو للحث على الجهاد وتبين عظم الاجر والغنيمة المترتبة على ذلك، ثم يستمر في حثهم فيصفهم بانهم اهل الاسلام وحماته الشجعان الذين عليهم

دون غيرهم يقع عب نصرته والدفاع عنه .

ويقول ابن البار في استصراخ الحفصيين لنجدة بلنسية :

هذي رسائلها تدعوك من كعب	وانت افضل مرجول من يئسا
وافتك جارية بالنجح راجية	منك الامير الرضى والسيد الندسا
خاضت خضارة يعطيها ويغضها	عبابة فتعاني اللين والشرسا
تؤم يحيى بن عبد الواحد بن ابي	حفص مقبله من تربسه القدسا
وقد تواترت الانباء انك من	يحيى بقتل ملوك الصفر اندلسا
ظهر بلادك منهم انهم نجس	ولا طهارة مالم تغسل النجسا
واوطى الفيلق الجرار ارضهم	حتى يطأطىء راسا كل من راسا

فالشاعر كان هو الرسول من لدن امير مدينة بلنسية الى الحفصى فهو اذن صاحب قضية تشغل باله ، والانظار متطلعة اليه ترجوان يأتي على يديه الفرج ، ولذلك ذراه يحشد كل الاسباب التي تمكنه من تحقيق هدفه فيخاطب الامير في واقعية مشيرا الى الرسائل والرسائل التي تفد اليه وماتكبدته من المشاق كخوض البحار وقطع القفار ، وهي تخصه دون سواه لانه قد تيقن لديها ان هذا الامير هو الذي سيظهر الاندلس من رجس النصارى ، والشاعر بهذا يعطى الامير الحفصى دفعة ساخنة من الحماس وبخاصة حينما يجعل الاندلس تسلم قيادها وولاءها له ، فلا بد له بعدئذ من تحمل هذه التبعة ، فليعد الفيالق ويجرد السيوف في الحال .

وهناك نوع من القصائد الرثائية الواقعية جاءت في ثوب قصصي ، حيث يقوم الشاعر بوصف الحصار والهجوم والسقوط واحوال الناس بشكل متسلسل ومفصل ، وذلك كقصيدة ابي الحسن المرافى في رثاء مراغة حينما اجتاحتها التتار . يقول :

او مارأيتم ان طوفان الردى اخذ المرافعة من هجوم تتار
فظهرت الاحد ابتداء حصارهم الاخذ في الاثنين شر نهار
هجموا وقد اخذوا عالي سورها بمجانق يمتطرن بالا حجار

فهو هنا يفرخ لحادث الهجوم على اسوار المدينة، ثم يسقط السور :

بسقوطه ارتفع الغبار هراعاه ل الحق فانحدروا من الاسوار
لما رأى الكفار سورها خاليا وهوى برج تساقط منه هار
صعدوا اليه رافعين لواءهم قصاد قل الزمرة الابرار

وبعد سقوط السور والبرج الذي يعتبر بمثابة بداية للقصة نصل الى
العقدة وهي اقتحام الاعداء للمدينة، والى اين يلجأ الناس العزل؟ ثم
يأتى الحل :

لجأت الى دار الهمام امام ديب ن الله آلاف من الاخيار
فاجارهم ووقاهم فى داره قاني لحق اجارة وجوار
واطاب قلبهم بطيب وعوده اذ قال احميكم انا فى دارى
فحماهم يوما وليلة كاملا عن ناب قوم كالكلاب ضواري

ولكن القصة لم تنته عند هذا الحد، فدار القاضي لم تكن بعيدة
عن متناول يدا أولئك الضواري وسرعان ما حاصروها ورموها ببوابل القذائف ثم
دخلوها فكانت الخاتمة المأساوية لكل من فيها :

وعلا ليمنعهم اعالي داره فلهم تيسر فتح باب الدار
دخلوا وقد ظفروا بمن فى داره من نسوة ومشايخ وذواري
قتلوا جميعهم بادنى خطرة ما من مجير عندهم ومجار

ونلاحظ ان الشاعر يعبر عما يجري امامه كما هو د من اى استخدام
للخيال او المبالغات الكبيرة .
وفى استغاثة المويسيكيين بالسلطان العثماني بايزيد نجد - ايضا -
السرد القصصى لمجريات الاحداث . يقول شاعرهم :

قلما ضعفنا خيموا فى بلادنا	ومالوا علينا بلدة بعد بلدة
وجاءوا بانفاط عظام كـميرة	تهدم اسوار البلاد المنيعـة
قلما تفانت خيلنا ورجالنا	ولم نر من اخواننا من اغاثـة
وقلت لنا الاقوات واشتد حالنا	اطعمناهم بالكـره خوف الفضيحة
على ان نكهن مثل من كان قبلنا	من الدجن من اهل البلاد القديـة
ونبقى على آذاننا وصلاتنا	ولا نتركن شيئا من امر الشريعة
الى غير ذلك من شروط كـميرة	تزيد على الخمسين شرطا بخمسة

وبعد هذا الدخول بالاكره فى طاعة النصارى هل انتهت الحرب
واحترمت المواثيق ؟ كلا :

قلما دخلنا تحت عقد ذمامهم	بدا غدرهم فينا بنقض العزيمة
وخان عهدا كان قد غرنا بها	ونصرنا كرها بعنف وسطوة

وهكذا تستمر القصيدة فى شرح ما يلاقيه المسلمون من التعذيب
والتضييق ، ونحس ان الشاعر كان يعتصره الالم وهو يتحدث عن هذا الواقع
المر الذى يعيشه هو ومن معه .

المبحث الثاني : التكرار

ان شعر الرثاء هو شعر العاطفة في المقام الاول ، فهي التي تحدد معالم القصيدة وتظهر جمالها من حيث اختيار المعاني وتصويرها في ثوب لائق بها من الالفاظ .

وظاهرة التكرار التي نشاهد ها في شعر رثاء الدول والامصار تهدف الى تقوية تلك العاطفة ومساعدتها على الاستمرار ، حيث تظل انفعالات الحزن والحنين والاستغراب وغيرها في تكرر متواصل لفترة طويلة ، ومن خلال ذلك تمد الشاعر بفيض زاخر من معينها الثر . يقول ابن رشيق القيرواني :
 " واولى ما تكرر فيه الكلام باب الرثاء لمكان الفجعة وشدة القرحة التي يجد ها المتفجع ، وهو كثير حيث التمس من الشعر وجد " .

ولاننسى ايضا ما للتكرار من فائدة في تقوية موسيقى القصيدة واطهار كوامن وزنها ، وقد اشرنا الى هذا فيما سبق . وعند التدقيق في القصائد المشتملة على التكرار نجد الشعراء يستخدمونه بصور شتى ، فاحيانا يكررون عبارات تصل الى شطر بيت ، واحيانا اخرى يكررون حرفا او كلمة مع مراعاة التجانس والانسجام بين ما يلي هذا الحرف او تلك الكلمة في ايضاح المعنى ورسم الصورة التي يريد ها الشاعر .

يقول ابن ابي طالب الاعمى في رثاء بغداد :

ابيني لنا اين الذين عهدتهم	يحلون في روض من العيش زاهر؟
واين الملوك في المواكب تفتدى	تشبه حسنا بالنجوم الزواهر؟
واين القضاة الحاكمين برأيهم	لورد امور مشكلات الاوامر؟

فهو يكرر كلمة (اين) التي يستفهم بها - في ذل هول وحزن - عن مصير سادة البلاد من الملوك اولى المواكب والقضاة اصحاب المواهب في حل

المشكلات من الامر والنوازل .

وهو عند ما يتفجع على هذين الصنفين من الناس بواسطة التكرار يوحى بالصورة الكلية لخراب المدينة وهلاك الناس، لان الشاعر سيبقى مستمرا في تساوله باستغراب مؤلم اين... واين... واين... الخ وان لم يظهر كل ذلك في شعره .

ويقول ابن عبد بن في رثاء بني الافطس :

اين الجلال الذى عمت مهابته	قلوبنا وعيون الانجم الزهر
اين الالباء الذى ارسوا قواعده	على دعائم من عز ومن ظفر
اين الوفاء الذى اصفوا شرائعه	فلم يرد احد منهم على كدر

وهنا - ايضا - يكرر (اين) ويأتى بعدها بعبارات شديدة الالتحام ببعضها، فالجلال، والالباء، والوفاء، تكون مجتمعة معنى اخلاقيا ذاهالة عظيمة اراد الشاعر ان يظهرها بطرق متعددة، ثم يحاول تضخيم تلك الهالة ببيان اثار الموثقين على المجتمع عامة فيكرر مجموعة من الحروف، والادوات تتجاوز نصف الشطر حيث يقول :

من لى ولا من بهم ان اظلمت نوب	ولم يكن ليلها يفيض الى سحر
من لى ولا من بهم ان اطبقت محن	ولم يكن وردها يفيض الى صدر
من لى ولا من بهم ان عطلت سنن	واخفيت السن الاثار والسر

وبعد المكرر يأتى بعبارات : اظلمت نوب، اطبقت محن، عطلت سنن التى تشترك فى الصفات السلبية، حيث تجعل الناس بدون وجود بنى الافطس كما مهملا لا يقدرهن على دفع ملمة او كشف محنة .

وفى بعض الاحيان نجد الشاعر يستهل قصيدته بالتكرار وذلك ليشيع جوا عاطفيا حزينا يشد انتباه السامعين لما سي قوله بعد ذلك كقول ابن الرومى :

شغلها عنه بالد موع السجام	زاد عن مقلتي لذيق المنام
رة ماحل من هنات عظام	اي نوم من بعد ماحل بالبصـ
ج جهارا محارم الاسلام	اي نوم من بعد ما انتهك الزنـ

انها صرخة استنكار وفزع يطلقها الشاعر في وجه النوم . فاي نوم
يمكن ان يتسلل الى الجفن المشتغلة بالدمع ، والنفوس المعذبـة
بالاحزان والهموم ؟ ان مرجل الانفعالات المؤلمة ليغلى في نفس
الشاعر ويفور حتى يجعله يهذي كالمحموم ، ويتلف موددا اسم البلد
الذي يرثيه وصفاته :

رة لهفا كمثل لهب الضرام	لهف نفسي عليك ايتها البصـ
خمرات لهفا يعضني ابهامي	لهف نفسي عليك يا معدن الـ
لام لهفا يطول منه غرامي	لهف نفسي عليك يا قبة الاسـ
دان لهفا يبقى على الاعوام	لهف نفسي عليك يا فرضة البلـ
لهف نفسي لعزك المستضام	لهف نفسي لجمعك المتفانسي

فهو يكرر كلمة (لهف) في كل بيت مرتين مما يدل على الاضطراب
والقلق النفسي ، ثم الحسرة العميقة التي يذكيها تكراره لاداة النداء (يا)
مع ما يليها من الصفات الفخمة المتناسقة في المعاني والموسيقى
يامعدن الخمرات ، يا قبة الاسلام ، يا فرضة البلدان ، والتي تجعل
البصرة في مقام عظيم الاهمية جدير بتلف الشاعر والمهـ .

وقصيدة ابن الرومي تعتبر فريدة في بابها من ناحية التكرار ، فقد
اكثر منه كثرة ملحوظة واستعمله بين كل فترة واخرى وكأنه يجعل منه فاصلة
انتقال من موقف الى آخر ضمن الاطار العام للقصيدة . فنراه في الموقف
التالي يدخل في اعماق الحادث مبينا شموله لكافة اهل البصرة ، فتزدحم
نفسه بالمعاني والشاعر ، التي لا يجد افضل من التكرار وسيلة لنقلها اليها .
يقول :

كم اغصوا من طاعم بطعام	كم اغصوا من شارب بشراب
قتلقوا جبينه بالحسام	كم ضمن بنفسه رام منجما
ترب الخد بين صرعى كرام	كم اخ قد رأى اخاه صريعا
وهو يعلى بصارم صمصام	كم اب قد رأى عزيز بنييه
بشبا السيف قبل حين الفطام	كم رضيع - هناك - قد فطموه
فضحوها جهرا بغير اكتام	كم فتاة - بخاتم الله بكر -
بارزا وجهها بغير لثام	كم فتاة مصونة قد سب وهما

فتكرار (كم) التي تفيد التكثير بين شدة الهول الذي لقيه الناس، كما يبين شدة الألم الذي تنفض به نفس الشاعر وهو يعدد الاجزاء التفصيلية للنكبة العامة . انه يكرر ويعيد ليفرغ ما يحويه صدره من الانفعالات ، وفي الوقت نفسه يحرص على نقل تلك الانفعالات والمشاعر الى مستمعيه على الصورة التي يريد ها من الحرارة والتأثير ، ففي وصفه لما لقيته النساء من المهانة يقول :

داميات الوجوه للاقدام	من رآهن في المساق سبايا
ج يقسمن بينهم بالسهام	من رآهن في المقاسم وسط الزند
بعد ملك الاماء والخدام	من رآهن يتخذن اماء

فعبارة (من رآهن) التي يكررها الشاعر، تجعل السامع او القارئ يحس بانه (اي الشاعر) يتمزق وتعتصر قلبه مرارة الارغام ، فيجد نفسه ينتقل الى ذلك الجوء بمشاعره وعواطفه ويمر بنفس التجربة التي عاشها الشاعر بالرغم من الفترة الزمنية الطويلة بينهما . وبخاصة ان قضية اسر النساء واذلالهن ذات خطوة شديدة في نفوس العرب . ثم يستمر ابن الرومي في وصف افعال الزنج الشنيعة محاولا استقصاءها من كل جانب ليمرز عظم النكبة فيقول :

رب بيع هناك قد اخصوه	طال ماقد غلا على السوام
رب بيت هناك قد اخرجوه	كان مأوى الضعاف والايتام
رب قصر هناك قد دخلوه	كان من قبل ذاك صعب الام
رب ذى نعمة هناك ومال	تركوه محالف الاعداء
رب قوم باتوا باجمع شمل	تركوا شملهم بغير نظام

اننا نحس هنا برنة موسيقية حزينة تنساب من خلال التكرار الذى يهيج تذكر خراب البيوت العامة والقصور الزاهرة، ونشاهد بعد ذلك الشاعر وهو يعرض اصابعه نداء ما واسفا حين لم تعد نفسه تطيق صبرا او تحتل وقع المآسى .

ان الشاعر الرائي حين ينطلق من عاطفة صادقة ويكهن موهف الشعور فانه فى الغالب لن يستغنى عن التكرار لانه عامل مهم فى استقصاء الجزئيات والصفات والفضائل وما الى ذلك . يقول ابن الجار باكيا خراب المسجد الاقصى :

على المسجد الاقصى الذى جل قدره	على موطن الاخبات والصلوات
على منزل الاملاك والوحى والهدى	على مشهد الابدال والبدلات
على سلم المعراج والصخرة التى	انافت بها فى الارض من صفوات
على القبلة الاولى التى اتجهت لها	صلاة البرايا فى اختلاف جهات
على خير معمر واكرم عامر	واشرف مبني لخير بناء

لا شك ان للمسجد الاقصى منزلة عليا فى نفوس المسلمين ، فهو قبلتهم الاولى ، وموضع معراج الرسول - عليه الصلاة والسلام - الى السماوات العلى ، وثالث الحرمين الشريفين . . . الخ ولذا فان الشاعر عندما يصطدم بما حل بهذا المكان المبارك يتضاعف فى نفسه جيشان الانفعالات ، ويثب الى ذهنه كثير من المشاهد التى يود رثاءها ، فلا بد حينئذ من التكرار للمحافظة على كمال الصورة . وشاعرنا فى هذه الابيات يكرر الحرف (على)

وكانه يرى انه مهما بكى وندب قلن يستطيع ان يحيط بتلك المعالم الجليلة
ايكى على موضع الصلوات المقفوف من رواده ، ام على مكان الوحي وسلم
المعراج ، ام على الصخرة ومشهد الابدال ولذلك فهو يهيج العالم
كله على البكاء :

وتعلن بالاحزان والترحات	لتبك على القدس البلاد بأسرها
وتشكو الذى لاقت الى عرفات	لتبك عليها مكة فهي اختها
وتشرحه فى اكرم الحجرات	لتبك على ما حل بالقدس طيبة

وتكراره لكلمة (لتبك) المقترنة بلام الامر يدل على ثوة نفسه وعظم
تصوره للفاجعة ، فلم يعد يرضيه بكاء اهل القدس ومن حوله ، بل لابد
للعالم كله ان يعلن حداده ، ولا بد لمكة والمدينة وهما افضل البلاد
قاطبة عند المسلمين ، ان تشاركنا فى هذا المأتم الكبير ، ولا سيما انهما
ترتبطان بالقدس بروابط وشائج قوية وقديمة .

اما ابن المرباط فيصف احوال الاسرى الاندلسيين بقوله :

كم من اسير عند هم واسيرة	فكلاهما يبغى الفداء فما فدى
كم من عقيلة معشر معقولة	فيهم نود لو انها فى مُلَحَد
كم من تقى فى السلاسل موثق	يبكى لآخر فى الكبول مقيد

وهذه الابيات من قصيدة يستصرخ بها الشاعر بنى مرين لنجدة
الاندلس المهدة بغزو النصارى ، فالتكرار هنا احد عوامل التأثر
المنشود . وبخاصة انه يكرر (كم) التى تشير الى الكثرة ويتفجع معها
على اولئك الاسرى الضعاف من النساء والولدان ، والشيخ الاتقياء
الذين تركوا بيد النصارى يفتنون بتعذيبهم واذلالهم دون ان يجدوا
من يفتديهم .

ان اعادة مثل هذه المشاهد ملونة باحاسيس الشاعر على سامع
الصفتا به تحرك من نفسه ساكنا ، وتدفعه الى الاستجابة .

وفي استغاثة المورييسكيين بالسلطان العثماني نلاحظ تكرار لفظ السلام في مطلع القصيدة عشر مرات، ومن ذلك قول الشاعر :

سلام كريم دائم متجسّد	أخص به مولاى خير خليفة
سلام على مولاى ذى المجد والعلّاء	ومن البس الكفار ثوب المذلّة
سلام على مولاى من دار ملكه	قسطنطينة اكرم بها من مدينة
سلام على القاضى ومن كان مثله	من العلماء الاكرمين الاجلّة
سلام عليكم من عبید تخلفوا	باندلس بالغرب فى ارض غربّة
سلام عليكم من شيوخ تمزقت	شيوخهم بالنتف من بعد عزة
سلام عليكم من وجوه تكشفت	على جملة الاعلاج من بعد سترّة
سلام عليكم من عجائز اكرهت	على اكل خنزير ولحم لجيفة

ولعل الشاعر فعل هذا اعلانا عن خضوعه المسبق وتذللّه بين يدي السلطان عسى ان يستمع لما يقول ويصغى ، فالمورييسكيين كانوا فى حالة من القهر والذل لا تطاق ، فقد اكرهوا على اعتناق دين النصارى ، وكل من عرف عنه انه فعل امرا يمت الى الاسلام بصلّة يقتل او يحرق حيا ، وقد ذهبت كل محاولاتهم لطلب النجدة ادراج الرياح . فالشاعر هنا سفير امة فقدت هويتها وفي نفسه من الالام والاحزان ماتنوه به الجبال ، وهذه آخر المحاولات التى يمكن ان تجدى نفعا فبدأ قصيدته بهذا التكرار ليعلن عن هدفه ، وهو استجداء النصرة ، وذلك باشاعة جو من التعظيم والتبجيل للسلطان ثم يتبعه بعرض شامل للحالة المزرية والنفوس المعذبة فى الاندلس من جراء حكم النصارى الحاقدين حيث التعذيب والاستهتار بقيم الاسلام والاكرام على فعل المحرمات وغير ذلك .

ثم ينتقل الشاعر الى عنصر آخر ربما يكون له اثر فى اثارة حماسة السلطان ، وهو فعل النصارى بالقرآن والمساجد ، فيقول متأوها :

واحرق ما كانت لنا من مصاحف	وخلطها بالزبل او بالنجاسة
وآها على تلك المساجد سمرت	مزابل للكفار بعد الطهارة
وآها على تلك الصوامع علقت	نواقيسهم فيها نظير الشهادة
وآها على تلك البلاد وحسنها	لقد اظلمت بالكفر اعظم ظلمة

وهذه التأوهات المتكررة، واللوعة النابعة من الوجدان الصادق
تدلان على مقدار الخذلان الذي لقيه اهل الاندلس، كما ان الشاعر
عند ما يضع هذه الصورة امام السلطان بتلك الروح الملتهبة يطلب منه
حلا عاجلا يدفع به اليأس والاستسلام الذي بدأ يتسرب الى
آلاف النفوس .

المبحث الثالث : الجماعة

الشاعر فرد يعيش في مجتمع كبير تربطه به علاقات ووشائج قومية فهو لا يمكن ان يبقى في برج العاجي مغلقا على نفسه بعيدا عن آلام الناس الذين يعيش بينهم ، وكيف له ان يفعل ذلك ، وهو الذي ولد مهيأ ليكون لسان حال امته بما منح من رهاقة حس ، ودقة شعور . والسرور الجماعية التي تلمسها في شعر رثاء الدول والامصار تكشف عن مدى العلاقة التي كانت تربط بين الشاعر ومجتمعه ، فعندما يصاب الوطن الذي يحتضن الجميع بكارثة عامة تودي به ، وتشتت اهله تثار عاطفة الشاعر وتدفعه الى القول ، فيكون اول همه التعبير عن آلام قومه الذين عاشروهم زمنا وعن تشردهم وسبيهم وما الى ذلك ، دون ان يندب الطبقة الحاكمة او يبكي لمصرها الا لاما . يقول المواق :

لم يبق في بغداد الا امرؤ	حالفه الفقر كثير العيال
لام تحمي عن حماها ولا	خال له يحمي ولا غير خال
ليس له مال سوى مطرد ^(١)	مطرده في كفه رأس مال
هان على الله فاجرى على	كفيه للشقوة قتل الرجال

فالشاعر هنا بازاء حالة اجتماعية اوجدتها الحرب ، تلك هي الهجرة الجماعية التي ادت الى اقفار بغداد من سكانها ، فالذي يستطيع الهرب نجاة بنفسه فعل ، حتى لم يبق فيها الا الضعاف والفقراء الذين لم يجدوا حيلة فاستسلموا لقدرهم ، او المجرمين واللصوص الذين يقتنصون الفرص في مثل هذه الاوقات لاثارة الفوضى والرعب والقتل في سبيل النهب والسلب .

فهذا الاحساس بمصائب الناس هو الذي يخذى قصائد الرثاء

(١) المطرد : رمح قصير يطعن به الوحش . الصحاح (طرد) .

ويجعلها ذات تأثير متجدد . وينطق ابو ناظرة السدوسى بلسان شعب
البصرة المشرود حين يقول :

ارى كل قوم لا يزال مظنة	منازلهم من آيب ومـ
سوانا فانا حشو كل مدينة	والقاوما من نازح وقريب
ذود اوجه فيها كواب واعين	بواك وفقر ظاهر وشحوب
فدو العز منا مستكيل وذوالنفي	كان لم يكن ذا رتبة وركوب
فما حل بالاسلام مثل مصابنا	وسلطاننا للدين حق غصوب

الى ان يقول :

وما كل بصرى شكا بمفند	ولا كل بصرى بكى بمعيب
ولو انه بصريا بكى كنه شجوه	بكى بدم حتى الممات صبيب

فهو هنا جزء لا يتجزأ ممن يتحدث عنهم ، لانه يشاركهم الويلات
والنفي ، ويحس بما يدور في انفسهم ويعبر عنه ، فنراه ينطق بلسان
الجمع : " سوانا فانا حشو كل مدينة " ، فذوالعز منا . . . " ، " فما حل
بالاسلام مثل مصابنا . . . " ولهذا نجد شعوره بالنكبة عظيما اليما حيث
شمله مع من شمل التغير المفاجي للحياة ، فذل واستكانة بعد عز
وسلطان وفقر وشحوب بعد غنى ونضارة عيش ، وتقلب دائم وهجرة مستمرة
فى شتى البلاد مع نضوب الامل فى العودة الى الوطن . كل هذا يشعل
قلب الشاعر ويقرح اجفانه ، فيطلق العنان لكل بصرى لكى يجتهد كل
الاجتهاد فى البكاء غير آبه بلوم اللائمين وعذله .

والى نحو هذا يذهب ابن شرف القيروانى فى رثائه لحـ
المشردين من اهل القيروان ، حين يقول :

فاذا نجت المقادير منهم	راجلا بالخلاص يحمل رحلا
لقى الهين فى المذلة انسى	كان من سائر البلاد وحلا

ليس يلقى الا امراً مستطيلاً
فقرى اشرف البرية نفساً
فهم كلما نبت بهــــــــــــــــم ار
مزقوا في البلاد شرقاً وغرباً
لا يلقى النسيب منهم نسيباً
طالباً عنده حقوداً وذحلاً
ناكساً رأسه يلاطف نذلاً
ض مطايا الفراق خيلاً وجلاً
يسكنون الدموع هطلاً ووبلاً
يتعزى به ولا الخل خلاً

وابن شرف - ايضاً - كان من الذين شردوا ومارسوا تجربة الغربة
عملياً بعد خراب موطنه القمروان ، وان كان قد لقي بعض المكانة عند ملوك
الاندلس فذلك عن طريق احراق بخور المدح والملق والتكلف فــــــــــــى
البلاطات الكثرة المختلفة . فهو هنا يتميز غيظاً والمأ على الكرامات الابهية
التي تمتهن عندما يضطر اصحابها الى فعل ما ليس من شيمهم ولا من
اخلاقهم فى سبيل كسب رضى اولئك الوحوش الذين يعيشون وسطهم
والذين امتلأت قلوبهم بالحقده على هؤلاء المشردين ، واعتبروهم فريسة
ساقها القدر اليهم .

ولعل الفتك الشنيع والتخريب الهائل الذى لاقته القمروان على
يد العرب الهالين جعل شعراءها ينظرون الى الناس جميعاً نظرة
سوء وتشائم ، ويصوون الغربة بصورة موحشة مخيفة . فالحصرى القمروانى
يبدأ رثاءه للقمروان بقوله :

موت الكرام حياة فى مواطنهم
اصبحت فى غربتى لولا مكاتمتى
فان هم اغتربوا ماتوا وماتوا
بكنتى الارض فيها والسموات

ويقول ابن رشيق القمروانى فى تشرد قومه :

يستصرخون فلا يفاث صريخهم
خرجوا حفاة عائدين برهبــــــــــــــــم
هربوا بكل وليدة وفطيمــــــــــــــــة
حتى اذا سئموا من الارنان
من خوفهم ومصائب الالوان
ويكل ارملة وكل حصان

وممن وصف حال المهاجرين المشردين - ايضا - حازم القرطاجنى
اذ يقول :

من كل ساهى الفكر مفشى على	فؤاده من كوة الوجد غمى
تململوا فوق ذرى اكوارهم	كأنما باتوا على حد المدى
اعدت جسم العيس اجسام لهم	قد كدن لا يبصرن من فرط الضوى
واعدت الانفس منها انفس	منهم فرقت من غرام وهوى

وهذا الوصف الدقيق لحال اولئك الهائمين على وجوههم
الظاعنين باستمرار الى غير قرار، يبين مدى ارتباط الشاعر بمجتمعهم
ولائه له، ومن هنا ينتج الادب الهادف الذى يخدم قضايا الامة
ويعبر عن آلامها وآمالها . فالقرطاجنى عندما يعبر عن الانفس الستى
شفها الوجد والاجسام التى هزلت من كوة الاسفار والمشايق حتى انتقلت
عدواها الى العيس لكثرة الملازمة ودوام الارتحال، عندما يعبر عن هذا
يشعر كبحده على اولئك الناس ومشا ركنه الوجدانية لهم، بالرغم من
كونه بعيدا عنهم، وينعم بعيش رغيد .

اما ابن العسال فى رثاء مدينة برشترو فيصف لنا حالة اهلها
عندما وقعوا فى قبضة النصارى بقوله :

كم موضع غنموه لم يرحم به	طفل ولا شيخ ولا عذراء
ولكم رضيع فرقوه من امه	قله اليها ضجة وبغاء
ولرب مولود ابوه مجدل	فوق التراب وفرشه البيداء
ومصونة فى خدرها محجوبة	قد ابرزوها مالها استخفاء
وعزيز قوم صار فى ايديهم	فعليه بعد العزة استهزاء

فهو يصور القسوة والوحشية التى عامل بها النصارى الحاقدين
ضعاف المسلمين من الاطفال والنساء والشيخ . والجدير بالذكر ان
التركيز على مصير الاطفال والنساء امر نلمسه عند معظم شعراء رثاء السدول

والمدن لأن ذلك اشد اثاره للنفوس والعواطف عند السامعين ، وانفسح
مجالا لتفجع الشاعر بكائه . يقول الشاعر المجهول في رثاء الاندلس بعد
سقوطها :

وكم من عجوز يحرم الماء ظموها	على الذل يطوى لبثها ومسرهما
وشيخ على الاسلام شابت شيوه	يمزق من بعد الوقار قتمرها
وكم من صغير حيز من حجر امه	فاكبادهما حراء لفح هجرهما
وكم من صغير بدل الدهر دينه	وهل يتبع الشيطان الا صغيرها

ونلاحظ هنا انه زاد على سابقه امرا جديدا ، وهو تغير الاديان
وخصه بالصغير لسرعة تقبله للاشياء الجديدة ، مما يجعل الامر اكر خطورة
وألم للنفوس المسلمة .

وقد ليج الشعراء بالبكاء على مصاب هؤلاء الضعفاء وددوا ذلك
على مسامع المستغاث بهم لشدة وقعه وتأثيره . يقول ابن المرحل :

ان امام البحر من اخوانكم	خلقا لهم تلفت اليكم
ونحوكم عيونهم ناظرة	لا تطعم النوم وكيف تطعم؟
والروح قد همت بهم ومالهم	سواكم ردة فابين الهمم
كلهم ينظر في اطفاله	ودمعه من الحذار يسجم
ابن المفرا لا مفرا انما	هو الفياث او اسارا ودم

ويدخل في اطار الروح الجماعية - ايضا - تفجع الشعراء ، على
الشعائر الدينية والمعالم الاسلامية التي يعطلها الكفار ويعيشون بقدرتها
عندما تقع تحت ايديهم ، وذلك لان الدين امر يهم كل فرد من الامة ، بل
هو الاساس المتين الذي يقوم عليه المجتمع الاسلامي . وعندما يصاب هذا
الدين مثالا - بشعائره ومعالمه - بالنكبات الجسام تهتز المشاعر وتضطرب
القلوب فينبى الشعراء للتعبير عن هذه الموجة من الاحاسيس ايمانا منهم

برسالتهم فى تخليد عظمة الاسلام ومجد الامة .
يقول احد هم فى رثاء القدس :

احل الكفر بالاسلام ضيما	يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع وحمى مباح	وسيف قاطع ودم صبيب
وكم من مسجد جعلوه ديرا	على محرابه نصب الصليب
دم الخنزير فيه لهم خلوق	وتحريق المصاحف فيه طيب
اما لله والاسلام حقيق	يدافع عنه شبان وشيب

فهو يصور لوعة الدين وكآبه لاستباحة حماه وتخريب معالمه ومن
اهمها المساجد التى هى هدف النصارى الاول ، فيحولونها فورا الى
اديرة وكنائس ، كما يقومون بتدنيس كل مقدس عند المسلمين ، فهذا القرآن
كتاب الله الاعظم ودستور المسلمين يمزق ويحرف ويراق عليه دم الخنزير
داخل المساجد نكابة بالمسلمين وزيادة فى آلامهم وتعذيبهم النفسى
ونرى الشاعر يستفزع ذلك وينادى المسلمين شيبا وشبانا للدفاع عن
حرمات الله ، ويتعجب من تخاذلهم وانصرافهم عن ذلك .
ويقول ابو البقاء الرندى فى رثاء الاندلس :

تبكى الحنيفة البيضاء من أسف	كما بكى لفراق الالف هيمان
على ديار من الاسلام خالية	قد اقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائسها	فيهن الانواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكى وهى جامدة	حتى المنابر ترثى وهى عيدان

انها صورة مؤثرة جدا لفداحة الخطب الذى حل بالاسلام ، فقد طوي
ذكره ولوائحه من بلاد الاندلس بكاملها . بعد ان انست به قرونا طويلة
فالمساجد الشامخة بالتوحيد ونور العلم ، اضحت كنائس تعلق فى محاريبها
الصلبان ، وتجثم فوق منابر مانواقيس يسرى منها ظلام الشرك الاسود محاولا
اطفاء كل نور قد ينبعث من هنا او هناك ، انه تحول جذرى خطير مات فيه

حضارة قرون زاهرة، وتشرد فيه شعب طالما ردد التاريخ اصداه جهاده
فلمثل هذا تبكي العين وتنخلع القلوب وتنظم قصائد الرثاء الحساسة
اللافتة .

وفي شعر الاستغاثة وطلب النجدة كان للحديث عن الاسلام
والمساجد مجال خص ب للتأثير في نفوس ولاة الامور المسلمين ، وقد افثن
الشعراء في ذلك ، فطورا يلزمون المستغاث به الحجة ويضعونه امام واجبه
المباشر في الذود عن حمى الدين ويجعلونه هو المسؤول امام الله
والامة عن ذهاب بلاد الاسلام اذا قصر وتخاذل . يقول ابن سهل في
استصراخ عرب افريقيا :

الدين ناداكم وفوق سروجكم	غوث الصريخ ونغية المستنصر
لم يبق للاسلام غير بقيعة	قد وطئت للحادث المتنكر
والكفر ممتد الطوالع والهدى	تمسك بذناب عيش اغبر

الى ان يقول :

كم نكروا من معلم ، كم دمروا	من معشر ، كم غيروا من مشعر
كم ابطلوا سنن النبي وعطلوا	من حلية التوحيد ذروة منبر
اين الحفاظ مالها لم تنبعث	اين العزائم مالها لاتنبرى ؟
ايهزمنكم فارس في كفه	سيفا ودين محمد لم ينصر ؟

واحيانا يكون الحث عن طريق التصوير الموحى لفعل الاعداء بمعالم
الاسلام كقول ابن البار :

يا للمساجد عادت للعدا بيعا	وللنداء غدا اثناء ما جرسا
لهفى عليها الى استرجاع قائتها	مدارسا للمثاني اصبحت درسا
سرعان ما عاث جيش الكفر واحربا	عيث الدبا في مغانيها التي كبا

فهذا العرض الذي يوحى به هتزاز مصر الامة، وتغيير معالم
شخصيتها بتدمير المشاعر وابطال السنن يحدث وقعا قويا في النفوس
المسؤولة .

واحيانا اخرى يعتمد الشاعر الى اظهار فضل المستغاث به
وابراز خدمات اسلافه القديمة في سبيل الاسلام ومن ثم يدفعه لاكمال
تلك المآثر والمحافظة عليها ، كقول ابن طفيل :

عليكم وهذا عوده جد واجب	بكم نصر الاسلام بدء فنصره
ولا تغفلوا احياء تلك المناقب	فقوموا بما قامت اوائلكم به
ومهد به منكم بلا عيب عائب	وقد جعل الله والنبي وآله

المبحث الرابع : اسباب النكبات

عند مطالعتنا لشعر رثاء الدول والامصار تطالعنا ظاهرة تلمس الشعراء للاسباب التي ادت الى حدوث الكوارث المتمثلة بسقوط الدول وزوالها ، ودمار المدن ووقوعها في يد الاعداء من الشائرين والكافرين وما يتبع ذلك من هيلات وآلام . ولكن الملاحظ ان ما يذكرونه من اسباب لا يمس جوهر الحقيقة التي ترونها كتب التاريخ بل يذهبون الى ذكر اسباب عاممة تكاد تتشابه في اطارها العام الا في النادر ، فهل كان الشعراء لا يدركون حقائق الضعف السياسي وخيانة الحكام وضعفهم وما الى ذلك ؟ الواقع ان الشعراء كانوا من اعلم الناس بما يدور في مجتمعاتهم فقد كان منهم الوزراء والسفراء ، وخدام البلاط . . . ، ولكن جبروت الحكام وشدة نفقتهم على الناقدين والمعارضين جعلت الشعراء يجنحون الى جعل العيب ، والمعاصي والمقادير هي سبب السقوط والدمار .

يقول الهواق :

من ذا اصابك يا بغداد بالعين الم تكوني زمانا قرة العين ؟

ويقول احد الشعراء :

بكيت دما على بغداد لما
اصابتها من الحساد عين
فقدت غضارة العيش الانيق
فافت اهلها بالمنجنيق

والشاعران يبيكان بغداد في فتنة الامين والمؤمن ، وسبب الفتنة معروف ومشهور ، وهو الطمع في الاستئثار بالخلافة من اجل المصالح الشخصية الذاتية ، دون النظر فيما يجره ذلك على الامة ، فكانت العاقبة تدمير عاصمة الخلافة بغداد ، وقتل الالاف من الابرياء وتشرذم الكبر من مختلف فئات الناس . وعندما تلجلج القول في صدر الشاعرين حملا العيب الحاسدة تبعة ذلك كله على سبيل الاعتبار والعظة من زوال الاشياء

وتبدلها ، ولم يوجهها اللوم الى اى من الطرفين المتنازعين طلبا للسلامة
ولم يفعلها كما فعل الخريمى حين قال فى الموقف نفسه واصفا السبب
الحقيقى الذى اشعل الفتنة :

قلم يزل والزمان ذو غمير	يقدح فى ملكها اصاغرهما
حتى تساقط كاسا مشللة	من فتنة لا يقال عاثرهما
وافترقت بعد الفة شيعة	مقطوعة بينها او اصرهما
يا هل رأيت الاملاك ما صنعت	اذ لم يرعها بالنصح زاجرهما
امرد املاكتنا نفوسهم	هوة غي اعيت مصادرها
ماضرها لو وقت بموثقها	واستحكمت فى التقى بصاثرها

فهو هنا يصرح بالسبب المباشر الذى شهدته هو وعلمه الناس
جميعا من حوله ، وهو مجافاة الحكام للتقوى ، وضربهم بالمواشيق المبرومة
عرض الحائط ، مع عدم وجود الناصحين المخلصين ، فكل حاكم كانت
بطانته تزين له انه احق بالامر من صاحبه . فجزء كبير من مسؤولية بيان
الحقيقة اذن يقع على الشاعر نفسه ، وقل من يفعل ذلك منهم ، وانسى
اعتقد ان قصيدة الخريمى هذه قد حوربت حتى اننا لانجد لها ذكرا
الا فى احدى زوايا تاريخ الطبرى . على ان الشاعر يضيف الى هذا
السبب سببا آخر هو المعاصى التى تمادى الناس فى ارتكابهم لها
فعاقبهم الله تعالى ، ولعله قصد بهذا اشراك الرعية مع الحاكم فى
الافساد وجلب المصائب ، حتى يخفف النقمة عليه . يقول :

امهلها الله ثم عاقبها	لما احاطت بها كبائرهما
كم قد رأينا من المعاصى ببغدا	د فهل ذو الجلال غاثرهما
رق بها الدين واستخف بذى ال	فضل ، وعز النساك فاجرهما
وخطم العبد انفس سيده	بالرغم واستعبدت حواثرهما
وصار رب الجيران فاسقهم	وابتز امر الدروب ذاعرهما

ويقول ابن رشيق القيرواني في نكبة القيروان :

نظرت لها الايام نظرة كاشح	ترنو بنظرة كاشح معيان
حتى اذا الاقدار حم وقوعها	ودنا القضاء عدو واوان
اهدت لها فتنا كليل مظلم	وارادها كالناطح العيدان

وفي رثاء قرطبة يقول بعضهم :

ابك على قرطبة الزين	فقد دعتها نظرة العين

ويشير الرندي الى سبب محنة الاندلس بقوله :

اصابها العين في الاسلام فامتحت حتى خلت منه اقطار وبلدان

ان الشاعر هنا قد يكون واقعا تحت تأثير امرين ، اولهما تقييد حرياته عن التعبير الصحيح تحت طائلة الارهاب ، وثانيهما شعور الشاعر بان سبب المصاب قد اصبح معلوما لدى الجميع فلا جدوى من ذكر خيانة الحاكم وجهله وغفلته ، بل يذهب الشاعر ليفتش عن اسبب غامضة يرضى بها انفعالات نفسه ، فيجد في العين رمزا خفيا لقوة رهيبه ربما تفعل الاعاجيب . اما الذين ذهبوا الى ان المعاصي والذنوب هي سبب الداء فمنهم ابو اليسر التنوخي الذي يقول في رثاء بغداد ايام التتار :

والله يعلم ان القوم اغفلهم	ما كان من نعم فيهن اكار
فاهملوا جانب الجبار اذ غفلوا	فجاءهم من جنود الكفر جبار

وهذا السبب ربما يكن اوجه من سابقه واكثر واقعية ، لان حقائق التاريخ تثبت ان كثيرا من المصائب العامة الطامة ، كان سببها المعاصي وكفران النعم ، وصرفها في غير محلها ، ولقد اشار القرآن الكريم الى هذا

بقوله (١) : (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بانعم الله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) .

وفيما يخص بغداد ، فقد حبيت بنعم كثيرة ، وترفاهلها ايما ترف ، واسرفوا في الملذات والشهوات المحرمة ايما اسراف ، ومالوا الى الدعة واللهو ، فمن حفلات غناء وطرب ، الى شعر خمري وغلماي عابث ماجن ، الى غير ذلك . وكانت النتيجة ضعفا عاما في الحاكم والمحكوم وظهور العجز عن القيام بواجب الاستخلاف في الارض ، فجاءت السنة الالهية لتزيلهم عن ذلك بايدي اقوام موغلين في الوحشية والقسوة . فبينما كانت بغداد تترقد في خمائل ناعمة من العيش جاءها العقاب على يد المفسول الجبابرة الذين لم يعرفوا النعيم ، ولا ذاقوا حياة الترف واللهو ، فدروها تدويرا لزال التاريخ يرتجف من هولاء .

ويقول ابن هارون في رثاء اشبيلية :

ياجنة زجرتنا عن زخارفها ذنوبنا فلزمتنا البت والندما

وابن العسال في رثاء مدينة برشتر :

لولا ذنوب المسلمين وانهم	ركبوا الكبائر مالهين خفاء
ماكان ينصر للنصارى فارس	ابدا عليهم فالذنوب الداء
فشارهم لا يختفون بشرهم	وصلاح منتحلي الصلاح رياء

والمجهول في رثاء طليطلة :

انامل ان يحل بنا انتقام	وفينا الفسق اجمع والفجر
واكل للحرام ولا اضطرار	اليه فيسهل الامر العسر
يزول الستر عن قوم اذا ما	على العصيات ارخيت الستور

وهنا - بلا شك - كان للمعاصي والكبائر التي ارتكبت جهرا
 دهر فعال في تكالب العدو على مدن الاندلس واحتلالها ، وبما كان
 الشعراء يقصد من الحكام ومن حولهم باهل الكبائر ، لانهم - وبخاصة
 ملوك الطوائف - كان ينهبون اللذات نهبا ويتوسعون في القتل وسفك
 دماء شعوبهم دهن رحمة ، وهم مع ذلك جبناء يتهاقن على رضى
 النصارى باغلى الاثمان ، مما دفع ابن العسال الى القول بلامبالاة
 بالعواقب :

ماتت قلوب المسلمين برعبهم فحماتنا في حربهم جبناء

وابن شرف القيرواني يصف حال قومه بقوله :

جار فيهم زمانهم واولوا الامم رفقوا يرجون في الارض عدلا

وهذه الحقيقة التي تتفقت في كثير من الاحيان على السنة الشعراء
 تدل على الثروة التي يحملونها ضد اولئك الحكام الجبناء المستهترين
 بكل شيء ، وربما نستشف من ذلك ان كثيرا من الشعر الذي يكشف عن
 مثل تلك الثروة قد وُثِدَ ساعة مولده ، كما وُثِدَت اسماء كثير من الشعراء
 فاصبحنا نجد كثيرا من الشعر - وبخاصة في الاندلس - يروى لمجاهيل
 ويقول المجهول في رثاء الاندلس :

اضعنا حقوق الرب حتى اضعنا	وفضت عرى الاسلام الايسرها
وملتنا لم نعرف الدهر عرفها	من النكر فانظر كيف كان نكرها
بما قد كسبنا نالنا ما انا لنا	كذ السيرة السواى لذي من يسرها
بشقوتنا الخذلان صاحب جمعنا	وهونا باحوال ذميم حضورها
بعصياننا استولى علينا عدونا	وعاشت بنا اسد العدا ونمرها

والشاعر هنا في لحظة يأس والم وتفكير عميق في المصير الذي آلت
اليه الاندلس، حيث اضحت بلاد كفر وضلال . فتقفز الى ذهنه جملة
من الاسباب التي ادت الى ذلك، ولكنه يرى في ندم واسف ان العصيان
والتفريط في حقوق الله، هو الجامع لها كلها، فتقصر الحاكم فسي
واجبه، وخيانتة للامة مواضعة لحقوق الله، وفساد الرعية ومجرمها
للطريق القويم هو تفريط وغفلة ايضا . وهذا، وذاك هما السبب فسي
حدوث الهزيمة والشقاء .

وارجع بعض الشعراء سبب الكوارث الى القضاء والقدر، كقول
الاعمى :

كأن لم تكن بغداد احسن منظرا وملهى رآته عين لاه وناظر
بلى هكذا كانت فاذهب حسناتها وبدد منها الشمل حكم المقادر

والاوتارى في دمشق حين التتار :

حرقوها وخربوها وبادت بقضاء الاله رب العباد

وابن العديم في حلب :

ولكنما لله في ذا مشيئة فيفعل فينا مايشاء ويحكم

وابن عميرة في بلنسية :

وفرقهم ايدى سبا واصابهم على غرة منهم قضاء مقدر

ولعل لجوء الشعراء في كثير من الاحيان الى ذكر نفوذ القضاء
وقوة القدر، راجع لرغبتهم في الهروب من ذكر الاسباب المادية التي
ادت الى الحادث الاليم، كالتقصر والنزاع والخيانة وما الى ذلك . كما ان
ذكر القدر يوحي بالعجز التام والتسليم المطلق لامر الله، فيعزى الشاعر
نفسه بذلك، ويخفف وقع الالم على نفوس السامعين حين يدركون ان الامر
خارج عن طاقتهم .

وأما من ناحية تأثير علم التاريخ في الشعر فربما يكون أقل من تأثير الشعر فيه، لأنه تأثير غير مباشر، أي لا يمس جوهر فكرة الرثاء مثلاً ولكنه موجود على كل حال. فدراسة ظروف العصر السياسية والاجتماعية تساعد كثيراً على فهم الجو العام الذي كان الشاعر يعيشه عند النظم وبالتالي يمكن تحليل ما يرمى إليه من إشارات وإيحاءات.

هذا وهناك جملة من النتائج التي حققها هذا البحث يمكن
للقارئ ان يتبينها من خلال مطالعته لفصول الرسالة، وسأثبت هنا
أهمها :

ففى العصر الجاهلى وجدت لدينا قصائد فى رثاء الاثار الدارسة كحصون الحميريين والتابعة فى اليمن وقصور الاكاسرة والمناذرة فى الحيرة ، كما وجدت طائفة كبيرة من القصائد الجاهلية ترثى الممالك والامم التى هلكت فى غابر الدهر ، ولكن هذه الاشعار - فى الغالب - تقصد الى اظهار تجربة الشاعر وحكمته ، وتجرى مجرى العظة والعبرة فى غير عاطفة حية مشبوبة ، لان العربى فى جاهليته لم يعرف سكونى الحواضر والمدن ، واذا لم بها فى اسفاره فعلى عجل ، الامر الذى جعل وقوفه بالاطلال وبگاه على المراجع والدمن ، والرسم اصدق من رثائه ذاك .

ثم توصل البحث الى ان ايوان كسرى ظل رمزا للعظمة الزائلة عبر عصور الادب العربى الطويلة ، وكان الوقوف عليه وبگاهه يتخذ تعلية من قبل الشعراء لرثاء اقوامهم الهالكين فى مجال لا يمكن به التصريح كفضل آدم بن عبدالعزيز الذى كان فى الحقيقة يرثى قومه الامويين وهو فى دولة اعدائهم العباسيين ، والبحترى الذى كان يبكى المتوكل القليل وهو يعيش تحت حكم قاتله . ومن المحتمل جدا ان قصيدتيهما قد تأثرت لاحقتهم بالسابقة وتأثرتا بسينيتى ابى عدى العبلى وابى العباس الاعمى فى رثاء دولة بنى امية .

واذا ما تقدمنا قليلا الى الامام فى العصر العباسى حيث برزت مدرسة الصنعة البيانية فى الشعر واصبحت هى علامة الجودة القصيدة اورداءتها ، وجدنا ان هذا الاسلوب ايضا يفرض نفسه على شعر الرثاء فقد مرت بنا قصائد فى رثاء بغداد والشام حين دمرهما المغول ، مثقلة بالسجع والزخارف اللفظية والمعنوية بحيث ادت الى طمس صوت العاطفة فيها وتخفيف حدة الانفعال . فحكمنا على شعرائها - من منظور عصرنا - بالتكلف ، وقد لا يكونون كذلك ، لانهم محكومون بنمط معين ، وليس بمقدور كل شاعر ان يخرج عن طوره وان يسبق عصره .

وتبعاً لثقافة الشعراء وتفاوت قدراتهم ، ومدى تحررهم أو اتباعهم فقد تباينت طرق رثائهم فمنهم من سلك الطريقة التقليدية ، فوقف بالمدن والعواصم وقوفه بالاطلال الدائرة فاستوقف الركب ، وخاطب الرفيق ، ودعا بالسقيا ثم انتقل الى الفرض الاصلى فركز على ابراز مافي صدره من آلام ، واحزان لفراق الاحبة وهجر الديار . ومنهم من يكن ثائر المشاعر مضطرب النفس لشدة وقع الحدث ، فيفتح القصيدة بالرثاء والتفجع ، ويرفع صوته بالاهات مباشرة ، ثم يأخذ في رسم صورة حية لمشاهد الدمار والخراب ، وينطلق محللاً نفسيات الناس المشردين والذاهلين كما يحس ويرى . وبعضهم يبدأ القصيدة بداية هادئة رزينة مذكراً بقضاء الله وقدره الذي لا راد له ، او مشيراً الى احاطة الموت بكل ما هو حي وما الى ذلك ، وقد اتبع بعضهم طريقة ابرز فيها ثقافته التاريخية فساق في قصيدته مصائر عظماء الاقوام منذ القدم وكيف فنوا وكان لم يكونوا شيئاً ، ولا ينسى ابراد العبرة والعظة ويكر من ذكر الايات القرآنية والاحاديث النبوية التي تدعم مايقول .

واذا ما انتقلنا الى الاندلس نجد ان حرب النصارى ضد المسلمين كانت تتخذ الطابع الدينى الصليبي ، ولهذا ظلت المعارك مشتعلة على مدى قرون طويلة الى ان انتهت بالفاجعة العظمى ، حيث سقطت الاندلس كلها نهائياً بيد النصارى ، وتركها المسلمون الى غير رجعة . وقد واكب الشعر الرثائي هذه الحرب في مسيرتها الطويلة الشاقة ، فوقف الشعراء عند كل مدينة وامارة تدمر او تسقط بيد الاعداء باكين لعالمها ، وواصفين فجائع شعبها المسلم بمقدساته ومعالمه وشعائره فنسمع صراخ المساجد يعطو مع ارتفاع الصلبان فوق مآذنها ، ونشاهد بكاء المنابر ونفر المحاربين من اصوات النواقيس التي ارغمت على احتضانها وهذه الروح الاسلامية طبعت شعر رثاء المدن والممالك في الاندلس بطابع من صدق الشعور وحرارة العاطفة ، واكسبته شهرة جعلت الكثيرين يقصرون هذا اللحن الادبى على اهل تلك الجزيرة وينسبونه اليها . .

على ان جهد شعراء الاندلس لم يقتصر على المشاركة الوجدانية
فحسب وانما تعدى ذلك الى المشاركة الفعالة، فاحدثوا غرضاً شعرياً
جديداً هو الاستصراخ والحث على الجهاد لانقاذ البلاد والعباد من
خطر النصارى المحدثين، فعبروا البحر مرات كثيرة الى مراكش حيث
الموحدين، ثم بنو مرين من بعدهم، والى تونس حيث بنو حفص وغيرهم
وفى معظم رحلاتهم كانوا سفراء صدق يؤثرون فيمن يخاطبهم، فيعودون
ويرفقتهم الجيوش الجارية المجاهدة، والمهن الكيرة والاسلحة . .

وفى باب الدراسة التفصيلية لخصائص شعر رثاء الدول والامصار
وظواهره، توصلت الى اثبات وجود شعر رثائي غزير فى المشرق يشارك
شعر الاندلس فى حرارة العواطف وصدق الوطنية، وقد عصت الاقوال
التي كانت تنكر وجود مثل هذا الشعر او التي كانت ترميه بالضعف
والجمود عند العظة والعبرة مع ضعف العاطفة وانعدام صدقها وبينت
خطأها واجحافها، واستنتجت ان سبب تلك الاقوال المجحفة ربما
يعود الى تشتت هذا الشعر فى بطن كتب التاريخ ومعاجم البلدان
وان القصائد المشهورة منه تعد فى حكم النادر بالاضافة الى عدم اعتناء
كتب الادب به كما يجب .

كما توصلت - ايضاً الى ان القول بسبق الاندلس فى ابتداء هذا
اللون من الشعر ثم انتقاله بعد ذلك الى المشرق تقليداً واتباعاً ليس
بسديد، وان عملية التأثر والتأثير بشكل واسع لا تنطبق عليه، لانه فيض
عاطفة انسانية ومعانيه تكاد تتشابه ويشارك فيها الجميع، ودواعيه
متوفرة فى كل البلاد .

ومن الملاحظات الهامة كثرة تردد محور الشعر ذات التفاهيل
الكيرة - كالطويل والبسيط - فى شعر الرثاء وذلك لملائمتها واتساعها
لزفات الشعراء وآهاتهم المتوالية، التي يقذفها مرجل الانفعال على
السننهم بشكل مستمر، ومع هذا النوع من البحر نلاحظ كثرة القوافى
المطلقة والمحركة بالكسر وذلك لانها تساعد على مد الصوت بالأنفاس

والعويل او بالصراخ الغاضب المستنجد ، كما تبين من شواهد هذا البحث
ضعف القول بان الشاعر لا ينظم عند الانفعال الحاد الا ابياتا قليلة ومن
بحر قليل التفاعيل .

وهناك ظاهرة اخرى لها انتشار واسع عند شعراء الرثاء ، ذلك هي
ظاهرة التكرار وذلك لما له من دور في مساعدة الشاعر على تفريغ ما يحمل
من شحنات الالم تدريجيا حتى تسكن نفسه ، كما يستخدم في ابراز ضخامة
النكبة حين يظهر الاطراف والاجزاء المتناثرة في صورة مجتمعة . كما
لا ننسى عمله في تقوية موسيقى القصيدة عن طريق وقع الجرس الناتج عن
تكرار الحروف والالفاظ .

واثبت البحث - ايضا - واقعية شعر الرثاء وابتعاده عن شطحيات
الخيال ، لان الشاعر يتحدث ويصف امورا يشاهد ها امامه ، وتجارب
يعيشها بروحه واحساسه ، اما من ناحية المبالغة ، فالشاعر لا يقصد بها
وانما تأتي تبعاً لتصوره ورويته للاشياء على نحو لا يدركه الناس العاديين .
واما ما نلمسه من اسباب غير حقيقية يورد ها الشعراء للنكبات
والحوادث فان سببها سياسة القمع والتنكيل بالمعارضين التي كان
الحكام الخونة الجبناء ينتهجونها . وهكذا دائما عند ما يكون الحاكم
او الامير خوارا رعديدا مع الاعداء ، تجده يستأسد على الرعية فيقتل
ويسفك الدماء ويكبت الحريات وما الى ذلك ، وهذا ما دعى شعراء رثاء
الدول والامصار الى اللجوء الى ذكر العين والحسد ، والقضاء والقدر
والمعاصي وغيرها على انها اسباب كل ما يقع من كوارث ومحن .

ثبت المصادر والمراجع

أولا : المصادر المخطوطة :

- ابن الأبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعى .
١ - ديوانه ، مخطوط بالخزانة الملكية بالرباط رقم
٤٦٠٢ .
- ابن بدرون : أبو القاسم عبد الطك بن عبد الله الشلبى .
٢ - شرح قصيدة ابن عبدون (البسامه) مخطوط بمركز
البحث العلمى بجامعة أم القرى برقم ٢٨١ أدب .
- ابن خير المواقينى : محمد بن ابراهيم الاشبيلى .
٣ - ربحان الألباب وريحان الشباب فى مراتب الآداب . مخطوط
بالخزانة الملكية بالرباط برقم ٢٦٤٧ .
- ابن الشعنار الموصلى : أبو البركات مبارك بن أبى بكر .
٤ - عقود الجمان فى شعراء هذا الزمان ، مخطوط بمركز
البحث العلمى بجامعة أم القرى برقم ٣٥٤ تراجم .

ثانيا : المصادر المطبوعة :

- ٥ - القرآن الكريم .
- ابن الأبار القضاعى .
- ٦ - التكلمه لكتاب الصله ، نشر عزت العطار ، ط القاهرة
١٩٥٦ م .
- ٧ - الحلة السيرا ، تحقيق حسين مؤنس ، ط القاهرة ١٩٦٣ م .
- ٨ - المعجم فى أصحاب الصدفى ، ط مدريد ١٨٥٨ م .

- ابن أبي دينار : أبو عبد الله أحمد بن أبي القاسم الرعيني .
٩ - المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس ، تحقيق محمد شمس ،
ط تونس ١٩٦٧ م .
- ابن أبي زرع : ١٠ - الأنيس المطرب بروح القوطاس ، ط الرباط ١٩٧٣ م .
ابن الأثير : عز الدين طي بن محمد الشيبانسي .
١١ - الكامل في التاريخ ، ط بيروت ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .
١٢ - اللباب في تهذيب الأنساب ، ط بيروت ، د . ت .
- ابن الأثير : المبارك بن محمد الجزري .
١٣ - النهاية في غريب الحديث ، تحقيق الزاوي والطناحي ،
ط القاهرة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م .
- ابن الأحمر : أبو الوليد اسماعيل بن يوسف النصري .
١٤ - نثر الجمان في من نظمى وآياه الزمان ، تحقيق
رضوان الدايه ، ط دمشق ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .
- الأدريسي : أبو عبد الله بن إدريس .
١٥ - نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ط ليدن ١٨٦٤ م .
- الأزدى : أبو زكريا يزنيد بن محمد .
١٦ - تاريخ الموصل ، تحقيق علي حبييه ، ط القاهرة
١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .
- الأصفهاني : حسين بن محمد الراغب .
١٧ - محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء ، ط بيروت ١٩٦١ م .
- الأصفهاني : أبو الفرج علي بن الحسين .
١٨ - الأفاني ، مصوره عن طبعة دار الكتب المصرية .

الأصفهاني : أبو عبد الله محمد بن حامد العماد الكاتب .

١٩ - خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء الشام ، تحقيق شكسرى

فيصل ط دمشق ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م ، وقسم شعراء المغرب والأندلس

تحقيق أنرتاش آذرنوش والعروسي المطوى ومحمد المرزوقسي ، ط

تونس ١٩٧١ - ١٩٧٣ م .

الأعشى : ميمون بن قيس .

٢٠ - ديوانه ، ط بيروت ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م .

أمرؤ القيس :

٢١ - ديوانه ، تحقيق أبي الفضل إبراهيم ، ط القاهرة ١٩٦٩ م .

ابن إياس : محمد بن أحمد .

٢٢ - بدائع الزهور ووقائع الدهور ، ط القاهرة ١٩٥١ م .

البحري : الوليد بن عبيد الطائي .

٢٣ - الحطاسه ، ط القاهرة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م .

٢٤ - ديوانه ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، ط القاهرة ١٩٧٢ م .

البخاري : محمد بن اسماعيل .

٢٥ - صحيح البخاري ، ط القاهرة ١٣٧٦ هـ .

ابن بسام : أبو الحسن علي الشنتري .

٢٦ - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق احسان عباس ، ط بيروت

١٩٧٦ - ١٩٧٩ م .

ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك .

٢٧ - الصله ، ط القاهرة ١٩٦٦ م .

البغدادي : أحمد بن علي (الخطيب) .

- ٢٨ - تاريخ بغداد ، ط بيروت د . ت .
البكري : أبو عبيد الأنبي .
٢٩ - سطح الأكل ، ط القاهرة ١٣٥٤ هـ - ١٩٣١ م .
البكري : عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي .
٣٠ - معجم ما استعجم ، تحقيق مصطفى السقا ، ط القاهرة ١٣٦٤ هـ -
١٩٤٥ م .
٣١ - المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب ، ط باريس ١٩١١ م .
البلاذري : أحمد بن يحيى .
٣٢ - فتوح البلدان ، تحقيق رضوان محمد رضوان ، ط القاهرة —
١٣٥٠ هـ - ١٩٧٢ م .
البهاء زهير : أبو الفضل زهير بن محمد المهلب .
٣٣ - ديوانه ، ط بيروت ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م .
البيهقي : إبراهيم بن محمد .
٣٤ - المحاسن والمساوي ، ط بيروت ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م .
البلسوي : أبو محمد عبد الله .
٣٥ - سيرة ابن طولون ، تحقيق محمد كرد علي ، ط دمشق ١٣٥٨ هـ .
ابن تغري بردي : أبو المحاسن يوسف .
٣٦ - المنهل الصافي ، تحقيق أحمد يوسف نجاتي ، ط القاهرة ١٣٧٥ هـ -
١٩٥٦ م .
٣٧ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ط المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والنشر ١٩٦٣ م .
أبو تمام : حبيب بن أوس الطائي .

٣٨ - ديوانه ، شرح الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد عبده عسزام ، ط

القاهرة ١٩٦٤ م .

الثعالبي : أبو منصور عبد الملك بن محمد النيسابوري .

٣٩ - ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، تحقيق أبي الفضل إبراهيم ،

ط القاهرة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م .

الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر الكناني .

٤٠ - البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط القاهرة ١٣٩٥ هـ .

٤١ - رسائل الجاحظ ، " " " ، ط القاهرة ١٩٦٥ م .

ابن جبير : أبو الحسن محمد بن أحمد الكناي الأندلسي .

٤٢ - رحلة ابن جبير ، ط ليدن ١٩٠٢ م .

الجراح : أبو عبد الله محمد بن داود .

٤٣ - الموقه ، تحقيق عبد الوهاب عزام وعبد الستار أحمد فراج ، ط القاهرة

١٩٥٣ م .

ابن الجوزي : عبد الرحمن بن طس .

٤٤ - المنتظم في تاريخ الطوك والألم ، ط حيدر آباد ١٣٥٨ هـ .

الجوهري : اسماعيل بن حماد .

٤٥ - الصحاح ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، ط القاهرة ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦ م .

حسان بن ثابت الأنصاري .

٤٦ - ديوانه ، تحقيق وليد عرفات ، ط بيروت ١٩٧٤ م .

ابن حزم : أبو محمد طس بن أحمد الأندلسي .

٤٧ - جمهرة أنساب العرب ، ط القاهرة ١٩٦٢ م .

الحموي : أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي .

- ٤٨ - معجم الأدباء ، ط القاهرة ١٢٢٧ م بعناية المستشرق مرجليوث .
- ٤٩ - معجم البلدان ، ط بيروت ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م .
- الحميدى : أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الأزدي .
- ٥٠ - جذوة المقتبس ، ط القاهرة ١٩٦٦ م .
- الحميري : محمد بن عبد المنعم .
- ٥١ - الروي المحطاف في خبر الأقطار ، تحقيق احسان عباس ، ط بيروت ١٩٧٥ م .
- ٥٢ - صفة جزيرة العرب ، تحقيق بروقنيسال ، ط القاهرة ١٩٣٧ م .
- الحنبللى : أبو الفلاح عبد الحى بن الحسان .
- ٥٣ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ط بيروت د . ت .
- أبو حيان : محمد بن يوسف الغرناطى .
- ٥٤ - تفسيره المسمى بالبحر المحيط ، ط دار الشعب بالقاهرة د . ت .
- ابن خاتمه : أحمد بن علي الأنصارى .
- ٥٥ - ديوانه ، تحقيق محمد رضوان الدايم ، ط دمشق ١٣٦٢ هـ - ١٩٧٢ م .
- ابن خاقان : الفتح بن محمد بن عبد الله القيسى .
- ٥٦ - قلائد الحقيان . نشر المكتبة العتيقيه بتونس . د . ت . بعناية محمد المناهى .
- ٥٧ - مطمح الأنفس وصبح التأنس في طح أهل الأندلس ، ط القاهرة .
- ١٣٢٥ هـ .
- الخريص : أبو يعقوب اسحاق بن قوهى .
- ٥٨ - ديوانه ، تحقيق جواد الطاهر ومحمد المعيسى ، ط بيروت ١٩٧١ م .
- ابن الخطيب : أبو عبد الله محمد السلماسى ، لسان الدين .
- ٥٩ - الاحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، ط القاهرة .
- ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .

- ٦٠ - أعمال الأعلام ، تحقيق أحمد مختار العبادي ، ط الدار البيضاء ،
١٩٦٤ م .
- ٦١ - ديوان الصيّب والجهام والماضي والكهام ، تحقيق محمد الشريف
قاهر ، ط الجزائر ١٩٧٣ م .
- ٦٢ - الكتيبة الكامنه في من لقيناه بالاندلس من المائه الثامنائه ،
تحقيق احسان عباس ، ط بيروت ١٩٦٣ م .
- ٦٣ - اللحنه البدرية في الدوله النصرية ، ط بيروت ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .
- ٦٤ - نفاضة الجراب في غلالة الاغتراب ، تحقيق أحمد مختار العبادي -
عهد العزيز الأهواني ط القاهرة د . ت .
- ابن خلدون : عهد الرحمن بن طو .
- ٦٥ - تاريخه المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ط القاهرة
١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م .
- ابن خفاجه أبو اسحاق ابراهيم الأندلسي .
- ٦٦ - ديوانه ، تحقيق مصطفى غاري ، ط الاسكندرية ١٩٦٠ م .
- ابن خلكان : شمس الدين أحمد بن محمد .
- ٦٧ - وفيات الأعيان ، ط بيروت ١٩٧٢ م .
- ابن الدباغ : عهد الرحمن بن محمد الأنصاري .
- ٦٨ - معالم الأيمان في معرفة أهل القيروان ، ط تونس ١٩٢٠ م .
- ابن دحيه : عمر بن الحسن بن طو .
- ٦٩ - المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق مصطفى الابياري وحامد
عهد المجيد ، ط القاهرة ١٩٥٥ م .
- ابن رسته : أحمد بن عمر .
- ٧٠ - الأطلاق النفيسة ، ط لندن ١٨٩١ م .

- ابن رشيق : أبو طى الحسن بن رشيق القيروانى .
٧١ - ديوانه ، جمعه عبد الرحمن يافى ، ط بيروت د - ت .
٧٢ - الحمد فى نقد الشعر ، تحقيق محى الدين عبد الحميد ، ط بيروت
١٩٧٢ م .

- ابن الرومى : طى بن العباس بن جريج .
٧٣ - ديوانه اختيار وتصنيف كامل كيلانى ، ط القاهرة د - ت .
الزبيدى : محمد مرتضى .

- ٧٤ - تاج العروس ، ط بيروت ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م .

- الزمخشري : أبو القاسم محمود بن عسر .

- ٧٥ - أساس البلاغة ، ط القاهرة ١٩٦٠ م .

- ابن الزيات : محمد بن عبد الملك .

- ٧٦ - ديوانه ، تحقيق جميل سعيد ، ط القاهرة د - ت .

- السخاوى : محمد بن عبد الرحمن .

- ٧٧ - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، ط بيروت د - ت .

- ٧٨ - المقاصد الحسنة فى بيان كثير من الأحاديث المشتهرة طى الألسنة ،

- تحقيق محمد عبد الله الصديق ، ط القاهرة ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م .

- ابن سعيد : أبو الحسن طى بن موسى المخزومى .

- ٧٩ - الفصوص اليناعة فى محاسن شعراء المائه السابعة ، تحقيق ابراهيم

- الابيارى ، ط القاهرة ١٩٦٧ م .

- ٨٠ - القدح المعلق فى التاريخ المعلق ، تحقيق الابيارى ، ط القاهرة

- ١٩٥٩ م .

- ٨١ - المغرب فى طى المغرب ، تحقيق شوقى ضيف ، ط القاهرة ١٩٦٤ م .

ابن سلام : محمد بن سلام الجميل .

٨٢ - دليقات فحول الشعراء ، تحقيق معصود شاكر ، ط القاهرة

١٩٧٤ م .

السلوى : أبو العباس أحمد الناصري .

٨٣ - الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق ولدي المؤلف ؛

جعفر ومحمد ، ط الدار البيضاء ١٩٥٤ م .

ابن سهل : إبراهيم الاشبيلي .

٨٤ - ديوانه ، تحقيق احسان عباس ، ط بيروت ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .

السهيلي : عبد الرحمن بن عبد الله الخشعي .

٨٥ - الروض الأنف ، تحقيق عبد الرحمن الوكيل ، ط القاهرة ١٣٨٧ هـ -

١٩٦٧ م .

السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن .

٨٦ - بغية الوعاة ، تحقيق أبي الفضل إبراهيم ، ط القاهرة ١٣٨٤ هـ -

١٩٦٤ م .

٨٧ - تاريخ الخلفاء ، تحقيق محي الدين عبد الحميد ، ط القاهرة

١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م .

الشهاب الخفاجي : أحمد بن محمد بن عسر .

٨٨ - ريجانه الألباء ، تحقيق عبد الفتاح الحلو ، ط القاهرة ١٣٨٦ هـ .

ابن شهيد : أبو عامر أحمد بن عبد الطك .

٨٩ - ديوانه ، تحقيق يعقوب زكي ، محمود مكس ، ط القاهرة .

٩٠ - رسالة التوابيع والزوابيع ، تحقيق بطرس البستاني ، ط بيروت

١٩٤٦ م .

ابن صاحب الصلاه : عبد الطك .

٩١ - تاريخ المن بالامامه على المستضعفين ، تحقيق عبد الهادي

التازي . ط بغداد ١٩٧٩ م .

الصفدي : خليل بن ابيك .

٩٢ - نكت الهيمن في نكت العميان ، ط القاهرة د . ت .

٩٣ - الوافي بالوفيات ، ط أوروبا ١٩٧٤ م بعناية ديدر ينسغ .

صفوان : أبو البحر بن ادريس التجيب .

٩٤ - زاد المسافرين ، تحقيق عبد القادر محداد ، ط بيروت ١٩٣٩ م .

الضبي : أحمد بن يحيى بن عسيرة .

٩٥ - بغية الطميس ، ط مدريد ١٨٨٤ م .

الضبي : أبو العباس الفضل بن محمد .

٩٦ - الفضليات ، تحقيق يعقوب لايل ، ط بيروت ١٩٢٠ م .

الطبري : محمد بن جريس .

٩٧ - تاريخ الأمم والطوك ، تحقيق أبي الفضل ابراهيم ، ط القاهرة

١٩٦٩ م .

الطوطوشي : أبو بكر محمد بن الطيد .

٩٨ - سراج الطوك ، ط الاسكندرية ١٩٨٩ م بعناية أنطون غندود .

ابن الطقطقي : محمد بن علي بن طباطبا .

٩٩ - الفخري في الآداب السلطانية ، ط القاهرة ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م .

ابن عبد ربه : أحمد بن محمد .

١٠٠ - الحقد الفريد ، تحقيق ، محمد سعيد العربيان ، ط القاهرة

١٣٧٢ هـ - ١٩٥٣ م .

عبد الله بن بلقين : الأمير الغرناطسى :-

١٠١ - التبيان أو (مذكرات الأمير عبد الله) ، تحقيق بروقتسال ، ط

القاهرة ١٩٥٥ م .

ابن العبري : غرغور يوسى الططسى :

١٠٢ - تاريخ مختصر الدول ، ط بيروت ١٩٥٨ م بعناية أنطون

اليسوعى .

المجلسون : اسماعيل بن محمد .

١٠٣ - كشف الخفا ومزيل الألباس ، ط حلب - ت بعناية أحمد

القلاش .

ابن عساكر : أبو القاسم على بن الحسن .

١٠٤ - تهذيب تاريخ دمشق الكبير ، هذبه عبد القادر بدران ، ط -

بيروت ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٩ م .

العسقلانى : أحمد بن طلس .

١٠٥ - الدرر الكامنة ، تحقيق محمد جاد المولى ، ط القاهرة

١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م .

١٠٦ - الاصابه فى تمييز الصحابه ، ط القاهرة ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م .

العسكرى : أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل .

١٠٧ - ديوان المعاني ، ط القاهرة ١٣٥٢ هـ .

ابن عطية : أبو محمد عبد الحق بن غالب المحاربى .

١٠٨ - فهرس ابن عطية ، تحقيق محمد أبو الألفان ومحمد الزاهى ،

ط بيروت ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

ابن العمرانى : محمد بن على بن محمد .

١٠٩ - الانباء في تاريخ الخلفاء ، تحقيق قاسم السامرائي ، ط ليدن

٠ م ١٩٧٣

عياض : أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي :-

١١٠ - ترتيب المدارك وتقريب المسالك ، تحقيق أحمد بكير محمود

ط ليبيا ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .

الفهرستي : أبو العباس محمد بن أحمد بن عبد الله .

١١١ - عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة

بيجاية ، تحقيق عادل نصيف ، ط بيروت ١٩٦٩ م .

١١٢ - المختصر في أخبار البشر ، ط القسطنطينية ١٢٨٦ هـ .

ابن فرحون : ابراهيم بن طي بن محمد .

١١٣ - الديباج المذهب ، تحقيق محمد الأحمد أبو النور ، ط القاهرة

٠ م ١٩٧٢

ابن الفوضى : أبو الوليد عبد الرحمن بن محمد الأزدي .

١١٤ - تاريخ طماة الأندلس ، ط القاهرة ١٩٦٦ م .

ابن الفوطي : عبد الرزاق بن أحمد الصابوني .

١١٥ - الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ، نشره مصطفى جواد ،

ط بغداد ١٣٥١ هـ .

القالبي : أبو طي اسماعيل بن القاسم البغدادي .

١١٦ - الأمل ، ط القاهرة ١٩٦٦ م - ١٣٤٤ هـ .

ابن قتيبة : أبو عبد الله محمد بن مسلم الدينوري .

١١٧ - الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد شاكر ، ط القاهرة ١٩٦٦ م .

قدامه بن جعفر .

١١٨ - نقد الشعر ، تحقيق كمال مصطفى ، ط القاهرة ١٣٩٨ هـ -

٠ م١٩٧٨

القرشي : أبو زيد محمد بن أبي الخطاب .

١١٩ - جمهرة أشعار العرب ، تحقيق محمد طي الهاشمي ، ط جامعة

الامام محمد بن سعود الاسلاميه ١٤٠١ هـ - م١٩٨١ .

القرطاجني : حازم بن حمد الأنصاري .

١٢٠ - ديوانه ، تحقيق عثمان الكفاك ، ط بيروت ١٩٦٤ م .

١٢١ - قصائد ومقطعات ، تحقيق الحبيب بن الخوجه ، ط بيروت -

٠ م١٩٧٢

١٢٢ - منهج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق الحبيب بن الخوجه ،

ط تونس ١٩٨١ م .

القفطسي : جمال الدين بن أبي الحسن يونس .

١٢٣ - انباه الرواه ، ط القاهرة ١٣٧١ هـ - م١٩٥٢ .

القلقشندي : أبو العباس أحمد بن طي .

١٢٤ - صبح الأعشى في صناعة الانشا ، ط المؤسسة المصرية

للتأليف والترجمة والنشر .

١٢٥ - مآثر الاناقه في محالم الخلافه ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج

، ط الكويت ١٩٦٤ م .

ابن القلانسي : أبو يعلى حمزه .

١٢٦ - ذيل تاريخ دمشق ، ط بيروت ١٩٠٨ م .

الكتانسي : عبد الحى بن عبد الكريم .

١٢٧ - فهرس الفهارس ، ط بيروت ١٤٠٢ هـ - م١٩٨٢ بعناية

احسان عباس .

الكتبي : محمد بن شاكر .

١٢٨ - فوات الوفيات ، تحقيق عباس ، ط بيروت ١٩٧٤ م وتحقيق

محيى الدين عبد الحميد ، ط القاهرة ١٩٥١ م .

ابن كثير : أبو الفداء إسماعيل بن عمر .

١٢٩ - البدايه والنهايه ، ط بيروت ١٩٦٦ م .

ابن الكردبوس : أبو مروان عبد الملك .

١٣٠ - تاريخ الأندلس ، نشره مختار العبادي بصحيفة معهد الدراسات

الإسلاميه بمديره مسج ١٣ سنة ١٩٦٥ م - ١٩٦٦ م .

المسبرد : أبو العباس محمد بن يزيد .

١٣١ - التعارض والمراض ، تحقيق محمد الديباجي ، ط دمشق

١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م .

١٣٢ - الكامل في اللغة والأدب ، تحقيق أبي الفضل إبراهيم ، ط القاهرة

مجهول :-

١٣٣ - أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر ، ط جوتنجن ١٨٦٣ م ،

بعناية المستشرق ميللر .

مجهول :-

١٣٤ - الحلل الموشيه في ذكر الأخبار المراكشيه ، تحقيق سهيل زكار

وعبد القادر زمامه ، ط الدار البيضاء ١٣٩٩ هـ .

مجهول :-

١٣٥ - الذخير السنية في تاريخ الدوله المرينييه ، ط الجزائر

١٩٢٠ م ، تحقيق محمد بن أبي شنب .

المراكشي : أحمد بن محمد بن عذاري .

- ١٣٦ - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق بروفسال ،
ط بيروت ١٩٦٧ م .
- المراكشي : أبو عبد الله محمد بن عبد الطاك الأنصاري .
- ١٣٧ - الذيل والتكملة ، تحقيق احسان عباس ، ط بيروت ١٩٦٥ م .
- المراكشي : عبد الواحد بن علي .
- ١٣٨ - المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق سعيد العربيان ،
ط القاهرة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م .
- المرتضى : علي بن الحسين العلوي .
- ١٣٩ - أمالي المرتضى ، تحقيق أبي الفضل ابراهيم ، ط بيروت ١٩٦٧ م .
- المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين .
- ١٤٠ - مروج الذهب ، تحقيق محيي الدين عبد الحميد ، ط بيروت ١٩٧٣ م .
- ابن المعتز : عبد الله بن المعتز بن المتوكل العباسي .
- ١٤١ - ديوانه ، ط بيروت ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م .
- ١٤٢ - طبقات الشعراء ، ط القاهرة ١٩٦٨ م .
- المقدسي : شهاب الدين بن محمد المعروف بأبي شامة .
- ١٤٣ - الروضتين في أخبار الدولتين ، ط بيروت ١٩٦٤ م .
- المقدسي : مطهر بن طاهر .
- ١٤٤ - البد' والتاريخ ، نشره كلمان هوار ، ط باريس ١٨٩٩ م .
- المقرئ : أحمد بن محمد التلمساني .
- ١٤٥ - أزهار الرياض في أخبار عباس ، تحقيق الابيارى والسقيا
و شلبي ، ط القاهرة ١٣٥٨ هـ .
- ١٤٦ - نفح الطيب ، تحقيق احسان عباس ، ط بيروت ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .

المقرئى : أبو العباس تقى الدين أحمد بن طو .

١٤٧ - اتعاظ الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفاء ، تحقيق محمد

حلى أحمد ، ط القاهرة ١٣٦٣هـ - ١٩٧٣م .

١٤٨ - الخطط المقرئية ، ط القاهرة ١٣٢٤هـ .

١٤٩ - السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق سعيد عاشور ، ط القاهرة

١٩٧٢م .

المكاسى : أبو العباس أحمد بن محمد .

١٥٠ - جذوة الاقتباس فى ذكر من حلّ من الاعلام مدينة فاس ، ط الرباط

١٩٧٣م .

١٥١ - درة الحجال فى أسماء الرجال ، تحقيق محمد الأحمدي أبو

النور ، ط تونس ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م .

مالك بن أنس : اسام دار الهجرة .

١٥٢ - الموطأ ، ط القاهرة ، ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م .

ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم .

١٥٣ - لسان العرب ، ط بيروت ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م .

ابن منقذ : أبو المظفر أسامه بن مرشد الكنانى .

١٥٤ - الاعتبار ، ط جامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية

١٩٣٠م ، بعناية فليب حى .

١٥٥ - ديوانه ، تحقيق أحمد بدوى وحامد عبد المجيد ، ط القاهرة

١٩٥٣م .

١٥٦ - المنازل والديار ، تحقيق مصطفى حجازى ، ط القاهرة ١٣٨٥هـ

- ١٩٦٥م .

الموسسوى : محمد باقر الأصهبانسى .

١٥٧ - روضات الجنات ، تحقيق أسد الله اسماعيليان ط . طهران

١٣٩٢ هـ .

الحيدانسى : أبو الفضل أحمد بن محمد بن ابراهيم النيسابورى .

١٥٨ - مجمع الأمثال ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ، ط القاهرة

١٣٧٩ هـ .

ابن النديم : أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب الوراق .

١٥٩ - الفهرست ط طهران ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م .

أبونواس : الحسن بن هانئ .

١٦٠ - ديوانه ، تحقيق أحمد عبد الحميد الخزال . ط بيروت .

ابن هشام : أبو محمد عبد الطك .

١٦١ - السيرة النبوية ، تحقيق السقا والابيارى وشلبى . ط القاهرة

١٩٥٥ .

الهمذانى : رشيد الدين .

١٦٢ - جامع التواريخ (تاريخ المفلول) ، تحرير عبد المحطى الصبياد

وآخرون ، ط القاهرة د . ت .

ابن واصل : أبو عبد الله محمد بن سالم المازنى .

١٦٣ - مفرد الكروب فى أخبار بني أيوب ، تحقيق جمال الدين

الشبال ، ط القاهرة ١٩٦٠ م .

الونشريسى : أبو العباس محمد بن يحيى .

١٦٤ - أسنى المتأجر فى بيان من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ،

نشره حسين مؤنس بصحيفة معهد الدراسات الاسلاميه - مدريد

١٩٥٧ م .

اليافعى : أبوصد الله بن أسعد بن سليمان .

١٦٥ - مرآة الجنات ، ط بيروت ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م .

اليمسنى : صاره بن أبى الحسن الحكسوى .

١٦٦ - أخبار اليمن ، تحقيق محمد بن الأكوع الحوالى ط القاهرة

١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م .

١٦٧ - ديوانه ، تحقيق ذى النون المصرى . ط القاهرة د . ت .

اليونيسى : قطيب الدين موسى بن محمد .

١٦٨ - ذيل مرآة الزمان ، ط الهند ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م .

المراجع للحدیثه :-

ابراهيم أنيس :

١٦٩ - موسيقى الشعر ، ط القاهرة ١٩٧٢ م .

ابراهيم المسدوى :

١٧٠ - العرب والتتار ، ط القاهرة ١٩٦٣ م .

احسان عباس :

١٧١ - فن الشعر ، ط بيروت ١٩٥٥ م .

أحمد أمين :

١٧٢ - ظهرو الاسلام ، ط القاهرة ١٩٦٦ م .

أحمد بدر :

١٧٣ - من كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، ط دمشق ١٩٧٨ م .

أحمد توفيق :

١٧٤ - المسلمون فى جزيرة صقلية ، ط تونس ١٩٦٥ م .

أحمد سوسة :

١٧٥ - رى سامرا* ، ط بغداد ١٩٤٨ م .

أحمد شوقى :

١٧٦ - الشوقيات ، ط القاهرة ١٩٧٠ م .

أحمد بن عامر :

١٧٨ - الدولة الحفصية ، ط تونس ١٩٧٤ م .

آنخل جنثالث بلنشيا :

١٧٩ - تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة حسين مؤنس ، ط القاهرة ١٩٥٥ م .

١٨٠ - الشعر الأندلسى ، ترجمة حسين مؤنس ، ط القاهرة ١٩٦٩ م .

أنور المعداوى :

١٨١ - نماذج فنية من الأدب والنقد .

بطرس البستانى :

١٨٢ - أدباء العرب فى الأندلس وعصر الانبعثات ، ط بيروت ١٩٦٤ م .

جواد طلى :

١٨٣ - الفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، ط بغداد ١٩٧٨ م .

حسن ابراهيم حسن :

١٨٤ - تاريخ الدولة الفاطمية ، ط القاهرة ١٩٥٨ م .

حافظ حمدى :

١٨٥ - الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى ، ط القاهرة ١٩٥٠ م .

ستيفن رنسيمن :

١٨٦ - تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة الباز العرينى ، ط بيروت ١٩٦٧ م .

سعد اسماعيل شلبي :

١٨٧ - ابن حمد بن الصقلي ، ط القاهرة ١٩٧٧ م .

سميد زغول عبد الحميد :

١٨٨ - محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب والأندلس ، ط بيروت

١٩٧٣ م .

سميد عاشور :

١٨٩ - بحوث ودراسات في تاريخ العصر الوسطي ، ط بيروت ١٩٧٧ م .

الحروب الصليبية ، ط القاهرة ١٩٧٨ م .

شوقي أبو خليل :

١٩٠ - معركة الحجاب ، ط دمشق ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

شوقي ضيف :

١٩١ - دراسات في الشعر العربي المعاصر ، ط القاهرة ١٩٧٣ م .

١٩٢ - الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ط القاهرة ١٩٦٠ م .

الطاهر أحمد مكي :

١٩٣ - دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة ، ط القاهرة

١٩٨٠ م .

عبد الرحمن طي الحجي :

١٩٤ - أندلسيات ، ط بيروت ١٣٨٨ هـ ، ١٩٦٦ م .

١٩٥ - التاريخ الأندلسي ، ط دمشق ١٤٠٢ هـ - ١٩٨١ م .

عبد الرحمن ياغي :

١٩٦ - حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها ، ط بيروت ١٩٦١ م .

عز الدين اسماعيل :

١٩٧ - الأسس الجمالية في النقد العربي ، ط القاهرة ١٩٥٥ م .

عبد العزيز سالم :

١٩٨ - تاريخ مدينة المريه الاسلاميه ، ط بيروت ١٩٦٩ م .

١٩٩ - تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ط بيروت ١٩٦٢ م .

٢٠٠ - قوطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، ط بيروت ١٩٧١ م .

عبد العزيز عتيق :

٢٠١ - طم العروش والقافيه ، ط بيروت ١٩٧٤ م .

عبد الكريم التواتي :

٢٠٢ - مأساة انهيار الوجود العربي في الأندلس ، ط الدار البيضاء

١٩٦٧ م .

عبد الكريم خليفه :

٢٠٣ - ابن حزم الأندلسي : حياته وأدبه ، عمان د . ت .

عبد الله علام :

٢٠٤ - الدولة الموحديه في عهد عبد المؤمن بن علي ، ط القاهرة

١٩٧١ م .

عبد الله كسون :

٢٠٥ - ذكريات مشاهير رجال المغرب ، ط بيروت د . ت .

عمر موسى باشا :

٢٠٦ - أدب الدولة المتابعه (عصر الزنكيين والأيوبيين والمماليك)

ط دمشق ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م .

علي الجبارم :

٢٠٧ - قصة العرب في اسبانيا ، ط القاهرة ١٩٦٨ م .

علي محمد حموده :

٢٠٨ - تاريخ الأندلس السياسي والعمراني والاجتماعي ط القاهرة

١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م .

على مصطفى المصراوى :

٢٠٩ - ابن حمديس الصقلي ، ط طرابلس لبنان ١٩٧٢ م .

فليب حق وآخرون :

٢١٠ - تاريخ العرب المطول ، مطابع الغندور ١٩٦٥ م .

فؤاد الصياد :

٢١١ - المغول في التاريخ ، ط القاهرة ١٩٧٥ م .

أبو القاسم كسرو :

٢١٢ - مصر القيروان ، ط تونس ١٩٧٣ م .

محمد ابراهيم حور :

٢١٣ - الحنين الى الوطن في الأدب العربي ، ط القاهرة ١٩٧٣ م .

محمد رجب البيومي :

٢١٤ - الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثير ، ط جامعة الامام محمد

بن سعود الاسلاميه بالرياض ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

محمد رضوان الدايه :

٢١٥ - ابن خفاجه ، ط القاهرة ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .

٢١٦ - تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ، ط دمشق ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .

٢١٧ - مختارات من الشعر الأندلسي ، القاهرة ١٩٧٢ .

محمد زغلول سلام :

٢١٨ - الأدب في العصر الأيوبي ، ط القاهرة ١٩٨٠ م .

محمد صبيح :

٢١٩ - القدس معاركنا الكبرى ، ط القاهرة ١٩٧٠ م .

محمد عبد الله عنان :

٢٢٠ - الآثار الأندلسية الباقية في أسبانيا والبرتغال ، ط القاهرة ١٩٦٦ م .

٢٢١ - تراجم اسلاميه شرقيه وأندلسيه ، ط القاهرة ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م .

٢٢٢ - دول الطوائف ، ط القاهرة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .

٢٢٣ - هنر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، ط القاهرة

١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .

٢٢٤ - لسان الدين ابن الخطيب ، ط القاهرة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .

٢٢٥ - مواقف حاسمه في تاريخ الاسلام ، ط القاهرة ١٩٦٢ - ١٣٨٢ هـ .

٢٢٦ - نهاية الأندلس ، ط القاهرة ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م .

محمد عبد الله حناطه :

٢٢٧ - التنصير القسري لسلطان الأندلس ، ط عمان ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

محمد فريد المحامى :

٢٢٨ - تاريخ الدولة العلوية العثمانية ، ط بيروت ١٣٦٧ هـ - ١٩٧٧ م .

محمد كرد علي :

٢٢٩ - خطط الشام ، ط بيروت ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .

٢٣٠ - رسائل البلغاء ، ط القاهرة ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م .

٢٣١ - غابر الأندلس وحاضرها ط القاهرة ١٩٢٣ م .

محمد كمال الدسوقي :

٢٣٢ - الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ط القاهرة ١٩٧٦ م .

محمد مجيد السعيد :

٢٣٣ - شعرا ابن اللبانه الداني ، ط البصره ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .

٢٣٤ - الشعرفق عهد المرابطين بالأندلس ، ط الكويت ١٩٨٠ م .

محمد محمد مخلوق :

٢٣٥ - شجرة النور الزكية ، ط بيروت ١٣٤٦ هـ .

محمد المرزوق :

- ٢٣٦ - أبو الحسن الحصري القيرواني ، ط تونس ١٩٦٧ م .
محمود الحابدي :
- ٢٣٧ - قدسنا ، ط القاهرة ١٩٧٢ م .
محمود المهجورسي :
- ٢٣٨ - محمد بن عبد الملك صاحب التنوير ، سلسلة أعلام العرب ،
ط الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر .
مخائيل شاروهميم :
- ٢٣٩ - الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث ، ط بولاق ١٣١٥ هـ -
١٨٩٨ م .
مصطفى موسى الكريم :
- ٢٤٠ - الأدب الأندلسي في عهد المرابطين ، ط السودان ١٩٦٨ م .
مصطفى محمد الشكعة :
- ٢٤١ - رحلة الشعر من الأموية الى العباسية ، ط بيروت ١٩٧٩ م .
ول ديورنت :
- ٢٤٢ - قصة الحضارة . ترجمة محمد بدران ، ط القاهرة ١٩٦٤ م .
يوسف أشباح :
- ٢٤٣ - تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة عنسان
ط القاهرة ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م .
يوسف المياس الدبس :
- ٢٤٤ - تاريخ سوريا ، ط بيروت ١٩٠٢ م .
يونيس السامرائي :
- ٢٤٥ - سامرا في أدب القرن الثالث الهجري ، ط بغداد ١٩٦٣ م .

الدوريات :

عبد الرحمن الحجى :

٢٤٦ - (رثاء الأندلس لشاعر مجهول) ، مجلة الرسالة مج ١ سنسنة

١٣٥٤هـ - ١٩٣٦م .

عبد الله كئون :

٢٤٧ - (أبو البقاء الرندى وكتابه الوافى فى نظم القوافى) ،

صحيفة معهد الدراسات الاسلاميه بحمدريد ١٩٥٨م - ١٣٧٨هـ .

ليلى بروفنسال :

٢٤٨ - (السيد القمبيطور) دائرة المعارف الاسلاميه (مسادة

السيد) ج ١٢ .

مهدي عالم .

٢٤٩ - (مقصورة حازم) ، حليات كلية آداب عين شمس سنة ١٩٥٣م (م) .

الفهرست

<u>الموضوع</u>	<u>المفصل</u>
المقدمة	١ - ١٦ .
التمهيد : الأوطان ومكانتها في نفوس الشعراء .	١٦ - ٤٠ .
الباب الأول :	
رثاء الدول والأصناف في المشرق	٤٠ - ١٨٦ .
الفصل الأول : رثاء الدول والأصناف في العصر	
الجاهلي .	٤١ - ٥١ .
الفصل الثاني : رثاء الدولة الأموية	٥١ - ٦٤ .
الفصل الثالث : رثاء الدول والأصناف حتى عصر	
السلجوقي .	٦٤ - ١٥٨ .
المبحث الأول : الثورات والفتن الداخلية في الدولة	
العباسية :-	
* فتنة الأمين والمأمون وقد مير بنسداد .	٦٤ - ٨١ .
* الثورة على المتوكل وهدم قصره الجعفرى .	٨١ - ٨٦ .
* الوقوف على ايوان كسرى .	٨٦ - ٩٥ .
* رثاء البصرة عندما دمرت في ثورة الزنج	٩٥ - ١١٤ .
* ما قيل من الشعر في رثاء المواسم بمسند	
انتقال الخلافة عنها .	١١٥ - ١٢٠ .
المبحث الثاني : رثاء الدولة الطولونية والفاطمية	١٢٠ - ١٤٠ .
خراب المدن بالحوادث الطبيعية	
وما قيل في ذلك من الشعر .	١٤٠ - ١٤٤ .

المبحث الثالث : الشعر يرثى سقوط بيت المقدس

- ١٤٥ - ١٥٧ • بيد الصليبيين

الفصل الرابع : تدمير بغداد والشام على يد

- ١٥٨ - ١٨٥ • التتار ورثاء الشعراء لهما

الباب الثاني :

- ١٨٦ - ٤٥٤ • الشعر العربي ورثاء الأندلس والمغرب

- ١٨٧ - ١٩٠ • توطئته

- ١٩١ - ٢٨٦ • الفصل الأول : رثاء المدن

- ١٩١ - ٢٠٣ • الفتنة البربرية وتدمير قرطبة

- ٢٠٤ - ٢٠٦ • مصر الطوائف هداية السقوط

- ٢٠٦ - ٢١٢ • رثاء برشستر

- ٢١٢ - ٢٢٦ • رثاء طليطلة

- ٢٢٧ - ٢٤٨ • رثاء بلنسية

- ٢٤٩ - ٢٥٤ • رثاء اشبيلية

- ٢٥٤ - ٢٥٥ • رثاء سبيل

- ٢٥٥ - ٢٨٦ • رثاء صقلية ومدن المغرب

- ٢٥٥ - ٢٦٣ • رثاء جزيرة صقلية

- ٢٦٤ - ٢٨٢ • رثاء القيروان

- ٢٨٢ - ٢٨٦ • رثاء مراکش

الفصل الثاني : شعر الاستغاثة والحث

- ٢٨٧ - ٣٥٩ • على الجهاد

<u>الموضوع</u>	<u>الصفحة</u>
الفصل الثالث : رثاء الامارات الأندلسية :	٣٦٠ - ٤١٦ .
رثاء امارة مريبطسر .	٣٦٠ - ٣٦٣ .
رثاء امارة بنى مباد	٣٦٣ - ٣٩٨ .
رثاء امارة بنى الأفطس	٣٩٨ - ٤١٠ .
رثاء امارة بنى صمادح	٤١١ - ٤١٦ .
الفصل الرابع : رثاء الأندلس عامه	٤١٧ - ٤٥٤ .
الباب الثالث : دراسة تفصيلية لشعر	
رثاء الدول والأصهار	٤٥٥ - ٥٥١ .
الفصل الأول : رثاء الدول والأصهار بين التأثير	
والتأثير .	٤٥٦ - ٤٦٥ .
الفصل الخامس : دراسة شكل قصيدة الرثاء	٤٦٦ - ٥١٨ .
المبحث الأول : مقدمات القصائد	٤٦٦ - ٤٧٥ .
المبحث الثاني : الألفاظ	٤٧٥ - ٤٩٠ .
المبحث الثالث : الأوزان والقوافي	٤٩١ - ٤٩٩ .
المبحث الرابع : الاقتباس والتضمين	٥٠٠ - ٥١٨ .
الفصل الثالث : دراسة مضمون قصيدة الرثاء	٥١٩ - ٥٥١ .
المبحث الأول : الواقعية	٥١٩ - ٥٢٩ .
المبحث الثاني : التكرار	٥٣٠ - ٥٣٧ .
المبحث الثالث : الجماعية	٥٣٨ - ٥٤٥ .
المبحث الرابع : أسباب النكبات	٥٤٦ - ٥٥١ .
الخاتمة :	٥٥٢ - ٥٥٦ .
ثبت المصادر والمراجع	٥٥٩ - ٥٨٣ .
الفهرست	٥٨٤ - ٥٨٦ .